ثلاثية



نجيب محفوظ



بين القصرين

دار القلم
بيروت - لبنان

 MAHFOUD NAJIB

BAYN EL KASRINE

ENTRE DEUX PALAIS



الطبعة الاولى
شباط ـ فبراير ـ ١٩٧٣

نجيب محفوظ

بين القصرين

دار القلم
بيروت - لبنان

بيروت ــ لبنان
ص.ب : ٣٨٧٤

عند منتصف الليل استيقظت ، كما اعتادت ان تستيقظ في هذا الوقت من كل ليلة بلا استعانة من منبه أو غيره ، ولكن بايحاء من الرغبة التي تبيت عليها فتواظب على ايقاظها في دقة وامانة • وظلت لحظات على وشك من استيقاظها فاختلطت عليها رؤي الاحلام وهمسات الاحساس ، حتى بادرها القلق الذي يلم بها قبل ان تفتح جفنيها من خشية أن يكون النوم خانها • فهزت رأسها هزة خفيفة وفتحت عينيها على ظلام الحجرة الدامس • لم يكن ثمة علامة تستدل بها على الوقت ، فالطريق تحت حجرتها لا ينام حتى مطلع الفجر ، والاصوات المتقطعة التي تترامى اليها اول الليل من سمار المقاهي واصحاب الحوانيت هي هي التي تترامى عند منتصفه والى ما قبيل الفجر ، فلا دليل تطمئن اليه الا احساسنا الباطن ـ كأنه عقرب ساعة واع ـ وما يشمل البيت من صمت ينم عن أن بعلها لم يطرق بابه ولم تضرب طرف عصاه على درجات سلمه •

هي العادة التي توقظها في هذه الساعة ، عادة قديمة صاحبت شبابها منذ مطلعه ولا تزال تستأثر بكهولتها ، تلقنتها فيما تلقنت من آداب الحياة الزوجية ، ان تستيقظ في منتصف الليل لتنتظر بعلها حين عودته من سهرته فتقوم على خدمته حتى ينام • وجلست في الفراش بلا تردد لتتغلب على اغراء النوم الدافيء وبسملت ثم انزلقت من تحت الغطاء الى ارض الحجرة ،

ومضت تتلمس الطريق على هدى عمود السرير وضلفة الشباك حتى بلغت الباب ففتحته ، فانساب الى الداخل شعاع خافت ينبعث من مصباح قائم على الكونصول في الصالة ، فدلفت منه وحملته وعادت به الى الحجرة وهو يعكس على السقف من فوهة زجاجته دائرة مهتزة من الضوء الشاحب تحف بها حاشية من الظلال ، ثم وضعته على خوان قائم بازاء الكنبة • وأضاء المصباح الحجرة فبدت برقعتها المربعة الواسعة وجدرانها العالية وسقفها بعمده الافقية المتوازية ، الا انها لاحت كريمة الاثاث ببساطها الشيرازي وفراشها الكبير ذي العمد النحاسية الاربعة والصوان الضخم والكنبة الطويلة المغطاة بسجاد صغير المقطع مختلف النقوش والالوان • وانجهت المرأة الى المرآة وألقت على صورتها نظرة فرأت منديل رأسها البني منكمشا متراجعا وقد تشعثت خصلات من شعرها الكستنائي فوق الجبين ، فمدت أصابعها الى عقدته فحلتها وسوته على شعرها وعقدت طرفيه في أناة وعناية • ومسحت براحتيها على صفحتي وجهها كأنما لتزيل عنه ما علق به من آثار النوم • كانت في الاربعين ، متوسطة القامة ، تبدو كالنحيفة ولكن جسمها بض ممتليء في حدوده الضيقة لطيف التنسيق والتبويب ،اما وجهها فمائل الى الطول .مرتفع الجبين دقيق القسمات ، ذو عينين صغيرتين جميلتين تلوح فيهما نظرة عسلية حالمة ، وأنف صغير دقيق يتسع قليلا عند فتحتيه ، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتهما ذقن مدبب • وبشرة قمحية صافية تلوح عند موضع الوجنة منها شامة سوادها عميق نقي • وقد بدت وهي تتلفع بخمارها كالمتعجلة ، واتجهت صوب باب المشربية ففتحته ودخلت، ثم وقفت في قفصها المغلق تردد وجهها يمنة ويسرة ملقية نظراتها من الثقوب المستديرة الدقيقة التي تملأ اضلافها المغلقة الى الطريق •

كانت المشربية تقع أمام سبيل بين القصرين ، ويلتقي تحتها شارعا النحاسين الذي ينحدر الى الجنوب وبين القصرين الذي يصعد الى الشمال، فبدا الطريق الى يسارها ضيقا ملتويا متلفعا بظلمة تكثف في اعاليه حيث

تطل نوافذ البيوت النائمة ، وتخف في اسافله بما يلقى اليه من اضـــواء مصابيح عربات اليد وكلوبات المقاهي وبعض الحوانيت التي تواصل السهر حتى مطلع الفجر ، والى يمينها التف الطريق بالظلام حيث يخلو من المقاهي، وحيث توجد المتاجر الكبيرة التي تغلق ابوابها مبكرا ، فلا يلفت النظر به الا مآذن قلاوون وبرقوق لاحت كأطياف من المردة ساهرة تحـت ضـوء النجوم الزاهرة . منظر الفته منها العينان ربع قرن من الزمان ولكنها لـم تسأمه ، ولعلها لم تدر ما السأم طوال حياتها على رتابتها ، وعلى العكـس وجدت فيهأنيسا لوحشتها وأليفا لوحدتها عهدا طويلا عاشته وكأنه لا انيس ولا أليف لها . كان ذلك قبل أن يأتي الابناء الى هذا الوجود ، فلم يكـن يحوى هذا البيت الكبير ـ بفنائه الترب وبئره العميقة وطابقيه وحجراتـه الواسعة العالية الاسقف ـ سواها ، اكثر النهار والليل . وكانت حيـن زواجها فتا ةصغيرة دون الرابعة عشرة من عمرها ، فسرعان ما وجدت نفسها عقب وفاة حماتها وسيدها الكبير ربة للبيت الكبير ، تعاونها على أمرهامرأة عجوز تغادرها عند جثوم الليل لتنام فيحجرة الفرن بالفناء تاركةاياهاوحيدة في دنيا الليل الحافلة بالارواح والاشباح ، تغفو ساعة وتأرق أخرى حتى يعود الزوج العتيد من سهرة طويلة .

ولكي يطمئن قلبها اعتادت ان تطوف بالحجرات مصطحبة خادمتهـا مادة يدها بالمصباح أمامها فتلقى في اركانها نظرات متفحصة خائفة ثمتغلقها باحكام ، واحدة بعد اخرى ، مبتدئة بالطابق الاول مثنية بالطابق الاعلى ، وهي تتلو ما تحفظ من سور القرآن دفعا للشياطين ، ثم تنتهي الى حجرتها فتغلقبابها وتندس فيالفراش ولسانها لا يمسك عنالتلاوةحتى يغلبها النوم. ولشد ما كانت تخاف الليل في عهدها الاول بهذا البيت ، فلم يغب عنهـا ـ هي التي عرفت عن عالم الجن أضعاف ما تعرفه عن عالم الانس ـ انهـا لا تعيش وحدها في البيت الكبير ، وان الشياطين لا يمكن ان تضل طويـلا عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية ، ولعلها آوت اليها قبل ان تحمل

هي الى البيت ، بل قبل ان ترى نور الدنيا ، فكم دب الى أذنيها همساتهم وكم استيقظت على لفحات من انفاسهم ، وما من مغيث الا ان تتلو الفاتحة والصمدية أو أن تهرع الى المشربية فتمد بصرها الزائغ من ثقوبها الى آنوار العربات والمقاهي وترهف السمع لالتقاط ضحكة او سعلة تسترد بها أنفاسها .

ثم جاء الابناء تباعا ولكنهم كانوا اول عهدهم بالدنيا لحما طريا لا يبدد خوفا ولا يطمئن جانبا ، وعلى العكس ضاعف من خوفها بما اثار في نفسها المتهافتة من اشفاق عليهم وجزع ان يمسهم سوء . فكانت تحويهم بذراعيها وتغمرهم بأنفاس العطف وتحيطهم في اليقظة والمنام بدرع من السور والاحجبة والرقا والتعاويذ ، أما الطمأنينة الحقة فلم تكن لتذوقها حتى يعود الغائب من سهرته . ولم يكن غريبا ، وهي منفردة بطفلها تنومه وتلاطفه ، ان تضمه الى صدرها فجأة ثم تتصنت في وجل وانزعاج ثم يعلو صوتها هاتفة وكأنها تخاطب شخصا حاضرا : « ابعد عنا ، ليس هذا مقامك، نحن قوم مسلمون موحدون » ثم تتلو الصمدية في عجلة ولهوجة . وعندما طالت بها معاشرة الارواح بتقدم الزمن تخففت من مخاوفها كثيرا واطمأنت لدرجة الى دعاباتهم التي لم تجر عليها سوءا قط فكانت اذا ترامى اليها حس طائف منهم قالت في نبرات لا تخلو من دالة : « ألا تحترم عباد الرحمن ! . الله بيننا وبينك فاذهب عنا مكرما » . ولكنها لم تكن تعرف الطمأنينة الحقة حتى يعود الغائب . أجل كان مجرد وجوده بالبيت ـ صاحيا أو نائما ـ كفيلا ببث السلام في نفسها ، فتحت الابواب أم أغلقت ، اشتعل المصباح ام خمد . وقد خطر لها مرة ، في العام الاول من معاشرته ، أن تعلن نوعا من الاعتراض المؤدب على سهره المتواصل فما كان منه الا ان امسك بأذنيها وقال لها بصوته الجهوري في لهجة حازمة : « أنا رجل ، الآمر الناهي ، لا أقبل على سلوكي أية ملاحظة ، وما عليك الا الطاعة ، فحاذري ان تدافعيني الى تأديبك » ، فتعلمت من هذا الدرس وغيره مما لحق به أنها تطيق كل

شيء ـ حتى معاشرة العفاريت ـ الا ان يحمر لها عين الغضب ، فعليهـا الطاعة بلا قيد ولا شرط ، وقد أطاعت ، وتفانت في الطاعة حتى كرهت ان تلومه على سهره ولو في سرها ، ووقر في نفسهـا ان الرجولـة الحقـة والاستبداد والسهر الى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمـة لجوهـر واحد ، ثم انقلبت مع الايام تباهي بما يصدر عنه سواء ما يسرها أم يحزنها، وظلت على جميع الاحوال الزوجة المحبة المطيعة المستسلمة . ولم تأسـف يوما على ما ارتضت لنفسها من السلامة والتسليم ، وانها لتستعيد ذكريات حياتها في أي وقت تشاء فلا يطالعها الا الخير والغبطة ، على حين تلوح لها المخاوف والاحزان كالاشباح الخاوية فلا تستحق الا ابتسامة رثاء ، الـم تعاشر هذا الزوج بعلاته ربع قرن من الزمان فجنت من معاشرته ابناء هم قرة عينيها وبيتا مترعا بالخير والبركة وحياة ناضجة سعيدة .. بلى ، اما مخالطة العفاريت فقد مرت كما تمر كل ليلة بسلام ، وما امتدت يد أحدهم اليهـا أو الى أحد من أبنائها بسوء اللهم الا ما هو بالمزاح والمداعبات أشبه ، فلا وجه للشكوى ، ولكن الحمد لله الذي بكلامه اطمأن قلبهـا وبرحمته استقامت حياتها .

حتى ساعة الانتظار هذه ، على ما تقطع عليها من لذيذ المنام ومـا تستأديها من خدمة كانت خليقة بأن تنتهي بزوال النهار ، احبتها من اعماق قلبها ، ففضلا عن أنها استحالت جزءا لا يتجزأ من حياتها ،ومازجت الوفير من ذكرياتها ، فانها كانت ولم تزل الرمز الحي لحدبها على بعلها وتفانيها في اسعاده ، واشعاره ليلة بعد اخرى بهذا التفاني وذاك الحدب . لهذا امتلأت ارتياحا وهي واقفة في المشربية ، وراحت تنقل بصرها خلال ثقوبها مرة الى سبيل بين القصرين ومرة الى منعطف الخرنفش وأخرى الى بوابة حمـام السلطان ورابعة الى المآذن ، او تسرحه بين البيوت المتكاكئة على جانبي الطريق في غير انتظام أو تناسق كأنها طابور من الجند في وقفة راحة تخفف فيها من قسوة النظام . وابتسمت للمنظر الذي تحبه ، هذا الطريق الذي

تنام الطرق والحواري والأزقة ويبقى ساهرا حتى مطلع الفجر ، فكم سلى أرقها وآنس وحشتها وبدد مخاوفها لا يغير الليل منه الا ان يغشى ما يحيط به من أحياء بالصمت العميق فيهيىء لاصواته جوا تعلو فيه وتوضح كأنه الظلال التي تملأ اركان اللوحة فتضفي على الصورة عمقا وجلاء ، لهـذا ترن الضحكة فيه فكأنها تنطلق في حجرتها ، ويسمع الكلام العادي فتميزه كلمة كلمة ، ويمتد السعال ويخشوشن فيترامى لها منه حتى خاتمته التـي تشبه الانين ، ويرتفع صوت النادل وهو ينادي : « تعميرة نادية » كهتاف المؤذن فتقول لنفسها في سرور : « لله هؤلاء الناس •• حتى هذه الساعة يطلبون مزيدا من التعميرة » ، ثم تذكر بهم زوجها الغائب فتقول : « ترى أين يكون سيدي الآن ؟ •• وماذا يفعل ••• فلتصحبه السلامة في الحـل والترحال » • أجل قيل لها مرة ان رجلا كالسيد أحمد عبد الجواد في يسارة وقوته وجماله ــ مع سهرة المتواصل ــ لا يمكن ان تخلو حياته من نساء، يومها تسممت بالغيرة وركبها حزن شديد ، ولما لم تواتها شجاعتها علـى مشافهته بما قيل أفضت بحزنها الى أمها ، فجعلت الام تسكن خاطرها بما وسعها من حلو الكلام ، ثم قالت لها : « لقد تزوجك بعد أن طلق زوجتـه الاولى ، وكان بوسعه ان يستردها لو شاء • أو أن يتزوج غيرك ثانية وثالثة ورابعة ، وقد كان أبوه مزواجا :فاحمدي ربنا على انه ابقاك زوجةوحيدة» ولو ان حديث أمها لم يجد مع حزنها وقت اشتداده الا أنها مع الايام سلمت بما فيه من حق ووجاهة ، فليكن ما قيل حقا فلعله من صفـات الرجـولة كالسهر والاستبداد ، وشر على اي حال خير من شرور كثيرة ، وليس من الهين ان تسمحلوسواس بأن يفسد عليها حياتها الطيبةالمليئة بالهناء والرغد، ثم لعل ما قيل بعد هذا كله ان يكون وهما أو كذبا • ووجدت ان موقفهـا من الغيرة ، شأنها حيال المتاعب التي تعترض سبيل حياتها ، لا يعدو التسليم بها كقضاء نافذ لا تملك حياله شيئا ، فلم تهتد الى وسيلة في مقاومتها الا أن تنادي الصبر وتستعدي مناعتها الشخصية ، ملاذها الاوحد في مغالبة مـا

تكره ،فانقلبت الغيرة واسبابها ،كطباع زوجها الاخرى ،وكمعاشرةالعفاريت مما تحتمل •

جعلت تنظر الى الطريق وتنصت الى السمار حتى ترامى اليها وقع سنابك جواد فعطفت رأسها صوب النحاسين فرأت « حنطورا » يقترب وئيدا ومصباحاه يسطعان في الظلام ، فتنهدت في ارتياح وغمغمت « أخيرا ••• » ها هو « حنطور » احد أصدقائه يوصله بعد السهرة الى باب البيت الكبير ثم يمضي كالعادة الى الخرنفش حاملا صاحبه ونفرا من الاصدقاء الذين يقطنون هذا الحي • ووقف « الحنطور » أمام البيت ، وارتفع صوت زوجها وهو يقول في نبرات ضاحكة :

ــ استودعكم الله •••

وكانت تنصت الى صوت زوجها وهو يودع أصحابه بشغف ودهشة، ولولا أنها تسمعه كل ليلة فيمثل هذه الساعة لانكرته ، فما عهدت منه ــ هي وأبناؤها ــ الا الحزم والوقار والتزمت ، فمن أين له بهذه النبرات الطروبة الضحكوكة التي تسيل بشاشة ورقة !• وكأن صاحب « الحنطور » أراد أن يمازحه فقال له :

ــ أما سمعت ماذا قال الجواد لنفسه بعد نزولك من العربة ؟• قال انه من المؤسف أن أوصل هذا الرجل كل ليلة الى بيته وهو لا يستحق أن يركب الا حمارا ••

وانفجر الرجال بالعربة ضاحكين فانتظر السيد حتى عادوا الى السكون ثم قال يجيبه :

ــ أما سمعت بماذا أجابته نفسه ؟ ••• قالت اذا لم توصله انت فسيركب البلك صاحبنا •

وضج الرجال ضاحكين مرة أخرى ، ثم قال صاحب العربة :

فلنؤجل الباقي الى سهرة الغد ••

وتحركت العربة الى شارع بين القصرين واتجه السيد نحو البـــاب فغادرت المرأة المشربية الى الحجرة ، وتناولت المصباح ومضت الى الصالة، ومنها الى الدهليز الخارجي حتى وقفت في رأس السلم • وترامت اليهـــا صفقة الباب الخارجي وهو يغلق ، وانزلاق المزلاج ، وتخيلته وهو يقطـع الفناء بقامته المديدة مستردا هيبته ووقاره ،خالعا مزاحه الذي لولا استراق السمع لظنته من مستحيل المستحيلات ، ثم سمعت وقع طرف عصاه علـى درجات السلم فمدت يدها بالمصباح من فوق الدرابزين لتنير له سبيله •

واتنهى الرجل الى موقفها فراحت تتقدمه رافعة المصباح ، فتبعها وهو يتمتم :

ــ مساء الخير يا أمينة •

فقالت بصوت خفيض ينم عن الادب والخضوع :

ــ مساء الخير يا سيدي •

وفي ثوان احتوتهما الحجرة ، فاتجهت امينة الى الخوان لتضع المصباح عليه ، في حين علق السيد عصاه بحافة شباك السرير وخلع الطربوش ووضعه على الوسادة التي تتوسط الكنبة ، ثم اقتربت المرأة منه لتنزع عنه ملابسه• وبدا في وقفته طويل القامة عريض المنكبين ضخم الجسم ذا كرش كبيرة مكتنزة اشتملت عليها جميعا جبة وقفطان في اناقة وبحبحة دلتا على رفاهة ذوق وسخاء ، ولم يكن شعره الاسود المنبسط من مفرقه على صفحتي رأسه في عناية بالغة ، وخاتمه ذو الفص الماسي الكبير ، وساعته الذهبية ، الا لتؤكد رفاهة ذوقه وسخاءه • أما وجهه فمستطيل الهيئة مكتنز الاديم قوي التعبير واضح الملامح ، يدل في جملته على بروز الشخصية والجمال بعينيه الزرقاوين الواسعتين ، وأنفه الكبير الاشم المتناسق على كبره مع بسطه الوجه ، وفمه الواسع بشفتيه الممتلئتين ، وشاربه الفاحم الغليظ

المفتول طرفاه بدقة لا مزيد عليها . ولما تدانت المرأة منه بسط ذراعيه فخلعت الجبة عنه وأطبقتها بعناية ثم وضعتها على الكنبة ، وعادت اليه ففكت حزام القفطان ونزعته وجعلت تدرجه بالعناية نفسها لتضعه فوق الجبة ، على حين تناول السيد جلبابه فارتداه ثم طاقيته البيضاء فلبسها ، وتمطى وهو يتثاءب وجلس على الكنبة ومد ساقيه مسندا قذاله الى الحائط . وانتهت المرأة من ترتيب ملابسه فقعدت عند قدميه الممدودتين وراحت تخلع حذاءه وجوربيه ،ولما كشف قدمهاليمنى بدا أول عيب في هذا الجسم الهائل الجميل في خنصره التي تآكلت من توالي الكشط بالموسى في موضع كاللو مزمن . وغادرت أمينة الحجرة فغابت دقائق ثم عادت بطست وابريق ، فوضعت الطست عند قدمي الرجل ووقفت والابريق في يدها على أهبة الاستعداد ، فاستوى السيد في جلسته ومد لها يديه فصبت له الماء فغسل وجهه ومسح على رأسه وتمضمض طويلا ، ثم تناول المنشفة من فوق مسند الكنبة ومضى يجفف رأسه ووجهه ويديه بينما حملت المرأة الطست وذهبت به الى الحمام . كانت هذه الخدمة آخر ما تؤدي من خدمات في البيت الكبير ، وقد واظبت عليها ربع قرن من الزمان بهمة لا يعتريها الكلال ، بل في سرور وانشراح ، وبنفس الحماس الذي يستفزها الى النهوض بواجبات البيت الاخرى من قبيل مطلع الشمس حتى مغيبها ، فاستحقت من أجله أن يطلق عليها جاراتها اسم « النحلة » لدأبها ونشاطها المتواصلين .

وعادت الى الحجرة فأغلقت الباب وسحبت من تحت السرير شلتة فوضعتها أمام الكنبة وتربعت عليها اذ لم تكن ترى لنفسها الحق في أن تجلس الى جانبه تأدبا ، ومضى الوقت وهي ملازمة الصمت حتى يدعوها الى الكلام فتتكلم . وتراخى ظهر السيد الى مسند الكنبة ، وبدا عقب سهرته الطويلة متعبا فثقل جفناه اللذان جرى في أطرافهما احمرار طارىء من أثر الشرب ، وجعل يزفر أنفاسا ثقيلة مخمورة . ومع أنه كان يعاقر الخمر كل

ليلة ، الى افراط في الشرب حتى السكر ، الا أنه لم يكن ليقرر العودة الى بيته حتى تزايله سورة الخمر ويستعيد سيطرته على نفسه حرصا منه على وقاره والمظهر الذي يحب ان يبدو به في بيته • وكانت زوجه الشخص الوحيد من آل بيته الذي يلقاه في أعقاب سهرته ، ولكنها لم تلمس من آثار الشراب الا رائحته ، ولم تلاحظ على سلوكه شذوذا مريبا ، الا ما كان يبدو منه أول عهده بزواجها وقد تناسته ، وعلى العكس من المنتظر جنت من مصاحبتها له في هذه الساعة اقبالا منه في الحديث وتبسطا في فنونه قل أن تظفر بمثله في أوقات افاقته الكاملة • وانها لتذكر كم ارتعبت يوم ادركت أنه يعود من سهرته ثملا ، واستدعت الخمر الى ذهنها ما يقترن بها من وحشية وجنون ومخالفة الدين وهي الافظع ، فتقززت نفسها وركبها الذعر وعانت لدى عودته كلما عاد آلاما لا قبل لها بها • وبمضي الايام والليالي ثبت لها أنه حين عودته من سهرته يكون ألطف منه في جميع الاوقات ، فيتخفف من صرامته ، وترق ملاحظته ، ويسترسل في الحديث ، فاستأنست اليه واطمأنت وان لم تنس أن تضرع الى الله ان يغفر له معصيته ويتوب عليه • وكم تمنت لو يتطبع بنفس اللين النسبي وهو صاح منتبه ، وكم عجبت لهذه المعصية التي ترقق حواشيه ، وتحيرت طويلا بين ما تجد نحوها من كراهية دينية موروثة وبين ما تجنى منها من راحة وسلام ،ولكنها دفنت أفكارها في أعماق نفسها ، ودارتها مداراة من لا يطيق أن يعترف بها ولو فيما بينه وبين نفسه • أما السيد فكان أحرص ما يكون على وقاره وحزمه ، وما يصدر عنه من لطف فخلسة يصدر ، وربما جرت على شفتيه ابتسامة عريضة ــ في جلسته هذه ــ لذكرى طافت به من ذكريات سهرته السعيدة فسرعان ما ينتبه الى نفسه ، ويطبق شفتيه ، ويسترق الى زوجه نظرة فيجدها كعادتها بين يديه خافضة العينين ، فيطمئن ويعود الى ذكرياته• والحق ان سهرته لم تكن تنتهي بعودته الى بيته ، ولكنها تواصل حياتها في ذكرياته ، وفي قلبه الذي يجذبها اليه بقوة نهم الى مسرات الحياة لا يروى،

وكأنه لا يزال يرى مجلس الانس تزينه النخبة المختـارة مـن اصدقائـه وأصفيائه ، ويتوسطه بدر من البدور التي تطلع في سماء حياته حينا مـن بعد حين ، وما برحت تطن في أذنيه الدعابات واللطائف والنكات التي تجود قريحته بدورها اذا هزه السكر والطرب ، وهذه الملح خاصة يراجعها فـي عناية واهتمام ينضحان بالعجب والزهو ، ويتذكر أثرها في النفوس وما لاقت من نجاح وابتهاج جعلاه الحبيب الاول لكل نفس ، ولا عجب فانه كثيرا ما يشعر بأن الدور الذي يلعبه في سهرته من الخطورة كأنه أمل الحياة المنشود، وكأن حياته العملية بجملتها ضرورة يؤديها في سبيل الفوز بساعات مترعـة بالشراب والضحك والغناء والعشق يقضيها بين صحبه وخلصائه . وبين هذا وذاك تسجع في باطنه أنغام حلوة لطيفة مما تردد في المجلس السعيـد فذهب معها وجاء وهتف وراءها من اعماق قلبه : « آه .. الله أكبر » ، هذا الغناء الذي يحبه كما يحب الشراب والضحك والصحاب والبدور ، فـلا يطيق ان يخلو منه مجلسه ، ولا يأبه للشقة البعيدة يقطعـها الى أطـراف القاهرة ليسمع الحامولي او عثمان أو المنيلاوي حيثما تكون مغانيهم ،حتى آوت أنغامهم الى نفسه السخية كما تأوى البلابل الى شجـرة مـورقة ، مورقة ، فاكتسب دراية بالنغم والمذاهب وتوج حجة في السماع والطرب ، وكان يحب الغناء بروحه وجسمه ،أما روحه فتطرب وتغمرها الاريحية ،وأما جسمه فتهتاج حواسه وترقص أطرافه خاصة الرأس واليـدان ، ولهـذا احتفظت نفسه لبعض المقاطع الغنائية بذكريات روحية وجسدية لا تنسى ، مثل : « وليه بقى تلاويعك وهجرك » أو « يـا ما بكره نعرف ... وبعده نشوف » أو « اسمح بقى وتعالي أما اقول لك » وكان حسبه ان تهفو اليه نغمة من هذه النغمات معانقة حواشيها من الذكريات كي تهيج موطن السكر من نفسه فيهز رأسه طربا وترف على شفتيه ابتسامة اشواق ويفرقع بأصابعه وقد يشدو مترنما اذا كان الى نفسه خاليا . ومع هذا فلم يكن الغناء هوى منفردا بجذبه لذاته فحسب ، ولكنه كان زهرة في طاقة يحلو بها وتحلـو

به ، أهلا به ومرحبا بين الصديق الصافي والحبيب الوفي والشراب المعتق والملحة العذبة ، أما أن يصفوا له وحده ــ كما يتلقى في البيوت عن الفونوغراف ــ فهو جميل حبيب بلا شك ، ولكنه غاب عن وجوه وبيئته وملابساته ، وهيهات ان يقنع به القلب ، انه يتوق الى ان يفصل بين النغمة والنغمة بنكتة تهتز لها النفوس ، وان يسابق الترديد بالنهل من كأس مترعة، ويرى اثر التطريب في وجه الصديق وعين الحبيب ، ثم يتعاونون جميعا على التهليل والتكبير • بيد أن السهرة لم يقتصر أثرها على بعث الذكريات ،فمن مزاياها أيضا أنها تهيئه في أعقابها لاسلوب طيب من الحياة هو الذي تتلهف عليه زوجه المطيعة المستسلمة حين تجد نفسها بين يدي رجل حلو المعشر يتبسط معها في الحديث ويفضي اليها بما في طويته على نحو يشعرها ولو الى حين بأنها ليست جارية فحسب ولكنها شريكة حياته ايضا • وهكذا راح يحدثها عن شؤون البيت فأنبأها بأنه أوصى بعض التجار من معارفه على شراء خزين البيت من السمن والقمح والجبن ، وجعل يحمل على ارتفاع الاسعار واختفاء المواد الضروريه بسبب هذه الحرب التي تطحن العالم منذ ثلاثة أعوام ، وكعادته كلما ذكر الحرب اندفع يلعن الجنود الاستراليين الذين ينتشرون فيالمدينة كالجراد ويعيثون في الارض الفساده والحق أنه كان يحنق على الاستراليين لسبب خاص به وهو انهم بجبروتهم حالوا بينه وبين مجالي اللهو والطرب في الازبكية فارتد عنها مغلوبا على أمره ــ الا في القليل النادر من مختلس الفرص ــ لانه لم يكن يسعه ان يعرض نفسه للجنود الذين يسلبون الناس متاعهم جهارا ويتسلون بصب الوان الاعتداء والاهانةعليهم بغير رادع •ثم مضى يسأل عنحال«الاولاد» كما يدعوهم بلا تفرقة بين كبيرهم الكاتب بمدرسة النحاسين وصغيرهم التلميذ بمدرسة خليل أغا ثم تساءل بلهجة ذات معنى :

ــ وكمال ؟! •• اياك وان تتستري على شيطنته !

فذكرت المرأة ابنها الصغير الذي تتستر عليه حقا فيما لا خطر له من

اللعب البريء ، وان كان السيد لا يعترف ببراءة أي لون من ألوان اللعب واللهو ، وقالت بصوتها الخاشع :

ـ انه يلتزم اوامر أبيـــه •

وصمت السيد قليلا فبدا كالشارد ، وعاد يقطف من ذكريات ليلتـــه السعيدة ، ثم تراجع مؤشر ذاكرته الى ما سبق سهرته من احداث يومـــــه فذكر فجأة أنه كان يوما حافلا ، ولما كان في حال لا يستحب معها كتمـــان شيء مما يطفو على سطح الوعي فقد قال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ يا له من رجل كريم الامير كمال الدين حسين ! أما علمت بما فعل؟• أبى ان يعتلي عرش أبيه المتوفي في ظل الانجليز •

ومع أن المرأة علمت بوفاة السلطان حسين كامل امس الا أنها كانت تسمع اسم ابنه لاول مرة ، ولم تجد ما تقول ولكنها ـ مدفوعة بعواطـــف الاجلال للمتكلم ـ كانت تخاف الا تعلق على كل كلمة يقولها بما يرضيه فقالت :

ـ رحم الله السلطان وأكرم ابنه •

فاستطرد السيد قائلا :

ـ وقبل العرش الامير احمد فؤاد او السلطان فؤاد كما سيدعى مـــن الان فصاعدا ، وقد تم الاحتفال بتوليته اليوم فانتقل في موكبه من قصـــر البستان الى سراي عابدين •• وسبحان من له الدوام •

واصغت امينة اليه باهتمام وسرور ، اهتمام يستثيره في نفسها أي نبأ يجيء من العالم الخارجي الذي تكاد لا تعرف عنه شيئا ، وسرور يبعثه ما تجد في حديث بعلها معها عن هذه الشؤون الخطيرة من لفتة عطف تزدهيها، الى ما في الحديث نفسه من ثقافة يلذ لها أن تعيدها على مسمع من أبنائهـــا

وخاصة فتاتيها اللتين تجهلان مثلها العالم الخارجي جهلا تاما • ولم تجد لتجزيه عن كريم عطفه خيرا من أن تردد على مسمعيه دعاء تعلم مقدما بمقدار ارتياحه اليه كما ترتاح اليه هي من اعماقها فقالت :

ـ ربنا قادر على أن يعيد الينا افندينا عباس •

فهز الرجل رأسه وتمتم قائلا :

ـ متى ؟ ••• متى ؟ •• علم هذا عند ربي •• ما نقرأ في الجرائد الا عن انتصارات الانجليز ، فهل ينتصرون حقا أو ينتصر الالمان والترك في النهاية ؟ اللهم استجب •

وأغمض الرجل عينيه اعياء ، وتثاءب ، ثم تمطى وهو يقول :

ـ اخرجي المصباح الى الصالة •

ونهضت المرأة قائمة وذهبت الى الخوان فتناولت المصباح ومضت الى الباب • وقبل ان تجوز العتبة سمعت السيد وهو يتجشأ فتمتمت :

ـ صحة وعافية •

وفي هدوء الصباح الباكر ، وذيول الفجر لا تزال ناشبة في اسهم الضياء ، تعالى صوت العجين من حجرة الفرن بالفناء في ضربات متتابعة كدوي الطبل • وكانت أمينة قد غادرت الفراش قبل هذا بنحو نصف ساعة • فتوضأت وصلت ثم نزلت الى حجرة الفرن فأيقظت أم حنفي ــ امرأة في الاربعين خدمت وهي صبية بالبيت وفارقته للزواج ثم عادت اليه بعد طلاق ــ وبينما نهضت الخادم لتعجن عكفت امينة على اعداد الفطور • وكان للبيت فناء متسع ، في أقصاه الى اليمين بئر سدت فوهتها بعارض خشبي مذ دبت أقدام الصغار على الارض وما تبع هذا من ادخال مواسير المياه ، وفي أقصى اليسار على كثب من مدخل الحريم حجرتان كبيرتان اقيمت الفرن في احداهما واستعملت بالتالي مطبخا ،وأعدت الاخرى مخزنا• وكان لحجرة الفرن على عزلتها علاقة بقلبها لا تهن ، فلو حسب الزمن الذي قضته بين جدرانها لكان عمرا ، الى ما تتزين به الحجرة من مباهج المواسم عند حلولها حين تتطلع اليها القلوب الهاشة لافراح الحياة ، وتتحلب الافواه لالوان الطعام الشهية التي تقدمها موسما بعد موسم كخشاف رمضان وقطائفه ، وكعك عيد الفطر وفطائره ، وخروف عيد الاضحى الذي يسمن ويدلل ثم يذبح على مشهد من الابناء فلا يعدم دمعة رثاء وسط بهجة شاملة، هنالك تبدو عين الفرن المقوسة يلوح في اعماقها وهج النار كجذوة السرور

المشتعلة في السرائر وكأنها زينة العيد وبشائره • واذا كانت امينة تشعر بأنها في أعلى البيت سيدة بالنيابة وممثلة لسلطان لا تملك منه شيئا ، فهي في هذا المكان ملكة لا شريك لها في ملكها ،فهذه الفرن تموت وتحيا بأمرها، وهذا الوقود من فحم وحطب في الركن الايمن يتوقف مصيره على كلمة منها، والكانون الذي يحتل الركن المقابل تحت رفوف الحلل والاطباق والصينية النحاسية ينام او يزغرد بألسنة اللهب باشارة منها • هي هنا الام والزوجة والاستاذة والفنانة التي يترقب الجميع والثقة ملء قلوبهم ما تقدم يداها، وآية ذلك انها لا تفوز باطراء سيدها اذا تفضل باطرائها الا عن لون من الطعام أحكمت صنعه وطهيه • وأم حنفي كانت اليد اليمنى في هذه المملكة الصغيرة ، سواء تصدت أمينة للادارة والعمل أم تخلت عن مكانها لاحدى فتاتيها لتتمرس بفنها تحت أشرافها ، وهي امرأة بدينة في غير تنسيق ولا تفصيل ، نما لحمها نموا سخيا فراعى في نموه السمنة فحسب واهمل اعتبارات الجمال ، بيد انها رضيت عنه كل الرضا لانها كانت تعد السمنة في ذاتها الجمال كل الجمال • ولا عجب فقد كان كل عمل لها في ابليت يكاد يعد ثانويا بالقياس الى واجبها الاول وهو تسمين الاسرة — او بالاحرى اناثها — بما تعد لهن من « بلابيع » سحرية هي رقية الجمال وسره المكنون ، ومع أن اثر البلابيع لم يكن ناجعا دائما الا انه برهن على جدارته في اكثر من مرة فاستحق ما يناط به من آمال واحلام • فليس عجيبا بعد هذا ان تسمن ام حنفي ، على ان سمنتها لم تقلل من نشاطها ، فما ان ايقظتهاسيدتها حتى نهضت بنفس متفتحة للعمل ، وخفت الى « ماجور » العجين •وتعالى صوت العجين الذي يؤدي وظيفة جرس المنبه في هذا البيت ، فترامى الى الابناء في الدور الاول ، ثم تصاعد الى الاب في الدور الاعلى ، منذرا الجميع بأن وقت الاستيقاظ قد أزف • وتقلب السيد احمد عبد الجواد على جنبيه ثم فتح عينيه • وسرعان ما قطب حانقا على الصوت الذي ازعج منامه ، ولكنه كظم حنقه لانه كان يعلم انه يجب ان يستيقظ ، وتلقي اول

احساس يتلقاه عادة عقب استيقاظه وهو ثقل الرأس فقاومه بقوة ارادته وجلس في فراشه وان كانت تغلبه الرغبة في معاودة النوم • ولم تكن لياليه الصاخبة لتنسيه واجب النهار ، فهو يستيقظ في هذه الساعة الباكرة مهما تأخر به وقت النوم حتى يتسنى له الذهاب الى متجره قبيل الثامنة ، ثم له في القيلولة فسحة من وقت يعتاض بها عما فاته من نوم ، ويستعيد نشاطه للسهرة الجديدة • لهذا كان وقت استيقاظه اسوأ أوقات يومه جميعا ،يغادر الفراش مترنحا من الاعياء والدوار ،ويستقبل حياة عاطلة من حلو الذكريات ولطيف المشاعر وكأنها تستحيل دقا في الدماغ والجفون •

وتوالت دقات العجين على رؤوس النائمين بالدور الاول فاستيقظ فهمي ، وكان استيقاظه يسيرا على رغم سهره عاكفا على كتب القانون ،فاذا استيقظ فأول احساس يبادره صورة وجه مستدير تتوسط صفحته العاجية عينان سوداوان فيهمس باطنه قائلا : « مريم » • ولو أذعن لسلطان الاغراء للبث تحت الغطاء طويلا ، خاليا الى الخيال الزائر الذي جاء يصحبه بألطف الهوى ، فيرنو اليه ما دعاه الشوق ويبادله الحديث ويبوح له باسرار وأسرار ، ويتدانى اليه بجسارة لا تتأتى في غير هذا الرقاد الدافيء في مطلع الصباح • ولكنه كعادته أجل نجواه الى صباح الجمعة وجلس في فراشه ، ثم مد بصره الى أخيه النائم في الفراش الذي يليه وهتف :

ـ ياسين ••• ياسين •• اصح •

فانقطع شخير الشاب ، ونفخ فيما يشبه الضيق وتمتم من أنفه :

ـ صاح ••• استيقظت قبلك •

فانتظر فهمي مبتسما حتى عاود الاخر شخيره فصاح به :

ـ اصح ••

فتقلب ياسين في فراشه متذمرا فانحسر الغطاء عن جانب من جسمه الذي يضاهي جسم والده ضخامة وبدانة ، ثم فتح عينين محمرتين تلوح فيهما نظرة غائبة ارتسمت فوقها تقطيبة تنطق بالتذمر « أف .. كيف طلع الصبح بهذه السرعة ! .. لماذا لا ننام حتى نشبع ... النظام .. دائما النظام ... كأننا عساكر » ، ونهض معتمدا على يديه وركبتيه وهو يحرك رأسه لينفض عنه النعاس فلاحت منه التفاتة الى الفراش الثالث حيث يغط كمال في نومه الذي لن ينتزعه منه احد قبل نصف ساعة فغبطه عليه « يا له من غلام سعيد ! » . ولما أفاق قليلا تربع على الفراش وأسند رأسه الى يديه ، ورغب في معابثة الخواطر اللذيذة التي تحلو بها احلام اليقظة ولكنه كان يستيقظ ــ كأبيه ــ على حال من ثقل الرأس تتعطل معها الاحلام ، ولاحت لمخيلته زنوبة العوادة فلم تترك في حساسيته اثرا مما تترك في صحوه وان افترت شفتاه عن ابتسامة ..

وفي الحجرة المجاورة كانت خديجة قد غادرت الفراش دون حاجة الى منبه العجين ، كانت أشبه الاسرة بأمها في نشاطها ويقظتها اما عائشة فتستيقظ عادة على الحركة التي تنبعث في السرير من نهوض شقيقتها وانزلاقها الى ارض الحجرة في عنف متعمد يجر وراءه جدلا وملاحاة انقلبا مع التكرار نوعا من الدعابة الفظة ، فاذا استيقظت وفرغت من النقار لم تنهض ، ولكنها تستسلم لحلم طويل من احلام اليقظة السعيدة قبل ان تغادر فراشها .

ثم دبت الحياة فشملت الدور الاول كله ، فتحت النوافذ وتدفق النور الى الداخل وعلى أثره هفا الهواء حاملا صلصلة عجلات سوارس واصوات العمال ونداء بائع البليلة ، وتواصلت الحركة ما بين غرفتي النوم والحمام وبدا ياسين في جلبابه الفضفاض بلحمه المتكتل ، وفهمي بطوله الفارع وقده النحيف وكان ــ فيما عدا نحافته ــ صورة من أبيه . وهبطت

الفتاتان الى الفناء لتلحقا بأمهما في حجرة الفرن ، وكــان في صورتيهمــا اختلاف قل أن يوجد مثله في الاسرة الواحدة ، خديجة سمراء وفي قسمات وجهها تنافر ملحوظ ، وعائشة شقراء تشع هالة من حسن ورواء •

ومع آن السيد كان في الدور الاعلى بمفرده الا آن أمينة لم تدعــه في حاجة الى انسان • وجد على الخوان طبق فنجان ممنوءا حلبة ليغير ريقه عليها ، وذهب الى الحمام فتطاير الى أنفه عرف البخور الطيب ، وألفى على كرسي ثيابا نظيفة مرتبة في عناية ، فاستحم بالماء البارد كعادته كل صباح ــ عادة لا ينقطع عنها صيفا او شتاء ــ ثم عاد الى حجرته مستجدا حيويــة ونشاطا • ثم جاء بسجادة الصلاة ــ وكانت مطوية على مسند الكنبة ــ فبسطها وأدى فريضة الصبح ، صلى بوجه خاشع ، وهو غير الوجه البسام المشرق الذي يلقي به اصحابه ، وغير الوجه الحازم الصارم الذي يواجه به آل بيته ، هذا وجه خافض الجناح تقطر التقوى والحب والرجاء من قسماته المتراخية التي ألانها التزلف والتودد والاستغفار • لم يكن يصلي صــلاة آلية قوامها التلاوة والقيام والسجود ،ولكن صلاة عاطفة وشعور واحساس يؤديها بنفس الحماس الذي ينفضه على ألوان الحياة التي ينقلب فيهــــا جميعا ، كما يعمل فيتفانى في عمله ، ويصادق فيفرط في مودته ، ويعشـــق فيذوب في عشقه ، ويسكر فيغرق في سكره مخلصا صادقا في كل حال ، هكذا كانت الفريضة حجة روحية يطوف فيها برحاب المولى ، حتـــى اذا انفتل من صلاته تربع وبسط راحتيهوراح يدعو الله ان يكلأه برعايته ويغفر له ويبارك في ذريته وتجارته •

وفرغت الام من تجهيز الفطور فتركت للفتاتين اعداد الصينيةوطلعت الى حجرة الاخوة حيث وجدت كمالا ما زال يغط في نومه • فأقبلت عليه باسمة وحطت راحتها على جبينه وتلتالفاتحة ،وجعلت تناديه وتهزه برفق حتى فتح عينيه ، ولم تدعه حتى فارق الفراش • ودخل فهمي الحجرة فلمــا

رآها ابتسم اليها وحياها تحية الصباح فردت عليه قائلة ونظرة الحب تترقرق في عينيهــا :

ــ صباح النور يا نور العين ••

وبنفس الرقة صبحت على ياسين « ابن » زوجها فرد عليها بمــودة خليقة بالمرآة التي تنزل من نفسه منزلة الام الجديرة بهذا الاسم • ولما عادت خديجة من حجرة الفرن تلقاها فهمي وياسين ــ ويـاســين خاصــة ــ بمــا يغمرانها به عادة من دعابة • وكانت مثار دعابة سواء بصورتها المتنافرة أو بلسانها الحاد رغم ما لهامن نفوذ على الاخوين بما تتعهد من شؤونلهابمهارة فائقة يندر ان تجود بمثلها عائشة التي تلوح وسط الاسرة كالرمز الجميــل رواء وجاذبية وعدم فائدة • وبادرها ياسين قائلا :

ــ كنا نتحدث عنك يا خديجة ، وكنا نقول أنه لو كان النساء جميعا على شاكلتك لارتاح الرجال من متاعب القلوب ••

فقالت على البداهة :

ــ ولو كان الرجال على شاكلتك لارتاحوا جميعا من متاعب الرؤوس

عند ذلك هتفت الام قائلة :

ــ أعد الفطور يا سادة •••

كانت حجرة الطعام بالدور الاعلى حيث توجد حجرة نوم الوالدين ، وكان بنفس الدور غير هاتين الحجرتين أخرى للجلوس واربعة خالية الا من بعض ادوات اللعب التي يلهو بها كمال في اوقات فراغه • وكان السماط قد أعد وصفت حوله الشلت ، ثم جاء السيد فتصدره متربعا ، ودخل الاخوة الثلاثة تباعا فجلس ياسين الى يمين أبيه ، وفهمي الى يساره ، وكمال قبالته• جلس الاخوة في أدب وخشوع ، خافضي الرؤوس كأنهم في صلاة جامعة ، يستوي في هذا كاتب مدرسة النحاسين وطالب مدرسة الحقوق وتلميذ خليل أغا ، فلم يكن احد منهم ليجترىء على التحديق في وجه ابيه • واكثر من هذا كانوا يتجنبون في محضره تبادل النظر ان يغلب احدهم الابتسام لسبب او لآخر فيعرض نفسه لزجرة مخيفة لا قبل له بها • ولم يكن يجمعهم بأبيهم الا مجلس الفطور لانهم يعودون الى البيت عصرا بعد أن يكون السيد قد غادره الى دكانه عقب تناول الغداء والقيلولة ، ثم لا يعود اليه الا بعد منتصف الليل ، وكانت الجلسة على قصر مدتها شديدة الوطأة على نفوسهم بما يلتزمون فيها من أدب عسكري ، الى ما يركبهم من رهبة تضاعف من حساسيتهم وتجعلهم عرضة للهفوات بطول تفكيرهم في تحاميها، فضلا عن أن الفطور نفسه يتم في جو يفسد عليهم تذوقه واستلذاذه • ولم يكن غريبا ان يقطع السيد الفترة القصيرة التي تسبق مجيء الام بصينية

الطعام في تفحص ابنائه بعين ناقدة حتى اذا عثر على خلل ولو تافه في هيئة احدهم ا وبقعة في ثوبه انهال عليه نهرا وتأنيبا ، وربما سأل كمال بغلظة: « غسلت يديك ؟ » فاذا اجابه بالايجاب قال له آمرا : « أرنيهما » فيبسط الغلام كفيه وهو يزدرد ريقه فرقا ، وبدلا من ان يشجعه على نظافته يقول له مهددا : « اذا نسيت مرة ان تغسلهما قبل الاكل قطعتهما واوحتك منهما » . أو يسأل فهمي قائلا : « أيذاكر ابن الكلب دروسه جيدا ،ويعرف فهمي بالبداهة من يعني لان « ابن الكلب » عند السيد كناية عن كمال فيجيب انه يحفظ دروسه جيدا ، والحق أن شطارة الغلام ــ التي استوجب عليها حنق أبيه ــ لم تقعد به عند الجد والاجتهاد كما يدل عليهما نجاحه وتفوقه ، ولكن السيد كان يطالب ابناءه بالطاعة العمياء الامر الذي لا يطيقه غلام اللعب أحب اليه من الطعام ،ولهذا يعلق على اجابة فهمي بامتعاض : « الادب مفضل عن العلم » . ثم يلتفت الى كمال ويستطرد بحدة : « سامع يا ابن الكلب ! » ...

وجاءت الام حاملة صينية الطعام الكبيرة فوضعتها فوق السماط وتقهقرت الى جدار الحجرة على كثب من خوان وضعت عليه « قلة ». ووقفت متأهبة لتلبية اية اشارة . وكان يتوسط الصينية النحاسية اللامعة طبق كبير بيضاوي امتلأ بالمدمس المقلي بالسمن والبيض ، وفي احد طرفيها تراكمت الارغفة الساخنة ، وفي الطرف الآخر صفت أطباق صغيرة بالجبن ، والليمون والفلفل المخللين ، والشطة والملح والفلفل الاسود ، فهاجت بطون الاخوة بشهوة الطعام ، ولكنهم حافظوا على جمودهم متجاهلين المنظر البهيج الذي أنزل عليهم كأنه لم يحرك فيهم ساكنا ، حتى مد السيد يده الى رغيف فتناوله ثم شطره وهو يتمتم « كلوا » ، فامتدت الايدي الى الارغفة في ترتيب يتبع السن ، ياسين ففهمي ثم كمال وأقبلوا على الطعام ملتزمين أدبهم وحياءهم . ومع ان السيد كان يلتهم طعامه في وفرة وعجلة وكأن فكيه شطرا آلة قاطعة تعمل في سرعة وبلا توقف ، ومع أنه كان يجمع في لقمة كبيرة واحدة من شتى الالوان المقدمة ــ الفول والبيض والجبن والفلفل والليمون المخللين ــ ثم يأخذ في طحنهما بقوة

وسرعة واصابعه تعد اللقمة التالية ، الا أنهم كانوا يأكلون متمهلين في أناة بالرغم مما يحملهم تمهلهم من صبر لا يتفق وطبيعتهم الحامية ، فلم يكن ليغيب عن أحدهم ما قد يتعرض له من ملاحظة شديدة او نظرة قاسية اذا تهاون أو ضعف فنسي نفسه وغفل بالتالي عما يأخذها به من التأني والأدب. وكان كمال اشدهم تبرما لانه كان اعظمهم تخوفا من أبيه ، واذا كان اكثر ما يتعرض له احد اخويه نهرة او زجرة فاقل ما يتعرض له هو ركلة أو لكمة ، فلذلك كان يتناول طعامه في حذر وضيق ، مسترقا النظر بين آونة واخرى الى المتبقي من الطعام الذي يتناقص سريعا ، وكلما تناقص اشتد قلقه ، وانتظر في جزع ان يصدر عن أبيه ما يدل على فراغه من طعامه فيخلو له الجو ليملأ بطنه . وعلى رغم سرعة أبيه في الالتهام وضخامة لقمته وتشبعها بشتى الاصناف كان يعلم بالتجربة ان ما يتهدد الطعام ـ وما ينهدده هو بالتالي ـ من ناحية اخويه اشد وآنكى . لان السيد كان سريع الاكل سريع الشبع ، أما أخواه فكانا يبدءان المعركة حقا عقب جلاء السيد عن السفرة ، ثم لا يتخليان عنها حتى تخلو الاطباق من كل شهي يؤكل ، ولهذا فما كاد السيد ينهض قائما ويفارق الحجرة حتى شمر عن ساعديه وهجم على الطبق كالمجنون مستغلا يديه الاثنتين ، يدا للطبق الكبير ،ويدا للاطباق الصغيرة ، بيد ان اجتهاده بدا قليل الجدوى فيما انبعث من نشاط الاخوين فلجأ الى الخيلة التي يستغيث بها كلما هدد سلامته مهدد في مثل هذه الحال ، وهي أن يعطس في الطبق عامدا متعمدا ، وعطس ، فتراجع الاخوان ، ونظرا اليه حانقين ، ثم غادرا المائدة وهما يغرقان في الضحك ، فتحقق له حلم الصباح وهو ان يجد نفسه وحيدا في الميدان .

وعاد السيد الى حجرته بعد ان غسل يديه فلحقت به امينة وبيدها قدح مزجت به ثلاث بيضات نيئة بقليل من اللبن وقدمته له فتجرعه ثم جلس ليحسو قهوة الصبح . وهذا القدح الدسم خاتمة فطوره ، وهو « وصفة » من وصفات يداوم عليها بعد الوجبات او فيما بينها ـ كزيت

السمك ، والجوز واللوز والبندق المسكرة ـــ رعاية لصحة بدنه الضخم ، وتعويضا له عما تستهلكه منه الاهواء ، الى اقتصاره على اللحوم بأنواعهـــا والاغذية المشهورة بدسمها حتى ليعد الاكلة الخفيفة بل والعادية « لعبا » و « تضييع وقت » لا يجملان بمثله . وقد وصف له الحشيش كفـــاتـــح للشهية ـــ الى فوائده الاخرى ـــ فجربه ولكنه لم يألفه وانصرف عنه غير آسف وقد ساء به ظنه لما يورث من ذهول وقور مشبع بالهدوء ميال للصمت مشعر بالانفراد ولو بين الصفوة من الاصدقاء ، فنفر من اعراضه تلك التي تتجافى مع سجيته المولعة بصبوات المرح ونشوات الهياج ولذات الاندماج في النفوس ووثبات المزاح والقهقهة . ولكيلا يفقد مزاياه الضرورية لفحول العشاق اعتاض عنه بنوع نفيس من المنزول اشتهر به محمد العجمي بـــائع الكسكسي عند مطلع الصالحية بالصاغة ، وكان يعده خاصة لصفوة زبائنـــه من التجار والاعيان ، ولم يكن السيد من مدمني المنزول ولكنه كان يلم به بين حين وآخر كلما استقبل هوى جديدا خاصة اذا كانت المعشوقة امـــرأة خبيرة بالرجال واحوالهم . فرغ السيد من حسو قهوته ثم نهض الى المرآة وراح يرتدي ملابسه التي قدمتها اليه امينة قطعة قطعة ، والقى على صورة هندامه نظرة متفحصة ، ومشط شعره الاسود المرسل على صفحتي رأسه ، ثم سوى شاربه وفتله ، وتفرس في هيئة وجهه ثم عطفه رويدا الى اليميـــن ليرى جانبه الايسر ، ثم الى اليسار ليرى جانبه الايمن ، حتى اذا ارتاح الى منظره مد يده الى زوجه فناولته زجاجة الكولونيا التي عبأها له عم حسنين الحلاق فغسل يديه ووجهه ونضخ صدر قفطانه ومنديله ، ثـــم وضـــع الطربوش على رأسه وأخذ عصاه وغادر الحجرة ناشرا بين يديه ومن خلفـــه عرفا طيبا . ذلك العرف المقطر من شتى الازهار يعرفه أهل البيت جميعـــا ، واذا تنشقه أحدهم تمثل لعينيه السيد بوجهه الوقور الحازم ، فينبعث في قلبه ـــ مع الحب ـــ الاجلال والخوف ، الا ان انتشاره في هذه الساعـــة من الصباح كان ايذانا بذهاب السيد ، فالنفوس تتلقاه بارتياح غير منكور على براءته ، كارتياح الاسير الى صليل السلاسل وهي تنفك عن يديه وقدميه ،

ويعلم كل بأنه سيسترد حريته عما قليل في الكلام والضحك والغناء والحركة دون ثمة خطر • وكان ياسين وفهمي قد فرغا من ارتداء ملابسهما ، أما كمال فقد هرع الى الحجرة عقب خروج أبيه مباشرة ليشبع رغبتــه في محاكــاة حركاته التي يختلس النظر اليها من زيق الباب الموارب ، فوقف أمام المرآة ينظر الى صورته بامعان وارتياح ثم قال مخاطبا امه بلهجة آمرة وهو يغنظ نبرات صوته « زجاجة الكولونيا يا أمينة » ، وكان يعلم أنها لا تلبي هــذا النداء ولكنه جعل يمسح على وجهه وجاكيتته وبنطلونه القصير بيديــــه كأنه يبللها بالكولونيا ، ومع أن آمه كانت تغالب الضحك الا أنه ثابر على التظاهر بالجد والصرامة ، وراح يستعرض وجهه في المرآة من جانبه الايمن الى الايسر ، ثم مضى يسوى شاربه الوهمي ويفتل طرفيه • ثم تحول عن المرآة وتجشأ ، ونظر صوب أمه ، ولما لم يجد منها الا الضحك قال لهــا محتجا : « لماذا لا تقولين لي صحة وعافية ؟ » فغمغمت المرآة ضاحكــة : « صحة وعافية يا سيدي » ، هنالك غادر الحجرة مقلدا مشية أبيــه محركا يمناه كانه يتوكأ على عصاه ••

وبادرت الام والفتاتان الى المشربية ووقفن وراء شباكها المطل علــى النحاسين ليرين من ثقوبه رجال الاسرة في الطريق ، وبدا السيد وهو يسير في تؤدة ووقار يحف به الجلال والجمال رافعا يديه بالتحية بين حين وآخر وقد وقف له عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول والفولي اللبان وبيومي الشربتلي ، فأتبعنه أعينا مترعة بالحب والزهو • وتلاه فهمي فــي مشيته المتعجلة ، ثم ياسين في جسم الثور وأناقة الطاووس ، وأخيرا ظهــر كمال فلم يكد يخطو خطوتين حتى استدار ورفع بصره الى الشباك الذي يعلم أن امه وشقيقتيه مستخفيات وراءه ، وابتسم ، ثم واصل سيره متأبطا حقيبة كتبه منقبا في الارض عن زلطة ليركلها ••

كانت هذه الساعة من أسعد أوقات الام ، بيد أن اشفاقها من شــر الاعين على رجالها لم يقف عند حد ، فلم تكن تمسك عن تلاوة : « ومــن شر حاسد اذا حسد » حتى يغيبوا عن عينيها ••

وغادرت الام المشربية ، وتبعتها خديجة ، على حين تلكأت عائشةحتى خلا لها الجو فانتقلت الى جانب المشربية المطل على بين القصرين ومدت بصرها من تقوب الشباك في اهتمام ولهفة • بدا من لمعة عينيها وعضها على شفتيها انها تنتظر • ولم يطل بها الانتظار فقد مرق من عطفة الخرنفش ضابط بوليس شاب ومضى مقبلا متمهلا في طريقه الى قسم الجمالية ، عند ذلك غادرت الفتاة المشربية في عجلة الى حجرة الاستقبال ، واتجهت الى نافذتها الجانبية وأدارت أكرتها ففرجت مصراعيها عن زيق ووقفت وراءه وراءه وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معا • ولما اقترب الضابط من البيت رفع عينيه في حذر دون ان يرفع رأسه — فلم يكن أحد يرفع رأسه في مصر وقتذاك — فأضاءت أساريره بنور ابتسامة متوارية انعكست على وجه الفتاة اشراقة موردة بالحياء فتنهدت ، ثم أغلقت النافذة وهي تشد عليها بعصبية — كأنها تخفي آثار جريمة دامية — وتراجعت عنها مغمضة العينين من شدة الانفعال ، فأسلمت نفسها الى مقعد وأسندت رأسها الى يدها وساحت في جو مشاعرها اللانهائي • لم تكن سعادةخالصة، ولم يكن خوفا خالصا ، كأن قلبها موزعا بين هذا وتلك فهما يتجاذبانه بلا رحمة ، اذا استنامت الى نشوة الفرح وسحره قرعت قلبها مطرقة الخوف محذرة موعدة فلا تدري ايجمل بها ان تقلع عن مغامرتها أم تتمادى فيمطاوعة

قلبها ، كلا الحب والخوف شديد • ولبثت في تهويمها كثيرا أو قليلا ، فاستكنت هواتف الخوف والتأنيب ، ومضت تنعم بسكرة الحلم في ظل سلام ، وذكرت ــ كما يلذ لها أن تذكر دائما ــ كيف كانت تنفض الستارة المسدلة على النافذة يوما فلاحت منها نظرة الى الطريق من النافذة التي فتحت نصف فتحة لطرد الغبار فوقعت عليه وهو يتطلع الى وجهها في دهشة مقرونة بالاعجاب ، فتراجعت فيما يشبه الذعر ، ولكنه لم يذهب قبل ان يترك في مخيلتها أثرا باقيا من منظر نجمته الذهبية وشريطة الاحمر ، منظر يخلب اللب ويسرق الخيال ، فظل يتخايل لعينيها طويلا • وفي نفس الساعة من اليوم التالي ــ والأيام التالية ــ راحت تقف وراء الخصاص دون ان يراها ، ولمست في فرحة ظافرة كيف يتطلع بعينيه الى النافذة المغلقة باهتمام وتشوق ، ثم كيف أخذ يستبين شبحها وراء الخصاص فتشع اساريره ضياء البهجة ، وقلبها المشبوب ــ الذي يتمطى مستيقظا لاول مرة ــ ينتظر هذه اللحظة في لهفة ويذوقها في سعادة ويودعها فيما يشبه الحلم ، حتى دار الشهر وعاد يوم التنفيض مرة اخرى فانبرت الى الستارة تنفضها وراء النافذة المواربة متعمدة ــ هذه المرة ــ ان ترى ، وهكذا يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، حتى غلب التعطش للمزيد من الحب الخوف الجاثم فخطت خطوة ــ جنونية ــ وفرجت مصراعي النافذة ووقفت وراءها وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معا ، كأنها تعلن حبها له ، بل كانت كمن يقذف بنفسه من علو ساحق ليتقي نارا مسنعرة تحيط به •

استكنت عواطف الخوف والتأنيب ومضت تنعم بسكرة الحلم في ظل سلام ، ثم افاقت من حلمها ، وصممت على ان تتحامى الخوف الذي ينغص عليها صفوها فجعلت تقول لنفسها استدرارا للطمأنينة : « لم تزلزل الارض ومر كل شيء بسلام ، لم يرني احد ولن يراني أحد ، ثم اني لم اقترف اثما ! » ونهضت قائمة ، ولكي توهم نفسها بخلو البال ترنمت ــ وهي تغادر الحجرة ــ بصوت عذب : « يا ابو الشريط الاحمر ياللي اسرتني

ارحم دلي » ، ورددتها مرة ومرة حتى جاءها صوت اختها خديجة من حجرة الطعام وهي تزعق في تهكم :

ــ يا ست منيرة يا مهدية ، تفضلي ، اعدت لك خادمتك السفرة .

وأتابها صوت أختها الى نفسها تماما فيما يشبه الرجه فهوت من عالم المثال الى عالم الواقع مرتعبه بعض الشيء لسبب غير ظاهر ــ ما دام كل شيء قد مر بسلام كما قالت لنفسها ــ ولكن اعتراض صوت آختها ــ بالذات ــ لغنائها وخواطرها ارعبها ، ربما لان خديجة كانت تقف منها موقف المنتقد ،بيد آنها طاردت هذا القلق الطارىء وأجابتها بضحكة مقتضبة ثم جرت الى حجرة الطعام فوجدت السماط معدا حقا وأمها مقبلة بالصينية. وقالت لها خديجة بحدة حال دخولها :

ــ تتلكئين بعيدا حتى أعد كل شيء وحدي ... كفاية لنا الغناء ...

ومع أنها كانت تتلطف معها في الحديث تفاديا من حدة لسانها الا أن اصرار الاخرى على قرصها بلسانها كلما سنحت فرصة جعلها تتعلق أحيانا باغاظتها فقالت مصطنعة الجد :

ــ آلم نتفق على تقسيم العمل بيننا في البيت ؟ فعليك هذا الواجب وعليّ الغناء ...

فنظرت خديجة الى أمها وقالت متهكمة وهي تعني الاخرى :

ــ يمكن ناوية تكون عالمة !

ولم تغضب عائشة ، وبالعكس قالت باهتمام مصطنع ايضا :

ــ وماله ! ... أنا صوتي كالكروان .

ومع أن قولها السابق لم يستثر غيظها لانه كان بين الدعابة الا ان كلامها الاخير استثاره لانه كان واضح الحق ، ولانها تنفس عليها جمال صوتها فيما تنفس عليها من مزايا فقالت في تجهم :

ــ اسمعي يا ست هانم ، هذا بيت رجل شريف لا يعيب بناته ان تكون اصواتهن كصوت الحمير ولكن يعيبهن ان يكن كالصورة لا فائدة منهن

ولا نفــع .

ـ لو كان صوتك جميلا كصوتي ما قلت هذا !

ـ طبعا ! ... كنت تغنين وأرد عليك ، تقولين يابو الشريط الاحمــر يا الي فاقول لك اسرتني ارحم ذلي وتترك الست « مشيــرة الى أمهــا » الكنس والمسح والطبخ .

وكانت الام ـ التي الفت هذا النقار ـ قد اتخذت مجلسها فقالــت برجاء :

ـ امسكا بالله واجلسا لنأكل فطورنا بسلام ..

وأقبلتا على السماط وجلستا وخديجة تقول :

ـ أنت يا نينة لا تصلحين لتربية احد ..

فتمتمت الام في هدوء :

ـ سامحك الله ، سأترك لك أمر التربية على الا تنسي نفســك ... « ثم مدت يدها الى الطبق » ... بسم الله الرحمن الرحيم ...

كانت خديجة في العشرين من عمرها ، فهي كبرى اخوتها فيما عــدا ياسين ـ اخاها من الاب ـ الذي ناهز عامه الواحد والعشرين ، وكانــت قوية ممتلئة ـ والفضل لام حنفي ـ مع ميل الى القصر ، أما وجهها فقــد قبس من قسمات الوالدين على نهج لم يراع فيه الانسجام ، ورثت عن أمها عينيها الصغيرتين الجميلتين ، وعن أبيها أنفه العظيم ، أو صورة مصغرة منه ولكن ليس الى القدر الذي يغتفر له ، ومهما يكن من شأن هذا الانف في وجه الاب الذي يناسبه ويكسبه جلالا ملحوظا فقد لعب في وجه الفتــاة دورا مختلفا .

أما عائشة فكانت في السادسة عشرة من ربيعها ، صورة من بــديــع الحسن ، رشيقة القد والقوام ـ وان عد هذا في محيط اسرتها من العيوب المتروك علاجها لام حنفي ـ ووجه بدري تزينه بشرة بيضاء مشربة بحمرة، وعينان زرقاوان احسنت اختيارهما من الاب مع أنف الام الصغير ، الــى

شعر ذهبي دللها به قانون الوراثة فخصها به وحدها من ميراث جدتها لابيها • وطبيعي لم تدرك خديجة ما يقوم بينها وبين شقيقتها من فوارق ، ولم تكن براعتها الفائقة في التدبير المنزلي والتطريز ولا نشاطها الدائب الذي لا يكل ولا يمل بمغنيين عنها شيئا ، فوجدت على الغالب نحوها غيرة لم تراع اخفاءها مما حمل الفتاة الحسناء على البرم بها في كثير من الاحايين• ولكن من سوء الحظ ان هذه الغيرة الطبيعية لم تترك رواسب سوداء في النفس ، و لعاها ان تروح عن حدتها بسخرية اللسان وسلاطته • واكثر من هذا ان كانت الفتاة رغم مشكلتها الطبيعية اما بالفطرة عامرة القلب بالحنو نحو الاسرة التي لا تعفى افرادها من مرارة تهكمها ، فلم تكن غيرتها الا نوبات تطول او تقصر ولكنها لم تنحرف بسجيتها الى الحقد او البغضاء ، بيد ان دأبها على السخرية ــ الذي اقتصر في الاسرة على الدعابة ــ خلق منها فيما وراء ذلك من الجيران والمعارف عيابة من الدرجة الأولى ، لا تقع عيناها من الناس الا على مناقصهم كعقرب البوصلة المنجذب الى القطب ابدا، واذا توارت المناقص تمحلت في الكشف عنها وتكبيرها ، ثم راحت تطلق على ضحاياها اوصافا تناسب عيوبهم كادت تغلب عليهم في محيط أسرتها ، فهده حرم المرحوم شوكت أقدم صديقة لوالديها تدعوها « المدفع الرشاش» لتناثر ريقها أثناء الحديث ، وهذه الست ام مريم جارتهم بالبيت الملاصق لبيتهم تسميها « لله يا اسيادي » لاستعارتها بعض الادوات المنزلية من بيتهم بين حين وآخر ، كما تدعو شيخ كتاب بين القصرين « شر ما خلق » لترديده هذه الآية ضمن سورتها كثيرا بحكم وظيفته مع قبح وجهه ، وبائع الفول « الاقرع » لصلعه ، واللبان « الاعور » لضعف بصره ، الى تسميات مخففة بعض الشيء خصت بها أسرتها ، فأمها « المؤذن » لتبكيرها في الاستيقاظ ، وفهمي « عمود السرير » لنحافته ، وعائشة « البوصة» للسبب نفسه ، وياسين « بمة كشر » لسمنته وأناقته • ولم تكن سلاطة لسانها من وحي السخرية فحسب ، فالحق انها لم تخل من قسوة على من عدا أهلها من

الخلق ، وهكذا اتسم نقدها للناس بالعنف ، وتجافى عن التسامح والعفو ، كما غلب عليها عدم الا كتراث للاحزان التي تلم بالناس يوما بعد يوم،وبدت هذه الغلظه في البيت في معاملة أم حنفي معامله لا تلقاها من احد سواهــا ، بــل في معــاملــة الحيوان الاليــف كالقــطط التــي تحظــى مــن عائشه باعزاز يفوق الوصف • وكانت معاملتها لام حنفي مثار خلاف بينها وبين امها ، فالام تعامل الخدم كما تعامل اهل بيتها سواء بسواء ، وكــان ظنها بالناس انهم ملائكة فلم تدر كيف تسيء الظن بأحد ، على حين دأبــت خديجة على سوء الظن بالمرأة تمشيا مع طبيعتها التي تسيء الظن بالنــاس جميعا ، ولم تخف تخوفها من بياتها غير بعيد من غرفه الخزين فقالت لامها: « من اين تجيئها هذه السمنة المفرطة ؟! ••• من الوصفات التي تصنعها ؟! كلنا نتعاطى وصفاتها فلا نسمن سمنتها ، ولكنه السمن والعسل اللذان تطفح منهما بغير حساب ونحن نيام » •

ولكن الام دافعت عن أم حنفي ما وسعها الدفاع ، ولما ضاقت بالحاح ابنتها قالت : « فلتأكل ما تشاء ، الخير كثير ، وبطنها له حد لا يتعداه فلن نجوع على أي حال » ، ولم يعجبها قولها وراحت تفحص صفائح السمــن وبلاليص العسل كل صباح وام حنفي ترى هذا باسمة لانها كانت تحــب الاسرة كلها اكراما لستها الطيبة • وعلى النقيض من هذا كان حنان الفتاة حيال اهلها جميعا فلم يكن يهدأ لها بال اذا اصابت احدهم وعكة ، ولمــا مرض كمال بالحصبة ابت الا ان تشاركه فراشه ، حتى عائشة نفسها لم تكن تطيق ان يلم بها أهون سوء ، فلم يكن مثل قلبها لا في بروده ولا في رحمته•

وباتخاذها مجلسها من السماط تناست ما نشب بينها وبين عائشة من نقار واقبلت على الفول والبيض بشهية كانت مضرب الامثال في الاسرة • وكان للطعام بينهن ــ الى فائدته الغذائية ــ غاية جمالية عليا بصفته الدعامة الطبيعية للسمنة ، فكن يتناولنه في تــؤدة واهتمام ، ويبالغــن في سحقه وطحنه ، فاذا شبعن لم يمسكن ولكن يستزدن منه حتى يمتلئن ، علـــى تفاوت تبعا لطاقاتهن ، فكانت الام أسرعهن الى الانتهاء ، تليها عائشة ، ثم

تنفرد خديجة ببقايا المائدة فلا تتخلى عنها الا وهي أطباق مغسولة • ولم تكن نحافة عائشة لتتناسب مع اجتهادها في الاكل فضلا عن عصيانها لسحر البلابيع ، مما دعا خديجة للسخرية منها والقول بان المكر السيء هو الذي يجعلها تربة غير صالحة للبذور الطيبة التي تلقى فيها ، كما كان يطيب لها ان تعلل نحافتها بضعف دينها فتقول لها : « كلنا نصوم رمضان الا انت ، تتظاهرين بالصوم ، وتندسين في حجرة الخزين كالفأرة وتملئين بطنك بالجوز واللوز والبندق، ثم تفطرين معنا بنهم يحسدك عليه الصائمون ولكن الله لا يبارك لك » • وكانت ساعة الفطور من الأوقات النادرة التي يخلين فيها الى أنفسهن ، فكانت أخنق الاوقات بالمكاشفة ونفض السرائر خاصة في الامور التي يدعو الى كتمانها عادة الحياء البالغ الذي تتسم به مجالس الاسرة الحاوية للجنسين • وكان لدى خديجة ما تقوله رغم انهماكها في الاكل فقالت بصوت هادىء يختلف كل الاختلاف عن الصوت الذي كانت تزعق به منذ حين قصير •

ــ نينة •• حلمت حلما غريبا ••

فقالت الام قبل ان تزدرد لقمتها مبالغة في اكرام ابنتها المخيفة :

ــ خير يا بنتي ان شاء الله ••

فقالت خديجة باهتمام مضاعف :

ــ رأيت كأني امشي على سور سطح ، ربما كان سطح بيتنا او غيره ، واذا بشخص مجهول يدفعني فأهوي صارخة ••

وامسكت أمينة عن تناول طعامها في اهتمام جدي فلازمت الفتاة الصمت قليلا لتستأثر بأكبر قدر من الاهتمام حتى تمتمت الام :

ــ اللهم اجعله خيرا •••

وقالت عائشة وهي تغالب ابتسامة :

ــ لم أكن انا الشخص المجهول الذي دفعك •• اليس كذلك !

وخافت خديجة ان يفسد الجو بالمزاح فصاحت بها :

ـ انه حلم وليس لعبا فكفي عن هذرك « ثم مخاطبة امها » •• هويت صارخة ولكني لم ارتطم بالارض كما توقعت بل وقعت على جواد ،حملني وطار •••

وتنهدت امينة في ارتياح كأنما أدركت ما وراء الحلم واطمأنت اليه ، وعادت الى طعامها مبتسمة ، ثم قالت :

ـ من يدري يا خديجة ؟••• لعله العريس •• !

لم يكن يباح الكلام عن « العريس » الا في هذه الجلسة ، وفي ايجاز باشارة اشبه ، ووجب قلب الفتاة الذي لم يكربه شيء كما أكربه أمر الزواج ، وكانت على ايمان بالحلم وتأويله بحيث وجدت لكلام أمها سرورا عميقا ، بيد أنها أرادت ان تداري حياءها بالسخرية كعادتها ـ ولو من نفسها ـ فقالت :

ـ أتظنين الجواد عريسا ؟•• لن يكون عريسي الا حمارا ••

فضحكت عائشة حتى تطاير نثار الطعام من فيها ، ثم خافت ان تسيء خديجة فهم ضحكتها فقالت :

ـ لشد ما تظلمين نفسك يا خديجة ! •• ما فيك من شيء يعاب •••

فحدجتها خديجة بنظرة تنم عن الحذر والشك على حين راحت الام تقول :

ـ أنت فتاة نادرة المثال ، من يضارعك في مهارتك او نشاطك ؟ ••• وروحك الخفيفة ووجهك اللطيف ؟ ماذا تريدين أكثر من هذا ؟

فمست الفتاة بسبابتها ارنبة أنفها وتساءلت ضاحكة :

ـ الا يسد هذا طريق الازواج ؟

فقالت الام مبتسمة :

ـ كلام فارغ ••• ما زلت صغيرة يا بنية ••

وتضايقت لذكر الصغر لانها لم تكن تعد نفسها صغيرة بالقياس الى سن الزواج ، وخاطبت أمها قائلة :

ـ لقد تزوجت يا نينة وانت دون الرابعة عشرة .
فقالت الام التي لم تكن في الحق دون ابنتها قلقا :
ـ لا يتقدم امر أو يتأخر الا باذن الله ...
وقالت عائشة في صدق :
ـ ربنا يفرحنا بك قريبا يا خديجة ..
فلحظتها خديجة برية وذكرت كيف طلبت احدى جاراتهم يدها لابنها فرفض الاب ان يزوج الصغرى قبل الكبرى ، وتساءلت :
ـ أتودين حقا أن أتزوج أم تتمنين ان يخلو لك السبيل فتتزوجي !..
فقالت عائشة ضاحكة ! ...
ـ الاثنين معا ...

ـ ٦ ـ

ولما فرغن من الفطور قالت الام :
ـ عليك يا عائشة الغسيل اليوم ، وعلى خديجة تنظيف البيت ، ثم تلحقان بي في حجرة الفرن ..
كانت أمينة توزع بينهما العمل عقب الفطور مباشرة ، ومع انهما يرضيان بحكمها ، وترضى به عائشة بلا مناقشة ، الا أن خديجة تكلف بتوجيه الملاحظات على سبيل الاستعلاء او على سبيل المشاكسة ، فلهذا قالت :
ـ أنزل لك عن التنظيف اذا كنت تستثقلين الغسيل ، أما التمحك بالغسيل للبقاء في الحمام حتى ينتهي العمل في المطبخ فعذر مرفوض مقدماه
وتجاهلت الفتاة ملحوظتها ومضت الى الحمام وهي تدندن فقالت خديجة متهكمة :
ـ يا بختك بالحمام يرن فيه الصوت كما يرن في نفير الفونوغراف فغني وسمعي الجيران ...

وغادرت الام الحجرة الى الدهليز ثم الى السلم ورقته الى السطح لتجول فوقه جولتها الصباحية قبل أن تنزل الى حجرة الفرن • لم يكن التشاحن بين الفتاتين بالجديد عليها بعد ان انقلب مع الايام عادة مألوفة في غير الاوقات التي يوجد فيها الاب في البيت ، أو التي يطيب فيها السمر بين أفراد الاسرة ، وجعلت تعالجه بالرجاء والدعابة والرقة البالغة ، وهي السياسة الوحيدة التي تنتهجها ازاء ابنائها لانها صادرة عن طبع لا يطيق سواها ، اما ما تقتضيه التربية احيانا من الحزم فشيء لم تعرفه ، ربما تمنته دون ان تقدر عليه ، وربما حاولت تجربته فغلبها التأثر والضعف ، وكأنها لا تحتمل ان يقوم بينها وبين ابنائها غير اسباب المودة والحب ، تاركة للاب ـ او لشخصيته التي تسيطر من بعيد ـ تقويم المعوج والزام كل حدوده • لهذا لم يضعف النقار السخيف من اعجابها بفتاتيها ورضائها عنهما ، حتى عائشة المولعة لحد الهوس بالغناء والوقوف امام المرآة ، لم تكن دون خديجة مهارة وتدبيرا بالرغم من تكاسلها • وكان هذا حريا بأن يمد لها في اوقات الراحة لولا ما طبعت عليه من وسوسة بالداء اشبه ، فهي تأبى الا ان تشرف على كل صغيرة وكبيرة بالبيت • واذا فرغ الفتاتان من عملهما نشطت هي بالمكنسة في يد والمنفضة في يد وراحت تتفقد الحجرات والصالات والدهاليز ، متفحصة الاركان والجدران والستائر وسائر العفش عسى ان تزيل نقطة غبار منسية ، واجدة لذة وارتياحا كأنما تزيل قذى من عينيها ، ومن وسوستها تلك انها كانت تفحص الثياب المعدة للغسيل قبل غسلها ، فاذا عثرت على قطعة منها قد خرقت قذارتها المألوفة لم تترك صاحبها دون ان تتلطف في تنبيهه الى واجبه ، من كمال الذي يناهز العاشرة الى ياسين الذي كان ذا ذوقين متناقضين في العناية بنفسه يتجليان في تأنقه المفرط في مظهره من البدلة والطربوش والقميص ورباط الرقبة والحذاء ، واهماله المعيب لثيابه الداخلية ، ومن الطبيعي الا تغفل هذه العناية الشاملة السطح وسكانه من الحمام والدجاج ، بل كانت ساعة السطح حافلة بالحب

والسرور فيها من أغراض العمل ما فيها ، الى ما تجده من فرحة اللهـــو والمرح ، ولا عجب فالسطح هو الدنيا الجديدة التي لم يكن للبيت الكبير بها عهد قبل انضمامها اليه ، خلقته بروحها خلقا جديدا على حين ظل البيت محافظا على الهيئة التي شيد عليها منذ عهد سحيق . هذه الاقفاص المثبتة في بعض جدرانه العالية يهدل عليها الحمام من وضعها ، وهذه الاكـــواخ الخشبية يقوقىء الدجاج في مسارحها من تركيبها ، وكم يملكها الفرح وهي ترمي الحب او تضع على الارض آنية السقيا فيستبق اليها الدجـاج وراء ديكها . وتنهال مناقيرها على الحب في سرعة وانتظام كابر آلة الخيـاطة ، مخلفة في الارض التربة بعد حين ثغرات دقيقات كآثار الرذاذ . وكم ينشرح صدرها اذ تنظر فتراها رانية اليها بأعين دقيقة صافية ، مستطلعة متسائلة ، ناقة مقوقئة ، في مودة متبادلة ينز لها قلبها الحنون . احبت الدجاج والحمام كما تحب مخلوقات الله جميعا ، فهي تناغيها مناغاة رقيقة تحسب انها تفهمها وتتأثر لها . ذلك ان خيالها يخلع الحياة الشاعرة العاقلة علـى الحيـوان ، واحيانا الجماد نفسه ، وعندها بمنزلة اليقين ان هذه الكائنات تسبح بحمد ربها وتتصل بعالم الروح بأسباب ، فعالمها بأرضه وسمائه ، حيوانه ونباته ، عالم حي عاقل . ثم لا تقتصر مزاياه على نعمة الحياة فيكملها بالعبادة . لم يكن غريبا بعد هذا ان تكثر معاتيقها من الديوك والدجاج معتلة بسبب او آخر ، هذه لانها معمرة وتلك لانها بياضة وهذا لانها تستيقظ على صياحه، ولعلها لو تركت وشأنها ما ارتضت ان تعمل سكينها في رقابها ، واذا دعتها الظروف الى الذبح تخيرت الدجاج او الحمام فيما يشبه الضيق ، ثم نسقيها وتترحم عليها وتبسمل وتستغفر ، وتذبحها وعزاؤها انها تستمتع بحق منحه الله المنان واوسع به على عباده . اما اعجب ما في السطح فكان نصفـــه الجنوبي المشرف على النحاسـين حيـث غرست يـداها فـي الاعـوام الخالية حديقة فريدة لا نظير لها في اسطح الحي كله التي تغطى عادة بطبقة من قاذورات الدواجن ، بدأت اول ما بدأت بعدد قليل من اصص القرنفل والورد ، وراحت تستكثر منها عاما بعد عام حتى نضدت صفوفا بحـذاء

اجنحة السور ونمت نموا بهيجا ، وخطر لخيالها ان تقيم فوق حديقتهـــا سقيفة ، فاستدعت نجارا فأقامها ، ثم غرست شجرتي ياسمين ولبلاب ، ثم انشبت سيقانها في السقيفة وحول قوائمها ، فاستطالت وانتشرت حتـى استحال المكان بستانا معروشا ذا سماء خضراء ينبثق منها الياسمين ويتضوع في ارجائها عرف طيب ساحر . هذا السطح بسكانه من الدجاج والحمام ، وبستانه المعروش ، هو دنياها الجميلة المحبوبة ، وملهاها الاثير في هـذا العالم الكبير الذي لا تعرف عنه شيئا ، وكشأنها في مثل هذه الساعة مضت تتعهده برعايتها فكنسته ، وسقت زرعه ، وأطعمت الدجاج والحمام ، ثـم تملت طويلا المنظر المحيط بها بثغر باسم وعينين حالمتين ، ثم ذهبت الى نهاية البستان ووقفت وراء السيقان الملتفة المتشابكة تمد بصرها من ثغراتها الـى ما يليها من فضاء لا تحده حدود .

كم تروعها المآذن التي تنطلق انطلاقا ذا ايحاء عميق ، تارة عن قرب حتى لترى مصابيحها وهلالها في وضوح كمآذن قلاوون وبرقوق ، وتارة عن بعد غير بعيد فتبدو لها جملة بلا تفصيل كمـآذن الحسين والغـوري والازهر ، وثالثة من افق سحيق فتتراءى اطيافا كمآذن القنعة والرفاعـي وتقلب وجهها فيها بولاء وافتتان ، وحب وايمان ، وشكر ورجاء ، وتحلـق روحها فوق ذراها اقرب ما تكون الى السماء ، ثم تستقر منها العينان على مئذنة الحسين ، أحبها ــ لحب صاحبها ــ الى نفسها ، فتنفض نظرتها حنانا واشواقا ، مشوبة بحزن يطوف بها كلما ذكرت حرمانها من زيارة ابن بنت رسول الله وهي على مسير دقائق من مثواه . وتنهدت نهـدة مسموعـة ، أستردتها من استغراقها فثابت الى نفسها وراحت تتسلى بالنظر الى الاسطح والطرقات فلم تزايلها الاشواق ، ثم استدبرت السور وقد فاض بها التطلع الى المجهول ، المجهول بالقياس الى الناس جميعا وهو عالم الغيب ، والمجهول بالقياس اليها وحدها وهو القاهرة ، بل الاحياء المتاخمة التي تترامى اليهـا اصواتها . ترى ما هذه الدنيا التي لم تر منها الا المآذن والاسطح القريبة ؟! ربع قرن من الزمان خلا وهي حبيسة هذا البيت لا تفارقه الا مرات متباعدات

لزيارة أمها بالخرنفش ، وعند كل زيارة يصطحبها السيد في حانطور لانه كان لا يحتمل ان تقع عين على حرمه سواء وحدها أو بصحبته ، لم تكن ساخطة ولا متذمرة ، انها أبعد ما تكون عن هذا . بيد أنها ما تكاد تنفذ ببصرها من ثغرات الياسمين واللبلاب الى الفضاء والمآذن والاسطح حتى تعلو شفتيها الرقيقتين ابتسامة حنان واحلام . ترى اين تقع مدرسة الحقوق حيث يجلس فهمي في هذه اللحظة ؟ .. وأين مدرسة خليل اغا التي يؤكد كمال انها على مسير دقيقة من الحسين ؟ .. وقبل ان تغادر السطح بسطت كفيها ودعت ربها قائلة : « اللهم اسألك الرعاية لسيدي وابنائي ،وأمي ويس ، والناس جميعا مسلمين ونصارى ، حتى الانجليز يا ربي وأن تخرجهم من ديارنا اكراما لفهمي الذي لا يحبهم ... »

عندما بلغ السيد احمد عبد الجواد دكانه الذي يقع امام جامع برقوق بالنحاسين كان جميل الحمزاوي وكيله قد فتحه وهيأه للعمل ، فحياه السيد تحية رقيقة وهو يبتسم ابتسامة وضيئة واتجه الى مكتبه . وكان الحمزاوي في الخمسين من عمره ، انفق منها ثلاثين عاما في هذا الدكان ، وكيلا لمنشئه الحاج عبد الجواد ثم وكيلا للسيد بعد وفاة ابيه ، وظل على الوفاء للسيد بداع من العمل والحب معا ، فهو يجله ويحبه كما يجله ويحبه جميع من يتصل به بسبب من اسباب العمل او الصداقة . والحق لم يكن السيد مرهوبا مخوفا الا بين أهله ، أما بين سائر الناس من اصدقائه ومعارف وعملاء فهو شخص آخر ، له حظه الموفور من المهابة والاحترام ، ولكنه شخصية محبوبة قبل كل شيء . ومحبوبة لظرفها قبل أي من سجاياها الحميدة الكثيرة ، فلا الناس يعرفون السيد الذي يقيم في بيته ، ولا أهل البيت يعرفون السيد الذي يعيش بين الناس . وكان دكانه متوسط الحجم ، مكدسة رفوفه وجنباته بجوالات البن والارز والنقل والصابون، وعند ركنه الايسر في قبالة المدخل يقوم مكتب السيد بدفاتره واوراقه وتليفونه ، والى اليمين من مجلسه تقوم الخزانة الخضراء داخل الجدار يوحي منظرها بالصلابة ويذكر لونها بالاوراق المالية . وفي منتصف الجدار

فوق المكتب علق اطار من الابنوس نقشت بداخله البسملة مموهة بالذهب. ولم تكن عجلة الدكان تدور قبل الضحى . فجعل السيد يراجع حسابات اليوم السابق بمثابرة ورثها عن ابيه وحافظ عليها بحيويته الموفورة ، على حين وقف الحمزاوي عند المدخل شابكا ذراعيه على صدره مواصلا تلاوة ما تيسر له من الآيات في صوت باطني غير مسموع دلت عليه حركة شفتيه المستمرة ، ووسوسة خافتة تند من آن لآن عن احرف السين والصاد ، ولم يتوقف عن تلاوته حتى جاء شيخ ضرير رتبه السيد للقراءة كل صباح . وكان السيد يرفع رأسه من الدفتر في فترات متباعدة فيستمع الى التلاوة أو يمد بصره الى الطريق حيث لا ينقطع تيار المارة وعربات اليد والكارو ، وسوارس التي تكاد تترنح من كبرها وثقلها ، والباعة المغنون وهم يترنمون بطقاطيق الطماطم والملوخية والبامية كل على مذهبه ، ولم تكن الضوضاء لتحول بينه وبين تركيز ذهنه بعد ما اعتادها وألفها أكثر من ثلاثين عاما فاستنام اليها حتى ليزعجه سكوتها . ثم جاء زبون فشغل الحمزاوي به ، وأقبل نفر من اصحاب السيد وجيرانه من التجار ممن يحبون أن يقضوا معه وقتا طيبا ولو لزمن وجيز يتبادلون فيه التحية ويغيرون ريقهم ـ على حد تعبيرهم ـ على دعابة من دعاباته أو نكتة من نكاته ، الامر الذي جعله يفاخر بنفسه كمحدث فائق البراعة ، لا يخلو حديثه من لمعات غير مقطوعة الصلة بالثقافة العامة التي اكتسبها ، لا من التعليم حيث توقف فيه دون الابتدائية ، ولكن من قراءة الصحف ومصادقة نخبة من الاعيان والموظفين والمحامين الذين أهله لمخالطتهم ـ مخالطة الند للند ـ حضور بديهته ولطفه وظرفه ومنزلته كتاجر موفور الرزق ، فاستجد لنفسه عقلية غير العقلية التجارية المحدودة ضاعف من اعتزازه بها ما حباه اولئك الممتازون من حب واحترام وتكريم ، ولما قال له أحدهم مرة في صدق واخلاص : «لو أتيح لك يا سيد أحمد أن تدرس القانون لكنت محاميا مفوها نادر المثال» نفخ قوله في خيلائه الذي يحسن مداراته بظرفه وتواضعه وحلو معاشرته . ولم يطل بأحد من الوافدين الجلوس فذهبوا تباعا . وتزايدت حركة العمل

بالدكان ، ثم فجأة دخل رجل مهرولا كأنما دفعته يد قوية ،ووقف في منتصف الدكان وهو يضيق عينيه الضيقتين ليحد بصره ، وسددهما صوب مكتب السيد ، ومع انه لم يكن يفصله عنه اكثر من ثلاثة امتار الا أنه أجهده في معاينته بلا طائل ، ثم هتف متسائلا :

ـ السيد احمد عبد الجواد موجود ؟

فقال السيد باسما :

ـ أهلا وسهلا بالشيخ متولي عبد الصمد ، تفضل ، حلت البركة ..

وعطف الرجل رأسه فصادف اقتراب الحمزاوي منه ليسلم عليه ولكنه لم ينتبه ليده الممدودة وعطس على غير انتظار فتراجع الحمزاوي وهو يخرج منديله وقد التقت في صفحة وجهه ابتسامة وتقطيبة ، واندفع الشيخ الى المكتب وهو يتمتم « الحمد لله رب العالمين » ، ثم رفع طرف عباءته ومسح به على وجهه ، وجلس على الكرسي الذي قدمه السيد له . وبدأ الشيخ في صحة يحسد عليها على سنه التي جاوزت الخامسة والسبعين ، ولولا عيناه الكليلتان الملتهبتا الاشفار ، وفوه المندثر ، ما وجد ما يشكوه ، وكان يتلفع بعباءة بالية ناصلة وان امكنه ان يستبدل بها خيرا منها بما يجود به المحسنون ، ولكنه استمسك بها لانه ـ فيما يقول ـ رأى الحسين في منامه وهو يباركها فبث فيها خيرا لا يبلى ، وكان الى كراماته في قراءة الغيب والدعوات الشافية وعمل الاحجبة معروفا بالصراحة والظرف ، وبه متسع للدعابة والمزاح مما زاد من قدره عند السيد خاصة ، ومع انه كان من سكان الحي الا انه لم يثقل على احد من مريديه بالزيارات ، وربما توالت الاشهر وهو غائب لا يعلم له مكان ، فاذا ألم بزيارة بعد انقطاع لاقى ترحابا واشواقا وهدايا . وقد اشار السيد الى وكيله ليعد للشيخ الهدية المعتادة من الارز والبن والصابون ، ثم قال للشيخ مرحبا :

ـ اوحشتنا يا شيخ متولي ... منذ عاشوراء لم نستمتع برؤيتك ..

فقال الرجل ببساطة وبغير مبالاة :

ـ أغيب كما يحلو لي ،واحضر كما يحلو لي ،ولا أسأل عن السبب..

فابتسم السيد الذي ألف أسلوبه وتمتم قائلا :
ـ اذا غبت أنت فان بركتك لا تغيب ..
فلم يبد على الشيخ انه تأثر لاطرائه ، وعلى العكس حرك رأسه حركة تدل على نفاذ الصبر وقال بخشونة :
ـ ألم أنبه عليك اكثر من مرة بألا تفاتحني بالحديث ، وان تلـزم الصمت حتى أتكلم أنا ؟!
فقال السيد وبه رغبة في التحكك به :
ـ معذرة يا شيخ عبد الصمد ، لئن كنت نسيت تنبيهك فعذري اني أنسيته لطول غيابك .
فضرب الشيخ كفا بكف وهتف :
ـ عذر أقبح من ذنب .. (ثم منذرا بسبابته) اذا تماديت فيمخالفتي امتنعت عن قبول هديتك !
فأطبق السيد شفتيه باسطا راحتيه استسلاما حاملا نفسه على الصمت هذه المرة ، فتريث الشيخ متولي ليتأكد من دخوله طاعته ، وتنحنح ثم قال:
ـ ابدأ بالصلاة على سيد الخلق الحبيب ...
فقال السيد من الاعماق :
ـ عليه الصلاة والسلام .
ـ وأثني على أبيك بما هو أهله ، رحمه الله رحمة واسعة واسكنـه فسيح جناته ، لأني به متخذا مجلسك هذا ، لا فارق بين الاب وابنه الا أن الراحل حافظ على العمامة واستبدلت بها هذا الطربوش ..
فتمتم السيد مبتسما :
فليغفر الله لنا ...
فتثاءب الشيخ حتى دمعت عيناه ثم استطرد قائلا :
ـ وأدعو الله أن يمن على أبنائك بالفلاح والتقوى ، ياسين وخديجة وفهمي وعائشة وكمال وأمهم آمين ..
ووقع نطق الشيخ باسمي خديجة وعائشة من أذني السيد موقعـا

غريبا على الرغم من كونه هو الذي أفضى اليه باسميهما منذ عهد طويل ليكتب لهما حجابين ، وليست اول مرة ينطق الشيخ باسميهما ، ولا آخر مرة ، ولكن لم يكن يتردد اسم واحدة من حريمه بعيدا عن الحجرات ــ ولو على لسان الشيخ متولي ــ حتى يقع من نفسه موقعا غريبا ينكره ولو الى حين • بيد انه غمغم قائلا :

ــ آمين يا رب العالمين ••

فتنهد الشيخ قائلا :

ــ ثم أسأل الله المنان ان يعيد الينا افندينا عباس مؤيدا بجيش من جيوش الخليفة لا يعرف له أول من آخر •••

ــ نسأله وليس شيء عليه بكثير ••

فعلا صوت الشيخ وهو يقول غاضبا :

ــ وان يمنى الانجليز وأعوانهم بهزيمة منكرة فلا تقوم لهم بعدها قائمة •

ــ ربنا يأخذهم جميعا •••

فحرك الشيخ رأسه في أسى وقال بحسرة :

ــ كنت بالامس سائرا في الموسكي فاعترض سبيلي جنديان استراليان وطالباني بما معي فما كان مني الا ان نفضت لهما جيوبي وأخرجت الشيء الوحيد الذي كان معي وهو كوز ذرة فتناوله احدهما وركله كالكرة وخطف الاخر عمامتي وحل الشال ومزقه ورمى به في وجهي •

وتابعه السيد وهو يغالب ابتسامة تراوده فما لبث أن داراها بالمبالغة في اظهار استيائه صائحا في استنكار :

ــ قاتلهم الله وأهلكهم •••

فأتم الرجل حديثه قائلا :

ــ رفعت يدي الى السماء وصحت : يا جبار مزق أمتهم كما مزقوا شال عمامتي •••

ــ دعوة مستجابة باذن الله ••

ومال الشيخ الى الوراء وأغمض عينيه ليستريح قليلا ، ولبث على حاله والسيد يتفرس في وجهه مبتسما ، ثم فتح عينيه وخاطب السيد بصوت هادىء ونبرات جديدة تنذر بموضوع جديد ، قائلا :

ـ يا لك من رجل شهم جميل المروءة يا احمد يا ابن عبد الجواد ..

فابتسم السيد في رضى وقال بصوت خفيض :

ـ استغفر الله يا شيخ عبد الصمد ..

فبادره الشيخ قائلا :

ـ لا تتعجل ، ان مثلي لا يلقى الثناء الا تمهيدا لقول الحق ، على سبيل التشجيع يا ابن عبد الجواد ..

فلاح الاهتمام والحذر في عيني السيد وتمتم قائلا :

ـ ربنا يلطف بنا ...

فأشار اليه بسبابته العجراء وتساءل فيما يشبه الوعيد :

ـ ماذا تقول ، وأنت المؤمن الورع ، في ولعك بالنساء ؟!

كان السيد معتادا لصراحته فلم ينزعج لانقضاضه ، وضحك ضحكة مقتضبة ثم قال :

ـ ما علي من ذلك ، ألا يحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حبه للطيب والنساء ؟

فقطب الشيخ ومط بوزه محتجا على منطق السيد الذي لم يعجبه وقال :

ـ الحلال غير الحرام يا ابن عبد الجواد ، والزواج غير الجري وراء الفاجرات ...

فمد السيد بصره للاشيء وقال بلهجة جدية :

ـ ما ارتضت نفسي يوما ان تعتدي على عرض او كرامة قط ، والحمد لله على ذلك ...

فضرب الشيخ ركبتيه بيديه وقال بغرابة وباستنكار :

ـ عذر ضعيف لا ينتحله الا ضعيف ،والفسق لعنة ولو يكن بفاجرة،

كان ابوك رحمه الله مولعا بالنساء فتزوج عشرين مرة فلماذا لا تنتهج سبيله وتتنكب طريق المعاصي ؟!

فضحك السيد ضحكة عالية وقال :

ـ أأنت ولي من أولياء الله أم مأذون شرعي ؟! كان أبي شبه عقيم فأكثر من التزوج ، وبالرغم من أنه لم ينجب سواي الا ان عقاره تبدد بيني وبين زوجات أربع مات عنهن ، الى ما ضاع على النفقات الشرعية في حياته ، أما أنا فأب لثلاثة ذكور واثنين ، وما يجوز لي ان أنزلق الى الاكثار من الزوجات فأبدد ما يسر الله علينا من رزق ، ولا تنس يا شيخ متولي أن غواني اليوم هن جواري الامس واللاتي أحلهن الله بالبيع والشراء ، والله من قبل ومن بعد غفور رحيم ...

فتأوه الشيخ وقال وهو يهز نصفه الاعلى يمنة ويسرة :

ـ ما أبرعكم يا بني آدم في تحسين الشر ، والله يا ابن عبد الجواد لولا حبي لك ما باليت ان تحدثني وانت قاعد على فاجرة ..

فبسط السيد راحتيه وقال باسما :

ـ اللهم استجب ..

فنفخ الشيخ متبرما وهتف قائلا :

ـ لولا مزاحك لكنت اكمل الناس ..

ـ الكمال لله وحده ...

فالتفت اليه وهو يشير بيده كانه يقول « فلندع هذا جانبا » ثم ساءله بلهجة المحقق الذي ضيق عليه الخناق :

ـ والخمر ؟ ... ماذا تقول فيها ؟!

وسرعان ما فترت روح السيد ولاح في عينيه الضيق ولزم الصمت مليا ، وآنس الشيخ من صمته تسليما فصاح بظفر :

ـ أليست حراما لا يقارفه من يحرص على طاعة الله ومحبته ؟ فبادره السيد قائلا في حماس من يدفع بلاء محققا :

ـ لشد ما أحرص على طاعة الله ومحبته !

ـ باللسان ام بالعمل ؟!

ومع ان الجواب كان حاضرا الا انه تمهل متفكرا قبل ان ينطق به • لم يكن من عادته ان يشغل نفسه بالتفكير الذاتي او التأمل الباطني • شأنه في ذلك شأن الذين لا يكادون يخلون الى أنفسهم ، ففكره لا يعمل حتى يبعثه الى العمل شيء خارجي ، رجل أو امرأة أو سبب من اسباب حياته العملية ، وقد استسلم لتيار حياته الزاخر مستغرقا فيه بكليته ، فلم ير من نفسه الا صورتها المنعكسه على سطح التيار ، ثم لم يتراخ توثبه للحياة مع تقدم العمر لانه بلغ الخامسة والاربعين ولم يزل يتمتع بحيوية فياضة مشبوبة لا يتأثر بها الا الشاب اليافع ، لذلك جمعت حياته شتى المتناقضات التي تراوح بين العبادة والفساد ، وحازت جميعا رضاه على تناقضها دون ان يدعم هذا التناقض بسند من فلسفة ذاتية أو تدبير مما يصطنع الناس من ألوان الرياء ، ولكنه كان يصدر في سلوكه عن طبيعته الخاصة بقلب طيب وسريرة نقية واخلاص في كل ما يفعل ، فلم تعصف بصدره عواصف الحيرة ، وبات قرير العين • وكان ايمانه عميقا ، أجل كان ايمانا موروثا لا دخل للاجتهاد فيه ، بيد ان رقة مشاعره ولطافة وجدانه واخلاصه اضفت عليه احساسا رهيفا ساميا نأى به عن أن يكون تقليدا أعمى ، او طقوسا مبعثها الرغبة او الرهبة فحسب ، وبالجملة كان ابرز ما يتميز به ايمانه بالحب الخصب النقي • بهذا الايمان الخصب النقي أقبل يؤدي فرائض الله جميعا ، من صلاة وصيام وزكاة في حب ويسر وسرور ، الى سريرة صافية وقلب عامر بحب الناس ونفس تسخو بالمروءة والنجدة جعلت منه صديقا عزيزا يستبق القوم الى الري من منهله العذب ، وبتلك الحيوية الفياضة المشبوبة فتح صدره لمسرات الحياة ولذائذها ، يهش للمأكل الفاخر ،ويطرب للشراب المعتق ، ويهيم بالوجه القسيم ، فينهل منها جميعا في مرح وبهجة وولع ، غير مثقل الضمير باحساس خطيئة او وسواس قلق ، فهو يمارس حقا منحته اياه الحياة ، وكانما لا تعارض بين حق الحياة على قلبه وحق الله على ضميره ، فلم يشعر في ساعة من حياته بأنه بعيد عن الله أو عرضة لنقمته ، وآخاه في

السلام • أكان شخصين منفصلين في شخصية واحدة ؟!•• أم كان اعتقاده في السماحة الالهية بحيث لا يصدق أنها تحرم هاتيك المسرات حقا ، وحتى في حال تحريمها فهي حرية بأن تعفو عن المذنبين ما لم يؤذوا أحدا ؟! الارجح أنه كان يتلقى الحياة بقلبه واحساسه دون ثمة تفكير او تامل ، وجد بنفسه غرائز قوية ، يطمح بعضها لله فراضها بالعبادة ، ويتحفز بعضها الآخر للذات فأرواها باللهو ، وخلطها بنفسه جميعا آمنا مطمئنا دون ان يشق على نفسه بالتوفيق بينها • لم يكن يضطر الى تبريرها بفكره الا تحت ضغط انتقاد كالذي جابهه الشيخ متولي عبد الصمد ، وفي هذه الحال يجد نفسه اضيق بالتفكير منه باتهمه نفسها ، لا لانه يهون عليه ان يكون متهما أمام الله ولكن ، لانه لا يصدق ابدا انه متهم ، أو أن الله يغضبه حقا ان يلهو لهوا لا يصيب أحدا باذى ، أما التفكير فكان يتعبه من ناحية ويكشف عن تفاهة علمه بدينه من ناحية أخرى • لذلك تجهم للسؤال الذي ألقاه الرجل عليه متحديا وهو « باللسان ام بالعمل » وأجابه بلهجة لا يخفى فيها الضيق :

ــ باللسان والعمل معا ، بالصلاة والصيام والزكاة ، بذكر الله قائما وقاعدا ، وما على بعد ذلك اذا روحت عن نفسي بشيء من اللهو الذي لا يؤذي احدا أو يغفل فريضة ، وهل حرم محرم الا لهذا أو ذاك ؟

فرفع الشيخ حاجبيه واغمض عينيه معلنا عن عدم اقتناعه ثم تمتم :

ــ يا له من دفاع في سبيل الباطل !

وتحول السيد فجأة من الضيق الى المرح كعادته فقال بأريحية :

ــ الله غفور رحيم يا شيخ عبد الصمد ، اني لا أتصوره عز وجل غاضبا او متجهما أبدا ، حتى انتقامه رحمة خافية ، واني اقدم بين يديه الحب والطاعة والبر ، والحسنة بعشر أمثالها ••

ــ أما في حساب الحسنات فأنت رابح •••

فأشار السيد الى جميل الحمزاوي ليأتي بهدية الشيخ وهو يقول مسرورا :

ــ حسبنا الله ونعم الوكيل •

وجاءه الوكيل باللفة فأخذها السيد وقدمها الى الشيخ وهو يقــول ضاحكا :

ــ في صحتك ..

فتناولها الشيخ وهو يقول :

ــ رزقك الله رزقا واسعا وغفر لك ..

فغمغم السيد « آمين » ثم سأله باسما :

ــ ألم تكن يوما من أهل ذلك يا سيدنا الشيخ ؟!

فضحك الشيخ قائلا :

ــ سامحك الله ، أنت رجل كريم طيب القلب ، وبهذه المناسبة احذرك من التمادي في الكرم فانه لا يتفق وما يطالب به التاجر من القصد ..

فتساءل السيد دهشـــا :

ــ أتغريني باسترداد الهدية ؟

فنهض الرجل وهو يقول :

ــ هديتي لا تجاوز القصد فابدأ بغيرها يا ابن عبد الجواد والســلام عليكم ورحمة الله ...

وغادر الشيخ الدكان مهرولا وغاب عن الانظار . ولبث السيد مفكرا، ومضى يدير في نفسه ما ثار من جدل بينه وبين الشيخ ثم بسط راحتيه في ضراعة وتمتم « اللهم اغفر لي ما تقدم وما تأخر من ذنب ، اللهم انك انــت الغفور الرحيم » ...

★ ★

عند العصر غادر كمال مدرسة خليل أغا يضطرب في تيار زاخر مــن التلاميذ الذين يسدون الطريق بزحمتهم ثم يأخذون في التفرق ، بعضــهم الى الدراسة ، وبعضهم الى السكة الجديدة ، وآخرون الى طريق الحسين ، على حين تتحلق جماعات منهم الباعة المتجولين الذين يعترضون تياراتهــم عند رؤوس الطرقات المتفرقة عن المدرسة بما تحمل سلالهم من اللب والفول السوداني والدوم والحلوى ، والى هذا فلا يخلو الطريق في هذه الساعة

من معارك تنشب هنا وهناك بين تلاميذ اضطروا الى كتمان خلافاتهم في أثناء النهار تفاديا من العقوبات المدرسية • وكانت المرات التي سيق فيها الى الاشتباك في معركة نادرة جدا ، ولعلها لم تعد المرتين طوال العامين الذين قضاهما في المدرسة ، لا لندرة خلافاته التي لم تكن نادرة في الواقع ، ولا لكراهية للعراك فقد أورثه اضطراره الى تجنبه أسفا عميقا ، ولكن لتقدم الكثرة الغالبة من التلاميذ عليه في السن مما جعله هو وقلة من آترابه غرباء في المدرسة ، يتعثرون في بنطلوناتهم القصيرة بين تلاميذ طعنوا فيما بعد الخامسة عشرة وكثيرون منهم ناهزوا العشرين ، فشقوا طريقهم في صلف وكبرياء وقد طرت شواربهم • من هؤلاء من كان يتعرض له في فناء المدرسة بلا سبب فيخطف الكتاب من يده ويقذفه بعيدا كالكرة ، أو من يسلبه قطعة من الحلوى فيدسها في فمه بغير استئذان مواصلا ما كان فيه من حديث ، فلم تكن الرغبة في العراك لتنقصه ولكنه كظمها تقديرا للعواقب ، وما لباها حتى دعاه اليها احد اقرانه الصغار • فوجد في الهجوم عليه متنفسا لعواطفه الثائرة المكبوتة واستردادا لثقته بقوته ونفسه • وليس العراك ، أو العجز عنه ، بأسوأ ما لاقى من وقاحة المعتدين ، فالى هذا ما كان يترامى الى أذنيه ، سواء كان المقصود به أم غيره ، من الشتائم والسباب ، منه ما فطن لمعناه فحذره ، ومنه ما جهله فردده في البيت بحسن نية فأثار به عاصفة من الثورة والفزع اتصلت انباؤها في صورة شكوى لضابط المدرسة الذي كان صديقا لابيه • ولكن سوء الحظ وحده هو الذي قضى بأن يكون أحد غريميه في المعركتين الوحيدتين اللتين خاضهما من أسرة فتوات معروفة بالدراسة ، فلما كان عصر اليوم التالي للمعركة وجد الغلام في انتظاره عند باب المدرسة عصابة من الشبان مدججين بالعصي في هالة من شر مستطير ، ولما اشار اليه غريمه ليدل عليه تنبه لحركته وأدرك ما يتربص به من خطر فتراجع هاربا الى المدرسة وهو يستغيث بالضابط ، وعبثا حاول الرجل ان يصرف العصابة عن مقصدها ، وأغلظوا له القول حتى اضطر الى استدعاء شرطي ليوصل الغلام الى داره ، وزار الضابط السيد في دكانه وانبأه بما

يتهدد ابنه من شر ناصحا اياه بمعالجة الامر بالحلم والكياسة ، ولجأ السيد الى بعض معارفه من تجار الدراسة فمضوا الى بيت الفتوات مستشفعين له، وهنالك استعان السيد بما عرف عنه من سماحة نفس ورقة شمائل حتى الإن عريكتهم فأصدروا عن الغلام عفوهم بل وتعهدوا بحمايته كأحد أبنائهم ، ولم ينته اليوم حتى بعث السيد بمن يحمل اليهم نفحة من هداياه، ونجا كمال من عصي الفتوات ولكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لان عصا أبيه فعلت بقدميه ما لم تكن لتفعله عشرات العصي •

غادر الغلام المدرسة • ومع أنه كان لرنين الجرس المؤذن بانتهاء اليوم الدراسي فرحة في نفسه لا تعادلها فرحة في تلك الايام الا أن نسائم الحرية التي تنشقها خارج بوابة المدرسة بصدر رحب لم تمح أصداء الدرس الاخير الحبيب ــ درس الديانة ــ من قلبه • وقد قرأ عليهم الشيخ ذلك اليوم سورة « قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن » وشرحها لهم ، فتركز فيه بوعيه ، ورفع أصبعه اكثر من مرة سائلا عما أغلق عليه ، ولما كان الاستاذ يعطف عليه لاقباله على الاستماع لدرسه باهتمام بارز ، الى حفظه للسور حفظا جيدا ، فقد اوسع صدره لاسئلته بحال يندر ان يحظى بها أحد التلاميذ ، وراح الشيخ يحدثه عن الجن وطوائفهم ، وعن المسلمين منهم خاصة الذين سيظفرون بالجنة في النهاية أسوة باخوانهم من البشر ، وحفظ الغلام عن ظهر قلب كل كلمة نطق بها ، ولم يزل يديرها في نفسه حتى هذه اللحظة التي يعبر فيها الطريق قاصدا دكان البسبوسة على الجانب الاخر ، فالى شغفه بالديانة كان يعلم أنه لا يتلقاها لنفسه فحسب ، وأن عليه أن يعيد ما وعى منها في البيت على أمه ــ كما اعتاد ان يفعل مذ كان في الكتاب ــ فيلقي اليها بمعلوماته وتستعيد هي على ضوئها ما عندها من معلومات عرفتها عن ابيها الذي كان شيخا أزهريا • ويتذاكران معرفهما طويلا ثم يحفظها الجديد من السور التي لم يسبق لها حفظها • وانتهى الى دكان البسبوسة فمد يده الصغيرة بالملاليم التي احتفظ بها منذ الصباح ، ثم تناول القطعة في ارتياح شامل لا يشعر به الا في مثل هذا الموقف اللذيذ ، مما جعله يحلم

كثيرا بان يكون يوما صاحب دكان حلوى ليأكلها لا ليبيعها ، ثم واصل سيره في شارع الحسين وهو يقضم منها مسرورا مترنما . نسي وقتذاك انه كان سجينا النهار كله ، وأنه كان محروما من الحركة فضلا عن اللعب والمرح، وانه كان عرضة في أية لحظة لعصا المدرس المسلطة على الرؤوس ، بيد أنه رغم هذا كله لم يكره المدرسة كراهية مطلقة لانه كان يظفر بين جدرانها بأسباب من التقدير والتشجيع ـ بسبب تفوقه الذي يرجع كثير من الفضل فيه الى شقيقه فهمي ـ لا يحظى بعشر معشارها عند أبيه . ومر في طريقه بدكان ماتوسيان لبيع السجائر فوقف كعادته كل يوم في مثل هذه الساعة لافتتها يصعد عينيه الصغيرتين الى الاعلان الملون الذي يصور امرأة مضطجعة على ديوان وبين شفتيها القرمزيتين سيجارة يتطاير منها خيط دخان متعرج ، معتمدة بساعدها على حافة نافذة يلوح وراء ستارتها المنحسرة منظر يجمع بين حقل نخيل ومجرى من مجريات النيل ، وكان يدعوها فيما بينه وبين نفسه « أبلة عائشة » لما بين الاثنتين من شبه يتمثل في الشعر الذهبي والعينين الزرقاوين ، ومع أنه كان يناهز العاشرة الا ان اعجابه بصاحبة الصورة فاق كل تقدير ، فكم تخيلها متمتعة بالحياة في أبهج مظاهرها ،وكم تخيل نفسه وهو يقاسمها حياتها الرغيدة بين حجرة ناعمة ، ومنظر ريق متاح لها ـ لهما ـ أرضه ونخيله وماؤه وسماؤه ، يسبح في الوادي الاخضر او يعبر النهر في قارب بدا في نهاية الصورة كالطيف ، او يهز النخيل فيساقط عليه الرطب ، أو يجلس بين يدي الحسناء طامح الطرف الى عينيها الحالمتين. على انه لم يكن جميلا كأخويه ، ولعله كان أشبه الاسرة بأخته خديجة ، فمثلها قد جمع في وجهه بين عيني أمه الصغيرتين وأنف أبيه الضخم ولكن بكامل هيئته لا مهذبا بعض التهذيب كما ورثته خديجة ، الى رأس كبير يبرز عند الجبهة بروزا واضحا جعل عينيه تبدوان غائرتين أكثر مما هما في الواقع ، وكان من سوء الحظ ان نبه الى غرابة صورته بحال مثيرة للسخرية حين دعاه أحد الرفاق بأبي « رأسين » فأهاج غضبه وأورطه في احدى المعركتين اللتين خاضهما ، ولم يسكن خاطره الانتقام فشكا في البيت حزنه

الى أمه التي تكدرت لكدره وراحت تغريه مؤكدة له أن كبر الرأس من كبر العقل ، وان النبي عليه السلام كان كبير الرأس ، وأنه ليس وراء التشابه بين الرسول وبينه من مطمع لطامع • ولما انتزع نفسه من صورة المدخنة واصل سيره رانيا هذه المرة الى جامع الحسين الذي قضت نشأته بأن يكون لقلبه مثار أخيلة وعواطف لا تنضب • ومع أن المكانة التي نزلها الحسين من نفسه ـ تبعا لمنزلته من نفس أمه خاصة والاسرة عامة كانت وليدة قرابته من النبي الا ان معرفته للنبي وسيرته لم تكن شفيعا الى معرفته بالحسين وسيرته ، وما تهفو نفسه دائما اليه من استعادة هذه السيرة والتزود منها بأنبل القصص وأعمق الايمان •حتى لقد وجدت منه على مر القرون مستمعا مشغوفا ومحبا مؤمنا وأسيفا بكاء ، فلم يهون من بلواه الا ما قيل من أن رأس الشهيد بعد فصله عن جسده الطاهر لم يرض من الارض مسكنا الا في مصر فجاءها طاهرا مسبحا ثم ثوى حيث يقوم ضريحة • وكم وقف حيال الضريح حالما مفكرا ، يود لو ينفذ ببصره الى الاعماق ليطلع على الوجه الجميل الذي أكدت له أمه أنه قاوم غير الدهر بسره الالهي فاحتفظ بنضارته ورونقه حيث يضيء ظلمة المثوى بنور غرته ، ولما لم يجد الى تحقيق أمنيته سبيلا قنع بمناجاته في وقفات طويلة ، مفصحا عن حبه ، شاكيا اليه متاعبه الناشئة من تصوراته عن العفاريت وخوفه من تهديد أبيه مستنجدا به على الامتحانات التي تلاحقه كل ثلاثة اشهر ، ثم خاتما مناجاته عادة بالتوسل اليه أن يكرمه بالزيارة في منامه • ومع ان عادة مروره بالجامع صباحاومساء خففت بعض الشيء من شدة تأثره به الا أنه لم تكن تقع عليه عيناه حتى يقرأ له الفاتحة ولو تكرر ذلك منه مرات في اليوم الواحد ، أجل لم تستطع العادة ان تقتلع من صدره بهجة الاحلام ، فلم يزل لمنظر الجدران السامقة تجاوبها مع قلبه ، ولم يزل لمئذنته العالية نداء ما أسرع أن تلبيه نفسه •قطع طريق الحسين وهو يقرأ الفاتحة ثم انعطف الى خان جعفر ، ومنها اتجه الى بيت القاضي ، ولكنه بدلا من أن يمضي الى البيت مخترقا النحاسين عبر الميدان الى درب قرمز على وحشته وأثارته لمخاوفه ليتفادى من المرور

بدكان أبيه . كان يرتعد فرقا من أبيه ولا يتصور أنه يخاف العفريت لو طلع له أكثر منه اذا زعق به غاضبا . وضاعف من كربه انه لم يقتنع يوما بالاوامر الصارمة التي يلاحقه بها للحيلولة بينه وبين ما تصبو اليه نفسه من اللعب والمراح ، فلو انه اذعن لمشيئته مخلصا لقضى وقت فراغه كله متربعا مكتوف اليدين لذلك لم يسعه ان يطيع تلك المشيئة الجبارة العاتية واختلس اللهو من وراء ظهره كلما حلا له ، في البيت او في الطريق ، وظل الرجل على جهل بأمره الا ان يبلغه منه شيء بوشاية من أهل البيت اذا ضاقوا بغلوه وأفراطه . من ذلك انه جاء يوما بسلم وارتقاه الى عرش اللبلاب والياسمين فوق السطوح ، ورأته أمه وهو على تلك الحال بين السماء والارض فصرخت فزعة حتى اجبرته على النزول ، ثم غلب اشفاقها من مغبة لعبة خطيرة كتلك على خوفها عليه من شدة أبيه فصرحت للسيد بما كان منه ، وسرعان ما دعا به وأمره أن يمد قدميه وانهال عليهما بعصاه غير مبال بصراخه الذي ملأ البيت ، وغادر الغلام الحجرة وهو يطلع ليجد اخوته في الصالة وهم يغالبون ضحكهم الا خديجة التي حملته بين يديها هامسة في أذنه « تستاهل ... كيف تعلو اللبلاب وتناطح السماء ! أحسبت نفسك زبلن !؟ » على أنه فيما عدا الالعاب الخطرة كانت أمه تتستر عليه وتبيح له ما يشاء من اللعب البريء . ولشد ما يعجب كلما ذكر كيف كان هذا الاب نفسه ظريفا لطيفا معه على عهد طفولته القريبة ، وكيف كان يتسلى بمداعبته وكيف كان ينفحه من آن لاخر بألوان شتى من الحلوى ، وكيف هون عليه يوم الختان ــ على فظاعته ــ فملأ حجره بالشيكولاتة والملبس وشمله بعطفه ورعايته ، ثم ما اسرع ان تغير كل شيء فتبدل عطفه صرامة ، ومناغاته زعقا ، ومداعباته ضربا ، حتى الختان نفسه اتخذه اداة لارهابه حتى اختلط عليه الامر ردحا من الزمن فظن أنه من الممكن حقا ان يلحقوا ما تبقى له بما ذهب ! وليس الخوف وحده الذي شعر به نحو ابيه فاجلاله له لم يكن دون خوفه منه ، كان يعجب بمظهره العظيم القوي ، ومهابته التي تعنو لها الهام ، واناقة ملبسه ، وما يعتقده فيه من قدرة على كل شيء ، ولعل حديث الام عن

سيدها هو الذي هوله عنده فلم يتصور أنه يوجد في الدنيا رجل يضارعه في قوته او جلاله أو ثروته • أما عن الحب فقد كان كل من في البيت يحب الرجل لحد العبادة فانسرب حبه الى قلبه الصغير بايحاء البيئة ، بيد انه ظل جوهرة مكنونة في حق مغلق من الخوف والرعب • مضى يقترب من قبو درب قرمز المظلم الذي تتخذه العفاريت مسرحا لالعابها الليلية • والذي آثره لنفسه طريقا عن المرور بدكان أبيه ، وعندما دخل في جوفه راح يقرأ « قل هو الله أحد » بصوت مرتفع رن في الظلمة تحت السقف المنحني ، وسبقته عيناه الى فوهة القبو البعيدة حيث يشع نور الطريق ، ثم حث خطاه وهو يردد السورة لطرد من تحدثه نفسه بالظهور من العفاريت ، فالعفاريت لا سبيل لها على من يدرع بآيات الله ، أما أبوه فلن يدرأ غضبه عنه اذا ثار أن يتلو كتاب الله كله • وخرج من القبو الى الشطر الاخر من الدرب ،وعند نهايته طالعه سبيل بين القصرين ومدخل حمام السلطان ، ثم لاحت لعينيه مشربيات بيته بلونها الاخضر القاتم ، والباب الكبير بمطرقته البرنزية فافتر ثغره عن ابتسامة فرح لما يدخره له هذا المكان من أفانين المرح ، فعما قليل يهرع الغلمان اليه من جميع البيوت المجاورة الى فناء الدار الواسع الذي يحوي عدة حجرات تتوسطها الفرن فيكون لعب ولهو وبطاطة • وفي تلك اللحظة رأى سوارس وهي تقطع الطريق على مهل متجهة الى بين القصرين فوثب قلبه وشاع فيه سرور ماكر ، وما لبث ان دس حقيبة كتبه تحت ابطه الايسر وجرى وراءها حتى ادركها ثم وثب الى سلمها الخلفي • ولكن الكمساري لم يتركه في سروره طويلا فجاءه يطالبه بثمن التذكرة وهو يرمقه بنظرة تنم عن ريبة وتحد فقال له متوددا انه سيغادرها حالما تقف لانه لا يسعه النزول وهي سائرة ، فتحول الرجل عنه الى السائق وهتف به ان يوقف العربة وهو يزمجر غاضبا فانتهز الغلام فرصة تحوله عنه وشب على أمشاط قدميه وصفعه ثم وثب الى الارض وانطلق هاربا وشتائم الكمساري تلاحقه أشد من الاحجار المطينة ! ••• لم تكن خطة مدبرة ،ولا هي من مختار شطارته ، ولكنه رأى غلاما يفعلها في الصباح فراقت له ، ثم

وجد سانحة لاعادتها بنفسه ففعل ...

★ ★

واجتمعت الاسرة ـ ما عدا الاب ـ قبيل المغيب فيما يعرف بينهـا بمجلس القهوة ، وكانت الصالة بالدور الاول مكانه المختار حيث تحيط بها حجرات نوم الاخوة والاستقبال ورابعة صغيرة اعدت للدرس وقد فرشت الصالة بالحصر الملونة وقامت في اركانها الكنبات ذوات المساند والوسائد . وتدلى من سقفها فانوس كبير يشعله مصباح غازي في مثل حجمه . وكانت الام تجلس على كنبة وسيطة وبين يديها مدفأة كبيرة دفنت كنجة القهوة حتى النصف في جمراتها التي يعلوها الرماد ،والى يمينها خوان وضعت عليه صينية صفراء صفت عليها الفناجين ، يجلس الابناء حيالها سواء من يؤذن له باحتساء القهوة معها كياسين وفهمي او من لا يؤذن له بحكم التقاليد والآداب فيقنع بالسمر كالشقيقتين وكمال . تلك ساعةمحببة الى النفوس يستأنسون فيهاالى رابطتهم العائلية ، وينعمون بلذة السمر . وينضوون جميعا تحت جناح الامومة في حب صاف ومودة شاملة : وبدت في جلساتهم راحة الفراغ وتحرره فكانوا بين متربع ومضطجع ، وبينما جعلت خديجة وعائشة تستحثان الشاربين على الفراغ من شربهم لتقرآ لهم الطالع في فناجينهم راح ياسين يتحدث حينا ويقرأ في قصة اليتيمتين من مجموعة مسامرات الشعب حينا آخر . كان من عادة الشاب ان يهب بعض فراغه لمطالعة القصص والاشعار ـ لا لاحساسه بنقص تعلمه فالابتدائية وقتذاك لم تكن مطلبا صغيرا ـ ولكن غراما بالتسلية وولعا بالشعر والاساليب الجزلة . وقد بدا بجسمه المكتنز في جلبابه الفضفاض كقربة هائلة الا ان مظهره لم يتعارض ـ بحكم الزمن ـ مع قسامة في وجهه الاسمر الممتلىء بعينيه السوداوين الجذابتين وحاجبيه المقرونين وشفتيه الشهوانيتين ، ونم بجملته ـ رغم حداثة سنه الذي لا يجاوز الواحدة والعشرين ـ على رجولة مفعمة بالفحولة . ولبد كمال لصقه ليلتقط مايرمي اليه بين آونة واخرى من نوادر القصص وهو لا يكف عن الاستزادة

منها غير مكترث لما يحدثه الحاحه على أخيه من الضيق كي يشبع أشواقـا تشتعل بخياله في مثل هذه الساعة من كل يوم ، ولكن ما أسرع ان يشغل عنه ياسين بالحديث او بالاستغراق في المطالعة متفضلا عليه بين حين وآخر ـ كلما اشتد الحاحه بكلمات مقتضبة ان وجد بها الجواب على بعض اسئلته فما احرى ان تستثير اسئلة جديدة لا جواب لها عنده ، ثم لا يفتأ يرمق اخاه وهو آخذ في المطالعة التي تبيح له مفتاح العالم السحري بعين الحسد والحزن ، فكم حز في نفسه عجزه عن قراءة القصة بنفسه ، وكم أحزنه ان يجدها بين يديه بحيث يقلبها كيف شاء دون ان يسعه حل رموزها فالولوج منها الى دنيا الرؤى والاحلام ، فقد وجد في هذا الجانب من ياسين مشارا لخياله هيأ له من الوان المسرة ما هيأ ، وهيج من أسباب الظمأ وعذابه ما هيج . وكثيرا ما كان يرفع عينيه الى أخيه ويسأله في لهفة « وماذا حدث بعد ذلك ؟ » فينفخ الشاب قائلا : « لا تضيق علي بأسئلتك ولا تتعجل حظك فان لم أقص عليك اليوم فغدا » ، ولم يكن يحزنه شيء كاستنظاره للغد حتى اقترنت لفظة الغد في ذهنه بالحسرة ، ولم يكن نادرا ان يتحول الى أمه بعد تفرق المجلس وبه أمل ان تقص عليه ما «حدث بعد ذلك »ولكن المرأة كانت تجهل قصة اليتيمة وغيرها مما يقرأ ياسين الا أنها يعز عليها ان ترده خائبا فتروي له ما تحفظ من حكايات اللصوص والعفاريت فيزوغ خياله اليها رويدا ظافرا بزاد من العزاء . في مجلس القهوة ذاك لم يكن عجيبا ان يشعر بانه ضائع مهمل بين اهله . لا يكاد يلتفت اليه احد ، وانهم مشغولون عنه باحاديثهم التي لا تنتهي ، فلم يتورع عن الاختلاق في سبيل الاستئثار باهتمامهم ولو الى حين ، ولذلك رمى بنفسه في مجرى الحديث معترضا تياره بجرأة وقال بلهجة حادة فجائية كانطلاق القذيفة كأنما تذكر امرا خطيرا بغتـة :

ـ يا له من منظر لا ينسى الذي رأيته اليوم وانا عائد ! ... رأيت غلاما يثب الى سلم سوارس ثم صفع الكمساري وركض باكبر سرعة فما كان من الرجل الا أن عدا وراءه حتى أدركه ثم ركله في بطنه بكل قوته ..

وقلب عينيه في الوجوه ليرى اثر حديثه فلم يجد ثمة اهتمام ولمس اعراضا عن خبره المثير وتصميما على مواصلة الحديث ، بل رأى يد عائشة تمتد الى ذقن أمه وتحولها عنه بعد أن همت بالاصغاء اليه ، ولمح الى هذا ابتسامة هازئة ترتسم على شفتي ياسين الذي لم يرفع رأسه عن الكتاب ، فركبه العناد وقال بصوت مرتفع :

ـ وسقط الغلام يتلوى وازدحم حوله الناس فاذا به قد فارق الحياة..

وأبعدت الام الفنجان عن فمها وهتفت :

ـ يا ولداه ! ... أتقول انه مات ؟

وسر باهتمامها وركز قوته فيها كما يركز المهاجم اليائس قوته في نقطة ضعيفة من سور منيع فقال :

ـ أجل مات ، ورأيت بعيني دمه وهو يسيل بغزارة .. !

وحدجه فهمي بنظرة ساخرة كأنها تقول له « اني أذكر لك اكثر من قصة من هذا النوع » وقال متسائلا في تهكم :

ـ قلت ان الكمساري ركله في بطنه ؟ ... فمن أين سال الدم ؟!

وانطفأت شعلة الظفر التي تلألأت في عينيه مذ جذب أمه اليه ، وحل محلها سهوم الارتباك والحنق ، ولكن اسعفه الخيال فاستردت نظرة عينيه حيويتها وقال :

ـ لما ركله في بطنه سقط على وجهه فشج رأسه !

وهنا قال ياسين دون ان يرفع عينيه عن اليتيمة :

ـ أو أن الدم سال من فيه، فالدم قد يسيل من الفم دون حاجة الى جرح ظاهري . هنالك أكثر من تفسير لخبرك المكذوب ـ كالعادة ـ فلا تخف ...

واحتج كمال على تكذيب أخيه وراح يحلف بأغلظ الايمان على صدقه ولكن احتجاجه ضاع في ضجة من الضحك جمعت الغليظ والرفيع من حناجر الرجال والنساء في هارموني واحدة ، وتحركت طبيعة خديجة الساخرة فقالت :

ـ ما أكثر ضحاياك ، لو صدقت فيما تروي من اخبار لما أبقيت على أحد من أهل النحاسين حيا •••

ماذا تقول لربنا لو حاسبك على اخبارك هذه ؟!

ووجد في خديجة مهاجما يقدر عليه ، وكعادته كلما ارتطم بسخريتها راح يعرض بأنفها قائلا :

ـ أقول له ان الحق على منخور أختي •• !

فقالت الفتاة وهي تضحك :

ـ من بعض ما عندكم ، ألسنا في البلوى سواء !

وهنا قال ياسين مرة أخرى :

ـ صدقت يا أختاه ••

وتحولت اليه متحفزة للانقضاض فبادرها قائلا :

ـ هل أغضبتك ! ••• لماذا ! •• ليس الا أنني جاهرت بالموافقة على رأيك •••

فقالت له حانقة :

ـ أذكر عيوبك قبل ان تعرض بعيوب الناس •••

فرفع حاجبيه متظاهرا بالحيرة ثم تمتم :

ـ والله ان أكبر عيب ليهون الى جانب هذا الانف ••

وتظاهر فهمي بالاستنكار ثم تساءل في نبرات وشت بانضمامه الى المهاجمين :

ـ ماذا قلت يا أخي ، أهو أنف أم جريمة ؟

ولما كان فهمي لا يشترك في مثل هذا النضال الا نادرا فقد رحب ياسين بقوله في حماس وقال :

ـ هو الاثنان معا ، فكر في المسئولية الجنائية التي سيتحملها من يقدم هذه العروس الى عريسها المنكود !

وقهقه كمال ضاحكا بصوت كالصفير المتقطع ولم ترتح الام الى وقوع ابنتها بين كثرة من المهاجمين فأرادت ان ترجع الحديث الى أصله وقالت

بهـــدوء :

ـ خرج بكم الكلام الفارغ عن موضوع الحديث ، كان حديثا عن السيد كمال اصدق في أخباره أم لم يصدق ، ولكن أظن أنه لا داعي الـــى الشك في صدقه بعد أن حلف ٠٠ أجل كمال لا يحلف كذبا أبدا ٠٠

وباخ سرور الغلام الانتقامي لتوه ، ومع ان اخوته واصلوا المزاح حينا آخر الا آنه انقطع عنهم بروحه ، متبادلا مع امه نظرة ذات معنى ، ثم خاليا بنفسه متفكرا في قلق وكدر ٠ كان يدرك خطورة الحلف الكاذب فيما يثير من سخط الله واوليائه ، ويعز عليه جدا ان يحلف كذبا بالحسين خاصـــة لولهه به ، ولكنه كثيرا ما وجد نفسه في مأزق حرج ـ كما وجد اليوم ـ لا مخرج منه في نظره الا بالحلف الكاذب ، فينساق وهو لا يدري الـــى التورط فيه ٠ بيد أنه لم يكن ينجو ، خاصة اذا ذكر بجريرته ، مـــن الهـــم والقلق ، ويود لو يقتلع الماضي السيىء من جذوره ، وأن يبدأ صفحةجديدة نظيفة ، وذكر الحسين ، وموقفه عند أصل مئذنته حيـــث تتراءى وكأن هامتها تتصل بالسماء ، وسأله في ضراعة ان يعفو عن زلته وهو يشعـــــر بغضاضة من اجترأ على حبيب باساءة لا تغتفر ٠ وغرق في توسلاته مليـــا ثم أخذ يفيق الى ما حوله ويفتح أذنيه الى ما يدور من حديث فيه المعـــاد وفيه الجديد ، وقليل منه ما يسترعي انتباهه ، ولكنه لا يكاد يخلو من ترديد ذكريات منتزعة من ماضي الاسرة البعيد او القريب ، وانباء مما يجري عن مسرات الجيران واحزانهم ، ومواقف حرجة للاخوين امام أبيهما الجبار ، تنبري خديجة الى استعادة وصفها وتحليلها على سبيل الفكاهة او الشماتة ، ومن هذه وتلك نمت للغلام معرفة تبلورت في مخيلته على صورة غريبة تأثر تكوينها غاية التأثر بما تجاذب طرفيه من روح خديجةالتهجمية العيابة وروح أمه السمحة العفوة ٠ واتنبه اخيرا الى فهمي وهو يقول مخاطبا ياسين :

ـ ان هجوم هندنبرج الاخير شديد الخطورة ولا يبعد ان يكـــون الهجوم الفاصل في هذه الحرب ٠

وكان ياسين يعطف على آمال أخيه ولكن فيهدوء متسم بقلةالاكتراث،

تمنى مثله ان ينتصر الالمان وبالتالي الترك وان تسترد الخلافة سابق عزتها ، وان يعود عباس ومحمد فريد الى الوطن ولكن أمنية من هذه الاماني لم تكن لتشغل قلبه في غير اوقات الحديث عنها ، وقد قال وهو يهز رأسه :

ــ مضى اربع سنوات ونحن نردد هذا الكلام ...

فقال فهمي برجاء واشفاق :

ــ لكل حرب نهاية ، ولا بد ان تنتهي هذه الحرب ، ولا أظن الالمان ينهزمون ! ...

ــ هذا ما ندعو الله ان يتحقق ، ولكن ماذا يكون رأيك لو وجدنا الالمان كما يصفهم الانجليز ؟!

ولما كانت المعارضة تشعل حدته فقد علا صوته وهو يقول :

ــ المهم ان نتخلص من كابوس الانجليز ، وأن تعود الخلافة الى سابق عظمتها فنجد طريقنا ممهدا ..

وتدخلت خديجة في الحديث متسائلة :

ــ لماذا تحبون الالمان وهم الذين ارسلوا زبلن ليلقي قنابله علينا ..!

وراح فهمي يؤكد ــ كعادته ــ ان الالمان قصدوا الانجليز بقنابلهم لا المصريين ، فانتقل الحديث الى مناطيد زبلن وما يقال عن ضخامتها وسرعتها وخطورتها ، حتى استوى ياسين في جلسته ونهض الى حجرته ليرتدي ملابسه تمهيدا لمغادرة البيت الى سهرته المعتادة ، وعاد بعد فترة وجيزة وقد تهيأ وأخذ زينته ، فتراءى أنيق الملبس ، جميل المظهر ، وبدا بجسمه الضخم وفحولته الناضجة وشاربه النابت اكبر من سنه كثيرا ، ثم حياهم وانصرف وشيعه كمال بنظرة تنم عما يغبطه عليه من التمتع بحريته في انطلاق ساحر ، فلم يغب عنه أن أخاه لم يعد يحاسب ــ منذ تعيينه كاتبا بمدرسة النحاسين ــ على ذهابه او ايابه ، وانه يسهر كما يشاء ويعود حين يشاء ، ما أجمل هذا وأسعده ، وكم يكون انسانا سعيدا لو ذهب وجاء كما يحب ، ومد سهرته الى حين يشاء ،وقصر القراءة ــ حين تتم له أداتها ــ على الروايات والاشعار ثم سأل أمه فجأة :

ـ أيمكنني اذا وظفت أن أسهر في الخارج كياسين ؟
وابتسمت الام قائلة :
ـ ليس السهر في الخارج بالغاية التي يصح أن تحلم بها من الان !
فصاح محتجا :
ـ ولكن أبي يسهر ، وياسين يسهر كذلك .
فرفعت الام حاجبيها ارتباكا وتمتمت :
ـ شد حيلك أولا حتى تصير رجلا ثم موظفا ، ووقتها يفرجها ربنا !
ولكن كمال بدا متعجلا فتساءل :
ـ ولماذا لا أتوظف بالابتدائية بعد ثلاثة أعوام ؟
وصاحت خديجة في سخرية :
ـ تتوظف دون الرابعة عشرة ! ... وماذا تصنع اذا بلت على نفسك في الوظيفة ؟!
وقبل ان يعلن ثورته على أخته قال له فهمي بازدراء :
ـ يا لك من حمار ... لماذا لا تفكر في دخول الحقوق مثلي ؟ ... ان ظروف ياسين القاهرة هي التي جعلته يأخذ الابتدائية في العشرين من عمره ، ولولاها لاتم تعليمه .. ألا تدري حتى كيف تتمنى يا كسول !

★ ★

عندما صعد فهمي وكمال الى سطح البيت كانت الشمس على وشك الاختفاء ، فلاحت قرصا ابيض مسالما تولت عنه حيويته وبردت حرارته وانطفأ توهجه ، وقد بدا بستان السطح المسقوف باللبلاب والياسمين في ظلمة وانية ، ولكن الشاب والغلام مضيا الى شطر السطح الاخر حيث لا يحجب فلول النور حجاب ، ثم مالا الى السور الملاصق لسور السطح المجاور ، سطح الجيران . وكان فهمي يرقى بكمال الى هذا الموضع كل مغيب بحجة مراجعة دروسه في الهواء الطلق على الرغم من ان جو نوفمبر أخذ يميل الى البرودة خاصة في هذه الساعة من اليوم ، وأوقف الغلام بحيث جعل ظهره الى السور ، ووقف هو لقاءه بحيث أمكنه ان يمد بصره

الى سطح الجيران الملاصق دون تلفت كلما بدا له • وهناك بين حبال الغسيل لاحت فتاة ــ شابة في العشرين او نحو ذلك ــ وقد انهمكت في جمع قطع الثياب الجافة وتكديسها في سلة كبيرة ، ومع ان كمال راح يتكلم بصوت مرتفع كعادته الا انها واصلت عملها وكأنها لم تنتبه الى مجيء الطارئين • أمل كان يجيء به دواما في مثل هذه الساعة لعله يفوز منها بنظرة اذا اتفق ودعاها الى السطح بعض شأنها ، ولم يكن تحقيقه يسيرا كما دل تورد وجهه الناطق بفرط سروره ،وخفقان قلبه المتتابع ببهجةمفاجئة، فجعل ينصت الى أخيه الصغير بعقل تائه وعينين أقلقهما استراق النظر ، وهي تتراءى تارة وتحتجب اخرى ، او يبدو بعضها ويغيب بعضها ،كيفما اتفق موقفها من الثياب والملاءات المنشورة •• كانت فتاة متوسطة القامة صافية البشرة مع ميل الى البياض ، سوداء العينين ، تنطق مقلتاها بنظرة تفيض حياة وخفة وحرارة ، الا أن جمالها وعاطفته المتوثبة واحساسه بالظفر لرؤيتها لم تستطع ان تمحو القلق الذي يدب وراء قلبه ــ وانيا حين حضورها تم قويا اذا خلا الى نفسه ــ لجرأتها على التعرض لعينيه كأنه ليس بالرجل الذي ينبغي أن تتوارى فتاة مثلها عن عينيه ، أو كانها فتاة لا تبالي التعرض للرجال ،وطالما ساءل نفسه ما بالها لا تفزع مولية كخديجة او عائشة لو وجدت احداهما نفسها في مثل موقفها ! أي روح عجيب يشذ بها عن التقاليد المرعية والآداب المقدسة !، والا يكون أهدأ جانبا لو بدا منها ذاك الاحتشام المفتقد ولو على حساب سروره الذي يفوق الوصف برؤيتها ؟!• بيد أنه دأب على انتحال الاعذار لها من قدم الجوار ووحدة النشأة ، وربما الوداد ايضا • ثم لا يفتأ وراء نفسه يحاورها ويجادلها حتى تخشع وترضى• ولما لم يكن جريئا كجرأتها فقد جعل يختلس من الاسطح المجاورة النظر ليطمئن الى خلوها من الرقيب لانه لم يكن مما يغض الطرف عنه ان يجرح شاب في الثامنة عشرة حرمة الجيران ، وخاصة من كان منهم في طيبة جارهم السيد محمد رضوان ولهذا أقلقه دائما شعوره بخطورة فعلته ، وخوفه من أن يترامى نبأها الى أبيه فتكون الطامة • ولكن استهانة الحب بالمخاوف

عجب قديم فلم يقدر شيء منها على افساد نشوته أو انتزاعه من حلم ساعته، فمضى يراقبها وهي تبدو او تختفي حتى خلا ما بينه وبينها وباتت تواجهه ويداها الصغيرتان ترتفعان وتنخفضان واصابعها تنقبض وتنبسط على مهل وتؤدة كانها تتعمد اطالة عملها وحدس قلبه ذاك التعمد وهو بين الشك والتمني ولكنه لم يقتصد في الانطلاق مع فرحته الى أبعد الآفاق حتى استحال باطنه رقصا وأنغاما ، ومع أنها لم ترفع عينيها اليه قط الا أن هيئتها وتورد وجنتيها وتحاميها النظر اليه نمت جميعا عن شدة احساسها بوجوده أو انعكاس وجوده على احساسها . وبدت في هدوئها وصمتها موفورة الرزانة كأنها ليست هي هي التي تشيع الفرح والبهجة في بيته اذا زارت شقيقتيه، أو ليست هي هي التي يعلو صوتها في جنبات الدار وترن ضحكاتها، هنالك يقبع وراء باب حجرته وكتابه في يده استعدادا للتظاهر بالاستذكار اذا طرقه طارق ، ويروح يستقبل بوعيه المركز أنغامها الناطقة والضاحكة بعد استخلاصها من اصوات الاخرين الملابسة لها التي لا يكاد يشعر بها كأنما وعيه مغناطيس يجذب اليه الصلب وحده من بين أخلاط شتى ، وربما لحظ بعضا منها وهو يعبر الصالة ، وربما التقت عيناهما في لمحة خاطفة ولكنها كافية لاسكاره واذهاله كأنه تلقى بها رسالة خطيرة دارت رأسه بخطورتها ، وملأ بنظراته المسترقة من وجهها عينيه وروحه ، فعلى الرغم من أنها كانت نظرات مسترقة خاطفة الا انها مستأثرة بروحه واحساسه فكانت شديدة النفاذ والقوة تأتي النظرة منها بما لا يستطيعه النظر الطويل والسبر العميق ، كأنها انبثاق البرق الذي يتوهج لحظة قصيرة فتضيء شرارته الرحاب وتخطف الابصار ، وثمل قلبه بسرور مسكر عجيب ولكنه لم يخل — كحاله ابدا — من ظل أسى يتبعه كما تتبع رياح الخمسين مشرق الربيع، لانه لم يكن يكف عن التفكير في الاربعة الاعوام التي يتم تعليمه فيها ،والتي لا يدري كم من يد قد تمتد في أثنائها الى الثمرة الناضجة لتقطفها . ولو كان جو البيت غير هذا الجو الخانق الذي تشد على عنقه قبضة ابيه الحديدية لامكنه ان يلتمس الى سلام قلبه أقصر السبل ، ولكنه خاف دائما

أن ينفس عن آماله فيعرضها لزجرة من أبيه قاسية تطيرها وتبددها •وتساءل وهو يمد بصره فوق رأس أخيه ترى أي افكار تدور برأسها ؟• الا يشغله حقا الا ما تجمع من قطع الملابس ! ••• ألم تشعر بعد بما يجذبه الى موقفه هذا مساء بعد مساء ؟ •• وكيف يلقى قلبها هذه الخطى الجريئة من ناحيته؟• وتخيل نفسه متخطيا سور السطح الى مكانها في الظلام ، وتخيلها على أطوار شتى تارة تنتظره على ميعاد ، وتارة تباغت بمقدمه حتى تهم بالفرار • ثم نصور ما يكون بعد ذلك وما يند عنه من بوح وشكوى وعتاب ، ثم ما قد يستتبعه هذا أو ذاك من عناق وقبل ، بيد أنها كانت محض تخيلات واوهام وكان ادرى الناس ـ بما جبل عليه من دين وآداب ـ ببطلانها ومحالها • وبدا الموقف صامتا الا انه كان صمتا مكهربا يكاد ينطق بغير لسان • وحتى كمال لاحت في عينيه الصغيرتين نظرة حائرة كأنه يسائل نفسه عن معنى هذا الجد الغريب الذي يثير استطلاعه على غير جدوى ، ثم نفد صبره فرفع صوته قائلا :

ـ لقد حفظت الكلمات • ألا تسمعها لي ؟

وأفاق فهمي على صوته فتناول الكراسة منه ومضى يسأله عن معاني الكلمات والاخر يجيب حتى وقعت عيناه على كلمة عزيزة وجد بينها وبين ما كان فيه سببا وأي سبب فرفع صوته عمدا وهو يسأله عن معناها قائلا :

ـ قلب •• ؟

واجاب الغلام وتهجي والاخر يتلمس أثر موقع الكلمة من وجهها ، ثم رفع صوته مرة أخرى متسائلا :

ـ حب ••• ؟

وارتبك كمال قليلا ثم قال بصوت يدل على الاعتراض :

ـ ليست هذه الكلمة في الكراسة •••

قال فهمي باسما :

ـ ولكني ذكرتها لك مرارا ، وكان يجب ان تحفظها •• !

وقطب الغلام كأنه يشد قوس حاجبيه لاصطياد الكلمة الهاربة

ولكن أخاه لم ينتظر نتيجة محاولته وواصل امتحانه بنفس الصوت المرتفع قـــائلا :

ـــ زواج ...

وخيل اليه عند ذاك انه لمح على شفتيها شبه ابتسامة فتوالت ضربات قلبه في سرعة وحرارة ، وملأه شعور بالظفر لانه امكنه أخيرا ان ينقل اليها شحنة من الكهرباء التي تستعر في صدره ، بيد أنه تساءل لماذا يا ترى لــم تفصح عن تأثرها الا عند هذه الكلمة ، ألانها استنكرت سابقتهـــا أم أن الاخيرة كانت اول ما وعت أذناها ؟! .. وما يدري الا وكمال يقول محتجا بعد أن أعياه التذكـــر :

ـــ هذه الكلمات صعبة جدا ..

وآمن قلبه بقولة أخيه البريئة ، وذكر على ضوئها حاله ففترت فـــورة سروره أو كادت ، وهم بالكلام ولكنه رآها انحنت على السلة ثم حملتها واتجهت نحو السور الملاصق لسطح بيته ووضعتها عليه وراحت تضغـــط الغسيل براحتيها ، قريبة من موقفه لا يفصلها عنه الا ذراعان ، ولو شاءت لاختارت موضعا اخر من السور ولكن كأنها تعمدت ان تتصدى له وجهـــا لوجه ، فبدت في هجومها جريئة لحد أخافه واربكه ، وان عاود قلبـــه الخفقان السريع الحار حتى شعر بأن الحياة تبيح له من كنوزها لونا جديدا لم يدره ، لطيفا بهيجا مفعما حيوية وافراحا . ولكن وقفتها القريبة لم تطل فما لبثت ان رفعت السلة بين يديها واستدارت مولية صوب باب السطـــح حتى مرقت منه وغابت عن ناظريه . وجعل ينظر الى الباب مليا دون مبالاة بأخيه الذي عاود التشكي من صعوبة الكلمة ثم شعر برغبة في الانفـــراد لتملي ما استجد من تجارب الهوى فقلب عينيه في الفضاء في تظاهر بالدهشة كانما يتنبه الى الظلمة الزاحفة في الافق لاول مرة ، وتمتم قائلا :

ـــ آن لنا ان نعود ...



وكان كمال يستذكر دروسه في الصالة ،تاركا حجرة الاستذكار نفهمي وحده ، ليكون غير بعيد عن مجلس امه واختيه . وكان ذلك المجلس امتدادا لمجلس القهوة الا انه يقتصر على النسوة وحديثهن الخاص الذي يجدن فيه على تفاهته متعة لا تدانيها متعة ، وقد جلسن كعادتهن متلاصقات كأنهن جسم واحد ذو رؤوس ثلاثة في حين تربع كمال على كنبة اخرى قبالتهم فاتحا كتابه في حجره يقرأ فيه حينا ، ويغمض عينيه ليحفظ عن ظهر قلب حينا آخر ، ويتسلى بين هذا وذاك بالنظر اليهن والاصغاء لحديثهن . ولم يكن فهمي يوافق على استذكاره لدروسه بعيدا عن مراقبته الا على كره ولكن تفوق الغلام في المدرسة شفع له في اختيار المكان الذي يحب ان يستذكر فيه . والحق كان اجتهاده فضيلته الوحيدة التي تحمد له ، ولولا شقاوته لاستحق عليها تشجيع أبيه نفسه ، ولكنه على اجتهاده وتفوقه كانت تلم به ساعات ملل فيضيق بالعمل والنظام حتى ليغبط امه واختيه على خلو بالهن وما يحظين به من راحة وسلام ، وربما تمنى فيما بينه وبين نفسه لو كان حظ الذكور في هذه الدنيا كحظ النساء الا انها كانت ساعات عابرةفلم تستطع ان تنسيه ما يتمتع به من مزايا دعته في احايين كثيرة الى التطاول عليهن بالفخر والمباهاة لداع ولغير ما داع فلم يكن من النادر ان يسألهن وفي صوته رنة التحدي « من منكن تعرف عاصمة الكاب ؟» او « ما معنى شاب بالانجليزية ؟ » فيجد من عائشة صمتا لطيفا على حين تقر له خديجة بجلها ثم تعرض به قائلة « ليس لهذه الطلاسم الا من كان له رأس كراسك ! »أما أمه فتقول له في ايمان ساذج « لو علمتني هذه الاشياء كما تعلمني الديانة لما قصرت فيها دونك » . ذلك أن أمه ــ على استكانتها ورقتها ــ كانت شديدة الاعتزاز بثقافتها الشعبية المتوارثة عن أجيال متعاقبة منذ القدم ،ولم تكن تظن انها بحاجة الى مزيد من العلم او انه استجد من العلم ما يستحق ان يضاف الى ما لديها من معارف دينية وتاريخية وطبية ، وضاعف من ايمانها بها انها تلقته عن أبيها أو في بيته الذي نشأت فيه ، وكان الاب شيخا من العلماء الذين فضلهم الله ــ لحفظهم القرآن ــ على العالمين ، فلم يكن

معقولا أن تعدل بعلمه علما ولو لم تجهر برأيها ايثارا للسلامة • ولهـذا كثيرا ما اساءت الظن ببعض ما يقال للابناء في المدارس ووجدت ثمة حيرة شديدة سواء في تفسيره او في السماح بتلقينه للناشئين • بيد انها لم تعثـر باختلاف يذكر بين ما يقال للغلام في المدرسة عن أمور الدين وبين ما لديها منها ، ولما كان الدرس المدرسي لا يكاد يتسع الا لقراءة السور وتفسيرها وتبين المبادىء الدينية الأولية فقد وجدت متسعا لقص ما عندها من أساطير لا تنفصل في اعتقادها عن حقيقة الدين وجوهره بل لعلها رأت فيها دائمـا حقيقة الدين وجوهره ، وجلها معجزات وكرامات عن النبي والصحابـة والاولياء ، وتعاويذ شتى للوقاية من العفاريت والزواحـف والامـراض فصدقها الغلام وآمن بها ، لأنها صادرة عن أمه من ناحية ، ولأنها جديـدة في موضوعها فلم تتعارض مع معارفه الدينية المدرسية من ناحية اخـرى • وفضلا عن هذا وذاك فلم تكن عقلية مدرس الديانة كما تتكشف في تبسطه في الحديث أحيانا ــ لتختلف عن عقلية أمه كثيرا او قليلا ، ثم أنه شغـف بالاساطير شغفا لم يظفر بمثله في الدروس الجافة فكان درس أمه من أسعد ساعات اليوم وأحفلها بالمتعة والخيال • أما فيما عدا الدين فلم يكن النزاع نادرا اذا تهيأت اسبابه ، من ذلك انهما اختلفا مرة عن الارض وهل هـي تدور حول نفسها في الفضاء أو تنهض على رأس ثور ، ولما وجدت من الغلام اصرارا تراجعت متظاهرة بالتسليم ، ولكنها تسللت الى حجرة فهمي وسألته عن حقيقة الثور الذي يحمل الارض وهل ما زال على عهده يحملها • ورأى الشاب ان يترفق بها ويجيبها باللغة التي تحبها فقال لها ان الارض مرفوعة بقدرة الله وحكمته ، وعادت المرأة قانعة بهذا الجواب الذي سرها وان لـم يمح من مخيلتهـا ذاك الثور الكبير • على ان كمـال لم يؤثر هذا المجلس لاستذكاره رغبة منه في الفخر بعلمه او حبا في النزاع الفكـري ، كـان في الحق يحب بكل قلبه الا يفارقهن ولو في وقت عمله ، وكان يجد لمرآهـن سرورا لا يعادله سرور • فهذه الام يحبها اكثر من اي شيء في الدنيا ولا يحتمل تصور الوجود بدونها لحظة واحدة ، وهذه خديجة وهي تلعب في

حياته دور أم أخرى رغم سلاطة لسانها ووخز مزاحها ، وهذه عائشة التي وان لم تتحمس يوما لخدمة انسان الا انها أحبته حبا عظيما فبادلها حبا بحب حتى كان لا يشرب جرعة الماء من القلة الا اذا دعاها للشرب قبله ليضع شفتيه موضع شفتيها المبتل بريقها . ومضت الجلسة كما تمضي كل ليلة حتى قاربت الساعة الثامنة فقامت الفتاتان وودعتا أمهما وذهبتا الى حجرة نومهما ، وعند ذاك عجل الغلام بقراءة درسه حتى فرغ منه ثم تناول كتاب الديانة وانتقل الى جانب أمه على الكنبة المقابلة له وهو يقول لها بصوت ينم عن الاغراء :

ــ استمعنا اليوم الى تفسير سورة عظيمة ستعجبك جدا ..

فاستوت المرأة في جلستها وهي تقول باحترام واجلال :

ــ كلام ربنا عظيم كله ..

وسره اهتمامها وهزه شعور بالغبطة والعزة لا يجده الا حين هذا الدرس الاخير من اليوم . أجل كان يجد في هذا الدرس الديني اكثر من سبب للسعادة ، فانه يقوم في أثناء نصفه على الاقل بدور المدرس ،ويحاول ما استطاع ان يستعيد ما يعلق بذاكرته من هيئة مدرسه وحركاته وما يتمثله فيه من احساس بالاستعلاء والقوة ، وانه يستمتع في نصفه الاخر بما تلقيه عليه أمه من ذكريات واساطير ، وانه يستأثر وحده في شطريه بأمه دون شريك . ونظر كمال في الكتاب فيما يشبه الادلال ثم قرأ « بسم الله الرحمن الرحيم . قل أوحي الى انه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا . يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احدا » حتى اتم السورة ولاح في عيني الام التردد والحيرة . اذ كانت تحذره من التفوه باسمي العفريت والجن درءا لشرور تذكر بعضها على سبيل التخويف وتمسك عن البعض اشفاقا ومبالغة في الحيطة ، فلم تدر كيف تتصرف وهو يتلو احد الاسمين الخطيرين في سورة شريفة ، بل لم تدر كيف تحول بينه وبين حفظها او ماذا تفعل لو دعاها كالمعتاد الى حفظها معه . وقرأ الغلام في وجهها هذه الحيرة فداخله سرور ماكر ، وجعل يبدأ ويعيد ضاغطا على مخارج الاسم الخطير وهو يلحظ حيرتها متوقعا أن تفصح

أخيرا عن اشفاقها في لون من الوان الاعتذار ، ولكنها على شديد حيرتها لاذت بالصمت فمضى يعيد عليها التفسير كما سمعه حتى قال :

ــ ها أنت ترين أن من الجن من استمع الى القرآن وآمن به ، فلعل سكان بيتنا من هؤلاء الجن المسلمين والا ما أبقوا علينا طوال هذا العمر .

فقالت المرأة في شيء من الضيق :

ــ لعلهم .. ولكن من الجائز ان يكون بينهم غيرهم ، فيحسن بنا الا نردد اسماءهم .. !

ــ لا خوف من ترديد الاسم .. هكذا قال مدرسنا ..

فحدجته المرأة بنظرة عتاب وقالت :

ــ المدرس لا يعرف كل شيء !

ــ وان كان الاسم ضمن آية شريفة ؟

وشعرت حيال تساؤله بقهر ولكنها لم تجد بدا من أن تقول :

ــ كلام ربنا بركة كله .

واقتنع كمال بهذا القدر ثم واصل حديثه عن التفسير قائلا :

ــ ويقول شيخنا ايضا أن أجسامهم من نار !

وبلغ بها القلق غايته فاستعاذت بالله وبسملت عدة مرات ، أما كمال فاستطرد قائلا :

ــ وسألت الشيخ هل يدخل المسلمون منهم الجنة فقال نعم فسألته مرة اخرى كيف يدخلونها بأجسام من نار فأجابني بحدة قائلا ان الله قادر على كل شيء ...

ــ جلت قدرته ..

فرنا اليها باهتمام ثم تساءل :

ــ واذا التقينا بهم في الجنة ألا تحرقنا نارهم ؟!

فابتسمت المرأة وقالت في ثقة وايمان :

ــ ليس فيها أذى أو خوف ..

وسرح الغلام بعينيه حالما واذا به يسأل مغيرا مجرى الحديث فجأة :

ـ أنرى الله في الآخرة بأعيننا ؟
قالت المرأة بنفس الثقة والايمان :
ـ هذا حق لا ريب فيه •••
فلاحت في نظرته الحالمة أشواق كما تلوح في الغلس بتأثير الضياء ، وساءل نفسه متى يرى الله ، وفي أي صورة يتبدى ، واذا به يسأل أمهمغيرا مجرى الحديث فجأة مرة أخرى :
ـ أيخاف أبي الله ؟!
فتولتها الدهشة وقالت في انكار :
ـ يا له من سؤال غريب ! ••• أبوك رجل مؤمن يا بني ، والمؤمن يخاف ربه ••
فهز رأسه في حيرة وقال بصوت خفيض :
ـ لا أتصور أن أبي يخاف شيئا ••
فهتفت المرأة في عتاب :
ـ سامحك الله ••• سامحك الله ••
واعتذر عن قوله بابتسامة رقيقة ، ثم دعاها الى حفظ السورة الجديدة ، وراحا يتلوانها آية آية ويعيدان • ولما استفرغا جهدهما نهض الغلام ليذهب الى حجرة النوم فتبعته حتى اندس تحت الغطاء على فراشه الصغير ، ثم وضعت راحتها على جبينه وتلت آية الكرسي ، وانحنت فوقه وطبعت قبلة على خده فأحاطعنقها بذراعه ورد بقبلة طويلة صادرة من اعماق قلبه الصغير • وكانت تلقى دائما صعوبة في التخلص منه عند توديعه مساء لانه كان يبذل كل حيلته ليستبقيها الى جانبه اطول مدة ممكنة ان لم يفز باستبقائها حتى يغيب في نومه وهو بين ذراعيها ، ولم يجد وسيلة نبلوغ غايته خيرا من ان يطلب اليها ان تتلو على رأسه ـ اذا ختمت آية الكرسي ـ سورة ثانية ثم ثالثة ، حتى اذا آنس منها ابتسامة اعتذار توسل اليها معتلا بخوفه من وحدته في الحجرة او بما يتراءى له به من أحلام مزعجة لا تدفعها الا تلاوة طويلة للسور الشريفة ،وربما تمادى فيتشبثه بها الى حد

تصنع المرض ، غير واجد في تحايله هذا جورا ، بل رآه عن يقين ممارسة منقوصة لحق من حقوقه المقدسة التي هضمت افظع الهضم يوم فصل عن أمه ظلما وعدوانا وجيء به الى هذا الفراش المفرد بحجرة أخوية . كم يذكر مع الحسرة عهدا غير بعيد من ماضية حين مضطجعهما كان واحدا ، وحين ينام متوسدا ذراعها وهي تسكب في أذنه بصوتها الرقيق قصص الانبياء والاولياء ، وحين النوم يغشاه قبل رجوع أبيه من سهرته ، وينحسر عنه بعد نهوض الرجل الى الحمام ، فلم يكن يرى مع أمه ثالثا ، وكانت الدنيا بلا شريك . ثم بقضاء اعمى لم يدر له حكمة فرقوا بينها ، وتطلع اليها ليرى أثر نفيه في نفسها فما عجب الا بتشجيعها الموحى بموافقتها وتهنئتها له قائلة « الآن صرت رجلا فمن حقك ان يفرد لك فراش خاص » ، من قال انه يسره ان يكون رجلا أو انه يطمح الى ان يفرد له فراش خاص !؟ ومع أنه بلل اول وسادة خاصة له بدمعه ، ومع أنه أنذر أمه بأنه لن يعفو عنها مدى الحياة ، الا أنه لم يجرؤ على التسلل الى مضجعه القديم لانه كان يعلم ان وراء تلك الحركة الجائرة الغادرة تجثم ارادة ابيه التي لا ترد . ولشد ما حزن حتى رسبت عكارة الحزن في أحلامه ، ولشد ما حنق على أمه — لا لأنه لم يسعه ان يحنق على أبيه فحسب — ولكن لانها كانت اخر من يتصور ان يخيب عنده الامل ، بيد انها عرفت كيف تسترضيه وترده الى الصفاء رويدا ودأبت على الا تفارقه بادىء الامر حتى يوافيه النوم ، وجعلت تقول له « لم نفترق كما تزعم ، ألست ترانا معا ؟ وسنبقى دائما معا ، لن يفرق بيننا الا النوم الذي كان يفرق بيننا ونحن في فراش واحد » . والان لم تعد تطفو على شعوره حسرة مما تخلف عن تلك الذكرى ، واستنام الى حياته الجديدة ، بيد انه لم يكن يدعها تذهب حتى يستنفذ الحيل لاستبقائها الى جانبه اطول مدة ممكنة ، وقد قبض على راحتها في حرص شديد كما يقبض الطفل على لعبته بين اطفال يتخاطفونها وراحت هي تتلو الآيات على رأسه حتى غافله الكرى ، فودعته بابتسامة رقيقة وغادرت الحجرة واتجهت الى الحجرة التالية ففتحت بابها بخفة ونظرت صوب فراش

لاح شبحه في جانبها الايمن وتساءلت في رقة : « نمتما ؟ » فجاءها صوت خديجة وهي تقول :

ــ كيف يتأتى لي النوم وشخير ست عائشة يملأ على الحجرة !

ثم سمع صوت عائشة وهي تقول في نبرات ناعسة :

ــ ما سمع احد لي شخيرا قط ، ولكنها لا تدعني انام بثرثرتها المتواصلة ...

فقالت الام في عتاب :

ــ أين وصيتي لكما بأن تكفا عن هذركما وقت النوم !

وردت الباب وسارت الى حجرة الاستذكار فطرقت بابها بخفة ثم فتحت وادخلت رأسها وهي تقول باسمة :

ــ أفي حاجة الى خدمة يا سيدي الصغير ؟

فرفع فهمي رأسه عن الكتاب وشكرها مشرق الوجه بابتسامة لطيفة، فردت الباب وابتعدت عنه وهي تدعو لفتاها بالفلاح وطول العمر ، ثم عبرت الصالة الى الدهليز الخارجي وارتقت السلم الى الدور الاعلى حيث توجد حجرة نوم السيد وصوتها يسبقها تاليا الآيات ..

★ ★

لما غادر ياسين البيت كان يدري بطبيعة الحال وجهته التي يقصد مساء بعد مساء ولكنه بدأ ــ كعادته دائما اذا مشى في الطريق ــ وكأنه لا وجهة له . كان شأنه اذا سار ان يسير متمهلا في هوادة ورفق ، مختالا في عجب وزهو ، كأنه لا يغفل لحظة واحدة عن أنه صاحب هذا الجسم العظيم وهذا الوجه الفائض حيوية وفحولة ،وهذه الملابس الانيقة الآخذة حظها ــ واكثر ــ من العناية الى منشة عاجية لا تفارق يده صيفا او شتاء ، وطربوش طويل مائل يمنة حتى يكاد يمس حاجبه ، ومن عادته ايضا اذا سار انه كان يرفع عينيه ــ دون رأسه ــ مستطلعا ما وراء النوافذ لعل وعسى ، فلم يكن يقطع طريقا حتى يشعر في نهايته بما يشبه الدوار من كثرة تحريك عينيه ، اذ كان ولعه بالتهام النسوة اللاتي يصادفنه داء لا شفاء منه ، فهو

يتفحصهن مقبلات ويتبع عينيه اردافهن مدبرات ، ويظل في قلقلة كثـــور هائج حتى ينسى نفسه فلا يعود يتدبر مدارة مقاصده ، الأمر الذي تنبـه له مع الزمن عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول والفولى اللبان وبيومي الشربتلي وابو سريع صاحب المقلى وغيرهم فمنهم من حمله محمل الدعابة ومنهم من أخذه مآخذ الانتقاد لولا ان الجيرة ومنزلة السيد احمد عبد الجواد شفعتا له بالاغفاء والتسامح • كانت حيويته من العنف بحيث ملكت عليه فراغه كله ، فلم تدع له وقتا يستريح فيه من استفزازها ،وشعر دائما بألسنتها تلهب حواسه ووجدانه ، وكأنها عفريت يركبه ويوجهه حيث يشاء ، بيد أنه عفريت لم يخفه او يضيق به ، ولم يود الخلاص منه ، بـل لعله رام منه المزيد •ولكن سرعان ما توارى عفريته واستحال ملاكا لطيــف حين اقترب الشاب من دكان أبيه ، هنالك أغضى طرفه واستقامت مشيتـه ، وتحلى بأدب وحياء ، وحث خطاه لا يلوي على شيء ، ولما مر بباب الدكان التفت الى داخله فرأى خلقا كثيرين ولكنه التقى بعيني أبيه وهو جالس وراء مكتبه فانحنى في اجلال رافعا يده الى رأسه في آدب ، فرد الرجـل تحيته مبتسما ، ثم استأنف مسيره مسرورا بهذه الابتسامة كأنما حظـى بنعمة نادرة المثال • والحق ان عنف أبيه المعهود ، ولو أنه اعتوره تغيـر ملموس منذ ان انخرط الفتى في سلك موظفي الدولة الا أنه لم يزل في نظره نوعا من العنف الملطف بالكياسة ، فلم يزايل الموظف خوفه القديم الذي ملأ قلبه وهو تلميذ ، ولم يفارقه شعوره بانه ابن وان الآخر الاب ، وما فتـىء يتضاءل بمحضره على ضخامته كأنما يستحيل عصفورة يرعشها وقع الحصاة• وما أن ابتعد عن دكان ابيه وصار بمنجى من عينيه حتى استرد خيــلاءه وعادت عيناه الى الذبذبة غير مفرقة بين الهوانم وبائعات الدوم او البرتقال ، اذ كان العفريت الذي يركبه مولعا بالنساء كافة ، متواضعا يستوي عنـده الرفيع والوضيع منهن • فبائعات الدوم والبرتقال ــ على سبيل المثـال ــ وان شابهن الارض التي يقتعدنها لونا وقذارة لا يخلين احيانا مـن ميزة حسن ، كثديين ناهدين او عينين مكحولتين وماذا يروم غير هذا ؟! •• ثـم

اتجه صوب الصاغة ومنها الى الغورية ، ومال الى قهوة سي علي على ناصية الصنادقية ، وكانت شبه دكان متوسطة الحجم يفتح بابها على الصنادقيـة وتطل بكوة ذات قضبان على الغورية وقد اصطفت باركانها الآرائـك . واتخذ مجلسه على أريكة تحت الكوة ــ مجلسه المختار منذ اسابيع ــ وطلب الشاي . جلس بحيث يوجه بصره في يسر ودون اثارة ظن الـى الكوة ، ومنها يصعده كلما يشاء الى نافذة صغيرة في بيت على الجانب الاخر للطريق ، لعلها كانت الوحيدة بين النوافذ المغلقة التي لم يعن باحكام اغلاق خصاصها ، ولا عجب فقد كانت تابعة لمسكن زبيدة « العالمة » ولم تكـن « العالمة » مطمحه فدون هذا مراحل من المجون عليه ان يجتازها في صبـر واناة ، ولكنه راح يرصد ظهور زنوبة العوادة ربيبة « العالمة » ونجمـة تختها اللامعة . وكانت فترة توظفه بالحكومة عهدا حافلا بالذكريات جاءه بعد طول تقشف اجباري عاناه محاذرا في ظل ابيه الرهيب ، فانطلق من ثمة كالشلال يتحدر في مهاوي الازبكية على ما لاقى من مضايقات الجنود الذين قذفتهم عجلة الحرب الى القاهرة ، ثم ظهر في الميدان الاستراليون فاضطـر الى التخلي عن مغاني العبث فرارا من وحشيتهم وضاقت به السبل فمضى يتقلب في ازقة حيه كالمجنون واقصى ما يطمع فيه من لذة بائعة برتقال أو غجرية ممن يقرأن الطالع ، حتى رأى يوما زنوبة فتبعها مذهولا الى موطنها، ثم تعرض لها مرة بعد مرة ولا يكاد يظفر منها بما يبل صدره . كانت امرأة وكل امرأة عنده رغيبة ، بيد أنها كانت الى هذا ذات حسن فهوسته .وليس الحب لديه الا تلك الشهوة العمياء او هذه الشهوة المبصرة وهي اسمى ما عرف من الوانه . وجعل يمد بصره خلال القضبان الى النافذة الخالية في جزع وقلق أنسياه نفسه فحسا الشاي الساخن دون ان ينتبه الى سخونته الا وهو يزدرده وراح ينفخ متألما ، ثم أعاد القدح الى الصينية الصفـراء مسترقا النظر الى السمار الذين أزعجته اصواتهم المرتفعة كأنما هي المسئولة عن لسعته او انها السبب في عدم ظهور زوبة بالنافذة ... « ترى أيـن الملعونة ؟ ... أتتعمد الاختفاء ! ... من المحقق انها تعلم بوجودي هنا ..

ولعلها رأتني قادما .. فاذا اصطنعت التدلل الى النهاية الحقت هذا اليــوم بأيامي المحرقة » . وعاود استراق النظر الى الجلوس ليرى هل يلاحظــه احد منهم ولكنه وجدهم جميعا منهمكين في احاديثهم التي لا تنتهي .فداخله ارتياح وارجع بصره الى الهدف المرموق ، بيد أنه اعترضت تيار افكــاره ذكريات عن متاعب اليوم التي صادفته في المدرسة اذ شك الناظر في أمانــة متعهد اللحوم فقام بتحقيق اشترك هو فيه بوصفه كاتب المدرسة ، ثم بدا منه شيء من التراخي في عمله حمل الناظر على نهره مما نغص عليه صفــوه بقية اليوم وجعله يفكر في ان يشكو الناظر الى أبيه ــ وهما صديقـــان قديمان ــ لولا خوفه ان يجد أباه اشد عليه من الناظر ... « اطرح عنــك هذه الافكار السخيفة ... انتهينا من المدرسة والناظر عليهما اللعنــة .. حسبي الآن ما آلاقي من القارحة بنت القارحة التي تبخل علينا بنظرة » واذا بأحلام عارية تنثال على خياله ، احلام كثيرا ما تمثل على مسرح اوهامــه وهو يرنو الى امرأة او يستعيد ذكراها ، تخلقها عاطفة هوجاء تنزع عــن الاجساد اغطيتها وتجلوها عارية كما خلقها الله غير مستثنية جسده هــو ، ثم تمضي في فنون من العبث لا عاصم لها ، ولكنه ما كاد يستنيم الى هذه الاحلام حتى انتبه على صوت حوذي وهو يصيح على حماره « يس »فرمى ببصره ناحية الصوت فرأى عربة كارو تقف أمام بيت العالمة . وتساءل ترى اجاءت العربة لتحمل افراد التخت الى فرح من الافراح ؟ ... ونادى صبي القهوة ودفع اليه الحساب متأهبا لمغادرة المكان في أية لحظة اذا دعا داع. ومضت فترة انتظار وترقب ثم فتح باب البيت وبرزت امرأة من نســوة التخت وهي تجر رجلا اعمى مرتديا جلبابا ومعطفا وعوينات سوداء ومتأبطا القانون ، وصعدت المرأة الى العربة وتناولت القانون ثم اخذت بيد الاعمى، واعانه الحوذي من ناحية اخرى حتى لحق بالمرأة وجلسا متجاورين في مقدمة العربة وتبعتهما على الاثر امرأة ثانية تحمل دفا ، ثم ثالثة متأبطة صرة. وقد تبدين في ملاءاتهن اللف سافرات ، كاسيات ــ بدلا من البراقع ــ بأقنعة من زواق

فاقع الالوان جعلهن بعرائس المولد اشبه • ثم ما هذا ! •• رأى بصر شيق وقلب خافق العودة وهو يبرز من الباب في جرابه الاحمر •• واخيرا بدت زنوبة وقد انحسرت طرف ملاءتها عند اعلى الرأس عن منديل قرمزي ذي أهداب منمنمة ، لمعت تحته عينان سوداوان ضاحكتان تنفث نظرتهما لعبا وشيطنة • واقتربت من العربة ومدت يدها بالعود فتناولته امرأة ، ثم رفعت قدما الى اعلى العجلة فاشرأب ياسين بعنقه وهو يزدرد ريقه فلمح ثنية الجورب معقودة فوق الركبة على أديم بدا منه صفاء عذب خلال أهداب فستان برتقالي ••• « آه لو تغوص بي الاريكة في الارض مترا •• رباه ••• ان وجهها اسمر ولكن لحمها المكنون ابيض ••• أو شديد الميل للبياض ••• فكيف يكون الورك ! ••• وكيف يكون البطن ! ••• البطن يا هوه ••• » وثبتت زنوبة راحتيها على سطح العربة وتحاملت عليهما حتى حطت ركبتيها على حافة العربة ثم مضت تتحرك رويدا على اربع •• يا لطيف ••• يا لطيف ••• آه لو كنت على باب البيت ••• أو حتى في دكان محمد الطرابيشي •• انظر الى ابن الكلب كيف يحملق في الطابية بعينيه ••• ما أجدر ان يسمي نفسه منذ اليوم محمد الفاتح ••• يا لطيف •• يا منقذ ••• » واخذ ظهرها يستقيم حتى نهضت واقفة على سطح العربة • وفتحت الملاءة وقبضت على طرفيها وجعلت تهزها بيديها هزات متتابعات كأنها طائر يخفق بجناحيه ، ثم لفتها حول جسمها لفة محكمة وشت بدقائق تقاطيعه وتفاصيله وابرزت ــ خاصة ــ عجيزة مدملجة رقراقة ، ثم جلست عند مؤخرة العربة فتكور ردفها تحت الضغط متبلورا ذات اليمين وذات اليسار فنعم الوسادة ••• ونهض ياسين وغادر القهوة فوجد العربة قد تحركت فتبعها متمهلا وهو يلهث ويصر على اسنانه من شدة الانفعال • وراحت العربة تسير سيرتها المتمهلة المتراخية المتمايلة والنسوة على سطحها يتأرجحن معها يمنة ويسرة فركز الشاب عينيه في وسادة العوادة ، يذهب معها ويجي حتى خالها بعد حين ترقص وكانت الظلمة قد بدأت تغشى الطريق الضيق واخذت كثرة من الدكاكين تغلق ابوابها ، الى ان غالبية المارة كانت من جمهور العاملين العائدين الى بيوتهم منهوكي القوى ، فوجد ياسين بين الظلمة والجمهور المتعب متسعا لانعام النظر والاحلام في أمن ودعة ••

« اللهم لا تجعل لهذا الطريق من نهاية ، ولا لهذه الحركة الراقصة من ختام ••• يا لها من عجيزة سلطانية جمعت بين العجرفة واللطف يكاد البائس مثلي يحس بطرواتها وشدتها معا بالنظر المجرد •• وهذا المفرق العجيب الذي يشطرها تكاد تنطق الملاءة عنده ••• وما خفي كان أعظم •• اني أدرك الان لماذا يصلي بعض الناس ركعتين قبل ان يبنى بعروسه ••• أليست هذه قبة ؟ •• بلى وتحت القبة شيخ ••• واني مجدوب من مجاذيب هذا الشيخ ••• يا هوه ••• يا عدوى ••• » وتنحنح والعربة تقترب من بوابة المتولي فالتفتت زنوبة وراءها ورأته • ثم خيل اليه ، وهي تعيد رأسها ، انه لمح على شفتيها بشير ابتسامة فدق قلبه في عنف وسرت في وجدانه سكرة سرور ملتهب • ومرقت العربة من بوابة المتولي ثم مالت الى اليسار ، وهناك اضطر الشاب الى التوقف عن متابعتها لانه رأى عن كثب معالم زينات وانوار وجمهورا مهللا فتراجع قليلا وبصره لا يفارق العوادة، وجعل يراقبها بنهم وهي تنزل على الارض ، وهي ترمي ناحيته بنظرة عابثة ، ثم وهي تتجه الى بيت العروس حتى واراها الباب في ضجة من الزغاريد • وتنهد تنهدة حامية ، ولفته حيرة خانقة فبدا قلقا كأنه لا يدري أي وجهة يقصد ••• « لعنة الله على الاستراليين ! ••• أين أنت يا أزبكية لابثك همي واشجاني واتزود منك بشيء من الصبر » ••• ثم دار على عقبيه وهو يتمتم « الى العزاء الباقي •• الى كستاكي » ، وما كاد ينطق باسم البدال اليوناني حتى تندى رأسه حنينا الى حميا الشراب •• كانت المرأة والخمر في حياته متلازمتين متكاملتين ، ففي مجلس المرأة عاقر الخمر لاول مرة ، ثم صارت بحكم العادة من مقومات لذته وبواعثها ، بيد انه لم يتح لهما ــ المرأة والخمر ــ أن يتلازما دائما ، وخلت ليال كثيرات من النساء ، فلم يجد بدا من ان يخفف لوعته بالشراب ، ولكرور الايام واستحكام العادة بات وكأنه المولع بالخمر لذاتها • وعاد من نفس الطريق الذي جاء منه ، وقصد بدالة كستاكي عند رأس السكة الجديدة ــ حانوت كبير ظاهره بدالة وباطنه حانة يفصل بينهما باب صغير ــ ووقف عند

مدخلها مختلطا بالزبائن ريثما يتفحص الطريق ان يكون ابوه هنا او هناك، ثم اتجه صوب الباب الصغير الداخلي ولكن ما كاد يتقدم خطوة حتى لمح في طريقه رجلا واقفا امام الميزان والخواجة كوستاكي نفسه يزن له لفة كبيرة ، فانجذب رأسه اليه بلا ارادة ، وسرعان ما اكفهر وجهه وسرت في بدنه رجفة قاسية تقبض لها قلبه خوفا وانسمئزازا • لم يكن في مظهر الرجل ما يسبغ هذه العواصف العدائية ، كان في الحلقة السادسة ، مرتديا جلبابا فضفاضا وعمامة ، وقد ابيض شاربه وعلاه الكبر والوداعة ، الا أن ياسين واصل سيره مضطربا كانما يفر قبل أن تقع عليه عينا الرجل • ودفع باب الحانة بشيء من القوة ثم دخل تكاد تميد به الارض •••

★ ★

ارتمى على اول مقعد صادفه غير بعيد من الباب وقد بدا خائر القوى ساهما ، ثم دعا النادل وطلب دورق كونياك بنبرات نمت على نفاد صبره• وكانت الحانة بالحجرة أشبه ، تدلى من سقفها فانوس كبير ،وصفت بجنباتها موائد خشبية وكراسي خيزران جلس اليها نفر من اهل البلد والعمال والافندية ، وتوسط المكان تحت الفانوس مباشرة مجموعة من اصص القرنفل • من عجيب انه لم ينس الرجل ، وانه عرفه من النظرة الاولى ،متى رآه اخر مرة ؟ ••• لا يستطيع ان يجزم ، ولكن من المحقق انه لم تقع عليه عيناه في مدى اثنتي عشرة سنة الا مرتين احداهما التي زلزلته الان • وقد تغير الرجل ما في ذلك من شك فغدا شيخا هادئا وقورا ! •• الا سحق الله المصادفة العمياء التي القت به في سبيله • والتوت شفتاه تقززا وامتعاضا وشعر بمرارة الهوان تجري في ريقه • يا له من هوان مذل ما يكاد يفيق من دواره القديم بالعناء والعناد حتى ترده اليه ذكرى من الذكريات المعتمة او مصادفة لعينة كالتي حدثت اليوم فينقلب ذليلا منكسرا ••• ضائعا • وعلى رغمه حملقت عيناه في الماضي البغيض ، بقوة الهياج المثار في رأسه وقلبه ، فانشق الظلام عن اشباح شائهة طالما ناوشته كرموز للعذاب والكراهية ، فميز من بينها دكان فاكهة يقوم على رأس عطفة قصر الشوق،

وطالعته صورة غامضة المعالم ، هي صورته وهو صبي . فرآه وهو يحث خطواته المتقاربة الى ذلك الدكان حيث استقبله ذلك الرجل ثم حمله قرطاسا مليئا بالبرتقال والتفاح فتناوله مسرورا وعاد به الى المرأة التي بعثته وانتظرت . الى أمه دون غيرها وا أسفاه . وانعكست الذكرى على جبينه عبوسة حنق وضيق . ثم استعادت مخيلته صورة الرجل فتساءل جزعا ترى الان يعرفه لو وقعت عليه عيناه ؟ ... أكان يذكر فيه الصبي الصغير الذي عرف قديما ابنا لتلك المرأة ؟ ... وقرصته قشعريرة فزع فتخاذل جسمه البادن الفارغ وتضاءل في حسه حتى استحال لا شيء . وجيء عند ذاك بالدورق والقدح فصب ونهل في نهم وعصبية متعجلا حظ الشاربين من الانتعاش والنسيان . ولكن فجأة تراءى له من اعماق الماضي وجه أمه فلم يتمالك من أن يبصق . ايهما يلعن : الحظ الذي جعلها امه ام جمالها الذي شغف كثيرين حبا واحاطه بالكوارث ؟! ... والحق انه لم يكن بوسعه ان يغير امرا مما قدر عليه ، ولم يكن بوسعه الا ان يذعن للقضاء الذي هرس عزة نفسه ، أفليس من الظلم ان يكفر بعد ذلك عن حكم القضاء كأنه هو الجاني الاثيم ؟! ... ولم يدر لم استحق اللعنة ، فالاطفال الذين استقبلوا الدنيا في حضانة امهات مطلقات مثله غير قليلين ، وعلى خلاف اكثرهم وجد من أمه حنانا غير مشوب وحبا لا يعرف الحدود وتدليلا سابغا لا تشكمه رقابة أب فتمتع بطفولة سعيدة قوامها الحب واللين والدماثة . ولا تزال ذاكرته تحتفظ بالكثير من ذكريات البيت القديم بقصر الشوق ، كسطحه الذي يشرف على اسطح لاعداد لها ويرى مآذن وقبابا من نواحيه الاربع ، ومشربيته التي تطل على الجمالية حيث تمر ليلة بعد اخرى مواكب الزفاف تضيئها الشموع ويكتنفها الفتوات فينجلي اكثرها عن معارك تشتجر فيها النبابيت وتسيل الدماء . في ذاك البيت احب أمه حبا لا مزيد عليه وفيه شاعت في قلبه روح الريبة الغامضة ، وفيه رمى الى صدره بالبذرة الاولى لنفور غريب ــ نفور ابن من امه ــ التي قدر لها ان تنمو وتستفحل حتى انقلبت مع الزمن كراهية كالداء العضال . وكثيرا ما قال لنفسه انه ربما

كان في وسع الارادة القوية ان تتيح لنا اكثر من مستقبل واحد ولكننا لن يكون لنا ـــ مهما أوتينا من ارادة ـــ الا ماض واحد لا مفر منه ولا مهرب.
والان يتساءل ـــ كما تساءل من قبل كثيرا ـــ متى فطن الى ان امه ثم ككن الشخص الوحيد في حياته ؟! ... بعيد جدا ان يعرف هذا على وجه اليقين، وما يذكر الا انه في فترة ما من طفولته دعت حواسه شخصا جديدا كان يطرأ على البيت من حين لاخر، ولعله ـــ ياسين ـــ كان يتطلع اليه بغرابة وشيء من الخوف، ولعل الاخر بذل ما في وسعه لايناسه وارضائه، انه يحملق في الماضي على استكراه ونفور شديدين، ولكنه وجد المقاومة لا تجدي، كأنما ذاك الماضي دمل يود لو يتجاهله على حين لا تمسك يده عن جسه من آن لاخر. ثم ان هنالك امورا لا يمكن ان تنسى .. ففي مكان ما ووقت بين النور والظلمة وتحت اعلى نافذة او باب مطعم بمثلثات من الزجاج الأزرق والاحمر ... في ذاك المكان يذكر انه اطلع فجاه ـــ في ظروف قرضها النسيان ـــ على ذلك الشخص الطارىء وهو كأنه يفترس امه، فما تمالك ان صرخ من اعماق قلبه وولول باكيا حتى اقبلت المرأة عليه في اضطراب باد وراحت تطيب خاطره وتسكن ثائره. وانقطعت من شدة الامتعاض عند ذاك سلسلة خواطره فقلب عينيه فيما حوله واجما، ثم صب من الدورق في القدح وشرب، وقد لمح وهو يعيد القدح الى موضعه نقطة من سائل منداحة فوق طرف جاكتته فظنها خمرا واخرج منديله وانشأ يدلكها، ثم خطر له خاطر فتفحص ظاهر القدح فرأى قطرات من الماء عالقة بأسفله فرجح عنده ان ما سقط على سترته ماء لا خمر واسترد طمأنينته، ... ولكن أي طمأنينة خادعة! لقد رجعت عيناه الى مرآة الماضي البغيض. لا يذكر متى وقعت الواقعة السالفة، ولا كم كان عمره حين وقوعها، ولكنه يذكر بلا ريب ان الشخص المفترس لم ينقطع عن البيت القديم، وانه كثيرا ما تودد اليه بما لذ وطاب من الوان الفاكهة، ثم كان يراه بعد ذلك في دكان الفاكهة عند رأس العطفة اذا استصحبته امه معها في مشوار، وبسذاجة الاطفال كان يلفت نظرها اليه فكانت تجذبه في عنف

بعيدا عنه وتمنعه من الايماء اليه حتى تعلم ان يتجاهله وهـو في صحبتهـا بالطريق ، وازداد الشخص في نظره ابهاما وغموضا ، ثم حذرته من ان يعود الى ذكره امام خال عجوز كان وقتذاك على قيد الحياة ويزورهم من حين لاخر فاتبع تحذيرها وما يزداد الا حيرة • ولم يقنع الحظ منه بذاك القدر فكانت ــ امه اذا غـاب الرجـل عـن البيت اياما يكـون مبعوثـا ــ اليه ليدعوه الى ان يحضر «الليلة» ! وكان الرجل يستقبله بلطف وود ويملأ له قرطاسا من التفاح والموز • ويحمله موافقته او اعتذاره كيفما اتفق • ثم بلغ به الحال انه كان اذا اشتاق الى لذيذ الفاكهة استأذن أمه في ان يذهب الى الرجل ليدعوه « الليلة » • ذكر هذا وجبينه يندي خزيا ،ثم نفخ في قهر، ثم صب وجرع • ورويدا انبعثت الحميا في دمه ، وبدأت تلعب دورهـا الساحر في معاونته على حمل متاعبه ••• « قلت ألف مرة انه يجب ان ادع الماضي مدفونا في قبره ••• لا فائدة ••• لا آم لي وحسبي امرأة ابي الرقيقة الطيبة ••• كل شيء طيب ما عدا ذكرى قديمة بيدي ان آميتها ••• ترى لم اجاري الحاحها علي فأبعثها من قبرها حينا بعد حين ! ••• لم ؟! ••• سوء الطالع وحده الذي رمى بالرجل في طريقي اليوم ولكن مصيره ان يموت يوما ••• اود ان يموت كثيرون ••• لم يكن الرجل الوحيد ••• بيد ان خياله الثائر واصل أسراءه في ظلمات الماضي رغم مقاومته النظرية ولكـن على حال أخف توترا • أجل لم يعد في تلك القصة بالذات من بقية طويلة ، ولعلها ــ هذه البقية ــ تمتاز بمايضيئها من نور نسبي بعد عبور طـور الطفولة المعتم • كان هذا في السنوات القلائل التي سبقت انتقاله الـى حضانة أبيه ، وقد وجدت امه الشجاعة لتصارحه بـان ذاك « الفكهاني » يتردد عليها طلبا ليدها ، وانها مترددة في قبوله ، وانها غالبا سترفض اكراما له !• ترى اصدق ما قيل له ؟ •• هيهات ان يستوثق من تفاصيل ذكرياته ، ولكنه كان بلا ريب يشرئب للادراك والفهم ، ويعاني نوعا من الريبة الغامضة التي تتكشف للقلب دون العقل ، ويكابد ألوانا من القلق أطار عن هامتـه حمامة السلام ، فتهيأت في نفسه تربة لتلقي بذرة النفور التي صارت مـع الايام الى ما صارت اليه • ثم انتقل في التاسعة من عمره الى حضانة أبيـه

الذي لم يكن رآه الا مرات معدودة تحاميا للاحتكاك بأمه . انتقل اليه غلاما على الفطرة لم يتلقن من مبادىء العلم كلمة واحدة ، ومضى يكفر عن سيئات التدليل الذي غلته به امه فتلقى التعليم بنفس كارهة وارادة خائرة ، ولولا شدة السيد وطيبة جو البيت الجديد ما دفع الى النجاح في الابتدائية بعد ان نيف على التاسعة عشرة من عمره . وبنمو عمره وادراكه حقائق الاشياء ، استعرض حياته الماضية في بيت أمه وقلبها على وجوهها ، ملقيا عليها من خبرته الجديدة انوارا فاضحة فتكشفت له الحقائق ببشاعتها ومرارتها . وكلما تقدم في الحياة خطوة بدا له الماضي سلاحا مسموما منغرسا في صميم نفسه وكرامته . وقد دأب أبوه بادىء الامر على ان يسأله عن حياته في بيت أمه ولكنه على حداثة سنه ، تحاشى نبش الذكريات المحزنة وغلب كبرياءه الجريح على الرغبة في استثارة اهتمام أبيه وحب الثرثرة الذي يستهوي أمثاله من الغلمان ، ولزم الصمت حتى ترامى اليه نبأ غريب عن زواج امه من تاجر فحم بالمبيضة فبكى الغلام طويلا ، واشتد ضغط السخط على صدره حتى فضفض فانطلق يحدث أباه عن «الفكهاني» الذي زعمت يوما انها رفضت الزواج منه اكراما له ! .. وانقطعت صلته بها من ذلك العهد — منذ احدى عشرة سنة — فلم يعد يدري عنها شيئا الا ما ينقله اليه ابوه من حين لاخر كطلاقها من الفحام بعد انقضاء عامين على زواجها منه ، ثم زواجها من باشجاويش في العام التالي ، لطلاقها ، ثم طلاقها مرة اخرى بعد حوالي عامين الخ .. الخ .. وفي فترة قطيعتها الطويلة سعت المرأة كثيرا الى رؤيته ، فكانت ترسل الى ابيه من يستأذنه في السماح له بالذهاب اليها ، ولكن ياسين صد عن دعوتها باباء ونفور شديدين رغم نصح ابيه له بالتسامح والعفو . والحق انه وجد عليها موجدة حامية نابعة من صميم قلب جريح ، فأغلق دونها باب العفو والغفران واقام وراءه متاريس حنق وكراهية مؤمنا الى هذا بانه لم يظلمها ولكن أنزلها بحيث انزلتها فعالها .. « امرأة . أجل ما هي الا امرأة .. وكل امرأة لعنة قذرة ... لا تدري امرأة ما العفة الا حين تنتفي اسباب الزنا ... حتى امرأة ابي الطيبة»

الله وحده يعلم ماذا كان يمكن ان تكون لولا أبي ! » وقطع عليه افكـاره صوت رجل علا قائلا : « الخمر كلها فوائد ، ومن يقل غير هذا أقطـع رأسه ••• الحشيش والمنزول والافيون كثيرة الضرر •• اما الخمر فكلهـا فوائد ••• » فتساءل صاحبه « وما فوائدها ؟ » فقال الرجل مستنكـرا « وما فوائدها ! ما اعجب سؤالك ! ••• كلها فوائد كما قلت ••• وانت تعلم هذا وتؤمن به •• » فقال صاحبـه « ولكـن الحشيش والأفيـون والمنزول مفيدة كذلك فيجب ان تعلم هذا وتؤمن به ••• الناس جميعـا يقولون هذا فهل تخالف الاجماع ؟! » وتريث الرجل قليلا ثم قال : « كلها مفيدة اذن ، الكل ، الخمر والحشيش والأفيون والمنزول وما يستجد ! » فعاد صاحبه يقول بلهجة تنم عن ظفر « ولكن الخمر حرام ! » فقـال الرجل محتدا « وهل ضاقت السبل ! » زك ••• حج ••• اطعم المساكيـن •• ابواب التكفير واسعة والحسنة بعشر امثالها •• »

وابتسم ياسين في شيء من الارتياح ، أجل أمكنه اخيرا ان يبتسـم في شيء من الارتياح ••• « لتذهب الى الجحيم ، ولتأخذ الماضي معها ••• نست عن شيء مسئولا •• كل انسان ملوث في هذه الحياة ومن يـزح الستار ير عجبا ••• شيء واحد يهمني جدا هو عقارها ، دكان الحمزاوي وربع الغورية والبيت القديم بقصر الشوق ••• واني اعد امـام الله اذا ورثته كاملا يوما ان اترحم عليها بلا أسف ••• آه ••• زنوبة ••• كدت انساك وما انسانيك الا الشيطان • امرأة عذبتني وامرأة التمس عندها العزاء •• آه يا زنوبة ، ما علمت قبل اليوم ان باطنك بهذا اللون الرائق ••• أف ينبغي ان امحو الفكر من رأسي ••• الحق ان أمي كالضـرس الثـائر ، لا يسكن حتى ينخلع ••• »

★ ★

جلس السيد احمد عبد الجواد وراء مكتبه بالدكان تعبث أنامل يسراه بشاربه الانيق كشأنه كلما جرفه تيار خواطره ، ويرنو الى لا شيء بوجـه تنم معالمه عن ارتياح ورضى • انه يرضيه بلا ريب ان يشعر بما يكنه لـه

الناس من حب ومودة ، ولو عرض له من حبهم دليل كل يوم لأوجد له كل يوم سرورا مشرقا لا يبليه التكرار ، وقد واتاه اليوم دليل جديد بسبب اضطراره الى التخلف ليلة الامس عن شهود حفلة أنس دعاه اليها احد الاصدقاء ، فما استقر به مجلسه بالدكان هذا الصباح حتى وافاه الداعي وبعض الاخوان من المدعوين وأوسعوه عتابا لتخلفه وحملوه تبعة ما ضاع عليهم من بهجة وطرب ، ثم قالوا ـ فيما قالوا ـ انهم لم يضحكوا من قلوبهم كما تعودوا ان يضحكوا معه ، ولم يجدوا للشراب لذته التي يجدون في منادمته ، وان مجلسهم خلا ـ على حد تعبيرهم ـ من روحه . وها هو يستعيد اقوالهم في سرور وزهو لطفا كثيرا مما لاقى من حدة الملام من ناحيتهم وحرارة الاعتذار من ناحيته ، بيد أنه لم يخل من تأنيب ضمير حريص بطبعه على ارضاء الخلان ، بدار الى النهل من موارد الصداقة والمودة في اخلاص وايثار ،فكاد يكدر صفوه لولا ما اشاعت ثورة الاحباب الناطقة بحبهم في نفسه من اريحية الرضا والعجب ، أجل طالما كان الحب الذي يجذبه الى الناس ويجذبهم اليه معينا لقلبه يغدق عليه ما يشاء من فرح بهيج وزهو بريء وكأنه خلق للصداقة قبل كل شيء . وثمة آية أخرى على هذا الحب ـ والاصدق ان يقال انه حب من نوع اخر ـ تجلت له ضحى اليوم حين ألمت به ام علي الخاطبة وقالت له بعد حديث دارت فيه حول غرضها ما شاء لها الدوران « ألا تعلم ان ست نفوسة ارملة الحاج علي الدسوقي تملك سبعة دكاكين في المغربلين ؟ » وابتسم السيد ، وفطن بالغريزة الى ما تومىء اليه المرأة ، وحدثه قلبه بأنها ليست خاطبة فحسب هذه المرة ولكنها رسول موصى بالكتمان ، ألم يخيل اليه في اكثر من مناسبة ان الست نفوسة تكاد تعلن عن ودها اثناء ترددها على دكانه لابتياع حوائجها ؟ ... بيد أنه أراد استدراج المرأة ولو على سبيل التفكه فقال باهتمام ظاهري « عليك باختيار زوج صالح لها ، فما أعز المطلوب ! » . وظنت أم علي انها بلغت الغاية فقالت « قد اخترتك من دون الرجال ، فما قولك ؟ » ، وضحك السيد ضحكة مجلجلة وشت بسروره وثقته بنفسه

ولكنه قال بلهجة قاطعة « لقد تزوجت مرتين ، اخفقت في الاولى ووفقني الله في الاخرى ، ولن أبطر بنعمة الله » • والحق انه طالما تغلب على مغريات الزواج على كثرة ما تهيأ له من فرص مواتية ، بقوة ارادة لا تنثني ، وكأنه لم ينس مثل ابيه الذي انزلق الى زيجات متلاحقة بلا وعي ، بددت ثروته وجرت عليه المتاعب ، ولم تبق له هو ــ عقبه الوحيد ــ الا على شيء من المال لا يغني • ثم انه من ربحه ودخله في بسطة من العيش هيأت لاسرته هناء ورغدا واتاحت له ما يشاء للانفاق في مسراته وملاهيه فكيف يقدم على ما يخل بهذا الوضع البديع المتناسق الذي يكفل له الكرامة والحرية ؟!• أجل لم يجمع السيد ثروة ، لا لقصور في وسائلها عن تجميعها ولكن لما طبع عليه من جود جعل انفاقها والاستمتاع بآثارها المعنى الوحيد لها الذي يؤمن به ، الى ايمان عميق بالله وفضائله ملأ نفسه طمأنينة وثقة وآمنه من الخوف الذي يساور كثيرين عن أرزاقهم ومستقبلهم • على ان صده عن مغريات الزواج لم يمنعه من السرور والزهو كلما رامته فرصة طيبة ،وبالتالي لم يستطع ان يتناسى ان سيدة جميلة كالست نفوسة توده بعلا لها ، وغلبت هذه الذكرى على خواطره فراح يراقب وكيله والزبائن بعينين غائبتين واسارير حالمة باسمة ، وذكر ــ باسما ايضا ــ ما قال له صاحب من صحبه صباح اليوم وهو يعابثه معرضا بأناقته وتعطره «حسبك،حسبك يا عجوز!» عجوز ؟ ! ••• انه في الخامسة والاربعين حقا ، ولكن ما قول العاذل في هذه القوة العارمة والصحة الدافقة والشعر السبط اللامع السواد ! لم يهن احساسه بالشباب ولا تراخى ، وكأن فتوته ما تزداد مع الايام الا قوة ، الى ان مزاياه لم تكن لتغيب عنه ، بل كان على تواضعه وسماحة نفسه شديد الشعور بها ، منطويا في أعماقه على زهو وعجب ، يحب الثناء حبا جما ، وكأنه بتواضعه ولطفه يستزيد منه ويحث الرفاق بمكر حسن عليه ، ولكن مع ان ثقته بنفسه بلغت حد الاعتقاد بأنه خير الرجال قوة وبهاء وظرفا وكياسة الا انه لم يثقل ابدا على احد من الناس ، لان تواضعه كان طبعا وسجية كذلك ، ولانه نبع من فطرة تسيل بشاشة واخلاصا وحبا • والحق

انه كان ينزع بفطرته الى ان يحب كما يحب . ولا يمسك عن نشدان المزيد من الحب ، فاتجهت طبيعته بوحي من غريزته الظامئة للحب الى الاخلاص والوفاء والصفاء والتواضع ، تلك السجايا التي تجذب الحب والرضا كما تجذب الزهور الفراش ، ومن هنا استوى ان يقال ان تواضعه كياسة او طبيعة والأصح ان يقال انه طبيعة تستمد كياستها من وحي الغريزة لا تدبير الارادة ، فتجلت طبعا بسيطا لا تكلف فيه ولا تعمل ، ولذلك كان السكوت عن فضائله ومواراة مزاياه بل والتندر بعيوبه وهناته التماسا للعطف والحب احب اليه من نشرها والمباهاة بها اللذين يجران عادة الى الاستفزاز والحسد، وهي كياسة سديدة دفعت المحبين الى التنويه بما يغضي عنه حكمة وحياء، واذاعت سجاياه على نحو لم يكن ليقدر عليه بنفسه دون التضحية بأجمل جوانب شخصيته ، وبما يحظى من جاذبية وحب لا تشوبهما شائبة . وبهذا الوحي الغريزي نفسه استهدى حتى في جانب حياته الماجن ، في مجالس انسه وطربه ، فلم يتخل فيها ــ مهما لعب الشراب برأسه ــ عن لباقته وكياسته ، ولو شاء ، بما اوتي من خفة الروح وحضور البديهة وحلاوة الفكاهة وحدة السخرية ،لاكتسح السمار بلا عناء ،ولكنه كان يدير مجلس الانس بمهارة واريحية تفسح المجال لكل سامر ، ويشجع أهل الدعابة وان خالفهم التوفيق بضحكاته المجلجلة ، الى حرصه الشديد على الا يخلف مزاحه في نفس جرحا ، فان اضطره الموقف الى الحملة على قرين داوى عواقب حملته بتشجيعه والتودد اليه ولو بالسخرية من نفسه ، فلا ينفض المجلس الا وقد حظى كل سامر من أطايب ذكرياته بما يشرح الصدر ويستأثر الفؤاد . على أن كياسته الفطرية او فطرته الكيسة ، لم تقتصر آثارها الطيبة على حياته الضاحكة فحسب ، ولكنها امتدت الى جوانب هامة من حياته الاجتماعية ، فأعلنت من نفسها اروع اعلان في كرمه المأثور ــ سواء ما يتجلى منه في الولائم التي يدعو اليها من حين لاخر في البيت الكبير او في الهبات التي ينفح بها المحتاجين ممن يتصلون بعمله او بشخصه ــ وفي شهامته ومروءته ونجدته التي فرضت له على اصدقائه ومعارفه نوعا من

الوصاية المشربة بالحب والوفاء يفيئون اليها اذا دعت الضرورة الى المشورة او الشفاعة او الخدمة فيما يعرض لهم من هموم العمل والمال او شئون المسائل الشخصية والعائلية كالخطبة والزواج والطلاق ، أجل ارتضى لنفسه وظائف يؤديها بلا أجر — غير الحب — فكان سمسارا ومأذونا ومحكما ، ثم وجد دائما في ادائها — على مشقته — حياة مليئة بالبهجة والغبطة . مثل هذا الرجل الذي تجود نفسه بفضائل اجتماعية كثيرة ثم يطويها كأن في نشرها أذى وأي أذى ، مثل هذا الرجل يكون خليقا — اذا خلا الى خواطره وانقشع عنه الحياء الذي يتولاه حيال الناس — بأن يتملى مزاياه طويلا ويستسلم لزهوه وعجبه . لذلك راح يستعيد عتاب اصدقائه المحبين ودعوة أم علي الخاطبة بلذة وسرور وانشراح تعانقت في قلبه عن نشوة خالصة حتى تطفلت على خلوته لذعة اسف فمضى يحدث نفسه .. «نفوسة هانم سيدة ذات مزايا لا يستهان بها .. يتمناها كثيرون ولكنها رغبت في أنا ... بيد انني لن اتزوج ، هذا أمر مفروغ منه ... وليست هي بالمرأة التي تقبل ان تعاشر رجلا بغير زواج ... هذا انا وهذه هي فكيف يمكن ان نلتقي ! ... ولو صادفتني في غير هذه الايام التي سد فيها الاستراليون علينا المنافذ لهان الامر ولكنها تصدت لنا ونحن في حاجة اليها فوا أسفاه .»

وقطع عليه افكاره وقوف حانطور امام مدخل الدكان فمد بصره مستطلعا فرأى العربة وهي تميل ناحية الدكان تحت ضغط امرأة هائلة مضت تغادرها في بطء شديد على قدر ما تسمح طيات لحمها وشحمها وقد سبقتها الى الارض جارية سوداء فمدت لها يدها لتعتمد عليها في أثناء نزولها . وكالمحمل وقفت مليا وهي تتنهد كأنها تستجم من عناء النزول ، وكالمحمل راحت تتمايل وتخطر الى ناحية الدكان بينما علا صوت الجارية في لهجة شبه خطابية لتعلن عن مولاتها :

— وسع يا جدع انت وهو للست زبيدة ملكة العوالم ...

وندت عن الست زبيدة ضحكة مسجوعة وقالت تخاطب الجارية بلهجة تنم عن زخر كاذب :

ـ الله يسامحك يا جلجل ... ملكة العوالم مرة واحدة ! ... هلا عرفت فضيلة التواضع !

وهرع اليها جميل الحمزاوي مفتر الثغر عن ابتسامة عريضة وهو يقول :

ـ أهلا وسهلا ، كان حقا علينا ان نفرش الارض بالرمل ...

ونهض السيد وهو يتفحصها بنظرة تنم عن دهشة وتفكير ثم قال متمما تحية وكيله :

ـ بل بالحناء والورد ولكن ما حيلتنا والحظ يقبل اذا أقبل غير مسبوق ببشير ؟ ...

ورأى السيد وكيله وهو يتجه الى كرسي ليأتي به فسبقه اليه بخطوة واسعة بدت كالوثبة فتنحى الرجل جانبا وهو يداري ابتسامة ، وقدم السيد لها الكرسي بنفسه وهو يومىء براحته مرحبا كأنه يقول لها « تفضلي » بيد ان راحته انبسطت ـ ربما بلا شعور منه ـ لاخر طاقتها وانفرج ما بين اصابعه حتى صارت يده كالمروحة . ولعله تاثر في بسطها بما تركه في خياله منظر العجيزة الهائلة التي ستملأ مقعد الكرسي وتفيض عن جوانبه حتما . وشكرته المرأة بابتسامة من وجهها الذي أسفر حسنه بغير حجاب ، وجلست وهي تشع بزواقها وحليها نورا ، ثم التفتت الى جاريتها وخاطبتها قائلة وهي تعنى بالخطاب غيرها :

ـ الم أقل لك يا جلجل انه ليس ثمة ما يدعونا للتخبط هنا وهناك لابتياع حوائجنا وعندنا هذا الدكان الفاخر ؟

فأمنت الجارية على قول سيدتها قائلة :

ـ صدقت كعادتك يا سلطانة ، لماذا نذهب بعيدا وعندنا السيد الكريم أحمد عبد الجواد .. !

فتراجع رأس الست كأنما هالها ما صرحت به جلجل وألقت عليها نظرة استنكار ثم رددت عينيها بين السيد والجارية لتشهده على استنكارها وقالت وهي تداري ابتسامة :

ـ واخجلتاه ! ... حدثتك عن الدكان يا جلجل لا عن السيد احمد!

وشعر فؤاد السيد الدكي بالجو الودي الذي ينفثه حديث المـراة فاندمج فيه بغريزته المتوثبة وتمتم باسما :

ـ الدكان والسيد احمد شيء واحد يا سلطانة .

فرفعت حاجبيها في دلال وقالت بعناد لطيف :

ـ ولكنا نريد الدكان لا السيد أحمد ...

وبدا ان السيد احمد لم يكن الشخص الوحيد الذي شعر بالجـو الطيب الذي خلقته السلطانة ، فهدا جميل الحمزاوي يراوح بين مساومة الزبائن واستراق النظر الى ما تيسر من جسم العالمة ، وهؤلاء الزبائن جعلوا يجيلون ابصارهم بين البضائع لتمر في الذهاب والاياب بالست ، بل بـدا ان الزيارة المباركة قد لفتت بعض الانظار في الطريق فراى السيد انيقترب من السلطانة وان يولي الباب والقوم ظهره العريض ليحول بينها وبين تطفل المتطفلين ، بيد ان هدا لم ينسه ما كان فيه من اسباب الحديث فقال يصل منه ما انقطع :

ـ قضى الله جلت حكمته ان يكون الجماد احيانا اسعد حظا مـن الانسان ...

فقالت بلهجة ذات معنى :

ـ آراك تغالي ، لن يكون الجماد اسعد حظا من الانسان ، ولكنـه كثيرا ما يكون أجل فائدة ...

فثقبها السيد بعينيه الزرقاوين وقال متظاهرا بالدهشة :

ـ آجل فائدة ! ... (ثم مشيرا الى الارض) ... هذا الدكان !..

فوهبته ضحكة قصيرة عذبة ولكنها قالت بلهجة لا تخلو من خشونة مدبرة :

ـ أريد سكرا وبنا وأرزا فهل يغني الانسان فيها عن الدكان شيئا !. (وبنبرات اختلط فيها عدم الاكتراث بالدلال) ... ثم ان الرجال اكثر من الهم على القلب ...

وكان السيد قد تفتحت له من الطمع ابواب ، وشعر بانه مقبل على شيء اجل خطرا من البيع والشراء ، فقال محتجا :

ـ ليست كل الرجال سواء يا سلطانة ، فمن قال لك ان الانسان لا يغني عن الارز والسكر والبن شيئا ؟! ... الانسان حقا من تجدين فيه الغذاء والحلاوة والكيف .. !

فساءلته ضاحكة :

ـ انسان ام مطبخ هذا ؟

فقال السيد بلهجة تدل على الظفر :

ـ لو نظرت من قريب لوجدت تشابها عجيبا بين الرجل والمطبخ ... كلاهما حياة للبطون .. !

وغضت المرأة بصرها مليا ، وانتظر السيد ان ترفعه اليه موسوما بابتسامتها المشرقة ، ولكنها واجهته بنظرة رزينة فأحس لتوه أنها غيرت « السياسة » او لعلها لم ترتح كل الارتياح لانزلاقها فعدلت عنه ثم سمعها تقول في هدوء :

ـ أفادك الله ! ... ولكن حسبنا اليوم الارز والبن والسكر ...

وتحول السيد عنها متظاهرا بالجد ودعا اليه وكيله ثم وصاه بصوت مرتفع بطلبات الست فأوحى مظهره بانه قرر هو ايضا العدول عن «التودد» والعودة الى « العمل » ، ولكنها لم تكن الا مناورة استعاد على أثرها ابتسامته الهجومية وتمتم مخاطبا السلطانة :

ـ الدكان وصاحبه تحت أمرك !

وكان للمناورة أثرها فقالت المرأة في دعابة :

ـ أريد الدكان وتأبى الا ان تجود بنفسك !

ـ نفسي بلا ريب خير من دكاني ، او خير ما في دكاني ...

فأشرق وجهها بابتسامة ماكرة وهي تقول :

ـ هذا يخالف ما سمعناه عن جودة بضاعتك .. !

فقهقه السيد قائلا :

ـ ما حاجتك الى السكر وفي لسانك هذه الحلاوة كلها ؟!

وأعقب هذه المعركة الكلامية فترة سكون بدا فيها كلاهما راضيا عن نفسه . ثم فتحت العالمة حقيبتها واخرجت مرآة صغيرة ذات مقبض فضي وراحت تنظر في صورتها فمضى السيد الى مكتبه ووقف مستندا الى حافته وهو يتفرس في وجهها باهتمام . والحق لقد حدثه قلبه حين وقعت عليها عيناه بانها جادت بالزيارة لامور غير الشراء والبيع ، ثم جاء حديثها باستجاباته الحارة مؤكدا ظنه ، فلم يعد أمامه الا ان يقرر من الان هل يوصلها بتاريخه او يودعها الوداع الاخير . ولم يكن يراها لاول مرة ، فقد رآها مرات في افراح بعض الاصدقاء ، وعرف عن الرواة ان السيد خليل البنان اتخذها خليلة دهرا حتى انفصلا منذ عهد غير بعيد ، ولعل هذا ما جعلها تستبضع من دكان جديد ! ... وهي موفورة الحسن وان لم تعد منزلتها كعالمة المرتبة الثانية بين العوالم ، بيد ان المرأة تهمه اكثر من العالمة ، وانها لشهية لطيفة وبها من طيات اللحم والدهن ما يدفيء المقرور في زمهرير الشتاء الذي غدا على الابواب ،واعترض افكاره مجيءالحمزاوي حاملا ثلاث لفات ، فتناولتها الجارية ، ودست الست يدها في الحقيبة لتخرج النقود فيما يدا ، ولكن السيد اشار اليها محذرا وهو يقول :

ـ يا له من عيب ...

وتظاهرت المرأة بالدهشة وقالت :

ـ أي عيب يا سي السيد ! ... ليس في الحق عيب ..

ـ هذه زيارة ميمونة يحق علينا ان نحييها بما هي أهله من الاكرام ، وهيهات ان نوفيها حقها ...

وكانت قد نهضت وهو يتكلم فلم تبد مقاومة جدية لكرمه ولكنها قالت :

ـ ولكن كرمك هذا سيجعلني اتردد مرة ومرتين قبل ان اقصدك مرة أخرى ...

فقهقه السيد قائلا :

ـــ لا تخافي ، اني اكرم الزبون في المرة الاولى ثم اعوض خسارتــي في المرات اللاحقة ولو بالسرقة ! هذا شعارنا نحن التجار •• !

فابتسمت الست ، ومدت له يدها قائلة :

ـــ الكريم مثلك يُسرق ولا يسرق ••• •• أشكرك يا سيد أحمد•

فقال من كل قلبه :

ـــ العفو يا سلطانـــة •••

ووقف ينظر اليها وهي تتبختر صوب الباب حتى صعدت الى العربة واتخذت مجلسها ، وجلست جلجل على المقعد الصغير قبالتها ، وتحركـــت العربة بحملها النفيس ، ثم غابت عن ناظريه • هنالك قال الحمزاوي وهو يقلب صفحة من دفتر الحساب •

ـــ كيف يمكن ان يسدد هذا الحساب ؟!

فألقى السيد على وكيله نظرة باسمة وقال :

ـــ اكتب مكان الارقام « بضائع اتلفها الهوى » •• !

ثم غمغم وهو يمضي الى مكتبه « الله جميل يحب الجمال » •••

★ ★

وحين المساء اغلق السيد الدكان وغادره تحف به المهابة ويتضوع منه عرف طيب ثم مضى صوب الصاغة ، ومنها الى الغورية حتى قهوة ســي علي فلحظ في مروره بها بيت العالمة وما يكتنفه فرأى الدكاكين التي تمتــد على جانبيه لا تزال مفتوحة وتيار السابلة في تدفقه ، فواصل السير الى بيت احد الاصدقاء حيث قضى ساعة ثم استأذن عائدا الى الغورية وقد غشيتها ظلمة فانقلبت كالمقفرة ، وجعل يقترب من البيت آمنا مطمئنا ، ثم طرق الباب وانتظر وهو يدقق النظر فيما حوله ولم يكن ثمة نور الا ما ترامى من كوة بقهوة سي علي ، ومصباح غازي على عربة يد عند منعطف السكة الجديدة• وفتح الباب وبدا شبح خادم صغيرة فبادرها متسائلا بصوت قوي غيــر متردد ليوحي بما يود من الصدق والثقة :

ـــ الست زبيدة موجودة ؟

فرفعت اليه الخادم رأسها وسألته بدورها في تحفظ أملته عليها ظروف وظيفتها :

ـ من أنت يا سيدي ؟

فقال بصوته القوي :

ـ شخص يروم الاتفاق معها على احياء ليلة ...

وغابت الخادم دقائق ثم عادت وهي تقول : « تفضل » ، واوسعت له فدخل ، ورقي وراءها في سلم متقارب الدرجات انتهى به الى دهليز ثم فتحت له بابا في مواجهته انتقل منه الى حجرة مظلمة فظل واقفا على كثب من المدخل وهو ينصت الى أقدام الخادم وهي تجري ، ثم وهي تعود حاملة مصباحا ، وتتبعها بعينيه وهي تضعه على خوان وتجيء بكرسي الى وسط الحجرة وتقف عليه لتشعل المصباح الكبير المدلي من السقف ثم تعيد الكرسي الى موضعه وتحمل المصباح الصغير وتغادر الحجرة قائلة في أدب « تفضل بالجلوس يا سيدي » واتجه السيد الى كنبة في صدر الحجرة وجلس في ثقة وهدوء دلا على اعتياد هذا الموقف وأمثاله ، وطمأنينة الى الخروج منه بما يرضى ويطيب ، ثم خلع الطربوش وحطه على نمرقةتتوسط الكنبة ومد ساقيه في ارتياح . رأي حجرة متوسطة الحجم نضدتبجنباتها الكنبات والمقاعد وفرشت ارضها بسجادة فارسية وقام حيال كل كنبة من كنباتها الثلاث الكبرى خوان مطعم بالصدف ، وقد اسدلت الستائر على نافذتيها وبابها فحبست في جوها شذا بخور سر به متسليا بالنظر الىفراشة راحت ترف على المصباح في نشاط عصبي ، وانتظر بعض وقت جاءت في اثنائه الخادم بالقهوة ، حتى ترامى الى اذنيه وقع شبشب منغوم ذي دقات مدغدغة فتنبهت اعصابهوحدق الىالباب الذي سرعان ما امتلأ فراغهبالجسم المفصل الهائل وقد لف لفة شهوانية في فستان ازرق . وما كادت عينا المرأة تقعان عليه حتى توقفت دهشة وهتفت :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ! ... أنت ... !

فجرى بصره على جسمها في عجلة ونهم كما يجري الفأر على جوال

أرز ليجد لنفسه منفذا ، وقال باعجاب :

ـ باسم الله ما شاء الله •• ؟

فواصلت تقدمها بعد التوقف باسمة وهي تقول في خوف مصطنع :

ـ عينك ! ••• أعوذ بالله •• !

فنهض السيد مستقبلا يدها الممدودة بترحاب وتشمم شذا البخور بأنفه العظيم وقال :

ـ أتخافين الحسد وعندك هذا البخور !

فاستخلصت يدها من يده وتراجعت الى كنبة جانبية وجلست وهي تقول :

ـ بخوري خير وبركة ، انه أخلاط من انواع شتى بعضها عربي وبعضها هندي اؤلف بينها بنفسي ، فهو جدير بآن يخلص الجسد من ألف عفريت وعفريت •••

فعاود السيد الجلوس قائلا وهو يلوح بيديه في يأس :

ـ الا جسدي ! ••• بجسدي عفاريت من نوع اخر لا يجدي معها البخور ، الامر أجل وأخطر •••

فضربت المرأة صدرا ناهضا كالقربة وهتفت :

ـ ولكني أحيي حفلات افراح لا حفلات زار !

فقال السيد برجاء :

ـ سنرى ان كان لدائي عندكم شفاء !

وساد الصمت قليلا فجعلت السلطانة تنظر اليه فيما يشبه التفكير وكأنما تستخبره عن سر حضوره وهل جاء حقا للاتفاق على احياء ليلة كما قال للخادم ؟•• وغلبتها الرغبة في الاستطلاع فسألته :

ـ فرح أم ختان ؟

فقال السيد باسما :

ـ لك ما تشائين !

ـ عندك مختون ام عروس ؟

ـ عندي كل شيء •••
فأنذرته بنظرة كأنما تقول له « كم أنت متعب ! » ثم تمتمت في تهكم:
ـ نحن في خدمتك على أي حال •••
فرفع السيد يديه الى قمة رأسه في هيئة تنم عن الشكر وقال بوقار يناقض نواياه :
ـ عظم الله قدرك ••• بيد انني ما زلت مصرا على ان اترك لك الاختيار !
فتنهدت في غيظ بالدعابة اشبه وقالت :
ـ اني افضل افراح العرائس بطبيعة الحال !
ـ ولكنني رجل متزوج ولا حاجة بي الى زفةمن جديد •• !
فصاحت به :
ـ يا لك من رجل مهذار ••• اذن فليكن ختانا •••
ـ ليكن •••
وتساءلت وهي تحاذر :
ـ وليدك ؟
فقال ببساطة وهو يفتل شاربه :
ـ أنا ! •••
فأطلقت السلطانة ضحكة مائعة وقررت العدول عن التفكير في مسألة احياء الليلة التي خمنت خبيئتها وهتفت به :
ـ يا لك من رجل قارح ، لو طالتك يدي لقسمت ظهرك ••
فنهض السيد واقبل عليها قائلا :
ـ لا أحرمتك رغبة قط ••
وجلس جانبها فهمت بضربه ولكنها ترددت ثم امسكت فسألها بقلق••
ـ لماذا لم تتكرمي بضربي ؟
فهزت رأسها وقالت ساخرة :
ـ أخاف ان انقض وضوئي •••

فتساءل في لهفة :

ــ أأطمع في أن نصلي معا ؟!

واستغفر الله في سره عقب النطق بدعابته مباشرة لان هذره وان كان لا يقف به في سكرة المجون عند حد الا ان قلبه لم يكن ليطمئن ويواصل ابتهاجه حتى يستغفر في باطنه صادقا مما يعبث به لسانه مازحا . أما المرأة فتساءلت في دلال ساخر :

ــ أتعنى ، يا صاحب الفضيلة ، الصلاة التي هي خير من النوم ؟

ــ بل الصلاة التي هي والنوم سواء ...

ولم تتمالك الا ان تقول ضاحكة :

ــ يا لك من رجل مظهره الوقار والتقوى وباطنه الخلاعة والفجور ، الان صدقت حقا ما قيل لي عنك ...

واستوى السيد في جلسته في اهتمام وتساءل :

ــ وماذا قيل ؟! ... اللهم اكفنا شر القيل والقال ..

ــ قالوا لي انك زير نساء وعبد شراب ...

فتنهد بصوت مسموع يذيع به ارتياحه وقال :

ــ حسبته ذما والعياذ بالله ...

ــ ألم أقل لك انك قارح فاجر ؟!

ــ هي الشهادة لي بأني حزت القبول ان شاء الله ...

فرفعت المرأة رأسها في غطرسة وقالت :

ــ بعدك ! ... لست كمن عرفت من النساء ... ان زبيدة معروفة ولا فخر بعزة النفس ودقة الاختيار ...

فبسط السيد راحتيه على صدره ونظر اليها في تحد مشرب باللطف وقال بطمأنينة :

ــ عند الامتحان يكرم المرء أو يهان ..

ــ من أين لك بهذه الثقة وانت لم تختن بعد بشهادتك ؟

فقهقه السيد طويلا حتى قال :

ـ لا تصدقي يا ختونة ، وان كنت في شك •••

ولكتمه في منكبه قبل ان يتم جملته فأمسك ثم أغرقا في الضحك معا، وسر بمشاركتها اياه في ضحكه ، وحدس وراء ذاك ـ بعد ما جرى بينهما من تلميح وتصريح ـ لونا من الجهر بالرضا ثبتته في وعيه بسمة دلال سالت بطرفها المكحول ، وراح يفكر في ان يحيى هذا الدلال بتحية تليق به لولا ان قالت له محذرة :

ـ لا تحملني على مضاعفة سوء الظن بك ••

فأعاده قولها الى تذكر ما رددته عن القيل والقال ، وسألها باهتمام :

ـ من الذي حدثك عني ؟

فقالت باقتضاب وهي تلحظه بنظرة اتهام :

ـ جليلة ••• !

وفجأه الاسم كأنه عاذل يطرق مجلسهما فابتسم ابتسامة دلت على حرجه • جليلة ، تلك العالمة المشهورة التي عشقها دهرا حتى فصل بينهما الشبع ثم عاشا وما زالا على مودة متبادلة على البعد ، بيد انه كخبير بالنساء لم ير بدا من ان يقول في لهجة صادقة :

ـ لعنة الله على وجهها وصوتها معا ! ••• (ثم متهربا) •• دعينا من هذا كله ولنتكلم في الجد ••

فتساءلت متهكمة :

ـ الا تستحق جليلة كلمة أرق وألطف ؟ •• أم هذا شأنك عند ذكر من قطعتهن من النساء ؟!

وداخل السيد شيء من الحرج الا انه ذاب في موجة الزهو الجنسي التي أثارها في نفسه حديث عشيقة جديدة عن عشيقة ولت ، وأخذ مليا بنشوة ظفر حلوة ثم قال بلباقة معهودة :

ـ لا يسعني وانا بمحضر من هذا البهاء أن أغادره الى ذكريات طويت ونسيت •••

وبالرغم من ان السلطانة حافظت على نظرتها التهكمية الا انها استجابت

للثناء كما بدا في رفع حاجبيها ومداراتها لابتسامة خفيفة اندست الـــى شفتيها ، ولكنها خاطبته بازدراء قائلة :

ــ لسان تاجر يسخو بالحلاوة حتى ينال غرضه ...

ــ لنا الجنة نحن التجار بما يظلمنا الناس ...

وهزت كتفيها استهانة ثم سالته في اهتمام غير خاف :

ــ متى رافقتها ؟

فلوح السيد بذراعه كأنه يقول « ما أبعده من زمن ! » ثم تمتم :

ــ منذ أزمان وأزمان ...

فضحكت في تهكم وقالت بنبرات تنم عن التشفي :

ــ في ايام الشباب الذي مضى .. !

فرنا السيد اليها معاتبا ثم قال :

ــ بودي ان أمص من لسانك الاذى ..

ولكنها واصلت حديثها بنفس اللهجة قائلة :

ــ أخذتك لحما وتركتك عظاما ...

فأومأ اليها بسبابته محذرا وقال :

ــ اني من صلب رجال يتزوجون في الستين ...

ــ بدافع العشق أم بدافع الخرف ؟!

فقهقه السيد قائلا :

ــ يا ولية اتقي الله ودعينا نتكلم في الجد ..

ــ الجد ؟! ... أتعني احياء الليلة التي جئت تتفق عليها ؟

ــ أعني احياء العمر كله ...

ــ كله أم نصفه ؟!

ــ ربنا يقدرنا على ما فيه الخير ..

ــ ربنا يقدرنا على الطيب ...

واستغفر الله في سره مقدما ثم تساءل :

ــ نقرأ الفاتحة ؟

ولكنها نهضت بغتة متجاهلة دعوته وهتفت متظاهرة بالجزع :

ــ رباه ••• سرقني الوقت ولدي الليلة عمل هــام •••

ونهض السيد بدوره ، ومد يده فتناول يدها ثم بسط راحتهــا المخضبة بالحناء ورنا اليها بشوق وافتتان ، وأصر على احتفاظه بها رغم جذبها اياها مرة ومرتين ، حتى قرصته فيٍاصبعه ورفعت يدها الى شاربــه وصاحت به مهددة :

ــ دعني أو تخرج من بيتي بفردة شارب واحدة •••

ورأى ساعدها قريبا من فيه فزهد في النقاش وقرب منه شفتيه رويدا حتى غاصتا في لحمه الطري فتطاير منه الى انفه رائحة قرنفلية ذات طعــم حلو ، ثم تنهد مغمغما :

ــ الى الغد !!

ــ فتخلصت من يده مقاومة من ناحيته هذه المرة ، وحدقت اليه طويلا ثم ابتسمت وتمتمت :

عصفوري يا آمه عصفــوري   لالعب واوري له أموري

وجعلت تردد « عصفوري يا آمه » مرات وهي تودعه • وغادر السيد الحجرة وهو يردد مطلع الاغنية بصوت منخفض ملؤه الوقار والرزانة كأنما يستخبر الالفاظ عما وراءها من معان ••

★ ★

كان ما يطلق عليه بهو الحفلات ببيت العالمة زبيدة يتوسط الــدار كالصالة ، أو كان الصالة بالفعل استجدت لها أغراض أخرى • ولعل أهم أغراضه انها كانت تقوم فيه ــ هي وجوقتها ــ بالتجارب الغنائية وحفــظ الاغاني الجديدة ، وقد اختارته لبعده عن الطريق العام بما يفصل بينهمــا من حجرات النوم والاستقبال • وجعله اتساعه ــ الى هذا ــ صالحا لاحياء الحفلات الخاصة ، التي تتراوح عادة بين الزار والغناء ، والتي تدعو اليهــا الخاصة من اصدقائها ومعارفهم المقربين • ولم يكن الباعث على هذه الحفلات اريحية كرم فحسب ــ ان كان ثمة كرم على الاطلاق فانه غالبا ما

ينهض بأعبائها الاصدقاء انفسهم ــ ولكنها رمت من ورائها الى الاكثار من الاصدقاء المتمازين الخليقين بان يدعوها لاحياء الحفلات او يقوموا لها بالدعاية النافعة في الاوساط التي يتقبلون فيها ، ومن بينهم ــ الى هذا كله ــ تنتقي الخليل بعد الخليل • وجاء دور السيد احمد عبد الجواد ليشرف البهو السعيد محاطا بالخاصة من معارفه • والحق أنه تبدي عن نشاط جم عقب المقابلة الجريئة التي تمت بينه وبين زبيدة في بيتها فسرعان ما حمل رسله كريم الهدايا من النقل والحلوى والهدايا • الى مدفأة اوصى على صنعها ونقشها وطليها بالفضة لتكون ــ جميعا ــ عربونا للمودة المقبلة ، ففي لقاء هذا دعته السلطانة ، تاركة له الخيار في دعوة من يشاء من اصدقائه ، الى حفلة تعارف تكريما للحب الجديد ــ ولشد ما كان البهو موسوما بطابع بلدي جذاب بكنباته المتلاصقة المزركشة الناعمة الموحية بالنفاسة والخلاعة ، الممتدة على الجانبين حتى الصدر حيث يقوم ديوان الست تكتنفه الشلت والوسائد المعدة للجوقة ، أما أرضه المستطيلة فمروشة بسجاد متعدد الالوان والشكول ، وعلى كنصول يتوسط الجناح الايمن ــ كالشامة رواء وصفاء ــ أقيدت الشموع منغرسة في الفنايير ، غير مصباح ضخم يتدلى من قمة منور يتوسط سقف الحجرة ذي منافذ على سطح الدار تفتح في الليالي الدافئة وتغلق بأصلاف زجاجية في ليالي البرد•

جلست زبيدة متربعة على الديوان والى يمينها زنوبة العوادة ربيبتها، والى يسارها عبده عازف القانون الضرير ، واستوت النسوة جلوسا عن يمين وشمال ما بين ممسكة بالدف او ماسحة على الدربكة أو عابثة بالصنج• وآثرت السلطانة السيد احمد بأول مجلس في الجناح الايمن ، واتخذ الباقون من صحبه مجالسهم بلا كلفة كأنهم اصحاب الدار ، ولا عجب فلم يكن الجو بالجديد عليهم ، ولا السلطانة بالتي يرونها لاول مرة •وقدم السيد احمد اصحابه الى العالمة مبتدئا بالسيد على بائع الدقيق فضحكت زبيدة قائلة :

ــ ليس السيد علي بالغريب فقد أحييت فرح كريمته في العام الماضي••

ثم ثنى بالسيد تاجر النحاس ، ولما رماه احدهم بانه من رواد بمبة كشر بادر الرجل قائلا :

ــ وجئت تائبا يا ست ...

وتتابع التعارف حتى تم ، ثم جاءت الجارية جلجل باقداح الشراب ودارت على المدعوين ، ومضت النفوس تستشعر حيوية مشبعة بالاريحية والمرح ، وبدا السيد عريس الحفلة بلا منازع ، بهذا دعاه الاصدقاء ،وبهذا شعر في أعماقه ، وقد وجد لذلك بادىء الامر لونا من الارتباك قل ان يلم به ، فداراه بالاسراف في الضحك والمرح ، حتى اذا اخذ في الشراب زايله بلا عناء ، فاستعاد طمأنينته واندمج في الطرب بكل قلبه . وجعل كلما لج به الشوق ــ والاشواق في مغاني الطرب تثار ــ يمد بصره الى سلطانة المجلس بنهم فيتلكأ ناظره عند طيات جسمها المكتنز ، فطاب قلبا بما أفاء عليه الحظ من نعمة ، وهنأ نفسه على ما يترقبها من لذيذ المسرات ، هذه الليلة والليالي الاخريات . « عند الامتحان يكرم المرء أو يهان » ، هذا التصريح الذي تحديتها به ، يجب ان أكون عند كلمتي ، اية امرأة هي يا ترى ، وأي مدى مداها ، سأعرف الحقيقة في الساعة المناسبة ثم ألبس لكل حال لبوسها ، لكي تضمن الانتصار على غريم ينبغي أن تفترض فيه الغاية من المناعة والبأس ، لن أحيد عن شعاري القديم وهو أن أجعل من لذتي انا مطلبا ثانويا ومن لذتها هي الهدف والنهاية ، وبذلك تتحقق لذتي على أكمل وجه » . ومع ان السيد لم يخبر من الوان الحب ــ على وفرة مغامراته ــ الا الحب العضوي وحي اللحم والدم ، الا انه تدرج في اعتناقه الى أرق صورة وانقاها . فلم يكن حيوانا بحتا ولكنه الى حيوانيته وهب لطافة احساس ورهافة شعور وولع مغلغل بالغناء والطرب ، فسما بالشهوة الى اسمى ما يمكن ان تسمو اليه في مجالها العضوي . بهذه البواعث العضوية وحدها تزوج اول مرة ثم ثاني مرة ، أجل أثرت عاطفته الزوجية ــ بكور الايام ــ بعناصر جديدة هادئة من المودة والالفة ولكنها ظلت في جوهرها جسدية شهوانية ، ولما كانت عاطفة من هذا النوع ــ خاصة اذا

أوتيت قوة متجددة وحيوية دافقة ــ لا يمكن ان تستنيم الى لون واحد فقد انطلق في مذاهب العشق والهوى كالثور الهائج ، كلما دعته صبـــوة استجاب لها في نشوة وحماس • لم ير في اية امرأة الا جسدا ، ولكنه لــم يكن يحني هامته لهذا الجسد حتى يجده خليقا حقا بأن يرى ويلمس ويشم ويذاق ويسمع ، شهوة نعم ولكنها ليست وحشية ولا عمياء ، بل هذبتهـا صنعة ، ووجهها فن فاتخذت لها من الطرب والفكاهة والبشاشة جوا واطارا• فلم يكن اشبه بشهوته من جسمه ، فهو مثلها في الضخامة والقوة اللتيــن توحيان بالقسوة والوحشية ولكنه ــ مثلها أيضا ــ فيما ينطوي عليــه في أعماقه من لطف ورقة ومودة على ما يتسربل به أحيانا ــ متعمدا ــ مــن الصرامة والشدة • ولذلك فلم يتركز خياله النشيط ــ وهو يلتهم السلطانة بنظراته، في المضاجعة ونحوها ولكنه تاه ــ الى هذا ــ في افانين من احلام اللهو واللعب والغناء والسمر • واحست زبيدة بحرارة عينيه فقالت تخاطبه وهي تقلب عينيها في وجوه المدعوين بعجب ودلال :

ــ حسبك يا عريس ، هلا استحييت حيال رفاقك !

فقال السيد متعجبا :

ــ وما انتفاعي بالحياء حيال قنطار من اللحم والدهن !

فأطلقت العالمة ضحكة رنانة وتساءلت في غاية من الانبساط :

ــ كيف ترون صاحبكم ؟

فقالوا في نفس واحد :

ــ معذورا ••• !!

وهنا حرك عازف القانون الضرير رأسه يمنة ويسرة وقد تدلت شفته السفلى وتمتم :

ــ قد أعذر من أنذر •••

ومع ان « حكمته لاقت ترحيبا الا أن الست التفتت نحوه كالغاضبة ولكزته في صدره هاتفة :

ــ اسكت انت وسد فاك الذي يبلع المحيط ••

وتلقى الضرير الضربة ضاحكا ثم فتح فاه كأنما ليتكلم ولكنه أغلقه مرة اخرى مؤثرا السلامة فوجهت المرآة رأسها صوب السيد وقالت بلهجة تنم عن الوعيد :

ــ هذا جزاء من يجاوز حده •

فقال السيد متظاهرا بالانزعاج :

ــ ولكنني جئت لاتعلم قلة الادب ••

فدقت المرآة صدرها بيدها وصاحت :

ــ يا خبر ! ••• اسمعتم قوله ؟!

فقال اكثر من واحد منهم في وقت واحد :

ــ انه خير ما سمعنا حتى الان •••

واضاف الى هذا أحد الرفقاء قائلا :

ــ بل عليك بضربه اذا جاوز حدود قلة الادب •••

وقال اخر مؤمنا على قوله :

ــ الزمي طاعته ما قل أدبه •

فتساءلت المرأة وهي ترفع حاجبيها لتعلن عن دهشة لا اثر بها في نفسها :

ــ لحد هذا تحبون قلة الادب !

فتنهد السيد قائلا :

ــ ربنا يديمها علينا •••

فما كان من العالمة الا أن تناولت الدف وهي تقول :

ــ سأسمعكم شيئا أفضل ••

ونقرت عليه فيما يشبه العبث ،ولكن علا النقر في حومة اللغو كالنذير حتى أسكته ، وداعب الآذان متوددا فبدل القوم حالا بعد حال ، تحفز أفراد الجوقة للعمل ، وفرغ السادة الكؤوس ثم مدوا رؤوسهم نحو السلطانة وساد المكان صمت يكاد ينطق من شدة التهيؤ للطرب • وأومأت العالمة الى الجوقة فانطلقت تعزف بشرف عثمان بك ، وراحت الرؤوس

تذهب مع الانغام وتجيء • وسلم السيد نفسه لرنين القانون الذي جعل يلذع قلبه فيشعل فيه اصداء الانغام المختلفة من عهد طويل حافل بليالي الطرب كأنها ذرات نفط تساقط على جمر مكنون • أجل كان القانون احب آلات الطرب الى نفسه ـ لا لمهارة العقاد وحدها ـ ولكن لسر مستلهم من طبيعة اوتاره ، ومع أنه كان يعلم انه لن يستمع الى العقاد أو سي عبده الا أن قلبه العاشق داري بعشقه ما قصر دونه الفن • وما ان فرغت الجوقة من عزف البشرف حتى انطلقت العالمة تنشد «والذي أسكر من عذب اللما» فلحقت بها الجوقة في حماس ، وكان اجمل ما يطرب فيها صوتان متجاوبان، احدهما غليظ عريض للعازف الضرير والاخر رقيق يندى بالطفولة لزنوبة العوادة ، فجاش صدر السيد بالانفعال فابتدر الكأس الذي بين يديه فافرغه في جوفه واندفع يشارك في انشاد التوشيح وقد وشت نبرات صوته ـ عند مطلع الغناء ـ بشرق في حلقه لاندفاعه الى الانشاد قبل ان يتم بلع ريقه ، وما لبث ان تشجع بقية الرفاق فحذوا حذوه وسرعان ما انقلب البهو جوقة تنشد عن صوت واحد • ولما ختم التوشيح تهيأت روح السيد ـ بحكم العادة ـ لاستماع التقاسيم والليالي ولكن العالمة ذيلت الختام بضحكة من ضحكاتها الرنانة معلنة عن سرورها وعجبها ، ومضت تهنيء افراد الجوقة المستجدين مداعبة وتسألهم عن الدور الذي يودون سماعه، وانزعج السيد في باطنه ومرت به لحظة كدرة امتحن فيها ولعه بالغناء امتحانا قاسيا لم يفطن اليه كثيرون ممن حوله ، ولكنه أدرك في اللحظة التالية ان زبيدة ليست كفئا لتقاسيم الليالي شأن جميع العوالم بما فيهن « بمبة كشر » نفسها ، فتمنى لو تختار المرأة طقطوقة خفيفة مما تغني للسيدات في الافراح ، مفضلا هذا على محاولة غناء دور من ادوار الفحول ستعجز حتما عن أجادة ترجيعه ، وصمم على ان يتفادى من المتاعب التي تخافها أذنه بأن يقترح اغنية خفيفة تناسب حنجرة الست فقال :

ـ ما رأيكم في عصفوري يا امه ؟

وحدجها بنظرة ذات معنى كأنما ليثير في نفسها ايحاء هذه الطقطوقة

التي توجت بها حوار تعارفهما في حجرة الاستقبال منذ ايام قلائل ، ولكن جاء صوت من اقصى البهو يصيح ساخرا :

ــ الاولى أن تتطلبها من أمك ••• !

وسرعان ما ضاع الاقتراح فيما تفجر من قهقهات افسدت على السيد خطته ، وقبل أن يكرر المحاولة طلب نفر « يا مسلمين يا أهل الله » وطلب آخرون « سلامتك يا قلبي » ولكن زبيدة التي تحاشت ان ترضي فئة على حساب اخرى اعلنت انها ستغنيهم « على روحي انا الجاني » فاستقبلت بترحاب حار • ولم يجد السيد بدا من توطين النفس على الانبساط مستعينا بالشراب ، وبأحلام ليلته الواعدة ، فتالق ثغره بابتسامة وضيئة ادرك بها ركب النشاوي بلا كدر ، بل وجد عطفا على رغبة المرأة في محاكاة الفحول ارضاء لمستمعيها الراسخين في السماع وان لم يخل حالها من غرور تألفه الغواني • وفيما تتهيأ الجوقة للغناء نهض احد الرفاق وهتف بحماس :

ــ دعوا الدف للسيد احمد فهو به خبير •• !

فهزت زبيدة رأسها عجبا وتساءلت :

ــ حقا ؟!

فحرك السيد أصابعه في سرعة ورشاقة كانما يعرض عليها مثالا من صنعته فقالت زبيدة باسمة :

ــ فيم العجب وانت تلميذ جليلة !

وضحك السادة في غير ما تحفظ ، وتواصل الضحك حتى علا صوت السيد الفار وهو يسأل السلطانة قائلا :

ــ وماذا تنوين ان تعلميه أنت ؟

فقالت بلهجة ذات معنى :

ــ سأعلمه القانون ••• الا يروقك هذا ؟

فقال السيد باستعطاف :

ــ علميني الهنك ان شئت •••

وحث كثيرون السيد على الانضمام الى التخت واخذ الدف فما كان

منه الا ان نهض وخلع الجبة فبدا بطوله وعرضه في القفطان الكموني كجواد يقف مستوفزا على رجليه الخلفيتين ، ثم شمر عن ساعديه ومضى الى الديوان ليتخذ مجلسه الى جانب الست ، ولكي تفسح له قامت نصف قومة متزحزحة الى اليسار فانحسر الفستان الاحمر عن ساق لحيمة مرتوية بيضاء مشربة بلون وردي من أثر الحف والنتف محلى أسفلها بخلخال ذهبي أعيا ضمها ذراعيه ، ورأى بعضهم ذاك المنظر فصاح بصوت كالرعد :

ـ تحيا الخلافة !

وكان السيد يغمز ثديي المرأة بعينيه فهتف وراءه :

ـ قل يحيا الصدر الاعظم ...

فصاحت العالمة محذرة :

ـ خفضوا اصواتكم او يبيتنا الانجليز في السجن ...

فهتف السيد الذي لعبت الخمر برأسه :

ـ اذهب معك مؤبدا مع الشغل ...

وعلا اكثر من صوت يقول :

ـ لا عاش من يتركما تذهبان وحدكما ...

وأرادت المرأة ان تحسم النزاع الذي اثاره منظر ساقها فمدت يدها بالدف الى السيد وهي تقول :

ـ ارني شطارتك ...

وتناول السيد الدف ، ومسح عليه براحته مبتسما ، وبدأت أصابعه تنقر عليه في مهارة على حين انطلقت آلات الطرب عازفة ، ثم غنت زبيدة وهي ترنو الى الاعين المحدقة اليها :

على روحي انا الجاني وخلى في الهوى رماني

ووجد السيد نفسه في موقف عجيب ، تهفو اليه أنفاس السلطانة بين اللفتة واللفتة فتلتقي باشعاعات الخمر المتطايرة من يافوخه بين الحسوة والحسوة ،فما أسرع ان غابت عن وعيه اصداء الحامولي وعثمان والمنيلاوي، وعاش في لحظته الراهنة قانعا سعيدا ، ثم سرى اليه من نبرات صوتها

ما حرك اوتار قلبه فاستعر نشاطه ولعب بالدف لعبا لا يدانيه المحترفون ،وما بلغت المرأة في الغناء قولها « أمانة يا رايح يمه تبوس لي الحلو من فمــه » حتى كان من النشوة في سكرة عانية ملهمة مدغدغة محرقــة ، ولحق بــه الرفاق او سبقوه اذ بلغت الخمر بالضرب نهايته ونثرت الشهــوات نثــرا فتركتهم كادواج راقصة في حومة عاصفة هوجاء ••

ورويدا رويدا شارف الدور الختام وراحت زبيدة تختمه مرددة نفس المطلع الذي افتتحت بــه وهو « على روحي انــا الجانــي » ولكن بروح يوحي بالدعة والتذكيــر والوداع ثم النهاية ، وغابت الانغــام كما تغيــب طيارة بجبيب وراء الافق •ومع ان الختامقوبل بعاصفة من التهليلوالتصفيق الا انه سرعان ما ساد القاعة صمت دل على همود انفس أعياهــا الجهــد والانفعال ، ومضت فترة لم يسمع فيها الا سعلة او نحنحة أو حكة عــود ثقاب أو كلمة لا تستحق المراجعة • وقال لسان الحال للمدعوين « تفضلوا بسلام » فلاحت من بعضهم نظرات الى قطع الثياب التي تخففوا منهــا في فورة الطرب فوضعوها وراءهم على مساند ، ولكن البعض الاخر ممــن تعلقت نفوسهم بحلاوة السهرة ابوا ان يغادروها حتى يرشفوا اخر قطــرة متاحة من الرحيق ، فصاح أحدهم :

ــ لا نبرح حتى نزف السلطانة الى السيد أحمد •••

وقوبل الاقتراح بترحاب وتأييد ، على حين أغرق السيد والعالمــة في الضحك غير مصدقين ، وما يدريان الا ونفر من الصحاب يحيطون بهمــا وينهضونهما ثم يشيرون الى الجوقة لتشرع في النشيد السعيد •

وقفا جنبا لجنب ، هي كالمحمل وهو كالجمل ،عملاقين ملطفينبالحسن، ثم تأبطت في دلال ذراعه واشارت الى المحدقين بهما ليفسحــوا الطريــق • ونقرت الدفافة على الدف فانطلقت الجوقة وكثرة من المدعويــن يرددون نشيد الزفة « انظر بعينك يا جميل » ومضى العروسان في خطــو وئيــد يتبخران طربا وسكرا فلم تتمالك زنوبة مع هذا المنظر الا ان تمسك عــن اللعب باوتار العود ريثما تطلق زغرودة مجلجلة طويلة النفس لو تجسمــت

لبدت لسانا متعرجا من لهب يشق الفضاء كالشهاب • وتسابق الاصدقاء يرجون التهاني تباعا :

ـ بالرفاء والبنين ••

ـ ذرية صالحة من الراقصات والمغنيات •••

وصاح به احدهم محذرا :

ـ لا تؤجل عمل اليوم الى غد •••

ولم تزل الجوقة تواصل الانشاد ،والاصدقاء يلوحون بأيديهم مودعين حتى توارى السيد والمرأة وراء الباب المفضي الى داخل الدار •••

★ ★

كان السيد احمد جالسا الى مكتبه بالدكان حين دخل ياسين على غير انتظار • ولم تكن زيارة غير منتظرة فحسب ، ولكنها كانت قبل كل شيء غير مألوفة ، اذ لم يكن من الطبيعي ان يزور الفتى اباه في دكانه على حين يتحاشاه على قدر استطاعته في بيته ، والى هذا بدا شارد اللب ساهم النظرة ••• وأقبل على أبيه مكتفيا برفع يده الى رأسه بطريقة آلية دون ان يلتزم ما يلتزم عادة بمحضره من أدب بالغ وخضوع كانما نسي نفسه ، ثم قال بلهجة نمت عن شديد تأثره :

ـ السلام عليكم يا أبي ، جئت لاحدثك في أمر هام •••

ورفع السيد اليه عينيه متسائلا وقد ساوره قلق استعان على اخفائه بقوة ارادته ثم قال بهدوء :

ـ خير ان شاء الله ••• !

وجاء جميل الحمزاوي بكرسي وهو يرحب بمقدمه فأمره والده بالجلوس فقرب الشاب الكرسي من مكان أبيه وجلس ، وبدا لحظات كالمتردد ، ثم زفر ثائرا بتردده وقال بنبرات متهدجة وفي اقتضاب مؤثر :

ـ المسألة أن أمي شارعة في الزواج ••• !

ومع ان السيد توقع خبرا سيئا الا ان خياله لم يجنح في جولته التشاؤمية الى تلك الناحية التي اودعها ركنا مهجورا من ماضيه ، لذلك

لقيت منه المفاجأة صيدا غافلا ، وسرعان ما قطب كما يقطب كلما عرض له عارض من ذكريات زوجه الاولى ، وتولاه لذلك ضيق ، ثم انزعاج لما يمس ابنه مباشرة في صميم كرامته ، وكشأن السائلين الذين يلقون السؤال لا ليعرفوا جديدا ولكن ليلتمسوا منفذا للنجاة من الواقع وهم يائسون ، أو ليهيئوا لانفسهم مهلة للتروي وتمالك الاعصاب ، وساله :

ـ ومن ادراك بهذا ؟

ـ قريبها الشيخ حمدي ، زارني اليوم بمدرسة النحاسين والقى علي الخبر مؤكدا بأنه سيتم في ظرف شهر ...

الخبر حق لا ريب فيه ، وما هو بالاول من نوعه ، في حياتها ، ولن يكون الاخير اذا اتخذ الماضي مقياسا للمستقبل ، ولكن أي ذنب جناه هذا الشاب ليلقى هذا الجزاء الصارم المتجدد الاذى ؟!. ووجد الرجل نحو ابنه رثاء وعطفا ، وعز عليه ان يقف من آلامه موقف العجز وهو الذي يقصده الناس في الملمات ، وتساءل فيما بينه وبين نفسه ماذا تكون حاله لو كان هو المبتلي بهذه الالام ! .. فانقبض صدره وتضاعف رثاؤه وعطفه نحو ابنه ، ثم شعر برغبة تدفعه الى السؤال عن ذلك الزوج المنتظر ، ولكنه لم يستسلم لها ، اما لانه اشفق من أن تزيد جرح ابنه عمقا واتساعا واما لانه انكرها على نفسه لما آنس بها من حب استطلاع ـ لا يليق بالمأساة الراهنة ـ موجه الى المرأة التي كانت زوجا له ، بيد ان ياسين قال منفعلا من تلقاء نفسه وكأنه يجيب خاطرته :

ـ وممن تتزوج ! ... من شخص يدعى يعقوب زينهم صاحب مخبز في الدراسة ... في الثلاثين من عمره !

واشتد انفعاله وتهدج صوته وهو ينطق العبارة الاخيرة كأنما يلفظ شظية ، فانتقل احساسه الى ابيه تقززا واشمئزازا ، وجعل يردد في سره : في الثلاثين من عمره ... يا له من عمل فاضح ... انه فسق في ثياب زواج.. غضب الرجل لغضب ابنه ، وغضب لحساب نفسه هو كما اعتاد ان يغضب كلما ترامى اليه نبأ من مباذلها كأنما يتجدد شعوره بتبعته في اعتبارها

يوما زوجا له ، او كأنما يعز عليه ـ ولو بعد كرور ذلك الزمن الطويل ـ انها افتتت من تأديبه والاذعان لسنته !. وانه ليذكر ايام معاشرته لهـا ـ على قصرها كما يذكر الانسان حمى هاضته ، وربما كان مغاليا في تصوره ، ولكن رجلا في مثل اعتداده بنفسه جدير بان يرى في مجرد الرغبة عن الاذعان لمشيئته جريمة لا تغتفر وعزيمة قتالة . ثم انها كانت ـ ولعلها لا تزال ـ جميلة مترعة انوثة وجاذبية فنعم بمعاشرتها اشهرا حتى بدا منها شيء مـن المقاومة لارادته التي نزع الى فرضها على المتصلين به من آله ، ولم تـر بأسا في استمتاع بالحرية ولو بالقدر الذي يتيح لها زيارة ابيها من آن لآن، فغضب السيد وحاول منعها بالزجر اولا ثم بالضرب المبرح اخيرا ، فما كان من المراة المدللة الا ان فرت الى والديها ، ! وأعمى الغضب الرجل المتعجرف فظن ان خير سبيل الى تأديبها وارجاع عقلها الى رأسها هو ان يطلقها الى حين ـ الى حين طبعا لانه شديد التعلق بها ـ فطلقها ، وتظاهر باهمالهـا اياما واسابيع وهو ينتظر آملا ان يجيئه وسيط خير من آلها ، فلما لم يطرق بابه احد داس كبرياءه وبعث هو من يجس النبض تمهيدا للصلح فعـاد الرسول يقول انهم يرحبون به على شرط الا يسجنها او يضربها ! .. ولكنه كان ينتظر موافقته بلا قيد ولا شرط فثار غضبه ثورة عاتية واقسم فيمـا بينه وبين نفسه الا يضمهما رباط الى الابد . هكذا ذهب كلاهما الى حال سبيله ، وهكذا قضي على ياسين ان يولد بعيدا عن ابيه وان يلقى من حياته في بيت امه ما لقي من ضروب المذلة والالم ..

ومع ان المرأة تزوجت اكثر من مرة ، ومع ان الزواج كان ـ في نظـر ابنها ـ أشرف سقطاتها ، الا أن هذا الزواج الجديد المتوقع بدا أفظع مـن سوابقه وأمعن في الايلام ، لان المرأة استوت على الاربعين من ناحية ، ولان ياسين اكتمل شابا مدركا بوسعه اذا شاء ان يدفع عن كرامته الاسـاءة والهوان من ناحية اخرى ، فقد جاوز اذن موقفه القديم الذي الزمته ايـاه حداثة سنه حين كان يتلقى الانباء المثيرة عن أمه بالدهش والانزعاج والبكاء الى موقف جديد بدا فيه امام نفسه رجلا مسئولا لا يصح له ان يلقـى

الاساءة مكتوف اليدين . دارت هذه الخواطر بذهن السيد ،وقدر خطورتها بقلق ، ولكنه صمم على التهوين من شأنها ما وسعته الحيلة ابتعادا بابنه الاكبر عن المتاعب ، فهز منكبيه العريضين متظاهرا بالاستهانة وقال :

ـ ألم تتعاهد على اعتبارها كشيء لم يكن .. ؟!

فقال ياسين في حزن وقنوط :

ـ ولكنها شيء كائن يا أبي ! ...ومهما يكن من امر تعاهدنا فلن تزال امي الى ما شاء الله ، سواء في نظري ام في نظر الناس جميعا .. لا مفر ولا خلاص ...

ونفخ الشاب من الاعماق ، ورنا الى ابيه بعينيه السوداوين الجميلتين ـ اللتين ورثهما عنها ـ في استغاثة صارخة وكأنه يقول له : « انك ابي الجبار القادر فمد لي يدك » ، فبلغ التأثر بالسيد غايته ولكنه واصل تظاهره بالهدوء المقرون بالاستهانة قائلا :

ـ لا انكر عليك تألمك ولكني انكر عليك ان تغالي فيه ، كذلك يطيب لي ان اعذرك على غضبك ولكن قليلا من العقل حري بأن يردك بلا عناء ، سائل نفسك في هدوء ماذا عليك من زواجها ؟ ... امرأة تتزوج ، كما تتزوج النساء كل يوم وكل ساعة ، وليست هي بالتي تحاسب على مثل هذا الزواج لما سلف من سلوكها ، بل لعلها خليقة بأن تشكر عليه ، وكما قلت لك مرارا لن يرتاح لك بال حتى تسقطها من حسابك كأنها لم تكن ، فافعل بالله وأرح نفسك ، وتعز ـ مهما يكن من امر القيل والقال ـ بأن الزواج علاقة مشروعة ... شريفة ...

قال السيد هذا بلسانه فحسب ـ اذ كان يناقض كل المناقضة ما طبع عليه من غيرة متطرفة فيما يتصل بالآداب المطلقة للاسرة ـ ولكنه قاله بحرارة كالصدق ، منشؤها ما مارسه من لباقة أهلته لان يكون الحكم الحكيم ووسيط الخير الذي لا يعجزه فض نزاع بين الناس ، ومع ان كلامه لم يضع هباء ـ حيث انه من المستحيل ان يضيع كلام للسيد هباء حيال أحد من أبنائه ـ الا أن غضب الفتى كان اعمق من أن يتبخر بنفخة واحدة

فوقع منه موقع قدح بارد من ابريق بالماء المغلي ، وما لبث ان خاطب اباه قائلا :

ـ هو علاقة مشروعة حقا يا أبي ولكنها تبدو احيانا أبعد ما تكون عن الشرع ، اني اسائل نفسي عما يدفع هذا الرجل الى الزواج منها ؟!

وبالرغم من خطورة الحال قال السيد لنفسه في شيء من السخرية « اولى بك أن تسأل عما يدفعها هي ! » ، وقبل ان يحاور ابنه واصل ياسين حديثه قائلا :

ـ انه الطمع ... ولا شيء غيره !

ـ أو لعلها رغبة صادقة في الزواج منها ...

ولكن الشاب هاج ثائره وهتف في حنق وألم معا :

ـ بل الطمع وحده ...

وبالرغم من خطورة الموقف لم تخف على السيد حدة اللهجة التي خاطبه بها ابنه ، بل لم يخل الرجل من ضيق الى تقديره لحاله وحزنه او أن يعود الى توكيد قوله السابق ، فلما لم يفعل استطرد قائلا في هدوء نسبي :

ـ ان ما يدفعه الى الزواج من امرأة تكبره بعشرة أعوام هو الطمع في مالها وعقارها ...

وجد السيد في تحول النقاش الى هذه النقطة فائدة لم تغب عن ألمعيته، فهو ينزع الفتى من تركيز تفكيره في امور اشد حساسية وابعث للألم وبحسبه انه يصرفه عن النظر فيما يدفع امه الى الزواج الى ما يدفع الرجل ، والى هذا كله لم يخف عليه ما في رأي ابنه من وجاهة فيما يتعلق بالزوج فسرعان ما اقتنع به وشاركه مخاوفه فيه . اجل أن هنية ـ أم ياسين ـ غنية لدرجة لا بأس بها ، وقد سلمت لها ثروتها من العقار على ما خاضت من تجاريب الزواج والهوى ، بيد أنها كانت فيما مضى شابة حسناء ذات سحر وسلطان ، يخاف منها ولا يخاف عليها ، أما الان فبعيد عن الاحتمال ان تملك نفسها ـ فضلا عن أنفس الاخرين ـ ما ملكت ، واذن فثروتها

خليقة بأن تبدد في معركة الغرام التي لم تعد من رماتها ، وانه لحرام وأي حرام ان يخرج ياسين من جحيم هذه المأساة جريح الكرامة وصفر اليدين •
وقال السيد يخاطب ابنه وكأنه يحاور نفسه ويستلهمها الرأي :
ــ آراك على حق يا بني فيما تقول ، ان امرأة في سنها صيد يسير خليق بأن يغري الطماعين من البشر ، فما عسى ان نفعل ؟ ••• أنتلمس سبيلا الى ذاك الرجل لنحمله على العدول عن مغامراته !؟ ••• ان الحملة عليه بالوعيد والتهديد سلوك لا ترتضيه آدابنا وما عرفنا به بين الناس ، كذلك التوسل اليه بالرجاء والاقناع مهانة لا تهضمها كرامتنا •• فلم يبق امامنا الا المرأة نفسها ! ••• ولست أجهل ما حفرت بينك وبينها من قطيعة كانت بها ــ ولا تزال ــ خليقة ، بل الحق اني لا ارتاح الى ان تصل ما انقطع بينك وبينها لولا ما استجد من اعذار قهرية ، فللضرورة احكام ، ومهما يشق عليك الرجوع فهو رجوع الى آمك ، ومن يدري فلعل ظهورك المفاجىء في افقها يردها الى شيء من الصواب •••

وبدا ياسين أمام أبيه ، كالوسيط امام المنوم المغناطيسي في اللحظات التي تسبق ما يوحي به اليه ، ذاهلا صامتا ، فوشى حاله بنفاذ تأثير الرجل الى نفسه ، أو لعله دل على أنه لم يفاجأ بهذا الاقتراح ، وانه يحتمل ان يكون مما دار بنفسه قبل مجيئه ، بيد أنه تمتم قائلا :

ــ أليس ثمة حل أوفق ••• ؟

فقال السيد بقوة ووضوح :

ــ أراه اوفق الحلول •••

فقال ياسين وكأنه يحادث نفسه :

ــ كيف أرجع اليها !؟ ••• كيف ازج بنفسي في ماض فررت منه وليس أحب الي من ان يبتر من حياتي بترا ! ••• لا أم لي ••• لا أم لي ••

ولكن بالرغم من ظاهر قوله شعر السيد بأنه وافق الى جذبه الى رأيه فقال بلباقة :

ــ هذا حق ، ولكن لا أظن ان ظهورك امامها فجأة بعد ذاك الغياب

الطويل يمضي بلا اثر ، لعلها اذا رأتك بين يديها شابا ناضجا ان تتحرك امومتها فتجفل مما عساه يسيء الى كرامتك وتعدل عن سيرتها ... من يدري ؟!

فطامن ياسين رأسه غارقا في أفكاره ، غير مبال بما دل عليه من ضيق ويأس . كان يرتعد خوفا من وقوع الفضيحة ، ولعل هذا كان افظع ما يكربه ولكن خوفه على ضياع الثروة التي ينتظر ان يرثها يوما لم يكن دون ذلك ، وما عسى أن يفعل ؟! ... مهما يقلب أوجه الرأي فلن يجد حلا اوفق مما ارتأى ابوه ، بل ان صدور الرأي عن ابيه ألبسه في نظره ـ على تقلقل حاله ـ وجاهة وأعفاه هو من هموم كثيرة . ليكن .. هكذا قال في نفسه ، ثم قال مخاطبا اباه :

ـ كما ترى يا أبي ...

★ ★

لما بلغت به قدماه طريق الجمالية انقبض صدره حتى شعر بأنه يختنق. لقد غاب عنه احد عشر عاما ، أحد عشر عاما انصرمت فلم ينازعه القلب اليه مرة واحدة ، أو ترف عليه ذكرى من ذكرياته الا في هالة قاتمة مقبضة نسج وشيها من مادة الكابوس ، والحق انه لم يكن غادره ولكن واتته فرصة ففر منه فرارا ، ثم ولاه ظهره غاضبا يائسا ، ثم تجنبه بكل قوة نفسه فلم يعرفه بعد ذلك كغاية في نفسه او معبرا الى سواه من الاحياء بيد انه هو الحي كما عهده في طفولته وصباه ، لم يتغير منه شيء ، ما زال ضيقا تكاد تسده عربة يد اذا اعترضت سبيله ، وها هي بيوته تكاد تتماس مشربياتها ، ودكاكينه الصغيرة في تلاصقها وزحمتها والطنين الصادر عنها كخلايا النحل، وأرضه التربة بفجواتها المفعمة وحلا ، وغلمانه الذين يغشون جوانبه ويطبعون على اديمه آثار اقدامهم الحافية ، وسابلته الذين لا ينقطع لهم تيار، ومقلي عم حسن ومطعم عم سليمان ، كل اولئك باق كما عهده فتكاد ترف على شفتيه ابتسامة حنان يريد ثغر طفولته ان يفتر عنها لولا مرارة الماضي وسقم الحاضر ...

وتراءت لعينيه عطفة قصر الشوق فخفق قلبه بقوة حتى كاد يصم أذنيه ، ثم لاحت على رأس منعطفها الايمن سلال البرتقال والتفاح منضدة على الطوار امام دكان الفاكهة فعض على شفتيه وغض طرفه في خزي . الماضي ملطخ بالعار . مدفون الرأس في الطين من الخجل ، دائم الجأر بالشكوى من الخزي والالم ، ولكنه كله في كفة وهذه الدكان في كفة وحدها ، بل أنها ترجح به ، اذ انها رمزه الحي الباقي على الزمن ، جمعت في صاحبها وسلالها وفاكهتها وموقعها وذكرياتها الخزي متبجحا والالم ناطقا بالهزيمة مولولة ، واذا كان الماضي أحداثا ودكريات هي بطبعها عرضة للتخلخل أو النسيان فهذه الدكان تقوم شاهدا مجسما يكشف مخلخله ويستحضر منسيه . وكان كلما تقدم من المنعطف خطوة تقهقر عن الحاضر خطوات طاويا الزمن على رغم ارادته ، وكأنه يرى في الدكان « غلاما »يرفع رأسه الى صاحبها ويقول « نينة تطلب منك ان تحضر الليلة » ، أو كأنه يراه وهو عائد بقرطاس الفاكهة ضاحك الاسارير ، أو وهو يلفت نظر أمه في الطريق الى الرجل فتجذبه من ذراعه بعيدا ان يلفت اليهما الانظار ، أو وهو ينشج باكيا أمام منظر الافتراس الوحشي الذي يخلقه خلقا جديدا ــ كلما ورد على ذهنه ــ على ضوء تجاربه الراهنة فينقلب البشاعة نفسها ، طفقت الصور الملتهبة تطارده وهو يجد في الفرار منها ، ولكنه ما ان يتملص من قبضة احداها حتى يقع في قبضة الاخرى ، مطاردة عنيفة وحشية اثارت في أعماقه بركان الحنق والحقد فواصل السير الى غايته وهو على أسوأ حال « كيف أمرق الى العطفة وعلى رأسها هذه الدكان ... وهذا الرجل ... اتراه بموقفه القديم منها ؟. لن التفت نحوها ، أي قوة ماكرة تغريني بالنظر، ايعرفني اذا التقت عينانا ؟! ... اذا بدا منه انه عرفني قتلته ، ولكن كيف له بأن يعرفني ؟ ... لا هو ولا احد من الحي ، أحد عشر عاما ، تركته غلاما وأعود اليه ثورا .. ذا قرنين ! ثم لا تواتينا القوة على ابادة الحشرات السامة التي لا تنفك تلدغنا ... » ؟

ومال الى العطفة مسرعا بعض الشيء ، متخيلا القوم وهم يستطلعونه

بأنظارهم متسائلين « أين ومتى رأينا هذا الوجه ! » • ورقي في الطريق المتصاعد في غير استواء ، جامعا عزمه على نفض الغبار الخانق عن وجهه ورأسه ولو الى حين ، وتشجيعا لعزمه فر بنفسه بعيدا وراح يتامل ما حوله ويحدث نفسه قائلا : « لا تضق بالطريق المتعب فكم كنت تفرح به صغيرا وانت تتزحلق على منحدره فوق لوح من الخشب ! » بيد أنه عاد يقول حين تراءى له جدار البيت : « الى اين اسير ؟! ••• الى أمي !•• يا للعجب ، لا اصدق ، كيف ألقاها وكيف تلقاني ! ••• وددت لو ••• » ومال يمينا الى عطفة مسدودة ثم اتجه الى اول باب في جانبها الايسر • هو البيت القديم بلا ادنى شك ، قطع الطريق اليه كما كان يقطعه وهو صغير ، بلا تردد او تساؤل ، وكأنه ما تركه الا امس القريب ، ولكنه اقتحم بابه هذه المرة باضطراب غير معهود ، ورقي في الدرج بخطوات ثقيلة بطيئة ، وبالرغم من قلقه وجد نفسه يتفحصه باهتمام مطابقا بينه وبين صورته المحفوظةفي خياله فألفاه أضيق قليلا مما في ذاكرته وقد تآكلت بعض جوانبه وتهدمت أجزاء صغيرة من اطراف درجاته المطلة على بئر السلم ، وسرعان ما حجبت الذكريات الحاضر كله • ومر وهو على تلك الحال بالدورين المأجورين حتى انتهى الى الدور الاخير ، ووقف لحظات يتصنت وصدره يعلو وينخفض ، ثم هز منكبيه كالمستهين ونقر على الباب ، وبعد دقيقة او نحوها فتح الباب عن وجه خادم متوسطة العمر ما ان تبينت فيه رجلا غريبا حتى توارت وراء الباب وهي تسأله في أدب عما يريد • وثارت اعصابه فجأة وبلا داع معقول لما بدا من الخادم من جهل بشخصه فدخل بأقدام ثابتة واتجه نحو حجرة الاستقبال وهو يقول بلهجة آمرة :

ـ قولي لستك ياسين هنا •••

« ترى ماذا تظن الخادم بي ؟ » ••• والتفت وراءه فوجدها مسرعة الى الداخل ، أما لان لهجته الآمرة غلبتها على امرها ، واما ••• وعض على شفتيه وهو يمرق الى داخل الحجرة • انها حجرة الضيوف كما قدر بلا وعي في لهوجته وحدته ولكن ذاكرته كانت تعرف اركان البيت بلا

دليل ، ولو وجد في ظرف غير الظرف لطاف مسترجعا ذكرياته من الحمام الذي كان يحمل اليه وهو يبكي الى المشربية التي كان ينظر من وراء ثقوبها الى موكب الزفة مساء بعد مساء . ترى أثاث الحجرة الراهن هو آثاث الماضي البعيد ؟ .

انه لا يذكر من الاثاث القديم الا مرآة طويلة ثبتت في حوض مذهب تنبثق من ثغرات في سطحه ورود صناعية مختلفة الالوان ، وتركز في زاويتيه المتباعدتين فنايير تتدلى من اعناقها أهلة بلورية طالما ولع بالعبث بها والنظر خلالها الى المكان فيلوح في حلل غريبة يذكر اغراءها وان غاب عنه منظرها . ولكن لا داعي للتساؤل ، فأثاث اليوم غير اثاث الامس ، لا لجدته فحسب ، ولكن لان حجرة امرأة مزواج خليقة بان تتغير او تتجدد ، كما تغير ابوه ، وتاجر الفحم ، والباشجاويش . وركبه توتر وضيق فأدرك انه لم يطرق باب البيت القديم فحسب ولكنه نكأ جرحا متورما وغاص في قيحه . ولم يطل انتظاره ، ولعله جاء اقصر مما يتصور ، اذ ابتدر أذنيه وقع اقدام متتابعة متدافعة ، وصوت يتردد محاورا نفسه بكلام علا جرسه ولم يستبن الفاظه ، ثم احس بها — وهو لم يزل مولى الباب ظهره — وضلفة الباب المغلقة تطقطق تحت صدمة منكبها ، ثم جاءه هتافها وهي تقول بأنفاس مبهورة :

— ياسين ! ... ابني ! ... كيف اصدق عيني ؟! ... ربي ... صار رجلا ...

وتدافع الدم الى وجهه المكتنز ، واستدار نحوها في ارتباك وهو لا يدري كيف يلقاها ولا كيف يكون اللقاء ، ولكن المرأة اعفته من تدبير امره فهرعت اليه واحتوته بذراعيها وضمته اليها بشدة عصبية وراحت تقبل صدره — وهو غاية ما وسع شفتاها ان تبلغاه من جسمه المنتصب — ثم اختنقت نبراتها واغرورقت عيناها فدفنت وجهها في صدره مستسلمة مليا ريثما تسترد انفاسها . لم يكن حتى تلك اللحظة قد اتى حركة او نطق بكلمة ، ومع انه شعر شعورا عميقا اليما بأن جموده اشد من ان يحتمل الا انه لم

يبدر منه ما ينم عن حياة : أي حياة ، فلازم جمهوده وخرسه ، بيد انه كان متأثرا غاية التأثر وان لم يتضح له نوع التاثر باديء الامر بحال يطمئن اليها ، ولكنه ، على حرارة استقبالها ، لم يجد رغبة للارتماء في حضنها او تقبيلها ، لعله لم يستطع ان ينزع الذكريات المحزنة الناشبة في نفسه كمرض مزمن رافقه منذ الصبا ، ومع انه وجه ارادته بعزم وتصميم الى اخلاء المسرح من الماضي في اللحظة الراهنة ليملك فكره وحكمته ، الا ان الماضي المطرود انعكس على صفحة قلبه ظلالا قاتمة كذبابة نشت عن الفم بعد ان خلفت وراءها جرثومة تسري ، فأدرك في ذاك الموقف الرهيب ،اكثر مما ادرك في ماضيه كله ، الحقيقة المحزنة التي طالما ادمت فؤاده وهي ان أمله قد اقتلعت من صدره • ورفعت المرأة رأسها اليه كأنها تدعوه الى تقريب وجهه فلم يسطع الأباء وانى وجهه منها فقبلته في خديه وجبينه ، والتقت اثناء العناق عيناهما فلثم جبينها تاثرا بارتباكه وحيائه لا لعاطفة اخرى ، ثم سمعها تغمغم :

ـ قالت لي ياسين هنا . قلت ياسين ! من يكون هذا ؟! ولكن من يكون غيره ؟ ليس لي الا ياسين واحد ، ذاك الذي حرم بيتي على نفسه وحرم نفسه علي ، فماذا حدث ؟ وكيف استجيب الدعاء اخر الدهر ؟!وجئت عدوا كالمجنونة لا اصدق اذني ، وها انت ، أنت دون غيرك والحمد لله ، تركتني غلاما وعدت الي رجلا ، كم قتلني الشوق اليك وانت لا تحس لي وجودا •••

واخذته من ذراعه الى الكنبة فمضى معها وهو يسائل نفسه متى تنحسر هذه الموجة الطاغية من الاستقبال الحار حتى يتبين الطريق الى هدفه • وجعل يسترق اليها النظر في استطلاع مقرون بالدهشة والقلق ؟ •• كأنها لم تتغير الا ان يكون جسمها قد زاد امتلاء ولكنه لا يزال محافظا على حسن تقطيعه ، أما الوجه القمحي المستدير والعينان السوداوان المكحولتان فعلى سابق عهدهما تقريبا من القسامة البارعة • ولم يرتح الى ما رآه على صفحة الوجه والعنق من زواق كأنه كان ينتظر ان تغير اعوام

القطيعة من دأبها القديم على العناية بنفسها وولعها بالتبرج لداع ولغير ما داع اي حتى في تلك الاوقات التي تخلو فيها الى نفسها : وجلسا جنبا الى جنب وهي تحدق الى وجهه بحنان تارة وتقيس طوله وعرضه بعينين معجبتين تارة اخرى ثم تمتمت بصوت متهدج :

ــ آه يا ربي لا أكاد اصدق عيني ، انا في حلم . هذا ياسين ! اي عمر ذهب هباء ، كم دعوتك ورجوتك ، وبعثت اليك الرسول تلو الرسول ، ماذا أقول ؟ ... دعني اسألك كيف قسا قلبك علي لهذا الحد ؟ .. كيف أعرضت عن دعواتي الحارة ، كيف تصاممت عن نداء قلبي المكروب ؟ كيف .. كيف ؟ .. كيف نسيت ان لك اما منزوية هنا ؟

ووقف انتباهه عند الجملة الاخيرة فوجدها غريبة تدعو الى السخرية والرثاء معا ، وكأنها افلتت منها في ذهول الانفعال . أجل يوجد شيء ، واشياء ، تذكره صباح مساء بأن له أما ، ولكن اي شيء وأي اشياء ؟!

ورفع اليها عينيه في حيرة دون ان ينبس فالتقت عيناهما لحظة ، وابتدرته المرأة قائلة في لهفة :

ــ لماذا لا تتكلم ؟

فخرج ياسين من حيرته بتنهدة مسموعة ثم قال وكأنه لم يجد بدا مما قال :

ــ ذكرتك كثيرا ، ولكن آلامي كانت افظع من أن تطاق ...

وقبل ان يتم كلامه كان النور الذي ينبعث من نظرتها قد خمد ، واحتلت الحدقتين غمامة خيبة وفتور ساقتها رياح تهب من جوف الماضي الاسيف ، فلم تعد تطيق التحديق في عينيه وخفضت جفنيها وهي تقول بلهجة حزينة :

ــ ظننتك برئت من احزان الماضي ، وانها علم الله لا تستحق بعض ما أوليتها من غضب حملك على هجري احد عشر عاما ...

وعجب لعتابها عجبا احنقه ، واستنكره استنكارا ذر على غضبه المكتوم فلفلا فانفعل انفعالا لولا القصد الذي جاء من اجله لثار بركانه ،

أتعني المرأة حقا ما تقول ؟ ••• أهان عليها ما فعلت لهذا الحد ؟ أم تظن بـه الجهل بما كان ؟! بيد انهضبط اعصابه بقوة ارادته التي لم تغفل عن هدفها وقال :

ــ تقولين انها لا تستحق غضبي ؟ ••• اراها تستحق الغضب كـل الغضب وأكثر ••

فتركت ظهرها يسقط على مسند الكنبة كشيء تهدم ، ورمته بنظـرة بين العتاب والاستعطاف قائلة :

ــ ما وجه العيب في ان تتزوج امرأة بعد طلاقها ؟ •••

فشعر بنيران الغضب تتأجج في عروقه وان لم تبد منها آثار الا في انطباق شفتيه ثم التصاقهما ، لا زالت تتكلم ببساطة كأنها مقتنعة على يقين ببراءتها ! ••• وتتساءل عن وجه العيب في ان تتزوج « امرأة » بعد طلاقها، حسن ، لا عيب في ان تتزوج « امرأة » بعد طلاقها ، اما ان تكون المرأةامه فهذا شيء اخر ، شيء اخرجدا ، وأي زواج الذي تعنيه ؟! ••• انه زواج وطلاق ثم زواج وطلاق ثم زواج وطلاق ، وهنالك ما هو ادهى وأمـر ، ذلك « الفكهاني » ! ••• أيذكرها به ؟•• أيصفعها بما في نفسه من مر ذكرياته ؟ أيصارحها بأنه لم يعد جاهلا كما تظن ؟ وأرغمته حدة الذكريات على الخروج عن اعتداله هذه المرة فقال بامتعاض شديد :

ــ زواج وطلاق ، زواج وطلاق ، هذه امور شائنة لم تكن لتليق بك، ولشد ما مزقت نياط قلبي بلا رحمة •

فشبكت ذراعيها على صدرها في استسلام اليائس وقالت باشفـاق حزيـن :

ــ انه سوء الحظ ولا شيء غيره ، اني سيئة الحظ ، هذا كل مـا هنالك •

فبادرها قائلا : وقد تقلصت اساريره وانتفخ لغده فلفظ الكلمـات كأنما يلفظ مستخبثا تعافه النفس :

ــ لا تحاولي ان تبرئي ساحتك فما يزيدني هذا الا ألما على ألم ، من

الخير أن نسدل على آلامنا ستارا يخفيها ما دمنا لا نستطيع ان نمحوها من الوجود محوا ...

ولاذت بالصمت على كره والقلب يشفق اشفاقا شديدا من هائج الذكريات على طيب اللقاء وما بعثه في نفسها من امال ، وجعلت تلحظه بقلق كأنما تستخبره عما يطوى عليه صدره ، فلما ثقل عليها صمته قالت متشكية :

ــ لا تلح في تعذيبي وانت وحيدي ...

ووقع الكلام من نفسه موقعا غريبا كأنما يكشف له لاول مرة ، بيد انه وجد فيه باعثا جديدا للهياج والتوتر ، انه ابنها حقا ، وانها امه الوحيدة كذلك ، ولكن كم رجلا ... ! واشاح عنها بوجهه ليخفي ما ارتسم على صفحته من آي التقزز والغضب ، ثم أغمض عينيه فرارا من ذكريات مناظر بشعة ، عند ذاك سمعها تقول برقة وتوسل :

ــ دعني أعتقد بأن سعادتي الراهنة حقيقة لا وهم ، أجل حقيقة لا وهم ، وبأنك جئتني منفضا عن قلبك احزان الماضي كله الى الابد .

فنظر اليها نظرة طويلة مركزة وشت بخطورة افكاره ، ولم يكن شيء في تلك اللحظة يستطيع ان يعدل به عن النفاذ الى غرضه ولو بتأجيله الى حين ، فقال بصوت يدل على ان الفاظه التي يتفوه بها اقل بكثير من المعاني التي يوحي بها :

ــ هذا يتوقف عليك أنت ، فان شئت كان لك ما تحبين ..

فتجلت في عيني المرأة قلق نمت عما تعاني من ايحاء الخوف وقالت :

ــ اني ارغب في مودتك من اعماق قلبي ، وطالما تمنيتها ، وكم سعيت اليها فرددتني بلا رحمة ...

ولكنه كان مشغولا عن كلامها الحار بما يضطرب في ذهنه فقال :

ــ بيدك ما تتمنين ،بيدك انت وحدك ، اذا جعلت من الحكمة رائدك.

فتساءلت المرأة في انزعاج :

ــ ماذا تعني ؟

فأحنقه تجاهلها وقال يتذمر :

ـ مضمون كلامي واضح ، هو ان تعدلي عما لو صح ما بلغني عنه لكان فيه الضربة القاضية علي !

فاتسعت عيناها وتجهم وجهها في يأس غير خاف ، وتمتمت وهي لا تدري :

ـ ماذا تعني ؟

بيد أنه ظنها تصر على التجاهل فقال بغيظ :

ـ أعني ان تلغي مشروع الزواج الجديد ، والا تسمحي لنفسك بمعاودة التفكير في شيء من هذا القبيل ، لم أعد طفلا ، وليس بصبري متسع لطعنة جديدة ..

أطرقت في حزن بالغ ، ولازمت الاطراق كأنما أخذتها سنة من النوم، ثم رفعت رأسها في بطء فلاح الحزن في وجهها أعمق مما قدر ، ثم قالت بصوت ضعيف وكأنها تخاطب نفسها :

ـ اذن جئت من أجل هذا !

ودون تفكير فيما يقول قال :

ـ نعم ! ...

فوقع جوابه كطلقة نارية فاذا بكل شيء حوله يتغير ويتبدل سريعا ، ويكفهر الجو . وقد استرجع فيما بعد ـ وهو خال الى نفسه ـ ما دار من حديث بينه وبين أمه في هذه المقابلة فأقر اقواله جميعا حتى بلغ هذا الجواب الاخير فتردد حياله لا يدري أأخطأ أم أصاب ، وظل على تردده طويلا . أما المرأة فقد غمغمت وهي تنظر فيما أمامها :

ـ لشد ما اتمنى أن أكذب أذني ...

وأدرك أنه تعجل بعد فوات الفرصة ، وسخط على نفسه حانقا ، ثم صب سخطه على ما حوله . فاندفع قائلا بلا وعي مداريا خطأه بما هو أمعن في الخطأ :

ـ أنك تفعلين ما تشائين دون تقدير للعواقب ، وكنت انا دائما

الضحية التي تتلقى الاساءة بلا ذنب جنته ، وقد ظنت العمر رادك الى شيء من العقل فما أعجب الا لقائل يقول انك شارعة في الزواج من جديد ! ••• يا لها من فضيحة تتجدد كل بضعة اعوام كأن لا نهاية لها •

من شدة اليأس راحت تصغي اليه فيما يشبه اللامبالاة ، ثم قالـــت بأسى :

ـ انت ضحية ، وانا ضحية ، كلانا ضحية لما يوسوس به اليك ابوك وتلك المرآة التي تعيش في كنفها ! ••

وعجب لهذا الانحراف في مجرى الحديث الذي بدا له مضحكا ، بيد أنه لم يضحك • ولعله ازداد غضبا وهو يقول :

ـ ما دخل أبي وزوجه في هذا الشأن ! ••• لا تتملصي من فعالــك بالقاء التهم في وجوه الابرياء •

فهتفت بصوت يشبه الأنين :

ـ ما رأيت ابنا أقسى منك ! •• آهذا خطابك لي بعد فراق احد عشر عاما !!

فلوح بيده في احتجاج غاضب وقال بحدة وسخط :

ـ الام الخاطئة خليقة بأن تلد ابنا قاسيا •••

ـ لست خاطئة •• لست خاطئة ••• ولكنك قاس غليظ القلــب كأبيــك •••

فنفخ في ملل وصاح بهــا :

ـ رجعنا الى أبي ••• حسبنا ما نحن فيه ••• اتقى الله وتراجعــي عن الفضيحة الجديدة ••• أريد ان أمنع هذه الفضيحة بأي ثمن •••

ومن شدة اليأس والحزن خرج صوتها متلفعا بالبرودة وهي تقول :

ـ وماذا يهمك منها ؟

فصاح في دهش :

ـ كيف لا تهمني فضيحة أمي ؟!

فقالت في حزن مشوب بما تيسر من التهكم :

ـ انت في الحق لا تعدني أما لك ••
ـ ماذا تعنين ؟
فغمغمت في يأس متجاهلة تساؤله :
ـ ما دمت قد خلعتني من نفسك فيجدر بك ان تدعني وشأني •••
فهتف غاضبا :
ـ حسبي ما كان ، لن أسمح لك بتلويث سمعتي من جديد •• فقالت وهي تزدرد مرارة ريقهـا :
ـ لا شيء هنالك مما يلوث السمعة ، والله شهيد •••
فسألها مستنكرا :
ـ أتصرين على هذا الزواج ؟!
فصمتت مليا ، مطرقة محزونة غارقة في اليأس ، ثم ندت عنها تنهدة عميقة ، ثم قالت بصوت لا يكاد يسمع :
ـ قضي الامر وكتب العقد ، ولم يعد بوسعي منعه !
فانتفض ياسين قائما وقد تصلب جسمه البدين وعلت وجهه صفـرة وركز بصره في رأسها المطرق وهو يغلي غضبا ، ثم صاح بها بصوت كالزئير:
ـ يا لك من امرأة ••• مجرمة ! •••
فغمغمت بصوت مغموس يدل على الاستسلام المطلق :
ـ سامحك الله •••
عند ذاك خطر له ان يلطمها بما يعرف ـ مما تظن انه يجهله ـ مـن ماضي سيرتها ، بحديث « الفكهاني » الاسود ، قذيفة يصبها على رأسها بغتة فتنثره اربا ويثأر بها أفظع الثأر ، وتوهج في عينيه بريق مخيف تطايـر من تحت جبهة عابسة مكفهرة تجمعت في اخاديدها نذر الشر والوعيد ،وفغر فاه ليطلق قذيفته • ولكن لسانه لم يتحرك ، التصق بسقف حلقه كأنمـا جذبه اليه مخه الذي لم يعمه العناء عن البلاء ، ومرت اللحظة الرهيبة فـي سرعة الزلزال الخاطف الذي يشعر فيه الانسان بأنفاس الموت تتردد علـى وجهه لحظات ثم يعود كل شيء الى مستقره ، وزفر وهو كظيم ، وتراجـع

غير آسف وجبينه يسح عرقا باردا • وقد ذكر موقفه هذا ـ فيما بعد ـ فيما ذكر من مواقف هذه المقابلة الغريبة فارتاح لتراجعه كل الارتياح وان عجب له اشد العجب ، وكان أعجب ما عجبه شعوره بأنه انما تراجع رحمة بنفسه لا رحمة بها وكأنه تستر على كرامته لا على كرامتها وان لم يكــن ثمة ما يجهله من الامر ! •••

وأفرغ غضبه في كفيه فجعل يضرب واحدة على الاخرى ويقول :

ـ مجرمة ••• ! فضيحة مجسمة ! •• كم سأضحك من غبائي كلما أذكر انني آملت خيرا من هذه الزيارة ! ••• (ثم بلهجة تهكمية) •• اني أعجب كيف طمعت بعد هذا في مودتي ؟!

فجاءه صوتها وهو يقول في انكسار وحسرة :

ـ منتني نفسي أن نعيش على مودة رغم كل شيء ! •• وبعثت زيارتك المفاجئة في قلبي آمالا حارة خيل الي معها اني استطيع أن أهبك أسمي ما في قلبي من حب •• بلا كدر •••

وابتعد عنها متقهقرا كأنما يفر من لين كلامها الذي لم يعد شيء يؤرث غضبه مثلما يؤرثه ، وشعر حانقا يائسا بأنه لم تعد ثمة فائدة من بقائه في هذا الجو الكريه فقال وهو يستدير ليأخذ سمته الى الخارج :

ـ وددت لو استطيع قتلك •••

فغضت بصرها وقالت في حزن بالغ :

ـ لو فعلت لارحتني من حياتي •••

وبلغ به الضيق النهاية فألقى عليها نظرة اخيرة مظلمة بالمقت ثم غــادر المكان وارض الحجرة ترتج تحت وقع قدميه • وعندما انتهى الى الطريق ، وأخذ يثوب الى نفسه ، ذكر لاول مرة أنه نسي حديث العقار والمال فلــم يطرقه بكلمة واحدة ، أنسيه كأنما لم يكن هو الباعث الاول لهذه الزيارة!•

★ ★

فتحت الست امينة الباب وادخلت رأسها وهي تقول برتها المعهودة:

ـ أفي حاجة الى خدمة يا سيدي الصغير ؟

فجاءها صوت فهمي قائلا :

ــ تعالي يا نينة ، خمس دقائق فقط ..

فدخلت المرأة مسرورة بتلبية الدعوة فرأته واقفا امام مكتبه يلوح في وجهه الجد والاهتمام فأخذها من يدها الى كنبة غير بعيدة من الباب وأجلسها ثم جلس الى جانبها وهو يتساءل :

ــ ناموا جميعا ؟

وادركت المرأة انها لم تدع لتقديم خدمة عابرة والا ما كان هذا الاهتمام وهذه الخلوة فانتقل الاهتمام بسرعة الى نفسها المطواعة للايحاء وقالت تجيبه :

ــ ذهبت خديجة وعائشة الى حجرتهما في ميعاد كل ليلة ، أما كمال فقد تركته الآن في فراشه .

كان فهمي يترقب هذه اللحظة منذ آوى الى حجرة المذاكرة عند أول المساء فلم يستطع كعادته تركيز انتباهه في الكتاب الذي بين يديه ،وجعل يتابع ، بين آونة واخرى ، أحاديث أمه وشقيقته في جزع لا يدري متى ينتهين ، ثم الى أمه وكمال وهما يحفظان معا جملة من سورة عم . حتى ساد الصمت ثم جاءت امه لتحييه تحية المساء فدعاها اليه وقد تناهى به توتر الانتظار . ومع أن أمه بدت كالحمامة الوديعة ،ومع انه لم يشعر حيالها قط بتحفظ او خوف ، الا انه وجد عسرا في التعبير عما يريد الافصاح عنه، فعلاه ارتباك الحياء ، ومضت فترة صمت ليست بالقصيرة قبل أن يقول مختلج الجفنين :

ــ دعوتك يا نينة لاشاورك في أمر يهمني جدا .

واشتد الاهتمام بالمرأة حتى تمثله قلبها الرقيق خوفا أو شبيها بالخوف وقالت :

ــ اني مصغية اليك يا بني ...

فتنفس تنفسا عميقا ليخفف عن أعصابه وقال :

ــ ما رأيك فيما لو .. أعني أليس من الممكن أن ...

وتوقف مترددا ، ثم غير لهجته قائلا برقة وتردد وارتباك :
ــ ليس لي من افضي اليه بدخيلة نفسي الا انت ...
ــ طبعا ، طبعا يا بني ...
فقال متشجعا عما قبل :
ــ ما رأيك اذا اقترحت عليك ان تخطبي لي مريم بنت جارنا السيد محمد رضوان .. ؟
وتلقت امينة كلماته بدهشة أولا ، فأجابته اول ما اجابت بابتسامة تدل على الحيرة اكثر من الفرح ثم انقشع الخوف الذي قبض صدرها حينا وهي تترقب افصاحه عما يريد ، ثم اتسعت ابتسامتها واشرقت معلنة عن سرور صاف ، وترددت لحظات لا تدري ماذا تقول ، ثم اندفعت قائلة :
ــ أهذه رغبتك حقا ؟ ... سأقول لك رأيي صراحة ... ان يوما امضي فيه لاخطب لك بنت الحلال لهو اسعد ايام حياتي ...
فتورد وجه الشاب وقال بامتنان :
ــ شكرا لك يا أماه ..
ورنت الام اليه ببسمة لطيفة وقالت برجاء :
ــ يا له من يوم سعيد ،لقد تعبت كثيرا وصبرت كثيرا ،وليس بالكثير على الله ان يجزيني على تعبي وصبري بمثل هذا اليوم المرجى ، بل بأيام مثله كثيرة ليقر عيني بك وبأختيك خديجة وعائشة ..
وغابت عيناها في رؤي الاحلام السعيدة حتى بدا لها ما ايقظها فجأة فتراجع رأسها في قلق كقطة اقبل نحوها كلب ، وتمتمت في اشفاق :
ــ ولكن ... أبوك ؟!
وابتسم فهمي ممتعضا وقال :
ــ من أجل هذا دعوتك للمشاورة ...
ففكرت المرأة قليلا ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها :
ــ لا أدري ماذا يكون موقفه من هذا الرجاء ؟. ابوك شخص غريب ، غير الناس جميعا ، وقد يرى جريمة فيما يراه الغير شيئا عاديا ...

فقطب فهمي قائلا :

ــ ليس في الامر ما يدعو الى الغضب او الاعتراض •

ــ هذا رأيي •• !

ــ وغني عن البيان ان الزواج سيؤجل حتى اتم دراستي واجد لنفسي عمـــلا •••

ــ طبعا ••• طبعـــا •••

ــ فيم يكون الاعتراض اذن ؟!

فنظرت اليه نظرة كأنما تقول له : « ومن ذا يحاسب اباك اذا أراد ان ينبذ المنطق جانبا ؟ » هي التي لم تعرف حياله الا الطاعة العمياء اصاب أم أخطأ ، عدل ام ظلم ، بيد انها قالت :

ــ أرجو أن يبارك رجاءك بالقبول ••

فقال الشاب بحماس :

ــ لقد تزوج أبي وهو في سني هذه ، ولست اقصد شيئا من هذا ، ولكني سأنتظر حتى يكون الزواج طبيعيا لا اعتراض عليه من أي ناحية ••

ــ ربنا يحقق رجاءنا •••

وسكنا الى الصمت مليا وهما يتبادلان النظرات ، مجتمعين في فكرة واحدة وهما عن بداهة يدريان اذ كان كلاهما يفهم صاحبه خير فهم ،ويقرأ ما يدور بخاطره في غير ما عسر ، ثم قال فهمي مفصحا عما يشغلهما معا :

ــ بقي أن نفكر فيمن يفاتحه بالموضوع •••!

وابتسمت المرأة ابتسامة افقدها التفكير والقلق روحها ، وادركـــت أن ابنها الاريب يذكرها بالواجب الذي لا يستطيع ان يؤديه أحد سواهـــا بالاسرة ، ولم تعترض على هذا لانه لا سبيل غيره ، الا انها قبلته على كره كما تقبل امورا كثيرة وهي تسأل الله حسن العاقبة ، وقالت برقة وعطف :

ــ ومن غيري يفاتحه ؟ ••• ربنا معنا •••

ــ اني آسف •• لو كان بوسعي ان أحدثه لفعلت •

ــ سأحدثه ، وسيوافق باذن الله ، مريم فتاة جميلة ، مؤدبة ، من اسرة

كريمة ...

وسكتت لحظة ثم استدركت متسائلة كأنما خطر لها الخاطر لاول مرة:

ــ ولكن أليست هي في مثل سنك او تزيد ؟!

فقال الفتى جزعا :

ــ لا يهمني هذا بتاتــا !

فقالت مبتسمة :

ــ على بركة الله ، ربنا معنا ، « ثم وهي تنهض » ادعك الان لعنايــة المولى ، والى الغد ... ومالت نحوه فقبلته ثم غادرت الحجرة واغلقــت الباب وراءها ، ولكن كم ادهشها ان ترى كمال جالسا على الكنبة مكباعلى كراسة بين يديه فهتفت به :

ــ ما الذي عاد بك الى هنا ؟

فنهض الغلام مبتسما في ارتباك وقال :

ــ تذكرت اني نسيت كراسة الانجليزي فعدت لآخذها ثم بدا لي أن أستعيد الكلمات مرة اخيرة .

وذهبت معه مرة أخرى الى حجرة النوم ولم تتركه حتى تمدد تحــت الغطاء ، ولكنه لم ينم ، وكان النوم أعجز من ان يغلب اليقظة الماكرة التي تنبعث في شعوره ، فلم يلبث ان وثب من السرير ومضى الى سمعه وقــع اقدام أمه وهي ترقى السلم الى الدور الاعلى ، ثم فتح الباب وجرى الــى حجرة شقيقتيه ودفع بابها ودخل دون ان يغلقه ليوسع للمصباح المعلــق بالصالة منفذا يضيء منه جانبا من الظلمة الغاشية في الداخل ، وهرع الــى الفراش وهو يهمس « أبلة خديجة ! » فجلست الفتاة في الفراش دهشــة فوثب الى جانبها وهو يلهث من الانفعال ، وكأنه لم يقنع بمستمعة واحــدة ليستودعها السر الذي اطار النوم من عينيه فمد يده الى جسم عائشة وهزه ولكن الفتاة كانت تنبهت الى القادم وازاحت عنها الغطاء ثم رفعت رأسهــا بين الاستطلاع والاحتجاج متسائلة :

ــ ماذا جاء بك الان ؟

لم يأبه للهجة الاحتجاج لانه كان على يقين من ان كلمة واحدة يشير بها الى سره خليقة بأن تقلبهما رأسا على عقب ،وقفز لهذا قلبه بهجةوسرورا، ثم قال هامسا كأنه يحاذر ان يسمعه رابع :

ــ عندي سر غريب ..

فسألته خديجة :

ــ أي سر هذا ؟! ... هات ما عندك وارنا شطارتك .

ولم يعد باستطاعته الكتمان فقال :

ــ أخي فهمي يريد ان يخطب مريم ...

عند ذاك جلست عائشة في الفراش بدورها في حركة آلية سريعة كأنما التصريح رشة ماء بارد القيت في وجه وسنان ، وتقاربت الاشباح الثلاثة في شكل هرمي كما بدا على الضوء الخافت النافذ الى الحجرة والمنعكس على ارضها فيما يلي الباب المفتوح على هيئة متوازي الاضلاع مذبذب الاطراف تبعا لذبذبة ذبالة المصباح الذي تعرض ، بترك الباب مفتوحا ــ الى تيار وان نسم من خصائص النافذة الى الصالة في لطف همسات تذيع سرا ، ثم تساءلت خديجة في اهتمام .

ــ كيف عرفت هذا ؟

ــ تركت فراشي لاحضر كراسة الانجليزي ، وعند باب أخي جاءني صوته وهو يتكلم فلبدت في الكنبة ثم أعاد على مسمعيهما ما تسرب اليه من وراء الباب الموارب وهما ينصتان اليه في اهتمام ملك عليهما الانفاس حتى فرغ من حديثه ، وهنا تساءلت عائشة كأن بها حاجة الى المزيد من الاقتناع:

ــ أتصدقين هذا ؟

فقالت خديجة بصوت كأنه ينبعث من تليفون بمدينة بعيدة :

ــ أتتصورين أن يخترع هذا « مشيرة الى كمال » حكاية طويلة عريضة كهذه ؟

ــ لك حق « ثم ضاحكة لتخفف من حدة اهتمامها » اختلاق موت غلام في الطريق شيء ، أما هذه الحكاية فشيء آخر ..

فتساءلت خديجة دون ان تلقى بلا الى احتجاج كمال الذي اعترض على التعريض به :

ــ كيف وقع هذا يا ترى ؟!

فضحكت عائشة قائلة :

ألم أقل لك مرة اني اشك في أن اللبلاب هو الذي يدعو فهمي الى السطح كل يوم ؟!

ــ انه اللبلاب الاخر الذي التف حول ساقه هو •

فترنمت عائشة بصوت خفيض :

ــ لا ملام عليك يا عيوني في حبه •

فنهرتها خديجة قائلة :

ــ هس ••• ليس هذا وقت الغناء ••• مريم في العشرين وفهمي في الثامنة عشرة ••• كيف توافق نينة على هذا ؟!

ــ نينة ؟! ••• نينة حمامة وديعة لا تدري كيف تقول لا ، ولكن صبرا ، أليس من الحق أن أقول ان مريم جميلة وطيبة ؟! •• ثم ان بيتنا هو البيت الوحيد في الحي الذي لم يعرف الافراح بعد ••

كانت خديجة ــ كعائشة ــ تحب مريم ، ولكن الحب لم يستطع ابدا أ نيخفي عن عينيها مواضع الانتقاد في المحبوب أيا كان شأنه ، فلم يكن يعجزها ــ عند الضرورة ــ الوقوف عند مواضع الانتقاد فحسب ، ولما كانت سيرة الزواج تثير مخاوفها الكامنة ، وغيرتها ، فقد انقلبت على صديقتها دون مشقة ، وأبى قلبها ان يقبلها زوجة لاخيها ، ومضت تقول:

ــ مجنونة أنت ؟! ••• مريم جميلة ولكنها دون فهمي بمراحل بعيدة ••• فهمي يا حمارة طالب بالعالي ، وسيكون قاضيا يوما ما ، فهلتتصورين مريم زوجا لقاض كبير المقام ؟! •• انها مثلنا على اكثر تقدير ، بل هي دوننا في اكثر من ناحية ولن تتزوج احدانا بقاض ••• !

وتساءلت عائشة في نفسها : « من قال القاضي أحسن من الضابط !!»

ثم سألتها محتجة :

ـ لم لا ؟!

فواصلت الاخرى حديثها دون اهتمام باعترافها :

ـ يستطيع فهمي أن يتزوج بفتاة أجمل من مريم مائة مرة ، وفي نفس الوقت تكون متعلمة وغنية بنت بك او حتى باشا ، فلماذا يتسرع بخطبة مريم ؟! ... ما هي الا أمية طويلة اللسان ، انت لا تعرفينها كما أعرفها ..

وأدركت عائشة ان مريم انقلبت في نظر خديجة الى جملة من العيوب والنقائص ، بيد أنها لم تتمالك نفسها ـ حيال وصفها بطول اللسان تلك الصفة التي لخديجة منها أكبر نصيب ـ من أن تبتسم مستترة بالظلمة ، وتحاشت اثارتها فقالت بتسليم :

ـ لندع الامر لله ...

فقالت خديجة بثقة وايمان :

ـ الامر لله في السماء ولابي في الارض وسوف نرى ماذا يكون رأيه غدا ... « ثم موجهة الخطاب الى كمال » ... آن لك ان تعود الى سريرك بسلام ...

عاد كمال الى حجرته وهو يقول لنفسه « لم يبق الا ياسين ، وسأخبره غدا ... » .

★ ★

جلست خديجة وعائشة القرفصاء متواجهتين لصق الضلفة المغلقة من باب حجرة الوالدين بالدور الاعلى وهما تكتمان انفاسهما في حذر وتمدان آذانهما الى الداخل في اهتمام وتلقف . كان الوقت قبيل العصر بقليل،وكان السيد قد نهض من قيلولته فتوضأ وجلس كعادته يحتسي القهوة منتظرا الأذان ليصلي قبل عودته الى الدكان ، فتوقعت الاختان ان تفاتح الام أباهما في الامر الذي انبأهما عنه كمال اذ لم يكن أنسب لذلك الغرض من هذا الوقت . وتناهى اليهما من الداخل صوت ابيهما الجهوري وهو يتحدث عن أمور البيت العادية فأنصتتا في جزع وترقب وهما تتبادلان النظر متسائلتين حتى سمعتا اخيرا الام وهي تقول في أدب بالغ ولهجة خاشعة :

ـ سيدي ، اذا أذنت لي حدثتك عن شأن رجاني فهمي ان أبلغك اياه.
عند ذاك اومأت عائشة بذقنها الى الداخل كأنها تقول « هذا هو الحديث » على حين راحت خديجة تتخيل حال أمها وهي تتهيأ للكلام الخطير فرق قلبها لها وعضت على شفتها في اشفاق شديد ، ثم جاءهما صوت السيد وهو يتساءل :
ـ ماذا يريد ؟
وساد الصمت قليلا ، أو طويلا بالقياس الى اللتين تسترقان السمع، ثم قالت المرأة برقة :
ـ فهمي يا سيدي شاب طيب ، حاز رضاك بجده وتفوقه وأدبه ، حماه الله من شر الاعين ، ولعله بلغني رجاءه ! ادلالا بمنزلته عند والده ...
فقال الاب بلهجة تخيلتاه معها راضيا :
ـ ماذا يريد .. ؟!تكلمي ...
ومال رأساهما نحو الباب وكل منهما تحملق في الاخرى ولا تكاد تراها فجاءهما الصوت المتهافت وهو يقول :
ـ سيدي يعرف جارنا الطيب محمد رضوان .. ؟
ـ طبعا ...
ـ رجل فاضل مثل سيدي وأسرة كريمة وجيران ولا كل الجيران ..
ـ نعم ...
واستطردت بعد تردد :
ـ فهمي يسأل يا سيدي هل يجيز له والده أن ... يخطب مريم كريمة جارنا الطيب لتبقى على ذمته حتى يصير أهلا للزواج ؟
وهنا علا صوت السيد وقد غلظت نبراته بالغضب والاستنكار :
ـ يخطب ؟! ... ماذا تقولين يا ولية ؟ ... هذا الغلام ! ... ما شاء الله ... أعيدي على سمعي ما قلت ...
فقالت الام بصوت متهدج وقد تخيلتها خديجة وهي تنكمش في ذعر:
ـ ليس الا انه يتساءل ، مجرد تساؤل يا سيدي والامر لك ..

فقال الصوت المتفجر بالغضب :
ـ لا عهد لي ولا له بهذا التدلل المائع ، ولا أدري ما الذي أتلف تلميذا حتى يتمادى في مطالبه الى هذا الحد ؟ ... ولكن أما مثلك خليقة بان تفسد ابناءها ، فلو كنت أما كما ينبغي لما جسر على مفاتحتك بمثل هذا الهذر الوقح ...
ركب الفتاتين خوف ووجوم خالطهما في قلب خديجة ارتياح ، ثم سمعا صوت الام المتهدج المستحذي وهي تقول :
ـ لا تجشم نفسك مشقة الغضب يا سيدي ، كل شيء يهون الا غضبك ، ما قصدت من ناحيتي اساءة قط ، ولا تخيلها ابني وهو يحملني رغبته ببراءة ، ولكنه رجاني بحسن نية فرأيت ان اعرض الامر عليك ، وما دام هذا هو رأيك فسأبلغه اياه ، وسيذعن له بكل خضوع كما يذعن لامرك دائما ..
ـ سيذعن أراد أم لم يرد ، ولكني اريد ان اقول لك انك أم ضعيفة لا يرجى منها خير .
ـ اني أتعهدهم بما توصي به ...
ـ خبريني عما دعاه الى التفكير في هذا الرجاء ؟
وأرهفت الفتاتان السمع في اهتمام وانزعاج وقد فاجأهما هذا السؤال الذي لم يتوقعاه ، ولكنهما لم تسمعا لامهما جوابا وتصورتاها وهي ترمش في ارتباك وخوف فعطف قلباهما في اشفاق شديد :
ـ ماذا أخرسك ؟ ... خبريني هل رآها ؟
ـ كلا يا سيدي ، ان ابني لا يرفع عينيه الى جارة ولا الى غيرها ..
ـ كيف رغب في خطبتها دون ان يراها ؟ ... ما كنت أحسب ان لي أبناء يسترقون النظر الى حرمات الجيران !
ـ معاذ الله يا سيدي معاذ الله ... ان ابني اذا سار في الطريق لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، وهو في البيت لا يكاد يغادر حجرته الا لضرورة ...
ـ ما الذي دعاه الى طلابها اذن ؟

ـ لعله يا سيدي سمع شقيقتيه وهما تتحدثان عنها •••

وسرت في بدن الفتاتين رعدة شديدة ففغرتا ثغريهما في فزع وهما تنصتان •••

ـ ومتى كانت شقيقتاه خاطبتين ! ••• يا سبحان الله أينبغي أن أهجر دكاني وعملي وأقبع في البيت لاضبطه وأدفع عنه الفساد !

فهتفت الام في نبرات باكية :

ـ بيتك أشرف البيوت ، بالله يا سيدي الا ما هونت عليك الغضب ، انتهى الامر وكأن ما كان لم يكن •••

فصاح الرجل بصوت ملؤه الوعيد :

ـ قولي له ان يتأدب ويستحي ويلزم حدوده ، وان من الخير ان يتفرغ لدروسه •••

وسمعت الفتاتان حركة في الداخل فقامتا في حذر وابتعدتا عن الباب على اطراف اصابعهما •••

رأت الست امينة ان تغادر الحجرة كشأنها اذا ند عنها عفوا ما يثير غضبه فلا تعود اليها بعد ذلك الا اذا دعاها ، اذ علمتها التجربة أن مكثها بين يديه حال الغضب ثم سعيها الى تسكينه برقيق الكلام لا يزيد النار الا استعارا • ووجد السيد نفسه وحيدا فزايلته آثار الغضب المحسوسة الذي تثور عادة في عينيه وبشرة وجهه وحركات يديه وكلامه ، ولكن بقي الغضب في اعماق صدره كالعكارة في قعر القدر •

من المحقق أنه كان يغضب في البيت لاتفه الاسباب لا اتباعا لخطته الموضوعة في سياسة بيته فحسب ، ولكن مدفوعا كذلك بحدة طبعه التي لا تشكمها بين آله فرملة الكياسية التي يتقن استعمالها خارج البيت ، وربما ترويحا عما يعاني بين الناس كثيرا من ضبط النفس والتسامح واللطف ومراعاة الخاطر واكتساب القلوب بأي ثمن ، وليس بالنادر ان يتضح له انه استسلم للغضب في غير موجب ولكنه حتى في تلك الحال لا يندم على ما فرط منه لاعتقاده بأن غضبته للتافه من الامر عسية بأن تمنع وقوع

الخطير سه مما يستحق الغضب عن جدارة ، بيد انه لم يعد ما بلغه عن فهمي ذلك اليوم هفوة تافهة بل رأى فيها نزوة قبيحة لا يجوز ان تعتلج في نفس تلميذ من آل بيته ، وما كاد يتصور ان تتسرب « العواطف » الى بنيان البيت الذي يحرص على أن يشب في جو من النقاء الصارم والطهارة المنقشعة. ثم جاءت صلاة العصر فرصة طيبة لرياضة النفس خرج منها أهدأ فلبا وأروح بالا ، فوسعه أن يتربع على سجادة الصلاة ويبسط راحتيه ويسأل الله ان يبارك له في ذريته وماله ، وان يدعو خاصة لفخر ابنائه بالهدى والرشاد والتوفيق ، فلما ان غادر البيت كان تجهمه مظاهرة يراد بها التخويف لا اكثر . وفي الدكان التقى ببعض الاصدقاء فقص عليهم « نادرة اليوم » لا كفاجعة لانه يكره ان يلقى أحدا بالفاجعات ، ولكن كدعابة سخيفة ، فعلقوا عليها بما حلا لهم من المزاح ، فلم يلبث ان شاركهم مزاحهم ، فغادروه وهو يقهقه في غير تحفظ .. بدت له « النادرة » في الدكان على غير ما بدت في حجرته بالبيت ، وامكنه ان يضحك منها ، بل وان يعطف عليها ، حتى قال لنفسه اخيرا باسما راضيا « من شابه اباه فما ظلم » ..

حين مرق كمال من باب البيت كان المساء يزحف في خطوات حاسمة غاشيا الطرقات والازقة والمآذن والقباب ، ولعله لم يعدل بسروره بهذه الخرجة المفاجئة التي قل ان تتاح له في مثل ذاك الوقت المتأخر الا زهوه بالرسالة الشفوية التي حمله اياها فهمي ، فلم يغب عنه أنه عهد بها اليه وحده دون غيره ، في جو من السرية والتكتم الامر الذي اضفى عليها — وعليه بالتالي — اهمية خاصة احسها قلبه الصغير ورقص لها طربا وفخارا. وتساءل في عجب عما زلزل فهمي حتى ركبته حال من القلق والحزن بدا في لباسها القاتم شخصا غريبا لم يره ولم يسمعه من قبل ، هو مثال وحده ، ان أباه يثور كالبركان لاتفه الاسباب ، وان ياسين على حلاوة حديثه قابل للالتهاب ، حتى خديجة وعائشة لا تخلوان من نوبات عفرتة ، هو مثال وحده ، ضحكه ابتسام وغضبه تقطيب ، وهدوءه عميق على صدق عواطفه واصالة حماسه ، فلم يذكر انه رآه على الحال التي رآه عليها اليوم . لن

ينسى كيف خلا اليه في حجرة المذاكرة ، بصر زائغ ونفس مضطرب وصوت متهدج ، ولا كيف خاطبه لاول مرة في حياته بلهجة توسل حارة عجب لهـا أشد العجب حتى استوجب حفظ الرسالة التي حملها ان تكرر عليه مرات ومرات • وقد ادرك من فحوى الرسالة نفسها ان للأمر صلة وثيقة بالحديث الغريب الذي استرق السمع اليه من وراء الباب ، والذي نقله الى شقيقتيه فأثار بينهما جدلا ونزاعا ، وبالجملة انه يتعلق بمريم ، تلك الفتاة التي كثيرا ما تعابثه ويعابثها ، ويأنس اليها حينا ويضجر منها حينا آخر ، دون ان يعرف لها هذه الخطورة التي احاطت بهدوء اخيه وسلامته • مريم ؟! •• لمـاذا استطاعت دون سائر البشر ان تفعل هذا كله بأخيه العزيز الرائع !! • ووجد في الجو غموضا ، كذاك الغموض الذي يكتنف حياة الارواح والاشباح ، والذي طالما استثار حب استطلاعه وخوفه ، فتوثب قلبه للنفاذ الى مكنون سره في تطلع وحيرة • ولكن حيرته لم تصرفه عن تسميع الرسالة لنفسـه كما سمعها لاخيه من قبل حتى يضمن الا يضيع منه حرف واحد من مضمونها فمر تحت بيت آل رضوان وهو يستعيدها ، ثم مال الى اول عطفة تليه حيث يوجد باب البيت • لم يكن البيت بالغريب عنه ، فطالما تسلل الى فنائـه الصغير حيث تنزوي في ركن منه عربة يد مندثرة العجلات كان يركبهـا مستعينا بخياله على اصلاح عجلاتها وتحريكها حيث شاء ، وطالما تردد بين حجراته بغير استئذان فقوبل بالترحيب والمداعبة من ربة البيت وابنتها اللتين يعدهما « على حداثة سنه » صديقتين قديمتين ، فكان يألف البيت بحجراته الثلاث التي تتوسطها صالة صغيرة وضعت بها ماكينة خياطة وراء النافـذة التي تطل على حمام السلطان مباشرة كما يألف بيته بحجراته الواسعة وبصالته الكبيرة حيث يجتمع مجلس القهوة مساء بعد مساء • والى هذا خلفـت بعض متعلقات البيت أثرا في نفسه استجابت له عهدا طويلا من صباه ، كعش يمامة في اعلى المشربية الملتصق بالجدار كقطع من محيط دائرة يشتبك حوله القش والريش ويلوح منه احيانا ذيل اليمامة الام ا ومنقارها كيفما اتفـق وضعها فيتطلع اليه تتنازعه رغبتان ، احداهما ــ وهي المنبعثة من نفسه ــ

تدعوه الى العبث به واختطاف الصغار ، والاخرى ــ وهي المكتسبة عــن أمه ــ توقفه عند حد التطلع والعطف والمشاركة الخيالية في حياة اليمامــة وأسرتها ، وكصورة للسفيرة عزيزة معلقة بحجرة مريم أيضا زاهية الالوان رقراقة البشرة وسيمة القسمات فاقت بجمالها الحسناء التي تطالعه صورتها عصر كل يوم بدكان ماتوسيان فكان يديم النظر اليها متسائلا عن «حكايتها» فتقص عليه مريم من انبائها ما تعلم وما لا تعلم بزلاقة لســان تستهويــه وتستأثره . لم يكن البيت بالغريب عليه اذن . فشق سبيله الــى الصالــة دون أن يشعر به أحد ، والقى على أولى الحجرات نظرة عابرة فلمح السيد محمد رضوان راقدا في فراشه كما اعتاد ان ايراه منذ سنوات . كان يعلم أن الشيخ مريض، وقد سمع عنه كثيرا أنه مشلول، حتى سأل أمه مرة عن معنى الشلل ... فجزعت وراحت تستعيذ بالله من شر الاسم الذي نطق بــــه فانكمش متراجعا ، ومنذ ذاك اليوم والسيد يستثير رثاءه واستطلاعه المقرون بالخوف . ثم مر بالحجرة التالية فرأى أم مريم واقفة أمام المرآة وبيدها ما يشبه العجين تمطه فوق خدها وعنقها وتجذبه جذبات سريعة متتابعة ثــم تتحسس موضعه من بشرتها بأناملها لتعرف مسه وتطمئن الى نعومته ومــع أنها كانت فوق الاربعين الا أنها كانت بارعة الحسن كابنتــها ، شغوفــة بالضحك والدعابة ، فما تلقاه حتى تقبل عليه في مرح فتقبله ثم تسأله فيما يشبه نفاذ الصبر « متى تبلغ رشدك لاتزوجك ؟ » فيعلوه الحياء والارتباك وان استلذ مداعباتها وود الاكثار منها . وكم أثارت فضوله هذه العمليــة التي تعكف عليها من حين لاخر أمام المرآة ، وقد سأل أمه عنها مرة فنهرته ــ والنهر اقصى ما تمارس من ضروب التأديب ــ مؤنبة اياه على سؤالــه عما لا يعنيه ، بيد أن أم مريم أكبر سماحة ورقة فلما لحظته مرة يرمقهــا بدهشة اوقفته على مقعد امامها ولزقت بأنامله ما حسبه اول الامر عجينــة وبسطت له صفحة وجهها وقالت ضاحكة « اشتغل وارني شطارتك » فمضى يقلد حركاتها حتى أثبت لها شطارته بخفة غبطته عليها ، ولكنه لم يقنع بلذة التجربة فسألها « لماذا تفعلين هذا ؟» فقهقهت قائلة : « هلا انتظرت عــشرة

اعوام اخرى حتى تعرف بنفسك ؟!» ولكن لا داعي للانتظار اليست البشرة الناعمة احسن من الخشنة ؟ •• هذه هي ؟ ••• » وقد مر ببابها بخفة حتى لا يشعرها بنفسه لان رسالته كانت اخطر من ان تسمح له بمقابلة احد الا مريم وحدها في الحجرة الاخيرة متربعة على فراشها تقزقز لبا وبين يديها طبق فنجان قد امتلأ بالقشر فلما راته قالت بدهشة :

ــ كمان ! ••• « كادت تسأله عما جاء به في هذه الساعة ولكنها عدلت عما همت به ان تخيفه او تخجله » •• شرفت البيت •• تعال اجلس الى جانبي ••

فمد لها يده بالسلام ، ثم فك ازرار حذائه ذي الرقبة الطويلة وخلعه ، ووثب الى الفراش في جلباب مقلم وطاقية زرقاء منمنة بخطوط حمراء • وضحكت مريم ضحكاتها الرقيقة ودست في يده شوية لب وهي تقول ــ قزقز يا عصفور وحرك اسنانك اللؤلؤية ••• أتذكر يوم عضضت معصمي وانا ادغدغك ••• هكذا •• ومدت يدها صوب أبطه ولكنه ــ بحركة عكسية ــ شبك ذراعيه على صدره ليحمي ابطيه ، وندت عنه ضحكة عصبية كما لو كانت اناملها دغدغته بالفعل ، ثم هتف بها :

ــ في عرضك يا أبلة مريم •••

فأمسكت عنه وهي تتعجب من خوفه قائلة :

ــ لماذا يقشعر بدنك من الدغدغة ؟!•• انظر الي كيف لا ابالي بها••

وراحت تدغدغ نفسها باستهانة وهي ترميه بنظرة ازدراء فلم يملك ان قال لها متحديا :

ــ دعيني ادغدغك انا وسنرى •• !

فما كان منها الا ان رفعت ذراعيها فوق رأسها فغرس اصابعه تحت ابطيها وراح يدغدغهما بما وسعه من خفة وسرعة ، مثبتا عينيه في عينيها السوداوين الجميلتين ليتلقف اول بادرة تضعضع عنها ، حتى اضطر أن يسترد يديه متنهدا في يأس وخجل فشيعته بضحكة رقيقة ساخرة وقالت :

ــ أرأيت أيها الرجل الصغير العاجز ! ••• لا تزعم انك رجل بعد

اليوم « ثم بلهجة من تذكر أمرا هاما بغتة » ••• يا داهيتي ! ••• نسيت ان تقبلني ! ••• ألم أنبه عليك مرأرا بأن تكون تحية لقائنا قبلة ؟! وأدنت وجهها منه فمد شفتيه ولثم خدها ، ثم رأى فتاتا من اللب المتسرب من زاوية فيه قد التصق بخدها فأزاله بأنامله في حياء ، أما مريم فتناولت ذقنه بأنامل يمناها وقبلت شفتيه مرة ومرة ، ثم سألته فيما يشبه الاعجاب :

ـ كيف استطعت ان تفلت من بين ايديهم في هذه الساعة !؟• لعل تيزة تبحث عنك الان في كل حجرات البيت ••

آه ••• لقد استنام الى الحديث واللعب حتى اوشك ان ينسى الرسالة التي جاء من أجلها ، ولكن تساؤلها ذكره بمهمته فرنا اليها بعين اخرى • العين التي تود ان تنقب في ذاتها عن السر الذي زلزل اخاه الرزين الطيب• الا ان تشوفه تهافت حيال شعوره بأنه يحمل انباء غير سارة ، فقال بوجوم:

ـ فهمي الذي ارسلني •••

ارتسمت في عينيها نظرة جديدة تفيض جدا ، وتفرست في وجهه باهتمام لترى ما وراءه فشعر بأن الجو قد تغير كأنما انتقل من فصل الى فصل ، ثم سمعها تسأل بصوت خافت :

ـ لمه ؟!••

فقال لها بصراحة دلت على انه لم يقدر خطورة الانباء التي يحملها رغم شعوره الفطري بخطورتها •••

ـ قال لي بلغها تحياتي وقل لها انه استأذن والده في خطبتها ولكنه لم يوافق على ان يعلن خطبته وهو تلميذ ، وطلب اليه ان ينتظر حتى يتم دراسته •••

كانت تحدق الى وجهه باهتمام شديد فلما بلغ السكوت خفضت عينيها دون ان تنبس بكلمة ، فغشيت الجلسة صمتة واجمة ضاق بها قلبه الصغير ، وتلهف على كشفها مهما كلفه الامر فقال :

ـ انه يؤكد لك ان الرفض جاء على رغمه وأنه يتعجل السنين حتى يحقق ما يتمنى •••

ولما لم يجد لكلامه أثرا في اخراجها من غشاوة الصمت ازداد تلهفه على اعادتها الى ما كانت عليه من بهجة ومرح فقال باغراء :

ــ هل أحدثك عما دار بين فهمي وبين نينته من حديث عنك ؟

فتساءلت بلهجة بين الاكتراث وعدمه :

ــ ماذا قال وماذا قالت ؟

فانشرح صدره بهذا النجاح الجزئي وقص عليها ما ترامى اليه من حديث من وراء الباب حتى اتى عليه ، فخيل اليه أنها تتنهد ، ثم قالت ببرم:

ــ ان والدك رجل شديد مخيف ، الكل يعرفه هكذا ..

فقال وهو لا يدري :

ــ نعم ... أبي كذلك ...

ورفع رأسه اليها في خوف وحذر ولكنه وجدها كالغائبة ، فسألها متذكرا ما وصاه به أخوه :

ــ ماذا أقول له ؟

فضحكت من أنفها وهي تهز كتفيها ،وهمت بالكلام ، ولكنها امسكت متفكرة مليا ، ثم قالت وقد التمعت في عينيها نظرة ماكرة :

ــ قل لها انها لا تدري ماذا تفعل لو تقدم لها خاطب في اثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار .. !

وعني كمال بحفظ الرسالة الجديدة اكثر مما عني بفهمها ، وسرعان ما شعر بأن مهمته قد انتهت فأودع بقية اللب جيب جلبابه ، ومد لها يده بالسلام ، ثم انزلق الى ارض الحجرة ومضى خارجا ...

★ ★

بدت عائشة وهي تنظر في المرآة شديدة الاعجاب بنفسها ، دون الاسرة اللامعة ، بل أي فتاة في الحي كله تتحلى بمثل هذه الخصلات الذهبية وهاتين العينين الزرقاوين ؟! ... ان ياسين يتغزل بها جهارا ، وفهمي لا يخلو اذا تحدث اليها لامر او لآخر من نظرات تنم عن الاعجاب ، حتى كمال الصغير لا يحلو له الشراب من قلة الا من الموضع المبتل بريقها،

وهذه امها تدللها فتدعوها « قمر » وان لم تخف قلقها نحو نحافتها ورقتها الامر الذي جعلها تحت أم حنفي على تركيب وصفة لتسمينها • أما عائشة نفسها فلعلها كانت أعرف الجميع بحسنها البارع كما تدل عليه عنايتها الشديدة به واستئناسها اليه • على ان هذه العناية المفرطة لم تمر بخديجة دون تعليق ، بل مؤاخذة وتقريع ، لا لانها تستنيم الى الاهمال فالحق أن خديجة هي الوريثة الاولى لامها في الولع بالنظافة والاناقة ، ولكن لانها رأت الفتاة تستقبل النهار عادة بتمشيط شعرها واصلاح هندامها حتى قبل القيام بواجبات المنزل كأنها لا تطيق ان يبقى جمالها ساعة من العمر غير محاط بالعناية والرعاية • ولكن لم تكن العناية بالجمال وحدها هي الباعث على هذا التجمل الباكر ، فعند ذهاب الرجال كل الى عمله ــ تأوى الى حجرة الاستقبال وتفرج بين ضلفتي الشباك المطل على بين القصرين زيقا رقيقا فتقف وراءه مادة بصرها الى الطريق ، يعلوها قلق الانتظار واضطراب الخوف • هكذا وقفت ذاك الصباح فظل طرفها حائرا ما بين حمام السلطان وسبيل بين القصرين وفؤادها الفتى يواصل خفقاته حتى تراءى عن بعد « المنتظر » وهو ينعطف قادما من الخرنفش خاطرا في بدلته العسكرية والنجمتان تلمعان على كتفه ، وجعل كلما اقترب من البيت يرفع في حذر عينيه دون رأسه ، حتى تدانى من البيت فهفت في أساريره ابتسامة خفيفة آية في الخفة ــ تدرك بالقلب اكثر مما تدرك بالحواس ــ كأنها الهلال في ليلته الاولى ، ثم اختفى تحت المشربية فاستدارت في عجلة لتتابع مشاهدته من النافذة الاخرى المطلة على النحاسين فما راعها الا ان ترى خديجة منتصبة على الكنبة بين النافذتين ملقية بنظرها الى الطريق من فوق رأسها •••! فرت منها آهة ، واتسعت عيناها في رعب فاضح ، فتسمرت في موقفها ••• متى وكيف جاءت ! كيف علت الكنبة دون ان تشعر بها !؟ •• وماذا رأت ؟! ••• متى وكيف وماذا ؟ اما خديجة فقد ثبتت بصرها عليها وهي تضيق عينيها رويدا صامتة ، مطيلة الصمت كأنما لتطيل تعذيبها •ثم تمالكت عائشة بعض نفسها فخفضت عينيها في جهد شديد ومالت نحو الفراش

متظاهرة ــ عبثا ــ بضبط الاعصاب وهي تغمغم :

ــ أرعبتني يا شيخة •• !

لم تبد على خديجة اكتراثا ، ظلت بموقفها على الكنبة وعيناها الــى الطريق خلل الزيق ••• ثم تمتمت ساخرة :

ــ أرعبتك ؟! •• اسم الله عليك ! ••• أصلي بعبع •• !

وعضت عائشة على نواجذها في غيظ وحنق ويأس بعد ان تراجعــت قليلا الى مأمن من عينيها ، الا انها قالت بصوت هاديء :

ــ رأيتك فجأة فوق رأسي دون أن أشعر بدخولك ، لماذا تسترقين الخطــو ؟

فوثبت خديجة الى الارض ، ثم جلست على الكنبة في استرخاء ساخر وهي تقــول :

ــ آسفة يا أختي ، في المرة القادمة سأعلق جرسا في عنقي مثل عربة المطافيء لتنتبهي الى حضوري فلا ترتعبين •

فقالت عائشة في ضيق والرعب لم يفارقها :

ــ لا لزوم لتعليق الجرس ، حسبك ان تسيري كالناس الذين خلقهم ربنــا •••

فقالت الاخرى بنفس اللهجة الساخرة وهي ترميها بنظرة ذات معنى :

ــ ربنا يعلم اني أسير كالناس الذين خلقهم ، ولكن الظاهر انك اذا وقفت وراء النافذة ــ اقصد وراء هذا الزيق ــ استغرقت فيما أمامك بحيث تفقدين الوعي بما حولك فلا تبقين كالناس الذين خلقهم ربنا •

فنفخت عائشة مغمغمة :

ــ هكذا انت دائما •

وعادت خديجة الى الصمت قليلا ، ثم حولت عينيهــا عن فريستهــا ، ورفعت حاجبيها كأنما تفكر في مشكل عسير ، ثم تظاهرت بالسرور كأنما اهتدت للحل الموفق ، وقالت مخاطبة نفسها هذه المرة دون ان تنظر الــى الاخرى :

ــ اذن لهذا فهي تغني كثيرا « يا بو الشريط الاحمر ياللي اسرتني ترحم ذلي » ! ... وكم حسبته بسلامة نيتي يا عيني غناء بريئا لمجرد التسلية !

وخفق قلب الفتاة خفقة قاسية ، وقع المحذور ولم يعد ينفع التعلق بأوهام الاماني الكاذبة ، وركبها اضطراب زلزل اركان نفسها فكادت تشرق بالبكاء ، الا أن اليأس نفسه دفعها الى الاستماتة في الذود عن نفسها فهتفت بصوت طمس اضطراب نبراته معانيه :

ــ ما هذا الكلام غير المفهوم !

ولكن لم يبد على خديجة انها سمعت كلامها فواصلت مخاطبة نفسها قائلة :

ــ ولهذا أيضا تتزين في الصباح الباكر ! طالما ساءلت نفسي أيعقل أن تتبرج بنت قبل الكنس والتنفيض ؟!. ولكن أي كنس وأي تنفيض يا خديجة يا مسكينة ، يا من ستعيشين بلهاء ، وتموتين بلهاء ، أكنسي انت ونفضي أنت ، ولا تتزيني لا قبل العمل ولا حتى بعده ، ولماذا تتزينين يا تعيسة ؟! انظري من زيق الشباك من اليوم الى الغد فان اعتنى بك عسكري دورية اقطع ذراعي !

فهتفت عائشة في اضطراب وعصبية :

ــ حرام عليك ... حرام .

ــ لها حق يا خديجة ، هذه فنون لا تستطيعين فهمها بعقلك المظلم ، عيون زرق ، وشعر من سبائك الذهب ، شريط أحمر ونجمة لامعة ، شيء مفهوم ومعقول .

ــ خديجة ، أنت مخطئة ، كنت أنظر الى الطريق فحسب ، لا لأرى أحدا ولا ليراني أحد .

فالتفتت خديجة اليها كأنما تنتبه الى اعتراضها لاول مرة وتساءلت كالمعتذرة :

ــ هل تخاطبينني يا شوشو ؟! لا مؤاخذة اني افكر في بعض الامور

الهامة فأجلي حديثك الى حين ، وعادت تهز رأسها في تفكير وتخاطب نفسها قائلـة :

ــ شيء مفهوم ومعقول . ولكن ما ذنبك أنت يا سيد أحمد عبـد الجواد ؟! آسفي عليك يا سيد يا شريف يا كريم ، تعالى شوف حريمك يا سيدي وتاج رأسي !

وقف شعر الفتاة عند سماع اسم أبيها ، فدار رأسها ، ورد على ذهنها قول السيد لأمها وهو يحمل على رغبة فهمي في خطبة مريم « أخبريني هل رآها ؟ » ... « وما كنت أحسب أن لي ابناء يسترقون النظر الى حرمات الجيران » ، هذا رأيه في الابن فكيف يكون في البنت ! وهتفت بصـوت مخنوق النبرات :

ــ خديجة .. لا يليق هذا .. أنت مخطئة .. أنت مخطئة .

ولكن خديجة تابعت حديثها دون التفات اليها :

ــ ترى أهذا هو الحب ؟! يمكن ! ألم يقولوا عنه : « الحب كبش في قلبي ... قربت أروح منه طوكر » .

ترى أين طوكر هذه ؟! لعلها في النحاسين ، بل لعلها في بيت السيـد أحمد عبد الجواد .

ــ لم أعد احتمل كلامك ، ارحميني من لسانك ، رباه ... لمـاذا لا تصدقينني ؟!

ــ تدبري أمرك يا خديجة ليس ما نحن فيه لعبا ، وأنت الاخت الكبرى ، والواجب هو الواجب مهما بدا مرا ، يجب ان يعلم أولو الشأن ، هل تفضين بالسر الى والدك ؟! الحق اني لا أدري كيف اخاطبه في مثل هذا السر الخطير ، ياسين ؟! ولكنه كعدمه وغاية ما يرجى منه أن يترنم بكلام غير مفهوم ، فهمي ولكنه يعطف بدوره على الشعر الذهبي أصل البلوى كلها ، أظن من الافضل أن أخبر نينة ، وأترك لها التصرف بما ترى .

وندت عنها حركة كأنها تهم بالقيام فهرعت عائشة اليها كدجاجة مذبوحة وأمسكت بكتفيها صائحة بصدر يعلو وينخفض :

ــ ماذا تريدين ؟

فتساءلت خديجة :

ــ اتهددينني ؟!

همت عائشة بالكلام فخنقتها العبرات بغتة وهيمنت بكلام مزقه البكاء شر ممزق ، وجعلت خديجة تحدق اليها صامتة متفكرة ، ثم زايل أساريرها عبث السخرية حتى تهجم وجهها وهي تصغي في غير ارتياح الى نشيج الفتاة، ثم قالت بلهجة جدية لاول مرة :

ــ لقد أخطأت يا عائشة •

وأمسكت ووجهها يشتد تجهمه ، وكأن انفها ازداد بروزا ، وبدا عليها التأثر واضحا فاستطردت قائلة :

ــ يجب أن تقري بخطئك ، خبريني كيف سولت لك نفسك هذا العبث يا مجنونة ؟

فغمغمت عائشة وهي تجفف عينيها :

ــ أنت تسيئين الظن بي •

فنفخت خديجة مقطبة كأنما ضاقت بهذه المكابرة الضائعة ، بيد انها عدلت نهائيا عن نية الاعتداء او حتى المعابثة ، انها تعرف دائما اين ومتى تقف فلا تجاوز الحد ، وقد أشبعت السخرية ميولها العدوانية القاسية فقنعت بها كما تقنع بها عادة ، ولكن بقيت لديها ميول من نوع آخر ــ ابعد ما تكون عن العدوان والقسوة ــ لم تشبع بعد ، ميول تنبعث من عاطفة الاخت الكبرى ، بل من عاطفة امومة لا يخطئها فيها أحد من الاسرة مهما اشتدت حملتها عليه أو حملته عليها ، وتحت تأثير الرغبة في اشباع هذه الميول الودية قالت :

ــ لا تكابري ، لقد رأيت كل شيء بعيني ، لست الان اهزل ولكني اريد ان أصارحك بأنك اخطأت خطأ كبيرا ، هذا عبث لم يعرفه هذا البيت في الماضي ولا يود أن يعرفه في حاضره او مستقبله ، انه الطيش وحده الذي اوقعك فيه ، أصغي الي واعقلي نصيحتي ، لا تعودي الى هذا أبدا ، لا

يخفى شيء وان طال كتمانه . فتصوري ماذا يكون من امرنا جميعا لو لمحك احد في الطريق او احد من الجيران ، وانت ادرى بالسنة الناس ، تصوري ماذا يكون لو نمى الخبر الى أبي والعياذ بالله !

فنكست عائشة رأسها تاركة الصمت يعبر عن اعترافها ، وقد تضرج وجهها بحمرة الخجل ، ذلك الندم الذي ينزفه الضمير في الداخل اذا جرحته خطيئة ، وعند ذاك تنهدت خديجة قائلة :

ــ حذار ، حذار ، فاهمة ؟ ... « ثم نسمت عليها نسمــة سخريــة فغيرت لهجتها شيئا ما » ، الم يرك ؟ فماذا يقعده عن أن يتقدم لك مثــل الرجال الشرفاء ؟ وقتها نقول لك مع ألف سلامة ، بل في ستين داهية يــا ستي ...

استردت عائشة انفاسها ، فافتر ثغرها عن ابتسامة لاحت كلمعة اليقظة الاولى في العين عقب غيبوبة طويلة ، وكأن خديجة عز عليها ــ برؤية هذه الابتسامة ــ أن تفلت الفتاة من قبضتها بعد أن نعمت بامتلاكــها فتــرة طويلة فصاحت بهــا :

ــ لا تظني انك بلغت بر الامان ، ان لساني لا يسكت اذا لم تحسني مشاغلته ...

فتساءلت الاخرى في ارتياح :

ــ ماذا تعنين ؟

ــ لا تتركيه وحده حتى لا تعاوده نزعة الشر ، ألهيه بشيء من الحلوى ليشغل بها عنك ، علبة ملبس مثلا من شنجرلي ...

ــ لك ما تشتهين واكثر .

وساد الصمت فشغلت كلتاهما بافكارها . على ان قلب خديجة كان ــ كما كان من باديء الامر ــ مرتعا لضروب من المشاعر متباينــة ... غيرة وحنق واشفاق وحنان ...

★ ★

كانت ست امينة مشغولة باعداد أدوات القهوة استعدادا لجلســـة

العصر التقليدية فجاءتها أم حنفي مهرولة ، يبشر لمعان عينيها بأنباء سارة ، ثم قالت بلهجة موحية :

ـ ستي ثلاث سيدات غريبات يرغبن في زيارتك ...

اخلت الام يديها من كل شيء ، وانتصبت قامتها في عجلة دلت على تأثير الخبر في نفسها ، وحدجت الخادم بنظرة اهتمام شديدة كأنه من المحتمل ان تكون الزائرات من البيت المالك او من السماء نفسها ، ثم تمتمت استزادة من التوكيد :

ـ غريبات ؟!

فقالت أم حنفي بلهجة تنم عن فرحة الظفر :

ـ نعم يا ستي ، طرقن الباب ففتحت لهن فقلن لي « أليس هذا بيت السيد احمد عبد الجواد ؟ » فقلت لهن « بلى » فقلن « الهوانم فوق » فقلت « نعم » فقلن « نريد ان تتشرف بالزيارة » فسألتهن « أقول من الزائرات ؟ » فقالت لي احداهن ضاحكة « دعي هذا لنا ، وما على الرسول الا البلاغ » فجئتك يا ستي طائرة وانا اقول لنفسي « يا رب حقق لنا الاحلام » ...

فقالت الام بعجلة دون أن يزايل الاهتمام عينيها :

ـ ادعيهن الى حجرة الاستقبال ... أسرعي ...

ولبثت دون حراك ثوان ، مستغرقة في خواطرها الجديدة ، في الحلم السعيد الذي تفتحت لها دنياه الغناء فجأة وان بدا شغلها الشاغل طول الاعوام الاخيرة ، ثم افاقت الى نفسها فنادت خديجة بلهجة لا تحتمل التأجيل فجاءت الفتاة على الاثر ، وما ان التقت عيناهما حتى غلبها الابتسام وقالت وهي لا تملك نفسها من الفرح :

ـ ثلاث سيدات غريبات في حجرة الاستقبال .. ارتدي خير ملابسك ... واستعدي ..

ولما تورد وجه خديجة تورد وجهها ايضا كأنما انتقلت اليه عدوى الحياء ، ثم غادرت الصالة الى حجرتها في الدور الاعلى لتستعد بدورها

لاستقبال الزائرات . وجعلت خديجة تنظر الى الباب حيث اختفت أمها ، غائبة الطرف ، وقلبها يخفق لحد الالم ، متسائلة « ما وراء هذه الزيارة ؟ » ثم نزعت نفسها من موقفها ، وسرعان ما استرد عقلها نشاطه الفائق فنادت كمال الذي جاءها من حجرة فهمي فبادرته قائلة :

ــ اذهب الى أبلة مريم وقل لها أن خديجة تقرئك السلام وترجوك أن ترسلي لها معي علبة البودرة والكحل والاحمر ..

وتلقف الغلام الامر وهو يعدو الى الخارج ، أما خديجة فأسرعت الى حجرتها ومضت تخلع جلبابها وهي تقول لعائشة التي لحظتها بعين متسائلة :

ــ اختاري لي أحسن فستان ... أحسن فستان بلا استثناء . فتساءلت عائشة :

ــ ما الداعي الى هذا الاهتمام ؟ ... زائرة ؟! من ؟! ..

فقالت خديجة بصوت خافت :

ــ ثلاث سيدات ... « ثم وهي تضغط على مخارج اللفظ » ... غريبات ..

فتراجع رأس عائشة في دهش ، ثم اتسعت عيناها الجميلتان سرورا ، وهتفت :

ــ آه ... هل يفهم من هذا أن ... يا له من خبر .

ــ لا تتسرعي في الحكم... فمن يدري عما هناك .

فاتجهت عائشة نحو صوان الملابس لتنتقي الفستان المناسب وهي تقول ضاحكة :

ــ في الجو شيء .. ان الفرح يشم كالروائح الزكية ...

فضحكت خديجة لتخفي اضطرابها ، واقتربت من المرآة ونظرت الى صورتها بامعان ، ثم اخفت أنفها براحتها وقالت بتهكم :

ــ لا بأس بوجهي الان ، وجه مقبول ، « ثم رافعة راحتها » ... اما على هذه الحال فربنا وحده المنجي ! ...

فقالت عائشة ضاحكة وهي تساعدها في نفس الوقت على ارتـــداء فستان ابيض موشى بأزهار بنفسجية :

ـ لا تغمطي نفسك ••• ألا يسلم شيء من لسانك ! ••• ليســت العروس أنفا فحسب ، هناك العينان والشعر الطويل ، والدم الخفيف !

فلوت خديجة بوزها قائلة :

ـ الناس لا ترى الا العيوب •••

ـ هذا صحيح بالقياس الى من على شاكلتك من الناس ، ولكن ليس كل الناس على شاكلتك والحمد لله •••

ـ سوف أجيبك حين أفرغ لك ••• !

فربتت الاخرى على خاصرتها وهي تسوي الفستان قائلة :

ـ ولا تنسى هذا الجسم البض الممتليء ••• يا له من جسم !

فضحكت خديجة في سرور وقالت :

ـ لو كان العريس اعمى ما عملت حسابا لشيء ••• واني أرضى بـه في تلك الحال ولو كان شيخا من شيوخ الازهر •••

ـ وماذا يعيب شيوخ الازهر ! ••• أليس منهم من خيراته كالبحر ؟!

ولما فرغا من الفستان ندت عن عائشة نغمة تأفف فسألتها خديجة :

ـ ماذا بـك ؟

فقالت بتذمـر :

ـ ليس في بيتنا كله نقطة بودرة أو كحل أو أحمر كأن ليس به نساء••

ـ من الافضل ان تبلغي هذا الاحتجاج لوالدنا •••

ـ أليست نينة سيدة ومن حقها ان تتزين ؟

ـ انها جميلة هكذا بلا زينة !

ـ وحضرتك ؟ هل تلقين الزائرات هكذا ؟

فقالت خديجة ضاحكة :

ـ ارسلت كمال الى مريم ليعود بالبودرة والكحل والاحمر ، وهـل وجهي وجه اقابل به الخاطبات عاطلا ؟!

ولما كان الوقت لا يحتمل تبديد دقيقة بلا عمل فقد نزعت خديجة منديل رأسها واخذت تحل ضفيرتيها الغليظتين الطويلتين ، على حين جاءت عائشة بالمشط وراحت تمشط شعرها المسترسل وهي تقول :

ــ يا له من شعر سبط طويل •• ما رأيك ؟ سأجدله في ضفيرة واحدة ، الا يكون ذلك أروع ؟

ــ بل ضفيرتين ••• ولكن خبريني هل أبقي الجراب في قدمي أو ادخل عليهن عارية الساقين ؟

ــ ان الوقت شتاء يستوجب لبس الجراب ولكني اخشى اذا أبقيته ان يحسبن بساقك او قدميك عيبا تتعمدين اخفاءه •• !

ــ صدقت ، ان المحكمة أرحم من الحجرة التي تنتظرني الان ••

ــ قوي قلبك ، ربنا يوعدنا ••

وهنا دخل الحجرة كمال مسرعا وهو يلهث فقدم الى أخته أدوات الزينة وهو يقول :

ــ قطعت السلم والطريق جريا ••

فقالت له خديجة باسمة :

ــ عفارم ، عفارم •• ماذا قالت لك مريم ؟

ــ سألتني هل عندنا ضيوف ••• ومن هن ، فأجبتها بأني لا أدري••

فتجلت في عيني خديجة نظرة اهتمام وهي تسأله :

ــ وهل قنعت بهذه الاجابة ؟

ــ حلفتني بالحسين أن أصرح لها بما عندي فحلفت لها بأنه ليس عندي غير ما قلت ••

فضحكت عائشة قائلة ويداها لا تكفان عن العمل ••

ــ ستخمن ما هنالك ••

فقالت خديجة وهي تذر البودرة على وجهها :

ــ انها بنت هرمة ، وهيهات ان يفوتها شيء ، واراهنك على انها سوف تزورنا غدا على الاكثر لاجراء تحقيق شامل •••

ولم يشأ كمال ان يغادر الحجرة كما كان المنتظر او لعله لم يستطع مغادرتها تحت اغراء المشهد الذي يمثل امام عينيه ، والذي يراه لاول مرة في حياته فلم يسبق له ان رأى وجه اخته وهو يلقي هذا التغير الذي استحال معه وجها جديدا ، البشرة تبيض والوجنتان تتوردان والعينان تصطبغ اشفارهما بسواد لطيف يرسم لهما حدودا جذابة ويضفي على حدقتيهما صفاء بهيجا ، وجه جديد هش له قلبه فطرب هاتفا :

ــ انت يا أبلة الان كالعروس التي يشتريها بابا في مولد النبي ...

فضحكت الفتاتان . وسألته خديجة :

ــ هل اعجبك الان ؟

فاقترب منها مسرعا ومد يده صوب أرنبة انفها وهو يقول :

ــ لو تزول هذه !

فتفادت من يده ، ثم قالت لاختها :

ــ اخرجي هذا النمـــام ..

فقبضت عائشة على يده وجذبته الى الخارج رغم مقاومته حتى أخرجته واغلقت الباب ، ثم عادت الى استئناف عملها الجميل ، فواصلتا نشاطهمـــا في صمت وجد . ومع أنه كان من المتفق عليه في الاسرة ان تقتصر مقابلـــة الخاطبات على خديجة وحدها الا ان الفتاة قالت لعائشة على سبيل المكر :

ــ ينبغي ان تتأهبي أنت أيضا لاستقبال الزائرات .

فقالت عائشة بمثل مكر اختها :

ــ ان يكون هذا قبل أن تزفي الى عريسك !

ثم استدركت قائلة قبل ان تتكلم خديجة :

ــ أما الان فكيف للنجوم ان تطلع مع القمر ؟!

فرمتها اختها بنظرة مستريبة وتساءلت :

ــ من يكون القمـــر ؟

فقالت عائشة ضاحكة :

ــ طبعا أنا .. !

فلكزتها بكوعها ، ثم تنهدت قائلة :

ــ لو تعيرينني انفك كما أعارتني مريم علبة بودرتها !

ــ تنامي أنفك ولو الليلة على الاقل ، ان الانف ــ كالدمل ــ يضخم بالدأب على التفكير فيه ! ...

اوشكتا عند ذاك على الفراغ من عملية التجميل ، فتراخى أنتباه خديجة عن التركيز في مظهرها واتجه في رهبة الى موقف الامتحان الذي ينتظرها فشعرت بخوف لم تشعر بمثله من قبل ، لا بالقياس الى جدته فحسب ولكن ــ قبل كل شيء ــ بالقياس الى خطورة عواقبه . وما لبثت ان قالت متشكية :

ــ اية جلسة هذه التي قضى علي بها ! .. تصوري نفسك في مكاني، بين نسوة غريبات لا تدرين اي خلق خلقهن ولا أي أصل أصلهن ، وهل جئن بنية صادقة او لمجرد الفرجة والتسلية ، وماذا يكون من أمري لو كن عيابات شتامات (ثم ضاحكة ضحكة مقتضبة) مثلي مثلا ... هه ؟ وماذا بوسعي الا ان أجلس بينهن في أدب واستسلام اتلقى نظراتهن من اليمين والشمال ، ومن الامام والخلف ، وأصدع بأمرهن بلا ادنى تردد ، اذا طلبن قياما قمت ، أو مشيا مشيت أو كلاما تكلمت حتى لا يفوتهن شيء من جلوسي وقيامي وصمتي وكلامي واعضائي وقسماتي . وعلينا بعد هذه « البهدلة » كلها ان نتودد اليهن ونطري لطفهن ، وكرمهن ، ثم لا ندري بعد ذلك انفوز بالرضى أو نفوز بالغضب ، أف ... أف .. ملعون الذي أرسلهن !

فعاجلتها عائشة قائلة بلهجة ذات معنى :

ــ بعد الشر عنه !

فقالت خديجة ضاحكة ايضا :

ــ لا تدعي له حتى تتأكد أنه من نصيبنا ... آه يا ربي كم أن قلبي يدق ! ...

فتراجعت عائشة خطوة عن مرمى كوعها وقالت :

صبرك ... ستجدين في المستقبل فرصا كثيرة للانتقام من مجلس اليوم الرهيب ، فكم سيصلين من نار لسانك وأنت ست البيت .. ولعلهن يذكرون امتحان اليوم وهن يقلن لانفسهن يا ليت الذي جرى ما كان .. !

وقنعت خديجة بالابتسام ، لم يكن في الوقت متسع لرد الهجوم ،ولم تجد في الهجوم ـ الذي تجد فيه عادة سرورا شافيا ـ لذة على الاطلاق لغلبة الرهبة على نفسها وحيرتها بين الخوف والرجاء . ولما فرغا من مهمتهما وقفت تلقى على صورتها نظرة شاملة ، وعائشة ـ الى الوراء خطوتين ـ تردد نظرها بعناية بين الصورة والاصل ، وجعلت خديجة تتمتم :

ـ أحسنت يداك ، منظر حسن أليس كذلك ؟ ... هذه خديجة حقا .. لا بأس بأنفي الان ... جلت حكمتك يا رب ، بقليل من الجهد صار كل شيء مقبولا فلماذا (ثم مستدركة بسرعة) استغفر الله العظيم ، لك في كل شيء حكمة ...

وتراجعت خطوات وهي تفحص صورتها بعناية ثم قرأت الفاتحة في سرها ، والتفتت نحو عائشة قائلة :

ـ ادعي لي يا بنت ...

وغادرت الحجرة ...

★ ★

اكتسب مجلس القهوة بحلول الشتاء ميزة جديدة تمثلت في المدفأة الكبيرة التي توسطت الصالة فتكأكأت حولها الاسرة ، الذكور في معاطفهم والنساء متلفات بخماراتهن ، فهيأ لهم المجلس الى لذة الشراب وحلو السمر متعة لدفء ، وقد بدا فهمي ـ على حزنه الصامت الطويل في الايام الاخيرة ـ كمن يتحفز لمواجهة أهله بخبر هام ، ولم يكن تردده وطول تفكيره الا دليلا على خطورة الخبر وأهميته ، بيد أنه انتهى من تفكيره وتردده الى التصميم على ابلاغه ملقيا عبأه بعد ذلك على والديه والاقدار ، فلذلك قال:

ـ عندي خبر هام لكم فاسمعوا ...

فتطلعت اليه الاعين باهتمام لم يشذ عنه احد ، لان ما عرف به الشاب من اتزان جعل الجميع ينتظرون خبرا هاما حقا كما قال ، أما فهمي فاستطرد قـائلا :

ـ الخبر هو أن حسن افندي ابراهيم ضابط قسم الجمالية ـ وهـو من معارفي كما تعلمون ـ قابلني ورجاني ان ابلغ والدي رغبته في خطبة عائشة .. .!

وأحدث الخبر ـ كما قدر فهمي من قبل ما دعاه الى التردد وطـول التفكير ـ آثارا جد متباينة ، فتطلعت الام اليه باهتمام شديد ، على حين صفر ياسين وهو يرمق عائشة بنظرة مداعبة ويهز رأسه . وخفضت الفتاة الصغيرة رأسها حياء ولتخفي وجهها عن الاعين ان تفضحها اساريرها فتعلن للناظرين ما يضطرب في قلبها الخافق ، اما خديجة فقد تلقت الخبر بدهشة بادىء الامر لم تلبث ان انقلبت خوفا وتشاؤما لم تدر لهما سببا واضحا ولكنها كانت كتلميذ ، يتوقع بين آونة واخرى ظهور نتيجة الامتحان ـ اذا تناهى اليه نجاح زميل له بلغته النتيجة من مصدر خاص ، وتساءلت الام في ارتباك لا يتناسب ومناسبة الفرح الراهنة :

ـ أهذا كل ما قـال ؟

فقال فهمي وهو يتحاشى النظر ناحية خديجة :

ـ بدأني بقوله انه يود ان يتشرف بطلب يد شقيقتي الصغرى .

ـ وماذا قلت له ؟

ـ شكرت له حسن ظنه بطبيعة الحال ..

لم تطرح عليه السؤال تلـو السؤال رغبـة في استطلاع شـيء ترد معرفته ، ولكن لتداري ارتباكها وتنتزع من المفاجأة مهلة للتروي ، ثم راحت تتساءل ترى هل لهذا الطلب علاقة بالزائرات اللاتي جئنها منـذ ايـام ؟! وذكرت عند ذاك كيف قالت احداهن ـ قبل ظهور خديجة ـ وهي بمعرض الحديث عن أسرة السيد أحمد انهن سمعن ان للسيد كريمتين فادركت وقتها انهن جئن لرؤية الفتاتين ولكنها تصامت عن الاشارة ، وقد انتسبت الزائرات

الى اسرة تاجر بالدرب الاحمر ـ غير والد الضابط الذي قال فهمي عنه مرة انه موظف بوزارة الاشغال ـ ولكن هذا لا ينفي نفيا قاطعا العلاقه بين الأسرتين لانه من المألوف ان تبعث الاسر بخاطبات من بعض فروعها دون الاصل على سبيل الحرص ، وكم ودت ان تسأل فهمي عن هده النقطة بالذات وكأنها اشفقت من ان يجيء الجواب مصداقا لمخاوفها فيقضي على آمال ابنتها الكبرى ويسيمها خيبة جديدة ، بيد أن خديجة نابت عن امها ـ اتفاقا ـ يطرح ما يعتلج في صدرها خارجا حين دارت هبوطها بضحكة فاترة وقالت متسائلة :

ـ لعله هو الذي بعث بالزائرات اللاتي زرننا منذ أيام ؟

ولكن فهمي بادر قائلا :

ـ كلا ، فقد قال لي انه سيرسل امه الينا في حالة الموافقة على طلبه ..

ولكنه بخلاف لهجته الموحية بالصدق ، لم يكن صادقا فيما قال ، فقد فهم من حديث الضابط ان السيدات اللاتي زرن والدته قريباته ، بيد أنه أشفق من ايلام شقيقته الكبرى التي كان ـ على حبه عائشة واقتناعه بجدارة صديقه الضابط ـ يعطف عليها عطفا اخويا ، ويألم اشد الالم لسوء حظها ، ولعله كان لما مني به هو من خيبة اثر قوي في البلوغ بهذا العطف ذروته . وضحك ياسين ضحكة غليظة وقال بجذل صبياني :

ـ يبدو اننا سنجمع قريبا بين فرحتين ..

فهتفت الام في فرح صادق :

ـ ربنا يسمع منك ...

ـ هل تخاطبين ابي نيابة عني ؟ ...

ند عنه السؤال هو مشغول بمسألة الخطبة عما عداها ، ولكنه ـ عقب النطق به ـ وقع من أذنيه موقعا غريبا . فكأنه القى عليه من حافظة ذكرياته لا من طرف لسانه ، او كأنه حين ألقى على سمعه لم يقف عند أذنيه ولكنه غاص الى أعماقه ثم طفا عالقا به ما علق من ذكرياته . وللحال ذكر سؤالا مماثلا لهذا السؤال توجه به الى أمه في ظروف مشابهة فانقبض

قلبه ، وهاجت آلامه ، وعاوده احساسه بالظلم الذي وأد أمله ، وجعل يقول لنفسه كما قال لها مرارا في الايام الاخيرة ، كم كان يكون سعيدا بيومه مستبشرا بغده راضيا عن الحياة كلها لولا ارادة ابيه القاسية ، وانتزعته الذكرى من الاهتمام بشئون غيره ، فاستسلم للحزن الذي يقرض شغاف قلبه • أما الام ففكرت مليا ثم تساءلت :

ـ الا يحسن بنا ان نفكر فيما عسى ان أجيب أباك اذا سألني عما دعا الضابط الى طلب عائشة بالذات ، ولماذا لم يطلب يد خديجة ، ما دام لم ير هذه ولا تلك ؟ •••

وانتبهت الفتاتان الى ملاحظة امهما معا ، ولعلهما ذكرا موقفهما وراء النافذة في وقت واحد ، بيد ان خديجة تلقت الذكرى بامتعاض ضاعف من امتعاضها الراهن ، واحتج قلبها على الحظ الاعمى الذي يأبى الا ان يجزي النزق والاستهتار بالاحسان ، أما عائشة فقد اعترضت تيار سرورها ملاحظة امها كما تعترض الحلق ـ وهو نشوان بازدراد أكلة لذيذة شهية ـ شوكة حادة مدسوسة في الطعام ، وسرعان ما امتص الخوف حرارة الفرح التي كان ينتفض بها روحها • فهمي وحده الذي ثار على قول أمه ، لا دفاعا كما بدا من عائشة ـ فانه ما كان يجيز الدفاع عن عائشة تحت سمع خديجة في هذه النقطة الحساسة بالذات ـ ولكن غضبا لحزنه الكظيم الذي لم يسعه الجهر بالدفاع عنه حيال أبيه ، فقال محتدا يخاطب اباه في شخص أمه، وهو لا يدري :

ـ هذا تعسف ظالم لا مبرر له من عقل أو حكمة • الا يعرف الرجال اشياء كثيرة عن نساء مخدرات عن طريق الفضليات من قريباتهم اللاتي لا يقصدن بحديثهن الا الجمع بين رجل وامرأة في الحلال •

ولكن الام لم تقصد باعتراضها لا تواريا وراء أبيه حتى تجد مخرجا من المأزق الذي وجدت فيه نفسها بين عائشة وخديجة ، فلما صارحها فهمي باحتجاجه لم تجد بدا من مصارحته بما يدور :

ـ الا ترى انه من الافضل ان ننتظر حتى يأتينا نبأ الزائرات ؟!

ولم تعد خديجة تطيق الصمت مدفوعة بكبريائها التي أبت عليها الا أن

ولم تعد خديجة تطيق الصمت مدفوعة بكبريائها التي ابت عليها الا أن تعلن عدم المبالاة بالامر كله بالرغم مما يصطرع داخلها من القلق والتشاؤم، فقــالت :

ــ هذا شيء وذاك شيء آخر وليس ثمة داع لتأجيل هذا من أجــل ذاك ...

فقالت الام بهدوء مؤثر :

ــ كلنا متفقون على تأجيل زواج عائشة حتى تتزوج خديجة .

ولم يسع عائشة الا أن تقول برقة وتسليم :

ــ هذا امر مفروغ منه ..

امتلأ صدر خديجة حنقا لدى سماع النبرات الرقيقة التي تتــكلم ، ولعل رقتها نفسها كانت أشد ما أحنقها ، ربما لانها أوحت بعطف أبته كل الاباء ، أو لانها ودت لو تعلن الفتاة معارضتها صريحة لتتيح لهــا فرصــة لمهاجمتها بما يشفي حنقها على حين قام ذاك العطف الكاذب البغيض درعا يدفع عنها الاذى ويضاعف من حنق المتربص المتحفز ، واخيرا لم يسعها الا أن تقول بلهجة لم تخل من حدة :

ــ لا أوافق على ان هذا امر مفروغ منه ، فليس من العدل ان يحملكم حظ عاثر على كسر حظ سعيد ! ...

وتنبه فهمي الى ما ينطوي عليــه كلام خديجة من حزن غــاضــب بالرغم من ظاهره الموحي بالايثار فانتزع نفسه من قبضة احزانه الشخصية نادما على ما صدر منه من قول في غضبته مما قد تحسبه خديجة ميلا صريحا منه الى قضية أختها فقال موجها خطابه اليها :

ــ ان مفاتحة بابا عن رغبة حسين افندي لا تعني التسليم بتقديم زواج عائشة على زواجك ، وما علينا من بأس اذا نلنا موافقته على الخطبة ، أن نؤجل اعلانها للوقت المناسب ! ...

ولم يكن ياسين مقتنعا بوجاهة الرأي الذي يحتم تقديم زواج على زواج ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية للافصاح عن رأيه الا انه روح عنــه بكلام عام يفهم منه من يشاء ما يشاء فقال :

ــ الزواج مصير كل حي ،ومن لم تتزوج اليوم فستتزوج غدا .

وهنا انطلق صوت كمال الرفيع ـ الذي كان يتابع الحديث باهتمام ـ متسائلا على غير انتظار :

ـ نينة ... لماذا كان الزواج مصير كل حي ؟

ولكنها لم تعن بالالتفات اليه ، فلم يحدث تساؤله من أثر الا عند ياسين الذي قعقع بضحكة غليظة دون ان ينبس بكلمة ، على حين قالت الام :

ـ اعلم ان كل فتاة ستتزوج اليوم أو غدا ، ولكن هناك اعتبارات لا ينبغي اغفالها ..

وعاد كمال يسألها :

ـ وهل ستتزوجين أنت أيضا يا نينة ؟

وضج الجميع ضحكا فخفف هذا من حدة التوتر وانتهز ياسين هذه الفرصة السانحة فتشجع قائلا :

ـ اعرضي الامر على أبي ، فالكلمة كلمته على أي حال ...

وقالت خديجة باصرار غريب :

ـ لا بد من هذا ، لا بد من هذا ...

كانت تعني ما تقول : لانها من ناحية تعلم باستحالة اخفاء مثل هذا الامر عن أبيها ، ولانها من ناحية اخرى تعتقد بأن والدها لا يمكن ان يقبل تقديم زواج عائشة عليها ، ولانها ـ الى هذا وذاك ـ ما زالت تصر على التظاهر باللامبالاة ، ومع أنها لم تكن تعلم بما بين الضابط والزائرات من سبب ... الا أن القلق والتشاؤم اللذين شعرت بهما من باديء الامر لم يتخليا عنها لحظة واحدة .

★ ★

مع أن السيدة أمينة جربت في حياتها اكثر من سبب من الاسباب التي تكدر الصفو الا انها لم تكن قديمة عهد بنوع طاريء من هذه الاسباب ، امتاز بطابع خاص به ، اذ بدا في ذاته ـ على خلاف سوابقه ـ مما يجمع الناس على اعتباره من اسس السعادة الجوهرية في الدنيا ، ومع هذا انقلب في بيتها ، بل في قلبها خاصة ، باعثا هاما من بواعث القلق والكدر ، وكم

كانت صادقة وهي تسائل نفسها: من كان يظن ان مقدم عريس ، الامر الذي تتلهف النفوس على استقباله ، يجر علينا هذا التعب كله ! .. ولكن هكذا جرى الحال ، فتنازع قلبها اكثر من رأي دون ان تطمئن الى واحد منها . رأت حينا ان الموافقة على زواج عائشة قبل خديجة كفيلة ان تقضي على مستقبل ابنتها الكبرى، ورأت حينا آخر ان الالحاح في معارضة الاقدار موقف شديد الخطورة قد يعود على الفتاتين باوخم العواقب ، والى هذا وذاك شق عليها كثيرا ان توصد الباب في وجه عريس رائع كالضابط الشاب. ليس من اليسير أن يجود الحظ بمثله مرة اخرى . ولكن ما عسى ان يكون حال خديجة اذا تمت الموافقة وما عسى ان يكون حظها ومستقبلها ؟! .. لم تدر لنفسها مستقرا ، خاصة وان ما طبعت عليه من سلبية شاملة جعلها اعجز من أن تجد حلا موفقا لمشكل من المشاكل . ولهذا وجدت راحة وهي تتحفز لالقاء العبء كله على عاتق السيد ،بل وجدت هذه الراحة بالرغم مما يخامرها من خوف كلما أقدمت على مفاتحته بأمر ترتاب في حسن تقبله له ، وقد انتظرت حتى فرغ من احتساء قهوته ثم قالت بصوتها المهموس الناطق بالادب والخضوع :

ـ سيدي ... حدثني فهمي قال ان صديقا له رجاه أن يعرض عليك رغبته في خطبة عائشة ...

سددت العينان الزرقاوان نظرة اهتمام ودهشة من فوق الكنبة الى حيث تجلس المرأة على شلتة غير بعيدة من قدميه ، كأنما تقول لها : «كيف تحدثينني عن عائشة وانا في انتظار أخبار عن خديجة بعد ما كان من نبأ الزائرات الثلاث » ... ثم تساءل ليستوثق مما سمع :

ـ عائشة ؟ ..

ـ نعم يا سيدي ...

ونظر السيد امامه في ضيق ، ثم قال وكأنه يحدث نفسه :

ـ قررت من زمن بعيد أن هذا سابق لاوانه ..

فقالت المرأة في عجلة ان يظن بها معارضة لرأيه :

ـ اني أعلم رأيك يا سيدي . ولكن يجب علي أن أطلعك على كل

شيء مما يدور بيننا ...

تفحصها الرجل ببصر حاد كأنه يسبر ما في قولها من صدق واخلاص ولكن لمعت عيناه بخاطر طارىء حال بينه وبين تفحصها ، فتساءل في اهتمام وقلق :

ــ ترى ألهذا علاقة بالسيدات اللاتي زرنك ؟

أجل ، علمت بهذه العلاقة ، وهي منفردة بفهمي ، وقد اقترح عليها الشاب ان تخفي امرها عن والده عند مفاتحته بالخبر فوعدته بالتفكير في المسألة طويلا ، وترددت بين قبولها ورفضها ، ثم مالت اخيرا الى كتمانها كما اقترح فهمي ، ولكنها حين جوبهت بسؤال السيد وهي تشعر بنظرة عينيه كضوء الشمس الوهاج تشتت عزمتها وتبدد رأيها فقالت بلا تردد :

ــ نعم يا سيدي ، علم فهمي أنهن قريبات صديقه ...

فعبس السيد غاضبا ، وكعهده اذا غضب امتلأت صفحة وجهه البيضاء بالدم وتطاير الشرر من عينيه . من يستهن بخديجة فكأنما استهان بشخصه ، ومن يمس كرامتها فكأنما طعنه في صميم كرامته ، ولكنه لم يدر كيف يعلن غضبه لا عن طريق صوته الذي علا وغلظ وهو يتساءل بحنق وازدراء :

ــ من هو هذا الصديق ؟

فقالت ــ وهي تجد للنطق بالاسم قلقا لا تدري له من سبب :

ــ حسن ابراهيم ضابط قسم الجمالية .

فقال السيد متسائلا في انفعال :

ــ قلت أنك ادخلت خديجة وحدها على السيدات !؟ ...

ــ نعم يا سيدي ...

ــ هل زرنك مرة أخرى ؟

ــ كلا يا سيدي والا كنت أخبرتك .

فسألها منتهرا كأنما هي المسؤولة عن هذه الغرابة :

ــ أرسل قريباته فرأين خديجة ، واذا به يطلب عائشة ! ... ما معنى هذا !؟ ..

فازدردت الام ريقها الذي جف بين الاخذ والرد وتمتمت :

ــ في مثل هذه الحال لا تدخل الخاطبات البيت المقصود الا بعــد ان يزرن كثيرا من بيوت الجيران متحريات عما يهمهن ، وبالفعل قد أشرن في حديثهن معي الى أنهن سمعن بأن للسيد كريمتين ، ولعل تقديم واحدة دون الاخــرى •••

أرادت أن تقول « لعل تقديم واحدة دون الاخرى وكد لديهن مــا سمعن عن جمال الصغرى » ولكنها أمسكت خوفا من مضاعفة غضبه مــن ناحية ، واشفاقا من الجهر بهذه الحقيقة التي ترتبط في ذهنها بالوان قاتمةمن القلق والاسى من ناحية اخرى • فأمسكت مكتفية باتمام الحديث باشارة من يدها كأنها تقول « الخ الخ » •

وحدج السيد اليها بنظر حاد حتى غضت الطرف استخذاء ، وانقلب الى حال من الامتعاض والحزن كثفت الغضب في صدره فمضى يقرع أضلعه يروم متنفسا او ينشد صحبة ، ثم صاح بصوت عاصف :

ــ عرفنا كل شيء ، ها هو ذا عريس يتقدم طالبا يد ابنتك فاسمعيني رأيك ؟ •••

شعرت بسؤاله يستدرجها الى حفرة لا قرار لها فقالت بلا تردد وهي تبسط راحتيها في تسليم :

ــ رأيي رأيك يا سيدي ولا رأي لي غيره ••

فصاح في زمجرة :

ــ لو كان الامر كما تقولين مافاتحتني في الامر •

فقالت في لهجة ملهوجة واشفاق :

ــ ما حدثتك يا سيدي الا لأخبرك عما جد في الامر ، لان واجبــي يقضي علي بأن أطلعك على كل ما يتصل ببيتك من قريب او بعيد ••

فهز رأسه في حنق قائلا :

ــ من يدري ••• أي والله من يدري ••• ما أنت الا امرأة وكل امرأة ناقصة عقل ، والزواج خاصة يفتنكن عن الرشاد ، فلعلك •••

فقاطعته بصوت متهدج :

ـ سيدي أعوذ بالله مما تظن بي ، انخديجة ابنتي ومن لحمي ودمي كما هي ابنتك •• وأن حظها ليفتت كبدي ، أما عائشة فما تزال في أول ربيعها ولن يضيرها ان تنتظر حتى يأخذ الله بيد شقيقتها •••

فراح يمسح براحته على شاربه الغليظ بحركة عصبية حتى توقف فجأة ، كأنما تذكر أمرا وتساءل :

ـ هل علمت خديجة ؟

ـ نعم يا سيدي •••

فلوح بيده غاضبا وهو يصيح :

ـ كيف يطلب هذا الضابط يد عائشة بالرغم من أن أحدا لم يرها ؟!

فقالت بحرارة وقلبها يرتجف :

ـ قلت يا سيدي لعلهن سمعن عنها ••

ـ ولكنه يعمل في قسم الجمالية أي في حينا ، وكأنه من أهله •••

فقالت الام في تأثر شديد :

ـ ان عين رجل لم تقع على احدى ابنتي منذ انقطاعهما عن المدرسة في سن الطفولة •••

فضرب كفا بكف وصاح بها :

ـ مهلا ••• مهلا ••• هل حسبتني أشك في هذا يا ولية ؟! لو شككت فيه ما أشبعني القتل !

انما أتحدث عما قد يجري في عقول بعض الناس ممن لا يعرفوننا ، « ان عين رجل لم تقع على احدى ابنتي » ••• ما شاء الله ، وهل كنت تريدين ان تقع عين رجل عليهما ؟! •• يا لك من مجنونة مهذارة ، اني أردد ما قد تشيع به السنة السفهاء من الناس ، أجل •• انه ضابط الحي ، يسير في شوارعنا صباح مساء فلا يبعد ان يقوم عند البعض ظن عن احتمال رؤيته لاحدى الفتاتين اذا علموا بزواجه منها •• لا أحب ، لا أريد أن اعطي ابنتي لأحد ليثير الشبهات حول سمعتي ، بل لن تنتقل ابنتي الى بيت رجل الا اذا ثبت لدي أن دافعه الاول الى الزواج منها هو رغبته الخالصة في مصاهرتي أنا •• •أنا ••• أنا ••• « لم تقع عين رجل على احدى ابنتي »

••• مبارك •• مبارك يا ست أمينة ••

وصفت الام دون ان تنبس بكلمة فساد الصمت الحجرة ، ثم نهض الرجل فآذنها نهوضه بأنه سيشرع في ارتداء ملابسه استعدادا للعودة الى الدكان فبادرت بالقيام ، ونزع السيد ذراعيه من الجلباب ورفعه ليخلعه ، ولكنه توقف قبل أن تجاوز طاقة الجلباب ذقنه ، وقال والجلباب مكوم فوق منكبيه كلبدة الاسد :

ــ ألم يقدر سي فهمي خطورة الطلب الذي تقدم به صديقه ؟•

(ثم محركا رأسه في أسف) : يحسدني الناس على انجاب ثلاثة ذكور والحق أني لم أنجب الا اناثا ••• خمس اناث •

★ ★

على أثر مغادرة السيد للبيت ذاع رأيه في خطبة عائشة ، ومع انه قوبل بتسليم عام ــ تسليم من لا حيلة لهم سوى التسليم ــ الا أنه كان متباين الصدى في النفوس • أسف فهمي للخبر ، وساءه ان تفقد عائشة زوجا صالحا مثل صديقه حسن ابراهيم ، أجل كان قبل ان يبت أبوه في الامر مترددا بين التحمس للعريس المتقدم وبين العطف على موقف خديجة الدقيق ، فلما ان قضي الامر واستراح جانبه المشفق على خديجة أسف جانبه الاخر الراغب في سعادة عائشة وامكنه أن يجهر برأيه فقال :

ــ لا شك ان مستقبل خديجة يهمنا جميعا ولكنني لا أوافق على الاصرار على حرمان عائشة من الفرص الحسنة التي تتاح لها • الحظ غيب لا يعلمه الا الله ، ولعل الله يدخر للمتأخر حظا أوفر من المتقدم••

ولعل خديجة كانت اشد الجميع شعورا بالحرج لوقوفها للمرة الثانية عشرة في سبيل اختها ، لم تكن تفكر في الحرج وهي تحت المطرقة ، ولكن حين نما اليها رأي أبيها الحاسم • وتقهقر الخطر الذي يتهددها ، زايلها الحنق والالم وحل محلهما شعور أليم بالخجل والحرج ، ومع ان حديث فهمي لم يترك في نفسها اثرا حسنا لانها طمعت في اعماقها أن تجد من الجميع حماسا لرأي أبيها وان تبقى هي الوحيدة المعارضة له • الا أنها قالت معلقة عليه :

ــ صدق فهمي فيما قال : وكان هذا رأيي دائما ••

فعاد ياسين يؤكد رأيه السابق قائلا :

ــ الزواج مصير كل حي ••• لا تخافوا ••• ولا تجزعوا ••

قنع هذه المرة بالكلام العام على ولعه بعائشة وشدة استيائه لما حـاق بها من ظلم ، ولكنه خاف أن يعلن رأيه صراحة ان تسيء خديجة فهمه او تظن ان ثمة علاقة بين هذا الرأي وبين ما ينشب بينهما كثيرا من نقار بريء، والى هذا وذاك كان احساسه الباطني بانه نصف أخ فقـط يقعـده عند مواجهة الخطير من شؤون الاسرة الحساسة عن ابداء الرأي الخليق بجرح أحد من أفرادها •• ولم تكن عائشة قد نبست بكلمة فقسرت نفسها علـى الكلام قسرا ان يشي صمتها بآلامها التي صممت علىاخفائها والتظاهر بعدم الاكتراث لها مهما سامها ذلك من عذاب وتوتر ، بل أجمعـت على اعـلان الارتياح مجاراة لجو البيت الذي لا يعترف للعواطف بحق من حقوقها •• والذي تداری فيه أهواء القلوب بأقنعة الزهد والرياء ، فقالت :

ــ لا يصح ان اتزوج قبل خديجة • والخير كل الخير فيما يرى أبـي (ثم مبتسمة) ••• لماذا تتعجلون الزواج ؟ ••• ومن أدراكم بأننا سنحظى في بيوت الازواج بحياة سعيدة كالتي نحظى بها في بيت بينا ؟ !

ولما تواصل الحديث كشأنه كل مساء حول المدفأة لم تمسك عـن الاشتراك فيه بما وسعها قوله بالرغم من شرود ذهنها وتشتت نفسها ، وكم في الواقع شابهت الدجاجة المذبوحة التي تندفع مبسوطة الجناحين ــ كأنما تنتفض حيوية ونشاطا ــ على حين يتدفق الدم من عنقهـا مستصفيا آخـر قطرات الحياة •••

على انها توقعت هذه النتيجة قبل عرض الامر على أبيها ، ان لا ثمة أمل غامض داعب احلامها كما يداعبنا الامل في كسـب النمـرة الاولى في اليانصيب الكبير •• وقد تطوعت اول الامر للمعارضة في زواجها مدفوعة بأريحية الظفر والسعادة ،وبالعطف على شقيقتها السيئة الحظ، الان خمدت الاريحية ونضب العطف ، فلم يبق الا الامتعاض والسخط واليأس • ليس لها من الامر شيء • هذه ارادة الاب ولا معقب لها ، وما عليها الا الاذعان والاستسلام ، بل عليها اكثر من هذا الرضى وارتياح ، لان محض الوجوم

ذنب لا يغتفر ، أما الاحتجاج فاثم لا يطيقه أدبها وحياؤها ، افاقت من سكرة السعادة الغامرة التي انتشت بها يوما وليلة على يأس مظلم ، ما أكثف الظلمة تجيء عقب النور الباهر ، في تلك الحال لا يقتصر الالم على الظلمة الراهنة، ولكنه يضاعف مرات ومرات بالحسرة على النور الذاهب وتسائل نفسها اذا كان ثمة نور أمكن ان يضيء مليا فلماذا لم يواصل الضياء ،لماذا لا يخبو، لماذا خبا ، فتكون حسرة جديدة تنضم الى بقية الحسرات التي ينسجها الحزن حول قلبها منتزعا اياها من ذكريات الماضي وواقع الحال واحلام المستقبل ، وعلى اغراقها في التفكير في هذا كله وحضوره ــ تبعا لذلك ــ في شعورها فانها تعود تتساءل وكأنها تتساءل لاول مرة ، وكأن الحقيقة المرة ترتطم بشعورها للمرة الاولى : هل حقا خبا النور ؟!

هل تمزقت الاسباب بينها وبين الشاب الذي ملأ قلبها وخيالها ؟!

سؤال جديد رغم تكراره . وصدمة جديدة رغم نفاذها الى العظام ، ذلك ان الحسرة الكاوية لا تنفك يتنازعها اليأس المستقر في الاعماق والآمال المتطايرة في الهواء كلما تطاير منها شعاع الامل المتطاير ، ثم تعود فتستقر في الاعماق ، ثم تطفو مرة اخرى ، ثالثة ، حتى تاوي الى مستقرها ــ وقد ودعت النفس اخر آمالها ــ فلا تغادره الى الابد ، انتهى كأنه لم يكن ، لا سبيل اليه أبدا ، ما أهون الامر عليهم ، عالجوه كما يعالجون أمور يومهم العادية مثل ماذا تأكل غدا أو حلمت ليلة امس حلما غريبا او رائحةالياسمين تملأ جو السطح ، كلمة من هنا ... كلمة من هناك .. واقتراح يعلن ورأي يبسط . في هدوء وحلم غريبين ، ثم تعزية باسمة ، وتشجيع كأنه الدعابة . ثم تغير الحديث وتشعب ، انتهى كل شيء ، وأدرج في التاريخ الذي تنزل عنه الاسرة للنسيان ، أين قلبها من هذا كله ؟! ... لا قلب لها ، لا يتصور وجوده احد ، لا وجود له ، في الواقع ، ما أشد غربتها ، ضائعة مفقودة ، ليسوا منها وليست منهم ، وحيدة منبوذة مقطوعة الصلات ، ولكن كيف تنسى أن كلمة واحدة لو جاد بها لسان أبيها ، كانت تكفي لتغيير وجه الدنيا وخلقها خلقا جديدا ؟! ... كلمة واحدة لا اكثر ، لا تزيد عن لفظة «نعم» ثم تحدث المعجزة ، لم تكن لتكلفه الا عشر ما تكلف من جهد في المناقشة

الطويلة التي انتهت الى الرفض ولكن لم تجر بذاك مشيئته ، وارتضى لهـا هذا العذاب كله • ومع انها كانت متألمة حانقة ساخطة الا أن ألمها وحنقهـا وسخطها وقفت عند شخص ابيها وارتدت عنه خائبة ارتداد الوحش الهائج اذا اعترضه مروضه ، الذي يحبه ويخافه ، لم يسعها ان تحمل عليه ، ولو في أعماق سريرتها ، وظل قلبها على ولائه وحبه فلم تضمر له الا الاخلاص والوفاء كأنه اله لا يجوز ان تقابل قضاءه الا بالتسليم والحب والوفـاء ••

شدت الصغيرة ذاك المساء حبل اليأس حول عنقها الرقيق فآمن قلبها المتفتح بأنه نضب وأجدب الى الابد ، وضاعف من توتر اعصابها الـدور الذي صممت على ان تمثله بينهم • دور البشر واللامبالاة وما سامته نفسها من المشاركة في سمرهم حتى ناء هامتها الذهبية بحملة ، وانقلبت الاصوات في اذنيها وقرا ، فما جاء وقت الانسحاب الى حجرة النوم حتى مضت فـي اعياء كالمرضى ، وهناك في أمن من ظلمة الحجرة تجهم وجهها لاول مـرة وعكس صورة صادقة من قلبها •••

بيد انه لحق بها رقيب ــ خديجة ــ أيقنت من بادىء الامر انتصنعها لن يجدي معها شيئا وقد تحامت في المجلس نظراتها أما الان ــ اذا جلست اليها ــ فلا مهرب منها ولا مفر • وتوقعت ان تهجم الفتاة على الموضـوع بعنادها المعروف ، وانتظرت تسلل صوتها الى أذنيها بين لحظة واخـرى ، ورحب قلبها بالحديث ، لا لأنه سيبعث رجاء جديدا ، ولكن لانها املت وراء الاعتذار والحرج اللذين ستعلنهما الفتاة صادقة حتما شيئا من العزاء ولم يطل بها الانتظار فما لبث ان جاءها الصوت يشق الظلمة قائلا :

ــ عائشة ، اني حزينة آسفة ، ولكن علم الله لا حيلة لي ، وكم وددت لو تواتيني الشجاعة ، فأرجو أبي أن يعدل عن رأيه •••

وتساءلت عما وراء هذا الكلام من صدق أو رياء منفعلة بثورة حنـق ثارت بها لدى سماع النبرات الاسيفة مباشرة ، ولكنها اضطرت الى العودة الى استعارة النبرات التي ظلت تتحدث بها في مجلس أمها فقالت :

ــ فيم الحزن والاسف ، ما أخطأ أبـي وما ظلم ولا داعي للعجلة !••

ــ هذه ثاني مرة يؤجل زواجك بسببي •

ـ لست آسفة مطلقا ...

فقالت خديجة بلهجة ذات مغزى :

ـ ولكن هذه المرة غير المرة الاولى ...

أدركت الفتاة ما وراء هذه الكلمات بسرعة البرق ، فخفق قلبها خفقان اللوعة والحسرة . وبكي وجدا وحبا ، ذلك الحب الكامن يثأر بالاشارة تجيئه من الخارج عفوا او قصدا كما يثار الجرح أو الدمل باللمس والشك، وهمت بالكلام ولكنها أمسكت مضطرة لان انفاسها لم تسعفها فخافت ان تفضحها نبراتها ، وعند ذاك تنهدت خديجة قائلة :

ـ لهذا تجدينني في غاية الحزن والاسف ، ولكن ربنا كريم ، وما شدة الا وبعدها الفرج ، فعسى ان ينتظر ويصبر ويكون من نصيبك بالرغم مما بـدا ...

وهتفت جوارحها :

« يا ليت »

أما لسانها فقـال :

ـ سيان عندي ، الامر أبسط مما تظنين ...

ـ أرجو أن يكون كذلك ... اني جد حزينة وآسفة يا عائشة ..

وفتح الباب فجأة وبدا شبح كمال في الشعاع الخافت الذي تسلل من فرجة الباب فصاحت به خديجة في ضيق :

ـ لماذا جئت ؟ وماذا تريد ؟

فقال الغلام بصوت يشي باحتجاجه على سوء مقابلتها له :

ـ لا تنهريني ... وافسحي لي ..

ووثب الى الفراش وركع بينهما . ثم دس يدا الى واحدة ويدا الى الاخرى ، وراح يدغدغهما . ليهيىء لحديثه جوا طيبا غير الجو الذي انذرت به نهرة خديجة ، ولكنهما تثرنا يديه ، وقالتا بصوتين متتابعين :

ـ آن لك ان تنام ، فاذهب ونم ..

ولكنه هتف في غيظ :

ـ لن أذهب حتى أعرف ما جئت اسأل عنه !

ـ عم تسأل في هذه الساعة من الليل ؟
فقال مغيرا لهجته حتى يستجيبا له :
ـ أريد أن أعرف هل تتركان بيتنا اذا تزوجتما ؟
فصاحت به خديجة :
ـ انتظر حتى يجيء الزواج !
فتساءل في عنـاد :
ـ ولكن ما هو الزواج ؟
ـ كيف اجيبك وانا لم اتزوج ... اذهب ونم الله لا يسيئك .
ـ لن أذهب حتى أعرف ...
ـ يا حبيبي توكل على الله وفارقنا ...
فقال بصوت حزين :
ـ اريد ان اعرف هل تغادران البيت اذا تزوجتما ؟
فقالت في ضجر :
ـ نعم يا سيدي ...ماذا تريد ايضا ؟
فقال في جزع :
ـ اذن لا تتزوجا ... هذا ما أريد ..
ـ سمعا وطاعـة ...
فعاد يقول في احتجاج ثائر :
ـ انا لا اطيق أن تذهبا بعيدا عنا وسأدعو الله الا يزوجكما ..
فهتفت :
ـ من فمك لباب السما .. عال .. عال .. ربنا يكرمك . تفضـل فارقنا مع السلامة .

★ ★

سرى في البيت شعور بأنه يستقبل من حياته المرهقة بالتزمت يـوم راحة يستطيع ـ اذا شاء ـ ان يستروح فيه نسمة من الحرية البريئة فـي أمن من الرقيب ، فظن كمال انه غدا في حل من ان يقطع اليوم كله في اللعب داخل البيت او خارجه ، وتساءلت خديجة وعائشة الا يمكن ان تتسلا مساء

الى بيت مريم لقضاء ساعة في لهو ومرح ؟ لم تجيء هذه الراحة نتيجة لانقضاء شهور الشتاء الكالحوحلول بشائر الربيع ملوحة بالدفء والبشاشة اذ ليس من شأن الربيع ان يهب هذه الاسرة حرية يحرمها اياها الشتاء ، ولكنها جاءت نتيجة طبيعية لسفر السيد احمد الى بورسعيد في مهمةتجارية تدعوه كل عدة اعوام الى السفر يوما او بضع يوم ، واتفق ان سافر الرجل صباح الجمعة فجمعت العطلة الرسمية بين افراد الاسرة .. وتجاوبت رغباتهم الظمأى الى الحرية في الجو الطليق الآمن الذي خلقهعلى غير انتظار رحيل الاب عن القاهرة كلها ، بيد أن الام وقفت من رغبة الفتاتين وجماح الغلام وقفة المتردد ، لانها كانت تحرص على ان تواظب الاسرة علىسيرتها المألوفة ، وان تلتزم — في غياب الاب — الحدود التي تلتزمها في حضوره خوفا منمخالفته اكثر منها اقتناعا بوجاهة شدته وصرامته ،ولكنها ما تدري الا وياسين يقول لها :

— لا تعارضي بالله ... اننا نحيا حياة لا يحياها احد من الناس ، بل أريد أن أقول شيئا جديدا ... لماذا لا تروحين عن نفسك انت ؟! ... ما رأيكم في هذا الاقتراح ؟!

وتطلعت اليه الاعين في دهشة ولكن أحدا لم ينبس بكلمة ، ولعلهم — كأمهم التي رمته بنظرة تأنيب — لم يحملوا قوله محمل الجد . الا أنه استطرد قائلا :

— لماذا تنظرين الي هكذا ؟! ... لم أخطيء في البخاري ، وليس ثمة جريمة والحمد لله ،ما هو الا مشوار قصير ترجعين منه وقد القيت نظرة على جزء صغير من الحي الذي عشت فيه اربعين عاما دون ان ترى منه شيئا ..

فتنهدت المرأة متمتمة :

— سامحك الله ..

فقهقه الشاب قائلا :

— علام يسامحني ؟ ... هل اقترفت ذنبا لا يغتفر ؟. والله لو كنت مكانك لمضيت من توي الى سيدنا الحسين ... سيدنا الحسين الا تسمعين ؟ ... حبيبك الذي تهيمين به على البعد وهو قريب ، قومي انه

يدعوك اليــه ...

وخفق قلبها خفقانا لاحت آثاره في احمرار وجهها فخفضت رأسهـــا لتخفي تأثرها الشديد ، انجذب قلبها الى الدعاء بقوة تفجرت في نفسها فجأة على غير انتظار لا منها ولا من أحد ممن حولها حتى ياسين نفسه ، كأنهـا زلزال قد وقع بأرض لم تعرف الزلازل ، فلم تدر كيف استجاب قلبهـــا للنداء ، ولا كيف تطلع بصرها الى ما وراء الحدود المحرمة ، ولا كيـف تراءت المغامرة ممكنة بل مغرية بل طاغية ، أجل بدت زيارة الحسين عذرا قويا ــ له صفة القداسة ــ للطفرة اليسارية التي نزعت اليها ارادتها ،ولكنها لم تكن وحدها التي تمخضت عنها نفسها اذ لبت دعاءها في الاعماق تيارات حبيسة متلهفة على الانطلاق كما تلبي الغرائز المتعطشة للقتال نداء الدعاء الى الحرب بحجة الدفاع عن الحرية والسلام. ولم تدر كيف تعلن استسلامها الخطير ولكنها نظرت الى ياسين وسألته بصوت متهدج :

ــ زيارة الحسين منية قلبي وحياتي .. ولكن .. ابوك ؟

فضحك ياسين قائلا :

ــ أبي في طريقه الى بور سعيد ولن يعود قبل ضحى الغد ، وبوسعك ــ زيادة في الحيطة ــ ان تستعيري ملاءة ام حنفي اللف حتى اذا اتفــق ان رآك احد وانت تغادرين البيت او وانت تعودين اليه ظنك زائرة ..

ورددت عينيها بين الابناء في خجل وتهيب كأنها تنشد المزيد مـــن التشجيع ، فتحمست خديجة وعائشة للاقتراح ، وكأنهما تعبران بحماسهما عن رغبتهما الحبيسة في الانطلاق ، وفرحتهما بزيارة مريم التي باتت ــ بعد هذا الانقلاب ــ في حكم المقرر ، وهتف كمال من اعماق قلبه :

ــ سأذهب معك يا نينة لادلك على الطريق ...

وحدجها فهمي بنظرة عطف آثاره في نفسه ما طالعه في وجهها البريء من سرور حائر كسرور الطفل اذا مني بلعبة جديدة فقال لها في تشجيـــع واستهانـــة :

ــ ألقى نظرة على الدنيا . لا عليك من هذا فاني أخاف ان تنسي المشي من طول لزومك للبيت .. !

وفي فورة الحماس جرت خديجة الى أم حنفي ثم عادت بملاءتهـا ،

وتزاحمت الاصوات بالضحك والتعليق ، فغدا اليوم عيدا سعيدا لا عهد لاحد به ، واشترك الجميع ــ وهم لا يدرون ــ في الثورة على ارادة الاب الغائب ، والتفت الست أمينة في الملاءة واسدلت البرقع الاسود على وجهها، ثم نظرت في المرآة فلم تتمالك من ان تضحك طويلا حتى اهتز جذعها ، وارتدى كمال بدلته وطربوشه وسبقها الى فناء البيت ، ولكنها لم تتبعه . ركبها شعور الرهبة الذي يلازم المواقف الفاصلة فرفعت عينيها الى فهمي وتساءلت :

ــ ما رأيكم ، هل أذهب حقا ؟

فصاح بها ياسين :

ــ توكلي على الله ...

وتقدمت منها خديجة . ووضعت يدها على منكبها ودفعتها برفق وهي تقول :

ــ الفاتحة امانة ..

ولم تزل تدفعها حتى اوصلتها الى السلم ، ثم رفعت يدها فنزلت المرأة والجميع في أعقابها .. ووجدت أم حنفي في انتظارها ، فالقت الخادم على سيدتها ــ أو بالحري على الملاءة الملتفة بها ــ نظرة فاحصة ، ثم هزت رأسها هزة انتقادية ، وتقدمت منها وأعادت لف الملاءة حول جسمها وعلمتها كيف تمسك بطرفها في الوضع المناسب ، فانقادت لها سيدتها التي كانت ترتدي الملاءة اللف لاول مرة ، وعند ذاك ارتسمت ملامح قامتها وقدها في تفصيل وسيم ، تخفيه عادة جلابيبها الفضفاضة ، فألقت خديجة عليها نظرة اعجاب باسمة وغمزت بعينها لعائشة واغرقتا في الضحك ..

ولاقت وهي تعبر عتبة الباب الخارجي الى الطريق لحظة دقيقة جف لها ريقها فضاع السرور في نوبة القلق ووطأة الاحساس بالذنب ، وتحركت في بطء وهي قابضة على يد كمال بحال عصبية ، وبدت مشيتها مضطربة مخلخلة كانها عاجزة عن مبادىء المشي الاولية ، الى ما اعتراها من حياء شديد ، وهي تتعرض لاعين الناس الذين عرفتهم من عهد بعيد من وراء خصاص المشربية ــ عم حسنين الحلاق . ودرويش بائع الفول والفولي

اللبان وبيومي الشرباتلي وابو سريع صاحب المقلى ــ حتى توهمت انهم سيعرفونها كما نعرفهم ــ أو لانها تعرفهم ــ ووجدت مشقة في تثبيت حقيقة بديهية في رأسها وهي ان عينا منهم لم تقع عليها مدى الحياة ، وعلى تلك الحال عبرا الطريق الى درب قرمز لانه وان يكن اقصر الطرق الى جامع الحسين الا انه كان لا يمر ــ كطريق النحاسين ــ بدكان السيد فضلا عن خلوه من الدكاكين وانقطاع المارة عنه الا فيما ندر ، وتوقفت لحظة قبل ان توغل فيه ، والتفتت صوب المشربية فرأت شبحي ابنتيها وراء ضلفة منها بينما رفعت ضلفة اخرى عن وجهي ياسين وفهمي الباسمين ، فاستمدت من منظرهما شجاعة استعانت بها على ارتباكها ، ثم جدت في السير ــ هي وغلامها ــ يقطعان الدرب المقفر في شيء من الطمأنينة ، لم يغب عنها القلق ولا الاحساس بالذنب ولكنهما تراجعا الى حاشية الشعور الذي احتلت مركزه عاطفة استطلاع حماسية نحو الدنيا التي يتراءى لها درب من دروبها وميدان من ميادينها وغرائب من مبانيها وعديد من اناسها . ووجدت سرورا ساذجا لمشاركة الاحياء في الحركة والانطلاق ، سرور من قضت ربع قرن سجينة الجدران ما عدا زيارات معدودات لامها في الخرنفش ــ بضع مرات في العام ــ تقوم بها داخل حنطور بصحبة السيد فلا تسعفها الشجاعة حتى لاستراق النظر الى الطريق .. وجعلت تسأل كمال عما يصادفهما في طريقهما من مشاهد وابنية واماكن ، والغلام يحدثها في اسهاب مزهوا بدور المرشد الذي يقوم به ، فهذا قبو قرمز المشهور الذي يجب ــ قبل الدخول فيه ــ تلاوة الفاتحة ، وقاية من العفاريت التي تسكنه ، وهذا ميدان بيت القاضي باشجاره الباسقة وكان يسميه ميدان « ذقن الباشا » مطلقا عليه اسم الزهر الذي يعلو اشجاره او يسميه احيانا اخرى « ميدان شنجرلي » ساحبا عليه اسم بائع الشيكولاته التركي ، اما هذا البناء الكبير فهو قسم الجمالية ، ومع ان الغلام لم يجد به ما يستحق اهتمامه سوى السيف المدلى من وسط الديدبان الا ان الام القت عليه نظرة مليئة لحب الاستطلاع الخليق بمكان يقيم به الرجل الذي سعى الى طلب يد عائشة ، حتى بلغا مدرسة خان جعفر الاولية ، التي قضى بها عاما قبل التحاقه بمدرسة خليل اغا الابتدائية ،

فاشار الى شرفتها الاثرية وهو يقول : « في هذه الشرفة كان الشيخ مهدي يلصق وجوهنا بالجدار لاقل هفوة ، ويركلنا بحذائه خمسا او ستا أو عشرا كما يحلو له » ، ثم أومأ الى دكان تقع تحت الشرفة مباشرة وقال بلهجة لم يغب عنها مغزاها وهو يتوقف عن السير « وهذا عم صادق بائع الحلوى » ثم لم يقبل التزحزح عن موضعه حتى اخذ قرشا وابتاع به ملبنا احمر . انعطفا بعد ذلك الى طريق خان جعفر ولاح لهما عن بعد جانب من المنظر الخارجي لجامع الحسين . يتوسطه شباك عظيم الرقعة محلى بالزخارف العربية ، وتعلوه فوق سور السطح شرفات متراصة كأسنة الرماح ، فتساءلت والبشر يسجع في صدرها « سيدنا الحسين ؟ » ولما أجابها بالايجاب مضت تقارن بين المنظر الذي تقترب منه ــ وقد حثت خطاها لاول مرة مذ غادرت البيت ــ وبين الصورة التي خلقها خيالها له مستعينا في خلقه بنماذج من الجوامع التي في متناول بصرها كجامع قلاوون وبرقوق فوجدت الحقيقة دون الخيال ، لانها كانت تنفخ في الصورة طولا وعرضا على قدر يناسب منزلة صاحب الجامع من نفسها ، بيد أن هذا الاختلاف بين الحقيقة والخيال لم يكن ليؤثر شيئا في فرحة اللقاء التي ثملت بها جوانحها . وداروا حول الجامع حتى الباب الاخضر ودخلا في زحمة الداخلات . ولما وطئت قدما المرأة ارض المسجد شعرت بأن بدنها يذوب رقة وعطفا وحنانا ، وأنها تستحيل روحا طائرا يرفرف بجناحيه في سماء يسطع بجنباتها عرف النبوة والوحي فاغرورقت عيناها بالدمع الذي أسعفها للترويح عن جيشان صدرها وحرارة حبها وايمانها وأريحية امتنانها وفرحها ، وراحت تلتهم المكان بأعين شيقة مستطلعة ، جدرانه وسقفه وعمده وابسطته ونجفه ومنبره ومحاريبه ، والى جانبها كان كمال ينظر الى هذه الاشياء من ناحية أخرى خاصة به ترى ان الجامع يكون مزارا للناس في النهار والهزيع الاول من الليل ، وبيتا من بعد ذلك لصاحبه الشهيد يذهب فيه ويجيء مستعملا ما فيه من اثاث على نحو ما يستعمل المالك ملكه ، فيطوف بأرجائه ويصلي في المحراب ويرتقي المنبر ويعلو النوافذ ليشرف على حيه المحيط ، وكم تمنى حالما لو ينسونه في الجامع بعد ان يغلق ابوابه فيمكنه أن يلقى الحسين

وجها لوجه وان يمضي في حضرته ليلة كاملة حتى الصباح وتخيل ما يخلق به أن يقدمه له عند اللقاء من آي الحب والخضوع وما يجدر به أن يلقيه عند قدميه من أمانيه ورغباته وما يرجوه بعد ذلك عنده من العطف والبركة تخيل نفسه وهو يقترب منه خافض الرأس فيسأله الشهيد برقة «من أنت؟» فيجيبه وهو يقبل يده « كمال أحمد عبد الجواد » ويسأله عن عمله فيقول له « تلميذ ــ ولن ينسى أنتنويه بتفوقه ــ بمدرسة خليل آغا » ويسأله عما جاء به في هذه الساعة من الليل فيجيبه بأنه حب آل البيت عامة والحسين خاصة ، فيبسم اليه عطفا ، ويدعوه الى مرافقته في تجواله الليلي ، وعند ذاك يبوح له بأمانيه جملة قائلا : « اضمن لي أن ألعب كما أشاء داخل البيت وخارجه ، وأن تبقى عائشة وخديجة في بيتنا الى الابد ، وأن تغير طبع أبي ، وأن تمد في عمر أمي الى ما لا نهاية ، وان آخذ من المصروف قدر كفايتي . وان ندخل الجنة جميعا بغير حساب » ... هذا وتيار الزائرات الزاحف في بطء يدفعهما رويدا حتى وجدا نفسيهما في مثوى الضريح ، طالما تلهفت اشواقها على زيارة هذا المثوى كما تتلهف على حلم يستحيل تحقيقه في هذه الدنيا ، ها هي تقف بين اركانه ، بل ها هي لصق جدران الضريح نفسه ، تشرف نفسها عليه خلال الدموع ، وتود لو تتريث لتتملى مذاق السعادة لولا شدة ضغط الزحام ، ومدت يدها الى الجدران الخشبية ، واقتدى كمال بها ، ثم قرأ الفاتحة ، ومسحت بالجدران وقبلتها ولسانها لا يني عن الدعاء والتوسل ، ودت لو تقف طويلا أو تجلس في ركن من الاركان لتعيد النظر والتأمل ثم لتعيد الطواف ، ولكن خادم المسجد وقف للجميع بالمرصاد ، لا يسمح لواحدة بالتلكؤ ويحث المتباطئات ، ويلوح منذرا بعصاه الطويلة ، وهو يدعو الجميع الى اتمام الزيارة قبل حلول ميعاد صلاة الجمعة ، ارتوت من المنهل العذب ولكنها لم تطفىء ظمأها ، وهيهات أن يروي لها ظمأ ، لقد هاج الطواف حنينها فتفجرت عيونه وسال وزخر ولن يزال ينشد المزيد من القرب والابتهاج ، ولما وجدت نفسها مرغمة على مغادرة المسجد انتزعت نفسها منه انتزاعا ، واودعته قلبها وهي توليه ظهرها ، ثم مضت حسرى يعذبها شعورها بانها تودعه الوداع الاخير ، بيد ان ما

طبعت عليه من قناعة واستسلام آخذها على ما استسلمت له من الحزن فردها الى تملي ما ظفرت به من سعادة طاردت بها هواجس الفراق، ودعاها كمال الى مشاهدة مدرسته فمضيا اليها في نهاية شارع الحسين ، ووقفا عندها مليا ، ولما أرادت الرجوع من حيث أتت انذره ذكر العودة بانتهاء الرحلة السعيدة مع أمه التي لم يحلم بمثلها من قبل فأبى التفريط فيها واستمات في الدفاع عنها فاقترح عليها أن يسيرا في السكة الجديدة حتى الغورية ، ولكي يقضي على المقاومة التي بدت في صورة تقطيبية باسمة من وراء البرقع حلفها بالحسين فتنهدت ، واستسلمت ليده الصغيرة ، ومضيا يشقان طريقهما في زحمة شديدة وبين تيارات متلاطمة من السائرين في جميع الجهات مما لم تجد عشر معشاره في الطريق الهادىء الذي جاءت منه فعلاها الارتباك ، واخذت تفقد نفسها في اضطراب شامل ، ولم تلبث ان شكت اليه ما تلقى من عناء واعياء ، ولكن تهالكه على اتمام الرحلة السعيدة جعله يصم أذنيه عن شكاتها ويشجعها على مواصلة السير ويلهيها عن متاعبها بلفت نظرها الى الدكاكين والعربات والمارة ، وهما يقتربان في بطء شديد صوب منعطف الغورية ، وعند ذاك المنعطف لاحت لناظريه دكان فطائر فسال لعابه وثبتت عيناه عليها لا تتحولان وراح يفكر في وسيلة لاقناع امه بالدخول الى الدكان وابتياع فطيرة ، وبلغا الدكان وهو لا يزال يفكر ، ولكنه ما يدري الا وامه تفلت من يده فالتفت نحوها متسائلا فرآها وهي تسقط على وجهها وقد ندت عنها آهة عميقة ، واتسعت عيناه في ذهول ورعب دون ان يبدي حراكا ولكنه على ذهوله ورعبه رأى بجانب عينه — في نفس الوقت تقريبا — سيارة تفرمل محدثة صوتا عنيفا ومرسلة وراءها ذيلا من الدخان والغبار فكادت تدوس الملقاة لولا ان انحرفت عنها مقدار شبر ، وتعالى صياح وحدثت ضجة وهرع الناس الى المكان من جميع نواحي الطريق كما تهرع الصبية الى صفارة الحاوي فضربوا حولها حلقة غليظة بدت أعينا مستطلعة ورؤوسا مشرئبة وألسنة تهتف بكلام اختلطت اسئلته بأجوبته ، وأفاق كمال من الصدمة بعض الشيء فراح يردد عينيه بين أمه الملقاة عند قدميه وبين الناس في حال ناطقة بالخوف والاستغاثة ثم

ارتمى على ركبتيه الى جانبها ووضع كفه على منكبها وناداها بصوت تفتتت نبراته بحرارة الرجاء ولكنها لم تستجب له فرفع رأسه مقلبا عينيه في وجوه الناس ، ثم صرخ باكيا في نحيب حار علا على الضجة التي تكتنفه حتى كاد يسكتها وتطوع البعض لمواساته بكلمات لا معنى لها ، وانحنى اخرون فوق امه مستطلعين بنظرات كمنت وراءها رغبتان ، تنشد احداهما السلامة للضحية ، وتنزع الاخرى — في حال اليأس من السلامة — الى ان ترى الموت — ذلك الحتم المؤجل — وهو يطرق بابا غير بابهم ، وينتزع روحا غير روحهم كأنهم يودون ان يقوموا بشبه بروفا آمنة لاخطر دور قضى عليهم جميعا ان يختموا الحياة بلعبة ، وصاح احدهم قائلا « صدمها باب السيارة الايسر في ظهرها » وقال السائق الذي غادر السيارة ووقف مختنقا بجو الاتهام الذي يطبق عليه « لقد انحرفت عن الطوار بغتة فلم استطع ان اتفادى من صدمها ،ولكني فرملت بسرعة فجاءت الصدمة خفيفة، ولولا رعاية الله لدستها » •• وجاء صوت من المحدقين اليها قائلا « ما زالت تتنفس •• أغمي عليها فقط » وعاد السائق يقول وقد لمح الشرطي قادما يترنح سيفه بجنبه الايسر « انها صدمة خفيفة ••• لم تتمكن منها ابدا •• انها بخير •• بخير يا جماعة والله ••• » •••• ثم انتصبت قامة اول رجل تقدم لفحصها وقال كأنما يلقي خطبة « ابتعدوا لا تمنعوا الهواء •• فتحت عينيها •• بخير •• بخير والحمد لله !•• » كان يتكلم بابتهاج لا يخلو من زهو كأنه هو الذي رد اليها الحياة ، ثم تحول الى كمال الذي غلبه بكاء عصبي فاسترسل فيه في انفعال لم تجد معه مواساة المواسين ، تحول اليه وربت على خده بحنان وقال له « حسبك يا بني ••• أمك بخير •• انظر •• هلم ساعدني على اقامتها » •• ولكن كمال لم يمسك عن البكاء حتى رأى أمه تتحرك فمال نحوها ووضع يسراها على كتفه ، وعاون الرجل على اقامتها حتى امكن بجهد شديد ان تقف بينهما في اعياء وخور وقد سقطت عنها الملاءة التي امتدت بعض الايدي لتعيدها الى موضعها — بقدر الامكان — حول كتفيها ، ثم قدم لها الفطائري الذي وقعت الحادثة امام دكانه مقعدا فأقعدوها عليه وجاءها بقدح من الماء فتجرعت جرعة سال نصفها

على عنقها وصدرها فمسحت بيدها على صدرها بحركة عكسية وهي تزفر زفرة عميقة ، وجعلت تردد انفاسا مضطربة بصعوبة وتنظر في وجوه المحدقين بها في ذهول وهي تتساءل « ماذا جرى ؟ ... ماذا جرى؟ .. رباه لماذا تبكي يا كمال ؟! » وعند ذاك اقترب الشرطي منها وسألها « هل بك سوء يا سيدتي ؟ وهل تستطيعين السير الى القسم ؟ » فصدم اسم «القسم» عقلها فرجّها من الاعماق وهتفت بفزع « لماذا أذهب الى القسم ؟ ... لا أذهب الى القسم ابدا » فقال لها الشرطي « لقد صدمتك السيارة فأوقعتك، فاذا كان بك سوء وجب ان تذهبي انت وهذا السائق الى القسم لتحرير المحضر » ولكنها قالت وهي تلهث «كلا .. كلا .. لن أذهب .. أنا بخير» فقال لها الشرطي « توكدي مما تقولين ، انهضي وامشي لنرى ان كان اصابك سوء » ، ولم تتردد عن النهوض ــ مدفوعة بالفزع الذي أثارهذكر القسم ــ فنهضت وأصلحت ملاءتها ثم سارت تحت الاعين المستطلعةوكمال الى جانبها ينفض عن الملاءة ما علق بها من تراب ، ثم قالت للشرطي وهي ترجو ان تنتهي هذه الحال المؤلمة بأي ثمن « اني بخير ... (ثم مشيرة الى السائق) ... دعوه ... لا شيء بي » لم تعد تشعر بخور فيما ركبها من خوف ، هالها منظر الناس المحدقين بها ، خاصة الشرطي الذي يتقدمهم ، وارتعدت تحت وقع النظرات المصوبة نحوها من كل مكان متحديةباستهانة بالغة تاريخا طويلا من التستر والتخفي فتخايلت لعينيها فوق هذا الجمع صورة السيد وكأنها تتفرس في وجهها بعينين باردتين متحجرتين منذرتين بما لا تطيق تصوره من الشر ، فلم تأل أن قبضت على يد الغلام واتجهت به صوب الصاغة فلم يعترض سبيلها احد وما غيبهما منعطف الطريق حتى شهقت من الاعماق وخاطبت كمال وكأنما تخاطب نفسها « يا ربي ماذا حدث ؟ ماذا رأيتيا كمال ؟ كأنه حلم مفزع ، خيل الي أني أهوى من عل الى هاوية مظلمة ، وان الارض تدور تحت قدمي ، ثم غبت عن كل شيء حتى فتحت عيني على ذاك المنظر المخيف ، رباه .. هل أراد حقا أن يذهب بي الى القسم ؟! يا لطيف يا رب ... يا منجي يا رب ، متى نبلغ بيتنا ؟! بكيت كثيرا يا كمال لا عدمت عينيك ابدا ... جفف عينيك بهذا المنديل

حتى تغسل وجهك في البيت ••• آه » •

وتوقفت عن السير بعد أن أوشكا ان يطويا طريق الصاغة .واعتمدت بيدها على منكب الغلام وقد تقلص وجهها ، فرفع كمال وجهه اليها منزعجا وسألهـا :

ـ ماذا بك ؟

فاغمضت عينيها وهي تقول بصوت ضعيف :

ـ اني تعبة ، تعبة جدا ، لا تكاد تحملني قدمـاي أدع أول عربـة تصادفك يا كمـال •••

ونظر كمال فيما حوله فلم ير الا عربة كارو واقفة عند باب مستشفى قلاوون فنادى الحوذي الذي بادر الى سوق العربة حتى وقف بها امامهما واقتربت الام منها متكئة على كتف كمال ثم صعدت الى سطحها بمعاونته واعتمادا على منكب الحوذي الذي وطأه لها حتى تربعت وهي تتنهد فـي اعياء شديد ، وجلس كمال الى جانبها ثم وثب الحوذي الى المقدمة ونخس الحمار بقبضة سوطه فمشى مشيته الوئيدة والعربة تترنح وراءه مطقطقة •• وتأوهت المرأة متمتمة « ما أشد ألمي ، عظام كتفي تتفكك » هذا وكمـال يرمقها في جزع وقلق •• ومرت العربة في طريقها بدكـان السيـد دون أن يعيرها التفاتا ، ومضى كمال يتطلع الى الامام حتى لاحت لعينيه مشربيات البيت ••• لم يعد يذكر من الرحلة السعيدة الا نهايتها المحزنة •••

★ ★

فتحت أم حنفي الباب فأذهلها ان ترى سيدتها متربعة على عربة كارو، وقد ظنت لاول وهلة انه ربما يكون قد خطر لها ان تختم رحلتها بجولة في العربة على سبيل اللهو فلاحت على وجهها ابتسامة ولكن الى لحظة قصيرة اذ ما لبثت ان رأت عيني كمال المحمرتين من البكـاء فارتدت عيناهـا الى سيدتها في انزعاج واستطاعت هذه المرة ان تلمس ما تعاني من اعياء وألم فندت عنها آهة وهرعت الى العربة هاتفة « ستي ، مالك ، بعد الشر عنك » فقال الحوذي « تعب بسيط ان شاء الله ،عاونيني على انزالها» وتلقتها المرأة بين ذراعيها ، وسارت بها الى الداخل وتبعهما كمال واجما محزونا ، وكانت

خديجة وعائشة قد غادرتا المطبخ وانتظرتا في الفناء وكلتاهما تفكر في دعابة تلقي بها القادمين فما راعهما الا ان تطلع عليهما أم حنفي من الدهليز الخارجي وهي تكاد تحمل الام حملا فندت عنهما صرخة ، وهرعتا اليهما فزعتين وهما تهتفان :

ــ نينة .. نينة .. مالك !

وتعاونوا جميعا على حملها ، ولم تكف خديجة في اثناء ذلك عن أن تسأل كمال عما حدث حتى اضطر الغلام الى أن يغمغم في خوف بالغ :

ــ سيارة !

ــ سيارة !

هكذا هتفت الفتاتان معا مرددتين الاسم الذي وقع من نفسيهما موقعا مفزعا فاق الاحتمال . فولولت خديجة هاتفة « يا خبر اسود ... بعد الشر عنك يا نينة » اما عائشة فانعقد لسانها واقحمت في البكاء ، ولم تكن الام غائبة عن الوجود وان كانت من الاعياء في نهاية فهمست على اعيائها رغبة في تسكين اضطرابهما :

ــ اني بخير ، لم يحدث سوء ، ما بي الا تعب .

وتناهت الضجة الى ياسين وفهمي فخرجا الى رأس السلم ، واطلا من فوق الدرابزين وما لبثا ان نزلا مهرولين منزعجين وهما يتساءلان عما حدث ، ولم تملك خديجة الا أن تشير الى كمال ليجيب بنفسه مشفقة من ترديد الاسم الرهيب فاتجه الشابان الى الغلام الذي عاد يغمغم بحزن وارتباك :

ــ سيارة !

ثم انتحب باكيا ، وتحول الشابان عنه مؤجلين ما يلح عليهما من أسئلة الى حين ، وحملا الام الى حجرة الفتاتين واجلساها على الكنبة ثم سألها فهمي قلقا معذبا :

ــ خبريني عما بك يا نينة ، أريد أن أعرف كل شيء ...

ولكنها مالت برأسها الى الوراء ولم تنبس بكلمة ريثما تسترد انفاسها على حين علا بكاء خديجة وعائشة وام حنفي وكمال حتى فقد فهمي أعصابه

فثار بهن ونهرهن حتى امسكن • ثم جذب كمال اليه ليستجوبه عما يريد ، كيف وقع الحادث ، وماذا فعل الناس بالسائق ، وهل أخذوكما الى القسم، وكيف كان حال الام في اثناء ذلك كله ، هذا وكمال يجيبه على اسئلته بلا تردد وفي اسهاب • وعن اكثر التفاصيل ، وكانت الام تتابع الحديث بالرغم من وهنها فلما سكت الغلام استجمعت قواها وقالت :

ــ اني بخير يا فهمي ، لا تزعج نفسك ، كانوا يريدون ان اذهب الى القسم فرفضت ، ثم واصلت السير حتى نهاية الصاغة وهناك خارت قواي فجأة ، لا تنزعج ، سأسترد قواي بعد راحة قصيرة •••

الا أن ياسين عانى ــ الى انزعاجه للحادث ــ حرجا شديدا لانه كان المسئول الاول عن الرحلة المشئومة ــ بهذا وصفت بعد الحادث ــ فاقترح عليهم ان يستدعوا طبيبا ، وغادر الحجرة لتنفيذ اقتراحه دون انتظار لمعرفة رأي الاخرين ، وارتعدت الام لذكر الطبيب كما ارتعدت من قبل لذكر القسم فرجت فهمي ان يلحق بأخيه وان يثنيه عن عزمه مؤكدة له بانها ستبرأ دون حاجة الى طبيب ولكن الشاب رفض الاذعان لرجائها مبينا لها اوجه الفائدة المنوطة بمجيئه ، وفي اثناء ذلك تعاونت الفتاتان على نزع الملاءة عنها وجاءتها ام حنفي بقدح ماء ثم احاطوا بها جميعا وهم يتفحصون بقلق وجهها الذي علاه الشحوب ويسألونها مرارا وتكرارا عما تجد ، وهي تحاول ما استطاعت ان تتظاهر بالهدوء أو تقنع بان تقول اذا ألح عليها الالم « ثمة ألم خفيف في كتفي اليمنى » ثم تستدرك قائلة « ولكن لم يكن من داع لاستدعاء طبيب » ، والحق انا لم ترتح لاستدعائه ابدا ، لانها من ناحية لم تلق طبيبا قط ــ لا لحصانة صحتها فحسب ــ ولكن لانها نجحت دائما في مداواة ما يلم بها من توعك او انحراف بطبعها الخاص فلم تؤمن بالطب الرسمي ، الى انه اقترن في ذهنها بالحوادث الخطيرة والخطوب الفادحة ، ومن ناحية اخرى فقد شعرت بان استدعاء الطبيب من شأنه أن يهول الامر الذي تود له الستر والطي قبل عودة السيد •• ولم تأل ان افصحت لابنائها من مخاوفها • ولكنهم لم يهتموا في تلك اللحظة الدقيقة الا بشيء واحد ، هو سلامتها •••

ولم يغب ياسين اكثر من ربع ساعة لان عيادة الطبيب كانت في ميدان بيت القاضي ، ثم عاد يتقدم الرجل الذي دخل الى الام حال حضوره ، واخليت الغرفة فلم يبق بها معه الا ياسين وفهمي ، وسأل الطبيب الام عما تشكو فاشارت الى كتفها اليمنى وقالت وهي تزدرد ريقها الذي جف من الخوف :

ـ انني اشعر هنا بألم ..

وعلى هدى اشارتها ، الى ما حدثه به ياسين في الطريق عن الحادث جملة ، تقدم لفحصها ، وطال وقت الفحص في شعور الشابين المنتظرين في الداخل ، وشعور المنتظرات وراء الباب مرهفات السمع خافقات القلب ، وتحول الطبيب عن المصابة الى ياسين قائلا :

ـ كسر في الترقوة اليمنى ، هذا كل ما هنالك .

واحدثت « لفظة الكسر ارتياعا في الداخل والخارج ، وعجب الجميع لقوله « هذا كل ما هنالك » كأن وراء الكسر شيئا يتسع له احتمالهم ، على انهم وجدوا في ذات التعبير ،واللهجة التي ألقى بها ما يغري بالطمأنينة فتساءل فهمي وهو بين الخوف والامل ...

ـ وهل هو شيء خطير .. ؟

ـ كلا البتة ، سأعيد العظم الى سابق موضعه واشده ولكن عليها ان تنام بضع ليال وهي قاعدة مسندة الظهر الى وسادة لانه سيتعذر عليها ان تنام على الظهر او الجنبين ، وسوف يجبر الكسر وتعود الى ما كانت عليه في ظرف اسبوعين أو ثلاثة على الاكثر ، لا داعي للخوف مطلقا .. والان دعوني أعمل ...

ومهما يكن من امر فقد استروحوا نسمة سلام بعد ان جفت منهم الحناجر ، وبدا هذا الاثر واضحا بين الجماعة خارج الحجرة فتمتمت خديجة :

ـ فلتحل بها بركة سيدنا الحسين الذي ما خرجت الا لزيارته ..

وكأنما تذكر كمال بقولها امرا هاما أنسيه طويلا فقال بدهشة :

ـ كيف أمكن ان يقع لها هذا الحادث بعد تبركها بزيارة سيدنا

الحسين ؟

ولكن أم حنفي قالت ببساطة :

ـ ومن أدرانا بما كان يحدث لها ـ والعياذ بالله ـ لو لم تتبرك بزيارة سيدها وسيدنا ؟

ولم تكن عائشة قد افاقت من اثر الصدمة فضاق صدرها بالحديث وهتفت برجاء حار :

ـ آه يا ربي متى ينتهي كل شيء كأنه لم يكن ! ..

وعادت خديجة تقول بأسف وحسرة :

ـ ما الذي ذهب بها الى الغورية ؟! لو رجعت بعد الزيارة الى البيت مباشرة لما حدث لها الذي حدث ! ..

فدق قلب كمال خوفا وانزعاجا وتجسم ذنبه لعينيه جريمة نكراء ولكنه حاول التملص من الشبهات فقال بلهجة تنم عن لوم :

ارادت ان تتمشى في الطريق وعبثا حاولت ان اثنيها عن ارادتها ..

فحدجته خديجة بنظرة اتهام وهمت بالرد عليه وكأنها امسكت اشفاقا وعطفا على وجهه الذي علاه الاصفرار ، ثم قالت لنفسها « حسبنا ما نحن فيه الان » ...

وفتح الباب وغادر الطبيب الحجرة وهو يقول للشابين اللذين تبعاه:

ـ ينبغي أن اعودها يوما بعد يوم حتى يجبر الكسر ، وكما قلت لكما لا داعي للخوف مطلقا ..

واقتحم الجميع الحجرة فرأوا أمهم قاعدة في الفراش ، مسندة الظهر الى وسادة مكسورة وراءها ولم يكن ثمة تغيير الا ارتفاع في كتف الفستان فوق منكبها الايمن وشي بالرباط الذي تحته ، فهرعوا اليها وهتفوا :

ـ الحمد لله ...

كم اشتد بها الالم والطبيب يعالج الكسر فأنت أنينا متواصلا ، ولولا ما طبعت عليه من حياء لصرخت عاليا ، ولكن زايلها الان الالم ، أو هكذا بدا ، وشعرت براحة نسبية وسكينة ، بيد ان زوال حدة الالم مكنت لعقلها من استئناف نشاطه فاستطاعت ان تفكر في الموقف من مختلف نواحيه

وما لبث أن ركبها الخوف فقالت متسائلة وهي تردد بينهم بصرا زائغا :
ـ ما عسى أن أقول لابيكم اذا رجع ؟

اعترض هذا السؤال ـ ساخرا متحديا ـ نسمـات الطمـأنينة التي سكنوا اليها كما تعترض الصخور الناتئة سبيل سفينة آمنة ، على انه لـم يجيء مفاجأة لوعيهم ، بل لعله اندس في زحمة المشاعر الاليمة التي روت بها قلوبهم لدى ارتطامها بالخبر ولكنه ضاع في زحمتها فتأجل حسابه الى حين ، الآن عد عاد ليحتل الصدارة من نفوسهم ، فلم يجـدوا مهربـا من مواجهته ، ورأوا بحق أنه أشد عليهم وعلى أمهم من الاصابة التي خرجت منها وشيكة الشفاء . وشعرت الام ـ للصمت الذي قوبل به سؤالهـا ـ بعزلة المذنب اذا تخطى عنه رفاقه حين انكشاف تهمتـه فتمتمت بنبرات شاكيـة :

ـ سيعلم حتما بالحادث ، وسيعلم اكثر من هذا بخروجي الذي أدى اليـه ..

ومع أن ام حنفي لم تكن دون افراد الاسرة قلقا ولا أقل ادراكـا لخطورة الموقف الا انها أرادت ان تقول كلمة طيبة . تلطيفا للجو من ناحية، ولانها كانت تشعر من ناحية أخرى بأن الواجب يقضي عليها ـ كخادم الاسرة القديمة الامينة ـ بألا تلوذ عند الشدائد بالصمت أن يظن بها عدم اكتراث، فقالت وهي أدرى بعد قولها عن الواقع :

ـ اذا علم سيدي بما وقع لك فلن يسعه الا ان يتناسى هفوتك حامدا الله على نجاتك ...

وقوبل قولها بالاهمال الذي يستحقه عند قوم لا تخفى عليهم من حقيقة الموقف خافية ، الا أن كمال آمن به ، وقال متحمسا وكأنه يتم كـلام أم حنفـي ...

ـ خصوصا اذا قلنا له ان خروجنا كان لزيارة سيدنا الحسين ..

ورددت المرأة عينيها الخابيتين بين ياسين وفهمي وتساءلت :

ـ ما عسى أن أقول له ؟

فقال ياسين الذي هاضته شدة مسؤوليته :

ـ أي شيطان ضلني حين نصحت لك بالخروج ، كلمة جرت على لساني وليتها ما جرت ، ولكن هكذا شاءت الاقدار لترمي بنا في هذا المأزق الاليم ، على أنني اقول لك بأننا سنجد ما نقوله • وأيا كان الامر فلا ينبغي ان تشغلي فكرك بما سيكون ، دعي الامر لله ، وحسبك ما قاسيت في يومك من آلام ومخاوف ••

تكلم ياسين بحماس وعطف معا ، فصب سخطه على نفسه ، وعطف على الام عطف المتألم لحالها ، ومع ان كلامه لم يقدم ولم يؤخر الاأنه روح عن شعوره الضيق بالحرج ، وافصح به في نفس الوقت عما عساه يدور في عقول بعض ـ أو كل ـ من يقفون الى جانبه فأغناهم عن الافصاح عنه بأنفسهم اذ أن التجربة علمته بأنهأحيانامايكونالسبيلخير السبيلللدفاععن هو في الهجوم عليها وأن الاعتراف بالذنب يغري بالصفح بقدر ما يغري الدفاع عنه بالغضب ، وكان أخوف ما يخاف أن تنتهز خديجة الفرصة السانحة لتحمله جهارا مسؤولية ما أدت اليه مشورته وتتخذها سبيلا الى مهاجمته فسبقها الى غرضها قاطعا عليها الطريق ، ولم يكذب ظنه فالحق ان خديجة كانت على وشك ان تطالبه ـ بصفته المسؤول الاول عما وقع ـ بان يجد لهم مخرجا ، فلما أن ألقى خطابه استحيت من مهاجمته خاصة وأنها لا تهاجمه عادة الا على سبيل النقار لا الكراهة ، بذلك تحسن موقفه بعض الشيء ولكن الموقف العام بقي على سوئه ، وظل كذلك حتى خرجتخديجة من صمتها قائلة :

ـ لماذا لا ندعي انها سقطت على السلم ؟

فتطلعت اليها أمها بوجه يتهلف على النجاة من أي سبيل ، وقلبته بين فهمي وياسين وقد لاحت بعينيها لمعة أمل ،بيد أن فهمي تساءل فيحيرة:

ـ والطبيب ؟ •• سيعودها يوما بعد يوم وسيقابل أبي بالضرورة ••

ولكن ياسين أبى ان يغلق الباب الذي تسللت منه نسمة أمل حرية بأن تستنقذه من آلامه ومخاوفه فقال :

ـ تتفق مع الطبيب على ما ينبغي ان يقال لابي ؟

وتبودلت النظرات بين التصديق والتكذيب ، ثم شاع في الوجوه

البشر للاحساس المشترك بالنجاة وتغير الجو القاتم الى جو بهيج كما تبدو وسط السحاب المكفهر فجوة زرقاء على غير انتظار فتنداح بمعجزة عجيبة حتى تشمل القبة السماوية في دقـائق معدودات ثم تضيء الشمس . قـال ياسين وهو يتنهـد :

ــ نجونا والحمد لله ...

فقالت خديجة بعد أن استعادت في الجو الجديد نشاطها المألوف :

ــ بل نجوت أنت يا صاحب المشورة ..

فقهقه ياسين حتى اهتز جسمه الضخم وقال :

ــ أجل نجوت من عقرب لسانك ، طالما توقعت ان تمتـد الي بيـن حين وآخر لتلسعني ..

ــ ولكنها هي التي أنقذتك ، ومن أجل الورد يسقي العليق ..

كادوا ينسون في فرحة النجاة أن أمهم طريحة الفـراش مكسـورة الترقوة . ولكنها هي نفسها كادت أن تنسى ..

★ ★

فتحت عينيها فوقع بصرها على خديجة وعائشة جالستين على الفراش عند قدميها رانيتين اليها بعينين يتنازعهما الخوف والرجاء ، فتنهدت ثـم التفتت صوب النافذة فرأت خصاصها ينضـح بضوء الضحـى فتمتمت كالمستغربة :

ــ نمت طويـلا ..

فقالت عائشة :

ــ ساعات معدودة بعد أن طلع عليك الفجر دون ان يغمض لك جفن، يا لها من ليلة لن أنساها مهما امتد بي العمـر ...

وعاودتها ذكريات الليلة الماضية مـن الارق والالم فنطقـت عيناهـا بالرثاء ــ لنفسها وللفتاتين اللتين سهرتا الى جانبها طوال الليل يبادلانهـا الالم والارق ــ وتحركت شفتاها وهي تستعيذ بالله بصوت غير مسمـوع ثم همست قائلة فيما يشبه الحياء ..

ــ شد ما أتعبتكما ..

فقالت خديجة بلهجة توحي بالدعابة :

ــ تعبك راحة ، ولكن اياك وأن تعودي الى ارعابنا •• (ثم بنبرات غلبها التأثر) ••• كيف هاجمك ذاك الالم المخيف ؟! •• لقــد حسبتــك استغرقت في النوم وأنت على أحسن حال ، واستلقيت لانام بدوري •واذا بي استيقظ على أنينك ، ثم لم تمسكي عن آه •• آه •• حتى مطلع الفجر•

وتهلل وجه عائشة بالتفاؤل وهي تقول :

ــ على أي حال أبشري ، لقد أخبرت فهمي عن حالك حين سألني عن صحتك في الصباح فقال لي ان الالم الذي انتابك دليل على أن العظــم المكسور كان آخذا في الالتئام ••

وجذبها اسم فهمي من لجة أفكارها فتساءلت :

ــ ذهبوا بسلامة الله ؟

فقالت خديجــة :

ــ طبعا ، كانوا يودون محادثتك ليطمئنوا عليك بأنفسهم ولكني لــم أسمح لاحد بأن يوقظك من النوم الذي لم تدخليه حتى شيبتنا •••

فتنهدت الام في استسلام :

ــ الحمد لله على كل حال ، ربنا يجعل العواقب سليمة ••• في أي وقت نحن الان •••

فقالت خديجة :

ــ كلها ساعة ويؤذن الظهر ••

ودعاها تأخر الوقت الى ان تخفض عينيها متفكرة ثم رفعتهما فــاذا بهما تعكسان نظرة قلق ، وتمتمت :

ــ لعله الان في الطريق الى البيت •••

وأدركتا من تعني ، ومع أنهما شعرتا بدبيب الخوف في قلبيهما الا ان عائشة قالت بثقــة :

ــ أهلا به وسهلا ، لا داعي للقلق ، اتفقنا على ما ينبغــي أن يقــال وانتهى الامــر ••

ولكن اقتراب عودته اشاع في نفسها المهزولة القلق فتساءلت :

ـ ترى هل يمكن التستر على ما وقع ؟
فقالت خديجة بصوت ارتفعت حدته بنسبة قلقها المتزايد :
ـ ولم لا ؟ ... سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمر الامر بسلام .
تمنت في تلك الساعة لو بقي ياسين وفهمي الى جانبها ليشجعاها ،تقول خديجة سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمر الامر بسلام ، ولكن هل يظل ما وقع سرا مغلقا الى الابد ... ألا تجد الحقيقة فرجة تنفذ منها الى الرجل؟ .. كم تخاف الكذب بقدر ما تخاف الحقيقة ، ولا تدري أي مصير يتربص بها .. ورددت عينيها بعطف بين الفتاتين وفتحت فاها لتتكلم حين دخلت أم حنفي مهرولة وهي تقول بصوت مهموس كأنها تخاف ان يسمع خارج الحجرة :
ـ سيدي جاء يا ستي ...
وخفقت قلوبهن في اضطراب . وجلت الفتاتان عن الفراش في وثبة واحدة ثم وقفتا حيال أمهما يتبادلن جميعا النظر صامتات حتى غمغمت الام.
ـ لا تتكلما أنتما فاني أخاف عليكما مغبة مخادعته ، اتركا لي القول والله المستعان ...
وساد صمت مشحون بالتوتر كالصمت الذي يركب أطفالا في الظلام اذا قرع آذانهم وقع أقدام من يظنونهم عفاريت يجوسون في الخارج ،حتى ترامى اليهن وقع أقدام السيد على السلم وهي تقترب فأزاحت الام كابوس الصمت بمشقة وغمغمت ...
ـ اذا تركناه صعد الى حجرته لم يجد احدا ؟! ..
ثم التفت صوب أم حنفي قائلة :
ـ أخبريه بأنني هنا ، مريضة ، ولا تزيدي ..
وازدردت ريقها الجاف ، أما الفتاتان فمرقتا من الحجرة مستبقتين وغادرتاها وحيدة ،ووجدت نفسها وكأنها فيعزلة عن العالم كله فاستسلمت للمقادير ، وكثيرا ما يبدو هذا الاستسلام في سلوكها ـ الاعزل من كل سلاح ـ كأسلوب من أساليب الشجاعة السلبية ، واستجمعت فكرها لتتذكر ما يجب قوله بيد أن الشك في سلامة تدبيرها لم يزايلها قط وكمن في أعماق شعورها معلنا عن ذاته بحال من القلق والتواتر وتبدد الثقة

وجاءها وقع طرف عصاه على ارض الصالة فغمغمت « رحمتك يـا رب وعونك » ثم تطلع بصرها الى الباب حتى اعترضه جسمه الطويل العريض، ورأته وهو يدخل مقتربا ملقيا عليها نظرة متفحصة من عينيه الواسعتيـــن حتى وقف في منتصف الحجرة وهو يتساءل بصوت خالته رقيقا على غيـــر عـــادتـــه :

ــ مالك ؟ ...

فقالت وهي تغض بصرها :

ــ حمدا لله على سلامتك يا سيدي ، بخير ما دمت بخير ..

ــ لكن أم حنفي قالت لي انك مريضة ...

فأشارت بيسراها الى كتفها اليمنى وقالت :

ــ أصيب كتفي يا سيدي لا أراك الله سوءا .

فتسائل الرجل وهو يتفرس في كتفها باهتمام وقلق :

ــ ماذا أصابه ؟

حم الامر ، وجاءت الدقيقة الفاصلة ، ما عليـــها الا أن تتكلـــم ، أن تنطق بكذبة النجاة ، فتمر الازمة بسلام وتستزيد من العطف المتاح ،ورفعت عينيها وهي تتوثب ، فالتقت عيناها بعينيه ، أو بالاحرى عيناها في عينيه ، فاشتد وجيبقلبها ،وتتابع بلا رحمة ، هناكتبخر ما جمعتهفي رأسهامن رأي، وانتشر ما كنلته في ارادتها من عزم ، ورمشت عيناها في أضطراب وذهول ، ثم رنت اليه بطرف حائر دون ان تنبس بكلمة ، وعجب السيد لاضطرابهـــا فتعجلها متسائلا :

ــ ماذا حدث يا أمينة ؟!

لا تدري ماذا تقول ، كأنه ليس لديها ما تقوله ولكن بات في حكـــم اليقين انه لم يعد بوسعها ان تكذب ، أفلتت الفرصة دون ان تدري كيف ، ولو انها اعادت المحاولة لخرجت من صدرها مبتورة مكشوفة ، كانت كمن يسير وهو منوم تنويما مغناطيسيا على حبل اذا دعى الى اعادة مخاطرتـــه وهو صاح ، وكلما مرت الثواني غاصت في الارتباك والهزيمة حتى أشفـــت على اليأس .. .

ـ لماذا لا تتكلمين ؟ ...

ها هي لهجته بدأت تنم عن نفاذ صبر ولا يبعد ان تقعقع قريبا بالغضب، رباه لشد ما هي في حاجة الى العون ، أي شيطان أغواها بتلك الخرجة المشؤومة ...

ـ عجبا ألا تريدين أن تتكلمي ؟! ..

وبات السكوت فوق طاقتها فتمتمت بصوت متهدج مدفوعة باليأس والقهر ...

ـ أخطأت خطأ كبيرا يا سيدي ... صدمتني سيارة ..

واتسعت عينا السيد دهشة ولاح فيها انزعاج مقرون بالانكار ... وكأنه بات يشك في صحة قواها العقلية ، ولم تعد المرأة تحتمل التردد وصممت على ان تبوح باعترافها كاملا مهما تكن العواقب ، كمن يقدم ـ مغامرا بحياته ـ على اجراء عملية جراحية خطيرة ليتخلص من آلام داء لا قبل له به ، وتضاعف عند ذاك شعورها بفداحة الذنب وخطورة الاعتراف فدمعت عيناها وقالت بصوت لم تعن باخفاء نبراته الباكية اما لانه غلبها على صوتها او لانها ارادت ان تبذل محاولة يائسة لاستدرار العطف ..

ـ ظننت ان سيدنا الحسين يدعوني الى زيارته فلبيت .. ذهبت للزيارة .. وفي طريق العودة صدمتني سيارة ... قضاء الله يا سيدي ... ولقد نهضت من سقطتي دون معاونة احد (قالت العبارة الاخيرة بوضوح) ولم أشعر باديء الامر بأي ألم فحسبتني بخير وواصلت السير حتى عدت الى البيت ، وهنا تحرك الالم فأحضروا لي الطبيب ففحص كتفي وقرر أن به كسرا ووعد بأن يعودني يوما بعد يوم حتى يجبر الكسر ، لقد أخطأت خطأ كبيرا يا سيدي وجوزيت عليه بما أستحق ... والله غفور رحيم ..

أنصت السيد اليها صامتا جامدا ، لم تتحول عنها عيناه ، ولم يبد في وجهه اثر مما يعتلج في صدره على حين نكست هي رأسها في تخشع بحال من ينتظر النطق بالحكم ، وطال الصمت ، واشتد ، وشاع في جوه المقبض نذر الخوف والوعيد ، وتحيرت من أمره لا تدري عن أي قضاء يتمخض ولا الى اي مصير يقذف بها ، حتى جاءها صوته وهو يقول في هدوء غريب:

ـ وماذا قال الطبيب ؟ ••• هل ثمة خطر على الكسر ؟ ••

فالتفت رأسها صوبه بذهول ••• أجل توقعت كل شيء الا ان يجود بهذا القول اللطيف ، ولولا رهبة الموقف لاستعادته لتتوكد من صحه ما سمعت ، وغلبها التأثر فطفرت من عينيها دمعتان غزيرتان فشدت على شفتيها أن تفحم في البكاء ، ثم غمغمت في ذل وانكسار :

ـ قال الطبيب انه لا داعي لخوف مطلقا ، نجاك الله من كل سوء يا سيدي • •

وقف الرجل بعض الوقت وهو يقاوم رغبة تدعوه الى المزيد من السؤال حتى تغلب عليها فتحول عن موقفه ليغادر الحجرة وهو يقول :

ـ الزمي فراشك حتى يأخذ الله بيدك ••

★ ★

هرعت خديجة وعائشة الى الحجرة بعد ذهاب والدهما ، ووقفتا حيال أمهما تنظران اليها بعينين مستطلعتين تنطق نظراتهما بالاهتمام والقلق • ثم لاحظتا احمرار عينيهما من أثر البكاء ، فوجمتا وتساءلت خديجة وقد استشعر قلبها الخوف والتشاؤم :

ـ خير ان شاء الله ؟ ••

فلم تعد الام ان قالت باقتضاب وهي ترمش بعينيها ارتباكا :

ـ اعترفت له بالحقيقة •••

ـ الحقيقة ! •••

ـ الحقيقة ! •••

فقالت باستسلام :

ـ لم يسعني الا الاعتراف ، فما كان من الممكن ان يخفى الامر عليه الى الابد وحسنا فعلت •••

فدقت خديجة صدرها بيدها وهتفت :

ـ يا نهارنا الاسود •••

على حين بهتت عائشة فحملقت في وجه أمها دون ان تنبس بكلمة ، ولكن الام ابتسمت فيما يشبه الزهو المقرون بالحياء ، وتورد وجهها

الشاحب وهي تستعيد ذكرى العطف الذي شملها به حين لم تكن تتوقع منه الا غضبا كاسحا يعصف بها وبمستقبلها ... أجل شعرت بزهو وحياء وهي تتهيأ للحديث عن عطف السيد عليها في محنتها وكيف نسي غضبه فيما اعتراه من تأثر واشفاق ، ثم غمغمت بصوت لا يكاد يسمع :

ـ كان بي رحيما أطال الله عمره ، أنصت الى قصتي صامتا ، ثم سألني عن رأي الطبيب في خطورة الكسر وغادرني وهو يشير على ان الـزم الفراش حتى يأخذ الله بيدي ...

وتبادلت الفتاتان النظرات في دهشة وعدم تصديق ولكن زايلهمـا الخوف سريعا فتنهدتا في ارتياح عميق واضاء وجهاهما بالبشر ، وهتفت خديجة :

ـ أرأيت بركة الحسين ؟

وقالت عائشة بخيلاء :

ـ لكل شيء حدود حتى غضب بابا ، ما كان يسعه ان يغضب وهـو يراها على هذه الحال ، الان عرفنا قيمتها عنده ... (ثم مخاطبة امها فـي دعابة) ... يا لك من أم محظوظة ، هنيئا لك بالتكريم والعطف !

فعاود وجه الام التورد وقالت بتلعثم وحياء :

ـ أطال الله عمره (ثم متنهدة) والحمد لله على النجاة !

وتذكرت أمرا فالتفتت الى خديجة وقالت باهتمام :

ـ يجب ان تلحقي به لانه سيحتاج الى خدمتك حتما ..

وشعرت الفتاة ـ لما يركبها في محضر أبيها من الارتباك والاضطراب ـ كأنها وقعت في شرك ، فقالت محتدة :

ـ ولماذا لا تذهب عائشة ؟!

ولكن الام قالت في عتاب :

ـ أنت أقدر على خدمته ، لا تتلكئي يا شابة اذا ربما يكون في حاجة اليـك الان ...

وكانت تعلم ان احتجاجها لن يغني عنها شيئا كما لا يغني عنها عـادة كلما دعيت الى اداء واجب ترى الام انها اقدر عليه من اختها ، ولكنهـا

اصرت على اعلانه كما تصر عادة على اعلانه في أمثاله من المواقف ،مدفوعة بأعصابها السريعة الالتهاب ، وجريا مع نزعتها العدوانية التي تجد من لسانها اطوع أداة وأحدها ، ثم لتحمل أمها على اعادة القول بأنها « اقدر على كيت وكيت من عائشة » كاقرار من أمها وانذار لشقيقتها وعزاء لها هي نفسها ، والحق أنه لو حدث ان عهدت الام بواجب من هذه الواجبات « الخطيرة » لعائشة دونها لثارت ثورة اشد ولحالت بينها وبينه ، ما دامت تجد ــ في أعماق قلبها ــ أن القيام بهذه الواجبات حق من حقوقها وامتياز لها كامرأة جديرة بالمكانة التالية لامها في البيت ، ولكنها أبت في الوقت نفسه ان تعترف جهارا بأنها تمارس ــ بالقيام بها ــ حقا من حقوقها ولكن واجبا ثقيلا تقبله مضطرة ، حتى تدعى اليه ــ اذا دعيت ــ في حرج من الداعي ، ولتحتج عليه ــ اذا احتجت ــ في غضب يروح عن نفسها ، ولتسمع بالمناسبة التعليق الذي تود ، ثم ليحسب لها بعد ذلك كله جميلا تستحق من أجله الشكر ! ... ولذلك غادرت الحجرة وهي تقول :

ــ في كل مأزق تنادين خديجة ، كأنه لا يوجد امامك غير خديجة ، ماذا تصنعين لو لم أكن موجودة !

ولكن خيلاءها تخلى عنها بمجرد مغادرتها للحجرة وحلت محله رهبة واضطراب فعجبت كيف يتأتى لها ان تمثل بين يدي الرجل ، وكيف تقوم على خدمته ، وماذا تلقى منه اذا تلجلجت او أبطأت أو أخطأت ؟! على أن السيد كان قد خلع ملابسه وارتدى جلبابه بنفسه ، ولما وقفت بالباب تسأله عما هو في حاجة اليه أمرها بان تصنع له فنجان قهوة ، فبادرت تعدها ثم قدمتها له خافضة العينين خفيفة الخطى من الخوف والحياء .. ورجعت الى الصالة فمكثت بها لتكون رهن اشارته اذا دعاها فلم يفارقها احساس الرهبة حتى تساءلت كيف يا ترى يمكنها ان تواصل خدمته طوال الساعات التي يقضيها في البيت يوما بعد يوم حتى تنقضي الاسابيع الثلاثة ؟! ... وبدأ لها الامر شاقا حقا وأدركت لاول مرة خطورة الفراغ الذي تسده امها في البيت فدعت لها بالشفاء ،حبا فيها من ناحية ورحمة بنفسها من ناحية اخرى.

ومن سوء حظها ان السيد شعر برغبة في الراحة عقب تعب السفر فلم

يذهب الى الدكان كما كانت تأمل ، واضطرت تبعا لذلك ان تبقى في الصالة كالسجينة ، وفي اثناء ذلك صعدت عائشة الى الدور الاعلى لتريها الصالة كالسجينة ، وفي اثناء ذلك صعدت عائشة الى الدور الاعلى وتسللت الى الصالة حيث تجلس اختها دون ان تحدث صوتا لتريها اياها وهي تغلي من الغيظ اذ كان مما يحنقها اشد الحنق ان يعابثها احد بالمزاح وان لذ لها هي أن تعابث الجميع بمزاحها ؛ ولم تسترد حريتها — الى حين طبعا — الا عندما اسلم السيد جنبه للنوم فطارت الى أمها وانشأت تحدثها عما قدمت لابيها من خدمات حقيقية ووهمية وتصف لها ما قرأت في عينيه من آي العطف والتقدير لخدماتها ! .. ولم تنس ان تعرج على عائشة فتنهال عليها بالزجر والتوبيخ على ما بدا منها من تصرف صبياني . ثم عادت الى الأب بعد استيقاظه فقدمت له الغداء ولما فرغ الرجل من غدائه جلس يراجع بعض الاوراق وقتا غير قصير ثم دعاها اليه وطلب اليها ان تبعث له بياسين وفهمي بمجرد رجوعهما الى البيت ...

وقلقت الام للطلب وخافت ان يكون قد حز في نفس الرجل غضب مكظوم وأنه يروم الان — في الشابين — متنفسا عن غضبه ، ولما جاء ياسين وفهمي وعلما بما كان ثم بلغا أمر ابيهما بمقابلته دار بخاطرهما ما دار بخاطر المرأة من قبل وذهبا الى حجرته وهما يتوجسان خيفة ، ولكن الرجل خيب ظنونهما فقد لاقاهما بهدوء غير معهود وسألهما عن الحادث وظروفه وتقرير الطبيب فحدثاه طويلا بما يعلمان وهو يصغي اليهما باهتمام ، وفي النهاية سألهما :

— اكنتما في البيت حين خروجها ؟

ومع أن هذا السؤال كان متوقعا من بادىء الامر الا انه وقع من نفسيهما — بعد الهدوء العجيب غير المنتظر — موقع الانزعاج فخافا أن يكون مقدمة لتغيير طبقة النغمة التي ارتاحا اليها ارتياح النجاة ، ولم يسعهما الكلام فلاذا بالصمت .. بيد أن السيد لم يلحف في السؤال وكأنه لم يعبأ بسماع الجواب الذي استنتجه مقدما ، أو لعله اراد ان يسجل عليهما الخطأ بلا اكتراث باقرارهما به ... ولم يزد بعد ذلك على ان يشير الى باب الحجرة

آذانا لهما بالانصراف . وعندما مضيا الى الخارج سمعاه يقول مخاطبا نفسه:
ـ ما دام الله لم يرزقني رجالا فليهبني الصبر .
ومع ان الظواهر دلت على ان الحادث قد هز نفس السيد حتى غير المألوف من سلوكه تغيرا دهش له الجميع الا أنه لم يستطع ان يثني ارادته عن قضاء سهرته الليلية التقليدية ! ... فما جاء المساء حتى ارتدى ملابسه وغادر حجرته ناشرا بين يديه شذا طيبا ، الا انه مر في طريقه الى الخارج بحجرة الام وسأل عنها فدعت لهطويلا ممتنة شاكرة ... لم تر في ذهابه الى سهرته ـ وهي طريحة الفراش ـ تجافيا للعطف ، ولعلها وجدت في مروره بها وسؤاله عنها تكريما فاق ما كانت تنتظر ، بل أليس مجرد امتناعه عن صب غضبه عليها منة لم تكن تحلم بها ؟ ... وكان الاخوة ـ قبل مبارحته حجرته ـ قد تساءلوا « ترى هل يعدل الليلة عن سهرته ؟ » ولكن الام اجابت قائلة « ولماذا يبقى بعد ان علم ان الحال مطمئنة ؟! » ولعلها تمنت فيما بينها وبين نفسها لو يتم نعمته عليها فيعدل عن سهرته كما يليق بزوج أصيبت زوجه بما اصيبت هي به ،ولكنها كانت أدرى بطبعه فسبقت بانتحال العذر له حتى اذا انطلق الى سهرته كما تتوقع أمكنها ـ مداراة لموقفها ـ أن تسوغ انطلاقه بالعذر الذي انتحلت لا بقلة الاكتراث؟ ولكن خديجة قالت : « كيف يطيق السهر وهو يراك على هذه الحال ؟ » فاجابها ياسين : « لا عليه اذا فعل،ما دام قد اطمأن عليها ، حزن الرجال غير حزن النساء ، وذهاب الرجل الى سهرته لا يتنافى مع حزنه ، بل لعل التفريج عن نفسه واجب عليه ليتسنى له مواصلة حياته « الشاقة » ولم يكن ياسين يدافع عن أبيه بقدر ما كان يدافع عن رغبته في الانطلاق التي بدأت تتحرك في أعماقه . ا لاأن مكره لم يجز على خديجة فسألته : « هل تطيق انت مثلا أن تسهر في قهوتك الليلة ؟ » فبادرها قائلا وهو يلعنها في سره : « طبعا لا ، ولكن انا شيء وبابا شيء آخر ! »
ولما فارق السيد الحجرة عاودها الشعور بالراحة الذي يعقب النجاة من خطر محقق فتألق محياها بابتسامة وقالت :
ـ لعله رأى أن جزائي كفاف ذنبي فعفا عني ، عفا الله عنه وعنا جميعا .

فضرب ياسين كفا بكف وهو يقول محتجا :

ـ أن رجالا غيورين مثله ، منهم اصدقاء له ، لا يرون بأسا في السماح لنسائهم بالخروج كلما دعت ضرورة او مجاملة ، فما باله يقيم لكن من البيت سجنا مؤبـدا ؟

فلحظته خديجة بهزء وسألته :

لِم لم تلق بدفاعك هذا وأنت بين يديه ؟!

فانقلب الشاب مقهقها حتى ارتجت كرشه ثم اجابها قائلا :

ـ يلزمني مثل انفك اولا كي ادافع به عن نفسي عند الضرورة ..

وتتابعت ايام الرقاد ، فلم يعاودها الالم الذي هصرها اول ليلة وان تهدد جذعها وكتفها الوجع لاقل حركة تـأتيها ، ثم تقدمت نحـو الشفـاء بخطوات سريعة بفضل بنيتها القوية وحيويتها الدافقة التي تكره بطبعهـا السكون والقعود مما جعل الاذعان لاوامر الطبيب مهمة شاقة غطى عذابها على آلام الكسر ابان احتدامها ، ولعلها لولا تشدد الابنـاء في مراقبتهـا لخرقت وصايا الطبيب ونهضت عجلى لامورها .. على ان رقادها لم يمنعها من نشر الرقابة على شؤون البيت من فراشها ، ومراجعة الفتاتين بـدقة متعبة فيما يعهد اليهما به ... خاصة عن دقائق الواجبات التي تخاف عليها الاهمال او النسيان ، فتسأل وتلح في السؤال « هل نفضت اعلى الستائر ؟ ... وخصاص الشبابيك ؟ ... هل بخرت الحمام لابيك ؟. هل سقيـت اللبلاب والياسمين ؟ » الامر الذي أحنق خديجة مرة فقالت لها « اعلمـي انك اذا كنت تعنين بالبيت قيراطا فاني أعنى به اربعة وعشرين » .. والـى هذا كله أورثها تخليها الاجباري عن مركزها المرموق شعورا معقدا عانت منه كثيرا ، فربما تساءلت ترى ألم يفقد البيت ـ أو أحد من أهله ـ بتخليها عنه شيئا من نظامه او راحته ؟! .. وأيهما يا ترى احب اليها ، أن يبقى كـل شيء كما كان بفضل فتاتيها ـ غرس يديها ـ أم ان يختل شيء من توازنه يكون خليقا ان يذكر الجميع بالفراغ الذي خلفته وراءها ؟!. وهب السيد بالذات استشعر هذا الفراغ فهل يكون ذلك مدعاة لتقديره لاهميتها او لسخطه على ذنبها الذي جر هذا كله ؟!.. تحيرت المرأة طويلا بين عاطفتها

المستحيية نحو نفسها وعاطفتها الصريحة نحو فتاتيها ، ولكن المحقق انه لو اختل شيء من النظام لاحدث لها كربا شديدا ، كما انه لو حافظ على كماله كأن لم يطرأ نقص لما خلت من ضيق ...

اما الواقع فهو ان فراغها لم يسده احد ، وأثبت البيت انه اكبر الفتاتين على نشاطهما واخلاصهما ... ولم تسر الام لهذا لا في الظاهر ولا في الباطن ، توارى شعورها نحو ذاتها . ودافعت عن خديجة وعائشة دفاعا حارا صادقا ، ثم ركبها الجزع والالم فلم تعد تطيق صبرا على انزوائها ..

★ ★

وفي فجر اليوم الموعود الذي انتظرته طويلا هبت من الفراش في خفة صبيانية من الفرح كأنها ملك يعود الى عرشه بعد نفي ... ونزلت الى حجرة الفرن متداركة عادتها التي انقطعت عنها ثلاثة اسابيع فنادت أم حنفي، واستيقظت المرأة وهي لا تصدق أذنيها ، ثم نهضت الى سيدتها فعانقتها ودعت لها ، ثم باشرتا عمل الصباح في سرور لا يوصف ، وعند شروق اول شعاع للشمس صعدت الى الدور الاول فتلقاها الابناء بالتهاني والقبل ، ثم مضت الى حيث ينام كمال فأيقظته ، وما فتح الغلام عينيه حتى بهت دهشة وفرحا ، ثم تعلق بعنقها ولكنها بادرت الى التخلص من ذراعيه برقة وهي تقول :

ــ الا تخاف أن ترد كتفي الى ما كانت عليه ؟ ...

فأمطرها قبلا ، ثم ضحك متسائلا في خبث :

ــ متى يا عزيزتي نخرج معا مرة اخرى ؟!

فأجابته بلهجة لا تخلو من عتاب باسم :

ــ عندما يهديك الله فلا تسوقني رغم ارادتي الى الطريق الذي كدت أهلك فيه ... !

وأدرك انها تشير الى عناده الذي كان السبب المباشر فيما وقع لها فضحك ملء فيه ضحك مذنب واتته النجاة بعد أن ظل ذنبه معلقا فوق رأسه ثلاثة اسابيع ، أجل لشد ما خاف أن يجر التحقيق الذي باشره اخوته الى معرفة الجاني المستتر ، وقد اوشكت الريبة التي سلطتها عليه خديجة

حينا وياسين حينا آخر تكشفه في الركن المنزوي فيه لولا صمود أمه في الدفاع عنه وتصديها لتحمل مسؤولية الحادث وحدها ، فلما انتقل التحقيق الى يدي والده تناهى به الخوف وتوقع بين لحظة واخرى ان يدعى الى مقابلته ، هذا الى عذابه ـ طوال الاسابيع الثلاثة ـ وهو يرى امه المحبوبة طريحة الفراش ، شديدة العناء ، عاجزة عن الاستلقاء والنهوض معا ... الان مضى الحادث ومضت في أثره عقابيله ، وانتهى التحقيق ، وعادت أمه توقظه في الصباح ، وسوف تنيمه في المساء ، رجع كل شيء الى أصله ،ونشر الامان الويته ، فحق له أن يضحك ملء فيه وان يهنيء ضميره على الراحة المتاحة ..

وغادرت الام الحجرة فصعدت الى الدور الاعلى ، ولما تدانت من باب حجرة السيد ترامى اليها صوته وهو يردد في صلاته « سبحان ربي العظيم » فخفق قلبها ووقفت على قيد خطوة من الباب كالمترددة ، ثم وجدت نفسها تتساءل « اتدخل لتصبح أو الاجدر أن تعد مائدة الفطور أولا ؟ » لا على سبيل التساؤل حقا ولكن فرارا مما شاع في نفسها من الخوف والخجل ، أو كلهما معا ، كما يقع للانسان أحيانا أن يخلق مشكلة وهمية يلوذ بها من مشكلة راهنة يشق عليه فضها ... ومضت الى حجرة المائدة فاقبلت على العمل بعناية مضاعفة ، الا ان قلقها تزايد ، فلم تنتفع بمهلة التأجيل التي اقتنصتها ، ولم تجدها راحة كما أملت ولكن محنة انتظار اشد عناء من الموقف الذي نكصت عن مواجهته .. وعجبت كيف جفلت من دخول « حجرتها » كأنها كانت تهم بدخولها لاول مرة ، خاصة وان السيد لم ينقطع عن زيارتها يوما بعد يوم في أثناء رقادها ، ولكن ألحق ان برءها رفع عنها الحماية التي ضربها حولها المرض فشعرت بأنها ستلقاه بمفردها لاول مرة مذ كشفت خطيئتها ... ولما جاء الابناء تباعا خفت وحشتها قليلا ، وما لبث ان دخل السيد الحجرة في جلبابه الفضفاض ولكن لم يبد في وجهه اثر لدى رؤيتها ،وقال بهدوء وهو يتجه الى مكانه في المائدة:

ـ جئت .. ؟ (ثم مخاطبا الابناء وهو يتخذ مجلسه) ... اجلسوا .

واخذوا في تناول فطورهم على حين وقفت هي بمكانها المعتاد ، ومع

أن الخوف تناهى بها حال دخوله الا انها مضت تسترد انفاسها بعد ذلك ،اي بعد ان تم أول لقاء بعد الشفاء ومر بسلام ، وشعرت عند ذاك بانها لن تجد مشقة في الانفراد به في حجرته عما قليل .. وانفضت المائدة فعاد السيد الى حجرته . ولحقت به بعد دقائق حاملة صينية القهوة التي وضعتها على الخوان وتنحت جانبا في انتظار فراغه من احتسائها لتساعده على ارتداء ملابسه ... وحسا السيد قهوته في صمت عميق ، لا ذاك الصمت الذي يقع عفوا او كالراحةعقب التعب او كغطاء لصدر فارغ من شؤون الحديث، ولكنه صمت صامت مسربل بالتعمد ، ولم تكن تعدم املا ــ ولو ضعيفا ــ في أن يتعطف عليها بكلمة رقيقة . أو في الاقل ان يلم بشأن من شؤون حديثه المعتاد في مثل هذه الساعة من الصباح ، فحيرها صمته المتعمد وعادت تسائل نفسها ترى الا يزال بنفسه شيء . واخذ القلق ينشب ابره في قلبها مرة اخرى . على ان الصمت الغليظ لم يمتد طويلا .. كان الرجل يفكر في سرعة وتركيز لم يذق معهما طعما ، لاذاك التفكير الذي ينبعث من وحي الساعة، ولكن اخر عنيدا قديما لم يزايل نفسه طوال الايام المنقضية ... واخيرا تساءل دون ان يرفع رأسه عن فنجان القهوة الفارغ :

ــ استردت صحتك ؟

فقالت امينة بصوت خفيض :

ــ الحمد لله يا سيدي ...

فاستطرد الرجل قائلا بمرارة :

ــ اني اعجب ــ وهيهات ان ينتهي لي عجب ــ كيف أقدمت على فعلتك !

فدق قلبها بعنف واطرقت في وجوم ... لم تكن تطيق غضبه وهي تدافع عن خطأ ارتكبه غيرها بها الان وهي المذنبة ! ... وعقل الخوف لسانها ولكنه بانتظار الجواب فواصل حديثه متسائلا في استنكار :

ــ أكنت مخدوعا بك طوال هذه السنين وانا لا ادري ؟!

عند ذاك بسطت راحتيها في جزع وألم وهمست بأنفاس مضطربة :

ــ أعوذ بالله يا سيدي ، ان خطئي كبير حقا ولكني لا استحق هذا

القول ... .

ولكن الرجل واصل حديثه بهدوئه الرهيب الذي يهون الى جانبه الزعيق قائلا :

ـ كيف اقترفت هذا الخطأ الكبير ! ... ألأني ابتعدت عن البلد يوما واحدا ؟!

فقالت بصوت متهدج وشت نبراته بالرجفة التي ملكت جسمها :

ـ اخطأت يا سيدي ، وعندك العفو ، كانت نفسي تتوق الى زيارة سيدنا الحسين ، وحسبت أن زيارته المباركة تشفع لي في الخروج ولو مرة واحدة .

فهز رأسه في شيء من الحدة كأنما يقول « لا فائدة ترجى من الجدال» ثم رفع اليها عينيه متجهما ساخطا وقال بلهجة لا تقبل المراجعة :

ـ ليس عندي الا كلمة واحدة ! غادري بيتي بلا توان ...

هوى امره على رأسها كالضربة القاضية فبهتت لا تنبس بكلمة ولا تستطيع حراكا ، طالما توقعت في اشد اوقات محنتها ـ وهي تنظر عودته من رحلة بور سعيد ـ الوانا من المخاوف ، كأن يصب عليها غضبه أو يصمها بزعيقه وسبابه ، حتى الضرب لم تستبعده ، اما الطرد من البيت فلم يزعج لها خاطرا ، لا لشيء الا انها سكنت الى معاشرته خمسة وعشرين عاما فلم تتصور ان ثمة سببا يمكن ان يفرق بينهما او ينتزعها من البيت الذي صارت جزءا منه لا يتجزأ ... اما السيد فقد تخلص ـ بكلمته الاخيرة ـ من عبء فكر دوخ دماغه طوال الاسابيع الثلاثة المنقضية ... وقد بدأ الصراع في اللحظة التي اعترفت فيها المرأة بخطئها باكية وهي طريحة الفراش ، لم يصدق أذنيه لاول وهلة ، ثم اخذ يفيق الى نفسه والى الحقيقة البغيضة التي تطالعه متحدية كبرياءه وصلفه ، بيد أنه اجل حنقه ريثما يرى ما أصابها ، أو أنه ـ وهو الاصدق ـ لم يسعه ان يفكر فيما تحدى كبرياءه وصلفه لما اعتراه من قلق عميق بلغ حد الخوف والجزع على المرأة التي يألفها ويعجب بمزاياها فعطف عليها عطفا انساه خطأها وسأل الله لها السلامة . انكمش جبروته حيال الخطر المحدق بها واستيقظ ما تنطوي عليه نفسه من حنان

موفور فعاد ــ يومذاك ــ الى حجرته محزونا مكتئبا وان لم يفصح وجهه ... لا امامها ولا أمام أحد من الابناء ــ عن شيء مما يعتلج في صدره .. الا انه مضى يستعيد طمأنينته وهو يراها تتماثل للشفاء بخطى سريعة ثابتة، ومضى بالتالي يعيد النظر الى الحادث كله ــ اسبابه ونتائجه ــ بعين جديدة او بالاحرى بعين قديمة التي اعتاد ان ينظر بها في بيته ،فكان من سوء حظ ــ حظ الام طبعا ــ ان يعيد النظر في هدوء وهو خال الى نفسه ، وان يقتنع بانه اذا غلب العفو ولبى نداء العطف ــ وهو ما نزعت اليه نفسه ــ فقد اضاع هيبته وكرامته وتاريخه وتقاليده جميعا فافلت منه الزمام وانتشر عقد الاسرة التي يأبى الا ان يسوسها بالحزم والصرامة ، وبالجملة لن يكون في تلك الحال احمد عبد الجواد ولكن شخصا اخر لن يرتضي ان يكون ابدا .. أجل كان من سوء الحظ ان يعيد النظر في هدوء وهو خال الى نفسه ،اذ لو اتيح له ان ينفس عن غضبه حين اعترافها لانفثأ حنقه ومر الحادث دون ان يسحب وراءه عواقب خطيرة ، ولكنه لم يسعه الغضب في وقته كما لم يكن مما يرضى كبرياءه ان يعلن غضبه عقب شفائها ــ بعد هدوء دام ثلاثة اسابيع ــ اذ ان هذا الغضب يكون اقرب الى الزجر المتعمد منه الى الغضب الحقيقي ، ولما كانت حساسيته الغضبية تستعر عادة عن طبع وتعمد معا ، ولما كان الجانب الطبيعي منها لم يجد متنفسا في حينه فقد وجب على الجانب المتعمد ــ وقد أتيحت له فرصة من الهدوء لمعاودة التفكير ــ ان يجد وسيلة فعالة لتحقيق ذاته على صورة تتناسب وخطورة الذنب ، هكذا انقلب الخطر الذي تهدد حياتها حينا والذي امنها من غضبه بما أثار من عطفه اداة عقاب بعيدة المدى بما اتاح له من وقت للتدبير والتفكير ... ونهض مقطبا فولاها ظهره مستقبلا ملابسه على الكنبة ثم قال بجفاء :

ــ سارتدي ملابسي بنفسي ..

كانت لم تزل متسمرة في مكانها ذاهلة عما حولها فافاقت على صوته، وسرعان ما ادركت من قوله ووقفته انه يأمرها بالانصراف فاتجهت نحو الباب في خطى لا وقع لها ، وقبل ان تجاوزه ادركها صوته وهو يقول :

ـ لا أحب ان اجدك هنا اذا عدت ظهرا •

خارت قواها في الصالة فارتمت على طرف كنبة وكلماتـه القاسيـة الحاسمة تتردد في باطنها ، ليس الرجل هازلا ، ومتى كان هازلا ؟! ولـم تستطع مبارحة مكانها ـ على رغبتها في الفرار ـ ان يثير نزولها قبل مغادرته البيت على خلاف المألوف ريبة الابناء الذين لا تحب لهم ان يستقبلوا يومهم أو يذهبوا الى اعمالهم متجرعين خبر طردها ، وثمة احساس اخر ـ لعلـه الحياء ـ أقعدها عن أن تلقاهم في ذل المطرود وقررت ان تبقى حيث هـي حتى يغادر البيت ، أو أن تأوى الى حجرة المائدة وهو الافضل حتى لا تقع عليها عيناه اذا مضى الى الخارج فتسللت الى الحجرة كسيرة الفؤاد وقعدت على شلتة ساهمة واجمة • ترى ماذا يعني ؟ •• ايطردها الى حين ام الـى الابد ؟ انها لا تصدق انه ينوي تطليقها • هو أكرم من هذا وانبل ، أجـل انه غضوب جبار ولكن من الاسراف في التشاؤم أن تغيب عنها آي شهامته ومروءته ورحمته • وهل تنسى كيف حزن لحالها حين الرقاد ؟ •• وكيـف عادها يوما بعد يوم مستفسرا عن صحتها ؟ •• مثل هذا الرجـل لا يهون عليه ان يخرب بيتا أو يكسر قلبا أو ينزع أما من بين أبنائها • وجعلت تدير هذه الافكار في رأسها كأنما لتدخل بها بعض الطمأنينة الى نفسها المزعزعة، وألحت في هذا الحاحا ان دل على شيء فعلى ان الطمأنينة لا تريد ان تستقر بنفسها كبعض المرضى الذين يزيدون تغنيا بقوتهم كلما زادوا احساسـا بضعفهم اذ كانت لا تدري ماذا تصنع بحياتها أو ماذا يمكن أن تعني الحياة لها لو خاب الرجاء ونفذ المحذور • وترامى الى أذنيها وقع عصاه على ارض الصالة وهو يمضي خارجا فأطار افكارها وانصتت باهتمام تتابعه حتى غاب• وشعرت عند ذاك بألم جارح لحالها وسخط على الارادة المتحجرة التي لم ترع لضعفها حقا ، ثم نهضت فيما يشبه الاعياء وغادرت الحجرة لتنزل الى الدور الاول فجاءتها عند رأس السلم أصوات الابناء وهم ينزلون تباعـا فمدت رأسها من فوق الدرابزين فلمحت فهمي وكمال وهما يتبعان ياسين الى الباب المفضي الى الفناء ، هنالك غمزت خطرة من الحنان قلبها فأذهلته، وعجبت لنفسها كيف تركتهما يذهبان دون ان تودعهما ، أليست قد تحرم عليها رؤيتهما أياما أو اسابيع ؟وربما لا تراهما مدى العمر الا لماما كالغرباء؟

•• وعاودها غمز الحنان متتابعا وهي بموقفها من السلم لا تريم ، بيد ان قلبها ــ على امتلائه ــ كبر عليه ان يصدق ان يكون هذا المصيــر الاسود نصيبها المقدور ، لايمانها اللانهائي بالله الذي حفظها في وحدتها الغابرة من العفاريت نفسها ، ولثقتها برجلها التي تأبى ان تنهار ، ولانها لم يصبهـــا في حياتها الماضية شر خطير خليق بأن يسلبها الطمأنينة الى الحياة الوادعــة فمالت نفسها الى اعتبار محنتها تجربة قاسية ستمر بها دون ان تنشب فيها، ووجدت خديجة وعائشة مشتبكتين في جدال كعادتهما ولكنهما نزعتا عما كانتا فيه حين رأتا وجومها ونظرة عينيها الخابية ، ولعلهما خافتا أن تكون قد برحت الفراش قبل ان تسترد كامل صحتها فسألتها خديجة في قلق :

ــ ماذا بك يا نينة ؟

ــ لا أدري والله ماذا اقول •• اني ذاهبة ••

ومع ان العبارة الاخيرة جاءت مقتضبة غير محدودة الهدف الا انهـا اكتسبت من نظرتها اليائسة ونبراتها الشاكية معنى حالكا ريعتا له فهتفتامعا:

ــ الى أيــن ؟!

فقالت بانكسار وهي تشفق سلفا من وقع كلامها من أذنيهما بل ومن أذنيها هي نفسها :

ــ الى أمي ••

فهرعتا اليها مذعورتين وهما تقولان :

ــ ماذا تقولين ؟ ••• لا تعيدي هذا القول •• ماذا جرى ؟!

وجدت في فزع فتاتيها عزاء ولكنه كشأنه في مثل هذا الموقف فجــر اشجانها فقالت بصوت متهدج وهي تمانع دموعها :

ــ لم ينس شيئا ولم يعف (رددت هذا بأسى دل على عمق حزنها)•• كان يضمر لي الغضب ويؤجله ريثما ابرأ ، ثم قال لي غادري بيتي بلا توان، وقال لي ايضا لا أحب أن أجدك هنا اذا عدت ظهرا (ثم بلهجة تنم عن عتاب أسيف وخيبة امل) سمعا وطاعة •• سمعا وطاعة •

فصاحت خديجة بحال عصبية :

ــ لا أصدق ، لا أصدق ، قولي قولا آخر •• ماذا جرى للدنيا ؟

وصاحت عائشة بصوت متهدج :
ــ لن يكون هذا أبدا ، أهانت عليه سعادتنا جميعا لهذا الحد ؟!
وعادت خديجة تتساءل في حدة وحنق :
ــ ماذا يقصد ! •• ماذا يقصد يا نينة •
ــ لا ادري ، هذا قوله بلا زيادة ولا نقصان ••
اكتفت اول وهلة بهذا القول ،ولعلها رغبت بالاقتصار عليه انتستزيد من عطفهما وتتعزى بجزعهما ، ولكن غلبها الاشفاق من ناحية والرغبة في طمأنة نفسها من ناحية اخرى فاستطردت قائلة :
ــ لا أظنه يقصد اكثر من ابعاديعنكم اياما عتابا لي على ما فرطمني•
فتساءلت عائشة محتجة :
ــ أما كفاه ما وقع لك ؟!
فتنهدت الام محزونة وغمغمت قائلة :
ــ الامر لله •• يجب الان أن أذهب •••
ولكن خديجة اعترضت سبيلها وهي تقول بصوت مختنق بالبكاء :
ــ لن ندعك تذهبين ، لا تتركي بيتك ، فلا أظنه يصر على غضبه اذا عاد ووجدك بيننا ••
وقالت عائشة برجاء :
ــ انتظري حتى يعود فهمي وياسين • ولن يرضى أبي أن ينتزعك من بيننا جميعا ••
ولكنها قالت فيما يشبه التحذير :
ــ ليس من الحكمة في شيء ان تتحدى غضبه ، فمثله من يلين بالطاعة ويشتد بالعصيان ••
وهمتا بالاعتراض مرة اخرى ولكنها اسكتتهما باشارة من يدها واستطردت قائلة :
ــ لا جدوى من الكلام ، لا بد من الذهاب ، سأجمع ثيابي وأرحل، لا تجزعا ، لن يطول افتراقنا ، وسنجتمع مرة اخرى ان شاء الله ••
وانتقلت المرأة الى حجرتها بالدور الثاني والفتاتان في أعقابها وهما

تبكيان كالاطفال ، وأخذت تخرج ملابسها من الصوان حتى امسكت خديجة بيدها وسألتها بانفعال :

ــ ماذا تفعلين ؟

وشعرت الأم بدموعها تغالبها فامتنعت عن الكلام ان تفضحها نبراتها او تستسلم للبكاء الذي صممت على مقاومته ما دامت بمرأى من ابنتيها ، فأشارت بيدها كأنها تقول « الحال يوجب ان أجمع ملابسي » .

ولكن خديجة قالت بحدة :

ــ لن تأخذي معك الا تغييرة واحدة ... واحدة فقط ..

فندت عنها تنهدة . ودت في تلك اللحظة لو يكون الامر كله حلما مزعجا ، ثم قالت :

ــ أخاف ان تثور ثائرته اذا رأى ملابسي بمكانها .. !

ــ سنحفظها عندنا ..

وجمعت عائشة الثياب الا تغييرة واحدة كما اقترحت أختها فأذعنت الأم لهما في ارتياح عميق كأن بقاء ملابسها في البيت مما يثبت لها حقا في العودة اليه ، ثم جاءت ببقجة وصرت فيها الملابس التي سمح لها بها ، وجلست على الكنبة لتلبس جوربها وحذاءها والفتاتان حيالهما تنظران في حزن ذاهل حتى رق قلبها لهما فقالت متكلفة الهدوء :

ــ سيعود كل شيء الى أصله ، تشجعا حتى لا تستفزا غضبه ، انـي أعهد اليكما بالبيت وآله ولي كل الثقة في كفاءتكما ، ولا شك عندي في انك ستجدين من عائشة كل معاونة ، قوما بما كنا نقوم به معا كما لو كنت معكما ، كلتاكما شابة خليقة بأن تفتح بيتا وتعمره ..

ونهضت الى ملاءتها فارتدتها واسدلت على وجهها البرقع الابيض في تمهل متعمد لتؤجل ما استطاعت اللحظة الاخيرة المعذبة المحيرة ووقفن حيال بعض لا يدرين كيف تكون الخطوة التالية . لم يسعفها صوتها على النطق بكلمة الوداع ، ولم تواتِ احداهما الشجاعة على الارتماء في حضنها كما تود ومرت الثواني محملة بالعذاب والقلق بيد أن المرأة المتجلدة خافت ان يخونها تجلدها فخطت خطوة نحوهما ومالت اليهما فقبلتهما بالتتابع وهي

تهمس :

ـ تشجعا ، ربنا معنا جميعا .

هنالك تعلقتا بها وافحمتا في البكاء ..

وقد غادرت الأم البيت بعينين ذارفتين تراءى الطريق خلال دمعهما وهو يتميع ..

★ ★

طرقت باب البيت القديم وهي تفكر ــ بألم وحياء معا ــ فيما سيحدثه مجيئها مغضوبا عليها من الانزعاج والكدر ، وكان الباب يفتح على عطفه مسدودة متفرعة من شارع الخرنفش تنتهي بزاوية اقيمت بها الصلاة عهدا طويلا ثم هجرت من أعوام لقدمها ولكن بقيت آثارها المتهدمة لتذكرها ــ كلما زارت أمها ــ بطفولتها حين كانت تنتظر ببابها أباها حتى يفرغ من صلاته ويعود اليها ، وحين تمد رأسها داخلها في أويقات الصلاة لتلهو بمنظر الركع السجود ، أو حين تتفرج على بعض أهل الطرق الذين كانوا يجتمعون فيما يليها من العطفة فيضيئون المصابيح ويفرشون الحصر وينشدون الأذكار . ولما فتح الباب أطل منه رأس جارية سوداء في العقد الخامس ، ما أن رأت القادمة حتى تهلل وجهها وهتفت مرحبة بها ، ثم تنحت جانبا لتوسع لها فدخلت امينة ، ولبثت الخادم بموقفها كأنها تنتظر دخول قادم اخر فأدركت أمينة ما تعنيه وقفتها فهمست بامتعاض :

ــ أغلقي الباب يا صديقة .. .

فتساءلت الجارية بدهشة :

ــ ألم يأت السيد معك ؟

فهزت رأسها بالنفي متجاهلة دهشتها ومضت ــ عابرة فناء البيت الذي تتصدره حجرة الفرن وتقع البئر في ركنه الايسر ــ الى سلم ضيق فرقيته الى الدور الاول والاخير . ثم اجتازت دهليز الى حجرة امها ودخلت ، رأت أمها متربعة على كنبة في صدر الحجرة الصغيرة قابضة بكلتا راحتيها على مسبحة طويلة متدلية في حجرها ، متجهة العينين صوب الباب في تطلع أثاره بلا ريب طرق الباب ثم وقع القدمين المقتربتين ، ولما تدانت أمينة منها

تساءلت :

ـ من ‥ ؟

وافتر ثغرها وهي تتساءل عن ابتسامة خفيفة تنم عن البشر والترحاب، كأنما حدست هوية القادم ،فأجابتها امينة قائلة بصوت منخفض من الانقباض الحزن :

ـ أنا أمينة يا أمي …

فالقت العجوز بساقيها الى الارض وتحسست بقدميها موضع الشبشب حتى عثرت عليه فدستهما فيه ووقفت باسطة ذراعيها منتظرة في شوق فرمت أمينة بالبقجة الى طرف الكنبة وانطوت بين ذراعي أمها وهي تقبل جبينها وخديها والاخرى تلثم ما يتفق وقوع شفتيها عليه من الرأس والخد والعنق، ولما انتهى العناق ربتت العجوز على ظهرها بحنان ثم لبثت بموقفها متطلعة صوب الباب وعلى شفتيها ابتسامة تعلن عن ترحيب جديد ، كما فعلت صديقة من قبل فأدركت أمينة للمرة الثانية ما تعنيه هذه الوقفة وقالت بامتعاض واستسلام :

ـ جئت وحدي يا أمي …

فتحول الرأس اليها كالمتسائل ، وتمتمت المرأة :

ـ وحدك ؟! ‥ (ثم مبتسمة ابتسامة متكلفة لتطرد ما انتابها من قلق) سبحان الذي لا يتغيــر .!

وتراجعت الى الكنبة فجلست وهي تتساءل بلهجة افصحت هذه المرة عن قلقها :

ـ كيف الحال ؟ … لماذا لم يحضر معك كعادته ؟

فجلست أمينة الى جانبها وهي تقول بلهجة التلميذ الذي يعترف برداءة اجاباته في الامتحان :

ـ انه غاضب علي يا أمي …

ورمشت الام واجمة ثم تمتمت بنبرة حزينة ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قلبي لا يكذبني ابدا ، وقد انقبض وأنت تقولين لي « جئت وحدي يا أمي » ترى ماذا هيج غضبه على ملاك كريم مثلك لم يحظ رجل بمقبله؟!.

خبريني يا بنتي ..
فقالت امينة متنهدة :
ــ زرت سيدنا الحسين في اثناء سفره الى بور سعيد ..
فتفكرت الام في حزن وكآبة ثم تساءلت :
ــ وكيف علم بأمر الزيارة ؟
حرصت أمينة من بادىء الامر على الا تشير الى حادث السيارة رحمة بالعجوز من ناحية وتخففا من المسؤولية من ناحية اخرى . ولهذا أجابتها بما أعدته سلفا لهذا السؤال قائلة :
ــ لعل أحدا رآني فوشى به عنده ..
فقالت العجوز بحدة :
ــ لا يعرفك احد من البشر الا من اختلط بك داخل بيتك ، السم تشكي في أحد ؟ .. هذه المرأة أم حنفي ؟! او ابنه من المرأة الاخرى ؟
فبادرتها امينة قائلة بثقة ويقين :
ــ لعل جارة رأتني فأخبرت زوجها بحسن نية فأعاد الرجل الخبر على مسمع السيد غير مقدر لخطورة عواقبه ، ظني ما تشائين الا الشك في أحد من أهل بيتي ..
فهزت العجوز رأسها في حيرة وشك وانشأت تقول :
ــ طول عمرك سليمة الطوية ، الله وحده هو المطلع وهو الكفيل برد كيد الكائد ، ولكن زوجك ! ... الرجل العاقل .. الداخل على الخمسين .. ألم يجد وسيلة لاعلان غضبه الا طرد عشيرة العمر من بين أولاده ؟!.. سبحانك يا رب . الناس تكبر تعقل ونحن نكبر نتهور ، هل من الكفر ان تزور امرأة فاضلة سيدنا الحسين !. الا يسمح اصدقاؤه ، وهم لا يقلون عنه غيرة ورجولة ، لزوجاتهم بالخروج لمختلف الاغراض ؟! .. ابوك نفسه الذي كان شيخا من حملة كتاب الله كان يأذن لي في الذهاب الى بيوت الجيران للتفرج على المحمل ..
وغلب الصمت والكآبة مليا حتى التفتت العجوز ناحية ابنتها وعلى شفتيها ابتسامة عتاب حائرة ثم تساءلت ؟

ـ أي شيء أغراك بعصيانه بعد ذاك العمر الطويل من الطاعة العمياء؟!
•• لشد ما يحيرني هذا •• اذ مهما يكن من حمية طبعه فهو زوجك ومن السلامة الحرص على طاعته من أجل راحتك وسعادة الاولاد ، أليس كذلك يا ابنتي ؟ •• أعجب شيء انني لم أجدك يوما في حاجة الى نصح ناصح ••!

فندت عن أمينة ابتسامة ارتسمت على زاوية ثغرها على صورة انحراف خفيف من الارتباك والحياء ، وغمغمت :

ـ تحكم الشيطان !

ـ عليه لعنة الله ، أيزل اللعين قدمك بعد خمسة وعشرين عاما من الوئام والسلام ! •• ولكنه هو الذي أخرج أبانا آدم وأمنا حواء من الجنة ! ••• لشد ما يحزنني يا ابنتي ، ولكنها سحابة صيف ثم تنقشع ويعود كل شيء الى أصله ••• (ثم وهي كأنها تحادث نفسها) ماذا كان عليه لو استوصى بالحلم ؟! •• ولكنه رجل ، ولن يخلو رجل من عيوب تخفي عين الشمس •• (ثم بلهجة ترحيب وسرور متكلفة) اخلعي ملابسك واستريحي ، لا تجزعي ، ماذا يضيرك من قضاء عطلة قصيرة مع أمك في الحجرة التي ولدت فيها ؟!

فجرى بصرها في غير اكتراث على الفراش القديم الذي حال لون عمده ، والسجادة البالية التي انجرد وبرها ونسلت اطرافها وان بقيت رسوم ورودها حافظه لحمرتها وخضرتها ، ولكن صدرها ـ لما ران عليه من فرقة الاحباب ـ لم يكن مهيئا لتلقي موجات الذكريات ، فلم تهج دعوة أمها في قلبها الحنان الذي تهيجه عادة ذكريات متباعدة لهذه الحجرة وهي قريرة العين ، ولم يسعها الا أن تتنهد قائلة :

ـ ما بي الا قلق على الاولاد يا امي •••

ـ انهم في رعاية الله ، ولن يطول بعدك عنهم باذن الرحمن الرحيم ••

وقامت أمينة لتخلع ملاءتها على حين انسحبت صديقة ـ حزينة اسيفة لما سمعت ـ من موقفها عند مدخل الحجرة الذي لزمته اثناء الحديث • ثم عادت المرأة الى مجلسها جنب أمها وما لبثتا ان قلبتا الحديث ظهرا لبطن وهما تبدآن وتعيدان وكأن في تقابلهما جنبا لجنب ما يدعو الى تأمل قوانين

الوراثة العجيبة وقانون الزمن الصارم ، كأنهما شخص واحد وصورته المنعكسة في مرآة المستقبل او نفس الشخص وصورته المنعكسة في مرآة الماضي وبين الاصل والصورة على الحالين ما يشير الى الصراع الرهيب الناشب بين قوانين الوراثة التي تعمل على التشابه والبقاء من ناحية وبين قانون الزمن الذي يدفع الى التغير والنهاية من ناحية اخرى ، ذلك الصراع الذي ينجلي عادة عن سلسلة من الهزائم تلحق تباعا بقوانين الوراثة حتى يغدو قصاراها ان تؤدي وظيفة متواضعة في نطاق قانون الزمن الصارم . في نطاق ذلك القانون استحالت الام العجوز جسما نحيلا ووجها ذابلا وعينين لا تبصران الى تطورات باطنية لا تنالها الحواس ، حتى لم يبق لها من بهجة الحياة الا ما يدعونه بجمال الشيخوخة اي السمت الهادىء والوقار المكتسب الحزين والرأس المرصع بالبياض . بيد انها كانت تنحدر من جيل معمر عرف بصلابة المقاومة فلم يكن طعنها فيما بعد الخامسة والسبعين بمقعدها عن أن تنهض في الصباح كعادتها منذ نصف قرن فتتحسس سبيلها — بدون ارشاد الجارية — الى الحمام فتتوضأ ثم تعود الى حجرتها فتصلي، أما بقية النهار فتقطعها في التسبيح والتأمل الصامت الذي لا يدري به أحد طالما كانت الجارية مشغولة باعمال البيت ، أو مستأنسة الى حديث المرأة اذا فرغت لمجالستها ، حتى الصفات التي تلازم عادة وفرة النشاط للعمل وحدة الحماس للحياة لم تزايلها بحال ، مثال هذا شدة محاسبتها للجارية على كل صغيرة وكبيرة فيما يتعلق بالمصروفات ، وتنظيف البيت وترتيبه وتلكئها اذا تلكأت في مهمة ، وتأخرها اذا تأخرت في مشوار ، ولم يكن بالنادر ان تحلفها على المصحف لتطمئن الى صحة تقاريرها عن غسل الحمام والاواني وتنفيض النوافذ ، دقة بالوسوسة أشبه ، ومن الجائز أن تكون مثابرتها عليها استمرارا لعادة تأصلت في صدر الشباب ، كما انه من الجائز أن تكون نكسة مما يعتري الشيخوخة ويلحق بطباعها المتطرفة استمساكها بالبقاء في بيتها في شبه وحدة كاملة بعد وفاة بعلها ، ثم اصرارها على البقاء فيه حتى بعد فقدانها لبصرها ، متصامتة عن دعوات السيد المتكررة لها بالانتقال الى بيته لتعيش في رعاية ابنتها واحفادها ، مما عرضها

لتهمة الخرف وجعل السيد يعرض عن دعوتها نهائيا ،ولكن الحق انها كرهت هجر بيتها لتعلقها الشديد به ، ولتحاميها ما عسى ان تلقى في البيت الجديد من اهمال غير مقصود أو ما يستوجبه وجودها من القاء أعباء جديدة على عاتق ابنتها المثقل بالواجبات ، ولنفورها من الزج بنفسها في بيت اشتهر صاحبه بين آله بالشراسة والغضب ان تنزلق وهي لا تدري الى ملاحظاته الامر الذي تشفق من عواقبه على سعادة ابنتها ، واخيرا لما تنطوي عليه في قرارة نفسها من حياء وكبرياء حببا اليها الحياة في البيت الذي تملك معتمدة — بعد الله — على المعاش الذي تركه لها زوجها الراحل • على أن ثمة اسبابا اخرى لاصرارها على البقاء في بيتها لا يمكن تبريرها برهافة الحساسية او سداد البصيرة ، كخوفها — اذا أخلت البيت — من ان تجد نفسها مضطرة الى اختيار امر من اثنين ، فاما ان تسمح للغرباء بأن يسكنوه وهو أعز شيء لديها بعد ابنتها وأحفادها ، واما ان تتركه مهجورا فتتخذه العفاريت ملعبا بعد ان ظل طوال عمره مقاما لشيخ من حملة كتاب الله هو زوجها • الا أن انتقالها الى بيت السيد كان خليقا بأن يخلق لها مشاكل معقدة لا تفض في نظرها بميسور الحلول لانها ما انفكت تسائل نفسها وقتذاك أتقبل ضيافته بدون مقابل وهو ما لا ترتاح اليه بحال ، أم تنزل له عن معاشها لقاء اقامتها في بيته وهو ما يقلق غريزتها في الامتلاك التي اضحت — مع الكبر — عنصرا جوهريا من عناصر « وسوستها » العامة ؟!

بل قد توهمت احيانا عند الحاجة عليها في الانتقال الى بيته انه يضمر نية استغلالية نحو معاشها وبيتها الذي سيخلو بعد انتقالها ففزعت الى الرفض لحد العناد الاعمى ولما نزل السيد عند ارادتها قالت له بارتياح « لا تؤاخذني باصراري يا ابني ، ربنا يكرمك بما اوليتني من عطف ، ألا ترى انه لا يسعني أن أهجر بيتي ؟ •• وما اجدرك ان تجاري عجوزا مثلي على علاتها بيد أني استحلفك بالله الا ما سمحت لامينة والاولاد بزيارتي الحين بعد الحين بعد ان أمسى خروجي من البيت متعذرا » وهكذا بقيت في بيتها كما أرادت متمتعة بسيادتها وحريتها وكثير من عادات الماضي العزيز واذا كان بعض هذه العادات ، كالمغالاة الشاذة في الاهتمام بشؤون البيت والمال ، مما

يتنافر مع هدوء الشيخوخة الحكيمة وتسامحها ، وبالتالي مما يبدو كعارض من أعراض الهرم الاتكاسية ، فثمة عادة أخرى مما حافظت عليه جديرة بأن تزين الشباب ، وبأن تضفي على الشيخوخة جلالا ، تلك هي العبادة . كانت ولم تزل مطمح حياتها ومشرق آمالها وسعادتها ، رضعتها صغيرة في كنف أب شيخ من شيوخ الدين ، وتغلغلت في أعماقها بزواجها من شيخ آخر لم يكن دون ابيها ورعا وتقوى ، وظلت تمارس بحب واخلاص غير مفرقة في اخلاصها بين ما هو دين حقا وما هو خرافة خالصة حتى عرفت بين جاراتها بالشيخة المباركة ، صديقة الجارية وحدها التي عرفتها بخيرها وشرها ،فربما قالت لها على أثر مشادة مما ينشب بينهما « يا ستي أليست العبادة أولى بوقتك من الشجار والنقار على التافه من الامور !؟ » فتجيبها محتدة « يا لئيمة انك لا توصينني بالعبادة حبا فيها ولكن كي يخلو لك مجال العبث والاهمال والقذارة والسلب والنهب ،ان الله يأمر بالنظافة والامانة فمراقبتك ومحاسبتك عبادة وثواب ! » ولان الدين قد شغل من حياتها تلك المكانة العالية فقد سما أبوها ومن بعده زوجها الى مكانة رفيعة من نفسها فوق ما كان لهما بحكم القرابة ، وطالما غبطتهما على ما شرفا به من حيازة كلمات الله ورسوله في صدريهما ، ولعلها ذكرت هذا حين خاطبت أمينة مواسية ومشجعة فقالت :

ــ ما أراد السيد باخراجك من بيتك الا اعلان غضبه على مخالفتك لامره ولكنه لن يجاوز حدود التأديب ، أجل لن يحيق سوء بمن كان لها أب كأبيك أو جد كجدك ..

وابتل صدر أمينة بذكر أبيها وجدها كما يبتل صدر المنقطع به الطريق في الظلمات اذا ترامى اليه صوت الغفير وهو يهتف « هوه » فآمن قلبها بقول أمها ، لا لتلهفها على الطمأنينة فحسب ، ولكن لايمانها قبل كل شيء ببركة الشيخين الراحلين ، فلم تكن الا صورة من أمها في جسمها وايمانها وجل طباعها . وانثالت على وجدانها في تلك اللحظة ذكريات أبيها الذي أفعم قلبها وليدة بالحب والايمان فدعت الله ان ينتشلها من ورطتها اكراما لبركته ، وعادت العجوز الى مواساتها فقالت وعلى شفتيها الجافتين ابتسامة

رقيقـة :

ـ ان الله يرعاك دائما برحمته ، اذكري عهد الوبـاء لا أرجعـه الله وكيف نجاك الله من شره فقضى أخواتك ولم يمسسك سوء !

غلبها الابتسام على كآبتها فابتسمت ، وتفرست في غبش من الماضـي كاد يمحوه النسيان فوضحت ـ بعض الوضوح ـ من خليط الذكريـات صورة أحيت في نفسها اصداء من عهد الرعب ، وهي صبية تحجل خـارج ابواب غلقت على اخوات مستلقيات على أسرة المرض والموت ، وهي وراء النافذة تنظر الى سيل من النعوش لا ينقطع والناس تفر من طريقها ، أو هي تسمع الى جماهير من الشعب التقت في ذعرها ويأسها برجل من رجـال الدين ـ كما كان يتفق لابيها ـ وراحت تجأر بالشكوى وترسل الدعوات الى رب السماء . وعلى رغم استفحال الشر وهلاك اخواتها جميعا فقـد افلتت من براثن الوباء سالمة آمنة لم يكدر صفوها الا عصير الليمـون والبصل الذي كانت تجبر على تجرعه مرة أو مرتين في اليوم واستطردت الام بصوت نمت رقته وحنانه على الاسترسال في الاحلام كانما قد ردهـا التذكر الى العهد الخالي فاستعادت حياته وذكرياته ـ العزيزة الغاليـة لاقترانها بالشباب ـ خالصة من شوائب الالم المنسي ، فقالت :

ـ ولم يقنع حظك السعيد بانقاذك من الوباء لكنه ابقـاك وحيـدة الاسرة وكل مالها في الدنيا من أمل وعزاء وسعادة فترعرعت في صميـم قلوبنـا .

لم تعد أمينة ترى الحجرة ـ بعد هذا الخطاب ـ كما كانت تراهـا قبله ، بعثت جدة الشباب في كل شيء ، في الجدران والسجادة والسرير ، في أمها وفيها هي نفسها ، ورد ابوها الى الحياة واتخذ مجلسه المعهود ،وعادت تصغي الى مناغاة الحب والتدليل ، وتحلم بقصص الانبيـاء والمعجـزات ، وتستعيد نوادر السابقين من الصحابة والكفار الى عرابي باشا والانجليز ، بعثت الحياة الماضية بأحلامها السحرية وآمالها الواعدة وسعاداتها المرجوة ثم قالت العجوز بلهجة من يقرر النتيجة النهائية لما مهد به مـن مقدمـات منطقية :

ــ أليس الله حافظك وراعيك ؟!

بيد أن القول نفسه تضمن عزاء موحيا بحالها الراهنة فاستيقظت من حلم الماضي السعيد عائدة الى كآبتها كما يعود السالي الى اجترار احزانه بكلمة مواساة تلقى اليه بحسن نية ، ولبثت الى جانب امها في حال من الفراغ الصارم لم تعهدها الا حين مرضها فأنكرتها وضاقت بها ولم يشغل حديثها المتواصل مع امها الا نصف انتباهها على حين بقي النصف الاخر مرعى للضيق والقلق ، ولما جاءت صديقة ظهرا بصينية الغداء قالت لها العجوز بقصد تسلية ابنتها أولا « جاءك رقيب ليكشف عن سرقاتك !» ولكن امينة لم يكن يهمها وقتذاك ان تسرق المرأة او تلتزم الامانة ولم ترد الجارية على سيدتها اكراما للضيفة من ناحية ولانها من ناحية اخرى الفت مرارة سيدتها وحلاوتها فلم يعد لها غناء عن الاثنتين . وباستدارة النهار اشتد تعلق فكرها ببيتها وتهالك عليه لانه في ذلك الوقت يعود السيد الى البيت للغداء والقيلولة ، ثم يرجع الابناء تباعا عقب خروج الرجل الى الدكان ، فرأت بخيالها الذي استمد من الالم والحنين قوة خارقة ، البيت وآله كأنهم شهود ، رأت السيد وهو يخلع جبته وقفطانه دون مساعدتها التي تخاف ان يكون قد ألف الاستغناء عنها منذ رقادها الطويل ، وحاولت ان تقرأ ما يدور وراء جبينه من افكار ونوايا ، هل يستشعر الفراغ الذي خلفته وراءها ، وكيف كان احساسه حين لم يجد لها من أثر في البيت ،وألم يرد لها ذكر على لسانه لسبب او لآخر ؟ .. وها هم الابناء عائدون وها هم يهرعون الى الصالة بعد طول اشتياق الى مجلس القهوة فيلقون مجلسها شاغرا ، ويسألون عنها فتجيبهم نظرات أختيهم المتجهمة الدامعة ، ترى كيف يتلقى فهمي الخبر ، وهل يدرك كمال ــ وهنا خفق قلبها خفقة جارحة ــ معنى غيابها ؟ ايتشاورون طويلا ؟ ... ماذا ينتظرون ؟ .. لعلهم في الطريق يستبقون اليها ... يجب ان يكونوا في الطريق ، أم يكون قد اصدر امره بعدم زيارتها ؟ يجب ان يكونوا في الخرنفش .. سترى عما قليل ..

ــ اتحدثينني يا أمينة ؟

بهذا السؤال قاطعت العجوز تيار خيالها فانتبهتِ اليها في دهشة

ممزوجة بالحياء ، اذ فطنت الى ان كلمات ـ من حديثها الباطني مع نفسها ـ قد تسللت في غفلة منها الى طرف لسانها محدثة الحس الذي التقطته أذن أمها المرهفة فلم تر بدا من ان تجيبها قائلة :

ـ اني اتساءل يا أمي الا يجيء الاولاد لزيارتي ؟

ـ أظنهم جاءوا .. !

قالت العجوز وهي ترهف السمع مادة رأسها الى الامام فأنصتت آمينة صامتة فترامى اليها صوت مطرقة الباب وهي ترسل ضربات سريعة متلاحقة كأنها صوت يبعث في لهفة بصرخات استغاثة حارة فعرفت وراء هذه الضربات العصبية قبضة كمال الصغيرة كما كانت تعرفها وهي تدق عليها باب حجرة الفرن . وسرعان ما هرعت الى رأس السلم وهي تنادي صديقة لتفتح الباب ، ثم أطلت من فوق الدرابزين فرأت الغلام وهو يثب فوق درجات السلم وفي آثره فهمي وياسين وتعلق كمال بعنقها فعاقها قليلا عن عناق الاخرين ، ثم دخلوا الحجرة وهم ، من جيشان النفس وتبلبل الخاطر يتكلمون في وقت واحد لا يبالي أحدهم ما يقول الاخرون ، ولما رأوا الجدة واقفة مبسوطة الذراعين مشرقة الوجه بابتسامة ترحاب مفعمة بالحب امسكوا عن الكلام الى حين واقبلوا عليها تباعا فساد صمت نسبي تخللته همسات القبل المتبادلة واخيرا هتف ياسين بصوت ينم عن الاحتجاج والحزن :

ـ نحن الان لا بيت لنا ،ولن يكون لنا بيت حتى تعودي اليه .

وآوى كمال الى حجرها كالهارب وهو يقول مفصحا لاول مرة عن نيته التي طوى صدره عليها في البيت وفي الطريق :

ـ سأبقى هنا مع نينة ... ولن أعود معكما .

أما فهمي فقد رنا اليها طويلا صامتا ،كشأنه اذا أراد ان يحدثها بالنظر، فوجدت في نظرته الصامتة خير معبر عما يعتلج في صدريهما معا . هذا الحبيب الذي لا يفوق حبه لها الا حبها له ، والذي يندر ان يشير في أحاديثه معها الى عواطفه ولكن تشي به خطرات نفسه وكلماته وفعاله ، وقد قرأ الفتى في عينيها نظرة تدل على الالم والخجل فاشتد تأثره وقال بحزن وتألم:

ـ نحن الذين اقترحنا عليك الخروج ، وشجعناك عليه ، ولكن ها انت وحدك تتلقين العقاب ..

فابتسمت الام في ارتباك وقالت :

ـ لست طفلة يا فهمي ، وما كان ينبغي لي أن افعل ..

فتأثر ياسين لهذا الحوار المتبادل ، واشتد كربه لفرط احساسه بالحرج بصفته صاحب الاقتراح المشؤوم ، وتردد طويلا بين معاودة الاعتذار عن اقتراحه ، على مسمع من الجدة ان تعاتبه او تضمر له حنقا ، وبين السكوت على ما به من رغبةفي التنفيس عن تحرجه ، ثم خرج من تردده بأن ترجم كلام فهمي الى لغة اخرى قائلا :

ـ أجل ، نحن المذنبون وانتالمتهمة . (ثم ضاغطا على مخارج الكلمات كأنما يضغط على عناد أبيه وصلابته) ولكنك ستعودين ،وسوف تنقشع السحابة التي تظلنا جميعا .

ولفت كمال وجهها اليه من ذقنها ، وانهال عليها بسيل من الاسئلة ،عن معنى مغادرتها للبيت ، وكم تطول اقامتها في بيت جدته ، وعما يحدث لو عادت معهم ، وغير ذلك من الاسئلة التي لم يسمع عنها جوابا واحدا حقيقا بأن يسكن خاطره الذي لم ينفع في تسكينه عزمه على ان يبقى مع أمه حيث هي ، ذلك العزم الذي كان أول من يرتاب في قدرته على تحقيقه ، وتغيرت وجهة الحديث بعد أن فرغ كل منهم من التعبير عن عواطفه ، فأخذوا يعالجون الموقف معالجة جدية لانه ـ كما قال فهمي ـ « لا يجدي التكلم فيما كان ولكن ينبغي ان نتساءل عما سيكون » وقد اجابه ياسين على تساؤله قائلا : « ان رجلا كأبينا لا يرضى بأن يمر بحادث كخروج امنا مرا كريما ، فلم يكن بد من ان يعلن غضبه بطريقة لا يسهل نسيانها ،ولكنه لن يجاوز حدود ما فعل » بدا هذا الرأي مقنعا لما صادف من ارتياحالنفوس اليه فقال فهمي مفصحا عن اقتناعه ومرجوه معا « والدليل على صحة رأيك أنه لم يقدم على فعل شيء آخر ، ومثله لا يؤجل عزمه لو صحت نيته عليه » وتكلموا كثيرا عن «قلب» ابيهمفاتفقت كلمتهم علىأنه قلب خير رغم ثورته وحدته وان أبعد شيء عن تصورهم هو أن يقدم على عمل من شأنه انيسيء

الى السمعة او يؤذي احدا وعند ذاك قالت الجدة على سبيل الدعابة وهي تعلم باستحالة ما تدعو اليه :

لو كنتم رجالا حقا لالتمستم الوسيلة الى قلب أبيكم ليتحول عن عنـاده ..

فتبادل ياسين وفهمي نظرات ساخرة من هذه « الرجولة » المزعومـة التي تذوب لدى ذكر أبيهم ، وخافت الام من ناحيتها ان يتطور الحديـث بين الشابين والجدة الى ذكر حادث السيارة فأفهمتهما بالاشارة ــ وهـي تردد يدها بين كتفها وأمها ــ أنها أخفت عنها الامر ، ثم قالت تخاطب أمها وكأنها تنبري للدفاع عن رجولة الشابين :

ــ لا أحب أن يتعرض أحدهما لغضبه فلنتركه لنفسه حتى يعفو ...

وهنا تساءل كمال :

ــ ومتى يعفو ؟

فأشارت الام بسبابتها الى فوق وهي تغمغم « ربنا عنده العفو » .

وكالمألوف في مثل هذه الحال دار الحديث حول نفسه فأعاد كل ما سبـق له قوله بنفس الالفاظ او بألفاظ جديدة من ايثار متواصل للظنون الوردية فطال الحديث دون ان يستجد به جديد ، حتى خيم الظلام ووجب الرحيل. وحين وجب الرحيل وغشيت كآبته القلوب كالضباب شغل به الفكر عـن الكلام فساد سكون كالسكون الذي يسبق العاصفة ، اللهم الا كلمـات لا يراد بها الا التخفيف من وطأة الصمت او التهرب من الاعتراف بجثـوم الوداع وكأن كلا منهم يلقى تبعة اعلانه على عاتق غيره رحمـة بالجانـب الاخر ، هنالك حدس قلب العجوز ما تضطرم به النفوس حولها فرمشـت عيناها المظلمتان ولعبت اصابعها بحبات السبحة في عجلة ولهوجة ، ومضت بها دقائق بدت على قصرها كاتمة للانفاس كاللحظـات التـي يترقب فيهـا الحالم في كابوس سقطة من علو شاهق ، حتى جاءها صوت ياسين وهـو يقول « أظن آن لنا أن نذهب ، وسنعود لنأخذك معنا قريبا ان شاء الله » وتسمعت العجوز لترى كيف تتهدج نبرات ابنتها عند الكلام ، ولكنها لـم تسمع كلاما بل سمعت حركة دالة على نهوض الجلوس ، واصـوات قبل

وهمهمة توديع ، واحتجاج كمال على انتزاعه بالقوة فبكاءه ، ثم جاء دورها في التسليم في جو مشبع بالحزن والفتور ، واخيرا اخذت الاقدام تبتعد تاركة اياها في وحدة وشجن ..

وعادت قدما أمينة الخفيفتان فمضت العجوز تتصنت في قلق حتى هتفت بها :

ـ أتبكين !؟ يا لك من عبيطة ! .. كأنك لا تطيقين ان تبيتي ليلتين في حضن أمك ! ...

★ ★

بدت خديجة وعائشة اضيق الجميع بغياب الام ، فالى حزنهما الذي يشاركهما فيه الاخوة تحملتا وحدهما أعباء البيت وخدمة الأب بيد أن أعباء البيت لم تكن لتنوء بهما ، أما خدمة الاب فهي التي عملا لها ألف حساب ونزعت عائشة الى الهرب من منطقة ابيها معتلة بأن خديجة سبق لها ان تدربت على خدمته في اثناء رقاد الام فوجدت خديجة نفسها مرغمة على العودة الى تلك المواقف الدقيقة الرهيبة التي تكابدها وهي على كثب من السيد او وهي تقضي له حاجة من حاجاته . ومنذ الساعة الاولى لذهاب الام قالت خديجة « ينبغي الا تطول هذه الحال ، ان الحياة بدونها في هذا البيت عناء لا يطاق » فأمنت عائشة على قولها ولكنها لم تجد من حيلة في وسعها غير الدموع فذرفتها ، وانتظرتعودة اخوتها من بيت الجدة حتى جاءوا قبل ان تلفظ كلمة مما يدور في نفسها راحوا يحدثون عن حال أمهم في « منفاها » فوقع الحديث من نفسها موقع الغرابة والاستنكار لانها كانت تسمع عن قوم غرباء لا يتاح لها لقاؤهم فغلبها الانفعال وقالت بحدة :

ـ اذا قنع كلمنا بالسكوت والانتظار فربما تلاحقت الايام والاسابيع وهي مبعدة عن بيتها حتى يضنيها الحزن ، أجل ان مخاطبة بابا في هذا الشأن مهمة شاقة ولكنها ليست أشق من السكوت الذي لا يليق بنا ،ينبغي أن نجد طريقة .. .ينبغي ان تتكلم ...

ومع ان صيغة « تتكلم » التي ختمت بها جملتها جاءت شاملة لجميع الحاضرين الا انه قصد بها ـ كما فهم بالبداهة ـ شخصا او شخصين شعر

كلاهما لدى سماعها بارتباك لم تخف بواعثه على أحد ، بيد ان خديجة واصلت حديثها قائلة :

ـ لم تكن مهمة مخاطبته فيما يعرض من أمور بأيسر على نينة مما هي علينا ومع ذلك لم تكن تتردد عن مخاطبته اكراما لاي واحد منا ، فمن الانصاف ان تتحمل نفس التضحية من أجل خاطرها ...

تبادل ياسين وفهمي نظرة فضحت احساسهما بالخناق الذي أخذ يضيق حولهما سريعا ولكن واحدا منهما لم يجرؤ على فتح فيه أن ينتهي به الكلام الى ان يقع عليه الاختيار ليكون كبش الفداء فاستسلما لانتظار ما يجيء به النقاش كما يستسلم الفأر للهرة . وتركت خديجة التعميم الى التخصيص فالتفت الى ياسين قائلة :

ـ أنت أخونا الأكبر والى هذا فأنت موظف ، أي رجل كامل ، فأنت أجدرنا بالقيام بهذا الواجب ..

ملأ ياسين صدره بالهواء ثم نفخ وهو يعبث بأنامله في ارتباك ظاهر وتمتم قائلا :

ـ والدنا رجل ناري الغضب لا يقبل مراجعة لرأيه ، وأنا من ناحيتي لم أعد غلاما بل صرت رجلا وموظفا كما تقولين ، وأخوف ما أخاف ان ينفجر في غاضبا فيفلت مني زمام نفسي ويثور غضبي بدوره .

وغلبهم الابتسام على اعصابهم المتوترة وانفسهم المحزونة فابتسموا ، وأوشكت عائشة ان تضحك فأخفت وجهها في كفيها ، ولعل حالهم المتوترة نفسها مما هيأهم لقبول الابتسام كمسكن وقتي للتوتر والالم كما يحدث للنفوس احيانا عند اشتداد الحزن من الاستسلام للطرب لأتفه الاسباب على سبيل التخفيف عن حال بأضدادها ، ذلك أنهم عدوا قوله نوعا من الدعابة الجدير بالضحك والسخرية ، وكان هو أول من يعلم بعجزه التام عن مجرد التفكير في الغضب أو المقاومة حيال والده واول من يعلم أنه قال ما قال فرارا من مواجهة أبيه واتقاء لسخطه ، فلما رأى هزءهم لم يسعه الا ان يبتسم بدوره وهو يهز منكبيه كأنما يقول لهم « دعوني وشأني » . فهمي وحده بدا متحفظا في ابتسامه لشعوره بأن القرعة ستصيبه قبل ان

تغيب ابتسامته ، وصدق شعوره اذا أعرضت خديجة عن ياسين في ازدراء ويأس وخاطبته قائلة برجاء واشفاق :

ــ فهمي ••• أنت رجلنا •• !

فرفع حاجبيه في ارتباك متطلعا اليها بنظرة كأنما يقول لها « أنت أدرى بالعواقب ! » حقا كان يتمتع بمزايا لا يتمتع ببعضها احد في الاسرة فهو طالب بمدرسة الحقوق ، وهو اكبرهم عقلا وانفذهم رأيا ، وله من ضبط النفس في المواقف الحرجة ما يدل على الشجاعة والرجولة ولكنه سرعان ما يفقد جملة مزاياه اذا مثل بين يدي أبيه فلا يعرف غير الطاعة العمياء •وبدا وكأنه لا يدري ماذا يقول فحثته على الكلام بايماءة من رأسها فقال متحيرا :

ــ هل ترينه يقبل رجائي ؟ •• كلا •• ولكنه سينهرني قائلا :

« لا تتدخل فيما لا يعنيك » ••• هذا اذا لم يثر غضبه فيوجه الي كلاما اشد واقسى ••• !

وارتاح ياسين الى هذا الكلام « الحكيم » الذي وجد فيه دفاعا عن موقفه ايضا فقال وكأنه يكمل رأي أخيه :

ــ وربما جر تدخلنا الى محاسبتنا من جديد على موقفنا يوم خروجها فنفتح على انفسنا فتحة لا ندري كيف نسدها !

فالتفتت الفتاة نحوه مغيظة محنقة وقالت بمرارة وسخرية :

ــ لا منك ولا كفاية شرك !

فقال فهمي الذي استمد من غريزة « حب البقاء » قوة جديدة للدفاع عن نفسه •

ــ فلنفكر في الامر بعناية شاملة •• لا أظنه يقبل لي أو لياسين رجاء ما دام يعتبرنا شريكين في الخطأ ، وعليه فالقضية خاسرة اذا تقدم احدنا للدفاع عنها ، أما اذا حدثته واحدة منكما فلعلها تنجح في استعطافه أو لعلها تجد ــ على أسوأ الظنون ــ اعراضا هادئا لا يبلغ حد العنف ، فلماذا لا تحدثه احداكما ؟ •• انت مثلا يا خديجة ؟!

فانقبض قلب الفتاة التي وقعت في الشرك وحدجت ياسين لا فهمي

بنظرة غيظ وهي تقول :
ــ ظننت هذه المهمة أخلق بالرجال !
فقال فهمي مواصلا هجومه السلمي :
ــ العكس هو الصحيح ما دمنا تتوخى نجاح المسعى ، ولا تنسى انكما لم تتعرضا لغضبه طول حياتكما الا في النادر الذي لا يقاس عليه ، فهو يألف الرفق بكما كما يألف البطش بنا ! ...
فأطرقت خديجة متفكرة في قلق غير خاف ، وكأنها خافت ان طال صمتها ان تشتد عليها الحملة فتستقر المهمة الخطيرة في قرعتها فرفعت رأسها قائلة :
ــ اذا كان الامر كما تقول فعائشة اخلق مني بالكلام !
ــ أنا ! ... آه !؟
نطقت بها عائشة في فزع من وجد نفسه في مرمى الخطر بعد اناطمأن طويلا الى موقف المتفرج الذي ليس له من الامر شيء خاصة وانها ــ لحداثة سنها وغلبة احساس الطفولة المدللة عليها ــ لم تكن تندب لشيء هام فضلا عن أخطر مهمة يمكن ان تعرض لأحد منهم ، الا ان خديجة نفسها لم تجد فكرة واضحة لتبرير اقتراحها بيد أنها اصرت عليه في عناد مشبع بالمرارة والتهكم فقالت تجيب شقيقتها :
ــ لانه ينبغي الانتفاع بصفرة شعرك وزرقة عينيك في انجاح مسعانا!
ــ وما دخل شعري وعيني في مواجهة أبي ؟
لم تكن خديجة تهتم في تلك اللحظة بالاقناع بقدر ما تهالكت على ايجاد مخرج لها ولو بتحويل الاذهان الى أمور هي بالمعابثة اشبه تمهيدا للتقهقر ، فالفرار من أسلم السبل الممكنة كمن يقع في مأزق حرج وتعوزه الحجة في الدفاع عنه فيلجأ الى المزاح ليمهد لنفسه مفرا في ضجة من السرور بدلا من الشماتة والازدراء لذلك قالت :
ــ أعرف لهما تأثيرا ساحرا في كل من يتصل بك ، ياسين ... فهمي .. حتى كمال ، فلماذا لا يكون لهما نفس التأثير عند أبي ؟
فتورد وجه عائشة وقالت بانزعاج :

ـ كيف اخاطبه في هذا الشأن وأنا لا تقع على عيناه حتى يطير ما في رأسي !؟

عند ذاك ـ وبعد ان تهربوا تباعا من المهمة الخطيرة ـ لم يعد يشعر احد منهم بتهديد مباشر ولكن النجاة لم تعفهم من احساس بالذنب ، بل لعلها كانت أول دافع اليه ، حيث ان الانسان يركز تفكيره في النجاة عند الخطر حتى اذا ظفر بالنجاة عاد ضميره يناوشه ، كالجسم الذي يستنفد حيويته كلها في العضو المريض حتى اذا ما استرد صحته توزعت حيويته بالتساوي على الاعضاء التي اهملت الى حين ، وكأن خديجة ارادت ان تتخفف من هذا الاحساس فقالت :

ـ ما دمنا نعجز جميعا عن مخاطبة بابا فلنستعن بجارتنا ست أم مريم ..

وما ان نطقت باسم « مريم » حتى لحظت فهمي بحركة عكسية فالتقت عيناهما لحظة قصيرة في نظرة لم يرتح الشاب لايحائها فأشاح عنها بوجهه متظاهرا بعدم الاكتراث ، ذلك أن اسم مريم لم يجر على لسان امام فهمي منذ نبذت فكرة خطبتها ، اما مراعاة لعواطفه ، واما لان مريم اكتسبت معنى جديدا بعد اعترافه بحبها سلكها في زمرة المحرمات التي لا تتسامح تقاليد البيت بلوكها علانية حيال صاحب الشأن ، بالرغم من ان مريم نفسها لم تنقطع عن زيارة الاسرة متظاهرة بجهل ما دار بشأنها وراء الابواب ... ولم تفت ياسين لحظة الارتباك المتبادل بين فهمي وخديجة فأراد ان يغطي على أثرها المحتمل بتوجيه الانتباه الى وجهة جديدة فوضع يده على كتف كمال وقال بلهجة بين التهكم والتحريض :

ـ هذا رجلنا الحق ، هو وحده الذي يستطيع أن يرجو والده ليعيد اليه امه ! ..

لم يحمل كلامه محمل الجد أحد ، وأولهم كمال نفسه ، بيد أن قول ياسين وثب الى ذاكرته في اليوم التالي وهو يقطع ميدان بيت القاضي عائدا من المدرسة ، بعد نهار مضى اكثره في التفكير في أمه المنفية . فتوقف عن السير صوب درب قرمز ، والتفت الى طريق النحاسين مترددا وقلبه المحزون يتابع خفقاته في كآبة وتألم ، ثم غير طريقه متجها نحو النحاسين

في خطوات متباطئة دون ان يجمع عزمه على رأي ، يسوقه العـذاب الذي يعاني لفقد أمه ، ويرجعه الخوف الذي يركبه لمجرد ذكر أبيه فضلا عـن مخاطبته او التوسل اليه ،لم يكن يتصور أنه يستطيع ان يقف بين يديـه محدثا في هذا الامر ، ولم تغب عن شعوره المخاوف العسية بأن تحيق به لو فعل ولم يصمم على شيء الا انه رغم هذا كله واصل السير البطيء حتى لاح لعينيه باب الدكان كأنما ينزع الى ارضاء قلبه المعذب ولو ارضـاء عميقا ــ كالحدأة التي تحوم حول خاطف صغارها دون ان تجد الشجاعـة على مهاجمته ــ وتدانى من الباب حتى وقف على بعد أمتار منـه وطـال الوقوف وهو لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يستقر على رأي ، وفجأة خـرج من الدكان رجل وهو يقهقه عاليا واذا بأبيه يتبعه حتى عتبة الباب مودعـا وهو يغرق في الضحك كذلك • فأذهلته المفاجـأة ، فتسمـر في مكـانه مستشرفا وجه أبيه الضاحك الطليق في انكار ودهشة لا توصفان ، لـم يصدق عينيه وخيل اليه ان شخصية جديدة قد حلت في جسم أبيه ، أو أن هذا الرجل الضاحك ــ على ما بهمن شبه بأبيه ــ شخص اخر يراه لاول مرة ، شخص يضحك ، ويغرق في الضحك ، وينطلق البشر من وجهه كمـا ينطلق الضوء من الشمس • واستدار السيد ليدخل فوقع بصره على الغلام المتطلع اليه بذهول فأخذته الدهشة لموقفه وهيئتـه علـى حين استـردت أساريره بسرعة مظهر الجد والرزانة ، ثم سأله وهو يتفرس في وجهه :

ــ ماذا جاء بك ؟!

وللحال دبت في اعماق الغلام غريزة الدفاع عن النفس ــ رغم ذهوله ــ فتقدم من أبيه ومد يده الصغيرة الى يده وتطامن عليها حتى لثمها فيأدب وخشوع دون ان ينبس بكلمة ، فسأله السيد مرة أخرى :

ــ أتريد شيئا !؟

فازدرد كمال ريقه وهو لا يجد ما يتلفظ بـه الا ان يقـول مؤثـرا السلامة « انه لا يريد شيئا وانه كان في طريقه الى البيت » ولكن السيـد استبطأه فلاح في وجهه الضيق وقال بخشونة :

ــ لا تقف كالصنم وقل ماذا تريد ••

ونفذت خشونة الصوت الى قلبه فارتعد ، وانعقد لسانه فكأن الكلام قد التزق بسقف حلقه ، فازداد الاب ضيقا وهتف بحدة :

ـ تكلم ... هل فقدت النطق ؟!

وتجمعت قوته كلها في ارادة واحدة وهي ان يخرج من صمته بأي ثمن اتقاء لغضب أبيه ففتح فاه قائلا كيفما اتفق له :

ـ كنت عائدا من المدرسة الى البيت ..

ـ وماذا اوقفك هنا كالمعتوه ؟!

ـ رأيت ... رأيت حضرتك فأردت أن أقبل يدك .. !

فتجلت في عيني السيد نظرة استرابة ، وقال بجفاء وتهكم :

ـ أهذا كل ما هنالك ! ... أوحشتك لهذا الحد ! ألم تستطع ان تنتظر الى الصباح لتقبل يدي اذا أردت ؟! .. اسمع ... اياك وان تكون قد عملت عملة في المدرسة ... سأعرف كل شيء ..

فقال كمال بسرعة واضطراب :

ـ لم اعمل شيئا وحياة ربنا ..

فقال الرجل بنفاد صبر :

ـ اذن تفضل .. ضيعت وقتي بلا مناسبة ... غر من وجهي ...

فغادر كمال موقفه لا يكاد يرى موضع قدمه من الاضطراب ، وتحرك السيد عن مكانه ليدخل ولكن عاودت الغلام الحياة بمجرد تحول عيني أبيه عن عينيه ، وصاح بلا شعور قبل ان يغيب الرجل وتضيع الفرصة :

ـ رجع نينة الله يخليك ...

واطلق ساقيه للريح ..

★ ★

كان السيد يحتسي قهوة العصر في حجرته حين دخلت خديجة وقالت بصوت كاد من التخشع لا يسمع :

ـ جارتنا ست أم مريم تريد مقابلة حضرتك ...

فتساءل السيد متعجبا :

ـ حرم السيد محمد رضوان ؟ . ماذا تريد ؟ ..

فقالت خديجة :

ـ لا أعرف يا بابا ..

فأمرها بادخالها وهو يمسك عن التعجب . ومع ان مجيء بعض الفضليات من الجارات لمقابلته ـ لشأن يتعلق بتجارته أو لصلح يسعى به بينهن وبين ازواجهن من اصدقائه ـ لم يكن مع ندرته بالجديد عليه إلا انه استبعد ان يكون ما دعا هذه السيدة الى مقابلته واحد من هذه الاسباب. وخطرت على ذهنه ، وهو يتساءل ، مريم وما دار عن خطبتها بينه وبين زوجه ، ولكن أي علاقة ثمة بين هذا السر الذي لا يمكن ان يتعدى دائرة اسرته وبين هذه الزيارة !؟ ثم ذكر السيد محمد رضوان لاحتمال ان تكون الزيارة لسبب يمت اليه بيد انه كان ولم يزل مجرد جار ، لا تربطه به الا صلة الجيرة التي لم ترتفع يومالمرتبة الصداقة ، فاقتصر تزاورهما قديما على المناسبات الضرورية حتى شل الرجل فعاده مرات . ثم لم يعد يطرق بابه الا في الاعياد ، على ان ست أم مريم ليست بالغريبة عليه ، فانه ليذكر انها قصدت دكانه مرة لابتياع بعض الحوائج ، وهناك عرفته بنفسها استرعاء لاهتمامه فبذل لها من كرمه ما رآه جديرا بحسن الجوار ، ومرة اخرى التقى بها عند باب بيته اذ صادف خروجه قدومها للزيارة مصطحبة كريمتها وعند ذاك أدهشته بجسارتها حين حيته قائلة : «مساء الخير يا سي السيد»، أجل علمه اختلاطه بالاصدقاء ان بينهم من يتسامح فيما يتشدد هو فيه متطرفا من التزام الآداب المتوارثة للاسرة ، فلا يرون بأسا من أن تخرج نساؤهم للزيارة او للاستبضاع ، ولا يجدون حرجا في توجيه تحية بريئة كالتي وجهتها ام مريم اليه ، ولم يكن ـ رغم حنبليته ـ بالذي يطعن فيما يرتضون لانفسهم ولنسائهم ، بل لم يكن يسيء الظن حتى ببعض الاعيان من اصدقائه الذين يصطحبون زوجاتهم وبناتهم في العربات للتنزه في الخلوات أو لغشيان الملاهي البريئة مكتفيا في مثل هذه الحال بترديد قوله: « لكم دينكم ولي دين » ، اي انه لا ينزع الى تطبيق آرائه على الناس تطبيقا اعمى ، الى انه يحسن التمييز حقا بين ما هو خير وما هو شر ، الا أنه لا يفتح صدره لكل « ما هو خير » ضالعا في ذلك مع طبيعته التقليدية

الصارمة حتى أنه عد زيارة زوجه للحسين جريمة قضى فيها بأقسى عقوبة أصدرها في حياته الزوجية الثانية ، ولهذا كله لاقت تحية أم مريم له من نفسه دهشة مقرونة بما يشبه الانزعاج دون ان يسيء بأخلاقها الظن •وسمع خارج باب الحجرة نحنحة فأدرك ان القادمة تنذره بالدخول • ثم دخلت ملتفة في ملاءتها ، مستورة الوجه ببرقع أسود تتوسط عروسه الذهبية عينين مكحولتين دعجاوين وتدانت منه بجسم جسيملحيم مترنحالارداف ،فنهض السيد لاستقبالها وهو يمد يده قائلا :

ــ اهلا وسهلا ، شرفتالبيت واهله •

فمدت له يدها بعد أن لفتها في طرف الملاءة ان تنقض وضوءه وقالت:

ــ ربنا يشرف قدرك يا سي السيد ••

ودعاها للجلوس فجلست ، ثم جلس وهو يسألها مجاملة :

ــ كيف حال السيد محمد ؟ •••

فقالت متنهدة بصوت مسموع كأن السؤال حرك اشجانها :

ــ الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه ، ربنا يلطف بنا جميعا •••

فهز السيد رأسه كالآسف وتمتم :

ــ ربنا يأخذ بيده ويمنحه الصبر والعافية •••

وأعقب حديث المجاملات صمت قصير فأخذت السيدة تتهيأ للحديث الجدي الذي جاءت من أجله كما يتهيأ المطرب للغناء بعد الفراغ من عزف المقدمة الموسيقية على حين غض السيد بصره تحشما تاركا على شفتيه ابتسامة لتعلن ترحيبه بالحديث المنتظر :

ــ يا سيد أحمد ، أنت في المروءة مثل يضرب فيالحي كله ، فلن يخيب رجاء لمن يقصدك مستشفعا مروءتك •

فتمتم السيد بصوت حيي وهو يتساءل في نفسه « ترى ما وراء هذا كله ؟! ••• »

ــ استغفر الله •••

ــ المسألة انني جئت الساعة لأزور اختي ست أم فهمي فما هالني

الا ان اعلم بأنها ليست موجودة في بيتها وانك غاضب عليها .

وأمسكت المرأة لتسبر اثر كلامه ولتسمع رأي السيد فيـه ، ولكنه لاذ بالصمت كأنه لا يجد ما يقوله ومع أنه شعر بعدم ارتياح الى فتح هذا الموضوع الا ان ابتسامة الترحيب ظلت معلقة بشفتيه ...

ــ هل توجد ست أكمل من ست أم فهمي ؟! ... ست العقل والحياء، جارة عشرين عاما وأكثر ، لم نسمع خلالها منها الا ما يسر الخاطر ، فما عسى يمكن ان تجنى مما تستحق عليه غضب رجل عادل مثلك ؟! ..

فثابر السيد على صمته متجاهلا تساؤلها ، ثم دارت برأسه خواطر زادت من عدم ارتياحه ... ترى اجاءت زيارة المرأة للبيت اتفاقا أم انها استدعيت بتدبير مدبر ؟! ... خديجة ؟ ... عائشة ؟ ... أمينة نفسها؟.. انهم لا يملون الدفاع عن أمهم . هل ينسى كيف تجرأ كمال على الصراخ في وجهه مطالبا بعودة أمه ، الامر الذي عرضه فيما بعد لعلقة ساخنة تطاير بخارها من نافوخه ؟!

ــ يا لهـا من سيدة طيبة لا تستأهل عقابا .. ويا لك من سيد كريم لا يليق به العنف ، ولكنه الشيطان اللعين أخزاه الله وما أجدر نبلك بافساد كيـده ..

وشعر عند ذاك بأن الصمت غدا أثقل من ان يحتمل مجاملة للزائـرة فتمتم قائلا باقتضاب متعمد :

ــ ربنا يصلح الحال ...

فقالت أم مريم بحماس متشجعة بما اصابت من نجاح في استدراجـه الى الكلام :

ــ لشد ما يعز على ان تترك جارتنا الطيبة بيتها بعـد ذاك العمـر الطويل من الستر والكرامة ...

ــ ستعود المياه الى مجاريها ، ولكن لكل شيء ميعاد ..

ــ أنت أخي ، بل أعز من الأخ ، ولن ازيد على هذا كلمة واحدة ..

جد جديد من الامر لم يغب عن وعيه اليقظ فسجله كما يسجـل المرصد الزلزال البعيد مهما تدق حركته . خيل اليه وهي تقول «انت أخي»

ان صوتها رق وعذب ، فلما قالت « بل أعز من الاخ » جهر الصوت بحنان دافىء نشر في الجو المختشم نفحة طيبة ، فتعجب وتساءل ، ولم يعد يطيق غض بصره على الشك فرفعه مستأنيا ... واسترق الى وجهها النظر ـ فوجدها ـ على غير ما توقع ـ تتطلع اليه بعينيها الدعاوين ، فجاش صدره وخفض بصره مستعجلا بين الدهشة والحرج ثم قال مواصلا الحديث كي يغطي على تاثيره :

ـ أشكرك على ما أوليتني من أخوة ...

وعاد يتساءل ترى اكانت تتطلع اليه هكذا طوال الحديث ام صادف رفع بصره اليها تطلعها اليه ؟ .. وما القول في انها لم تغض بصرها عند التقاء العينين ؟ ... ولكنه سرعان ما هزأ بافكاره قائلا لنفسه ان ولعه بالنساء وخبرته بمعاشرتهن ارهفا حاسة سوء الظن بهن عنده ، وان الحقيقة بلا ريب ابعد ما تكون عن تصوره . أو لعل المرأة من النساء اللاتي يفضن الحنان طبعا وسجية فيظنهمن لا يعرفهن غزلا وما هو بالغزل . ولكي يتحقق من صدق رأيه ـ لانه لم تزل ثمة حاجة الى التحقق ـ رفع بصره مرة اخرى فما هاله الا أن يراهارانية اليه ، فتشجع هذه المرة وثبت عليها عينيه قليلا فلم تزل ترنو اليه باستسلام جسور حتى غض بصره في حيرة شاملة . وعند ذاك لاحقه صوتها الناعم وهو يقول :

ـ سأرى بعد هذا الرجاء ما اذا كنت حقا أثيرة عندك ...

أثيرة ؟!.. لو قيلت هذه الكلمة في غير هذا الجو المشبع بالحساسية المكهرب بالشك والحيرة ، لمرت دون ان تترك أثرا ، أما الان ؟! .. وعاود النظر في غير قليل من الحرج فقرأ في عينيها بعض المعاني التي عابثت ظنونه، هل صدق احساسه ؟ وهل يمكن هذا حال استشفاعها لزوجه ؟ ... ولكن كيف يعجب من كان في مثل خبرته بالنساء ؟ ... سيدة لعوب ذات بعل مشلول ، وسرت في وجدانه وثبات بهيجة ملأته حرارة وزهوا ، ولكن متى نشأت هذه العاطفة .؟ أهي قديمة وكانت تتحين الفرص ؟.. ألم تزر دكانه مرة فلم يند عنها ما يريب ... ولكن الدكان ليس بالمكان الـذي تطمئن مثلها اليه في بث هوى مكتم غير مسبوق بتمهيد كما فعلت زبيدة العالمة ، أم

هي عاطفة بنت ساعتها وجدت مع الفرصة السانحة في الغرفة الخالية ؟ ...
لو صح هذا فهي « زبيدة » اخرى في لباس سيدة مصونة ، وليس غريبا ان يجهل امرها - وهو العليم ببنات الهوى - ما دام يحرص الحرص كله على احترام الجيران احتراما مثاليا ، وايا كان الامر فكيف يجيبها ؟ ...
« أنت آثر عندي مما تظنين ؟ ... » قول جميل ولكنها حرية بأن ترى فيه تحية استجابة لدعائها ، كلا انه لا يريد هذا ، أنه يأباه كل الاباء ، لا لأنه لم يشبع بعد من زبيدة، ولكن لانه لا يقبل بحال ان يحيد عن مبادئه في تقديس الاعراض عامة . وما يمس الاصدقاء والجيران منها خاصة . لهذا لم تسود صفحته نقطة واحدة يمكن ان يخزي بها امام صديق او جار او أحد من الاطهار على افراطه في العشق والصبوات . ولم يزل دأبه ان يخاف الله في لهوه كما يخافه في جده فلا يبيح لنفسه الا ما يراه مباحا او في حدود الهفوات . لا يعني هذا أنه اوتي ارادة خارقة تعصمه من الاهواء ، ولكنه لهج بالهوى المبذول ، وصان طرفه عن الحرمات حتى انه لم يتعمد النظر الى وجه امرأة من حيه طوال عمره ، على انه مما يذكر له انه صد مرة عن هوى متاح رحمة باحد معارفه ، اذ جاءه يوما رسول يدعوه الى لقاء اخت ذاك الرجل - أرملة نصف - في ليلة سماها فتلقى السيد الدعوة صامتا وصرف الرسول متلطفا كعادته ثم قاطع الطريق الذي يوجد به البيت أعواما متواصلة . ولعل أم مريم كانت اول تجربة - عرضت لمبادئه - يكابدها بعينيه ، ومع انها اعجبته الا انه لم يستجب لنوازع الهوى ، وغلب صوت الحكمة والوقار ، صائنا سمعته التي يتحدث بها الناس عن موطن المؤاخذة ، كأن هذه السمعة الطيبة آثر عنده من اقتناص لذة مواتية ،متعزيا في نفس الوقت بما يتاح له من حين لاخر من غراميات مأمونة العواقب . وهذه الروح الراعية للعهد المخلصة للاخوان لا تزايله حتى في مغاني اللهو والشهوات فلم يؤخذ عليه ابدا انه سطا على محظية صاحب او طمح بطرف الى خليلة صديق ، مؤثرا الصداقة على الاهواء ، لانه كما اعتاد ان يقول « الصديق ود دائم والعشقة هوى عابر » ، ولهذا قنع باتقاء خليلاته ممن يجدهن بلا خليل ، أو ينتظر حتى تنقطع علاقة فينهض لانتهاز

فرصته وأحيانا يستأذن الخليل القديم قبل ان يتودد الى من كانت خليلته ، مواصلا العشق في سرور لا يشوبه الندم ولا تكدر صفوه احن النفوس • بمعنى آخر انه نجح في التوفيق بين « الحيوان » المتهالك على اللذاتوبين « الانسان » المتطلع الى المبادىء العالية توفيقا ائتلافيا يجمعهما في وحدة منسجمة لا يطغى احد طرفيها على الاخر ويستقل كل منهما بحياته الخاصة في يسر وارتياح • كما وفق من قبل في الجمع بين التدين والغواية في وحدة خالية من الاحساس بالذنب والكبت معا ، غير انه لم يكن يصدر في وفائه عن اخلاص مجرد للاخلاق ولكن ــ الى هذا او قبل هذا ــ عن رغبتــه التليدة في ان يظل حائزا للحب متمتعا بالسمعة العطرة،الىان غزواتهالمظفرة في العشق هونت عليهالاعراض عنالحب الموسومبالخيانة او النذالة ،وفضلا عن هذا وذاك فانه لم يعرف الحب الحقيقي الذي كان خليقا بأن يدفعه الى احدى اثنتين ، فاما الاذعان للعاطفة القوية دون مبالاة بالمبادىء ، وامـــا الوقوع في ازمة عاطفية خلقية حادة لم يقدر عليه الاكتواء بنارها • فلميكن يرى في أم مريم الا صنفا لذيذا من الطعام لن يضيره ــ اذا هدده تناولــه بسوء الهضم ــ ان يعدل عنه الى غيره من الاصناف المأمونة الشهية التي تحفل بها المائدة ، لذلك اجابها برقة قائلا :

ــ شفاعتك مقبولة ان شاء الله وستسمعين ما يسرك عما قريب ••

فقامت المرأة وهي تقول :

ــ ربنا يكرمك يا سي السيد •••

ومدت له يدا بضة فمد لهايده وهو يغض بصره فخيل اليه ــ وهــي تسلم ــ انها ضغطت قليلا على يده ، وجعل يتساءل أهذه طريقتها المعتادة في التسليم أم أنها تعمدت الضغط على يده ، وحاول ان يتذكر كيفيـــة تسليمها عند استقبالها ولكن الذاكرة لم تسعفه ، وقضى اكثر الوقت الذي سبق عودته الى الدكان وهو يفكر في المرأة ، حديثها ، ولينها ، وتسليمها••

* *

ــ تيزة حرم المرحوم شوكت تريد مقابلة حضرتك •

رمى السيد خديجة بنظرة حمراء وصاح بها :

ــ لماذا ؟!

ولكن اعلنت نبراته الغاضبة ونظراته الثائرة على أنه لم يقصد الوقوف عند مدلول « لماذا » وكأنه اراد ان يقول لها « لم أكد افرغ من وسيط الامس حتى جئتني بوسيط جديد اليوم ، من قال لك ان هذه الحيل تجوز علي ؟ ... كيف تجسرين انت واخوتك على المكر بي ؟ »

واصفر وجه خديجة وهي تقول بصوت متهدج :

ـ لا أدري والله ...

فحرك رأسه حركة كأنها تقول لها « بل تدرين وأدري انا ايضا ولن يجرك مكرك الا ان اوخم العواقب » ثم قال ساخطا :

ـ خليها تتفضل ، لن اشرب قهوتي براحة بال بعد الان ، اصل حجرتي محكمة وقضاة وشهود ، وهذه هي الراحة التي اجدها في بيتي ، لعنة الله عليكم أجمعين ! ...

اختفت خديجة قبل أن يتم كلامه كما يختفي الفأر اذا قرعت سمعه فرقعة ، وظل السيد لحظات متجهما حانقا ، حتى خطرت على ذهنه صورة خديجة وهي تنسحب خائفة فعثرت قدمها بقبقابه وكاد رأسها يصطدم بالباب ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة اشفاق مسحت غضبته المتعسفة وقطرت على صدره عطفا ، يا لهم من اطفال يأبون ان ينسوا امهم ولو دقيقة واحدة ، واتجه بصره الى الباب وهو يتهيأ لاستقبال الزائرة بوجه انبسطت اساريره كأنه لم يصب غضبه منذ ثوان على فكرة زيارتها ، ولكن لم يكن له حيلة فيما يركبه من غضب ــ وهو في بيته ــ لاتفه الاسباب او بلا سبب على الاطلاق ، وفضلا عن هذا كله كان للقادمة منزلة خاصة لا يرتقي اليها أحد من النساء اللاتي يترددن على البيت من حين لاخر ،حرم المرحوم شوكت ، والمرحوم شوكت من قبل ، اسرة ارتبطت مع اسرته بآصرة الود الخالص من عهد الجدود ، كان للراحل منزلة الاب من نفسه ، ولم تزل ارملته عنده ــ وعند اسرته بالتبعية ــ بمنزلة الام ، هي التي خطبت له امينة بنفسها ، وتلقت ابناءه بيديها وهم يستقبلون نور الدنيا ، والى هذا كله فآل شوكت اناس صداقتهم شرف ، لا لأصلهم التركي فحسب ، ولكن لمرتبتهم الاجتماعية وعقاراتهم الكثيرة ما بين الحمزاوي

وبين الصورين ، فاذا كان السيد من اوساط الطبقة الوسطى فهم من أهل القمة فيها بلا جدال ، ولعل الامومة التي تشعر بها المرأة له ويشعر بها لها هي التي جعلته يقف من شفاعتها المنتظرة موقف التهيب والحرج ، فليست هي بالتي تلتزم الاحترام في مخاطبته ، ولا بالتي تتعب في استعطافه ،فضلا عما عرفت به من صراحة جارحة لها مبرراتها من شيخوختها ومكانتها معا ، اجل ليست هي •••

وامسك عن افكاره لدى سماعه وقع خطواتها ، ثم نهض وهو يقول بترحيب :

ـ أهلا وسهلا ، زارنا النبي •••

اقتربت منه سيدة طاعنة في السن ، تدب على مظلة وهي ترفع اليه وجها ناصع البياض كثير التجاعيد لم يكد يحجب منه شيئا برقعها الابيض الشفاف ، وتلقت تحيته بابتسامة جلت عن اسنانها الذهبية ، وسلمت ، ثم اتخذت مجلسها الى جانبه بلا كلفة وهي تقول :

ـ من يعش ير ، حتى انت يا زين الرجال ! ••• وحتى هـذا البيت تحدث فيه هذه الامور التي لا يطيب التحدث عنهـا ! •• شخـت ورب الحسين وبادرك الخرف ••

واسترسلت في الكلام مطلقة العنان لنسانها يقول ويعيد غير تاركة للسيد من فرصة لمقاطعتها او التعقيب عليها . حدثته كيف جاءت للزيارة، وكيف اكتشفت غياب زوجه « ظننت بادىء الامر انها خرجت في زيـارة فدققت صدري بيدي دهشة وقلت ماذا حدث للدنيا ؟! •• وكيف سمـح لها السيد بالخروج مستهينا بالشرائع الالهية والقوانين البشرية والفرمانات العثمانية ! ••• » بيد انها سرعان ما عرفت الحقيقة كلها « فثبت الى رشدي وقلت الحمد لله الدنيا بخير ، هذا حقا هو السيد ، وهذا اقل ما ينتظـر منه » ثم غيرت لهجتها الساخرة وراحت تؤنبه على قسوته ، ولم تقتصد في الرثاء لزوجه التي تعدها اخر امرأة تستحق عقابا • وجعلت كلمـا هـم بمقاطعتها تصيح به « هس ، ولا كلمة ، دع حديثك الحلو الذي تحسـن تنميقه فلن اخدع به ، أني اريد عملا صالحا لا قولا مزوقا » وصارحتـه

بأنه يغالي في المحافظة على اسرته مغالاة خرقت المألوف ، وانه يجمل به ان يأخذ نفسه بشيء من الهوادة والرفق ، استمع السيد اليها طويلا • ولما سمحت له بالكلام ــ بعد ان اعياها الكلام ، شرح لها وجهة نظره المعروفة ولم يمنعه دفاعها الحار ، ولا مكانتها عنده من ان يؤكد لها بأن سياسته مع أسرته عقيدة لا يتحول عنها وان وعدها في النهاية ــ كما وعد أم مريم من قبل ــ خيرا ، وظن أن آن للجلسة أن تنفض ولكنه ما يدري الا وهي تقول :

ــ غياب أمينة هانم مفاجأة غير سارة لي لاني كنت أريدها لامر هام جدا ، ولان الخروج لم يعد بالمهمة اليسيرة على صحتي ، ولا ادري الان ان كان يحسن بي ان أتكلم فيما اردت الكلام فيه أم انتظر عودتها !•

فقال السيد مبتسما :

ــ كلنا تحت أمرك •••

ــ وددت لو كانت هي أول من يسمعني وان كنت لم تترك لها من الامر شيئا ، ولكن لئن فاتني هذا فعزائي اني اهيىء لها فرصة سعيدة للعودة ••

فاحتار السيد في فهم حديثها وحدج اليها متسائلا :

ــ ما وراء هذا ؟

فقالت وهي تنكت السجادة بسن مظلتها :

ــ لا اطيل عليك ، لقد وقع اختياري على عائشة لتكون زوجا لخليل ابني •••

ودهش السيد دهش من أخذ على غرة من حيث لم يتوقع فركبه الارتباك ، بل الانزعاج ، لبواعث غير خافية ، ادرك من أول وهلة ان تصميمه القديم على الا يزوج الصغرى حتى تتزوج الكبرى سيرتطم هذه المرة برغبة عزيزة لا يسعه اهمالها ••• رغبة عالنته بها من لا تجهل تصميمه ذاك مما دل على انها ترفضه سلفا وتأبى ان تنزل عند حكمه • •

ــ مالك صامتا كأنك لم تسمعني ؟! •••

وابتسم السيد ارتباكا وحياء ، ثم قال على سبيل الملاحظة والمجاملة

ريثما يقلب الامر على وجوهه :
ـ هذا شرف عظيم لنا ..
فرمته السيدة بنظرة كأنما تقول له « ابحث لك عن طريقة اخرى غير معسول الكلام » وقالت بلهجة هجومية :
ـ لا حاجة بي الى الضحك علي بأجوف الكلام ، لن ارضى بغير الموافقة التامة : لقد ندبني خليل لاختيار زوجة له فقلت له عندي عروس هي خير ما يمكن ان تظفر به فسر لاختياري ولم يعدل بمصاهرتك شيئا .. فهل جاء زمن تقابل فيه مثل هذه الرغبة ، مني انا ، بالصمت والتهرب؟! الله ... الله ..
الام يقع في هذه المشكلة المعقدة التي لا يمكن ان يخرج منها دون ان يصيب احدى ابنتيه بصدمة قاسية ؟! ..ونظر اليها كما يستجدي عطفها على موقفه ، وغمغم :
ـ ليس الامر كما تتصورين ، رغبتك فوق العين والرأس ،ولكن..
ـ آه من لكن ! ... لا تقل انك قررت الا تزوج الصغرى حتى تتزوج الكبرى ، من انت حتى تقرر هذا او ذاك ؟ ... دع ما لله لله وهو ارحم الراحمين ، ان شئت ضربت لك عشرات الامثال عن اخوات صغار تزوجن قبل الكبار فلم يحل زواجهن دون زواج اخواتهن باحسن الازواج وخديجة شابة ممتازة ولن تعدم زوجا صالحا عند ما يشاء الله ... الام تقف حائلا بين عائشة وبين حظها ؟ ... اليست هي الاخرى جديرة بعطفك ورحمتك ؟!
قال لنفسه : اذا كانت خديجة شابة ممتازة فلماذا لا تختارينها ؟! .. وهم باحراجها كما احرجته ولكنه خاف ان ترميه باجابة تتضمن اساءة ـ ولو بحسن نية ـ لخديجة وبالتالي له هو ، وقال بصوت ملؤه الجد والاهتمام :
ـ ليس الا انني اشفق على خديجة .
فقالت بحدة كأنما هي المطالبة لا هو :
ـ كل يوم تقع أمور كهذه دون ان تربك احدا ، ان الله يكره من

عبده العناد والمكابرة ، أقبل رجائي وتوكل على الله ، لا ترفض يدي فاني ما مددتها الى احد قبلك ..

فداری السيد انفعاله بابتسامة وقال :

ـ هذا شرف عظيم كما قلت لك منذ لحظة ... فقط امهليني قليلا ريثما اراجع نفسي وارتب اموري ، وستجدين رأيي عند حسن ظنك انشاء الله ...

فقالت بلهجة من يجهز على الحديث :

ـ لا يجوز ان آخذ من وقتك اكثر مما أخذت ، ثم انه كلما طال الاخذ والرد خيل الي انك لا تتقبل رغبتي بقبول حسن ، ومثلي من تطمع اذا قلت لك اريد ان تبادرها بنعم دون لت وعجن ، فلن ازيد عما قلت الا كلمة واحدة : خليل ابني وابنك وعائشة بنتك وبنتي ...

وقامت فقام السيد ليودعها ، لم يكن يتوقع الا كلمة توديع وتحية ، ولكنها ابت الا ان تذكره بوصاياها جملة . كأنما خافت ان يفوته شيء منها فاعادتها تفصيلا ، وما يدري ـ أو ما تدري ـ الا وهي ترجع لتاييد بعض آرائها وتوكيد البعض الاخر ، ثم غلبها تداعي الافكار فاسترسلت فيه بلا ممانعة حتى اعادت على مسمعه جل ما قالت عن الخطبة ، والى هذا كله لم تشأ ان تنهي ذاك الحديث دون ان تودع حديث الام المبعدة بكلمة او كلمتين او ثلاث واذا بتداعي الافكار يغلبها مرة اخرى فتسترسل فيه حتى كاد الرجل يفقد اعصابه ، ثم اوشك ان يضحك في النهاية وهي تقول له : « لا يجوز ان آخذ منك اكثر مما اخذت » واوصلها الى الباب مشفقا في كل خطوة من ان تتوقف عن المسير وتشتبك في الكلام كرة اخرى ، ثم عاد اخيرا الى مجلسه وهو يتنفس من الاعماق ، عاد مغتما مكتئبا ، قلب رقيق ، أرق مما يظن الكثيرون ، بل ارق مما ينبغي ، فكيف يصدق هذا من لا يرونه الا مكشرا او صاخبا او ضاحكا ساخرا ! ... ان مسة حزن تلذع فلذة من كبده خليقة بان تنغص العيش كله وتطين وجه الحياة في عينيه ، ولكم يسعده ان يجود بكل غال في سبيل اسعاد فتاتيه سواء هذه التي يرى في وجهها الجميل وجه امه او تلك التي لم تصب من الحسن

الا لونا شاحبا ، كلتاهما من نبض قلبه وعصارة روحه ، بيد ان الزوج الذي تقدمه حرم المرحوم شوكت لقية بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، فتى في الخامسة والعشرين ، ذو دخل شهري لا يقل عن الثلاثين جنيها ، حقا انه ككثير من الاعيان لا عمل له ، وحقا ان حظه من التعليم ضئيل لا يتعدى معرفة القراءة والكتابة ، ولكنه يتصف بجملة من خلال ابيه في الطيبة وكرم الاخلاق ، ما عسى ان يفعل ؟ .. يجب ان يحسم امره لانه لم يألف التردد ولا الشورى ولا يقبل ان يبدو امام أهله ــ ولو لحظة قصيرة ــ كمن لا رأي قاطعا له، الا يشاور خاصته المقربين ؟. انه لا يرى غضاضة في مشاورتهم كلما جد أمر والواقع ان سمرهم يبدأ عادة بمناقشة الهموم والمشاكل قبل ان تطير بهم الخمر الى الدنيا التي لا تعترف بالهموم والمشاكل ، ولكنه قدر ما يستبد في باطنه برأيه فلا يحيد عنه ، فهو من الذين يلتمسون في الشورى ما يؤيد رأيهم لا ما يعدل بهم عنه ، ولكنها حتى في هذه الحال عزاء ومتنفس ، ولما ضاق الرجل بافكاره هتف قائلا :

ــ من يصدق ان ما بي من هم لا يحتمل ما هو الا نتيجة لخير اكرمني به الله ؟! ...

★ ★

لم يكن لامينة من عمل في أيام منفاها الا الجلوس الى جانب امها والاسترسال في الحديث ، في كل ما يخطر على البال من احاديث تجاذبها الماضي البعيد والماضي القريب والحاضر ، ما بين الذكريات العزيزة والمأساة الراهنة ولولا عذاب الفراق وشبح الطلاق لاطمأنت الى حياتها الجديدة كعطلة للاستجمام من عناء الواجبات او كرحلة خيالية ، عالم الذكريات ،بيد ان مرور الايام دون وقوع الشيء الذي تخاف وما بلغها من شفاعة اممريم وحرم المرحوم شوكت لدى السيد ، كل اولئك ثبت قلبها وروح عن نفسها، الى ان زيارات الابناء المسائية لم تنقطع يوما واحدا طلت جوى صدرها بنفحات امل متجددة ، ومع ان الزمن الذي يتغيبونه عنها في البيت الجديد لم يزد كثيرا عن نظيره في البيت القديم ــ في كلتا الحالتين لم تكن تجتمع بهم الا حين فراغهم في جلسة المساء ــ الا انها باتت تشتاق اليهم اشتياق

المغترب في بلد بعيد الى احباب فرق الدهر بينه وبينهم ، اشتياق من حرم عليه تنفس جوهم والعيش بين ذكرياتهم ، والاشراف على مواطن جدهم ولهوهم ، كأن الجسم كلما قطع في طريق الفراق قيراطا كابده القلب أميالا، ودأبت العجوز على ان تقول لها كلما وجدت منها صمتا او آنست في حديثها الشرود :

ـ الصبر يا امينة ، اني أرثي لحالك . الام غريبة ما ابتعدت عن ابنائها ، غريبة ولو حلت في البيت الذي ولدت فيه ..

أجل انها غريبة ، كأنه ليس البيت الذي لم تعرف حياتها الاولى سواه موطنا ، وكأنها ليست الام التي لم تكن تطيق البعد عنها لحظة واحدة ، لم يعد « بيتها » ما هو الا منفى تنتظر بين جدرانه على لهف العفو من السماء . وجاء العفو بعد طول انتظار ، حمله الابناء ذات مساء، دخلوا عليها وفي اعينهم لمعة كسنا البرق خفق لها فؤادها خفقة اهتز لها الصدر كله حتى اشفقت من ان تكون ذهبت في تأويلها الى ابعد مما تحتمل،ولكن كمال جرى نحوها وتعلق بعنقها ثم هتف بها وهو لا يتمالك نفسه من الفرح :

ـ البسي ملاءتك وهيا بنا ...

وقهقه ياسين قائلا :

ـ جاء الفرج (ثم هو وفهمي معا) دعانا ابي وقال لنا اذهبا فعودا بأمكما ....

وغضت بصرها لتداري فرحتها الغامرة . ما اعجزها عن كتمان ما يضطرب في نفسها من شتى العواطف ، كأن وجهها مرآة شديدة الحساسية لا تترك كبيرة ولا صغيرة مما في اعماقها الا سجلته . لشد ما ودت ان تتلقى النبأ السعيد بهدوء خليق بأمومتها ، ولكن الفرح استخفها فضحكت اساريرها ونطقت بابتهاج صبياني ، وفي نفس الوقت تولاها حياء لم تدر له سببا . وطال جمودها في مكانها فنفذ صبر كمال فشدها من يدها راميا بثقله الى الوراء حتى طاوعته ناهضة ، ووقفت قليلا في ارتباك غريب وما تدري الا وهي تلتفت الى امها متسائلة :

ــ اذهب يا أمي ؟

بدا السؤال الذي ند عنها في نغمة الارتباك والحياء ــ غريبا ، فابتسم فهمي وياسين . ودهش كمال وحده فيما يشبه الانزعاج وراح يؤكد لها نبأ العفو الذي جاءوا به . أما الجدة فقد شعرت بشعورها كله وحدست باطنها فرق قلبها وتحاشت ان تظهر الانكار لسؤالها ولو بابتسامة خفيفة، وقالت بلهجة جدية :

ــ الى بيتك مصحوبة بسلامة الله ..

فذهبت امينة لترتدي ملاءتها وتصر ثيابها وكمال في اعقابها ، وهنا خاطبت الجدة الشابين متسائلة بلهجة انتقادية خففتها بابتسامة رقيقة :

ــ أما كان الاخلق بابيكما ان ياتي بنفسه ... ؟!

فأجابها فهمي كالمعتذر قائلا :

ــ انت ادرى يا جدتي بطبع ابينا ..

على حين قال ياسين ضاحكا :

ــ فلنحمد الله على ما كان .. !

فهمهمت الجدة بأصوات غير مفهومة ثم تنهدت قائلة كأنما ترد على همهمتها :

ــ على أي حال السيد احمد رجل ولا كل الرجال .

وغادروا البيت ودعاء الجدة لهم بالبركة يتردد في آذانهم ، وقطعوا الطريق معا لاول مرة في حياتهم حتى بدا المنظر في أعينهم بالغا في غرابته فتبادل فهمي وياسين نظرات باسمة . وتذكر كمال يوم سار ــ كما يسير الان ممسكا بيد أمه يقودها من عطفة الى عطفة ، ثم ما تلى ذلك من آلام ومخاوف لا يحيط بها الكابوس نفسه فتعجب طويلا ، بيد أنه تناسى سريعا أحزان الماضي في فرحة الساعة ، ووجد من نفسه ميلا للدعابة فقال لأمه ضاحكا :

ــ تعالي نخطف ارجلنا الى سيدنا الحسين .. !

فضحك ياسين بلهجة ذات معنى :

ــ رضي الله عنه ، انه شهيد يحب الشهداء .

ولاحت لهم المشربية وشبحان يتحركان وراء خصاصها فهفا قلب الأم اليهما في حنو واشتياق ، ثم وجدت وراء الباب أم حنفي في استقبالهـــا فغمرت يدي سيدتها بالقبل ، والتقت في فناء الدار بخديجة وعائشة اللتين تعلقتا بها كالاطفال ، وراقوا السلم في مظاهرة صاخبة ، ونشوة من الفرح مطربة حتى استقروا جميعا في حجرتها فتبادروا الى نزع ملابسها ــ رمز الفراق البغيض ــ وهم يضجون بالضحك ، فلما جلست بينهم كانت تلهث من الانفعال والتأثر ٠ واراد كمال ان يعبر عن فرحه بها فلم يجد خيرا من أن يقول لها :

ــ هذا اليوم أعز عندي من المحمل نفسه ٠!

واجتمع شمل الاسرة لأول مرة منذ زمن غير يسير في مجلس القهوة، فعادوا الى السمر في جو من المسرة ضاعف من بهجته ما سبقه من أيام فراق وكآبة تزداد لذة اليوم الدفيء يجيء في أعقاب اسبوع من الزمهرير ، ولم تنس الأم ــ التي استيقظت غرائزها رغم فرحة اللقيا ــ ان تسأل الفتاتين عن شؤون البيت متدرجة من حجرة الفرن حتى اللبلاب والياسمين ، كمـا سألت كثيرا عن الأب ، وكم سرها ان تعلم أنه لم يسمح لأحد بمعاونتـه عند خلع ملابسه او عند ارتدائها ، فمهما يكن من أمر الراحة التي تهيأت له في غيابها فثمة تغيير قد طرأ على نظام حياته حمله بلا ريب عناء سيزول بعودتها ، عودتها التي تكفل له ــ وحدها ــ الحياة التي يألفها ويرتـاح اليها ٠٠٠ ! الشيء الوحيد الذي لم يخطر لامينة على بال ان تكون بعض القلوب السعيدة بعودتها قد وجدت في هذه العودة بالذات مبررا لاجترار الحزن والاسى ! ٠٠٠ ولكن هكذا كان ، فهذه القلوب التي شغلت بحزن الأم عن أحزانها عادت الى التفكير في أشجانها بعد أن اطمأنت على سلامة الأم كالمغص الشديد الطاريء تنسى به رمدا مزمنا حتى اذا ذهب عادتنـا آلام الجفون ، عاد فهمي يقول لنفسه « لكل حزن ــ فيما يبدو ــ نهاية ٠ هذه أمي قد رفع عنها الهم ، ولكن حزني يبدو كأن لا نهاية له » ، ورجعت عائشة الى أفكارها التي لايطلع على سرها احد ، تتراءى لها الاحلام وتلم بها الذكريات وان عدت بالقياس الى أخيها أهدأ حالا وأسرع الى النسيان

خطوة ، ولكن أمينة لم تكن تقرأ الافكار فلم ينغص عليها صفوها منغص، ولما آوت الى حجرتها ليلا تبين لها ان النوم لا يجد متسعا في نفسها التي افعمها الفرح فلم تذقه الا لماما حتى انتصف الليل فغادرت الفراش الى المشربية تنتظر كعهدها مسرحة البصر من خصاص النوافذ الى الطريق الساحر حتى جاءت العربة تتهادى حاملة بعلها الى بيته . خفق قلبها بشدة ، وتورد وجهها حياء وارتباكا ، كأنها ستلقاه لاول مرة ، وكأنها لم تفكر طويلا في هذه اللحظة . . لحظة اللقاء المنتظر ، كيف تقابله ؟ ... كيف يعاملها بعد هذه الغيبة الطويلة ؟ ... ما عسى ان تقول له أو يقول لها ؟. لو يسعها ان تتصنع النوم ! . ولكنها لا تجيد التمثيل قط ولا تطيق ان يدخل عليها وهي مستلقية ، بل لا يسعها ان تهمل واجب الخروج الى السلم بالمصباح لتضيء له ، واكثر من هذا كله انها بعد ظفرها بالعودة وزوال السخط عنها ــ شاعت اريحية الرضا في قلبها فعفت عما سلف بل وحملت نفسها الذنب كله حتى رأت بعلها ــ بالرغم من انه لم يعن بالذهاب الى بيت امها لمصالحتها ــ حقيقا بالاسترضاء ، فتناولت المصباح ومضت الى السلم ومدت ذراعها من فوق الدرابزين ووقفت تتابع وقع القدمين المقتربتين بفؤاد خافق حتى صعد اليها ، لقيته برأس مطأطأ فلم تر وجهه عند اللقاء ، ولم تدر أي تغير طرأ عليه حين مرآها . حتى سمعته يقول لها بلهجة طبيعية لا أثر فيها من الماضي القريب الاسيف :

ــ مساء الخير ...

فغمغمت :

ــ مساء الخير يا سيدي ...

وذهب الى الحجرة وهي في أثره رافعة يدها بالمصباح . وبدأ يخلع ملابسه صامتا فتقدمت منه لمعاونته وباشرت عملها وقلبها يردد انفاس الراحة. ومع انها ذكرت صباح القطيعة المشؤوم حين نهض لارتداء ملابسه وقال لها بجفاء « سأرتدي ملابسي بنفسي » الا أن ذكراه خطرت عارية عن أحاسيس الالم واليأس التي غشيتها وقتذاك ، وشعرت وهي تتعهده بهذه الخدمة التي لم يسمح بها لسواها بأنها تسترد أعز ما تملك في الوجود . واتخذ مجلسه على الكنبة فتربعت على الشلتة عند قدميه دون ان ينبس

احدهما بكلمة ، وكانت تتوقع ان يشيع « الماضي الاسيف » بكلمة ،نصيحة او تحذير او ما شابه ذلك ، وعملت لذلك ألف حساب ولكنه سألها ببساطة:

ــ كيف حال أمك ؟

فأجابته وهي تتنهد بارتياح :

ــ بخير يا سيدي وتهديك التحية والدعاء .

ومضت فترة صمت اخرى قبل ان يقول فيما يشبه عدم الاكتراث :

ــ حرم المرحوم شوكت فاتحتني برغبتها في اختيار عائشة زوجها لخليل ...

فرفعت اليه امينة عينيها في دهشة ناطقة بأثر المفاجأة ، ولكنه هز كتفيه استهانة ، وكأنما خاف ان تدلي برأي يتفق ان يكون موافقا لقراره الذي يعلم به أحد فتقوم عندها شبهة ظن بأنه اخذ برأيها فسبق قائلا :

ــ فكرت في الامر طويلا فانتهى بي التفكير الى الموافقة ، لا اريد ان اعترض حظ البنت اكثر مما فعلت ، ولله الامر من قبل ومن بعد ..

★ ★

تلقت عائشة البشرى بفرح جدير بفتاة تستشرف حلم الزواج منذ الصبا الباكر لا يشغلها عنه شاغل . وكادت لا تصدق اذنيها حين زف اليها الخبر ، هل حقا وافق ابوها ؟ هل بات الزواج حقيقة قريبة لا حلما ذا دعابات قاسية ؟ .. لم يكن قد فات على الخيبة التي منيت بها الا قرابة اشهر ثلاثة ، ومع ان وقعها في نفسها كان شديدا قاسيا الا انه مضى يخف ويهون مع الايام حتى أمسى ذكرى شاحبة تستثير ــ اذا استثيرت ــ حزنا رقيقا غير ذي خطورة ، كل شيء في هذا البيت يخضع خضوعا اعمى لارادة عليا ذات سيطرة لا حد لها هي بالسيطرة الدينية أشبه ، حتى الحب نفسه ــ بين جدرانه ــ يسترق خطاه الى القلوب في حياء وتردد وعدم ثقة بالنفس ، فلا يتمتع بما يتمتع به عادة من سطوة واستبداد ، اذ لا استبداد هنا الا لتلك الارادةالعليا ، ولذلك فعندما قال الأب « لا » استقر قوله في أعماق نفسها وآمنت الفتاة ايمانا راسخا ان كل شيء قد انتهى حقا ، لا مهرب ولا مراجعة ولا رجاء بنافع ، كان « لا » هذه حركة

كونية كاختلاف الليل والنهار ، غير مجد أي اعتراض عليها ، ولا محيد عن اتخاذ موقف موافق لها ، وعمل هذا الايمان من ناحيته ــ بشعور وبغير شعور منها ــ على انهاء كل شيء فانتهى . على أنها تساءلت فيما بينها وبين نفسها : اذا كانت الموافقة على زواجها قد تمت ولما ينقض على الرفض السابق ثلاثة اشهر فلم تكن من نصيب الشاب الذي هفا الفؤاد اليه ؟ . ألا ينطوي حظها السعيد نفسه ــ تبعا لذلك ــ على معاكسة غير مفهومة ؟ بيد انه تساؤل ظل في طي الكتمان ، لم يطلع عليه أحد ولا أمها نفسها . لان اعلان الفرح بالعريس ــ كشخصية معنوية فحسب ــ عد استهتارا يجافي الحياء ، فما بالك باظهار الرغبة في رجل بالذات !. ولكن بالرغم من هذا كنه ، وبالرغم من ان العريس الجديد كان مجهولا لديها الا فيما حدثت عنه أمه في جملة حديثها عن أسرتها فقد سعدت بالبشرى أيما سعادة ، ووجدت عواطفها الظامئة قطبا تنجذب اليه في هيمانها ، كأن حبها نوع من «القابلية» اكثر منه تعلقا برجل بالذات ، فاذا استبعد رجل وحل محله آخر ظفرت قابليتها بما يشبعها ، ومضى كل شيء في سبيله ، وقد يكون رجل آثر عندها من اخر ولكن ليس الى الحد الذي يفسد معه طعم الحياة أو يدفع الى التمرد والعصيان ، ولما طابت نفسا ورف قلبها رفيف الغبطة انبعث منها نحو أختها ــ كشأنها في مثل هذه الحال ــ عطف ورحمة غير مشوبين ، فودت لو أنها سبقتها الى الزواج ، وقالت لها بين الاعتذار والتشجيع :

ــ وددت لو تقدمتني الى بيت الزوجية !.. ولكنها القسمة والنصيب وكل آت قريب ..

ولكن خديجة ــ التي تضيق عند الهزيمة بعزاء العطف ــ تلقت قولها بامتعاض شديد لم يخف عليها . وقبل ذلك اعتذرت لها أمها قائلة برقتها وحيائها المعهودين :

ــ تمنيا جميعا ان يكون دورك السابق ، وعملنا على هذا اكثر من مرة ، ولكن لعل عنادنا فيما ليس لنا فيه من حيلة هو الذي عاق حظك الى اليوم ، فلندع الامور تسير كما يشاء الله ، وكل تأخيرة فيها خيرة ...

ووجدت من ياسين وفهمي نفس العطف يبديانه تارة بالكلام المباشر ،

ويصدران عنه تارة أخرى فيما يحيطانها به من مجاملة حلت ــ ولو الـى حين ــ محل المزاح القارص الذي كان مألوفا بينها وبينهما او بينها وبين ياسين خاصة . والحق انه لم يعدل حزنها على سوء حظها الا نرفزتها مـن العطف الشائع في جوها لا لنفور من العطف مركب في طبعها ؛ ولكن لان مثلها مثل المصاب بالانفلونزا يضار بالتعرض للهواء المطلق الذي ينعشـه عادة وهو صحيح . فما كانت تأبه لعصف تعلم أنه بديل غيـر مجد لأمـل ضائع . ولعلها ارتابت ــ الى هذا كله ــ في البواعث التـي تدفعهم الـى اغداق العطف عليها . ألم تكن أمها الوساطة دائما بين الخاطبات وبين أبيها؟ فمن يدريها انها كانت تقوم بالوساطة أداء لواجب ربة البيت لا سعيا وراء رغبة خفية في تزويج عائشة ؟! أو ليس فهمي هو الذي حمل رسالة ضابط قسم الجماليه ؟ ... ألم يكن بوسعه ان يعدل به عن رأيه من وراء وراء ؟!.

أو ليس ياسين ... ولكن بأي وجه تلوم ياسين وقد خانها من هو اقرب منه اليها ؟ ... فأي عطف هذا ؟! بل اي رياء وأي كذب ! لذلـك برمت بالعطف ، وذكرت به الاساءة لا الاحسان ، فامتلأت حنقا وامتعاضا ولكنها طوتهما في الاعماق ان تظهر بمظهر الكاره لسعادة أختها أو تعرض نفسها ــ هكذا صور لها سوء ظنها ــ لشماتة الشامتين، على أنه لم يكن لها محيد عن كتمان عواطفها لان الكتمان في هذه الاسرة ــ خاصة فيمـا يتعلق بالعواطف ــ عادة متأصلة وضرورة اخلاقية طبعت عليه في ظـل الارهاب الأبوي . وبين الحنق والامتعاض من ناحية والكتمان والتظاهر بالرضى من ناحية اخرى لاقت من حياتها عذابا متصلا وجهـدا مطـردا . وأبوها ؟! .. ماذا عدل به عن رأيه القديم ؟! .. أهانت عليه بعد اعزاز ؟! ... هل نفد صبره في انتظار زواجها فقرر التضحية بها وتركها للاقدار ؟! لشد ما تعجب لتخليهم عنها كأنها شيء لا يكون ، نسيت في ثورتها مواقفهم السابقة في الدفاع عنها فلم تذكر الا «خيانتهم» الاخيرة ، على انغضبتهـا العامة هذه لم تكن شيئا بالقياس الى ما تجمع في صدرها نحو عائشة من مشاعر الغيرة والحنق ! كرهت سعادتها ، وكرهت اكثر مداراتها لهـذه السعادة ، وكرهت جمالها الذي بدا في عينيها اداة تنكيل وتعذيب كمـا

يبدو البدر الساطع في عين المطارد ، ثم كرهت الحياة التي لم تعد تدخر لها الا اليأس ، وتتابعت الايام لتزيدها حزنا على حزن بما حملت الى البيت من هدايا العريس ونفحاته وبما نشرت في الجو كله من بواعث الغبطة والفرح فوجدت نفسها في غربة موحشة تتوالد فيها الاشجان كما تتوالد الحشرات في البركة الآسنة ، ثم شرع السيد في تجهيز العروس فاستأثر حديث الجهاز بجلسات الاسرة المسائية ، تعرض عليها انواع من الاثاث والثياب فتطري شيئا وتعرض عن شيء ، أوزان بين لون ولون ، في اهتمام نسوا فيه الشقيقة الكبرى وما يجب لها من عزاء ومجاملة ، وحتى هي نفسها اضطرت ــ مجاراة لما تتظاهر به من رضى ــ الى المشاركة في نشاطهم وحماسهم ومناقشاتهم التي لا تنتهي • بيد ان هذا الموقف العاطفي المعقد، الذي يبدو لعين الغريب عن الاسرة كنذير شر لا تحمد عواقبه ، تغير فجأة حين أتجه التفكير الى تفصيل ثياب العروس ، وبالتالي حين تعلقت الابصار بخديجة وتركز فيها الاهتمام كله والامل كله • وقد توقعت هذا الواجب كأمر لا مفر منه ، يحنقها قبوله اشد الحنق ولا يسعها رفضه والا فضحت خبيئتها ، ولكنها ، حين تطلعت اليها الابصار فأوصتها امها بأختها خيرا ورنت اليها شقيقتها بعين ملؤها الحياء والرجاء وقال فهمي لعائشة على مسمع منها : « لن تكوني عروسا حقا حتى تحيك لك خديجة ثياب العرس » ، وقال ياسين معلقا على قوله : « صدقت ••• هذه الحقيقة فوق الجدل » ، حين حدث هذا كله فتر حنقها وعقل ثورتها الحياء فطفت عواطفها الطيبة المطمورة ، كما يستخرج الماء العذب الاخضر من البذور الكامنة تحت الطين ، ولم ترتب في بواعث هذا الاهتمام كما ارتابت من قبل في بواعث العطف « الزائف » لشعورها بصدقه من ناحية ولانه اتجه الى براعتها التي لا شك فيها من ناحية اخرى • فكأنه اعتراف جامع باهميتها وخطورة شأنها ، وبأن هذه السعادة ــ التي أبت أن تكون من نصيبها ــ لن تستكمل عناصرها حتى تسهم هي فيها ، فاستقبلت العمل الجديد بنفس تخففت الى اقصى حد ممكن من انفعالاتها السوداء ، ان الانفعالات السوداء تلم بأنفس هذه الاسرة كما تلم بغالبية البشر ولكنها لا تظفر منها بقلب

أسود فترسب فيه وتستقر ، منهم من قابليته للغضب كقابلية الكحول للاشتعال ، ولكن سرعان ما يسكت عنهم الغضب فتصفو نفوسهم وتعفو قلوبهم كأيام من شتاء مصر يطلخم سحابها حتى تمطر رذاذا وما هي الا ساعة او بعض ساعة حتى تنقشع السحب عن زرقة صافية وشمس ضاحكة، لا يعني هذا ان خديجة نسيت احزانها ولكن السماحة صفتها من الضغينة والحقد ، ويوما فيوما لم تعد تعتب على عائشة ولا على احد من أهلها بقدر ما عتبت على بختها حتى نصبته في النهاية هدفا لامتعاضها وتدمرها ، ذلك البخت الذي قتر عليها في الحسن وأجل زواجها حتى جاوزت العشرين وكدر غدها بالقلق والمخاوف ، واستسلمت اخيرا ـ كأمها ـ للمقادير . عجز جانبها الحامي الموروث عن ابيها ، كما عجز جانبها المعقد المكتسب من موقفها حيال بيئتها ، عن معالجة حظها العاثر ، فوجدت السلامة في ان تلوذ بالجانب السلمي الموروث عن امها فاستسلمت للمقادير . كالقائد الذي تعييه الحيل عن بلوغ الهدف فيختار موقعا ذا حصانة طبيعية ليثبت فيه فلوله ، او يدعو الى الصلح والسلام ، وراحت تشكو بثها في الصلاة ومناجاة الرحمن ، والحق انها كانت ـ منذ صباها ـ تجاري أمها في تدينها ومحافظتها على الفرائض بمثابرة دلت على يقظة عاطفتها الدينية ، لا كعائشة التي تلم بالعبادة في نوبات حماسية متباعدة ولا تطيق المداومة عليها وطالما تعجبت خديجة ـ وهي بمعرض المقارنة بين حظها وبين حظ اختها ـ من سوء الجزاء الذي تثاب به على اخلاصها ، وحسن الجزاء الذي تثاب به الاخرى على تهاونها .. « اني احافظ على الصلاة اما هي فلم تطق المحافظة عليها يومين متتالين ، واني اصوم رمضان كله واما هي فتصوم يوما او يومين ثم تتظاهر بالصوم على حين تنسل خفية الى المخزن فتملأ بطنها بالنقل حتى اذا أطلق مدفع الافطار هرعت الى المائدة قبل الصائمين ! » ... وحتى من ناحية الجمال لم تسلم لعائشة بدون قيد ولا شرط . نعم انها لم تجهر برأيها لاحد ، بل لعلها تؤثر كثيرا ان تهاجم نفسها بنفسها لتقطع الطريق على المتحفزين ولكنها كانت تطيل النظر الى وجهها في المرآة وتناجي نفسها قائلة : « عائشة جميلة بلا شك ولكنها

نحيلة ، السمانة نصف الجمال . انا سمينة ، واكتناز وجهي يكاد يغطي على كبر أنفي ، لم يبق الا ان يشد بختي حيله • » على انها فقدت ثقتها بنفسها في الازمة الاخيرة ، ومع انها عاودت كثيرا تلك المناجاة عن الجمال والسمانة والبخت الا أنها عاودتها هذه المرة لتذري ـــ امام نفسها ـــ احساسها المقلق بعدم الثقة كما نلجأ احيانا الى المنطق لنستمد منه الطمأنينة على أمور ـــ كالصحة والمرض والسعادة والشقاء والحب والكراهية ـــ لا تمت الـــى المنطق بسبب •••

ولم تنس امينة ـــ رغم كثرة مشاغلها كأم العروس ـــ خديجة ، او أن فرحها للعروس كان يذكرها بحزنها على اختها كما تذكرنا الراحة التـــي نحظى بها بفعل مخدر بالالم الذي سيعاودنا بعد حين • وكأن زواج عائشة قد اثار مخاوفها القديمة عن خديجة فارسلت ـــ التماسا للطمأنينة من أي سبيل ـــ ام حنفي الى الشيخ رؤوف بالباب الاخضر حاملة منديل خديجة ليقرأ طالعها ، وعادت المرأة بنوع من البشرى فقالت لسيدتها ان الشيـــخ قال لها « ستحملين الي رطلين من السكر عما قريب » ومع انها لم تكـــن أول بشرى من هذا النوع تزف اليها عن خديجة الا انها املتها خيـــــرا ورحبت بها كمسكن للقلق الذي لا يزايلها •

★ ★

« ألم يئن الأوان يا بنت المركوب ؟! ذبت يا مسلمين ، ذبت كالصابونة ولم يبق منها الا رغوة ، هي تعلم بهذا ولا تريد ان تفتح النافذة ، تدللي •• تدللي يا بنت المركوب ،ألم نتفق على هذا الميعاد ، ولكن لك حق ••• فردة ثدي من صدرك تكفي لخراب مالطة ••• وفردة ألية تطير مخ هندنبرج، عندك كنز ، ربنا يلطف بي ، ربنا يلطف بي وبكل مسكين مثلي يؤرقه الثدي الناهد والعجيزة المدملجة والعين المكحولة ، العين المكحولة في الاخر ،اذ رب ضريرة ريا الروادف كاعب الثديين خير الف مرة من عجفـــاء مسحاء مكحولة العينين ، يا بنت العالمة وجارة التربيعة ••• تلك لقنتك اصـــول الدلال وهذه تمدك باسرار الجمال ، لهذا ينهد ثدياك من كثرة من عبث بهما من العشاق ، اتفقنا على الميعاد لست احلم ، افتحي النافذة ، افتحي يـــا

بنت المركوب • افتحي يا اجمل من اقشعرت لها سرتي،ومص الشفة ورضع الحلمة انتظرن حتى مطلع الفجر ، ستجدينني طوع بنانك ، او أردت ان اكون مؤخر عربة الكارو التي تتأرجحين عليه أكنه ، ان اردت ان أكـون الحمار الذي يجر العربة أكنه ، يا واقعتك يا ياسين ، يا خراب بيتك يا بن عبد الجواد • يا شماتة الاستراليين فيك يا انا يا طريد الازبكية وحبيس الجمالية . الحرب ياهوه . شنها غليوم في اوروبا ورحت ضحيتها أنـا في النحاسين ، افتحي النافذة يا روح آمك . افتحي يا روحي انا ••• » هكذا جعل ياسين يحادث نفسه وهو جالس على الاريكة بقهوة سي علي ،وعيناه تتطلعان الى بيت زبيدة العالمة خلل الكوة المطلة على الغورية ، كلما شكـه الجزع غرق في أحلامه وخواطره فترفه جزعه وتهيج اشواقه معا ، كبعض المنومات الطبية التي تعالج الأرق وتتعب القلب •كان قد تقدم خطوة موفقة في مغازلة زنوبة العوادة مغازلة خرج بها من دور التحضير ــ ملازمة قهوة سي علي مساء والنظر والسير وراء عربة الكارو والابتسام وفتل الشارب وتلعيب الحاجب ــ الى دور المفاوضة والتأهب للعمل ، حدث ذلك فـي عطفة التربيعة الطويلة الضيقة المسقوفة بالخيش الملتوية ذات الدكاكـين الصغيرة المتلاصقة على الجانبين كخلايا النحل • ولم تكن التربيعة بالجديدة عليه ، كيف وهي سوق النسوان من جيمع الطبقات يتقاطرن عليها لابتيـاع ما خف حمله وجلت فوائده من مختلف صنوف العطارة ذوات البهجـة والجمال والنفع ، فهي هدفه كلما خلا طريقه من هدف يجذبه اليه ، وهي مراحه صباح الجمعة يقطعها متمهلا ــ بحكم الزحمة والرغبة معا ــ مـن طرف الى طرف كأنما يستعرض الدكاكين لانتقاء حاجة وهو في الحقيقـة يتصفح الوجوه والاجسام ما تنحسر عنه البراقع وما تضيق به الملاءات ، ما يرى جملة وما يرى تفصيلا ، ما يسطع هنا وهناك من روائح زكية ، ما يند من حين لاخر من اصوات او يوسوس من ضحكات ، ملتزما عادة حدود الادب لغلبة العناصر الطيبة على الزائرات ، قانعا بالمشاهدة والمـوازنة والنقد ، لاقطا من المرئيات صور ممتازة يزين بها متحف ذاكرته ، فـلا يفوق سعادته شيء اذا ظفر بلون بشرة صاف لم يره من قبل ، او بلحظ عين

لم يتعرض لمثله ، أو لثدي عجيب في نهوده ، أو لعجيزة خرقت المألوف في ضخامتها او حسن تكوينها فيرجع مرة وهو يقول : « فاز بالسبق اليوم نهد الست التي كانت واقفة امام الدكان الفلاني » أو « هذا يوم الكفل الرابي رقم ٥ » أو « يا لها من حقيبة ويا لها من حقيبة ... هذا يوم الحقائب المشرفة » اذ تأدي به مزاجه الى التهالك على جسم المرأة متجاهلا شخصيتها ثم الى تركيز العناية في اجزاء من الجسم متجاهلا جملته ، وكأنه في هذا كله ينعش آماله ويجددها ابدا كرجل لا يقدم على النسوان غاية في دنياه - عند الفرص المحتملة المدخرة ليوم أو لغد ، الى ما يسنح له في هذه الجولات الجنسية من صيد طيب في احوال نادرة . ففي ذات أصيل - وهو بمجلسه تحت الكوة بقهوة سي علي - رأى العوادة تغادر البيت بمفردها فنهض من توه وتبعها ، ومالت الى عطفة التريبعة فمال وراءها ، ثم وقفت أمام دكان فوقف الى جانبها ، وانتظرت حتى يفرغ العطار من بعض الزبائن فانتظر ولم تلتفت ناحيته فاستدل بذلك «التجاهل» على انها فطنت لوجوده - كما لا بد ان تكون حدست متابعته لها من بادىء الامر - فهمس قريبا من انفها « مساء الخير » فواصلت النظر الى الامام الا انه لمح بجانب فيها انحراف ابتسامة ردا لتحيته ، او مكافأة له على طول متابعته لها مساء انحراف ابتسامة ردا لتحيته ، او مكافأة له على طول متابعته لها مساء بعد مساء ، فتنهد تنهد الراحة والظفر مطمئنا الى جني ثمرة صبره فسال لعاب شهوته كما يتحلب ريق الجائع النهم اذا تطايرت الى انفه رائحةالشواء الذي يهيأ له ورأى عن حكمة ان يتظاهر بأنهما جاءا معا فأدى ثمن مشترياتها من الحناء والمغات عن طيب خاطر خليق برجل يؤمن بانه - بأداء هذا الواجب اللذيذ - يكتسب حقا ألذ وأمتع ، غير مكترث لما بدا منها من الميل الى الاكثار من المشتريات حين طمأنت الى انه سيدفع الثمن .وفي طريق العودة قال لها بعجلة من يخاف وشك انتهاء الطريق « يا ستالحسن والجمال قضيت العمر كما تشهدين وراءك ، وجزاء المحب « اللقاء فقط ؟» فلحظته بنظرة شيطنة متسائلة في تهكم « اللقاء فقط ؟» فكاد يضحك بروحه وجسمه كحاله اذا أخذته نشوة فرح ولكنه بادر الى احكام اغلاق

فيه ان يحدث ضجة تلفت الانظار واجابها هامسا «اللقاء ولوازمه !» فقالت بلهجة انتقادية « الواحد منكم يطلب بكل بساطة « اللقاء » .. كلمة صغيرة ... ولكنه يعني بها عملا ضخما لا ينال عند بعض الناس الا بالسؤال والشفاعة وقراءة الفاتحة والمهر والجهاز والمأذون ، أليس كذلك يا حضرة الافندي الذي يضاهي الجمل طولا وعرضا ؟! » فتورد وجهه فيما يشبه الارتباك وقال « يا له من تأديب مهما يكن من قسوته فانه من شفتيك كالشهد ، أليس هكذا العشق يا ست الحسن مذ خلق الله الارض ومن عليها ؟ » فقالت وهي ترفع حاجبيها حتى حاذيا طرف عروس البرقع فبدت كيعسوب باسط جناحيه « ومن أدراني بالعشق يا جملي ؟! لست الا عوادة ، ترى هل للعشق لوازم ايضا ؟ » فقال وهو يغالب الضحك « هي ولوازم اللقاء شيء واحد » « بلا زيادة ولا نقصان ؟ . » « بلا زيادة ولا نقصان » « لا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة ؟! .. » « لا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة »« لعلها التي يسمونها الزنا ؟! » «بلحمه وعظمه !.» فندت عنها ضحكة ثم قالت « اتفقنا ... انتظر حيث تنتظر كل مساء بقهوة سي علي وعندما افتح النافذة قم الى البيت » . انتظر مساء ومساء ومساء ، مساء خرجت مع الجوقة على الكارو ، ومساء ذهبت مع العالمة في حانطور ، ومساء لم يبد على البيت اثر للحياة ، وها هو ينتظر وقد اعيا اعصاب رأسه طول النظر الى الشباك . ومر موهن من الليل فأغلقت الدكاكين وأقفر الطريق وشمل الغورية ظلام ، ووجد ـ كما يقع له كثيرا ـ في اقفار الطريق واظلامه مثارا غريبا لمكمن الشهوة في جسده فازداد جزعا على جزع . بيد انه لكل شيء نهاية حتى الانتظار الذي يبدو وكأن لا نهاية له فترامى اليه من ناحية الشباك الغارق في الظلمة طقطقة نفخت في حواسه روح أمل جديد كما تنبعث روح الامل في نفس التائه في القطب اذا ترامى الى سمعه ازيز الطيارة التي يحدس انها جاءت للبحث عنه بين الثلوج ، ولاحت فرجة يشع منها ضوء ، ثم تنور شبح العوادة وسط الفرجة فقام من فوره وغادر القهوة عابرا الطريق الى بيت العالمة ودفع الباب دون ان يطرقه فانفتح كأن يدا رفعت مزلاجة فمرق الى الداخل ليجد نفسه في

ظلمة دامسة لم يهتد معها الى موقع السلم فلزم موقفه ليأمن الاصطدام او العثار ووثب الى رأسه سؤال لا يخلو من قلق ، ترى أدعته زنوبة على غير علم من العالمة ؟. وهل تبيح لها العالمة الاجتماع بعشاقها في بيتها ؟ ولكنه أبرز لسانه استهانة لان رادعا لم يكن ليثنيه عن مغامرة ، ولان ضبط عاشق في بيت تقوم جدرانه على مهج العاشقين ليس مما تحاذر عواقبه وانقطع عن التفكير حين لاح لعينه ضوء شاحب يهبط من اعلى ، ثم لمحه يترنح على الجدران التي وضحت رويدا فتبين موقفه على بعد ذراع من اولى درجات السلم عن يمينه ، وما عتم ان رأى زنوبة قادمة وبيدها مصباح فمضى نحوها في سكرة من الشوق وضغط في حنان على ساعدها امتنانا ورغبة حتى ضحكت ضحكة رقيقة اوحت على رقتها بأنها لا تحاذر ، وتساءلت بسكر :

ـ طال انتظارك ؟

فمس سوالفه بانامله وهو يقول بصوت شاك :

ـ شاب شعري الله يسامحك (ثم بصوت خافت) الست هنا ؟فحاكت صوته الخافت على سبيل المزاح وقالت :

ـ نعم ... في خلوة مع رفيق قد الدنيا ...

ـ الا تغضب اذا علمت بحضوري في هذه الساعة ؟

فاستدارت وهي تهز منكبيها استهانة ورقت الدرج وهي تقول :

ـ وهل انسب من هذه الساعة لحضور عاشق مثلك ؟

ـ اذن لا ترى بأسا في اجتماعنا ببيتها ؟

فحركت رأسها حركة راقصة وقالت :

ـ لعلها ترى كل البأس في عدم اجتماعنا .. !

ـ عاشت ... عاشت ...

فاستطردت في لهجة تنم عن الفخر قائلة :

ـ لست عوادة فحسب ، انا بنت اختها ، وهي لا تضن علي بغال .. تقدم بسلام ...

ولما بلغا الدهليز جاءهما من الداخل صوت غناء لطيف يصاحبه عود ودف فأنصت ياسين قليلا ثم تساءل :

ـ خلوة أم حفلة ؟

فهمست في أذنه :

ـ خلوة وحفلة معا ، عشيق السلطانة رجل صاحب طرب ومزاج ، لا يطيق ان يخلو مجلسه ساعة من العود والدف والكأس والضحك ... وعقبى لك ...

ومالت الى باب ففتحته ودخلت وهو وراءها ، ووضعت المصباح على كنصول ثم وقفت امام المرآة لتلقي نظرة فاحصة على صورتها فتناسى ياسين زبيدة وعشيقها الطروب وسدد عينيه المنهومتين الى الجسم المشتهي الذي بدا لناظريه متجردا عن الملاءة لاول مرة ، سددهما بقوة وتركيز وحركهما في أناة وتلذذ من فوق لتحت ومن تحت لفوق . ولكنه قبل ان ينفذ نية من عشرات النوايا التي اعتلجت في صدره قالت زنوبة كأنما تصل ما انقطع من حديثها :

ـ رجل لا نظير له في لطفه وطربه ، اما كرمه فحدث عنه من اليوم الى الغد ... هكذا يكون العشاق والا فلا ..

لم يغب عنه ما في اشارتها الى « كرم » عشيق العالمة من معان ، ومع انه سلم من باديء الامر بأن غرامه الجديد سيفرض عليه ضرائب باهظة الا أن تلميحها ـ الذي بدا له مبتذلا ـ ضايقه ، فلم يسعه الا ان يقول مدفوعا بغريزة الدفاع عن النفس :

ـ لعله رجل واسع الثراء !

فقالت وكأنها تجيبه على مناورته :

ـ الثراء شيء والكرم شيء اخر ... رب ثري بخيل .. !

فتساءل لا عن رغبة في المعرفة ولكن تفاديا من الصمت الذي خاف ان يفضح استياءه :

ـ ترى من يكون هذا الرجل الكريم ؟

فقالت وهي تدير عجلة المصباح لترفع فتيلته :

ـ انه من حينا ولا بد انك تسمع عنه .. السيد احمد عبد الجواد..

ـ من .. !

فالتفتت نحوه دهشة لترى ما افزعه فألفته متصلب القامة جاحظ العينين فسألته مستنكرة :

ـ مالك ؟ ...

كان تلقى الاسم الذي نطقت به كأنه مطرقة هوت بعنف على يافوخه فند عنه التساؤل في نبرات صارخة من الفزع وهو لا يدري ، وغاب عما حوله لحظات مليئة بالذهول ، ثم تراءى له وجه زنوبة في حالة من الدهشة والانكار فخاف افتضاح امره وركز ارادته كلها في الدفاع عن موقفه فعمد الى التمثيل يداري به فزعه فضرب كفا بكف كأنما لا يصدق ما قيل عن الرجل لظنه الوقار به وتمتم مستغربا :

ـ السيد احمد عبد الجواد ! .. صاحب دكان النحاسين ؟

فحدجته بنظرة انتقاد مر لازعاجها بلا سبب وسألته مستهزئة :

ـ نعم هو .. فماذا استصرخك كأنك عذراء تفض بكارتها ؟.

فضحك ضحكة آلية وقال كالداهش وهو يحمد الله في سره على انه لم يذكر لها اسمه كاملا يوم التعارف :

ـ من يصدق عن هذا الرجل الوقور الورع ؟!

ـ فرمته بنظرة ارتياب ثم قالت ساخرة :

ـ أهذا ما أفزعك حقا ؟ ... ولا شيء غيره ؟! .. أظننته من المعصومين ؟ ... وماذا عليه من هذا ؟ .. هل يكمل الرجل الا بالعشق؟!

وقال بلهجة المعتذر :

ـ صدقت ... لا شيء يستحق الدهش في هذه الدنيا (ثم ضاحكا في عصبية) تصوري هذا الرجل الوقور وهو يطارح السلطانة الغرام ويشرب الخمر ويطرب للغناء ..

فقالت وكأنها تكمل حديثه بنفس لهجتها الساخرة :

ـ ويلعب بالدف بيد ولا يد عيوشة الدفافة وينثر النكات كالدرر فيقتل من حوله ضحكا ، وليس عجبا ـ بعد هذا كله ـ ان يرى في دكانه

مثالا للجد والوقار فالجد جد واللهو لهو ، وساعة لربك ، وساعة لقلبك ..
يلعب بالدف بيد ولا يد عيوشة الدفافة ! ... ينثر النكات فيقتل من حوله ضحكا ! ... من عسى ان يكون هذا الرجل ؟!
أبوه ؟! ... السيد احمد عبد الجواد ؟! . الصارم الجبار الرهيب التقي الورع ؟ ...! الذي يقتل من حوله رعبا ؟!
كيف يصدق ما سمعت أذناه ؟! .. كيف ، كيف ؟! .. ألا يكون ثمة تشابه في الاسماء والا علاقة بين أبيه وبين هذا العاشق الدفاف ؟! ...ولكن زنوبة وافقت على انه صاحب دكان « النحاسين » وليس في النحاسين من دكان تحمل هذا الاسم الا دكان أبيه ! ... رباه هل ما سمعه حقيقة أو انه يهذي ؟! ... لشد ما يود ان يطلع على الحقيقة بنفسه ، ان يرى بعينيه دون وسيط ، رغبة تملكته لحظتئذ فبدا تحقيقها كأخطر شيء في الحياة ولم يستطع لها مقاومة فابتسم الى الفتاة وهو يهز رأسه هزة حكيم كأنما يقول « يا لها من ايام كلها عجائب » ثم سألها بلهجة من يدفعه حب الاستطلاع وحده :
ــ ألا أستطيع أن أراه من حيث لا يراني ؟
فقالت معترضة :
ــ أمرك عجيب ، وما الداعي الى هذا التجسس !
فقال برجاء :
ــ منظر يستحق المشاهدة فلا حرمتني منه !...
فضحكت باستهانة وقالت :
ــ عقل طفل في جسم جمل ، أليس كذلك يا جملي ؟ ... ولكن لا عاش من خيب لك رجاء ...انزو في الدهليز وسأدخل عليهما بطبق من الفاكهة تاركة الباب مفتوحا حتى ارجع ...
وغادرت الحجرة فتبعها على الاثر بفؤاد خافق وانزوى في ركن من الدهليز المظلم على حين تابعت العوادة سيرها الى المطبخ ، وبعد قليل عادت حاملة طبقا من العنب فاتجهت الى الباب الذي ينبعث منه الغناء فنقرت عليه ، وانتظرت دقيقة ثم دفعته ودخلت دون ان تغلقه وراءها .

هناك بدا مجلس الطرب في صدر الحجرة تتوسطه زبيدة محتضنة العـود وهي تلعب بالاوتار بأناملها وتغني « يا مسلمين يا أهل الله » وعلى كثب منها جلس « أبوه » دون غيره ـ وقد اشتد خفقان قلبه لدى رؤيته ـ متجردا من جبته مشمرا عن ساعديه راعشا الدف بين يديه متطلعا الى العالمة بوجه يقطر بشاشة وبشرا • لم يلبث الباب مفتوحا الا ريثما رجعت زنوبة ،دقيقة او دقيقتين ، ولكنه رأى فيهما منظرا عجبا ، حياة غامضة ، قصة طويلـة عريضة . استيقظ في أعقابها كالذي يستيقظ من نوم طويل عميق على قلقلة زلزال عنيف ، رأى في دقيقتين عمرا كاملا ملخصا في صورة كمن يـرى في حلم هنيهة صورة جامعة لاحداث شتى يستغرق وقوعها في عالم الحقيقة أعواما طويلة ، رأى اباه حقا ، اياه دون غيره من البشر ، ولكن لا كما تعود ان يراه ؛ فلم يسبق له ان رآه متجردا من جبته في جلسة مريحة منسابـة مع سجيتها ، ولا رأى شعره الفاحم ثائر الاطراف كأنما جاء يعدو حـاسر الرأس ، ولا رأى ساقه العارية كما لاحت على حافة الديوان تحت ذيـل القفطان المنحسر • ولا رأى ـ أي والله ـ الدف بين يديه يرعش باعثـا شخشخته الراقصة المتقطعة بالنقر الرشيق ، ولا رأى ـ ولعله أعجب ما رأى ـ هذا الوجه الضاحك المتألق الريان بالود والصفاء الذي أذهله كمـا ذهل كمال من قبل حين رآه يضحك امام الدكان يوم قصده مدفوعا برغبته في الافراج عن أمه ، رأى هذا كله في دقيقتين ولما اغلقت زنوبة البـاب وعادت الى حجرتها لبث بموقفه يستمع الى الغناء وشخشخة الدف برأس دائر ، نفس الصوت الذي استمع اليه حال دخوله البيت ، ولكن أي تغير اعتور الاثر الذي ينطبع منه على نفسه ، أي معان وصور جديدة ينقلهـا الان الى وجدانه ! كرنين جرس المدرسة يهش له الطفل اذا سمعه وهـو غريب عنها وينقلب في أذنيه نذير لمتاعب جمة اذا سمعه وهـو ضمـن تلاميذها • ونقرت زنوبة على الحجرة كأنما تدعوه ليلحق بها فأفاق مـن غيبوبته ومضى اليها وهو يحاول ان يتمالك نفسه كيلا يبدو أمامها مضطربا أو ذاهلا فدخل وعلى شفتيه ابتسامة عريضة •••

ـ هل انساك نفسك ما رأيت ؟

فقال بلهجة تشي بالرضا والارتياح :
ـ منظر نادر ، وغناء بديـع ...
ـ اتحب ان نفعل مثلهما ؟
ـ في ليلتنا الاولى ؟! .. كلا ... لا أحب ان أخلط بك شيئا آخر ولو كان الغناء نفسه .. !

ولئن تكلف بادىء الامر الحديث ليبدو امامها ـ وامام نفسـه على السواء ـ هادئا طبيعيا فقد انتهى الى الانهماك فيه بلا تكلف ثم الى استرداد حاله الطبيعية باسرع مما قدر ، كالذي يتصنع هيئة الباكي في مأتم فينخرط في البكاء . على انه ربما عاودته الدهشة فجأة فيقول لنفسه « أعجب بها من حال لم تخطر لي على بال من قبل ، انا هنا مع زنوبة وابي في الحجرة القريبة مع زبيدة ، كلانا في بيت واحد! » ولكنه سرعان ما يهز كتفيه ويستطـرد في حديثه مع نفسه « كيف أحمل نفسي مشقة العجب لوقوع شيء باعتباره بعيدا عن التصديق ما دمت المسه واقعا ! ... انه هناك فمن السخف ان اتسائل ذاهلا هل يمكن تصديق هذا ... فلأصدق ولا أتعجب ... وماذا عليه من هذا ! » ولم يشعر الى تفكيره بارتياح فحسب ولكنه فرح فرحة فاقت كل تقدير ، لا لانه كان بحاجة الى مشجع ليواصل حياته الشهوية ، ولكن لانه ـ كأكثرية الغارقين في الشهوات المحرمة ـ يستأنس الى الشبيه، فكيف ان وجده في شخص ابيه ـ القدوة التقليدية ـ الذي طالما ازعجه ، بشعور وبلا شعور منه ، ان يجد نفسه واياه على طرفي نقيض . تناسى كل شيء الا فرحته ، كأنها اعز ما ظفر به في حياته ، وشعر نحو ابيه بحـب واعجاب جديدين ـ غير الحب والاعجاب اللذين اكتسبهما قديما تحـت ستار كثيف من الاجلال والخوف . حب واعجاب ينبعان مـن اعمـاق النفس ويختلطان بجذورها الاولى ، بل كأنهما وحب الذات والاعجاب بها شيء واحد ، لم يعد الرجل بعيدا عزيز المنال مغلق الابواب ولكن دانيا قريبا قطعة من نفسه وقلبه ، أبا وابنا ، روحا واحدا ، ليس الرجل الذي يرعش الدف في الداخل السيد أحمد عبد الجواد ولكنه ياسين نفسه ، كما يكون وكما يجب ان يكون ، وكما ينبغي ان يكون ، لا يفرق بينهما الا اعتبارات

ثانوية من العمر والتجربة « هنيئا لك يا والدي ، اليوم اكتشفتك ، اليوم عيد ميلادك في نفسي ، يا له من يوم ويا لك من أب لم يكن قبل الليلة الا يتيما، اشرب والعب بالدف لعبا،ولا يدعو عيوشة الدفافة، اني فخور بك،هل تغني ايضا يا ترى ؟ ... »

ــ الا يغني السيد عبد الجواد احيانا .. ؟

ــ الا زال فكرك مشغولا به ؟! يا ويل الناس من الناس ! ... بل يغني احيانا يا جملي .. يشترك في الهنك اذا سكر ..

ــ وكيف صوته ؟

ــ غليظ جميل كعنقه ...

« الى هذا الاصل ترجع الاصوات التي تغني في بيتنا ، الجميع يغنون، اسرة عريقة في الطرب ، ليتني اسمعك ولو مرة ، لا أحفظ لك في ذاكرتي الا الزعق والنهر ، غنوتك الوحيدة المشهورة بيننا «يا ولد يا ثوريا بن الكلب » اريد ان اسمع منك « الوداد في الملاح صدف » أو « حبيت جميل» كيف تسكر يا أبي ؟ كيف تعربد ؟ ينبغي ان اعرف لاحتذي مثالك واحيي تقاليدك ، كيف تعشق ، كيف تعانق .

واتتبه الى زنوبة فرآها امام المرآة وهي تسوي اهداب شعرها بأناملها وقد لاح ابطها من فرجة الفستان املس ناصعا يتصل منحدرة بأصل نهد كفرصة العجين فسرت في بدنه سكرة الهياج وانقض عليها كأنه فيل ينقض على غزال ...

★ ★

ووقفت ثلاث سيارات تطوع بتقديمها بعض الاصدقاء أمام بيت السيد احمد في انتظار العروس وحاشيتها لحملهن الى بيت آل شوكت بالسكرية، كان الوقت اصيلا وقد انحسرت اشعة شمس الصيف المائلة عن الطريق واستقرت على البيوت المواجهة لبيت العروس ، ولم تكن ثمة مظاهر تدل على عرس ، اللهم الا الورود التي أزينت بها اولى السيارات الثلاث فلفتت انظار أصحاب الدكاكين القريبة وكثير من المارة ، ومن قبل ذلك اليوم تمت الخطبة ووردت الهدايا ونقل الجهاز وعقد القران فلم تنطلق من البيت

زغرودة او تعلق ببابه زينة او تشي بما يدور داخله علامة من علامات الافراح المألوفة التي تفاخر الاسر باعلانها ، في أمثال هـذه المناسبـات وتتعلـل بسوانحها لتفصح عن مكنون حنينها للمسرة بالغناء والرقص والزغاريـد ، تم كل شيء في صمت وهدوء فلم يدر به الا الاقارب والاصدقاء وخـاصة الجيران ، وأبى السيد ان يتزحزح عن تزمته او ان يسمح لأحد من آل بيته بأن يتزحزح عنه ولو ساعة واحدة ، وفي ظل هذا الجو الصامت غـادرت العروس والمدعوات البيت رغم احتجاج أم حنفي على الخرجة الصامتة ، فمرقت عائشة الى السيارة في سرعة خاطفة كأنما تخاف ان يشتعل فستـان العرس او قناعه الحريري الابيض الموشى بالفل والياسمين تحت نظـرات المتطلعين ، وتبعتها خديجة ومريم وبعض الفتيات ، واستقلت الام وبعض النسوة من الاهل والجارات السيارتين الاخريين ، على حين اتخذ كمـال مجلسه الى جانب سائق سيارة العروس ، ورغبت الام في ان يمضي الركب الى السكرية عن طريق الحسين لتلقي نظرة جديدة على مقامه الذي كلفها الشوق اليه قبل ذلك غاليا ولتستوهب صاحب المقـام البركـة لعروسهـا الحسناء فاخترقت السيارات الطرق التي قطعتها هي ذلك اليوم مع كمال، ثم مالت الى الغورية عند المنعطف الذي كادت تلقى فيه حتفها حتى وقفت بهن عند بوابة المتولي امام مدخل السكرية الـذي يضيـق عن دخـول السيارات ، وترجلن جميعا ودخلن العطفة فطالعتهن معالم الزينات وهرع اليهن غلمان الحارة هاتفين وتعالت الزغاريـد من بيت آل شوكت ، اول بيت الى يمين الداخل ـ حيث ازدحمت نوافذه برؤوس المطلات المزغردات، ووقف عند مدخله العريس خليل شوكت وشقيقه ابراهيم شوكت وياسين وفهمي ، وتقدم خليل مبتسما من العروس ومنحهـا ساعـده فارتبكت ولـم تبـد حراكا حتى بادرت مريم الى يدهـا فشبكتها بساعده ، ثـم سار بها الى الداخل مارا بحذاء الفناء المزدحم والورد والملبس ينهال على اقدامها وعلى أقدام من تبعنها من حاشية العروس حتى واراهن باب الحريم، ومع ان قران عائشة بخليل تم قبل ذلك اليوم بشهر أو أكثر الا ان منظـر اشتباكهما وسيرهما معا لاقى من ياسين وفهمي ـ والاخير خاصة ـ دهشة مقرونة بالحياء وشعورا بالانكار أشبه كأن جو أسرتهما لا يهضم حتـى

طقوس حفلات الزفاف المشروعة ، وبدا هذا الاثر بصورة أوضح عند كمال الذي جعل يجذب أمه من يدها في انزعاج وهو يشير الى العروسين اللذين يتقدمان الجميع على السلم كأنه يستعديها على دفع شر فظيع ،وخطر للشابين أن يسترقا النظر الى وجه ابيهما ليريا أي اثر تركه ذاك المنظر الفريد ، فشملا المكان بنظرة سريعة ولكنهما لم يقفا له على أثر ، لم يوجد عند المدخل ، ولا فيما يلي هذا من فناء البيت الذي اصطفت به الارائك والمقاعد واقيمت في صدره منصة الغناء . والواقع ان السيد خلا الى نفر من خاصة اصدقائه بمنظرة الفناء فلم يفارقها مذ حل بالبيت مصمما على الا يفارقها حتى ختام الليلة مبتعدا بنفسه عن « الجمهور » الصاخب خارجها ، لم يكن اشد احراجا لنفسه من الظهور بين آله في ليلة زفاف ،اذ لا يرضى ان ينشر فوقهم رقابته في يوم خالص السرور ، ولا يطيق من ناحية اخرى ان يشهد عن كثب انطلاقهم مع دواعي الفرح ، وفضلا عن هذا وذاك لم يكن اكره لديه من أن يرى — بينهم — على غير ما عهدوا من وقار صارم ، ولو كان الامر بيده لتم الزفاف في صمت شامل ولكن حرم المرحوم شوكت وقفت من اقتراحاته في هذا الشأن موقف معارض لا تلين صلابته ، وابت الا ان تحييها ليلة حافلة فاتفقت على احيائها مع العالمة جليلة والمغني صابر ، وبدا كمال لفرط ابتهاجه بما اتيح له من حرية وسرور كأنه عريس الليلة ، وكان احد افراد قلائل ابيح لهم التنقل كيفما شاءوا بين الحريم في الداخل وبين مجلس الطرب في فناء الدار ، لبث طويلا مع امه بين النساء منقلا طرفه بين زيناتهن وحليهن مصغيا الى دعاباتهن واحاديثهن التي يستأثر الزواج بخلاصتها ، او منصتا معهن الى العالمة جليلة التي تصدرت البهو كالمحمل ضخامة وزينة وراحت تنشد الطقاطيق وتعاقر الشراب جهارا ، فاستأنس الى الجو الضاحك لغرابته وجاذبيته — والاهم من هذا كله — لوجود عائشة على حال من التبرج لم يحلم بها من قبل ، وشجعته أمه على البقاء ليظل تحت رعايتها ، بيد أنها عدلت عن موقفها بعد حين واضطرت الى ان تحثه همسا على الانتقال الى مجلس أخويه لامور لم تتوقع حدوثها . من ذلك ما بدا من اهتمامه بعائشة ، بفستانها حينا

وبزواقها حينا آخر ، فخيف منه على هندامها ، أو ما بدر منه من ملاحظات صبيانية صريحة نحو بعض السيدات كما هتف بأمه مرة وهو يشير الى امرأة من آل العريس قائلا : « انظري يا نينة الى أنف هذه الست .. أليس اكبر من أنف أبلة خديجة » أو ما فاجأ به الجميع وجليلة تغني من الاشتراك مع التخت في ترديد « يمامة حلوة .. ومنين أجيبها » حتى دعته العالمة الى الجلوس بين افراد تختها ، بهذا وغيره جذب الانظار اليه فاخذت المدعوات في مداعبته ولكن امه لم ترتح الى الضجة التي اثارها ، وآثرت على كره منها ـ اشفاقا على البعض من عبثه واشفاقا عليه من اعين المعجبات ـ ان تحمله على مغادرة المكان ، انضم الى مجلس الرجال ، وتردد بين الصفوف، ثم وقف بين فهمي وياسين حتى ختم صابر دور « بس ليه تعشق يا جميل » واستأنف تجوالهحتى مر بالمنظرة فأغراه حب الاستطلاع بالنظر الى داخلها فمد رأسه وما يدري الا وعيناه تلتقيان بعيني والده فتسمر في مكانه وعجز عن استردادهما ، ورآه احد اصدقاء أبيه ـ السيد محمد عفت ـ فناداه فلم يجد بدا من تلبية النداء ليتفادى من أغضاب ابيه فتدانى من الرجل على كره وخوف حتى وقف امامه منتصب القامة مضموم الذراعين الى جانبيه كأنه عسكري في طابور ، وصافحه الرجل قائلا :

ـ ما شاء الله .. في أي سنة يا عم ؟

ـ سنة ثالثة رابع ..

ـ عال ... عال .. سمعت صابر ؟

ومع أنه كان يجيب على اسئلة محمد عفت الا انه راعى من بادىء الامر ان تكون اجاباته بحيث ترضي اباه .. فلم يدر كيف يجيب على السؤال الاخير او أنه تردد قبل ان تعد الاجابة ولكن الرجل بادره متلطفا :

ـ الا تحب الغناء ؟

فقال الغلام بتوكيد :

ـ كلا ..

وبدا من بعض الحاضرين ما يدل على انهم سيعلقون على هذه الاجابة ـ آخر ما ينتظر من شخص ينتمي الى عبد الجواد ـ مازحين ـ ولكن

السيد حذرهم بعينيه فأمسكوا ، أما السيد محمد عفت فعاد يسأله :

ـ الا تحب ان تسمع شيئا ؟

فقال كمال وهو يلحظ أباه :

ـ القرآن الشريف ..

فتعالت اصوات الاستحسان وسمح للغلام بالانصراف فلم يتأت له ان يسمع ما قيل عنه وراء ظهره حين قهقه السيد الفار قائلا :

ـ ان صح هذا فالغلام ابن‌زنا ...

فضحك السيد احمد عبد الجواد وقال وهو يشير الى حيث كان يقف كمال ...

ـ هل رأيتم أمكر من ابن الكلب يدعي التقوى أمامي ! ... رجعت مرة الى البيت فترامى الى صوته وهو يغني « يا طير يااللي على الشجر »..

فقال السيد علي :

ـ آه لو رأيته وهو ينصت بين أخويه الى صابر وشفتاه تتحركان مع الغناء في انسجام تام ولا انسجام أحمد عبد الجواد نفسه ..

على حين خاطب محمد عفت السيد احمد متسائلا :

ـ المهم ان تخبرنا هل اعجبك صوته في دور « يا طير يا اللي على الشجر » ؟ ...

فضحك السيد قائلا وهو يشير الى نفسه :

ـ ذاك الشبل من هذا الاسد !

فهتف الفار قائلا :

ـ الله يرحم اللبؤة الكبيرة التي انجبتكم ..

غادر كمال المنظرة الى الحارة وكأنه يفيق من كابوس ووقف بين الغلمان الذين ازدحم بهم الطريق ، وما لبث ان استعاد ارتياحه فتمشى مزهوا بملابسه الجديدة ، مغتبطا بحريته التي جعلت من المكان كله ـ فيما عدا المنظرة المخيفة ـ مجالا مباحا لقدميه دون معترض او رقيب ، فأي ليلة هذه في الزمان ! شيء واحد جعل ينغص عليه صفوه كلما خطر على فؤاده هو انتقال عائشة الى هذا البيت الذي باتوا يدعونه « بيتها » هذا

الانتقال الذي نفذ على رغمه دون ان يستطيع احد اقناعه بوجاهتـه او فائدته ، تساءل طويلا كيف سمح أبوه به وهو الذي لا يسمح لظل امرأة من آله بأن يلوح وراء خصاص النافذة فتلقى الجواب ضحكا عاليـا ، وساءل امه في عتاب ، كيف تفرط في عائشة لحد النزول عنها للغير فأجابته بأنه سيكبر يوما ويأخذ مثلها من بيت ابيها فتشيع اليه بالزغاريد ، وسأل عائشة هل يسرها حقا ان تهجرهم فاجابت ان لا ، ولكن الجهاز حمل الى بيت الرجل الغريب ولحقت به عائشة التي لا يطيب له الري الا من موضع شفتيها ، حقا ان الفرح الراهن ينسي اشياء ما كان يتصور انه ينساها لحظة ولكن خاطرة الاسى تغشى فؤاده الجذل كما تغشى السحابة الصغيـرة وجه القمر في ليلة صافية السماء ، ومن عجب ان سروره بالغناء في تلـك الليلة فاق أي سرور عداه ، كاللعب مع الغلمان او مشاهدة النساء والرجال في مرحهم المطلق او حتى عيش السراي والالمظية على مائدة العشاء ، ولئن ادهش اهتمامه الجدي بسماع جليلة وصابر الذي لا يتفق مع سنـه كل من لاحظه من النساء والرجال فلم يدهش احدا من اسرته التي تعرف سوابقه في الغناء مع معلمته عائشة كما تعرف حسن صوته الذي تعـده احسـن اصواتها بعد عائشة وان كان صوت الاب ـ الذي لا يسمعونه الا مزمجرا ـ أحسنها جميعا ، وقد استمع كمال طويلا الى جليلة وصابر ولكنه على غير المنتظر وجد غناء الرجل وعزف تخته احب الى قلبه وآخـذ لنفسـه ، فرسخت منه في ذاكرته جمل غنائية مثل « تعشق ليه .. علشان كده» جعل يرددها بعد ليلة الزفاف طويلا في سقيفة اللبلاب والياسمين فوق سطـح بيتهم ، وشاركت امينة وخديجة كمال في بعض ما اتيح له من اسبـاب السرور والحرية ، فلم يسبق لهما ـ مثله ـ ان شهدا ليلة كتلك الليلة بما حفلت من انس وطرب ومرح ، وأبهج امينة خاصة ما لاقت من الرعايـة والمجاملة بصفتها أم العروس ، هي التي لم تنعم في حياتها برعاية او مجاملة، حتى خديجة اختفى همها في انوار الفرح كما تختفي الظلمة عند اشـراق الصباح ، نسيت احزانها بين الضحكات الناعمة والانغام العذبة والاحاديث الطلية ، وازدادت لها نسيانا بفضل حزن جديد خـالص الطويـة منشـؤه

شعورها بفراق عائشة الوشيك ، شعور اثمر حبا وعطفا خالصين فتوارت الاحزان القديمة امام الحزن الجديد كما تتوارى الاحقاد امام الاريحية ، أو كما يقع لشخص حيال آخر يحب منه جانبا ويكره جانبا ان تتوارى ــ ساعة الفراق مثلا ــ الكراهية لجانب امام الحزن على الجانب الاخر ،هذا الى ما شاع في نفسها من ثقة حين تبدت في زينة اضفت على جسمها ووجهها سواء لفت اليها انظار بعض النساء فلهجن بالثناء عليها ثناء ملأها أمــلا وأحلاما عاشت بها زمنا رغــدا .

وجلس ياسين وفهمي جنبا لجنب ، يراوحان بين السمر والسمــاع ، وجلس خليل شوكت ــ العريس ــ ينضم اليهما بين ساعة واخرى كلمــا وجد فرجة بين اشغال ليلته الشاقة الممتعة ، وبالرغم من الجو المشبع بالبهجة والطرب انطوى ياسين على قلق فارتسمت في عينيه نظرة شرود مزمنة وراح يسائل نفسه بين حين وآخر ترى هل يتاح له ان يروى ظمأه ولو بكــأس او بكأسين ؟ لذلك مال مرة على اذن خليل شوكت ــ وكان صديقــا للاخوين وهمس قائــلا :

ــ أدركني قبل ان تضيع الليلة ...

فقال له الشاب وهو يغمز له بعينيه مطمئنا :

ــ افردت مائدة في حجرة خاصة لامثالك من الاصدقاء ...

عند ذاك اطمأن باله وعاودته حيويته للسمر والدعابة والسمــاع ، لم يكن في نيته ان يسكر ، ففي مثل هذا المكان الحافل بالاهل والمعارف يعد القليل من الخمر فوزا كبيرا ، خاصة وان والده وان انزوى فــي المنظرة ــ غير بعيد ، فلم يكن وقوفه على أسرار حياته بمزحزحه عــن مكانته التقليدية من نفسه ، لم يزل قائما بحصنه الحصين من المهابة والاجلال ولم يزل هو بموقف الطاعة والعبودية ، حتى السر الذي اطلع عليه خفيــة لم يفكر في البوح به لانسان ولا لفهمي نفسه اقرب المقربين اليه ، لهــذا كله قنع من بادىء الامر بكأس او بكأسين يتملق بهما رغبته الجامحة ، ويتهيأ بهما لتذوق المرح والسمر والطرب وغيرها من المسرات التي لم يعد لها عنده طعم بغير شراب . فهمي بخلاف ياسين ــ لم يجد ، او لم يطمئــن

الى انه سيجد ريا لظمئه ، ثار شجنه من حيث لا ينتظر عند مجيء العروس، ذهب مع العريس وياسين لاستقبالها بقلب خلي فوقع بصره على مريم وهي تسير وراء العروس مباشرة ومتألقة الثغر بابتسامة تحية للمكان كله، لاهية بالزغاريد والورود عنه . وقد شف قناعها الحريري عن ديباجة وجهها الصافي ، فأتبعها نظره بقلب خافق حتى واراها باب الحريم ، ثم عاد الى مجلسه مزلزل النفس كأنه قارب تعرض بغتة لاعصار ، بيد انه كان قبل رؤيتها هادىء النفس لاهيا بشجون السمر شأن السالي الناسي ، والحق تمر به اوقات فيجد نفسه على هذه الحال من السلو والنسيان كان قلبه يستجم من العناء ، ولكن ما ان تخطر خطرة او تهفو ذكرى ، أو يجري اسمها على لسان ، أو أو ، حتى يخفق فؤاده ألما ، ويفرز الحسرة تلو الحسرة ، كالضرس المسوس الملتهب تجيء عليه فترة فيسكن ألمه حتى اذا هرس لقمة أو مس جسما صلبا انفجر به الالم ، وهناك يقرع الحب أضلعه من الداخل كأنما يروم متنفسا ، صائحا بأعلى صوته انه لا يزال حبيسا لم يطلق سراحه العزاء او النسيان . طالما تمنى لو يعمى عنها الراغبون حتى يستوي على قدميه رجلا حر التصرف في تقرير مصيره . وقرب امنيته كر الايام والاسابيع والاشهر دون ان يتقدم لها خاطب ، ولكنه لم ينعم بالطمأنينة الحقة ، ولم يزل عرضة للقلق والخوف يتناوبانه الحين بعد الحين ينغصان صفوه ويكدران أحلامه ويخلقان له ضروبا من الالم والغيرة ان تكن وهمية فليست دون الواقع ــ فيما لو تحققت ــ ضراوة وقساوة ، حتى بات التمني نفسه وتأخر وقوع البلاء من بواعث تجدد القلق والخوف وبالتالي الالم والغيرة فود كلما اشتد به العذاب ان يقع البلاء ليلقى نصيبه من الحزن دفعة واحدة لعله بعد ذلك يبلغ باليأس ما لم يبلغ بالاماني العابثة من الراحة والسلام ، ولكنه لم يستسلم للشجن في مجلس طرب تكتنفه انظار الاصدقاءواقرباء ، الا انه كان تلقى من نظر مريم وهي تسير وراء اخته « اثرا » لا يمكن ان يمضي بلا رد فعلمحسوس ولما لم يسعه ان يجتر به احزانه وان يجلو المستور من نفسه فقد استهلكه ــ بطريقة عكسية ــ بالاغراق في الحديث والضحك والتظاهر بالغبطة

والسعادة ، على انه كان كلما خلا الى نفسه ولو لحظات شعر في اعماقه بعزلة قلبية عما حوله ، وأدرك مع مرور الوقت ان رؤيته مريم وهي تخطر في معية العروس قد هيجت حبه كما تهيج ضوضاء مفاجئة مهموما ذا قابلية للأرق ، وانه لن ينعم على الاقل هذه الليلة ــ بصدر مستقر ، وان شيئا مما يدور حوله لن يستطيع ان ينتزع من مخيلته صورتها او الابتسامة التي حيث بها جو الاستقبال الحار المشبع بالزغاريد والورود . ابتسامة عذبة صافية وشت بقلب خلي متشوق للهدوء والسرور ، ابتسامة لا يوحي رواؤها بأنه يمكن ان ترتسم على موضعها من الشفتين تقلصات الالم ، فحز منظرها قلبه وكاشفه بأنه يكابد الالم منفردا ويحمل متاعبه وحده . ولكن الا يقهقه هو الان عاليا ، يحرك راسه مع الانغام كالمنبسط الطروب؟ .. ألا يجوز ان يخدع الناظر بحاله ويظن به ما ظن هو بها ؟ ... وجد في تفكيره شيئا من العزاء ولكن ليس اوكد من عزاء المصاب بالتيفود حين يسائل نفسه « الا يحتمل ان اشفى كما شفي فلان الذي اصيب به قبلي »، وما لبث ان ذكر رسالتها التي عاد بها كمال اليه منذ اشهر وهي قل له انها لا تدري ماذا تفعل لو تقدملها خاطب اثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار .. وتساءل كما تساءل عشرات المرات من قبل هل ثمة عاطفة وراء هذه الكلمات ؟ .. أجل لا يستطيع انسان مهما بلغ به التعنت أن يؤاخذها على كلمة منها ، بل لا يستطيع ان يتجاهل ما تتضمنه من عقل وحكمة ولكن هذا نفسه ما اشعره بالعجز حيالها وما احنقه بالتالي عليها . اذ يندر ان يرضى العقل والحكمة طموح عاطفة لا تعرف بطبعها الحدود ، وعاد الى الحاضر ، الى مجلس الطرب ، الى الحب الهائج ، ليست رؤيته لها وحدها التي رجته هذه الرجة العنيفة ، فلعل ذلك لانه رآها لاول مرة ، في مكان جديد ــ فناء بيت آل شوكت ــ بعيدا عن داره التي لم يرها خارج نطاقها من قبل ، كان وجودها الدائم في المقام القديم قد سلكها في آلية العادة اليومية على حين بعث ظهورها المفاجىء في المكان الجديد ــ ذاك الظهور الذي خلقها في عينيه خلقا جديدا ــ حياة جديدة في وجدانه ، أيقظت الحياة الاصلية الكامنة ، ثم تعاونتا معا على احداث هذه الرجة العنيفة ، ولعل

ذلك ايضا لان وجودها بعيدا عن بيته وما يقترن به من تقاليد صارمة أقامت بينه وبينها سدا من اليأس ، وجودها في جو من الحرية والانطلاق ، وعلى حال لم يعهدها من التبرج والحركة ، وجودها في بيئة الزفاف وما توحي به من خواطر الحب والوصال ، كل اولئك اطلقها من قمقمها الى حيث يراها القلب أملا غير عسير ، وكأنما تقول له « انظر اين تراني الان ، ما هي الا خطوة اخرى فتجدني بين ذراعيك » ولكن ما لبث هذا الامل ان ارتطم بالواقع الشائك مسهما في احداث تلك الرجة العنيفة ، ولعل ذلك ايضا لان رؤيتها والمكان الجديد زادتها رسوخا في نفسه وتغلغلا في حياته ونشوبا في ذكرياته ، فان الصور تتعمق في أنفسنا باندماجها في مختلف الاماكن التي تمتد اليها تجاربنا ، وكما اقترنت مريم قديما بسطح البيت وبستان اللبلاب والياسمين وكمال وتسميع الكلمات الانجليزية ومجلس القهوة وحديثه مع أمه في حجرة المذاكرة والرسالة التي عاد بها كمال فستقترن منذ الليلة بالسكرية وفناء آل شوكت ومجلس الطرب وغناء صابر وزفاف عائشة وغير ذلك مما ينثال على سمعه وبصره وكافة حواسه ، ومثل هذه العملية ... لا يمكن ان تتم دون ان تشارك في احداث الرجة العنيفة التي دوخته .. وحدث في فترة الاستراحة ان ترامى صوت العالمة الى مجلس الرجال من النوافذ المطلة على الفناء وهي تغني « حبيبي غاب » فنشط الى السماع باهتمام شديد وجمع حواسه كلها في النغمات ، لا لأن صوت جليلة أعجبه ولكن لظنه ان مريم تنصت اليها في تلك اللحظة لان الجملة الغنائية تخاطب اذنيهما في وقت واحد معا ، لانها الفت بينهما على حال واحدة من الانصات وربما من الاحساس ، لانها خلقت لهما موعدا يلتقيان فيه بروحيهما ، وحمله هذا كله على احترام الصوت وحب النغمات كي يجتمع بها في احساس واحد ، وحاول طويلا ان ينفذ الى نفسها بالرجوع الى نفسه ، ان يتلمس ذبذبات تأثرها بمتابعة ذبذبات تاثره ، ليعيش في ذاتها لحظات بلا حجاب على بعد المسافة وكثافة الجدران ، وحاول الى هذا ان يستخبر الجمل الغنائية عن آثارها في النفس المحبوبة ، ماذا تركت في قلبها جملة « حبيبي غاب » أو « بقى له زمان ما بعاتش جواب » ؟ ترى هل غابت في لجج

الذكريات ؟ ... أو لم تنحسر موجة منه عن وجهه ؟ .. الم ينقبض قلبها لشكة الم أو لحزة حسرة ؟ أم لها سادرا طوال الوقت لا يجد في النغمة الا فرحة الطرب ؟ ... وتصورها وهي تهب انتباهها للنغم سافرة متبرجة الحيوية او وثغرها يفتر عن ابتسامة كتلك التي لمحها على شفتيها عند مجيئها فآلمته لانه توسم فيها رمز السلو والنسيان ، أو وهي تحادث احدىء اختيه كما يحلو لها كثيرا وهو ما يحسدهما عليه على حين لا يجدان فيه الامر الذي يدهشه لحد الانزعاج الا حديثا عاديا كسائر الاحاديث التي يشتبكان فيها مع غيرها من فتيات الجيران ، أجل طالما عجب لموقف اختيه منها ، لا لأنهما لا يكترثان لها فالحق أنهما يحبانها ، ولكن لانهما يحبانها كما يحبان غيرها من فتيات الجيران كأنها مجرد « فتاة » من فتيات الجيران ، وكيف يلقيانها بترحيب عادي دون ان يضطرب لهما نفس كما يلقى هو أي فتاة عابرة او ايا من اقرانه طلبة مدرسة القوق ، وكيف يتحدثان عنها فيقولان « مريم قالت أو مريم فعلت » وينطقان بالاسم كما ينطقان بأي اسم ... أم حنفي مثلا كأنه ليس الاسم الذي لم ينطق به على مسمع من غيره الا مرة اومرتين وهو يعجب لموقعه من أذنه أو كأنه ليس الاسم الذي لا ينطق به في وحدته الا كما ينطق بالاسماء المبجلة المنقوشة في خياله بتهاويل الاحلام التي لا ينطق باحدها حتى يردف «رضي الله عنه » او « عليه السلام » ... كيف اذن عطل اسم ـ بل الشخص نفسه ـ عندهما من سحره وقدسيته ؟!..وعندما انتهت جليلة من الاغنية تعالى الهتاف والتصفيق فركز فيه انتباهه باهتمام لم تحظ الاغنية نفسها بمثله لان حنجرة مريم ويديها اشتركت فيه ، وتمنى لو كان بوسعه انيميز صوتها من تلك الاصوات وان يفرز تصفيقها من ذلك التصفيق ولكن لم يكن ذلك بأسهل من تمييز صوت موجة بالذات من هدير الامواج المتلاطمة على الشاطىء ، على أنه وهب حبه للهتاف كله والتصفيق كله بلا تمييز كالأم التي يترامى الى سمعها اصوات التلاميذ من المدرسة التي يتبعها ابنها فتدعو لهم جميعا بالبركة والسلامة .

لم يكن اشبه بفهمي في عزلته الباطنية ـ وان اختلفت الاسباب ـ من

أبيه الذي لزم المنظرة بين نفر من خاصة خلانه ، حتى الاصدقاء الذين لم يطيقوا التوقر ، والغناء يجلجل في الخارج ، انفضوا من حوله وتفرقوا بين المستمعين يطربون ويلهون ، فلم يبق معه الا النفر الذين مجلسه احب اليهم من اللهو نفسه فلبثوا جميعا في رزانة غير معهودة كأنما يؤدون واجبا او يشهدون مأتما ، هذا ما قدروه من قبل ، حين دعاهم السيد الى ليلة الزفاف ، لما خبروه من طبيعتهالمزدوجة التي عرف بجانب منها بين اصدقائه وبالجانب الاخر بين آل بيته ، ولم يفتهم وجه من وجوه التناقض بين مجلسهم الوقور هذا الذي يحتفلون فيه « بليلة زفاف » وبين مجالسهم المسائية المعربدة التي لا يحتفلون فيها بشيء ! وما عتموا ان جعلوا من توقرهم موضوعا للمزاح الخفيف الهادىء فما ان علا صوت السيد عفت مرة وهو يضحك حتى بادره السيد الفار واضعا سبابته على شفتيه كأنما يأمره بخفض صوته وهمس في أذنه محذرا زاجرا نحن في فرح يا رجل !.. ومرة أخرى وكان الصمت قد غلبهم مليا فاذا بالسيد علي يقلب عينيه في وجوههم ثم يقول رافعا يده الى رأسه كالشاكر « شكر الله سعيكم » وعند ذاك دعاهم السيد الى اللحاق بصحبه في الخارج ومشاركتهم لهوهم ولكن السيد عفت خاطبه بلهجة تنم عن شديد العتاب قائلا : تتركك في مثل هذه الليلة ؟! .. وهل يعرف الصديق الا عند الضيق ؟! .. فما تمالك السيد ان ضحك قائلا : ما هي الا عدةليالي زفاف اخرى حتى يتوب الله علينا جميعا ... على ان ليلة الزفاف تضمنت في نظر السيد احمد معاني اخرى غير التوقر الاجباري في مجلس انس وطرب ، معاني تخصه وحده كأب ذي طبيعة خرقت المألوف من الطبائع ، فلم يزل يجد لفكرة زواج كريمته احساسا غريبا لا يرتاح اليه وان لم يقره عقله او دينه ، لا يعني هذا انه ود الا تتزوج كريمتاه ،فالحقانه كسائر الآباء جميعا رجا الستر لفتاتيه ، ولكن لعله تمنى كثيرا لو لم يكن الزواج الوسيلة الوحيدة لهذا « الستر » ولعله تمنى لو كان الله قد خلق البنات على طبيعة لا تحتم الزواج ، أو لعله تمنى في الاقل لو لم يكن انجب اناثا قط ، اما وتلك اماني لم تتحقق ولا سبيل الى تحقيقها فلم يكن بد منان يرجو الزواج لفتاتيه ولو كما يرجو الانسان

احيانا ــ ليأسه من دوام العمر ميتة شريفة او ميتة مريحة ! طالما أفصح عن نفوره هذا بسبل متباينة سواء عن شعور او لا شعور ، فربما حدث بعض خلصائه قائلا : « تسألني عن انجاب الاناث ؟ •• انه شر لا حيلة لنا فيه ولكن الشكر الى الله واجب على أي حال ، لا يعني هذا أني لا أحب ابنتي فالحق اني احبهما كما احب ياسين وفهمي وكمال سواء بسواء ولكن كيف يطمئن خاطري وانا اعلم بأني سأحملهما يوما الى رجل غريب مهما يبدو لي من ظاهره فالله وحده المطلع على باطنه ؟ •• ما حيلة البنت الضعيفة حيال رجل غريب وهي بعيدة عن رعاية ابيها ؟ •• وكيف يكون مصيرها لو طلقها يوما وقد مات أبوها فلجأت الى بيت اخيها لتعيش عيشة المنبوذين ؟! لست أخاف على احد من ابنائي لانه مهما يحدث لايهم من امر فهو رجل قادر على ان يواجه الحياة اما البنت ••اللهم احفظنا ! » أو يقول فيما يشبه الصراحة « البنت مشكلة حقا •• ألا ترى انا لا نألو ان نؤديها ونهذبها ونحفظها ونصونها ؟ ••• ولكن الا ترى انا بعد هذا كله نحملها بأنفسناالى رجل غريب ليفعل بها ما يشاء ••• الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه ••• » وتجسم هذا الاحساس القلق الغريب في النظرة الانتقادية التي والى بها خليل شوكت « العريس » نظرة متعسفة عيابة أبت ان ترجع قبل ان تظفر بعيب يرضى تعنتها • كأنه ليس من آل شوكت الذين الفت بينه وبينهم اسباب المودة والولاء من قديم الزمان ، أو كأنه ليس الشاب الذي شهد له كل من رآه بالرجولة والجمال والوجاهة ، لم يسعه ان ينكر مزية من مزاياه ، ولكنه وقف طويلا عند وجهه الريان ونظرة عينيه الهادئة الثقيلة الموحية بالكسل فطاب له ان يستدل بهما على ما تركه الفراغ في حياته من حيوانية قائلا لنفسه « ما هو الا ثور يعيش ليأكل وينام ! » لم يكن اعترافه بمزاياه اولا ثم فحصه عن أي عيب ليلصقه به اخيرا الا منطقا عاطفيا يعكس ما يكمن في نفسه من رغبة في تزويج الفتاة ونفوره من فكرة الزواج ، فالاعتراف مهد الى تحقيق الزواج والفحص عن العيوب نفس العاطفة العدائية كمدمن الافيون الذي تستذله لذته وترعبه خطورته فينشده بكل سبيل وهو يلعنه ، بيد أنه تناسى مشاعره الغريبة وهو بين

اصدقائه الحميمين يتسلى بالحديث حينا وبالسماع من بعيد حينا آخر ، ففتح صدره للرضى والغبطة ودعا لفتاته بالسعادة والحياة المطمئنة ، حتى نظرته الانتقادية لخليل شوكت استحالت احساسا ساخرا غير مشوب بالحنق •

وعندما دعي المدعوون الى الموائد افترق فهمي وياسين لأول مرة فقاد خليل شوكت الاخير الى المائدة الخاصة حيث بذل الشراب بغير حساب ولكن ياسين بدا حذرا مقدرا للعواقب فأعلن قناعته بكأسين وقاوم بشجاعة — أو بجبن — تيار الشراب المتدفق حتى اذا ما لسعته النشوة الاولى فهيجت ذكرياته عن لذة النشوات ووهنت ارادته فرغب في الاستزادة من النشوة الى القدر الذي لا يخرجه عن حدود الامان فتناول كأسا ثالثة ثم فر بنفسه عن المائدة الا انه — على سبيل الاحتياط او لانه لم يزل عينا في الجنة وعينا في النار — اخفى زجاجة مملوءة حتى النصف في مكان خفي للرجوع اليها عند الضرورة القصوى ، وعادوا الى مجلسهم بأرواح جديدة راقصة انطلق منها الى الجو المحيط سرور محرر من القيود •

وفي الحريم كان السكر قد بلغ بالعالمة جليلة حد السلطنة ، واذا بها تقلب عينيها في وجوه المدعوات وتتساءل :

— من منكن حرم السيد احمد عبد الجواد ؟

فجذب تساؤلها الانظار واثار اهتماما شاملا حتى غلب الحياء أمينة فلم تنبس بكلمة وجعلت تحملق في وجه العالمة بحيرة وانكار ، ولما اعادت العالمة التساؤل تطوعت حرم المرحوم شوكت بالاشارة الى امينة وهي تقول:

— ها هي حرم السيد أحمد ففيم يا ترى التساؤل ؟

فتفحصتها العالمة بعينين ثاقبتين ثم اطلقت ضحكة رنانة وقالت بلهجة تنم عن الرضى :

— حسناء وحق بيت الله ، ان ذوق السيد لا يجارى •

وبدت امينة كالعذراء المتعثرة في حيائها ، بيد ان الحياء لم يكن كل ما تعانيه ، ساءلت نفسها في حيرة وانزعاج عما يعنيه حديث العالمة عن حرم « السيد عبد الجواد » وعن اطرائها ذوق السيد بلهجة لا يدعيها لنفسه الا الخبير به ، وشاركتها شعورها عائشة وخديجة التي رددت عينيها بين

العالمة وبين بعض الفتيات من صديقاتها كأنما تسائلهن عن رأيهن في « هذه المرأة السكيرة » ، ولكن جليلة لم تأبه لما اثاره كلامها من انزعاج فحولت عينيها الى العروس وتفحصتها كما تفحصت امها من قبل ثم ارعشت حاجبيها وهي تقول باعجاب :

ـ قمر ورسول الله ، أنت بنت ابيك حقا . ومن ير هاتين العينين يذكر من توه عينيه .. (ثم مقهقهة) ... أراكن تتساءلن من اين لهذه المرأة معرفة السيد احمد ؟! .. اني اعرفه من قبل ان تعرفه زوجه نفسها ، انه ربيب حينا وقرين صباي ، وكان والدنا صديقين ، أم تحسبين العالمة لا أب لها ؟ ... كان ابي شيخ كتاب من أهل البركة .. ما رأيك يا زينة الستات؟

وجهت السؤال الأخير الى امينة فدفعها الخوف وما طبعت عليه من لين وتودد الى ان تجيبها ـ وهي تقاوم ما ركبها من ارتباك ـ قائلة :

ـ رحمه الله ، كلنا ابناء حواء وآدم ..

فجعلت جليلة تحرك رأسها يمنة ويسرة وهي تضيق عينيها كأنما بلغ تأثرها بالذكرى وموعظتها نهايته . او لعل راسها السكران وجد في هذه الحركة رياضة التذ بها ، ثم استطردت قائلة :

ـ وكان رجلا غيورا . ولكني نشأت بفطرتي لعوبا لا ابالي كأنما رضعت الغنج في المهد ، كنت اضحك الضحكة في الدور الاعلى فتضطرب لها جوانح الرجال في الشارع ، فما يبلغه صوتي حتى ينهال علي ضربا ويرميني بشر الصفات ، ولكن ما حيلة التأديب فيمن قدرت عليها فنون العشق والطرب والدلال ؟! ... ضاع التأديب هباء ، ومضى الرجل الى الجنة ونعيمها ، وقضى علي بأن اتخذ مما رماني به من شر الصفات شعارا لي في الحياة ... هي الدنيا .. ربنا يطعمكن خيرها ويكفيكن شرها .. ولا حرمنا الله جميعا من الرجال سواء في الحلال او في الحرام .. .

وعزف الضحك في جنبات الحجرة حتى غطى على تأوهات الدهش التي ندت هنا وهناك ، ولعل ما استثاره قبل أي شيء آخر وهو وجه التناقض بين الدعاء الاباحي الاخير وبين ما سبقه من عبارات توحي ـ في ظاهرها على الاقل بالجد ـ والتأسي ، أو بين ما تقنعت به المرأة من ستار الجد والرزانة وما جهرت به اخيرا من مزاح مكشوف ، حتى امينة نفسها

ـ وعلى رغم ارتباكها ـ ما تمالكت ان ابتسمت وان نكست وجهها لتواري ابتسامتها ، على ان النساء كن يستجبن ـ في مثل هذا المجلس ـ لدعابات مهرجات العوالم ويرحبن بمزاحهن وان خدش الحياء احيانا كأنما ينفسن به على طول تزمتهن ، وواصلت العالمة السكرانة حديثها قائلة :

ـ وكان جعل الله الجنة مثواه سليم الطوية ، وآي ذلك انه جاءني يوما برجل طيب مثله واراد ان يزوجني منه (وكركرت ضاحكة) ... أي زواج يا عمر ؟! .. وماذا بقي للزوج بعد ما كان مما كان ! .. وقلت لنفسي انفضحت يا جليلة وواقعتك كحل ..

وامسكت مليا لتستزيد من التشويق ، أو لتتمتع اكثر بصمت الانتباه المركز فيها الذي لا تحظى بمثله حين الغناء نفسه ، ثم عادت تقول :

ـ ولكن الله سلم فأدركتني النجاة قبل الفضيحة المتوقعة بأيام اذ هربت مع المرحوم حسونة البغل تاجر المنزول ، وكان للمرحوم أخ عواد عند العالمة نيزك العود ، ثم طاب له صوتي فعلمني الغناء ، وأخذ بيدي دهرا عرفت فيه من العشاق مائة و .. (وقطبت وهي تتذكر بقية العدد حتى ضمني الى تخت نيزك التي حللت محلها بعد وفاتها ، ومارست الغناء ثم التفتت الى الدفافة وسألتها) وكم يا فينو ؟

فبادرتها الدفافة قائلة :

ـ وخمسة في عين من لا يصلي على النبي ...

وتعالى الضحك مرة اخرى فجعلت بعض المشغوفات بالحديث يسكتن الضاحكات ليصفو الجو للعالمة ولكنها نهضت بغتة واتجهت نحو باب الحجرة غير ملقية بالا الى اللاتي تساءلن عن وجهتها دون ان يحظين بجواب، ولكن احدا لم يلح عليها في السؤال لما اشتهرت به عند الناس من انها صاحبة نزوة اذا نادتها لبت دون مراجعة ، وهبطت السلم الى باب الحريم ثم مرقت منه الى فناء الدار ، ولما جذب ظهورها المفاجىء بعض الانظار القريبة تلبثت بمكانها لتتيح لنفسها ان ترى من الجميع فتستمتع بما يحدثه منظرها فيهم من اهتمام طمعت في ان تتحدى به صابرا وهو في ذروة التطريب ، وتحققت رغبتها اذ سرت عدوى الالتفات نحوها ـ كالتثاؤب ـ من فرد الى فرد وتردد اسمها على الالسن ، ثم شعر صابر نفسه ـ رغم

انهماكه في الغناء ـ بالفجوة الفجائية التي فصلت بينه وبين جمهـوره فمد بصره الى الهدف الذي استشرفته الاعين حتى استقر على العالمة وهي تنظر اليه من بعيد برأس مائل الى الوراء من سلطنة السكر والخيلاء فاضطر الى الامساك عن الغناء واشار الى تخته فتوقف عن العزف ، ثم رفع يديه الى رأسه تحية لها ! ... كان صابر خبيرا بنزوات جليلة ـ وعلى خلاف الكثيرين ـ عالما بطيبة قلبها ، ومقدرا في الوقت نفسه لخطر معاندتهـا ، فأظهر لها التودد بلا تحفظ ، ونجحت حيلته فانطلقت اسارير المرأة بالبشر وهتفت به « واصل غناءك يا سي صابر فما جئت الا لسماعـه » فصفـق المدعوون وعادوا الى صابر مهللين على حين اقترب منها ابراهيم شوكت شقيق العريس الاكبر وسألها بلطف عن حاجتها فذكرت بـسؤاله السبب الحقيقي الذي دعاها الى المجيء وسألته بدورها بصوت ترامى الى الكثيرين ومنهم ـ وهو الاهم ـ ياسين وفهمي :

ـ مالي لا أرى السيد احمد عبد الجواد ؟!.. اين يختبىء الرجل؟

فأخذ ابراهيم شوكت بيدها وسار بها الى المنظرة باسما ، على حين تبادل فهمي وياسين نظرة ملئت دهشا واستغرابا وشيعاهما بعينين متسائلتين حتى واراهما الباب ، ولم يكن السيد دون ابنيه دهشا لدى رؤيتها مقبلة نحوه تخطر فحدجها بنظرة انزعاج وتساؤل بينما تبادل صحبه نظرات باسمة ذات معان ، وشملت جليلة الجميع بنظرة عابرة قائلة :

ـ مساء الانس يا رجال ..

وركزت عينيها في السيد فما تمالكت ان أغربت في الضحك وهـي تتساءل ساخرة :

ـ هل أخافك مجيئي يا سيد أحمد ؟!

فأشار السيد الى الخارج محذرا وهو يقول لها جادا :

ـ اعقلي يا جليلة ، ماذا حملك على المجيء الى هنا تحت انظـار الناس جميعا ؟!

فقالت كالمعتذرة وان لم تزايلها بسمة ساخرة :

ـ عز علي ألا أهنئك على زواج كريمتك .. .

فقال السيد في ضيق :

ــ لك الشكر يا ستي ، ولكن أما فكرت فيما يثيره مجيئك لدى من يشهده من ظنــون ؟

فضربت جليلة كفا بكف وقالت فيما يشبه العتاب :

ــ هذا أحسن ما عندك لي من استقبال ! ... (ثم موجهة الخطاب الى صحبه) ... أشهدكم يا رجال على الرجل الذي لم يكن يبتل صدره حتى يغرز فردة شاربه في سرتي ، انظروا اليه كيف لا يطيق الان رؤيتي ..

فلوح السيد لها بيده كأنما يقول لها « لا تزيدي الطين بلة » وقــال برجــاء :

ــ علم الله ما بي استياء لرؤيتك ولكنه الحرج كما ترين ..

هناك قال السيد علي كأنما ليذكرها بما لا ينبغي لها ان تنساه :

ــ لقد عشتما حبيبين وافترقتما صديقين ، وليس بينكما ثأر ، ولكن أهله فوق وأبناءه في الخارج ...

فقالت متمادية في اغاظة السيد :

ــ لماذا تتظاهر بالتقوى بين أهلك وأنت بركة فسق !

فرماها بنظرة احتجاج قائلا :

ــ جليلة .. ! ... لا حول ولا قوة الا بالله .

ــ جليلة أم زبيدة ياولي الله ؟!

ــ حسبي الله ونعم الوكيل ...

فأرعشت له حاجبيها كما ارعشتهما لعائشة من قبل ولكن على سبيل التهكم لا الاعجاب هذه المرة وقالت بصوت هادىء جاد كالقاضي ينطــق بالحكم :

ــ سيان عندي أن تعشق زبيدة ام غيرها من النساء ولكن يؤسفني ورأس أمي ان تتمرغ في التراب بعد ان غرقت حتى أذنيك (مشيرة الــى نفسها) في القشدة ..

عند ذاك نهض السيد محمد عفت ــ وكان من أقرب المقربين اليها ــ وقد خاف ان يتمادى بها السكر الى ما لا تحمد عقباه فتناول يدها وجذبها برفق صوب الباب هامسا في أذنها :

ــ حلفتك بالحسين الا ما رجعت الى مستمعاتك المنتظرات على نار..

فطاوعته بعد ممانعة ولكنها التفتت نحو السيد وهي تبتعد رويدا وقالت :

ــ لا تنس ان تبلغ تحياتي الى القارحة ، ونصيحتي اليك ــ بحق الاخوة ــ ان تغتسل بعدها بالكحول لان عرقها مصاص للدماء ..

شيعها السيد بنظرة ساخطة وهو يلعن الحظ الذي قضى بأن ينكشف امام كثيرين ــ خاصة أهله ــ ممن عرفوه مثالاً للجد والرزانة ، أجل لم يزل ثمة أمل في ألا يبلغ الحادث احدا من آله ولكنه أمل ضعيف ، ولم يزل ثمة رجاء في الا يفهموه اذا بلغهم ــ بما طبعوا عليه من براءة ــ على حقيقته ولكنه رجاء غير مضمون لأكثر من سبب ، بيد أنه على أسوأ الفروض لا يحق له أن يجزع لان خضوعهم له من ناحية وسيطرته عليهم من ناحية اخرى اثبت من ان يزعزعهما مزعزع ولا هذه الفضيحة نفسها ، وفضلا عن هذا فان احتمال انكشاف امره لدى احد من ابنائه او لديهم جميعا لم يكن عنده يوما بالفرض المستحيل ، ولكنه لم يقلق لذلك اكثر مما ينبغي لثقته بقوته ، ولانه لم يعتمد في تربيتهم على القدرة والاقناع فيخاف انحرافهم عن الجادة تبعا لما قد يظهر لهم من انحرافه عنها . ولانه استبعد ان يطلعوا على شيء من أمره قبل ان يبلغوا اشدهم أي حين لا يهمه كثيرا ان ينكشف لهم سره ، ولكن شيئا من هذا لم يستطع ان يلطف من أسفه على ما وقع ، حقا لم يخل من سرور ومن تيه جنسي ، اذ ان مجيء امرأة كجليلة بنفسها الى مجلسه لتهنئه او لتعابثه او حتى لتتهكم بعشقه الجديد « حادث » له مغزاه الهام في الاوساط التي تشهد لياليه ، وظاهره لها دلالتها البعيدة لرجل مثله لا يعدل بالهوى والطرب والانس شيئا ، ولكن كم كانت تكون سعادته صافية لو وقع الحادث الجميل بعيدا عن هذه البيئة العائلية !

أما ياسين وفهمي فلم تتحول عيناهما عن باب المنظرة منذ ولجته جليلة حتى خرجت منه مصحوبة بالسيد محمد عفت . دهش فهمي دهشة بكرا دار لها رأسه كياسين حين سمع زنوبة وهي تجيبه قائلة : « انه من حينا ولا بد انك تسمع عنه ...السيد احمد عبد الجواد .. » ، على حين ركب ياسين حب استطلاع نهم فأدرك ــ في سعادة ايقظت في قلبه نشوة

الاعجاب والمشاركة الوجدانية التي شعر بها نحو أبيه في حجرة زنوبة ــ ان جليلة مغامرة اخرى في حياة ابيه التي بات يؤمن بانها سلسلة ذهبية من المغامرات ، وان الرجل فاق كل ما تصوره خياله عنه . ولبث فهمي يأمل ويرجو ان يعلم بين حين وآخر بأن العالمة انما أرادت مقابلة والده لسبب او لآخر يتعلق بدعوتها الى احياء فرح عائشة حتى جاء خليل شوكت واخبرهما ضاحكا بان جليلة « تداعب السيد » وبأنها « تتودد اليه تودد الصديق للصديق » وعند ذاك لم يطق ياسين صبرا على كتمان ما عنده من سر ووثبت نشوة الشراب به الى الادلاء بمعلوماته فانتظر حتى غادر خليل ثم مال على اذن اخيه قائلا وهو يغالب ضحكه « كتمت عنك اشياء تحرجت من البوح بها في حينها ، اما وقد رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت فسأبوح لك بها » ومضى يقص عليه ما سمع وما رأى في بيت زبيدة العالمة ، وفهمي يقاطعه من آونة لاخرى قائلا في ذهول « لا تقل هذا ... » « هل فقدت وعيك » . « كيف تريدني على ان اصدقك »حتى اتى الشاب على قصته بكل تفاصيلها، لم يكن فهمي ، بما نشأ عليه من عقيدة ومثالية ، على استعداد لفهم ــ بله هضم ــ السيرة الخفية التي تنكشف له لاول مرة خاصة وان والده نفسه كان من اركان عقيدته ودعائم مثاليته ، ولعل ثمة وجها من التشابه بين شعوره وهو يعاني هذا الكشف لاول وهلة وبين شعور الجنين ــ ان صدق الخيال ــ وهو ينتقل من مستقر الرحم الى مضطرب الحياة ، ولعله لو كان قيل له ان جامع قلاوون انعكس وضعه فصارت المئذنة اسفل بنائه والضريح عاليه ، أو كان قيل له ان محمد فريد خان رسالة مصطفى كامل وباع نفسه للانجليز لما كان هذا أو ذاك بأدعى الى انكاره وانزعاجه . « ابي يذهب الى بيت زبيدة ليشرب ويغني ويضرب الدف ! ... أبي يذعن لمداعبة جليلة وتوددها ! ... ابي يقترف السكر والزنا ، كيف اجتمعت الثلاث ! ... اذن هو غير الاب الذي عرفته في البيت مثالا للورع والقوة ! ... أيهما الصحيح ؟ .. كأني اسمعه الان وهو يردد : الله أكبر ... الله اكبر ، فكيف ترديده للغناء ! .. حياة تمثيل ورياء !. ولكنه صادق ، صادق اذا رفع رأسه للدعاء ، صادق اذا غضب ... أيكون ابي رذيلة ام يكون الفسق فضيلة ! ..

ـ ذهلت ؟!.. ذهلت انا ايضا عندما نطقت زنوبة باسمه ، ولكن سرعان ما استسخفت نفسي وسألتها ماذا عليه من هذا ؟! ... كفر ! ... هكذا الرجال جميعا او هكذا يجب ان يكونوا ...

« هذا القول جدير بياسين حقا .. ياسين شيء وابي شيء اخر ... ياسين ! ... ما ياسين !؟ ... ولكن كيف يحق لي أن أردد هذا الان وابي،أبي نفسه،لا يختلف عنه في شيء ان لم يفقه تدهورا كلا ليس تدهورا.. ثمة امر أجهله .. أبي لا يخطيء ..غير قابل للخطأ ..فوق الشبهات..وعلى اي حال فوق الاحتقار ..

ـ ما زلت ذاهلا ؟!

ـ لا اتصور شيئا مما قلت .. !

ـ لماذا ؟ .. اضحك وافهم الدنيا ، يغني وماذا في الغناء من عيب ؟ ويسكر وصدقني ان السكر الذ من الاكل ، ويعشق والعشق كان ملهاة الخلفاء ، اقرأ ديوان الحماسة والاخبار التي بهامشه ، ليس على ابينا حرج، اهتف معي ليحيى السيد احمد عبد الجواد ، ليحيى ابونا ، سأتركك لحظة ريثما ازور لهذه المناسبة ـ الزجاجة التي اخفيتها تحت الكرسي .

بعودة العالمة الى التخت شاع في الحريم نبأ مقابلتها للسيد احمد عبد الجواد فانتقل من لسان الى لسان حتى تناهي الى الام وخديجة وعائشة، ومع انهن كن يسمعن شيئا كهذا لاول مرة الا ان سيدات كثيرات ـ ممن بين بعولهن وبين السيد سبب من اسباب المودة ـ تلقين النبأ في غير ما دهش وغمزن باعينهن باسمات شأن الذي يعرف اكثر مما يقال ، ولكن واحدة منهن لم تسول لها نفسها الخوض في الموضوع اما لان الخوض فيه جهارا امر لا يجمل بهن امام كريماتهن واما لان دواعي المجاملة املت عليهن بأن يمسكن عنه حيال امينة وكريمتيها ، غير ان حرم المرحوم شوكت قالت لامينة مداعبة « حذار يا امينة هانم فالظاهر ان عين جليلة زاغت الى السيد احمد ! » فابتسمت امينة متظاهرة بعدم الاكتراث ودم الحياء والارتباك يخضب وجهها ، لاول مرة تلمس دليلا محسوسا على ما قام بنفسها قديما من شكوك ، ومع انها ألفت الصبر والتسليم بما قدر عليها الا ان ارتطامها بدليل محسوس حز في قلبها فأحست عذابا لا عهد لها بهوجرحا

داميا في صميم كبريائها ، وأرادت امرأة ان تعلق على قول حرم المرحـوم شوكت بكلمة مجاملة تليق بأم العروس فقالت « من يكن له وجه كوجـه ست ام فهمي قسامة فلا يحق لها ان تخشى زيغان عين زوجها الى امـرأة اخرى ! » فاهتزت جوانحها للثناء وعاودتها ابتسامتها الحبيبة ووجدت ــ على أي حال ــ بعض العزاء عما تعانيه من ألم صامت ، الا انه لما بـدأت جليلة اغنية جديدة فملأ صوتها مسمعيها ثار بها غضب مفاجيء وشعـرت ثواني بأن زمام نفسها سيفلت من قبضتها ولكنها سرعان ما كظمته بقـوة خليقة بامرأة لم تعترف لنفسها قط بحق الغضب . هذا على حين تلقت خديجة وعائشة النبأ بدهش فتبادلتا نظرة حائرة وتساءلتا بعينيهمـا عما يعنيه الامر كله ، بيد ان دهشهما لم يقترن بانزعاج كما حدث لفهمي ولا بألم كما حدث لامهما ، ولعلهما وجدتا في قيام امرأة كجليلة من تختها وتكبدها مشقة النزول الى مجلس ابيهما لتحيته ومحادثته شيئا مثيرا للاعجاب حقا، ثم شعرت خديجة برغبة غريزية في استطلاع وجه امها فاسترقت اليها النظر ومع انها رأتها تبتسم الا انها فطنت من أول وهلة الى انها تكابد ألما وارتباكا ينغصان عليها صفوها واحست بضيق وما لبثت ان حنقت على العالمة وحرم المرحوم شوكت والمجلس كله ...

ولما أزفت ساعة الزفة نسي كل همه ، اسابيع مضت فشهور وصورة عائشة في ثوب الزفاف لا تبرح الاذهان ..

★ ★

بدت الغورية متلفعة بالظلام والصمت حينما غادرت الاسرة بيـت العرس عائدة الى النحاسين . سار السيد احمد في المقدمة وحده ، وتبعه على بعد امتار فهمي وياسين الذي افرغ ما في وسعه كيما يتمالك نفسـه ويتحكم في مشيته ان يخونه وعيه الزائغ من فرط الشراب ، ثم جـاءت في المؤخرة أمينة وخديجة وكمال وأم حنفي ، انضم كمال الى القافلة على رغمه فلولا الحادي الذي يتقدمها لوجد سبيلا الى عصيان يد والدته وانقلب راجعا الى حيث غادروا عائشة ، وجعل لهذا يتلفت بين خطوة واخـرى صوب بوابة المتولي ليودع اسيفا محزونا آخر ما لاح من مظاهر الفرح، ذلك المصباح المضيء الذي رقي عامل في سلم خشبي اليه ليقتلعه من مربطه

فوق مدخل السكرية ، لشد ما يقطع قلبه ان ينظر الى أسرته فيجدها قد تخلت عن احب افرادها اليه بعد أمه ، ورفع بصره الى والدته وسألهـــا هامســا :

ـ متى تعود أبلة عائشة الينا ؟

فأجابته بمثل صوته :

ـ لا تكرر هذا وادع لها بالسعادة ، ستزورنا كثيرا ونزورها كثيرا .

فهمس مرة أخرى محنقا :

ـ ضحكتم علي .. !

فأشارت بيدها الى الامام ، في اتجاه السيد الذي كادت تبتلعه الظلمة ومطت شفتيها هامسة « هس » ، ولكنه كان مشغولا باستحضار صـــور مما مر به في بيت العرس الى مخيلته ، رأى انها متناهية في غـرابتهـــا وفيما بعثته في نفسه من حيرة فجذب يدها اليه ليبتعد بها عن خديجة وام حنفي ثم همس متسائلا وهو يشير الى الوراء :

ـ اما علمت بما يدور هنالك ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ نظرت من ثقب الباب ..

فانقبض قلب الام جزعا لانها حدست اي باب يعني ولكنها ســألتــه مكذبة نفسهــا :

ـ أي بــاب ؟

ـ باب غرفة العروس .. !

فقالت المرأة بانزعاج :

ـ يا له من عيب ان ينظر الانسان من ثقوب الابواب .. !

فهمس من فوره :

ـ ما رأيته أعيب ...

ـ اخرس ...

ـ رأيت ابلة عائشة وسي خليل يجلسان على الشيز لنج .. وهو ..

فلكزته في كتفه بشدة حتى امسك ثم همست في أذنه :

ـ يجب ان تخجل مما تقول ،لو سمعك أبوك لقتلك ..

ولكنه قال باصرار وبلهجة من يشعر بأنه يكشف لها عن حقيقة لا يمكن أن تتصور هي وقوعها :

ـ كان يتناول ذقنها بيده ويقبلها ..

ولكزته مرة اخرى بقسوة لم يعهدها من قبل فأدرك أنه أخطأ حقا وهو لا يدري وسكت خائفا ، ولكنه عندما كانا يقطعان فناء البيت المظلم متأخرين عن بقية الاسرة ـ وقد تخلفت عنهما أم حنفي لتسك الباب وتضببه وتترسه ـ ألح عليه ما يكابد من حيرة ورغبة في الاستطلاع فخرج من صمته وخوفه وسألها برجاء :

ـ لماذا يقبلها يا نينة ؟.

فقالت له بحزم :

ـ اذا عدت الى هذا اخبرت والدك ! ..

★ ★

آوى ياسين الى حجرة النوم وهو على حال من السكر شديدة ما كاد يخلو الى فهمي ويأمن الرقباء ـ سرعان ما غط كمال في نومه عقب وضع رأسه على المخدة مباشرة ـ حتى جمحت به رغبة في العربدة كرد فعل للجهد العصبي الذي بذله طوال السهرة ، خاصة في طريق العودة ، كيما يضبط نفسه ويسيطر على سلوكه ، ولكنه وجد الحجرة أضيق من أن تتسع لعربدته فمال الى التنفيس عن صدره بالكلام فنظر نحو فهمي وهو ينزع ملابسه وقال ساخرا :

ـ قارن بين خيبتنا وبين براعة ابينا ! ... حقا انه لرجل ..

وعلى رغم ما حرك هذا الكلام من ألم فهمي وحيرته الا انه قنع بأن يقول وهو يرسم على شفتيه المتعضتين شبه ابتسامة :

ـ البركة فيك فانت نعم الخلف ..

ـ ايحزنك ان يكون والدنا من كبار القناصة ؟

ـ وددت لو لم تمتد يد التغيير الى صورته الماثلة في نفسي .

فقال ياسين وهو يفرك راحتيه في سرور :

ـ الصورة الحقيقية ابهى وامتع ، أعظم به من أب هو المثل الاعلى ، آه لو رأيته وهو قابض على الدف والكأس بين يديه تزهر ! عفارم ...

عفارم يا سيد احمد !

فتساءل فهمي في حيرة :

ــ وحزمه وتقواه ؟!.

فقطب ياسين ليركز فكره في المسألة ولكنه وجد نفسه في حال الجمع بين الاضداد اروح لها من التوفيق بينها فقال مدفوعا بالاعجاب وحده :

ــ ليس ثمة مشكلة على الاطلاق ، عقلك الرعديد وحده الذي يخلق المشكلة من العدم ، أبي حازم ومؤمن ويحب النسوان ، شيء بسيط واضح مثل ١ + ١ = ٢ ، ولعلي اشبه الناس به على وجه التقريب لاني مؤمن وأحب النسوان وان قل نصيبي من الحزم ،أنت نفسك مؤمن وحازم وتحب النسوان ، ولكن بينا تحقق ايمانك وحزمك اذا بك تنكص عن الثالثة (ثم ضاحكا) والثالثة هي الثابتة ! .

لعله نسي عند آخر كلامه باعث الاعجاب الذي دفعه الى الاسترسال فيه ، فجاء قوله دفاعا عن أبيه في الظاهر فقط ، اما في الحقيقة فلم يكن الا تعبيرا عن شعور وهاج هاج به دمه المخمور ، عن شهوة جامحة ركبته عقب اختفاء الرقباء الذين يحذرهم . شهوة اثارها خيال مكهرب بالشراب،فرغب جسده في الحب رغبة جنونية عجزت ارادته عن شكمها أو ملاطفتها ، ولكن اين يجد مطلبه ؟ ... هل يتسع له الوقت ؟ .. زنوبة ؟! .. ماذا يحول بينه وبينها ؟ ... طريق قصير ، ضجعة قصيرة ، ثم يعود فينام نوما عميقا هادئا ، هش للاخيلة المغرية هشاشة شخص لا عقل له يراجعه فاندفع الى تحقيقها بلا تردد ، وما لبث ان قال لاخيه :

ــ الجو حار ، سأصعد الى السطح لاتنسم هواء الليل الرطب ...

وغادر الحجرة الى الدهليز الخارجي ، ومضى يهبط السلم متلمسا طريقه في ظلمة غاشية ، محاذرا غاية الحذر ان يند عنه صوت . ترى كيف يستطيع الوصول الى زنوبة في هذه الساعة من الليل ؟ .. هل يطرق الباب ؟ .. ومن عسى ان يجيء لفتحه ؟ ... وبم يجيبه اذا سأله عن مقصده ؟ ... واذا لم يستيقظ احد لفتح الباب ؟ ... او اذا جاء الغفير ليراقبه بتطفله المعروف ؟ عامت هذه الخواطر على سطح مخه كالفقاقيع ثم انداحت غارقة في تيار الخمر الجارف فلم يتجهم لها كعوائق ينبغي

تقدير عواقبها ولكنه ابتسم لها كدعابات مما قد يؤنس وحشة مغامرته ، ثم جاوزها خياله طائرا الى حجرة زنوبة المطلة على مفرق الغورية والصنادقية فتخيلها في قميص النوم الابيض الشفاف الذي يتقوس مطاوعا فوق النهدين وحول الردفين وتنحسر حاشيته عن ساقين مدملجتين خمريتين فجن جنونه وود لو يثب فوق الدرجات لولا الظلمة الغاشية • خرج ــ بخروجه الى الفناء ــ الى ظلمة أخف قليلا بما نفضته النجوم عليها من اضواء خافتة بيد انها بدت لعينيه اللتين كابدتا ظلمة السلم طويلا نورا او كالنور • وعندما خطا خطوتين متجها الى الباب الخارجي في آخر الفناء جذت عينيه نور ضئيل ينبعث من سراج على وضم امام حجرة الفرن فالقى عليه نظرة لا تخلو من استغراب حتى عثر قريبا منه على جسم منطرح على الارض فتنوره على ضوء السراج فعرف ام حنفي انتي بدت وكأنها استحبت النوم في الهواء الطلق فرارا من جو حجرة الفرن الخانق • وهم بمواصلة السير ولكن ثمة شيء استوقفه فعطف رأسه مرة اخرى صوت النائمة فأمكنه ان يتبينها من موقفه ، الذي لم يفصله عنها الا بضعة امتار ، بوضوح غير منتظر ، رآها مستلقية على ظهرها ثانية ساقها اليمنى التي رسمت في الهواء بحافة الجلباب الملتصقة بالركبة هرما قائما وكشفت في نفس الوقت عن فخذها اليسرى التي لاحت عارية فيما يلي الركبة ثم غرقت في ظلمة الفرجة التي انحسر عنها الجلباب بين الساق القائمة والاخرى الممدودة ومع ان احساسه بضيق الوقت ووجوب البدار الى غايته لم يهن الا انه لم يسترد بصره عن الجسم الملقى غير بعيد منه ، او لعله لم يستطع استرداده وانساق وهو لا يدري الى تفرسه بامعان بدا في يقظة عينيه المحمرتين وانفرج شفتيه الممتلئتين ، فاستحالت يقظة العين ــ وهي تتفحص الجسم اللحيم الذي شغل فراغا كبيرا كأنه جاموسة مسمنة ــ رغبة مريبة حتى استقر البصر على الفرجة المعتمة ما بين الساق القائمة والساق الممدودة ، ثم تحول التيار المضطرم في شرايينه من التطلع صوب باب الخروج الى حجرة الفرن ،وكأنه يكتشف لاول مرة المرأة التي خالطها اعواما طويلة بغير مبالاة • على ان ام حنفي لم تحظ بسمة واحدة من سمات الحسن ، وبدا وجهها الجهم أكبر من سنها الحقيقية التي لم تكد تجاوز الاربعين ، حتى اكتنازها باللحم والدهن

كان ـ لتنافره وسوء تنسيقه ـ بالانتفاخ الغليظ اشبه ، ولذلك ، وربما ايضا لطول انزوائها في حجرة الفرن وقديم معاشرته لها التي بدأت مع صباه، لم يلتفت اليها قط ، بيد انه كان وقتذاك على حال من الهيجان فقد معها اية قدرة على التمييز فاعمته الشهوة ، وأي شهوة ؟ شهوة مولعة بالمرأة لذاتها لا لمعانيها ولا لألوانها ، تعشق الحسن ولا تعزف عن القبح ، والكل عندها في « الازمات » سواء كالكلب يلتهم بلا تردد ما يصادفه في القمامة ، عند ذاك بدت له مغامرته الاولى ـ زنوبة ـ محفوفة بالمتاعب مجهولة العواقب ولم يعد « الوصول اليها في هذه الساعة من الليل ، وطرق الباب ، وما يقول لفاتحه ، والغفير » دعابات يبسم لها ، ولكن عوائق حقا يجدر به ان يتفادى منها . تقدم في خفة وحذر فاغرا فاه ، ذاهلا عن كل شيء الا قنطار اللحم المنطرح عند قدميه الذي بدا لعينيه النهمتين وكأنه أخذ أهبته لاستقباله . حتى توقف بين الساق القائمة والاخرى الممدودة ، ثم انحنى عليها قليلا قليلا بلا وعي تقريبا ، وباغراء شديد من الداخل والخارج معا، وما يدري الا وهو ينبطح فوقها . لعله لم يتعمد الذهاب الى هذا الحد دفعة واحدة ، ولعله هم بشيء من التمهيد كان لا ينبغي ان يسبق الحركة العنيفة الاخيرة ، ولكن الجسم الذي انبطح عليه اضطرب اضطرابة فزع شديدة وندت عنه صرخة مدوية ـ سبقت يده التي رامت كتمها ـ فمزقت السكون الشامل ولطمت مخه لطمة قوية ردت اليه وعيه فأطبق راحته على فمها وهو يهمس في أذنها بقلق وخوف بالغين :

ـ أنا ياسين ، أنا ياسين يا أم حنفي، لا تخافي ..

وطفق يكرر قوله حتى اطمأن الى وعيها اياه فاسترد راحته ، ولكن المرأة ـ التي لم تمسك عن المقاومة قط ـ تمكنت اخيرا من تنحيه عنها ، فاستوت جالسة وهي تلهث من الجهد والانفعال ثم سألته بصوت ازعجه ايما ازعاج :

ـ ماذا تريد يا سي ياسين ؟

فقال لها بلهجة هامسة ملؤها الرجاء :

ـ لا ترفعي صوتك هكذا ، قلت لك لا تخافي ، ليس ثمة ما يدعو الى الخوف بتاتا ..

فعادت تسأله بجفاء وان خفضت من صوتها قليلا :
ـ ماذا جاء بك ؟
فجعل يربت على يدها متوددا وهو يتنهد في شبه ارتياح لم يخل من عصبية كأنما رأى في خفضها لصوتها امارة مشجعة وقال لها :
ـ ماذا أغضبك ؟ لم أرد بك سوءا (مبتسما ابتسامة وشت بهانبراته) هلمي الى حجرة الفرن ..
فقالت المرأة بصوت مضطرب ولكنه ذو دلالة حازمة :
ـ كلا يا سيدي ، اذهب الى حجرتك ، اذهب ، الله يلعن الشيطان ..
لم تزن ام حنفي كلماتها بميزان ولكنها ندت عنها كما اقتضى الحال لعلها لم تعبر اصدق التعبير عن رغباتها ، ولكنها عبرت تماما وبغير شعور منها عن شدة المفاجأة ، مفاجأة لم تسبق يوما بتمهيد من أي نوع كان ، التي انقضت عليها في نومها كما تنقض الحدأة على الفرخ ، فصدت الشاب وزجرته بلا ادنى تفكير حقيقي في الصد أو الزجر ، بيد انه اساء فهمها فامتلأ حنقا وثارت برأسه الخواطر .. « ما العمل مع بنت الكلب هذه ! لا يمكن ان اتراجع بعد ان كشفت نفسي وتماديت الى حد الفضيحة ، لا بد مما اريد ولو لجأت الى القوة » وفكر بعجلة في انجع وسيلة التغلب على ما تراءى له من مقاومة ولكنه ـ قبل ان يتخذ قرارا ـ سمع حركة غريبة، لعلها اقدام ، آتية من باب السلم ، فوثب قائما وهو من الفزع في نهايته ، مزدردا شهوته كما يزدرد اللص فص الماس المسروق اذا بوغت في مكمنه ، واستدار صوب الباب ليعاين ما هنالك فرأى والده وهو يجتاز العتبة مادا ذراعه بالمصباح . تسمر في مكانه مختطف الدم مستسلما ذاهلا يائسا . ادرك من توه ان صرخة ام حنفي لم تضع هباء ، وان النافذة الخلفيةلحجرة الاب كانت له بالمرصاد ، ولكن ما جدوى الادراك المتأخر ؟ .. لقد وقع في فخ القضاء والقدر . وجعل السيد يتفرس في وجهه بقسوة صامتا ، مطيلا الصمت ، وهو ينتفض غضبا . ودون ان يحول عنه عينيه القاسيتين اشار بيده الى الباب يأمره بالدخول ، ومع ان الاختفاء كان احب اليه في تلك اللحظة من الحياة نفسها الا انه من الخوف والارتباك لم يستطع ان يحرك ساكنا . فضاق صدر الاب ولاحت في عبوسته بوادر الانفجار ثم زمجر

صائحا وعيناه ــ اللتان انعكس عليهما ضوء المصباح المرتعش بارتعاش اليد القابضة عليه ــ ترسلان شررا ...

ــ اطلع يا مجرم يا بن الكلب.

فما ازداد الا استمساكا بجموده حتى هجم عليه السيد فقبض على ذراعه بيمناه وشد عليها بغلظة ثم جذبه بشدة نحو الباب فاندفع بقوة الجذبة الخارقة فكاد يقع على وجهه ، وتمالك توازنه وهو يلتفت وراءه فزعا ، وفر بنفسه وثبا لا يبالي ظلمة ...

* *

علم بفضيحة ياسين شخصان ــ غير ابيه وام حنفي ــ هما ست امينة وفهمي ، سمعا صرخة أم حنفي ، فشاهدا من نافذتيهما ما دار بين الشاب وبين السيد ، ثم حدسا ماهنالك دون حاجة الى كبير ذكاء ، على ان السيد كاشف زوجه بزلة ابنه وسألها مدققا عما تعلم من أخلاق «أم حنفي» فدافعت امينة عن خادمتها بما علمت من طبيعتها واستقامتها وذكرت السيد بأنه لولا « صرختها » ما درى احد بما كان فقضى الرجل ساعة وهو يسب ويلعن ، سب ياسين ، وسب نفسه لانه « ما كان ينبغي ان ينجب اطفالا ليكدروا صفوه باهوائهم الشريرة » واستفاض به الغضب فسب البيت وأهله جميعا ! ... وظلت أمينة صامتة كما واصلت صمتها فيما بعد كأنما لم تدر شيئا ، كذلك تجاهل فهمي الامر كله ، تظاهر بالاستغراق في النوم حين عاد اخوه الى الحجرة لاهثا عقب الموقعة الخاسرة ، ولم يبد منه فيما بعد ما ينم عن علمه بشيء ، كره ان يعلم الاخر بوقوفه على ما نزل به من ذل ومهانة اكراما لاحترام يكنه له بصفته اخاه الاكبر ، احترام لم يذهبه كل ما تكشف له من استهتاره ومجونه او ما تقدم هو به عليه من علم وثقافة ، او ما يبدو من ياسين نفسه من عدم مبالاة بالزام احد من اخوته باحترامه بما يعابثهم من مزاح ودعابة ، أجل لم يزل يكن له احتراما لعل حرصه على الابقاء عليه راجع الى ما يأخذ به نفسه من تأدب وجد ورزانة اكسبته مظهرا اكبر من سنه ، بيد ان خديجة لم يفتها ان تلاحظ ــ غداة الواقعة ــ ان ياسين لم يتناول فطوره على مائدة ابيه فسألته باستغراب عن المانع فأجابها بأنه لم يهضم عشاء الفرح ، وشعرت الفتاة ــ بسوء ظنها

الطبيعي المرهف ــ بأن ثمة علة لتخلفه غير عسر الهضم فساءلت امها ولكنها لم تجد جوابا شافياً ، ثم رجع كمال من حجرة الطعام وهو يتساءل ايضا ، لا بدافع من حب الاستطلاع او الاسف ، ولكن أملا ان يجد في الجواب ما يبشره بفترة اخرى يخلو الميدان فيها من منافس خطير كياسين ، وكاد الامر ينسى لولا أن ياسين غادر البيت مساء من غير ان يشترك في مجلس القهوة المعهود . ومع انه اعتذر لفهمي والام بارتباطه بميعاد الا ان خديجة قالت بصراحة « في الامر شيء ، لست عبيطة .. اقطع ذراعي ان لم يكن ياسين متغيرا » . وعند ذاك اضطرت الام ان تعلن غضب السيد على ياسين لسبب لم تعلمه .. وانقضت ساعة وهم يخمنون السبب حتى امينة وفهمي اشتركا مع الاخرين مداراة للواقع ، وظل ياسين على تجنبه لمائدة ابيه حتى دعي ذات صباح الى مقابلته قبل الفطور . لم تفجأه الدعوة ، وان ازعجته رغم ذلك ــ فكم توقعها يوما بعد يوم لاستيثاقه من ان اباه لا يمكن ان يقنع من زلته بتلك الجذبة العنيفة التي كادت ان تلفيه على وجهه ، وانه لا بد عائد اليها بطريق او بآخر ولعله توقع ايضا معاملة لن تليق بحال بموظف مثله مما حمله حينا على التفكير في مغادرة البيت الى حين او الى الابد ، أجل لا يجمل بأبيه ــ أبيه كما عرفه في بيت زبيدة خاصة ــ ان يلقى زلته بهذا العنت كله ، كما لا يجمل به هو أن يعرض نفسه لمعاملة لا تليق برجولته فالاكرم له ان يفارقه ، ولكن الى اين ؟ ... ليس الا ان يعيش عيشة مستقلة بمفرده، ولن يعجزه هذا ، بيد انه قلب الامر على مختلف وجوهه ، قدر النفقات وتساءل عما يبقى له بعدها لملاذه ،لقهوة سي علي وحانة كوستاكي وزنوبة ،هنالك فتر حماسه حتى انطفأ كما تنطفىء شعلة سراج تعرضت لهبة هواء عنيفة ، وراح يقول لنفسه وهو شاعر بخداعه « لو طاوعت الشيطان وهجرت البيت لاحدثت تقليدا خبيثا لا يليق بأسرتنا ، مهما يقل ابي او يفعل فهو ابي وهيهات ان تضام حيال تأديبه »ثم قال بصراحته التي يصطنعها اذا غلبته روح الدعابة « شيئا من التواضع يا ياسين بك ، دعنا من الكرامة وحياة أمك ، ايهما احب اليك كرامة سيادتك او كونياك كوستاكي وسرة زنوبة » . هكذا عدل عن التفكير في مغادرة البيت ولبث ينتظر الدعوة المتوقعة حتى وقعت فجمع نفسه ومضى كارها

متوجسا ، دخل الحجرة خافض الرأس خفيف القدم ووقف بعيدا عن مجلس ابيه من غير ان يجرؤ على التسليم عليه ، وانتظر والقى السيد عليه نظرة طويلة ثم هز رأسه كالمتعجب وهو يقول :

ـ ما شاء الله ! ... طول وعرض ، شارب وقفا ، اذا رآك الرائي في الطريق قال لنفسه باعجاب نعم الرجل ونعم الابن ، فليت القائل يجيء الى البيت ليراك على حقيقتك ..

ازداد الشاب ارتباكا وحياء ولكنه لم ينبس بكلمة ومضى السيد يتفحصه بسخط ثم قال باقتضاب وبلهجة جافة آمرة :

ـ قررت ان تتزوج .. !

ودهش ياسين دهشة لم يكد يصدق معها أذنيه ، كان يتوقع سبا ولعنا فحسب ولكن لم يخطر له على بال أنه سيسمع قرارا خطيرا يغير مجرى حياته كله فما تمالك ان رفع عينيه الى وجه أبيه حتى اذا ما التقتا بعينيه الزرقاوين الحادتين خفضهما متورد الوجه لائذا بالصمت ، وفطن السيد الى ان ابنه بوغت بهذا القرار « السعيد » بدلا من المعاملة الفظة التي كان يتوقعها فثار حنقه على الظروف التي أملت عليه ان يلقاه بجانب دمث خليق بتكذيب ظنه بجبروته المعروف فبث حنقه في نبرات صوته ، وهو يقول عابسا :

ـ الوقت ضيق واريد ان اسمع جوابك ..

ما دام الرجل قد قرر ان يزوجه فهو يأبى الا ان يسمع جوابا واحدا، ولا مانع من ان يسمعه الجواب الذي يريد ، لاطاعة لامره فحسب ، ولكن تلبية لرغبته هو ايضا ، أجل ما كاد والده يعلنه بقراره حتى انطلق خياله يصور له « عروسا » حسناء ، امرأة تكون ملك يمينه ورهن اشارته حين يشاء فأبهج الخيال قلبه حتى اوشك ان يفضحه صوته وهو يقول :

ـ الرأي رأيك يا بابا ...

ـ تريد ان تتزوج أم لا ؟ ... انطق ...

فقال الشاب بحذر من يرغب الزواج وهو غير مستعد له ماليا .

ـ ما دامت هذه هي ارادتك فاني موافق على العين والرأس .

فخفف السيد من خشونة لهجته وهو يقول :

ـ سأطلب لك كريمة صـديقي السيد محمد عفت تـاجر الاقمشة بالحمزواي ، لقية ظفرها برقبة ثور مثلك ٠

فابتسم ياسين ابتسامة خفيفة وقال مداهنا ٠

ـ ولكني بفضلك اصير كفئا لها ٠

فرمقه بنظرة حادة كأنما لينفذ بها الى اعماق مداهنته وقال :

ـ من يسمع كلامك لا يتصور فعالك يا منافق٠٠ اغرب عن وجهي٠٠

وهم ياسين بالتحرك ولكنه وقفة باشارة من يده ثم تساءل مستدركا كأنما عرض التساؤل له اتفاقا :

ـ اظنك حوشت المهر ؟

لم يحر جوابا وعلاه الارتباك فاغتاظ السيد وتساءل مستنكرا :

ـ ولكنك عشت رغم توظفك في كفالتي كما كنت تعيش وانت تلميذ فماذا صنعت بمرتبك ؟

فلم يزد علي ان حرك شفتيه دون ان ينبس فحرك الاب رأسهممتعضا وذكر قوله له منذ عام ونصف وهو يوصيه لمناسبة توظفه « لو طالبتكالان بان تتعهد بنفقات نفسك بوصفك رجلا مسؤولا ما خرقت المألوف بين الاباء والابناء ولكني لن اطالبك بمليم واحد كي اهيىء لك فرصة لاقتصاد مقدار من المال تجده بين يديك اذا دعت الحاجة اليه » ، ودل ذلكالتصرف من جانبه على ثقته بابنه ، والحق انه لم يتصور ان يجنح احد من أبنائه ـ بعد ما نال من تأديبه وتهذيبه الصارمين ـ الى هوى من الاهواء الجامحة التي تبدد المال ، لم يتصور ان ينقلب ابنه « الصغير » سكيـرا ماجـنا ، فالخمر والنساء التي يراها في حياته هو لونا من اللهو لا يمس رجولة ولا يؤذي ايما تنقلب اذا « لوثت » احدا من ابنائه جريمة لا تغتفر ، ولذلـك فان زلة الشاب التي كشفها في فناء البيت طمأنته بقدر ما اغضبته لان ام حنفي في نظره لا يمكن ان تغري شابا ان لم يكن تحمل ما فاق طاقته مـن الاستقامة والعفة ٠٠٠ أجل لم يشك في براءة ابنه بيد انه ذكر ما لاحظـه كثيرا من ولعه بالاناقة وتخيره النفيس من البدل والقمصان وأربطةالرقبة وكيف لم يرتح الى ذلك وحذره الاسراف ولكن تحذيرا هينا ، اما لانـه لم ير في الاناقة جريمة ، واما لان تشبه ابنه به وتكراره لصورة من صـور

سلوكه الذي لا يرى بأسا في ان يكرره ابناؤه ــ حركا في صدره العطف والتسامح ، ولكن كيف كانت نتيجة ذلك التسامح ؟ ... هي ما وضح له الان من تبذيره نقوده في التافه من الكماليات . ونفخ الرجل مغيظا محنقا وقال له محتدا :

ــ أغرب عن وجهي ...

غادر ياسين الحجرة مغضوبا عليه بسبب تبذيره لا بسبب زلته كما توقع وهو ذاهب الى الحجرة ، تبذيره الذي لم يكربه من قبل فسلم اليه نفسه بلا تفكر ولا تدبر ، ينفق ما في جيبه حتى يفرغ غارقا في ساعته ، متعاميا عما يسمونه « المستبقل » كأنه شيء لا وجود له ، ومع انه غادر الحجرة مرتبكا وجلا لنهرة أبيه الاانه لم يخل من ارتياح عميق اذ أدرك ان تلك النهرة لا تعني طرده فحسب ولكن ايضا أن السيد سيتكفل بنفقات زواجه ، ومضى كالطفل الذي يضيق ابوه بالحاحه في طلب قرش فينقده اياه ويدفعه خارجا فينسى شدة الدفعة في فرحة الظفر ولبث الاب ساخطا وراح يردد « يا له من حيوان ، جسم طويل عريض ولكن بلا مخ » اغضبه اسرافه كأنه لا يتخذ هو من الاسراف شعارا في الحياة ، ولكنه لا يرى بأسا في سرافه كسائر اهوائه ــ ما دام لا يفقره وينسيه واجباته او يدهور شخصيته ، ولكن كيف يضمن ان يصمد امامه ياسين ؟ ... فلم يكن يحرم عليه ما يحل لنفسه من استبداد وأنانية فحسب ولكن شفقا عليه وان دل شفقه هذا على ثقة بالنفس وعدم ثقة بالاخر لا يخلدان من غرور . وزايله الغضب كعادته ــ بنفس السرعة التي ركبه بها ، فصفت نفسه وانبسطت اساريره واخذت الامور تتبدى له بوجه جديد لطيف مسماح ..

« تريد ان تتشبه بأبيك ياثور .. اذن لا تأخذ جانبا وتهمل الجوانب الاخرى كن أحمد عبد الجواد كله ان استطعت او فالزم حدودك ، أحسبتني حقا سخطت على تبذيرك لاني كنت ارجو ان أزوجك بنقودك ؟! .. خسئت .. انما رجوت ان اجدك مقتصدا كي أزوجك بنقودي على وفرة النقود لديك ، هذا هو الرجاء الذي خيبت وهل حسبتني لم أفكر في اختيار زوجة لك الا بعد ضبطك متلبسا بالزنا ، وأي زنا ... زنا حقير كحقارة ذوقك وذوق امك ؟! .. كلا يا بغل اني افكر في سعادتك منذ توظفت ، كيف لا

وأنت أول من جعلني أباً.. وانت شريكي في العذاب الذي اصلتنا اياه امك اللعينة ؟! .. ثم اليس من حقي ان افرح بك خصوصا وانه على ان انتظر طويلا حتى افرح بالثور الاخر اخيك اسير العشق ويا ترى من يعيش ؟! ... » في اللحظة التالية ــ استرجع ذكرى ذات سبب وثيق بموقفه الراهن ذكر كيف قص على السيد محمد عفت « جريمة » ياسين وما كان من زجره وجذبه تلك الجذبة التي كادت تلقيه على وجهه وهو بصدد طلب يد كريمته للشاب ــ الواقع ان الموافقة على ذلك تمت بين الرجلين من قبل مفاتحة ياسين ــ وكيف قال له الرجل « الا ترى انه يجمل بك ان تغير من معاملتك لابنك كلما قارب سن الرشد خاصة اذا توظف وسار رجلا مسؤولا ؟ (ثم ضاحكا) الظاهر انك من الاباء الذين لا يرتدعون حتى يجهر ابناؤهم بالثورة عليهم » وكيف اجابه بثقة قائلا : « هيهات ان تتعرض الرابطة بيني وبين ابنائي لتغير الزمن » صدرت عنه الاجابة الاخيرة بمباهاة وثقة لا حد لها ، على انه اعترف له بعد ذلك ان معاملته تتغير في الواقع بتغير الاحوال وان عمل من جانبه على الا يفطن احد الى نية التغيير الباطنة ثم قال : « الحق اني لا اقبل ان امد يدي الان على ياسين ولا حتى على فهمي ، والحق اني جذبت ياسين تلك الجذبة تحت تاثير غضب ثائر ومن غير ان أقدر المدى الذي ذهبت اليه » ثم استطرد قائلا وهو يكر الى فترة من الماضي البعيد « كان ابي رحمة الله عليه يلتزم في تربيتي شدة تهون الى جانبها شدتي مع ابنائي ولكنه سرعان ما غير من معاملته لي منذ ان دعاني الى معاونته في الدكان ، ثم استحالت معاملته صداقة ابوية منذ تزوجت ام ياسين ، وقد بلغ بي الاعتزاز بالنفس ان عارضت في زواجه الاخير لكبره من ناحية وحداثة سن العروس من ناحية اخرى فلم يزد علي ان قال لي « اتعارضني يا ثور ... وما دخلك في هذا الشأن ؟ ... اني اقدر منك على ارضاء اية امرأة» فما تمالكت ان ضحكت وطيبت خاطره معتذرا » ذكر هذا كله فورد على ذهنه المثل القائل « اذا كبر ابنك آخه » فشعر ــ ربما لاول مرة في حياته ــ بتعقد مهمة الابوة كما لم يشعر به من قبل . في نفس الاسبوع اذاعت الام خطبة ياسين في مجلس القهوة . كان فهمي قد علم بها عن طريق ياسين نفسه . اما خديجة

فما تمالكت ان ربطت بين الخطبة وبين ما عرف من قبل عن غضب الاب على ياسين ظنا منها ان الغضب انما وقع نتيجة لرغبة ياسين في الـزواج قياسا على ما كان بين الاب وفهمي للسبب نفسه فصرحت برأيهاكالمتسائلة فقال ياسين ضاحكا وهو يخطف من الام نظرة لا تخلو من حياء وارتباك:

ـ والحق ان ثمة علاقة قوية بين الغضب وبين الخطبة ..

فقالت خديجة متظاهرة بالاستنكار على سبيل السخرية والمزاح :

ـ بابا معذور في غضبه لان حضرتك لا يمكن ان تشرفه امام صديق كبير مثل السيد محمد عفت ..

فجاراها ياسين في سخريتها قائلا :

ـ وسوف يزداد موقف ابي حرجا اذا ما علم السيد الكبير المذكور بأن للعريس اختا مثل حضرتك !

عند ذاك تساءل كمال :

ـ هل سيتركنا ياسين كما تركتنا أبلة عائشة ؟

فقالت له أمه باسمة :

ـ كلا ولكن ستنضم الى بيتنا أخت جديدة هي العروس ..

ارتاح كمال الى هذه الاجابة التي لم يكن يتوقعها ، ارتاح الى بقاء « روايته » الذي يمتعه بحكاياته ونوادره ومؤانسته ولكنه عاد يتساءل لماذا لم تبق عائشة ايضا ؟ ... فأجابته امه بان العادة قضت بأن العروس تنتقل الى بيت العريس وليس العكس ، لم يدر من سن هذه العادة وكـم تمنى لو كان العكس هو المتبع ولو يضحي بياسين ولطائفه . بيد انه لـم يستطع ان يجهر برغبته فأفصح عنها بنظرة ناطقة رنا بها الى أمه ، فهمـي وحده الذي اثار الخبر اشجانه لا لانه لم يشارك ياسين فرحته ولكن لان سيرة الزواج غدا من شأنها ان توقظ عاطفته وتستثير حزنه كما تستثيـر سيرة النصر حزن أم فقدت ابنها ... في موقعة ظافرة ..

★ ★

تحرك الحانطور مقلا الام وخديجة وكمال في طريقه الى السكرية . أيكون زواج عائشة ايذانا بعهد جديد من الحرية ؟ أيقدر لهم اخيرا ان يطلعوا على نور الدنيا من حين لاخر وان يتنفسوا هواءها الطليق ؟! ..

بيد ان امينة لم تستسلم للتفاؤل او تسبق الحوادث ، فالذي حرم عليها زيارة أمها الا فيما ندر قادر على ان يحرم عليها زيارة ابنتها كذلك ولم تنس انه مضت ايام كثيرة على زواج الفتاة زارها خلالها الاب وياسين وفهمي وحتى أم حنفي دون ان يؤذن لها هي بزيارتها أو تواتيها شجاعتها على الاستئذان للزيارة ، تحرزت من تذكيره بأن لها ابنة في السكرية يجب ان تراها ، ولازمت الصمت وان لم تبرح صورة الصغيرة مخيلتها . على انه لما ضاق صدرها بآلام التصبر استجمعت ارادتها وسألته :

ــ ان شاء الله يكون سيدي عازما على زيارة عائشة قريبا لنطمئن عليها ؟ ...

فطن السيد الى ما وراء السؤال من رغبة خفية فحنق عليها ، لا لانه كان قرر ان يحول بينها وبين زيارة عائشة . ولكن لانه ود ــ كشأنه في مثل هذه الحالة ــ ان يصدر السماح منه منحة غير مسبوقة بطلب ان تقوم بنفسها شبهة بأن طلبها ذو اثر في استصدار السماح ، فكره انتسعى الى تذكيره بهذا السؤال الماكر ، ومن قبل فكر في الامر بضيق فأحنقه ان يجده ضرورة لا محيص منها ، ولذلك هتف بها حانقا :

ــ عائشة في بيت زوجها ولا حاجة بها الى احد منا ، على انني زرتها كما زارها اخوها فماذا يقلقك عليها ؟!

غاص قلبها في صدرها وجف ريقها يأسا وقهرا ، أما السيد فقد تعمد ان يلزم الصمت كأنه انتهىمن الامر كله معاقبة لها على ما عده مكرا منها لا يغتفر ، ثم اهملها طوال الوقت وهو يختلس النظر الى ما غشى اساريرها من كمد ، حتى حان وقت انصرافه الى عمله فقال لها بجفاء واقتضاب :

ــ اذهبي غدا الى زيارتها .. !

تدافع دم الانشراح الى الوجه الذي لا تخفى بصفحته خافية فبدت في سرور الطفل فما عتم ان عاوده حنقه فصاح بها :

ــ لن تريها بعد ذلك الا اذا سمح لها زوجها بزيارتنا .. !

فلم تعلق على قوله بكلمة ولكنها لم تنس عهدا حملته وهي تشاور خديجة في مفاتحته فقالت بعد تردد واشفاق :

ــ هل يسمح سيدي بأن آخذ معي خديجة ؟

فهز رأسه كأنما يقول « ما شاء الله •• ما شاء الله •• » ثم قال لها محتدا :

ــ طبعا •• طبعا •• ! ما دمتُ قد قبلت ان أزوج ابنتي فيجب ان تنضم اسرتي الى ابناء الشوارع ! ••• خذيها ، ربنا يأخذكم جميعا ••

تم لها فوق ما تطمع من السرور فلم تلق بالا الى الدعاء الاخير الذي الفت سماعه ••• واكثر ــ في اوقات غضبه او تظاهره بالغضب على السواء ــ كانت تعلم بانه من طرف لسانه وانه ابعد ما يكون من قلبه ، مثله كمثل القطة تبدو ، حين تحمل صغارها ، وكأنها تلتهمها • تحقق الرجاء وانطلقت العربة بهم في طريقها الى السكرية • بدا كمال ، لزيارة عائشة وخروجه بصحبة امه واخته وركوبه الحانطور اوفر الثلاثة سرورا ،وكأنه لم يستطع كتمان فرحه أو انه رغب في اعلانه على الملأ أو لعله اراد لفت الانظار الى شخصه وهو يتخذ مجلسه في الحانطور بين امه واخته فما اقتربت العربة من دكان عم حسنين الحلاق حتى وقف بغتة هاتفا « يا عم حسنين •• انظر !» فنظر الرجل اليه ولما لم يجده وحده غض بصره في عجلة مبتسما فذابت الام خجلا وارتباكا وجذبته من طرف جاكتته ان يعيد الكرة امام الدكاكين التالية وراحت تؤنبه على فعلته « الجنونية » • بدا بيت السكرية ــ وليس كذلك بدا في حلة الانوار ليلة الفرح ــ عتيقا هرما ولكن دل عتقه نفسه فضلا عن ضخامة بنيانه ونفاسة اثاثه على السؤدد والجاه • فآل شوكت اسرة « قديمة » وان لم يبق لهم من عزة القدم ــ خاصة بعد توزيع الثروة بالتوارث والاستكبار على التعليم ــ الا الاسم • وقد أقامت العروس بالدور الثاني على حين نزلت حرم المرحوم شوكت ــ ومعها ابنها الاكبر ابراهيم ــ الدور الاول لعجزها مع الكبر عن ارتقاء السلم فبقي دور ثالث شاغرا لم يسعهم ان يشغلوه وابوا ان يسكنوه • ولما ادخلوا شقة عائشة هم كمال ، منطلقا مع سجيته كما لو كان في بيته ، يجوس خلالها كي يعثر بنفسه على اخته مستمتعا بلذة المفاجأة التي تخيلها وهو يرقى في السلم ولكن أمه لم تدعه يفلت من يدها رغم مقاومته وما يدري الا

والخادم تقودهم الى حجرة الاستقبال ثم تتركهم وحدهم ! شعر بأنهم يعاملون معاملة « الغرباء » او « الضيوف» فأنقبض صدره وانكسرت نفسه وجعل يردد في جزع « أين عائشة ؟ ... لماذا نبقى هنا ؟» فلا يسمع الا كلمة « هس » وتحذيرا من منعه من الزيارة مرة اخرى اذا علا صوته ! .. ولكنه سرعان ما زايله الالم حين جاءت عائشة مهرولة مشرقة الوجه بابتسامة غطى سناها على اضواء حلتها الزاهية وزينتها الباهرة فجرى نحوها وتعلق بعنقها ، فتبودل التسليم بينها وبين أمها واختها وهو على ذلك الوضع!. بدت عائشة سعيدة كل السعادة بنفسها وبحياتها الجديدة وبزيارة اهلها، حدثتهم عن زيارات ابيها وياسين وفهمي ، وكيف غلبها الشوق اليهم على خوفها من ابيها فواتتها الجرأة على ان ترجوه السماح لهم بزيارتها ! ... قالت « لا ادري كيف طاوعني لساني حتى تكلمت ! .. لعل مظهره الجديد الذي لم يتراءى لي به من قبل هو الذي شجعني ، بدا لطيفا وديعا باسما ، أي والله باسما ، على انني ترددت رغم ذلك طويلا ، خفت ان ينقلب فجأة فينتهرني ، ثم توكلت على الله ونطقت ! » فسألتها امها عن رده كيف كان فقالت « قال لي باقتضاب : ان شاء الله ، ثم استطرد مسرعا بلهجة جدية تنم عن تحذير : ولكن لا تظني المسألة لعبا فكل شيء بحساب . فخفق قلبي ورحت ادعو له طويلا توددا واسترضاء ! » ثم رجعت الى الوراء قليلا فوصفت حالها عندما قيل لها « السيد الكبير في حجرة الاستقبال » قالت « ركضت الى الحمام فغسلت وجهي لازيل كل اثر للمساحيق حتى تساءل سي خليل عما يدعو الى ذلك كله ولكني قلت له :ادركني ،لا استطيع ان القاه بفستان صيفي يكشف عن ذراعي ! ... ولم أبرح موضعي حتى تلفعت بشال كشميري ! » ثم قالت « ولما علمت نينة .. (ضاحكة) أعني نينة الجديدة .. لما قص عليها سي خليل ما جرى ضحكت وقالت له : اني اعرف السيد احمد تمام المعرفة .. هو هذا واكثر (ثم متلفتة الي) ولكن اعلمي يا شوشو انك لم تعودي من آل عبد الجواد ، انت الان شوكتية فلا تبالي الاخرين ... « . اصاب منظرها البهيج وحديثها من نفوسهم موضع الحب والاعجاب فحملق كمال فيها كما فعل في ليلة الزفاف وتساءل محتجا « لماذا لم تكوني تبدين هكذا وانت في بيتنا ؟ » فأجابته على الفور

ضاحكة « لم اكن وقت ذاك شوكتية » حتى خديجة رمقتها بعين الحب . انقطعت بزواج الفتاة دواعي الملاحاة التي كانت تنشب بينهما بسبب الاختلاط ، ومن ناحية اخرى لم يبق من الاحساس بالحنق الذي ركبها عند السماح بزواج الفتاة قبلها الا اثر باهت حملته « بختها » من دون الفتاة ، فلم يعد ينطوي قلبها الا على الحب والشوق ، لشد ما تفتقدها كلما آنست من نفسها حاجة الى انيس تفضي اليه بذات نفسها . ثم تحدثت عائشة عن البيت الجديد ، عن المشربية التي تطل على بوابة المتولي ، والمآذن التي تنطلق عن قرب ، وتيار السابلة الذي لا ينقطع ، كل شيء حولها يذكرها بالبيت القديم وما يكتنفه من سبل وأبنية فلا اختلاف فيما عدا الاسماء وبعض المعالم الثانوية « ولكن على فكرة البوابة العظيمة لا نظير لها عندكم (ثم بشيء من الفتور) وان كان المحمل لا يمر تحتها كما اخبرني سي خليل !» وواصلت حديثها : « تحت المشربية مباشرة مجلس يضم ثلاثة لا يفارقونه قبل جثوم الليل : شحاذ كسيح وبائع مراكيب وضارب رمل ، أولئك جيراني الجدد ، الا ان ضارب الرمل اسعدهم حظا ، لا تسألوا عن افواج النساء والرجال الذين يجلسون القرفصاء امامه مستخبرين عن طوالعهم ، كم وددت لو كانت مشربيتي اوطأ كيما اسمع ما يقول لهم ، والذ منظر منظر سوارس القادمة من الدرب الاحمر اذا تقابلت مع عربة حجارة قادمة من الغورية فضاق عنهما مدخل البوابة وركب كل سائق رأسه متحديا الاخر ان يتراجع ليفسح السبيل، يبدأ الكلام لينا بعض اللين فيحتد، ثم يخشوشن، ثم ليفسح السبيل ، يبدأ الكلام لينا بعض اللين فيحتد ، ثم يخشوشن ، ثم تهدر الحناجر بالسباب والشتائم ، وتجيء في اثناء ذلك عربات كارو وعربات يد فيغص بها الطريق ولا يدري احد كيف يعود الحال الى ما كان عليه ، هنالك اقف وراء الخصاص اكاتم الضحك وأتأمل الوجوه والمنظر » وما اشبه فناء البيت الجديد بفناء بيتهم ، حجرة الفرن والمخزن وحماتها سيدة الفناء والجارية سويدان « لا أجد لي عملا فلا اذكر المطبخ حتى تحمل الي صينية الطعام » وعند ذاك لم تتمالك خديجة نفسها من أن تضحك قائلة « نلت ما طالما تمنيته ! » لم يجد كمال في الحديث شيئا ذا بال الا انه احس في نغمته العامة بما يوحي « باستقرار » المتحدثة فداخله الانزعاج وسألها :

ـ الن تعودي الينا ؟ •••
فملأ الحجرة صوت يقول :
ـ لن تعود اليكم يا سي كمال ••
واذا بخليل شوكت يدخل ضاحكا وهو يرفل بجسمه الربعة في جلباب حرير ابيض • كان ذا وجه بيضاوي ممتلىء ، ابيض البشرة في عينيه جحوظ خفيف وفي شفتيه غلظة • أما رأسه الكبير فينتهي بجبين ضيق يفترق عند قمته شعر اسود كثيف يشبه في لونه وتسريحته شعر السيد ، تلوح في عينيه نظرة طيبة وخمول لعلها اثر للراحة والفراغ والرضى • انحنى على يد الام ليقبلها فجذبتها بسرعة في خجل وارتباك وهي تتمتم شاكرة ثم سلم طويلا ، ذلك الوجه الغريب اصلا الذي برز في محيط حياتهم ليحتل مكانا مرموقا يؤهله لان يكون اقرب الاقرباء او بالاحرى ان يكون قرينا لوجه عائشة • كلما خطر هذا على باله جر وراءه ذاك كما يجر الابيض الاسود• تفرس فيه طويلا وهو يردد في نفسه قوله الممتلىء ثقة « لن تعود اليكم يا سي كمال » فوجد نحوه انكارا ونفورا وحقدا كادت تتمكن من قلبه لولا ان قام الرجل فجأة ومضى الى الخارج ثم عاد حاملا صينية فضية ملئت حلوى من مختلف الالوان فقدم له باسما ـ وان كشف افترار ثغره عن سنتين ركبت احداهما الاخرى ـ نخبة من اشهى الاصناف ، وجاءت حرم المرحوم شوكت معتمدة على ذراع رجل استدلوا بمشابهته بخليل على انه اخوه الاكبر ، ثم وكد استدلالهم تقديم الارملة بقولها « ابراهيم ابني ••• الم تعرفوه بعد ؟! » وعندما لاحظت ارتباك امينة وخديجة حال التسليم قالت باسمة « نحن كالاسرة الواحدة من قديم الزمان ولكن بعضنا يرى البعض الاخر الساعة لاول مرة ••• لا بأس ••• ! فظنت امينة الى ان المرأة تشجعها وتهون عليها الامر فابتسمت ، ولكن ساورها شيء من القلق وتساءلت : ترى هل يوافق السيد على مقابلتهما لهذا الرجل ـ وان عد عضوا جديدا في الاسرة كخليل سواء بسواء ـ بغير نقاب ؟ ••• وهل تكاشفه بالمقابلة او تتحاشى ذكرها ايثارا للسلامة ؟ •••

كان ابراهيم وخليل اشبه بالتوأمين لولا فارق السن • على ان اختلافهما بدا اقل من القليل بالقياس الى اختلاف عمريهما ، والحق انه

لولا قصر شعر ابراهيم ، ولولا شاربه المفتول ، لما كان ثمة ما يميزه عن خليل ، كأنه لم يبلغ الاربعين ، أو كأن شبابه ومظهره لا يتأثران بكرور الاعوام ، لذلك ذكرت امينة ما حدثها به السيد مرة عن المرحوم شوكت من انه « كان يبدو اقل من عمره الحقيقي بعشرين عاما او يزيد » او قوله عنه « انه رغم طيبته ونبله كان كالحيوان لا يسمح لفكره ابدا بان ينغص عليه صفوه ! » ، أليس عجيبا ان يبدو ابراهيم في الثلاثين مع انه تزوج في صدر شبابه وانجب طفلين ثم ماتت زوجه وطفلاه ؟! ولكنه مرق من تجربته القاسية سالما لم يمس ، ثم عاودها الحياة مع امه في خمول ودعة وفراغ شأن آل شوكت جميعا ، راق خديجة ان تسترق النظر ــ كلما أمنت أعين الرقباء الى الشقيقين ، الى أوجه الشبه العجيبة بينهما : بيضاوية الوجه وامتلائه ، جحوظ العينين الواسعتين ، البدانة ، الخمول ، فحرك كل اولئك السخرية الكامنة في نفسها حتى ضحكت افكارها ومضت تدخر في ذاكرتها من الصور ما تعود اليه اذا ضمها مجلس القهوة ومالت جريا على سنتها في التهكم الى العبث والاضحاك ، والى هذا فكرت باهتمام في اختيار اسم وصفي عياب لهما على مثال الاسماء الوصفية التي تطلقها على ضحاياها من الناس او بالاحرى اسوة بأمهما التي تطلق عليها « المدفع الرشاش » لتناثر ريقها عند الحديث . واسترقت مرة نظرة الى ابراهيم فما راعها الا ان تلتقي عيناها بعينيه الواسعتين وهما تتفرسان في وجهها باهتمام من تحت حاجبيه الكثيفين فغضت بصرها في حياء وارتباك ، وتساءلت في خوف المريب عما عسى ان يظنه بنظرتها ، ثم وجدت نفسها تفكر بقلق في منظرها وما يمكن ان يتركه في نفسه من اثر . ترى أيسخر من انفها كما سخرت من بدانته وخموله ؟! ... واستغرقها التأمل والقلق ..

ـثم كمال الجلسة التي وان تكن جمعته بعائشة الا انها جمعته بها على نحو ما تجمع بين الضيوف فلم تحقق ــ عدا ما منحت من حلوى ــ شيئا من رغابه ، فانتقل الى جوار العروس وابدى لها اشارة فهمت منها انه يريد ان يخلو بها فقامت واخذته من يده وغادرا الحجرة ، ظنته قانعا بمجالستها في الصالة ولكنه جذبها من يدها الى حجرة النوم ورد الباب وراءهما حتى ارتج . انطلقت اساريره ولمعت عيناه ، وتطلع اليها طويلا

ثم تصفح الحجرة ركنا ركنا وهو يتشمم رائحة الاثاث الجديد مازجها أريج زكي لعله بقية مما انتشر من ايدي المتطيبين وصدورهم ، ثم رنا الى الفراش الوثير ، الى النمرقتين الورديتين المتجاورتين على الغطاء فوق الوسائد وسألها « ما هما ؟ » فأجابته « وسادتان صغيرتان » فسألها « اتتوسدينهما ؟ » قالت باسمة « كلاهما للزينة فقط » فاشار الى الفراش متسائلا « اين تنامين ؟ » فاجابت باسمة ايضا « في الداخل » فسألها كأنه متوكد من انه ينام معها « وسي خليل ؟ » فأجابت وهي تقرص خده برقة « في الخارج ... » عند ذاك التفت صوب « الشيز لنج » بغرابة ، وسار اليه وجلس ، ودعاها الى الجلوس جنبه فجلست ، وما لبث ان غاب في الذكريات غاضا بصره ليخفي نظرة مريبة وصمها بالريبة اشتداد امه بالحملة عليه مساء ليلة الزفاف وهو يسر اليها بما رأى من ثقب الباب ، راودته نفسه على ان يبوح لها بسره . انيسألها عنه ، تحت ضغط اغراء لا يخلو من قسوة ، ولكن الخجل الناجم عن الشعور بالريبة عقله فشكم رغبته على رغمه ، ثم رفع اليها عينين صافيتين وابتسم اليها ، فابتسمت اليه ومالت نحوه فقبلته ، ثم نهضت قائلة وملء وجهها ابتسامة حلوة :

ـ لاملأن جيوبك بالشيكولاتة ...

★ ★

تصايح الغلمان المتجمهرون امام باب البيت وعلى طوار سبيل بين القصرين مهللين ، تميز صوت كمال وهو يهتف « هلت سيارة العروس » ورددها ثلاثا فخرج ياسين ـ وهو في كامل زينته وابهته ـ من بين الجماعة الواقفة عند مدخل الفناء ومضى الى الطريق فوقف امام الباب متجها صوب النحاسين فرأى موكب العروس وهو يتقدم على مهل كأنه يتبختر . في تلك الساعة الحافلة بالسعادة والرهبة وعلى رغم الاعين المحملقة فيه من داخل البيت وخارجه ومن فوق ومن تحت ، بدا ثابتا غير هياب مفعما رجولة وفحولة ، لعل مما ايده في ثباته احساسه بأنه محط الانظار فغالب بشجاعة ما يخفق بين جوانحه من اضطراب ان يبدو للناظرين في حال تخجل منها الرجولة ، ولعله ايضا علم بأن أباه منكمش في مؤخرة الجماعة المنتظرة عند مدخل الفناء ـ التي تضم آل العروسين من الذكور ـ بحيث

لا تمتد اليه عيناه ، فوسعه ان يتمالك نفسه وهو يرنو الى السيارة الموشاة بالورود التي تحمل اليه عروسه بل زوجه منذ اكثر من شهر وان لم تقع عيناه عليها بعد ، او الامل الذي صاغه باحلامه الظامئة لسعادة لا تقنع بما دون الدوام . وتوقفت السيارة امام البيت على رأس ذيل طويل من السيارات فأخذ اهبته للاستقبال السعيد وقد استجدت عنده الرغبة في ان يستشف النقاب الحريري ليرى وجه عروسه لاول مرة ، ثم فتح باب السيارة وترجلت جارية سوداء في الاربعين قوية البنية لماعة البشرة نجلاء العينين فاستدل بما يلوح على حركاتها من الثقة والادلال على انها الجارية التي تقرر الحاقها بخدمة العروس في بيتها الجديد ، تنحت جانبا ووقفت منتصبة القامة كالديدبان ثم خاطبته بصوت كرنين النحاس وهي تبتسم عن اسنان ناصعة البياض قائلة :

ــ تفضل خذ عروسك ...

فتقدم ياسين من باب السيارة ومال الى الداخل قليلا فرأى العروس في حلتها البيضاء بين غادتين على حين استقبله عرف طيب مفتنة للجوارح فتاه في جو الحسن منبهرا ، ومد لها ذراعه لا يكاد يرى شيئا كما يكل بصر طالع نورا ساطعا ، وعقل الحياء العروس فلم تبد حراكا فتطوعت التي الى يمينها فتناولت يدها وطرحتها على ذراعه هامسة بنبرة ضاحكة :

ــ تشجعي يا زينب ...

دخلا جنبا لجنب وهي من الحياء تحول بينه وبينها بمروحة كبيرة من ريش النعام وارت بها رأسها وعنقها فقطعا الفناء بين صفين من المنتظرين يتبعهما المدعوات من آلها اللواتي تعالت زغاريدهن كأنهن لا يبالين السيد احمد وقيامه على ذراع منهن ، هكذا لعلعت الزغاريد في البيت الصامت لاول مرة وعلى مسمع من سيده الجبار ، فلعلها وقعت من آذان أهله موقع الدهشة ، بيد انها دهشة مزجت بالفرح ولم تخل من شماتة بريئة مرحة روحت بها القلوب عن قرار الحظر الصارم الذي قضى بألا تكون زغاريد ولا غناء ولا لهو ، وبأن تمضي ليلة زفاف الابن البكر كما تمضي غيرها من الليالي . وتبادلت أمينة وخديجة وعائشة النظرات متسائلات باسمات وتكأكأن على خصاص نافذة مطلة على الفناء ليشهدن

اثر الزغاريد في نفس السيد فرأينه يحادث السيد محمد عفت ضاحكـا فتمتمت امينة قائلة : « لن يسعه الليلة الا ان يضحك مهما يبدو مما لا يروقه ! » وانتهزت أم حنفي الفرصة السانحة فاندست بين المزغـردات كالبرميل واطلقت زغرودة قوية مجلجلة غطت على الزغاريد كلها وعوضت بها ما ضيعت ـ في ظل الارهاب ـ من فرص المرح والمسرة على عهد خطبتي عائشة وياسين ، واقبلت على سيداتها الثلاث وهي تزغرد حتى استغرقـن في الضحك ثم قالت لهن « زغردن ولو مرة في العمر •• انه لن يدري الليلة من المزغرد ! » • رجع ياسين بعد ايصال العروس الى باب الحريم فالتقى بفهمي الذي لاحت على شفتيه ابتسامة موحية بالحرج والاشفاق لعلهـا أثر مما خافته في نفسه هذه الضجة البهيجة « المحرمة » ، وكان يخالس اباه النظر ثم يرده الى وجه اخيه ضاحكا ضحكة مقتضبة مغضوضة ، فما كان من ياسين الا ان قال له بلهجة ، لا تخلو من استياء :

ـ أي استنكار في ان نحيي ليلة الزفاف بالفرح والزغاريد ؟! •• وماذا كان عليه لو وافق على استدعاء عالمة او مغن ؟!

تلك كانت رغبة الاسرة التي لم تجد الى الافصاح عنها من سبيـل الا ان تحرض ياسين على الاستشفاع بالسيد محمد عفت على ابيه ، ولكن السيد اعتذر وابى الا أن تكون ليلة زفاف صامتة وان تقتصر مسراتهـا على العشاء الفاخر • وعاد ياسين يقول آسفا :

ـ لن أجد من تزفني في هذه الليلة التي لن تتكرر ابد الدهر ! ••• سأدخل حجرة العروس غير مشيع بالاناشيد والدفوف كانني راقص يهـز جذعه دون ايقاع ••

ثم لاحت في عينيه ابتسامة مرحة ماكرة فقال :

ـ الذي لا شك فيه ان ابانا لا يطيق « العوالم » الا في بيوتهن !

مكث كمال في الدور الاعلى الذي أعد لجلوس المدعوات ساعـة ثم نزل باحثا عن ياسين في الدور الاول الذي هيىء لاستقبال المدعوين ولكنه وجده في فناء البيت يتفقد المطبخ المتنقل الذي اقامه الطاهي فاقبل نحوه مسرورا ادلالا بأداء المهمة التي عهد بها اليه وقال له :

ـ فعلت كما أمرتني فتبعت العروس حتى حجرتها وتفحصتها بعد ان

حسرت النقاب عن وجهها ..
فانتحى به جانبا وهو يسأله باسما :
ــ هه ؟ ... كيف عودها ؟
ــ في عود أبلة خديجة ...
ضاحكا :
ــ في هذه الناحية لا بأس ؟ ... أتعجبك كعائشة ؟
ــ كلا .. أبلة عائشة أجمل كثيرا ... !
ــ يخرب بيتك اتريد ان تقول انها كخديجة ؟
ــ كلا انها أجمل من أبلة خديجة ...
ــ كثيــرا ؟!
فهز رأسه مفكرا فسأله الشاب بلهفــة :
ــ حدثني عما أعجبك فيها ؟ ...
ــ أنفها صغير كأنف نينة ... وعيناها كعيني نينة ايضا ...
ــ ثم ؟ ...
ــ لونها ابيض وشعرها اسود ورائحتها حلوة جدا ..
ــ نحمده ... ربنا يبشرك بخير ...
وخيل اليه ان الغلام يغالب رغبة في معاودة الكلام فسأله في شيء من القلق :
ــ هات ما عندك ولا تخف !
فقال كمال وهو يغض بصره :
ــ رأيتها تخرج منديلا ثم ... تتمخط !
وانتوت شفتاه تقززا كأنما كبر عليه ان تند تلك الفعلة عن عــروس في ريق فتنتها ، فما تمالك ياسين ان ضحك قائلا :
ــ لحد هنا عال ، ربنا يجعل العواقب سليمة !
القى نظرة كئيبة على الفناء الخالي الا من الطاهي وصبيانه ، وبعض الاولاد والبنات فتخيل ما كان ينبغي ان يوجد من معالم الزينة وســرادق الطرب ومجلس المدعوين ، من قضى بهذا ؟ ... ابوه ! ... الرجل الذي يفوح عرقه بالمجون والعربدة والطرب ... اعجب به من رجــل يحــل

لنفسه اللهو الحرام ويحرم على بيته اللهو الحلال . وراح يتخيل مجلس السيد كما رآه في حجرة زبيدة بين الكأس والعود فما يدري الا وقد وثبت الى ذهنه فكرة غريبة لم تخطر له من قبل على شدة وضوحها فيما رأى ، تلك هي التشابه بين طبيعتي أبيه وأمه ! طبيعة واحدة في شهوانيتها وجريها وراء اللذة في استهتار لا يقيم وزنا للتقاليد ، ولعل امه لو كانت رجلا لما قصرت عن ابيه في اللهج بالشراب والطرب ايضا ! لذلك انقطع ما بينهما ــ ابيه وأمه ــ سريعا ، فما كان لمثله ان يطيق مثلها وما كان لمثلها أن تطيق مثله ، بل ما كانت الحياة الزوجية لتستقيم له لولا وقوعه على زوجته الراهنة !. ثم ضاحكا ضحكة لم يتح لها روعة من هذه « الفكرة الغريبة » روحا من السرور « عرفت الان من أكون ، لست الا ابن هذين الشهوانيين ، وما كان لي أن أكون غير ما كنت ! » . في اللحظة التالية تساءل ترى ألم يخطئه الصواب عند اغفال دعوة أمه الى زفافه ؟! تساءل رغم اصراره على الاعتقاد بانه لم يتنكب عن الصواب ، لعل أباه رام اراحة ضميره حينما قال له قبل ليلة الزفاف بعدة ليال « أرى ان تبلغ أمك ، ولك ان شئت ان تدعوها الى شهود زفافك » ذاك قوله بلسانه لا بقلبه فيما يعتقد ، فما يتصور ان يرضى ابوه له بأن يذهب الى حيث يقيم ذلك الرجل الحقير الذي اتخذته أمه زوجا له من بعد ازواج كثيرين ، وان يتودد اليها على مرأى منه بأن يدعوها الى شهود زفافه ، لا كان الزفاف ، ولا كانت اي سعادة في هذه الدنيا ان حملته يوما على ان يصل ما انقطع بينه وبين تلك المرأة . تلك الفضيحة ... تلك الذكرى المخزية ! وما كان منه الا ان اجاب اباه وقتذاك قائلا : « لو كان لي أم حقا لكانت اول من ادعو الى زفافي !» انتبه فجأة الى الاولاد والبنات وهم يرنون اليه ويتهامسون فحص البنات بنظرة وسألهن بصوت جهوري ضاحك « هل تحلمن بالزواج من الان يا بنات ؟ » واتجه نحو باب الحريم وهو يذكر قول خديجة الساخر له بالامس « اياك وان تستسلم غدا للحياء بين المدعوين والا عرفوا الحقيقة المرة وهي ان اباك الذي زوجك ونقد مهرك وجملة تكاليف ليلتك ، ولكن تحرك بلا توقف ، تنقل بين حجرات المدعوين ، ضاحك هذا وكلم ذاك ، اطلع وانزل ، تفقد المطبخ ، اهتف وازعق ، لعلك توهم الناس بأنك حقا

رجل الليلة وسيدها ! » فمضى ضاحكا وفي نيته ان يمتثل النصيحة الساخرة فخطر بين المدعوين بجسمه الطويل الجسيم في اناقة بديعة ووسامة جذابة وشباب ريق ، ذهب وجاء ، ونزل وطلع ،وان لم يفعل شيئا ، بيد ان الحركة نفضت عن نفسه طوارىء الفكر فصفت نفسه لمفاتن الليلة ، ولما خطرت العروس على قلبه سرت في بدنه قشعريرة بهيمية ، ثم ذكر آخر ليلة قضاها عند زنوبة العوادة منذ شهر ، كيف انبأها بزواجه الوشيك وهو يودعها وكيف هتفت به بلهجة اصطنعت الغيظ « يا بن الكلب ! ... كتمت الخبر حتى نلت وطرك ! ... (المركب اللي توذي احسن من اللي تجيب) .. مع الف شبشب يا بن المركوب » ، لم يعد لزنوبة من اثر في نفسه ، ولا لغيرها ، اسدل الستار على هذا الجانب من حياته الى الابد ، ربما عاود الشراب فما يظن ان تموت رغبته فيه ، اما النساء فلم يتصور ان تزيغ عيناه الى امرأة عابرة وبين يديه حسناء طوع بنانه ، عروسه لذة متجددة ، ري الظمأ الوحشي الذي طالما قلقل كيانه ، ثم راح يتمثل حياته المقبلة ، الليلة ، والليالي الآتيات ، الشهر والعام فالعمر كله ، ووجهه يستطيع بهجة ناطقة لحظها فهمي بعين مليئة بحب الاستطلاع والغبطة الهادئة وغير قليل من الاسى . وجاء كمال الذي كان يتراءى في أي مكان فجأة وخاطب ياسين والبشر يتألق في وجهه قائلا :

ـ الطاهي قال لي ان الحلوى تزيد على حاجة المدعوين والمدعوات وانه سيتبقى منها مقدار وفير ..

★ ★

زاد مجلس القهوة وجها جديدا بانضمام زينب اليه ، وجها زكا بريق الشباب وفرحة العرس ، وفيما عدا هذا ، وفيما عدا فرش الحجرات الثلاث المجاورة لحجرة الوالدين في الدور الاعلى بجهاز العروس ، فلم يحدث زواج ياسين تغييرا يذكر في النظام العام للبيت سواء من الناحية السياسية التي ظلت خاضعة بكل معاني الكلمة لسلطان السيد وارادته او من الناحية الادارية الداخلية التي ظلت وحدة تابعة لهيمنة الام كما كان الحال قبل الزواج . التغيير الجوهري حقا كان الذي طرأ على النفوس ودار مع الخواطر فدقت رؤيته على الحواس ، اذ لم يكن من اليسير ان تشغل

زينب مكانة الزوجة للابن البكر وان يجمعهما وبقية افراد الاسرة بيت واحد من دون ان يطرأ على العواطف والمشاعر تطور ذو شأن . رمقتها الام بنظرة امتزج فيها الرجاء بالحذر ، هذه الفتاة التي قضى عليها بأن تعاشرها دهرا طويلا ربما امتد حتى نهاية العمر ، اي انسان تكون ؟ ... ماذا تخبىء وراء ابتسامتها الرقيقة ؟ ... بالجملة استقبلتها كما يستقبل مالك البيت ساكنا جديدا فيؤمنه ويحاذره اما خديجة فعلى رغم المجاملات التي تبودلت بينهما جعلت تسدد نحوها عينين نافذتين مفطورتين على السخرية وسوء الظن ، منقبة عن العيوب والمآخذ بحرص ساخط لم يلق من انضمامها الى البيت وفوزها بالزواج من أخيها الا ضيقا خفيا ، فلما اعتكفت الفتاة في حجراتها الايام الاولى من الزواج ساءلت خديجة امها وهما في حجرة الفرن « ترى هل حجرة الفرن مكان غير لائق « بها ؟ » ومع ان الام وجدت في تهجمها ترويحا عن حيرة ظنونها الا انها اتخذت موقف الدفاع عن الفتاة واجابتها قائلة : « صبرك ، لم تزل عروسا في بدء عهدها الجديد ! » فتساءلت الاخرى بلهجة تشي بالاستنكار « ومن ذا الذي قضى بأن نكون خدما للعرائس ؟! فسألتها امها وكأنما تطرح السؤال على نفسها هي « اتفضلين ان تستقل بمطبخها ؟ » فهتفت خديجة معترضة « لو كان المال مال ابيها لا مال ابي لجاز هذا ! .. ولكني اعني انها يجب ان تعمل معنا» على انه لما قررت زينب ، بعد انقضاء اسبوع على الزواج ، ان تحمل بعض الاعباء في حجرة الفرن لم يرحب قلب خديجة بهذه الخطوة التعاونية ومضت تلاحظ عمل العروس بدقة انتقادية وتقول لامها : « لم تجيء لتعاونك ولكن لتمارس ما لعلها تدعيه لنفسها من حق.» او تقول ساخرة « طالما سمعنا عن آل عفت انهم من الصفوة وانهم يأكلون ما لا يأكل الناس ... فهل وجدت في طهيها شيئا عجيبا لم نسمع به ؟! »بيد ان زينب اقترحت يوما ان تصنع «الشركسية »باعتبارها الصنف الاثير على مائدة ابيها ــ وهي المرة الاولى لدخول الشركسية فيبيت السيد ــ فحازت لدى تناولها اعجابا شاملا بلغ اقصاه عند ياسين حتى ان الام نفسها لم تبرأ من لسعة غيرة ، أما خديجة فجن جنونها وجعلت تهزا بالصنف قائلة « قالوا شركسية قلنا يعيش المعلم يتعلم ولكن ماذا رأينا ؟. أرزا وصلصة

في هيئة بوليتيكا . طعمها لا هنا ولا هناك .. كالعروس تزف الى عريسها في حلة خلابة وحلى لألاء حتى اذا ما نزعت عنها ثياب العرس بدت فتاة عادية من نفس الخلطة المعروفة من قبل اي اللحم والعظم والدم ! » ثم ما كاد يمضي على الزواج اسبوعان حتى قالت على مسمع من امها وفهمي وكمال ان العروس وان كانت بيضاء البشرة وذات حظ « معتدل » من الجمال الا ان دمها ثقيل كالشركسية سواء بسواء . قالت هذا في نفس الوقت الذي اكبت فيه على استظهار دقائق صنع الشركسية بحذقها المعترف به ! على ان ثمة احاديث صدرت عن زينب بحسن نية – في الاقل لان وقت سوء النية لم يئن بعد –فأثارت الخواطر والقت عليها ظلا من الشك اذ طاب لها كلما تهيأت مناسبة ان تنوه بأصلها التركي وان التزمت الادب واللطف كما لذ لها ان تروي لهم بعض ما شاهدت من رحلات في حانطور والدها وبصحبته الى الملاهي البريئة والحدائق فوقع الحديث كله من نفس الام موقعا ادهشها الى حد الانزعاج ، عجبت لتلك الحياة التي تسمع عنها لاول مرة ، وانكرتها ، واستنكرت فيما بينها وبين نفسها هذه الحرية الغريبة استنكارا جاوز كل تقدير ، الى ان المباهاة بالاصل التركي – وان لطفت بالادب والبراعة – ساءتها كثيرا لأنها كانت – على تخشعها وانطوائها – شديدة الاعتزاز بأبيها وبعلها فترى انها بهما في مكانة لا تداني ، الا انها كظمت ما قام بنفسها فلم تلق زينب منها الا اهتمام الاصغاء وابتسامة المجاملة ، ولولا حرص الام الشديد على السلام لانفجرت خديجة حنقا ولساءت العاقبة ، على انها نفست عن غيظها بطرق ملتوية ليس من شأنها ان تعكر صفو السلام كتعليقها على انباء الرحلات مثلا – وهي التي لم يسعها ان تجهر فيها برأيها – بالمبالغة في اظهار الدهشة ، أو بالهتاف وهي تحملق في وجه محدثتها « يا خبر ! » ، او بأن تضرب براحتها على صدرها وهي تقول : « ويراك السابلة وانت تمشين في الحديقة ! » ، او بقولها : « ما كنت أتصور امكان هذا يا ربي ! » وغير ذلك من العبارات التي وان لم تفصح الفاظها عن اساءة الا ان لهجتها المطوطة التمثيلية تضمنت اكثر من معنى كلهجة الزجر التي يصطنعها الاب وهو يتلو القرآن مصليا اذا ما آنس من ابنه غير البعيد عنه اخلالا بالنظام او الادب وعز عليه لزجره

صراحة ان يخرج من الصلاة ، لذلك لم تكن تخلو الى ياسين حتى تبادره مروحة عن غيظها الذي عز عليه المتنفس « يا سلام يا سلام على عروسك النزهية ! » فيقول لها ضاحكا « هذه هي الموضة التركية التي تسمو على ادراكك ! » فتذكرها صفة « التركية » بالمباهاة الثقيلة على قلبها فتقول : « على فكرة ، ست الدار تباهي كثيرا باصلها التركي ، لماذا ؟ .. لان جد جد جد جدها تركي! ... حذار يا اخي فان خاتمة التركيات الجنون» ولكنه يقول لها مجاريا سخريتها « الجنون احب الي من وجه أنفه يجنن ذا الذوق السليم ! » تراءى لاعين المتنبئين النقار المتوقع بين خديجة وزينب في أفق الاسرة فنبهها فهمي الى ضبط لسانها ان يبلغ الفتاة شيء من هذرها. واشار محذرا اشارة خفية الى كمال الذي دأب على التنقل بينهم وبين العروس تنقل الفراشة ـ حاملة اللقاح ـ بين الازهار !. ولكن غاب عنه ـ كما غاب عن الاسرة جميعا ـ ان القدر كان يعمل من جانبه على الحيلولة بين الفتاتين ، اذ زارت البيت حرم المرحوم شوكت وعائشة زيارة لم يحلم احد من قبل بأن تتوج بالنهاية التي توجت بها ، قالت العجوز تخاطب الام على مسمع من خديجة :

ـ يا أمينة هانم جئتك اليوم خاصة لاخطب خديجة لابني ابراهيم ..

فرحة بلا تمهيد وان طال انتظارها حتى شق ، فلذلك سجع صوت المرأة في أذني الام سجعا جميلا حتى انها لم تذكر ان قولا ـ قبله ـ بل صدرها بندى الطمأنينة والسلام كما بله فكاد يستخفها الفرح وهي تقول بصوت متهدج :

ـ ليس لي في خديجة اكثر مما لك ، هي ابنتك ولنجدن في حماك اضعاف ما تجد في بيت أبيها من السعادة ...

استرسل الحديث السعيد الا ان خديجة جعلت تغيب عنه فيما يشبه الذهول ، خفضت عينيها في حياء وارتباك وقد زايلتها روح السخرية التي طالما توهجت في حدقتيها ، فشملتها وداعة غير معهودة ثم جرت مع تيار خواطرها . وجاء الطلب مفاجأة ،وأي مفاجأة ، فكما بدا عسيرا في غيابه بدأ غير مصدق في حدوثه حتى لقد غشيت فرحتها بموجة ثقيلة من الذهول ... « لاخطب خديجة لابني ابراهيم » .. ماذا دهاه ؟ .. انه على خموله

الذي اثار هزأها حسن المحيا وجيه في الرجال ، فماذا دهاه ؟! ..
ـ ومن حسن الطالع ان يجمع بين الاختين في بيت واحد .
صوت حرم المرحوم شوكت يؤكد الحقيقة ويزكي وجوهها .. ليس ثمة شك .. ابراهيم مثل خليل مالا وجاها فأي حظ ادخرته لها الاقدار . لشد ما اسفت على ان عائشة سبقتها الى الزواج اذ لم تكن تدري ان زواج عائشة هو الذي قدر له ان يفتح لها ابواب الحظ المغلقة ...
ـ ما أجمل ان تكون السلفة هي الشقيقة فيزول سبب جوهري من اسباب وجع الدماغ في الاسر (ثم ضاحكة) فلا تبقى الا حماتها وأظن أمرها هينا .. !
ـ ان تكن سلفتها هي شقيقتها فحماتها هي أمها بلا نقصان .
لم تزل الامان تتجاملان ، لقد احبت العجوز وهي تزف اليها البشرى بقدر ما ابغضتها يوم خطبت عائشة ! . يجب ان تعلم مريم بالخبر اليوم ، لا تطيق ان تؤجله الى الغد ، لا تدري ما الدافع الى هذه الرغبة الملحة ، لعله قول مريم لها غداة خطبت عائشة « ماذا كان عليهم لو انهم انتظروا حتى تتم خطبتك انت ! » فأغراها وقتذاك سوء ظنها المطبوع باتهام براءته الظاهرة . ولما انصرفت اسرة شوكت قال ياسين بقصد التحرش والدعابة :
ـ الحق اني مذ رأيت ابراهيم شوكت قلت لنفسي ما أجدر هذا الرجل الثور الذي لا يبدو انه يفرق بين الابيض والاسود ان يقع اختياره يوما على زوجة مثل خديجة ...
فابتسمت خديجة ابتسامة خفيفة ولم تنبس بكلمة فهتف بدهشة :
ـ هل عرفت الادب والحياء اخيرا !
بيد ان وجهه نطق وهو يمازحها بالرضا والغبطة فلم يعكر صفوهم الا حين تساءل كمال في قلق :
ـ أتتركنا خديجة ايضا ؟
فقالت الام تعزيه وتعزي نفسها :
ـ ليست السكرية بعيدة ...
على ان كمال لم يستطع ان يدلي بما عنده في حرية كاملة الا حين انفرد بأمه ليلا فتربع قبالتها على الكنبة وسألها بصوت ينم عن الاحتجاج

واللوم :

ـ ماذا جرى لعقلك يا نينة؟ .. اتفرطين في خديجة كما فرطت في عائشة ؟

فأهمته أنها لم تفرط فيهما . ولكنها ترضى بما يسعدهما . فقال محذرا كأنما ينبهها الى شيء فاتها ويوشك ان يفوتها مرة اخرى :

ـ ستذهب هي الاخرى ، ربما ظننت انها ستعود كما ظننت بعائشة، ولكنها لن تعود ، وستزورك اذا زارتك كالضيفة فما ان تشرب القهوة حتى تقول لك السلام عليكم ، اني اقولها في صراحة انها لن تعود ..

ثم محذرا وواعظا في آن :

ـ ستجدين نفسك وحدك بلا رفيق ، من يعينك على الكنس والتنفيض ؟ .. من يعينك في حجرة الفرن ؟ من يجالسنا في جلسة المساء؟. من يضحكنا ؟ ... لن تجدي الا أم حنفي التي سيخلو لها الميدان لسرقة طعامنا كله ..

فأفهمته مرة اخرى ان السعادة لن تكون بلا ثمن فقال محتجا :

ـ ومن أدراك ان في الزواج سعادة ؟! .. أؤكد لك انه لا سعادة مطلقا في الزواج ، كيف يحظى احد بالسعادة بعيدا عن نينة ؟

ومردفا بحماس :

ـ ثم انها لا ترغب في الزواج كما لم ترغب فيه عائشة من قبل .. لقد صارحتني بذلك ذات ليلة في فراشهما .. !

ولكنها قالت له انه لا بد للفتاة من ان تتزوج ، فلم يتمالك من ان يقول :

ـ من قال بانه لا بد للفتاة من ان تذهب الى بيوت الغرباء !. ثم ماذا تفعلين لو اجلسها الاخر على الشيز لنج وتناول ذقنها هي الاخرى و ..

عند ذاك زجرته وامرته بألا يتكلم فيما لا يعنيه فضرب كفا بكف وهو يقول منذرا :

ـ أنت حرة ... وسترين !

في تلك الليلة لم يغمض لامينة من يقظة الفرح جفن كانها السماء المقمرة لا تغشاها الظلماء ، فظلت مستيقظة حتى جاء السيد بعد منتصف

الليل ، ثم زفت اليه البشرى فتلقاها بغبطة اطارت عن رأسه الخمار بالرغم مما في هذا الرأس من نظريات غريبة عن زواج البنات ، الا انه تجهم بغتة متسائلا :

ـ هل أتيح لابراهيم ان يراها ؟!

ساءلت المرأة نفسها الا يمكن ان يدوم ابتهاجه ـ ونادرا ما يعلنه ـ اكثر من نصف دقيقة ؟ ... وتمتمت في قلق :

ـ أمه ..

فقاطعها محتدا :

ـ هل اتيح لابراهيم ان يراها ؟!

فقالت وقد ولى عنها السرور لاول مرة في تلك الليلة :

ـ دخل علينا مرة في شقة عائشة باعتباره فردا من الاسرة فلم أر في ذلك من بأس .

فتساءل مزمجرا :

ـ ولكنني لم اعلم بذلك ..

كل شيء ينذر بالشر ، ترى هل يهوى على مستقبل الفتاة بضربة قاضية ؟ ... على رغمها اغرورقت عيناها بالدمع وما تدري الا وهي تقول مستهينة بغضبته المكفهرة .

ـ سيدي ، حياة خديجة وديعة بين يديك ، هيهات ان يبتسم لها الحظ مرتين ...

فرماها بنظرة قاسية وراح يهدر مدمدما مهينما مهمهما كأنما رده الغضب الى حالة من حالات التعبير بالاصوات التي مر بها اسلافه الاولون، ولكنه لم يزد على ذاك شيئا ، لعله اضمر الموافقة من أول الامر ولكنه ابى ان يسلم بها قبل ان يسجل سخطه كالسياسي الذي يهاجم خصمه ـ وان اقتنع بالغاية التي يستهدفها ـ ذودا عن مبادئه ...

★ ★

مضى شهر العسل وياسين متفرغ بكليته لحياته الزوجية الجديدة ، لا يصرفه عنها عمل في النهار حيث وافق زواجه اواسط العطلة الصيفية ، ولا سهر بالليل خارج البيت لانه لم يكن يغادره الا للضرورة القصوى كابتياع

زجاجة كونياك مثلا ، فيما عدا هذا لم يجد لنفسه عملا او معنى او صفة خارج نطاق الزوجية فاندلق عليها بقوة وحماس وتفاؤل خليقة برجل ظن انه ينفذ الخطوات الاولى من برنامج ضخم من المتعة الجسدية سيمتد يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وعاما بعد عام . ولكنه ادرك في الثلث الاخير من الشهر ان تفاؤله لا بد ان يكون مبالغا فيه على نحو ما أو أن خللا لا يدري كنهه قد طرأ على حياته ، كان يعاني في حيرة بالغة ولاول مرة في حياته ذاك المرض المتوطن في نفس الانسان الملل . لم يعرفه من قبل عند زنوبة ولا حتى عند بائعة الدوم لانه لم يملك هذه او تلك كما يملك زينب الان بيمينه ويحوزها تحت سقف بيته ، فأي فتور يتبخر من هذه « الملكية » الآمنة المطمئنة ... الملكية ذات الظاهر الخلاب المغري لدرجة الموت والباطن الرزين الثقيل لحد اللامبالاة او التقزز كأنها الشيكولاتة المزيفة التي تهدى في أول ابريل بقشرة من الحلوى وحشو من الثوم ، وأي مأساة في ان تندمج نشوة القلب والجسد في آلية العادة المنظمة العاقلة الباردة المتكررة القاتلة للشعور والجدة كأنها رؤية روحانية رفيقة تجسدت في صلاة لفظية ترددها الذاكرة بلا وعي ! ... وراح الفتى يتساءل عما دهى ثورته ، عما هدى شياطينه ، عن ذاك الشبع واين جاء ، عن تلك الفتنة اين ذهبت ، اين ياسين واين زينب ، اين الاحلام ، اهذا شأن الزواج ام شأنه هو ، وكيف اذا تتابعت الشهور في أعقاب الشهور ! .. ليس انه لم يعد له من رغبة فيها ، ولكنها لم تعد رغبة الصائم في لذيذ المآكل، هاله ان يدركها الهدوء حيث انتظر لها الازدهار ، وضاعف من حيرته انه لم يبد على الفتاة عارض من عوارض رد الفعل او بالاحرى انها تزيد حيوية ورغبة فحينما يظن ان النوم بات واجبا بعد طول التعب لا يدري الا وساقها تطرح على ساقه كأنما طرحت عفوا حتى قال لنفسه « يا عجبا .. أحلامي عن الزواج تحققت عندها هي ! » . الى هذا كله وجد في عناقها نوعا من الاحتشام وان طاب له اول الامر انه جعله يهيم اخرا في وديان الذكريات التي ظن انه ودعها الى الابد ، طفت على رأسه من الاعماق « زنوبة » واخريات كما تطفو ودائع البحر عند هدوء العاصفة لا لشر يبيت فالحق انه مرق الى عش الزوجية عامر القلب بالنية الحسنة ، ولكن للموازنة والمقارنة والتأمل،

وليقتنع اخيرا بأن « العروس » ليست المفتاح السحري لدنيا المرأة ، ليس يدري كيف يخلص حقا للنوايا الحسنة التي فرش بها طريق الزواج ، يبدو جانب ــ على الاقل ــ من احلامه الساذجة عسير التحقيق وهو ظنه بأنـه سيستغني بأحضان زوجه عن العالم الخارجي ، وانه سليبد بكنفها العمـر كله ، ذاك حلم من احلام الشهوة في سذاجتها ، وسيجد من الان فصاعـدا ان الانقطاع عن عالمه وعاداته مما يشق عليه وليس ثمة ضرورة تدعو اليه، وانه ينبغي ان يتلمس وسيلة او اخرى ــ الوقت بعد الوقت ــ ليحسـن الهرب من نفسه وافكاره وخيبته ، حتى المغني المجيد اذا أطال في تقاسيـم الليالي انبعث في نفس السامع الشوق الى الدخول في الدور ، ثم انه في الانطلاق من محبسه فرصة للاختلاط بالاصحاب المتزوجين لعله يظفـر عندهم باجوبة مسكنة للاسئلة الحيرى التي تلح عليه ، ولن يتأتى له من وراء ذلك الدواء الشافي لكل داء ... وكيف يؤمن بعد اليوم بوجود دواء شاف لكل داء ؟! يحسن به من الان الا يرسم برامج بعيدة المدى . لا تلبث ان تنهار ساخرة من قدرته على التخييل . ليقنع من تنسيق حياته بالخطوة تلو الخطوة حتى يرى اين يرسو ، وليبدأ بتنفيذ اقتراح اقترحته هـي ــ زوجه ــ عليه بان يخرجا معـا .

ما تدري الاسرة ذات مساء الا وياسين وزوجه يغادران البيت من دون ان يطلعا احدا على مقصدهما بالرغم من انهما قضيا معهم سهـرة المساء . بدا الخروج بالنظر الى وقته المتأخر من ناحية والى وقوعه في بيت السيد من ناحية اخرى حادثا غريبا اثار شتى الظنون فما عتمت خديجـة ان استدعت نور جارية العروس وسألتها عما تعلم عن خروج سيدتها فأجابت الجارية بصوتها الرنان في بساطة متناهية !

ــ ذهبا يا ستي الى كشكش بك ..

فهتفت خديجة وأمها في نفس واحد :

كشكش بـك !

ليس الاسم غريبا عليهم ، اقتحم ذكره الدور وتغني بأغانيه كل مـن هب ودب ولكنه على ذلك يبدو بعيدا كأبطال الخرافات أو كزبلن ابليـس السماء . ان يذهب ياسين بزوجه اليه امر مختلف جدا ليس دونه ان يقال

ذهبا الى محكمة الجنايات . رددت الام عينيها بين خديجةوفهمي وتساءلت فيما يشبه الخوف :

ــ متى يعودان ؟

فأجابها فهمي وابتسامة لا معنى لها تفغم على شفتيه :

ــ بعد منتصف الليل ، وربما قبيل الفجر ...

صرفت الام الجارية وانتظرت حتى غاب وقع اقدامها ثم قالت في لهوجة وانفعال :

ــ ماذا دهى ياسين ؟! .. كان جالسا بيننا في كامل عقله .. ألم يعد يعمل حسابا لابيه ؟

فقالت خديجة في حنق :

ــ ياسين اعقل من ان يدبر رحلة كهذه ، ليست قلة العقل عيبه ولكن به خنوع لا يليق بالرجال ، اقطع ذراعي ان لم تكن هي التي حرضته ...

فقال فهمي مدفوعا برغبة في تلطيف الجو المتوتر وان نفر بطبعه الموروث من جرأة اخيه :

ــ ياسين ذو ميل قديم الى الملاهي ..

فضاعف دفاعه من حنق خديجة التي اندفعت قائلة :

ــ لسنا بصدد الحديث عن ياسين وميوله ، له ان يحب الملاهي كما يحلو له ، او ان يواصل السهر في الخارج حتى مطلع الفجر كلما شاء ، ولكن اصطحاب زوجه المصون معه فكرة لا يمكن ان تصدر عن ذاته فلعلها جاءته عن اياء عجز عن مقاومته خصوصا وانه يبدو مستكينا بين يديها كالقطة الاليفة ، ثم انها فيما أرى لا تتورع عن رغبة كهذه . ألم تسمعها وهي تروي قصص الرحلات التي شاهدتها بصحبة والدها ؟!. لولا ايحاؤها ما اخذها معه الى كشكش بك ــ يا للفضيحة ! ــ في هذه الايام السود التي يتحجر فيها الرجال في البيوت كالفيران رعبا من الاستراليين..

لم يقف التعليق على الحادث عند حد لما اثاره في النفوس ــ سواء المهاجمة او المدافعة او المحايدة ــ من امتعاض ، كمال وحده تابع النقاش المحتدم في صمت يقظ من دون ان يفطن الى السر الذي جعل من كشكش

بك جريمة نكراء استوجبت ذاك النقاش كله وذاك الكرب كله ، أليس كشكش هذا صاحب التمثال الصغير الذي يباع في الاسواق بجسم متوثب في دعابة ووجه ضاحك ذي لحية عريضة وجبة فضفاضة وعمامة مقلوظة؟. أليس هو من تنسب اليه الاغاني المرحة التي استظهر بعضا منها ينشده مع صديقه فؤاد بن جميل الحمزاوي وكيل أبيه ؟ ... فبأي شر يتهمون هذه الشخصية اللطيفة التي ارتبطت في خياله بالفكاهة والمرح ؟ ..لعل مطرد هذا الكدر الى اصطحاب ياسين لزوجه لا الى كشكش بك نفسه ، فان كان ذلك كذلك فهو يتفق معهم في الانزعاج من جرأة ياسين خصوصا وان زيارة أمه للحسين وما اعقبها من احداث لا يمكن ان تبرح مخيلته ، أجل كان الاجدر بياسين ان يذهب وحده او ان يأخذه « هو » ان كان يريد رفيقا لا سيما وانه في عطلة الصيف فضلا عن نجاحه المتفوق في المدرسة ، وما يدري الا وهو يقول متأثرا بأفكاره :

ــ ألم يكن الافضل ان يأخذني أنا .. ؟!

اندس تساؤله في الحديث كما تندس نغمة غريبة مقتبسة في لحن شرقي صميم . فقالت خديجة :

ــ من الان فصاعدا يحق علينا ان نعذرك في قلة عقلك .. !

فندت عن فهمي ضحكة قائلا :

ــ ابن الوز عوام ...

بيد ان المثل رن في اذنيه رنينا جافيا وكد اثره السيىء تحديق امه وخديجة في عينيه باستغراب فانتبه الى خطئه غير المقصود وتداركه قائلا وقد دخله امتعاض وخجل :

ــ اخو الوز عوام ! ... هذا ما قصدت اقوله ..

دل الحديث في جملته على تحامل خديجة على زينب من ناحية ، وخوف الام من العواقب من ناحية اخرى ، بيد ان امينة لم تعلن ما في نفسها كله . في تلك الليلة عرفت في نفسها امورا لم تكن تعرفها من قبل. اجل كثيرا ما وجدت نحو زينب انكارا وضيقا ولكنه لم يبلغ ان يكون نفورا او كراهية فعزته الى خيلاء الفتاة بداع وبغير داع ، ولكن هالها اليوم ان تخرق الآداب والتقاليد ، وان تحل لنفسها ما لا يحل ــ في

نظرها هي ــ الا للرجال ،عابت هذا السلوك بين امرأة قضت عمرهاحبيسة وراء الجدران ، امرأة دفعت صحتها وسلامتها ثمنا لزيارة بريئة لزين آل البيت لا لكشكش بك ، فمازج انتقادها الصامت شعور طافح بالمرارة والغيظ وكأن منطقها غدا يردد فيما بينها وبين نفسها « اما ان تنال الاخرى الجزاء او فلتذهب الحياة هباء » • هكذا تلوث بالحنق والموجدة ــ في الشهر الاول من معاشرته لامرأة جديدة ــ القلب الطاهر الورع الذي لم يعرف طوال حياته المحفوفة بالجد والصرامة والتعب الا الطاعة والعفو والصفاء • ولما آوت الى حجرتها لم تدر ان كانت تود ــ كما دعت بلسانها امام ابنائها ــ ان يستر الله على « جناية » ياسين ام انها ترجو ان ينال او بالاحرى ان تنال زوجه جزاءها من الزجر والتأديب ؟ ، بدت تلك الليلة وكأنها لا يعنيها من امر الدنيا جميعا الا ان تصان تقاليد الاسرة من كل عبث وان يدفع عنها ما يتحرش بها من عدوان • بدت غيورا على الآداب الى حد القسوة فطمرت عواطفها الرقيقة المألوفة في الاعماق باسم الاخلاص والفضيلة والدين متعللة بها فرارا من ضميرها المتألم كالحلم الذي ينفس عن غرائز مكبوتة باسم الحرية او غيرها من المبادىء السامية• جاء السيد وهي على تلك الحال من التصميم الا ان منظره بث الخوف في حناياها فانعقد لسانها ، راحت تتابع حديثه وتجيب على اسئلته بذهن شارد وفؤاد خافق لا تدري كيف تنفس عما احتدم بخاطرها ، وكلما مر الوقت واقترب ميعاد النوم ألحت عليها رغبة عصبية في الكلام ، كم ودت لو تنكشف الحقيقة بنفسها كأن يجيء ياسين وزوجه مثلا قبل اخلاد ابيه الى النوم فيتنبه السيد بنفسه الى فعلته النكراء فيجبه العروس الرعناء برأيه في سلوكها بغير تدخل منها هي ــ الام ــ لا شك انه يحزنها بقدر ما يريحها ••• انتظرت طويلا في لهفة وقلق ان يطرق الباب الكبير ،انتظرت دقيقة بعد اخرى، حتى تثاءب السيد وقال لها بصوت متراخ :

ــ اطفئي المصباح •••

حاقت بها الهزيمة فانحلت عقدة لسانها فقالت بصوت خافت مضطرب كأنها تناجي نفسها :

ــ تأخر الوقت ولما يعد ياسين وزوجه !

فحملق السيد في وجهها وتساءل في عجب :
ـ وزوجه ؟ ••• أين ذهبا ؟
ازدردت المرأة ريقها وقد ركبها الخوف ، من السيد ونفسها معـا ، ولكن لم تجد بدا من ان تقول :
ـ سمعة الجارية تقول انهما ذهبا الى كشكش بك !
ـ كشكش !

عزف الصوت عاليا في شراسة وتطاير الشرر من العينين اللتين الهبهما الكحول ، وراح يطرح عليها السؤال تلو السؤال مزمجرا مدمدما حتـى طار النوم عن رأسه فأبى ان يزايل مجلسه حتى يعود « الضالان » فانتظر وهو يغلي من الحنق ، ولما كان غضبه ينعكس على نفسها رعبا فقد ارتعبت كما لو كانت هي المذنبة ، ثم غصت بالندم على ما بدر منها ، ندم عاجلها مبادرا عقب البوح بسرها مباشرة كأنها لم تبح الا كي تندم ، فلـم تكـن لتبخل بغال مهما غلا ساعتئذ لو تستطيع ان تصلح خطأها ، وقست علـى نفسها بلا تحفظ فاتهمتها بالوقيعة والشر ، ألم يكن الاجدر بها ان تتستر عليهما على ان تنبههما الى خطئهما غدا ان كانت تريد الاصلاح حقـا لا الانتقام ؟ •• ولكنها اذعنت لعاطفة شريرة ، عن عمد وسوء نية ، فهيـأت للفتى وعروسه نكدا لم يدر لهما بخلد وجرت على نفسها ندمـا بـات يحرق نفسها المعذبة حرقا بلا رحمة ، وراحت تدعو الله ـ خجلي من ذكره ـ ان يلطف بهم جميعا ، مضى الوقت تقرع دقائقه قلبها بالالم حتى انتبهت على صوت السيد وهو يقول متهكما بمرارة :
ـ جاء سي كشكش •••

فأرهفت السمع وهي تتطلع بناظريها الى النافذة المفتوحة المطلة على الفناء فترامى اليها صرير الباب الكبير وهو يغلق ، وقام السيد وغـادر الحجرة فقامت بطريقة آلية ولكنها تسمرت في مكانها جبنا وخزيا وضربات قلبها تتدافع حتى سمعت صوته الجهير وهو يخاطب القادمين قـائـلا : « اتبعاني الى حجرتي » فتناهى بها الخوف فتسللت من الحجرة هاربة •• عاد السيد الى مجلسه يتبعه على الاثر ياسين وزينب ، فحدج الفتاة بنظرة عميقة متجاهلا ياسين ثم قال بحزم وان نقى نبراته من الغلظة والجفاء :

ـ اصغ الي يا بنية جيدا ، ابوك اخي أو أوثق صلة ومـودة ، فانت ابنتي كخديجة وعائشة على السواء ،ما قصدت ابدا ان أكدر صفوك ولكن ثمة امور أعد السكوت عنها جريمة لا تغتفر ، من ذلك ان تبقى فتاة مثلك خارج بيتها حتى هذه الساعة من الليل ، لا تحسبي ان في وجود زوجك معك عذرا عن هذا السلوك الشاذ فان الزوج الذي يستهين بكرامته على هذا النحو غير خليق بأن يقيل من العثرات التي هو للاسف اول دافع اليها ، ولما كنت على يقين من براءتك او بالاحرى من انه لا ذنب لك الا انـك جاريته على هواه فرجائي اليك ان تعاونيني على اصلاح امره بألا تستسلمي الى غواياته مرة اخرى ..

وجمت الفتاة واستحوذ عليها الذهول ، وعلى انها كانت تحظى في كنف ابيها بقسط من الحرية الا انها لم تجد من نفسها شجاعـة علـى مناقشة الرجل بله معارضته ، كأن اقامتها في بيته شهرا اعدت شخصيتهـا بعدوى الخضوع لارادته التي يفرق حيالها كل حي في البيت ، احتج باطنها بأن اباها نفسه استساغ اكثر من مرة ان يصطحبها الى السينما ، وأنه لا يحق له منعها من شيء سمح به زوجها ، الى اقتناعها بأنها لم تخرق ادبا أو تهتك حرمة ، قال باطنها هذا واكثر بيد انها لم تستطع ان تنطق بكلمـة واحدة حيال عينيه الملزمتين بالطاعة والاحترام وانفه الكبير الذي بدا ـ وهو يرفع رأسه ـ كأنه مسدس نحوها ،فانكتم حديثها الباطني تحت مظهر من الرضى والادب كما تنكتم الامواج الصوتية في جهاز الاستقبال بالمذياع باغلاق مفتاحه ، ثم ما تدري الا وهو يسألها وكأنه يتمادى في تحديه لها :

ـ الك اعتراض على قولي ؟

فهزت رأسها بالنفي ورسمت شفتاها حرف « لا » دون ان تنطق به فقـال لها :

ـ اتفقنا ، تفضلي الى حجرتك بسلام ...

غادرت الحجرة شاحبة الوجه فالتفت السيد صوب ياسين الـذي اخفى عينيه في الارض ، ثم قال وهو يهز رأسه في أسف شديد :

ـ الامر جد خطير ولكن ما حيلتي ؟ ! .. لم تعد طفلا والا لكسرت رأسك ، ولكنك وا أسفاه رجل وموظف وزوج ايضا وان كنت لا تتورع

عن العبث برباط الزوجية ، فما عسى ان اصنع بك ؟ اهذه نهاية تربيتي لك ؟ .. ثم بصوت اذهب في التأسف .. ماذا دهاك ؟ ... اين الرجولة؟. أين الكرامة ؟ ... يعز علي والله ان اصدق ما وقع .

لم يرفع ياسين رأسه ولم يتكلم فظن صمته خوفا وشعورا بالخطأ ـ اذ لم يتصور ان يكون ما به سكر ـ ولكنه لم يجد في ذاك عزاء ، بدأ الخطأ افظع من انيترك بلا علاج حاسم ، فاذا لم يكن من سبيل الى العلاج القديم ـ العصا ـ فلا اقل من الحزم والا انتثر سلك الاسرة جميعا ،قال:

ـ الم تعلم بأني أحرم على زوجي الخروج ولو لزيارة الحسين ؟كيف اذن سولت لك نفسك ان تأخذ زوجك الى ملهى داعر لتسهر فيه الى ما بعد منتصف الليل ؟ ... يا أحمق أنت تدفع بنفسك وبزوجك الى الهاوية فأي شيطان ركبك ؟

وجد ياسين في الصمت آمن ملاذ أن تفضحه نبراته أو ان يسترسل في الحديث بطلاقة مريبة تنم في النهاية على سكرة ، لا سيما وان خياله أصر على التسلل ـ هازئا بالموقف الخطير ـ من الحجرة فانطلق الى آفاق بعيدة بدت لرأسه الثمل راقصة تارة ومترنحة اخرى ، ولم يستطع صوت أبيه على ما ابتعث في نفسه من الرهبة ان يسكت الانغام التي غناها المهرجون في المسرح فكانت تثب الى ذهنه ـ على رغمه .. بين لحظة واخرى كالاشباح في ليل المرعوب هامسة :

ابيع هدومي عشان بوسة   من خدك القشدة يا ملبن
يا حلوة زي البسبوسة   يا مهلبية كمان واحسن

تغيب تحت تأثير الخوف ثم تطفر راجعة ، ولكن أباه ضاق بالصمت فصاح به غاضبا :

ـ انطق حدثني عن رأيك فاني مصمم على الا يمر الحادث بسلام !.

خاف عاقبة الصمت فخرج عنه متهيبا مضطربا ثم قال وهو يبذل قصارى جهده ليتمالك نفسه :

ـ كان والدها يعاملها بشيء من التسامح .. (ثم متعجلا) ولكني اقر باني اخطأت ..

فصاح السيد مغضبا ومتجاهلا الجملة الاخيرة :

ـــ لم تعد في بيت ابيها ، عليها ان تحترم آداب الاسرة التي صارت عضوا فيها ، أنت زوجها وسيدها وبيدك وحدك ان تصورها في أي صورة تشاء ، خبرني عن المسؤول عن ذهابها معك انت أم هي ؟ ..

شعر على سكره بالفخ المنصوب له ولكن الخوف دفعه الى التـــواري فضمغم :

ــ لما علمت بنيتي في الخروج توسلت الى ان اصطحبها ...

فضرب السيد كفا بكف وهو يقول :

ــ أي رجل في الرجال أنت ؟ .. كان الجواب الخليق بها لطمة !.. انه لا يفسد النساء الا الرجال وليس كل الرجال جديرا بالقيام على النساء

ثم محتـــدا :

ــ وتذهب بها الى مكان ترقص فيه النساء نصف عرايا .. ؟

تخايلت لعينيه الصور التي افسدها تعرض ابيه له على رأس السلم وعادت الانغام تتجاوب في رأسه « أبيع هدومي ... » ولكن ما يدري الا والرجل يقول متوعدا :

ــ لهذا البيت قانون انت تعرفه فوطن نفسك على احترامه ما رغبت في البقاء فيه ...

★ ★

قامت عائشة بتزيين خديجة خير قيام بهمة لا تجارى ومهارة فائقـــة كان التزيين خير مهمة تؤديها في الحياة على اكمل الوجوه ، فبدت خديجة عروسا حقا تأخذ أهبتها للانتقال الى بيت العريس وان ادعت ــ جريا على عادتها في التقليل من شأن الخدمات التي يؤديها لها الغير ــ ان اكبر الفضل في اظهارها بالمظهر اللائق انما يعود الى سماتتها هي قبل كل شيء ! على ان « جمالها » لم يعد مثار وساوسها مذ طلب يدها رجل اتفق له ان رآها بعينيه ، بيد ان جميع مظاهر السعادة التي احاطت بها لم تستطع ان تمحو من نفسها خفقات الحنين الذي دب في أعماقها لوشك البين ، حنين خليق بفتاة مثلها لم يخفق قلبها بحب شيء في الوجود كحبها لآلها وبيتها جميعـــا من الوالدين المعبودين الى الدجاج واللبلاب والياسمين، حتى الزواج نفسه طالما تحرقت في انتظاره بجزع الملهوف لم يكن ليهون عليها مرارة الفراق،

من قبل ان تطلب يدها بدت كاللاهية عن حب البيت واعزازه ، وربما غلب عليها الضجر في مضطرب الحياة فوارى عواطفها العميقة الصادقة لان الحب كالصحة : يهون في الوصال ويعز عند الفراق ،فلما ان اطمأنت على مستقبلها ابى قلبها ان ينتقل من حياة الى حياة دون جزع شديد كأنما يكفر عن اثم أو يضن بغال ، تطلع كمال اليها صامتا ، لم يعد يتساءل هل تعودين ، بعد ان عرف ان التي تتزوج لا تعود الا انه خاطب شقيقتيه مغمغما (سوف ازوركما كثيرا عقب الخروج من المدرسة) فرحبتا به معا بيد انه لم تعد تغرر به الآمال الكاذبة ، كثيرا ما زار عائشة فلم يظفر بعائشته القديمة • يجد مكانها اخرى متبرجة تلقاه بتودد بالغ يشعره بالغربة ثم لا يكاد يخلو اليها حتى يدركهما زوجها الذي لا يغادر البيت قانعا من الوان التسلية بسجائره وغليونه وعود يعبث بأوتاره بين حين وآخر ، لن تكون خديجة خيرا من عائشة ، فليس من رفيق في البيت الا زينب ، وهي لا تتودد اليه كما يجب الا بمشهد من أمه كأنما تتودد اليها هي فاذا غابت الام تجاهلته كانه لا يكون ! ومع ان زينب لم تشعر بأنها ستفقد عزيزا بذهاب خديجة الا انها استنكرت الجو الرزين الصامت الذي يغشى يوم الزفاف ، فتعللت بذلك لتفصح عما تكنه لروح السيد المسيطرة من حنق وغيظ فراحت تقول متهكمة « ما رأيت بيتا يحرم فيه الحلال كبيتكم هذا •• حكم ! » غير انها لم تشأ ان تودع خديجة من غير كلمة مجاملة فنوهت كثيرا بمقدرتها وانها « ست بيت » خليقة بان يهنأ عليها بعلها ، فأمنت عائشة على قولها واردفت قائلة :

ــ لا عيب فيها الا لسانها ! ••• ألم تجربيه يا زينب ؟

فما تمالكت ان ضحكت قائلة :

ــ لم اجربه والحمد لله ولكني سمعته وغيري يجربه •

وتعالى الضحك ، وخديجة اولى الضاحكات ، حتى رأين الام ترهف السمع بغتة هاتفة « هس » فامسكن مرة واحدة ، فترامى اليهن اصوات من الخارج فصاحت خديجة من فورها منزعجة :

ــ مات السيد رضوان !

كانت مريم وامها قد اعتذرتا من عدم شهود الزفاف لاشتداد المرض

على السيد محمد رضوان فلم يكن غريبا ان تستدل خديجة بالصوات على موت الرجل . وغادرت الام الحجرة مهرولة فغابت دقائق ثم عادت وهي تقول بأسف شديد :

ــ مات الشيخ محمد رضوان حقا ••• يا له من موقف حرج !

فقالت زينب :

ــ عذرنا واضح كالشمس . لم يعد في وسعنا تأجيل الزفاف او منع العريس من الاحتفال بليلته في بيته وهو بحمد الله بعيد ، أما انتم فهل تطالبون بأعمق من هذا الصمت البليغ ؟!

لكن خديجة شردت في خواطر اخرى انقبض لها قلبها خوفا فتطيرت من النبأ المحزن وغمغمت وكأنها تخاطب نفسها :

ــ يا لطيف يا رب •••

فقرأت الام افكارها فانقبض صدرها بدورها ولكنها أبت ان تستكين لهذا الشعور الطارىء أو أن تترك ابنتها تستكين له فقالت باستهانة متصنعة :

ــ لا شأن لنا بقضاء الله فالحياة والموت بيده ، والتشاؤم من عند الشيطان ••

انضم ياسين وفهمي الى المجتمعات بحجرة العروس بعد ان فرغا من ارتداء ملابسهما فأخبر الام بأن السيد ناب عن الاسرة ــ بالنظر الى ضيق الوقت ــ في تقديم واجب العزاء الى آل السيد رضوان ، ثم حدج ياسين الى خديجة وقال ضاحكا :

ــ أبى السيد رضوان ان يبقى في الدنيا بعد رحيلك عن جواره ••

فردت عليه بابتسامة شاحبة غاب عنه ما وراءها فمضى يتفحصها بعناية وهو يهز رأسه متظاهرا بالرضى ثم قال متنهدا :

ــ صدق من قال « لبس البوصة تبقى عروسة » •••

فقطبت معلنة عدم استعدادها لمجاراته ثم نهرته قائلة :

ــ اسكت ، اني متطيرة من موت السيد رضوان في يوم زفافي •

فقال ضاحكا :

ــ لا أدري أيكما جنى على صاحبه ؟

ثم وهو يواصل الضحك :

ــ لا خوف عليك من موت الرجل • لا تشغلي فكرك به ، ولكني اخاف عليك من لسانك فهو الاحق بان تتطيري منه ، ونصيحتي التي لا أمل ترديدها ان تنقعيه في شراب مشبع بالسكر حتى يحلو ويصلح لمخاطبة العريس •••

عند ذلك قال فهمي متلطفا :

ــ مهما يكن من امر السيد رضوان فيوم زفافك لم يخل من بركة طال انتظار الارض لها ، ألم تعلمي بأن الهدنة قد أعلنت ؟•

فهتف ياسين :

ــ كدت انسى هذا ! ••• ليس زفافك المعجزة الوحيدة في يومنا هذا ، حصل ما لم يحصل منذ أعوام فانتهت الحرب وسلم غليوم •

فتساءلت الام :

ــ هل يذهب الغلاء والاستراليون ؟

فقال ياسين ضاحكا :

ــ طبعا ••• طبعا ••• الغلاء والاستراليون ولسان خديجة هانم •

لاح التفكير في عيني فهمي ، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :

ــ غلب الالمان ! ••• من كان يتصور هذا ؟! •• لا أمل بعد اليوم في ان يعود عباس او محمد فريد، كذلك آمال الخلافة قد ضاعت ، لا يزال نجم الانجليز في صعود ونجمنا في أفول فله الامر •

فقال ياسين :

ــ اثنان كسبا الحرب هما الانجليز والسلطان فؤاد ، فلا أولئك كانوا يحلمون بالقضاء على الالمان ولا هذا كان يحلم بالعرش ••

وسكت لحظة ثم استطرد ضاحكا :

ــ وثالث لا يقل حظه عن السابقتين هو عروستنا التي ما كانت تحلم بالعريس •••

فرمته خديجة بنظرة وعيد وقالت :

ــ تأبى ان أغادر البيت من غير ان الدغك ••

فتراجع وهو يقول :

ـ من الخير ان اطلب الهدنة فلست اعظم شأنا من غليوم أو هندنبرج ..

ثم نظر الى فهمي الذي لاح في وجهه التفكير بحال لا يتفق مع المناسبة السعيدة فقال له :

ـ أطرح السياسة وراء ظهرك وتهيأ للطرب ولذيذ المآكل والمشارب.

ومع ان خديجة تناوبتها افكار كثيرة وخطرت على قلبها احلام واحلام الا ان ذكرى قريبة ـ من ذكريات الصباح فحسب ـ ألحت عليها من شدة تأثيرها بها حتى كادت تحجب غيرها من الشجون ، تلك دعوة ابيها لها على انفراد لمناسبة اليوم الذي يعد مبدأ حياة جديدة في حياتها ، قابلها بلطف ورحمة كانا بلسما شافيا من وعكة الحياء والرهبة التي اعترتها حتى تعثرت في مشيتها ، ثم قال لها برقة وقعت من نفسها موقعا غريبا لا عهد لها به ـ ربنا يسدد خطاك ويهيىء لك التوفيق وراحة البال ، وما من نصيحة تسدى اليك خير من ان أقول :

ـ أقتدي بأمك في كل كبيرة وصغيرة ..

وأعطاها يده فقبلتها ثم غادرت الحجرة لا تكاد ترى ما بين يديها من الانفعال والتأثر ، وجعلت تردد طول الوقت « كم انه لطيف رقيق رحيم ! » ثم تذكر بقلب ملؤه السعادة قوله « اقتدي بأمك في كل كبيرة وصغيرة » وتقول لامها التي اصغت اليها بوجه متورد وعينين مرتعشتين « الا يعني هذا انه يراك القدوة الصالحة للزوجة الصالحة ؟ . (ثم ضاحكة) يا لك من امرأة سعيدة الحظ ؟ ولكن من عسى ان يصدق هذا كله ؟ كأني كنت في حلم سعيد! اين كان يدخر هذا العطف الجميل ؟! » ثم دعت له طويلا حتى اغرورقت عيناها بالدموع ...

وجاءت ام حنفي تعلنهم بوصول السيارات ..

★ ★

خلا مجلس القهوة من وجه خديجة كما خلا من وجه عائشة من قبل، على ان خديجة تركت فراغا لم يسد فكأنها استلت روحه وسلبته حيويته وحرمته مزايا لا يستهان بها من الفكاهة والمرح والنقار ، او كما قال ياسين لنفسه « كانت في مجلسنا كالملح في الطعام ، ليس الملح في ذاته لذيذا ولكن

ما لذة الطعام من دونه ؟ »• بيد أنه لم يجهر برأيه مجاملة لزوجه اذ انه لم يزل ــ على خيبة امله في الزواج التي لم يعد لها من دواء في البيت ــ يشفق من جرح مشاعرها على الاقل كيلا تسيء الظن بسهره المتواصل ليلة بعد اخرى في « القهوة » كما يزعم لها • ولئن كان مزاحه يفوق جده • ان كان ثمة جد ، الا أنه فقد النديم الذي طالما طارحه الدعابة وهيأ له دواعيها فلم يبق له الا ان يقنع بالقليل في هذه الجلسة التقليدية . ها هو يتربع على الكنبة ، يحسو القهوة ،ويمد بصره الى الكنبة المقابلة له فيرى الام وزوجه وكمال مستغرقين في احاديث لا طائل تحتها . ولعله يتعجب للمرة المائة من رزانة زينب المعتمة فيذكر ما رمتها به خديجة من « ثقل الدم » ويسلم بوجهة نظرها ! ••• ثم يفتح ديوان الحماسة او غادة كربلاء ويقرأ ، او يقص على كمال شيئا مما قرأ ، ويلتفت الى يمينه فيرى فهمي متوثبا للحديث ، عن أي شيء يا ترى ، محمد فريد ، مصطفى كامل ؟ •• لا يدري ولكنه سيتكلم بلا ريب ، بل يبدو اليوم منذ عودته من المدرسة كالسماء المنذرة بالمطر • هل ينكشه •• ؟ كلا ، لا حاجة به الى ذلك ، ها هو يستقبله باهتمام شديد ، ويحدجه بنظرة موحية ناطقة ثم يسأله :

ــ ألم تبلغك انباء جديدة •• ؟

يسأله هو عن انباء جديدة ! عندي انباء لا عد لها •• الزواج اكبر خدعة ، الزوجة تنقلب بعد اشهر شربة زيت خروع • لا تحزن على ما فاتك من مريم ايها السياسي الغر ، اتريد انباء اخرى ؟! •• لدي منها الكثير لكنها على وجه اليقين لا تهمك البتة ، ثم ان الشجاعة تخونني اذا سولت لي نفسي اذاعتها على مسمع من زوجي ، وما يدري الا وهو يستشهد ــ في سره طبعا ــ بقول الشريف :

عندي وسائل شوق لست اذكرها لولا « الرقيب » لقد بلغتها فاك

ثم تساءل بدوره :

ــ أي انباء جديدة تعني ؟ •••

فقال فهمي باهتمام شديد :

ــ ذاع بين الطلبة نبأ عجيب كان حديثنا اليوم كله وهو ان وفدا مصريا مكونا من سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمي بك وعلي شعراوي

واعلان الاستقلال ..

رفع ياسين حاجبيه في اهتمام ولاحت في عينيه نظرة شك مقرونـة بالدهشة . لم يكن اسم سعد زغلول بالجديد عليه وان لـم يجـد وراء الاسم في نفسه شيئا ذا بال اللهم الا ذكريات غامضة اقترنت بحـوادث اتى عليها النسيان من زمن دون ان تترك في قلبه ــ الذي لا يكاد يعبـأ بالامور العامة ــ اثرا عاطفيا يدل عليها ولو من بعيد ، الا ان الاسمين الاخرين كانا يقعان في اذنه لاول مرة ، بيد ان غرابة الاسماء ليست شيئـا يذكر الى جانب الحركة التي قام بها اصحابها ان صح ما يقول فهمي ، اذ كيف يتصور ان يطالب الانجليز غداة انتصارهم على الالمان والخلافـة باستقلال مصر ؟! .. وسأله :

ــ ماذا تعرف عن هؤلاء السادة ؟

فقال فهمي بلهجة لا تخلو من امتعاض خليق بمن يود لو كان هؤلاء السادة من اعضاء الحزب الوطني :

ــ سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية ، وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي عضوان بها ، الحق اني لا اعرف شيئا عن الاخرين ، أما سعـد فأكاد اكون عنه فكرة لا بأس بها مما ترامى الي عن كثيرين من زملائـي الطلبة الوطنيين الذين يختلفون فيه كثيرا ، منهم من يعده ذنبا من اذنـاب الانجليز ولا شيء اكثر من هذا ، ومنهم من يقر له بمزايا عظيمة جديـرة بان ترفعه الى مصاف رجال الحزب الوطني انفسهم ، ومهما يكن من شأن فالخطوة التي اقدم عليها مع زميليه ــ ويقال انه كان الداعي اليها كذلك ــ عمل مجيد لعله لا يوجد الان من ينهض به مثله بعد نفي المبرزين مـن الوطنيين وعلى رأسهم زعيمهم محمد فريد ..

بدا ياسين جادا ان يظن به الاخر استهانة بحماسه وردد قائلا وكأنه يسائل نفسه .

ــ المطالبة برفع الحماية وأعلان الاستقلال ! ..

ــ وسمعنا ايضا انهم طالبوا بالسفر الى لندن للسعي الى الاستقلال، وانهم لهذا القصد قابلوا السير ريجينالد ونجت نائب الملك ! ..

باشا توجه امس الى دار الحماية وقابل نائب الملك للمطالبة برفع الحمايـة

يسأله بصوت مرتفع بعض الشيء :

ــ الاستقلال ! •• أتعني هذا حقا ؟ •• ماذا تعني ؟

فقال فهمي بلهجة عصبية :

ــ اعني اخراج الانجليز من مصر ، أو الجلاء كما عبر عنه مصطفى كامل ودعا اليه ••

يا له من أمل ! ••لم يكن السعي الى حديث السياسة من طبعه ولكنه يقبل دعوة فهمي كلما دعاه اليه ، اتقاء لتكديره ، وطلبا لنوع طريف من التسلية ، وربما ثار اهتمامه بين الحين والحين وان لم يبلغ درجةالحماس، بل ربما شاركه امانيه بطريقة سلبية هادئة ، ولكنه اثبت طوال حياته انه قليل الاكتراث بهذا الجانب من الحياة العامة ، كأنه لا غاية له وراء التنعم بطيبات الحياة ولذاتها ، لذلك لم يجد في نفسه استعدادا للاخذ بهذه الاقوال مأخذ الجد وتساءل مرة اخرى :

ــ هل يقع هذا في حدود الامكان حقا ؟

فقال فهمي بحماس لا يخلو من لوم :

ــ لا يأس مع الحياة يا أخي !••

فأثارت هذه الجملة ، في نفسه ما تثيره امثالها من ميل الى السخرية بيد أنه تساءل متظاهرا بالجد :

ــ وكيف لنا بان نخرجهم ؟

ففكر فهمي قليلا ثم قال عابسا :

ــ لهذا طلب سعد وزميلاه السفر الى لندن !

تابعت الام الحديث باهتمام مركزة فيه وعيها كله كي تفهم اقصى ما يسعها فهمه منه كدأبها كلما ثار حديث في الشؤون العامة البعيدة كل البعد عن اللغو المنزلي ، تلك الامور تشوقها ، وتدعي القدرة على فهمها ، ولا تتردد اذا سنحت فرصة عن المشاركة فيها غير مبالية بما تحدثه آراؤها في أحايين كثيرة من الاستهانة المشربة والعطف ، ولكن لم يكن شيء ليحطم مجاديفها او يصدها عن الاهتمام بهذه الشؤون « الكبيرة » التي يبدو انها تتبعها مدفوعة بنفس البواعث التي تدفعها الى التعلق بدروس

لم يستطع ياسين ان يواصل مداراة حيرته فأعلنها بأساريره وهو

على ضوء معارفها الدينية او الاسطورية ، وقد اكسبها هذا الجد شيئا من الالمام بما يقال عن مصطفى كامل ومحمد فريد وافندينا المبعد ، اولئك الرجال الذين ضاعف من حبها لهم آخلاصهم للخلافة الامر الذي قربهم في نظرها ــ كشخص يقدر الرجال بحسب منازلهم الدينية ــ من مراتب الاولياء الذين تهيم بهم ، ولما ان ذكر فهمي ان سعدا وزميليه يطلبان السفر الى «لندن» خرجت عن صمتها فجأة متسائلة :

ــ أي بلاد الله لندن هذه ؟

فبادرها كمال قائلا باللهجة آلمنغومة التي يسمع بها التلاميذ دروسهم

ــ لندن عاصمة بريطانيا العظمى وباريس عاصمة فرنسا والكاب وعاصمتها الكاب ...

ثم مال على أذنها هامسا « لندن بلاد الانجليز » فتولت الام الدهشة وقالت مخاطبة فهمي :

ــ يذهبون الى بلاد الانجليز ليطالبوهم بأن يخرجوا من مصر ؟! .. ليس هذا من الذوق في شيء ... كيف تزورني في بيتي وانت تضمر طردي من بيتك !؟

اضجرت مقاطعتها آلشاب فنظر اليها باسما معاتبا في آن ولكنها ظنت انها بسبيل اقناعه فأردفت قائلة :

ــ وكيف يطلبون اخراجهم من ديارنا بعد اقامة طالت هذا الدهر كله ؟! لقد ولدنا وولدتم وهم في بلادنا فهل من « الانسانية » ان تتصدى لهم بعد ذاك العمر الطويل من آلعشرة والجيرة لنقول لهم بصريح العبارة ــ وفي بلادهم ايضا ــ اخرجوا ؟!

ابتسم فهمي كاليائس على حين قهقه ياسين اما زينب فقالت جادة :

ــ كيف تواتيهم الجرأة على ان يقولوا لهم هذا في بلادهم ! ... هب آلانجليز قتلوهم هناك فمن ذا يدري بهم ؟ ... الم يجعل جنودهم المشي في الشوارع البعيدة من المخاطرات غير المأمونة ؟ فكيف بمن تحدثه نفسه باقتحام ديارهم !؟

ود ياسين لو يسترسل مع المرأتين في حديثهما الساذج ارواء لعواطفه كمال الدينية آو مناقشة ما يلقى عليها من معلوماته الجغرافية والتاريخية

اليه مواصلا ما انقطع من الحديث وهو يقول :
ـ في كلامهما حق لم يحسنا التعبير عنه ، خبرني يا اخي ما عسى ان يصنع سعد حيال دولة تعد الان سيدة العالم بلا منازع ؟
فوافقت الام على قوله بايماءة من رأسها كأن الحديث كان موجهـا اليها وراحت تقـول :
ـ كان عرابي باشا اعظم الرجال واشجعهم ، لا يقاس به سعد ولا غيره ، وكان فارسا وكان مقاتلا ، فماذا لقي من الانجليز يا ولداه ؟ ••• أسروه ثم نفوه الى بلاد وراء الشمس •••
فلم يتمالك فهمي من ان يقول لها بلهجة جمعت بين الرجاء والضيق :
ـ نينة ! ••• هل تركتنا نتحدث ؟!
فابتسمت فيما يشبه الحياء مشفقة كل الاشفاق من اغضابه فغيـرت لهجتها الحماسية كأنما هي بتغيير لهجتها تعلن تغير رأيها كله ثم قـالت برقة واعتذار :
ـ يا سيدي ، لكل مجتهد نصيب ، فليذهبوا في رعاية الله ، وعسى ان يحظوا بعطف الملكة الكبيرة ••
فما يدري الشاب الا وهو يسألها في غرابة :
ـ أي ملكة تقصدين ؟
ـ الملكة فكتوريا يا بني ، أليس هذا اسمها ؟ •• طالما سمعت ابي وهو يتحدث عنها ، هي التي أمرت بنفي عرابي ولكنها اعجبت بشجاعته كثيرا فيما قيـل ••
فقال ياسين ساخرا :
ـ اذا كانت قد نفت عرابي الفارس فهي اجدر ان تنفي سعدا العجوز!
فقالت الام :
ـ مهما يكن من امرها فهي لم تزل امرأة يحمل صدرها ولا شـك قلبا رقيقا فاذا أحسنوا مخاطبتها وعرفوا كيف يتوددون اليهـا جبـرت بخاطرهم •••
وجد ياسين سرورا كبيرا في منطق الام التي جعلت تتحدث عن الملكة الظامئة الى المزاح ولكنه لمس ضجر فهمي فأشفق من اغضابه ، فتحـول

يعد يرغب في مجاراة فهمي ، فسألها باغراء :
ـ خبرينا عما يحسن ان يقولوه لها ؟
فاعتدلت المرأة في جلستها مسرورة بهذا السؤال الذي اقر لها بالجدارة « السياسية » ومضت تفكر باهتمام لاح في تقارب حاجبيها في صيغة مناسبة لاول « مفاوضة » بيد ان فهمي لم يمهلها حتى تتم تفكيرها فقال لها باقتضاب واستياء :
ـ الملكة فيكتوريا ماتت من زمن بعيد . لا تتعبي نفسك بلا طائل !
انتبه ياسين عند ذاك الى غاشية المساء الزاحفة من خلال خصاص النوافذ فأدرك انه آن له ان يودع المجلس ليمضي الى سهرته . ولما كان يعلم بأن ظمأ فهمي الى الحديث لم يرو بعد فقد رغب في ان يقدم لها اعتذاره عن ذهابه في صورة تأييد من نوع ما للنبأ الذي أخذ بلبه فقال له وهو ينهض :
ـ انهم رجال يدركون بلا شك خطورة ما آقدموا عليه فلعلهم اعدوا له الوسيلة الناجحة ، فلندع لهم بالتوفيق .
وغادر المجلس وهو يشير الى زينب لتلحق به فتجهز له ملابسه ، فشيعه فهمي بنظرة لا تخلو من غضب ، غضب من لم يظفر بمشاركة وجدانية تتجاوب مع نفسه المتأججة ، لشد ما تثير احاديث الوطنية اكبر الاحلام في نفسه ، في دنياها الساحرة تتراءى لعينيه دنيا جديدة ، ووطن جديد ، وبيت جديد ، وأهل جدد ، ينتفضون جميعا حيوية وحماسا ولكن ما ان يفيق على هذا الجو الخانق من الفتور والسذاجة وعدم المبالاة حتى تشب بين اضلعه نار الحسرة والالم فتروم في قهرها متنفسا ـ ايا ما كان ـ تنطلق منه الى السماء ، ود في تلك اللحظة بكل قوته لو ينطوي الليل في غمضة عين ليجد نفسه مرة اخرى في مجمع الطلاب من اخوانه فيروي ظمأه الى الحماس والحرية ويسمو في وقدة حماسهم الى ذلك العالم الكبير من الاحلام والمجد ، لقد تساءل ياسين عن ماذا يصنع سعد حيال بلد تعد اليوم بحق سيدة العالم ، وهو نفسه لا يدري على وجه التحقيق ماذا سيصنع سعد ، ولا يدري ماذا يمكن ان يصنع ، ولكنه التاريخية كما لو كانت تتحدث عن أم مريم او غيرها من الجارات ، ولم

ضوء الحياة والواقع او فلتمض الحياة عبثا من العبث وباطلا من الاباطيل.

★ ★

بدأ الطريق امام دكان السيد احمد ــ كعادته ــ مكتظا بالسابلة والمركبات ورواد الدكاكين المتراصة على الجانبين آلا ان هامته ازدانت بشفافية مقطرة من جو نوفمبر اللطيف الذي حجبت شمسه وراء سحائب رقاق لاحت رقاعها ناصعة البياض فوق مآذن قلاوون وبرقوق كأنها بحيرات من نور ، لم يكن شيء في السماء ولا في الارض قد خرق المألوف مما اعتاد السيد ان يراه كل يوم، ولكن نفس الرجل، والانفس الموصونة بنفسه وربما أنفس الناس جميعا تعرضت لموجة عاتية من الانفعال والشعور خرجت بها عن طورها او كادت حتى قال السيد انه لم تمر به ايام كهذه الايام اجتمع الناس فيها حول نبأ واحد وخفقت قلوبهم باحساس واحد . فهمي الذي يلوذ بالصمت بين يديه ما لم يبدأه هو بالحديث نقل اليه في اسهاب ما اتصل بعلمه عن مقابلة سعد لنائب الملك ، وفي مساء اليوم نفسه ، وفي مجلس الطرب ، اكد نفر من الصحاب ان الخبر حقيقة لا يرتقى اليها الشك، وفي دكانه حدث اكثر من مرة ان خاض زبائن لا تربط بينهم صلة تعارف سابق في حديث المقابلة ، بل ما يدري هذا الصباح الا والشيخ متولي عبد الصمد يقتحم عليه الدكان بعد غيبة طويلة فلم يقنع بتلاوة الآيات واخذ نصيبه من السكر والصابون وأبى الا ان يعلن نبأ الزيارة بلهجة من يزف البشرى لاول مرة ولما سأله السيد ــ مداعبا ــ عما يظن ان تكون نتيجة الزيارة اجاب الشيخ « محال ! .. محال ان يخرج الانجليز من مصر ، أتحسبهم مجانين كي يجلوا عن البلد بلا قتال ! ... لا بد من قتال ، ولا قتال لنا ، فلا سبيل الى اخراجهم ، فلعل رجالنا يوفقون ولو الى ابعاد الامتراليين حتى يعود الامن الى سابق عهده ، والسلام ! » ايام انباء ومشاعر فياضة صادفت في السيد رجلا ذا قابلية شديدة لعدوى الاشواق الوطنية والسياسية فبات على حل من الانتظار والتوقع جعلته يقبل بانفعال على قراءة الجرائد التي بدت في الاغلب وكأنها تصدر في بلد غريب لا يشعر بكل ما في قلبه من قوة بأن ثمة ما يجب عمله ، ربما لم يجده ماثلا في عالم الواقع ، ولكنه يشعر به كامنا في قلبه ودمه ، فما أجدره ان يبرز الى

دخل الدكان مهرولا ، لم تكن نظرة القادم الحادة ولا حركته النشيطة مما يوحي بانه مجرد زائر قد عرج الى الدكان لاحتساء قهوة او رواية ملحة ، فوجد السيد في مظهره ما تجاوب مع نفسه القلقة المشوقة فبادره قائلا والاخر يشق طريقه بين الزبائن الذين قام جميل الحمزاوي على قضاء حوائجهم :

ـ صباحنا ناد ، ماذا وراءك يا مبع ؟

اتخذ السيد محمد عفت مجلسه لصق المكتب وهو يبتسم ابتسامة وشت بالعجب كأن قول السيد « ماذا وراءك » وهو نفس السؤال الذي يتكرر كلما لاقى احداً من صحبه ـ اقرار بأهميته في هذه الايام البالغة في اهميتها بالنظر لما يربطه ببعض الشخصيات المصرية الهامة من صلات القربى ، كان السيد عفت دائما همزة الوصل بين جماعته الاصلية المكونة من تجار وبين من انضم اليها بمضي الزمن من موظفين ممتازين ومحامين وان تفرد السيد احمد بمنزلة الاعزاز الاولى بفضل شخصيته وسجاياه ، غير ان صلة القربى هذه التي لم تفقد شيئا من خطورتها قط لدى اصدقائه التجار الذين يتطلعون الى الموظفين وذوي الالقاب بنظرة ملؤها الاكبار ، صلة القربى هذه قد زادت خطورة في هذه الايام التي بات فيها « الخبر الجديد » أهم من الماء والغذاء ! ... بسط السيد عفت صحيفة كانت مطوية بيمينه ثم قال ـ خطوة جديدة ـ لم اعد ناقل انباء فحسب ولكني بت رسولا احمل اليك والى غيرك من الاكرمين هذا التوكيل السعيد ..

وأعطاه الصحيفة وهو يغمغم مبتسما « اقرأ » فتناولها السيد وقرأ:

« نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات سعد زغلول باشا وعلي شعراوي باشا وعبد العزيز فهمي بك ومحمد علي علوية بك وعبد اللطيف المكباتي ومحمد محمود باشا واحمد لطفي السيد بك . ولهم ان يضموا اليهم من يختارون ، في ان يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعي سبيلا في استقلال مصر استقلالا تاما » .

انفعال فيه ولا توثب ، واستقبال الاصدقاء بنظرة استطلاع تتلهف عما وراءهم من جديد ، وعلى تلك الحال استقبل السيد محمد عفت حين

ــ ماذا تعني هذه الورقة ؟

فقال الرجل بحماس :

ــ الا ترى هذه الامضاءات ؟ •• وقع تحتها بامضائك وادع جميل الحمزاوي ليوقع بامضائه أيضا ، هذا توكيل من التوكيلات التي طبعها الوفد ليوقعها الشعب فيتخذ بها صفة الوكالة عن الامة المصرية •• أمسك السيد بالقلم ووقع بامضائه في سرور تجلى في تألق عينيه الزرقاوين وهو يبتسم ابتسامة رقيقة نمت عن شعوره بالسعادة والخيلاء اذ يوكل عن نفسه سعد وزملاءه ، اولئك الرجال الذين ملكوا النفوس على حداثة شهرتهم حيث حركوا منها أهواء عميقة مكبوتة كالدواء الجديد يستأثر بأفكار المرضى بداء قديم استعصى علاجه بالرغم من استعماله لاول مرة ، ودعا الحمزاوي فوقع بامضائه كذلك ، ثم التفت الى صاحبه وهو يقول باهتمام شديد :

ــ المسألة جد فيما يبدو•• !

فضرب الرجل حافة المكتب بقبضة يده ثم قال :

ــ غاية الجد ، كل شيء يسير بقوة وتصميم ، أما علمت بما دعا الى طبع هذه التوكيلات ؟ •• قيل ان « الرجل » الانجليزي تساءل عن الصفة التي كلمه بها سعد وزميلاه في صباح ١٣ نوفمبر الماضي فما كان من الوفد الا ان عمد الى هذه التوكيلات ليثبت انه يتكلم باسم الامة ••

فقال السيد بتأثر :

ــ لو كان محمد فريد بيننا ماعدا هذا •

ــ لقد انضم الى الوفد من رجال الحزب الوطني محمد علي علوبة بك وعبد اللطيف المكباتي ••

ثم هز منكبيه لينفض عنهما الماضي كله ثم قال :

ــ كلنا نذكر سعدا بما كان يثير من ضجة عظيمة على عهد توليه لنظارة المعارف ثم الحقانية ، ما زلت اذكر ترحيب اللواء به منذ ترشيحه للوزارة وان لم انس حملاته عليه بعد ذلك ،بل لا أنكر انني ملت مع انتقاد

فتهلل وجه السيد وهو يتلو اسماء اعضاء الوفد المصري الذي سمع بهم فيما سمع من أنباء الحياة الوطنية التي ترددها الالسن ، وتساءل :

تحله من القلوب في اعز مكان ..
ـ صدقت ، حركة مباركة ،لندع الله ان يتولاها بتوفيقه .
ثم باهتمـام :
ـ ترى أيؤذن لهم في السفر ؟ .. وماذا تراهم فاعلين اذا سافروا ..؟
طوى السيد محمد عفت التوكيل ثم نهض وهو يقول :
ـ ما الغد ببعيد ...
في طريقهما الى باب الدكان غلبت روح الدعابة السيد فهمس في اذن صاحبه :
ـ كأني لشدة سروري بهذا التوكيل الوطني ثمل يعكس الكأس الثامنة بين فخذي زبيدة .. !
فحرك محمد عفت رأسه في تأثر كأن الصورة التي جسمها خياله عند ذكر الكأس وزبيدة قد اسكرته ، وغمغم :
ـ ياما بكره نسمع ...
ثم غادر الدكان والسيد في اعقابه مبتسما :
ـ وبعده نشوف .. !
ثم عاد الى مكتبه واثر المزاح منبسط في اساريره وانفعال الحماس في قلبه لا يخمد ، شأنه في كل ما يعرض له من مهام الحياة بعيدا عن داره ، فهو يجد الجد كله كلما دعا الداعي الى الجد ولكنه لا يتردد عن تلطيف جوه بالمزاح والدعابة كلما لاحت له صادرا في ذاك عن طبع لا يملك معه حيلة وان بدا ذا قدرة عجيبة على التوفيق بينهما ، فلا جدة بقاهر مزاحه ولا مزاحه بمفسد جده ، ولما كانت دعابته ليست ترفا مما يدور على هامش الحياة ، ولكن ضرورة تتوزعها كالجد سواء بسواء ، فلم يسعه يوما الاقتصار على الجد الخالص او تركيز همته فيه ، وبالتالي قنع دائما من « وطنيته » بالعاطفة والمشاركة الوجدانية دون الاقدام على عمل يغير وجه الحياة التي آنس اليه فلا يرضى عنه بديلا ، لذلك لم يدر له بخلد ان ينضم الى لجنة من لجان الحزب الوطني على شدة تعلقه بمبادئه ، ولا المنتقدين له لشدة تعلقي بالمغفور له مصطفى كامل ، ولكن سعد اثبت دائما انه جدير باعجاب المعجبين . اما حركته الاخيرة فهي خليقة بان

دقيقة منه لينفقها في اسرته او تجارته أو على الخصوص في لهـوه بيـن الاحباب والخلان ؟! ... ليكن اذن وقته خالصا لحياته ، وللوطن ما يشاء من قلبه وعواطفه ، بل ما له كلما تيسر ، اذ لم يكن يضن به اذا وجـب التبرع لغرض من الاغراض، والى ذلك فلم يشعر مطلقا بانه مقصر فـي واجبه على نحو ما ، وعلى العكس كما سخا قلبه ، وان لان الذين سخت قلوبهم لم يذهبوا الى حد التبرع بالمال مثله ، فتميز بوطنيته ، وعرف هو ذلك فاضافه الى بقية مزاياه التي يباهي بها سرا في اعماق قلبه ، ولم يتصور ان الوطنية يمكن ان تطالبه باكثر ممايجود به ، ذاك القلب المولع بالغرام والطرب والمزاح لم يضق ــ على ازدحامه ــ بالعاطفة القومية ، وهي وان قنعت بالقلب مجالا لحيويتها الا انها كانت قوية عميقة تشغـل النفـس وتهمها ، لم تجئه عرضا ولكن نشأت مع صباه فيما تلقته اذناه من احاديث البطولة التي رواها السلف عن عرابي ، ثم اتقدت جذوتها بمقالات اللواء وخطبه ، وكم كان منظرا فريدا ــ اهاج التأثر والضحك معا ــ يوم رئـي وهو يبكي كالاطفال عند وفاة مصطفى كامل ، تأثر صحبه لان احداً منهم لم يسلم من وعكة حزن ثم اغرقوا في الضحك في مجلس الطرب الليلـي حين تذاكروا المنظر اذ لم يكن من اليسير ان يرى « رب الضحك » وهو يجهش بالبكاء ! اليوم ، بعد سني الحرب الخامدة ، بعد موت الزعيـم الشاب ونفي خليفته ، بعد انقطاع الامل من عودة افنديتا ،بعد هزيمةتركيا، وانتصار الانجليز،بعد هذا كله،او بالرغم منهذا كله،تسري انباءعجيبةحاملة حقائق كالاساطير .. مواجهة الرجل الانجليزي بمطالب الاستقلال ، امضاء التوكيلات الوطنية ، التساؤل عن الخطوة التالية ،قلوب تنفض عنجوهرها الغبار ، أنفس تشرق بالآمال ، ماذا وراء هذا كله ؟! .. ان خياله السلمي الذي الف الاستكانة يتساءل دون جدوى . وانه ليعجل الليل ليهرع الى مجلس الطرب حيث باتت الاحاديث السياسية « مزة » الشراب والطرب فائتلفت مع جملة المغريات التي تجذب حنانه الى سهرته كزبيدة وحـب الاخوان والشراب والطرب وانها لتبدو في ذلك الجو الخـلاب عذبـة حتى ان يجشم نفسه شهود اجتماع من اجتماعاته ، أليس في ذلك اهـدار لوقته « الثمين » ؟ ليس الوطن في حاجة اليه على حين يتلهف هو على كل

الروح لطيفة التناول تغني القلب بشتى عواطف الحماس والحب من دون ان تستأديه ما لا طاقة له به ! ... وانه ليفكر في هذا كله اذ اقترب منه جميل الحمزاوي وهو يقول:

ـ اما سمعت عن الاسم الجديد الذي اطلق على بيت سعد باشا ..؟ انهم يدعونه « بيت الامة » ...

ومال الرجل نحوه ليفضي اليه كيف نمي اليه الخبر ...

★ ★

في نفس الوقت الذي شغل فيه الوطن بالمطالبة بحريته كان ياسين دائبا بحزم وعزم على الاستئثار بحريته هو كذلك ، فان انطلاقه الى سهراته الليلية ـ بعد امتناع موسوم بالاستقامة فيما اعقب الزواج من اسابيع ـ لم يفز به بلا نضال . ثمة حقيقة كثيرا ما رددها لنفسه كاعتذار عن سلوكه الجديد، هي انه لم يكن يتصور ـ وهو في سكره حلم الزواج ـ انه سيرتد الى حياة التسكع بين القهوة وحانة كوستاكي ، اعتقد مخلصا انه ودع ذاك الى الابد مضمرا لحياته الزوجية احسن النيات ، حتى دهمته الخيبة المستعصية في الزواج كله فجزعت اعصابه عن تحمل الملل او الحياة الفارغة كما دعاها ، وفزع بكل قوة نفسه المدللة الحساسة الى الترفيه والتسلية والنسيان ، الى القهوة والحانة . لا كحياة لهو عابرة كما ظنها في الماضي والزواج امل مدخر ، ولكن كحياة هي كل ما تبقى له من متعة بعد ان غدا الزواج خيبة مريرة ، كالذي تشرده الآمال عن وطنه فيرده الاخفاق اليه تائبا ، بيد ان زينب التي عهدت عنده التودد الحار والتملق النهم ، بل الاعزاز الذي بلغ به يوما ان ذهب بها الى مسرح كشكش بك مستهينا بالسياج المسلح من التقاليد الصارمة الذي يضرب به ابوه ظحول الاسرة .. زينب هذه كابدت من انصرافه عنها الى منتصف الليل ليلة بعد اخرى بأحزانها ، وكان يعلم بداهة أن طفرة مفاجئة في حياته الزوجية لا يمكن ان وعودته ثملا يترنح ، صدمة عز عليها احتمالها فما تمالكت ان كاشفته تمر بسلام ، فتوقع من بادىء الامر المعارضة على اي لون جاءت ، عتابا أو خصاما واعد العدة المناسبة ليحسم موقفه بقوة متمثلا بقول ابيه له ليلة ضبطه راجعا من كشكش بك « انه لا يفسد النساء الا الرجال ، وليس كل

الرجال جديرا بالقيام على النساء » فما تشكت حتى قال لها : « لا داعي للحزن يا عزيزة ، منذ القدم والبيوت للنساء والدنيا للرجال ، هكـــذا الرجال جميعا ، والزوج المخلص يحافظ على أمانته وهو بعيد عن زوجته كما يحافظ عليها وهو بين يديها ، ثم انني اتزود من السهرة ترويحا عـن النفس وبهجة يجعلان من حياتنا متعة كاملة » ولما عرضت بسكره محتجة بأنها « تخاف على صحته » ضحك وقال بنفس اللهجة الجامعة بين الرقة والحزم « كل الرجال يسكرون ، ان صحتي تتحسن بالسكر (ثم ضاحكا مرة اخرى) سلي ابي أو أباك ! » الا انها همت بالاسترسال في مناقشته جريا وراء آمل كاذب فشد حبل الحزم متشجعا بملله الذي هو عليه ما لم يكن يهون من اغضابها فراح ينوه بما للرجال من حق مطلق في ان يفعلوا ما يشاءون ، وما على النساء منواجب الطاعة والتزام الحدود « انظـري الى امرأة ابي هل رأيتها اعترضت يوما على تصرف لابي ؟ ... على ذاك فهما زوجان سعيدان واسرة مطمئنة ، ينبغي الا نعود الى هذا الموضوع » .. لعله لو كان ترك الى شعوره وحده ما اصطنع في خطابها ما اصطنع من سياسة فان خيبته في الزواج جعلته يجد نحوها احيانا ما يشبه الرغبة في الانتقام ، واحيانا اخرى نوعا من الكراهية المتقطعة وان لم يكف عن الرغبة فيها بين هذا وذاك ، ولكنه راعى عواطفها اكراما ــ أو خوفا ــ من أبيـه الذي علم بعظيم تعلقه بأبيها السيد محمد عفت . والحق لم يكن يكربه شيء كاشفاقه من ان تشكوه الى ابيها فيشكوه هذا بدوره الى ابيه ،حتى لقد صمم جادا ، اذا وقع شيء مما يحاذر ، ان يستقل بمسكن مهما تكـن العواقب ولكن مخاوفه لم تتحقق ، أثبتت الفتاة رغم حزنها انهـا امـرأة « عاقلة » كأنها من طراز امرأة ابيه نفسها ، قدرت موضعها حق قـدره ونزلت عند حكم الواقع ، مطمئنة ــ لبعلها ــ بما يردده دائما من اخلاصه وبراءة سهراته ، قانعة من الالم والحزن ببثهما في دائرة الاسرة الضيقة ــ مجلس القهوة ــ من دون أن تظفر بتأييد جدي ، وكيف لها بذاك فـي بيئة ترى الخضوع للرجال دينا وعقيدة ، بل لعل الست أمينة استنكـرت شكواها وسخطت على ما تطمح اليه من استئثار غريب ببعلها ، لانها لـم يكن يسعها ان تتصور النساء الا على مثالها هي ولا الرجال الا على مثال

زوجها ، فلم تر في استمتاع ياسين بحريته عجبا ولكن شكوى زوجه بدت هي العجب ؛ فهمي وحده قدر احزانها فتطوع لترديدها على مسمع من ياسين ولو انه ايقن من باديء الامر انه يدافع عن قضية خاسرة ، ولعل ما شجعه على ذلك كان كثرة تلاقيهما في قهوة احمد عبده بخان الخليلي ، تلك القهوة التي تقع تحت سطح الارض كأنها كهف منحوت في جوف جبل ، مسقوفة بربوع الحي العتيق ، منعزلة عن العالم بحجراتها الضيقة المتقابلة . وباحتها التي تتوسطها نافورة صامتة ، ومصابيحها التي تقاد ليل نهار . وجوها الهاديء الحالم الرطيب ، كان ياسين قد مال الى هذه القهوة لدنوها من حانة كوستاكي من ناحية ولاضطراره الى هجر قهوة سي علي بالغورية بعد قطع زنوبة من ناحية اخرى ، ثم لما خصت به القهوة الجديدة من طابع اثري صادف هوى من نفسه الميالة للشعر ، اما فهمي فلم يعرف طريق المقاهي لخلل طرأ على سلوكه كطالب مجتهد ولكن تلبية لنداء تلك الايام الذي دعا الطلبة وغيرهم الى التجمع والتشاور ، فاختار ونفر من زملائه قهوة احمد عبده ـ لنفس ميزاتها الاثرية التي جعلتها بمأمن من العيون ـ للاجتماع مساء بعد مساء للحديث والتشاور والتنبؤ وانتظار الحوادث . كثيرا ما التقى الاخوان في حجرة من الحجرات الصغيرة ولو لحين قليل اي حتى يصل زملاء فهمي او يأزف ميعاد ياسين للانتقال الى حانة كوستاكي ، وفي مرة من هذه المرات اشار فهمي الى كدر زينب مبديا دهشته لسلوك اخيه الذي لا يتفق مع حياة زوجية ناشئة ، ضحك ياسين ضحكة رجل يرى لنفسه الحق كل الحق في ان يضحك من سذاجة الاخر الذي ارتضى ان يخاطبه بلسان الناصح فيما يجهله ، بيد انه لم يشأ ان يبرر سلوكه مباشرة ، مؤثرا ان ينفس عن صدره بما يعن له من قول ، قال مخاطبا الشاب :

ـ رغبت يوما في الزواج من مريم . ولست اشك في أنك حزنت جد الحزن لموقف أبيك الذي منع تلك الرغبة من ان تتحقق ... أقول لك . وأنا أدرى بما أقول ، انك لو علمت وقتذاك بما يخفي الزواج وراء سطحه لحمدت الله على الفشل ...

دهش فهمي لحد الانزعاج لانه لم يتوقع ان يباغت في اول جملة

يخاطب بها بالفاظ تجمع بين « مريم » و « الزواج » و « الرغبة » ،أفكار لعبت على مسرح صدره ادوارا لا تنسى ولا تمحى آثارها ، فلعله بالغ في اظهار دهشته ليخفي ما اثارت الذكريات في نفسه من الشجن والتأثر ،ولعله لذلك لم يستطيع ان ينبس بكلمة ، فتابع ياسين حديثه وهو يلوح بيده سأما ومللا قائلا :

ــ ما كنت اتصور ان ينجلي الزواج عن هذا الخواء ، انه في الحق لا يعدو ان يكون حلما كاذبا ، وقاسيا ككل شيء خبيث الخداع !

بدا له قوله عسير الهضم مُثيراً للريب كما يخلق بشاب تتدفق ينابيع حياته الوجدانية نحو هدف واحد لا يتمثل له الا في صورة « زوجة » وتحت مقولة « الزواج » فعز عليه ان يتناول اخوه المستهتر مقولته المقدسة بهذه المرارة الساخرة ، وتمتم في دهشة بالغة :

ــ ولكن زوجك سيدة ... كاملة ..!

فهتف ياسين ساخرا :

ــ سيدة كاملة ! هو ذاك ، أليست كريمة رجل فاضل ؟ ... وربيبة اسرة كريمة ؟ .. جميلة ؟ ... مهذبة ؟ ... ولكني لا أدري اي شيطان موكل بالحياة الزوجية يجعل من جميع المزايا السالفة اعراضا تافهة لا يلقى اليها بيال تحت ضغط الملل المسقم كأنها بعض ما نغدق على الفقر من صفات النبل والسعادة كلما تراءى لنا ان نعزي فقيرا عن فقره .!

فقال فهمي ببساطة وصدق :

ــ لا افهم حرفا مما تقول ..

ــ انتظر حتى تعرف بنفسك ...

ــ لماذا اذن يصر الناس على الزواج منذ بدء الخليقة .. ؟

ــ لان الزواج ــ كالموت ــ لا ينفع معه التحذير ولا الحذر ..

ثم مستطردا وكأنه يخاطب نفسه :

ــ لشد ما عبث بي الخيال فسما بي الى عوالم تفوق مباهجها الاحلام ، وطالما ساءلت نفسي : هل يجمعني حقا بيت واحد بغادة حسناء الى الابد ؟! يا له من حلم ! .. ولكني اؤكد لك بأنه ليست ثمة مصيبة افدح من ان يجمعك بيت واحد بحسناء الى الابد ...

غمغم فهمي في حيرة رجل يعز عليه ـ فيما يكابد من أشواق الشباب ـ تصور الملل :
ـ لعله بدت لعينيك اشياء وراء الظاهر الذي لا يعاب !
فقال ياسين وهو يضحك بمرارة :
ـ لا اشكو الا الظاهر الذي لا يعاب ! ... شكواي في الحق منصبة على الجمال نفسه ! ... هو ... هو الذي مللت لحد السقم ، كاللفظ الجديد يبهرك معناه لاول مرة ثم لا تزال ترددہ وتستعمله حتى يستوي عندك وألفاظ مثل « الكلب » و « الدودة » و « الدرس » وسائر الاشياء المبتذلة ، يفقد جدته وحلاوته ، وربما نسيت معناه نفسه فغدا مجرد لفظ غريب لا معنى له ولا وجه لاستعماله ، ولعله لو عثر عليه الغير في انشائك أخذهم العجب لبراعتك على حين يأخذك العجب لغفلتهم ،ولا تسل عما في ملل « الجمال » من فجيعة ، اذ انه يبدو مللا بلا عذر مقبول، وبالتالي قضاء محتوما ... فيتعذر التفادي من يأس ليس له من قرار ، لا تعجب لقولي ، أني عاذرك لانك تنظر من بعيد ، والجمال كالسراب لا يرى الا من بعيد ...
على مرارة اللهجة شك فهمي في حقيقة بواعثها اذ أنه مال من بادىء الامر الى اتهام اخيه ـ لا الطبيعة البشرية ـ لما عرفه عنه من انحراف السلوك ، الا يجوز ان ترد شكواه في الحق الى ما لهج به من مجون في حياته السابقة على الزواج ؟! ... اصر على هذا الظن اصرار رجل يأبى ان يفجع في أعز آماله ، ولما كان ياسين لا يهتم بآراء أخيه بقدر ما يهتم بالافصاح عما في صدره هو ، فقد واصل حديثه وهو يبتسم لاول مرة ابتسامة وضيئة :
ـ اصبحت أدرك موقف أبي حق الادراك ! ... وأفهم ما جعل منه ذاك الرجل العربيد الراكض وراء العشق ابدا ! ... كيف كان يتأتى له ان يصبر على طعام واحد ربع قرن من الزمان وقد قتلني الملل بعد خمسة أشهر ؟!
فقال فهمي وقد قلق لاقحام ابيه في الحديث :
ـ حتى على افتراض ان شكواك صادرة عن تعاسة مركبة في

الطبيعة البشرية ، فالحل الذي تبشر به ... (هم بأن يقول : بعيد عن الطبيعة السوية ثم عدل عنه ليكون اكثر منطقية فقال).. بعيد عن الدين..

فقال ياسين الذي كان يقنع من الدين بالايمان دون اكتراث جدي لاوامره ونواهيه :

ــ الدين يؤيد رأيي ، وآي ذلك انه سمح بالزواج من أربع غير الجواري اللاتي كانت تكتظ بهن قصور الخلفاء والاغنياء ، فقد فطن اذن الى ان الجمال نفسه ــ اذا ابتذلته العادة والالفة ــ مل وسئم وقتل.

فقال فهمي باسما :

ــ كان لنا جد يمسي مع زوجة ويصبح مع اخرى فلعث أن تكون ورثه ..

فتمتم ياسين متنهدا :

ــ لعلي ...

على ان ياسين ــ حتى ذاك الوقت ــ لم يكن أقدم على تحقيق حلم من أحلامه المتمردة . حق أنه رجع الى القهوة فالحانة ولكنه تردد قبل ان يخطو الخطوة الاخيرة ، قبل ان ينزلق الى زنوبة او الى غيرها .وما الذي جعله يفكر ويتردد ؟ ... ربما لم يخل من احساس بالمسؤولية حيال الحياة الزوجية ، وربما لم ينج من تهيب لرأي الدين في « الزوج الفاسق » الذي توكد لديه انه غير رأيه في « الشاب الفاسق » .. وربما ايضا ان خيبة اقوى أمل تردد في جوانبه صدت نفسه عن لذات الدنيا حتى يفيق ، على ان واحدة من اولاء لم تكن لتقيم في سبيله عائقا جديا خليقا بأن يقف مجرى حياته ، الا انه وجد اغراء لا يصمت في سيرة أبيه التي استحوذت عليه ، وما بدا من زوجه من « حكمة » قرنتها في ذهنه بامرأة أبيه فينشط خياله الى رسم تخطيط لحياتها المستقبلة معه على مثال حياة الست امينة مع ابيه ، أجل تمنى كثيرا لو تطمئن زينب الى الحياة التي تقدر عليها كما تطمئن امرأة ابيه الى حياتها ، فيثب هو مثل وثبات ابيه الموفقة ليعود اخر الليل فيحظى ببيت هادىء وزوجة مستنيمة ،بذاك ــ وبذاك وحده تراءت له الحياة الزوجية محتملة ، بل اثيرة ذات مزايا تفتقد . «فيم تطمح أية امرأة وراء البيت الزوجي والارتواء الجنسي ؟! .. لا شيء !..

انهن حيوانات اليفة كالحيوانات الاليفة ينبغي ان يعاملن ، أجل لا يجوز للحيوانات الاليفة ان تتطفل على حياتنا الخاصة وانما عليها ان تنتظر في البيت حتى نفرغ لمداعبتها . أن أكون زوجا خالصا للحياة الزوجية هو الموت ، منظر واحد وصوت واحد وطعم واحد ، خلاصتها في النهاية عدد محدود من الحركات والاصوات لا تزال تتكرر وتتكرر .. حتى تنقلب الحركة والجمود سيين ، والصوت والصمت توأمين ، كلا كلا ، ما لهذا تزوجت .. ان قيل انها بيضاء ، ألست ذا مآرب في السمراء ، بل والسوداء .. وان قيل انها مدملجة فما عزائي عن النحيلة والجسيمة ، أو انها مهذبة سليلة نبل وكرم فهل عطلت من المزايا ربيبة العربات الكارو ؟! .. الى الامام ... الى الامام .. »

★ ★

كان السيد مكبا على دفاتره حين طرقت عتبة الدكان حذاء ذات كعب عال فرفع عينيه باهتمام غرزي . فرأى امرأة تشتمل الملاءة اللف منها على جسم لحيم وتنحسر حافة البرقع الاسود عن جبين ناصع وعينين مكحولتين ، فابتسمت اساريره في ترحاب طال تشوقه اليه ، وعرف من توه الست أم مريم أو حرم المرحوم رضوان كما صارت تدعى اخيرا ، ولما كان جميل الحمزاوي مشغولا ببعض الزبائن فقد دعاها للجلوس على كثب من مكتبه ، فأقبلت المرأة تخطر وجلست على المقعد الصغير الذي فاضت عنه اعطافها وهي تلقي اليه بتحية الصباح . ومع ان التحية من ناحيتها والترحاب من ناحيته جريا على النحو المعهود الذي يتكرر كلما جاءته « زنوبة » تستحق التكريم ، فان الجو الذي غشى ركن الدكان من حول المكتب شحن بكهرباء تعوزها البراءة ، لاحت امارات لها في الجفنين المسبلين حياء حول عروس البرقع من ناحية ، والنظرة المتربصة فوق سفحي الانف العظيم من ناحية اخرى ، كهرباء خفية صامتة الا ان نورها الكامن كان متحفزا في انتظار لمسة كي يسطع ويشعشع ويستعر نارا .. كأنه كان ينتظر هذه الزيارة التي انجابت عن آمال مهموسة واحلام مكبوتة ، ولكن لان وفاة السيد محمد رضوان اثارت منه فكرا وهيجت رغبات كما يهيج انطواء الشتاء شتى آمال الشباب في الطبيعة والاحياء ، زال بموته الشجا

الذي اعترض احساسه بالمروءة فأمكنه ان يذكر نفسه بأن المرحوم لم يكن الا جاراً ــ لا صديقا ــ ورحل ، كما أمكن شعوره بجمال هذه المـرأة الذي اعرض عنه قديما حفاظا على كرامته ان يعبر عن ذاته ويطالب بنصيبه من المتعة والحياة ، الا ان عاطفته نحو زبيدة كان ادركها العطب كالفاكهة في نهاية موسمها ، فلاقت المرأة منه ــ على خلاف الزيارة السابقة ــ ذكرا متوثبا وعاشقا متحررا .. على ان خاطرة ثقيلة ــ ان تكون الزيارة بريئة ــ مرت به ولكنه نفاها عن نفسه بقوة ، مستشهدا بما ند منها في الزيارة القديمة من رقيق الاشارات وبديع الريب ، مؤكدا ظنونه بهـذه الزيـارة نفسها التي ليس ثمة ما يوجبها ان لم يكن مثل ما يدور بنفسه ، ثم صمم أخيرا على ان يتلمس سبيله كخبير قديم ... فقال لها برقة باسما :

ــ خطوة عزيزة .. !

فقالت في شيء من الارتباك :

ــ الله يكرمك ، كنت راجعة الى البيت فمررت بالدكان فتراءى لي أن آخذ لوازم الشهر بنفسي ..

فطن الى « اعتذارها » عن المجيء ولكنه ابى ان يصدقه فأن يتراءى لها ان تأخذ لوازم الشهر بنفسها ليس شيئا ان لم يكن وراءه دافع ، لا سيما وانها تدري بالبداهة والغريزة ان مجيئها بعد « مقدمات » الزيـارة القديمة خليق بأن يثير في نفسه الريب ، وان يبدو لعينيه « تمحكا » غير خافي الدلالة ، فزادته مبادرتها الى الاعتذار ثقة وقال :

ــ فرصة طيبة لاحييك ولاكون في خدمتك ...

فشكرته في اقتضاب أصغى اليه بنصف انتباه اذ شغل بالتفكير في الكلمة التالية ، لعله كان من الطبيعي ان يعرج على ذكر الزوج الراحـل مترحما ولكنه تحاشى هذا الخاطر ان يفسد عليه الجو كله ، ثم تساءل : هل يهاجم او يمسك حتى يستدرجها الى الهجوم ؟.. لكل طريقة لذتها .. بيد انه لم يشأ ان ينسى ان مجيئها وحده خطوة كبيرة من جانبها تستحق حسن الاستقبال من جانبه ، فاستطرد قائلا وكأنه يتمم حديثه الاول :

ــ بل فرصة طيبة كي اراك ...!

تحرك الجفنان والحاجبان حركة ربما دلت على الحياء او الارتبـاك

أو كليهما معا ، ولكنها فضحت قبل كل شيء فطنتها الى ما وراء مجاملته الظاهرة من معان خفية ، على انه رأى في حيائها استجابة لشعورها الباطني الذي دفعها الى زيارته اكثر منه استجابة لقوله ، فازداد اطمئنانا الى تخمينه الاول وراح يؤكد ما عناه في نغمة رقيقة قائلا :

ــ أجل فرصة طيبة كي اراك ...

عند ذاك قالت بلهجة تنم عن عتاب حبيس :

ــ لا أظن انك تعد رؤيتي فرصة طيبة ..!

فوقعت لهجة العتاب من صدره موقع الرضى والسرور ، لكنه قال كالمحتج :

ــ صدق من قال ان بعض الظن اثم ..

فهزت رأسها هزة كأنما تقول له «هيهات ان يؤثر في مثل هذا الكلام» وقالت :

ــ ليس ظنا فحسب ، اني أعني ما اقول ، انك رجل لا يعوزك الفهم ، وأنا كذلك وان توهمت غيره .. فلا يجوز لاحدنا ان يحاول خدع صاحبه .

ومع ان صدور هذا الكلام عن امرأة لم يمض على وفاة زوجها شهران أثار في نفسه شعورا بالسخرية والمرارة ، فانه تطوع لانتحال الاعذار لها ــ الامر الذي لم يكن ليفكر فيه في ظروف آخرى ــ قائلا لنفسه: ما احرى صبرها على مرضه الطويل بأن يشفع لها ، ثم تخلص من شعوره الطارىء بقوة وقال متصنعا الاسى :

ــ غاضبة علي ؟! ... يا له من حظ سيىء لا استحقه .

فقالت في شيء من الاندفاع ربما كان الباعث عليه ضيق المكان والزمان من ملاعبات الاخذ والرد :

ــ قلت لنفسي وأنا في الطريق اليك « ما ينبغي ان تذهبي » .. فلا يحق لي الان ان الوم الا نفسي !

ــ بعض هذا الغضب يا ست ! .. اني اسائل نفسي عما جنيت .. !؟

فتساءلت بلهجة ذات معنى :

ــ ما عسى ان تصنع اذا حييت انسانا بتحية فلم يرد بمثلها ولا حتى

بأسوأ منها ؟!

فأدرك من توه انها تشير الى ما بدا منها في الزيارة القديمة من تودد قابله بالصمت ، ولكنه تجاهل الاشارة ... وقال مجاراة لاسلوبها الرمزي:

ــ لعلها لم تبلغ سمعه لسبب او لاخر ..

ــ أنه قوي السمع والحواس جميعا ...

فجرت على فمه ابتسامة عجب لم يتمالكها ، قال بلهجة المذنب اذا انشأ يعترف :

ــ لعله لم يردها حياء او تقوى ...

فقالت بصراحة اعجبته وهزت فؤاده :

ــ اما الحياء فلا حياء له ،واما سائر الاعذار فمن اين للقلوب الصادقة ان تباليها !

فندت عنه ضحكة ما لبث ان اختزلها وهو يسترق النظر الى جميل الحمزاوي الذي بدا منهمكا في العمل بين نفر من الزبائن ، ثم قال :

ــ لا احب ان أعود الى الملابسات التي قست علي وقتذاك ، على أنه لا يجوز لي أن أيأس ما دام ثمة ندم وتوبة وعفو !

فتساءلت في انكار :

ــ من يدرينا بالندم ؟

فقال بلهجة حارة برع في تجويدها عاما بعد عام :

ــ تجرعته طويلا والله شهيد ...

ــ والتوبة ؟

فقال وهو يثقبها بنظرة متوهجة :

ــ ان ترد التحية بعشر امثالها !

فتساءلت في دلال :

ــ ومن أدراك بأن ثمة عفوا ؟

فقال بلباقة :

ــ أليس العفو من شيم الكرام !

ثم في نشوة ممسكرة :

ــ العفو كثيرا ما يكون كلمة السر لولوج الجنة ..

ثم وهو يرنو الى ابتسامة عذبة لاحت في عينيها :

ـ الجنة التي أعنيها تقع عند ملتقى بين القصرين بالنحاسين ، ومن جميل التوفيق ان بابها يفتح على عطفة جانبية بعيدا عن أعين الرقباء ، والا حارس لها .. !

وفطن الى ان حارس الجنة السماوية سمى « المرحوم » الذي كان حارسا للجنة الارضية التي يتلمس طريقه اليها ، فشاب خاطره ضيق وخاف ان تكون المرأة قد فطنت الى نفس الحقيقة الساخرة ولكنه وجدها مهومة فيما يشبه الحلم فتنهد وهو يستغفر الله في سره . وكأن جميل الحمزاوي قد فرغ من زبائنه ، فاقبل على السيدة ليقضي حوائجها فسنحت للسيد فرصة للتأمل . فراح يذكر كيف رغب ابنه فهمي يوما في خطبة مريم ابنة هذه المرأة ، ثم كيف الهمه الله الرفض ، وقد اعتقد وقتذاك انه انما ينفذ مشيئة حرمه فحسب ، فلم يدر له بخلد أنه جنب ابنه شر مأساة ينكب بها زوج ، وهل يمكن ان تنهج فتاة الا على مثال أمها ؟ .. وأي أم ؟ ... امرأة خطيرة .. ! قد تكون جوهرة ثمينة عند أمثاله من الصيادين،ولكنها في البيوت مأساة دامية ، ترى أي طريق سلكت طوال الاعوام التي عاشها زوجها ميتا حيا ؟ ... كل القرائن تشير الى طريق واحد ، ولعل كثيرين من الجيران يعرفون ، بل لعله لو كان في بيته من يحسن ملاحظة هذه الامور لما خفي عليه شيء ، ولما بقيت زوجه على الولاء لها والايمان بها حتى هذه الساعة ، وعاودته رغبة ـ استحوذت عليه اول مرة عقب الزيارة المريبة القديمة ،ولم يجد عندئذ سبيلا آمنا الى تحقيقها دون اثارة الريب ـ وهي ان يحول بين المرأة المستهرة وبين بيته الطاهر ، الآن يرى الظرف مهيئا ـ لاتصاله المنتظر بها ـ لتحقيق رغبته ، وذلك بأن يوحي لها بقطع اسبابها بزوجه رويدا منتحلا ما يعن له من اعذار حقيقة ببلوغ الهدف دون مساس بكرامتها ، هذه المرأة التي باتت اقرب ما تكون الى فؤاده وأبعد ما تكون عن احترامه في لحظة واحدة ! ... ولما انتهى الحمزاوي من اعداد حوائجها نهضت مادة يدها الى السيد فسلم باسما وهو يقول بصوت خافت :

ـ الى اللقاء ..

فغمغمت وهي تهم بالانصراف :

ــ نحن في الانتظار ..

غادرته اوفر سعادة ، نشوان بالظفر والعجب ، ولكنها خلقت له ايضا هما لم يكن ، هما جديرا بأن يحتل مكانا بارزا من مشاغله اليومية ،سوف يتساءل من الان فصاعدا عن آمن السبل للانسحاب من بيت زبيدة بنفس الاهتمام الذي يتساءل به عما فعلت السلطة العسكرية وعما يبيت الانجليز وعما ينوي سعد ، أجل جد جديد من السعادة يجر وراءه ــ كالعادة ــ ذيلا من الفكر . لولا حرصه الشديد على حب الناس له ، ذلك الحب الذي يحظى منه بأسعد سعاداته ، لهان عليه هجر العالمة بعد ان بلى حبه وذوت ازاهره واغرقه الشبع في مستنقع آسن ، ولكنه يشفق دائما من ان يتــرك وراءه قلبا حانقا او نفسا حاقدة ، وكم يود كلما ضيق الملل انفاسه لو يبدأه الحبيب بالهجر من ناحيته فيكون مهجورا بدل ان يكون هاجرا ، وكــم يود أن تنتهي علاقته بزبيدة كما انتهت اخوات لها من قبل ، بكدر عابــر تغسله هدايا الوداع المنتقاة ، ثم يستحيل الى صداقة وطيدة ، فهل تتقبل زبيدة ــ التي يظن انها ليست دونه شبعا ــ اعتذاره بقبول حسن ؟ ... وهل يطمع في ان تغفر له هداياه ما آعتزم من هجر ؟. هل تثبت انها امرأة كبيرة القلب سخية النفس كزميلتها جليلة مثلا ؟. هذا ما ينبغي ان يفكــر فيه طويلا وان يهيىء له انجع الذرائع . وتنهد تنهدة طويلة كأنما يشكــو ما جعل الحب فانيا لا يدوم ليكفي القلب متاعب آلاهواء ،ثم شرد به الخيال طاويا النهار فتراءى له وهو يدب في الظلماء متلمسا سبيله الى البيــــت الموعود ، والمرأة تنتظر بيدها سراج ...

★ ★

اعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون ان تطلبها او تقبلها الامة المصرية ، فهي حماية باطلة لا وجود لها قانونا بل هي ضرورة من ضرورات الحرب تنتهي بنهايتها .

كان فهمي يملي الكلمات ، كلمة كلمة ، في اناة وبصوت واضـــح النبرات والام وياسين وزينب يتابعون باهتمام درس الامــلاء الجديــد الذي انكب كمال على كتابته ، مركزا وعيه في الفاظه من دون ان يفقه معنى

كلمة مما كتب صوابا أو خطأ . لم يكن غريبا ان يلقي فهمي على شقيقه الصغير درسا في الاملاء او غيرها في جلسة القهوة ، ولكن موضوع الاملاء بدا جديدا حتى للأم وزينب ، أما ياسين فنظر الى اخيه مبتسما وقال :

ـ ارى هذه المعاني قد ملكت عليك نفسك .. فلم يفتح الله عليك باملاء لهذا الغلام المسكين الا خطبة سياسية وطنية ينفتح لها المغلق من أبواب السجون ...

فبادر فهمي الى تصحيح رأي اخيه قائلا :

ـ هي من خطبة سعد امام اساطين الاحتلال في جمعية الاقتصاد والتشريع ..

فتساءل ياسين باهتمام ودهشة :

ـ وكيف كان ردهم عليه ... ؟

فقال فهمي بانفعال :

ـ لم يجيء ردهم بعد ، والكل يتساءل عنه في حيرة وقلق ، انها غضبة مزمجرة في وجه اسد لم يؤثر عنه الحلم أو العدل ..

ثم وهو يتنهد مغيظا محنقا :

ـ كان لا بد من غضبة بعد أن منع الوفد من السفر ،وبعد ان استقال رشدي باشا من الوزارة فخيب السلطان المأمول بقبول استقالته ...

ثم مضى الى حجرته مسرعا ، وعاد وهو يبسط ورقة مطوية وقدمها الى اخيه وهو يقول :

ـ ليست الخطبة كل ما عندي ، اقرأ هذا المنشور الذي يوزع سرا متضمنا رسالة الوفد الى السلطان ..

فتناول ياسين المنشور وراح يقرأ :

ـ « يا صاحب العظمة ..

يتشرف الموقعون على هذا اعضاء الوفد المصري ان يرفعوا الى مقام عظمتكم بالنيابة عن الامة ما يلي :

لما اتفق المحاربون على ان يجعلوا مبادىء الحرية والعدل اساسا للصلح واعلنوا أن الشعوب التي غيرت الحرب مركزها يؤخذ رأيها فيحكم نفسها اخذنا على عاتقنا السعي في استقلال بلادنا والدفاع عنقضيتها أمام

مؤتمر السلام ما دام ان الحق الاقوى، قد زال من ميدان السياسة ، وما دامت بلادنا قد اصبحت بزوال السيادة التركية حرة من كل حق عليها لان الحماية التي أعلنها الانجليز بلا اتفاق بينهم وبين الامة المصرية باطلة ، ولم تكن في الواقع الا ضرورة حربية تزول بزوال الحرب ، اعتمادا على هذه الظروف وعلى ان مصر غرمت كل ما قدرت عليه من المغارم في صف القائلين بحماية حرية الامم الصغرى . لا يكون لدى مؤتمر السلام ما يمنع من الاعتراف بحريتنا السياسية جريا على المبادىء التي أسس عليها.

عرضنا رغبتنا في السفر على رئيس وزرائكم صاحب الدولة حسين رشدي باشا ، فوعد بمساعدتنا على السفر وتوقا منه باننا انما نعبر عن رأي الامة كافة .. فلما لم يسمح لنا بالسفر وحبسنا داخل حدود بلادنا بقوة الاستبداد لا بقوة القانون ، وحيل بيننا وبين الدفاع عن قضية هذه الامة الاسيفة ، ولما لم يستطع دولته ان يحتمل مسؤولية البقاء في منصبه في حين ان الشعب يصادر في مشيئته ، استقال هو وزميله صاحب المعالي عدلي يكن باشا استقالة نهائية قوبلت من الشعب بتكريم شخصيهما والاعتراف بصدق وطنيتهما .

ولقد كان الناس يظنون انه كان لهما وقفتهما الشريفة دفاعا عن الحرية عضد قوي من نفحات عظمتكم . لذلك لم يكن ليتوقع احد في مصر أن يكون اخر حل لمسألة سفر الوفد قبول استقالة الوزيرين ، لان في ذلك متابعة للطامعين في اذلالنا وتمكينا للعقبة التي القيت في سبيل الادلاء بحجة الامة الى المؤتمر ، وايذانا بالرضى بحكم الاجنبي علينا الى الابد .

قد نعلم أن عظمتكم ربما كنتم مضطرين لاعتبارات عائلية ان تقبلوا عرش ابيكم العظيم الذي خلا بانتقال اخيكم المغفور له السلطان حسين، ولكن الامة من جهة اخرى كانت تعتقد ان قبولكم لهذا العرش في زمن الحماية الوقتية الباطلة رعاية لتلك الظروف العائلية ليس من شأنه ان يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم ، غير ان حل المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين اظهرا احترامهما لارادة الامة لا يمكن ان يتفق مع ما جبلتم عليه من حب الخير لبلادكم ، والاعتداد بمشيئة شعبكم ، لذلك عجب الناس من مستشاريكم كيف انهم لم يلتفتوا الى الامة في هذا الظرف

العصيب وهي انما تطلب منكم ـ يا أرشد ابناء محررها الكبير محمد علي ـ ان تكونوا لها العون الاول على نيل استقلالها ، مهما كلفكم ذلك. فان همتكم ارفع من أن تحددها الظروف ، كيف فات مستشاريكم ان عبارة استقالة رشدي باشا لا تسمح لرجل مصري ذي كرامة وطنية ان يخلفه في مركزه ؟! ... كيف فاتهم ان وزارة تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضى عليها بالفشل ؟!

عفوا مولانا قد تكون مداخلتنا في هذا الامر وفي غير هذا الظرف غير لائقة .. ولكن الامر قد جل الان عن أن يراعى فيه اي اعتبار غير منفعة الوطن الذي انت خادمه الامين . ان لمولانا اكبر مقام في البلاد فعليه اكبر مسؤولية عنها ، وفيه اكبر رجاء لها ، واننا لا نكذبه النصيحة اذا تضرعنا اليه أن يتعرف رأي امته قبل ان يتخذ قرارا نهائيا في امر الازمة الحالية ، فاننا نؤكد لسدته العلية انه لم يبق احد في رعاياه من اقصى البلاد الى اقصاها الا وهو يطلب الاستقلال ، فالحيلولة بين الامة وبين طلبتها مسؤولة لم يتحر مستشارو مولانا امرها بالدقة الواجبة . لذلك دفعنا واجب خدمة بلادنا واخلاصنا لمولانا ان نرفع لسدته شعور أمته التي هي الان اشد ما تكون رجاء في استقلالها واخوف ما تكون من ان تلعب به ايدي حزب الاستعمار ، والتي تطلب اليه بحقها عليه ان يغضب لغضبها ويقف في صفها فتنال بذلك غرضها .. وانه على ذلك قدير .. »

رفع ياسين رأسه عن المنشور وفي عينيه ذهول وفي قلبه نبض جديد من التأثر ، بيد أنه هز رأسه قائلا :

ـ يا له من خطاب ! .. لا احسبني استطيع أن اوجه مثله الى ناظر مدرستي دون ان ينالني العقاب الرادع !

فرفع فهمي منكبيه استهانة وقال :

ـ الامر قد جل الان عن أن يراعي فيه اي اعتبار غير منفعة الوطن ..

ردد العبارة عن ظهر قلب كما وردت في المنشور . فلم يتمالك ياسين ان يقول ضاحكا :

ـ أحفظت المنشور ! ... ولكني لا أعجب لهذا ، كأنك كنت تترصد طول حياتك لمثل هذه الحركة كي تلقى اليها بكل قلبك ، ولعلي لا أخلو

من مثل شعورك وآمالك ، ولكني لا أقرك على الاحتفاظ بهذا المنشور ..
خصوصا بعد استقالة الوزارة وتحرش الاحكام العرفية ..

فقال فهمي في فخار :

ــ اني لا احتفظ بها فحسب ، ولكني اقوم بتوزيعها ما سمح الجهد .. !

فاتسعت عينا ياسين في قلق وهم بالكلام ... ولكن الام كانت اسبق اليه منه فقالت بانزعاج :

ــ لا أكاد اصدق اذني ، كيف تعرض نفسك للشر وانت سيد العقلاء ؟!

لم يدر فهمي كيف يجيبها ، ولكنه شعر بما جره عليه تهوره من حرج، لم يكن أشق عليه من محادثتها في هذا الامر ، كانت السماء اقرب اليه من اقناعها بأن تعريض نفسه للخطر في سبيل الوطن واجب ما دام الوطن كله لا يساوي في نظرها قلامة ظفر ، بل قد بدا له أن اخراج الانجليز من مصر أيسر من حملها على الاقتناع بوجوب اخراجهم او اغرائها ببغضهم ، فما ان يدور الحديث حول ذلك حتى تقول ببساطة « لماذا تكرههم يا بني !. أليسوا اناسا مثلنا لهم أبناء وأمهات ؟! » فيقول لها بحدة : « ولكنهم يحتلون بلادنا ! » .. وتحس بحدة الغضب في نبراته فتلوذ بالصمت وهي تداري نظرة اشفاق لو نطقت لقالت له « لا عليك من هذا » .. ومرة قال لها وقد ضاق بمنطقها : « لا حياة لقوم اذا حكمهم اجنبي » فقالت له في استغراب « ولكنا لا نزال احياء رغم انهم يحكموننا من زمن بعيد ، وقد انجبتكم جميعا في ظل حكمهم ! ... انهم يا بني لا يقتلو ولا يتعرضون للمساجد ولا تزال أمة محمد بخير ! » فقال الشاب يائسا « لو كان سيدنا محمد حيا ما رضي أن يحكمه الانجليز » فقالت بلهجة الحكيم « هذا حق، ولكن أين نحن من الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ .. كان الله يعينه بملائكته ... » فهتف بها حانقا « سيعمل سعد زغلول ما كانت الملائكة تعمله » ولكنها هتفت وهي ترفع ذراعيها كأنما تدفع بلاء لا دافع له « لا تقل هذا يا بني ، استغفر ربك، اللهم رحمتك وغفرانك ! » .. هذه هي ، فكيف يجيبها الان وقد استشعرت في توزيع المنشور خطرا يتهدده؟.

لم يسعه الا ان يركن الى الكذب فقال متصنعا الاستهانة :
ـ ما أردت الا المزاح فلا تنزعجي للاشيء ..
فعادت المرأة تقول بنبرات تنم عن ضراعة :
ـ هذا ما أومن به يا بني ، هيهات أن يخيب ظني في ارشد الراشدين ما لنا نحن وهذه الامور ! اذا رأى باشواتنا ان يخرج الانجليز من مصر فليخرجوهم بأنفسهم .
بدا كمال طوال الحديث وكأنه يحاول ان يتذكر أمرا ذا بال ، فما بلغ الحديث عن تلك النقطة حتى صاح :
ـ مدرس العربي قال لنا بالامس ان الامم تستقل بعزائم ابنائها ..!
فهتفت الام ساخطة :
ـ لعله قصد بخطابه كبار التلاميذ ، الم تحدثني يوما بأن عندكم تلاميذ قد طرت شواربهم ؟
فتساءل كمال بسذاجة :
ـ واخي فهمي أليس تلميذا كبيرا ؟
فقالت الام بحدة على غير مألوفها :
ـ كلا ليس أخوك كبيرا ، اني أعجب لذلك المدرس كيف سولت له نفسه ان يتحدث اليكم في غير الدرس ! ... اذا شاء ان يكون وطنيا حقا فليوجه هذا الكلام الى ابنائه في البيت لا الى ابناء الناس ! ...
كاد الحديث يحمس ويستمر لولا ان سنحت كلمة عابرة فغيرت مجراه ، أرادت زينب ان تتودد الى الام بتأييدها في دفاعها فحملت على مدرس العربي ونعته بأنه « مجاور حقير عملت الحكومة منه رجلا ذا شأن في غفلة من الزمان » ... ولكن ما ان سمعت الام هذه الاهانة توجه الى « المجاور » حتى افاقت من انفعالها وابت ان تسكت عنها رغم انها قيلت تأييدا لها ، مدفوعة بكل ما تنطوي عليه نفسها من اجلال لذكرى ابيها فتحولت الى زينب وقالت بهدوء :
ـ انت يا ابنتي تحقرين اشرف ما فيه ، الشيوخ خلفاء الرسل ، انما يلام الرجل على خروجه عن حدود وظيفته الشريفة ، الا ليته قنع بأن يكون مجاورا وشيخا ! ...

ولم يفت ياسين سر تحول الام المفاجىء ، فبادر بالتدخل ليمحو الاثر الذي تركه دفاع زوجته البريء ..

★ ★

ــ انظر الى الطريق ، انظر الى الناس ، من يقول بعد هذا ان الكارثة لم تقع ؟!

ولكن السيد احمد لم يكن في حاجة الى مزيد من النظر ، الناس يتساءلون ، ويرجفون ، وأصحابه يخوضون في الحديث خوضا حارا تجاوبت فيه الحسرة مع الحزن مع الغضب ، الى ان الخبر قد تردد على السنة كافة من مر به من الاصدقاء والزبائن ، أجمع الكل على ان سعد زغلول وصفوة اصحابه قد اعتقلوا وسيقوا الى مكان مجهول في القاهرة او خارجها . قال السيد محمد عفت وهو محتقن الوجه بدم الحنق :

ــ لا تشكو في صحة الخبر فان لاخبار السوء رائحة تزكم الانوف .. الم يكن هذا متوقعا بعد خطاب الوفد للسلطان ؟ ... او بعد رده على الانذار البريطاني بذلك الخطاب الجبار الى الوزارة الانجليزية .. !؟

فقال السيد بوجوم شديد :

ــ يعتقلون الباشوات الكبار ! ... يا له من حدث مخيف ، ترى ما عسى ان يصنعوا بهم ؟

ــ الله وحده يعلم ، البلد يختنق في ظل الحكم العرفي ...

ودخل عليهم السيد ابراهيم الفار تاجر النحاس مهرولا وهو يهتف لاهثا :

ــ أما سمعتم بآخر الانباء ؟! ... مالطة !

وضرب يدا بيد وراح يقول :

ــ النفي الى مالطة ، لم يعد أحد منهم بيننا ، نفوا سعد وأصحابه الى جزيرة مالطة .. .

وهتف الجميع في نفس واحد :

ــ نفوهم ! ...

اثار « النفي » في نفوسهم ما خامرهم منذ الصبا من ذكريات قديمة اسيفة عن عرابي باشا ونهايته ، فتساءلوا وهم لا يملكون قلوبهم من

الجزع : ايجري نفس المصير على سعد زغلول وصحبه ؟ ... اينقطع حقا ما بينهم وبين الوطن الى الابد ؟ ... أتموت هذه الآمال الكبار وهي لا تزال في مهد الازهار ؟ ... وشعر السيد بحزن لم يشعر بمثله من قبل ، حزن ثقيل غليظ شاع في صدره كما يشيع الغثيان ، فعانى تحت وطأته خمودا وهمودا واختناقا وجعلوا يتبادلون نظرات ساهمة واجمة ، ناطقة بغير لسان ، صارخة بلا صوت ، ثائرة بلا صخب ، وفي الريق مرارةواحدة، ثم جاء في اثر الفار صاحب وثان وثالث مرددين نفس النبأ ، آملين في ان يجدوا عند الاخرين مسكنا لما يستعر في نفوسهم ، فلا يظفرون الا بالحزن الصامت والوجوم الكئيب والثوران الكظيم .

ـ هل تضيع الآمال اليوم كما ضاعت بالامس ؟

فلم يحر احد جوابا ، ولبث المتسائل يقلب عينيه في الوجوه دون جدوى ، لا جواب تأوى اليه النفس من مضطربها وان ابت ان تسلم جهارا بما يميتها خوفا ، نفى سعد ... هذا حق ، ولكن هل يعود سعد ولو بعد حين ؟ ... وكيف يعود سعد؟ .. اية قوة تعيده ؟ ... لن يعود سعد ، فاين تذهب هذه الامال العراض ؟ ... لقد انبثقت من الامل الجديد حياة حارة عميقة يأبى استحواذها عليهم ان يسلمهم لليأس ولكنهم لا يدرون كيف يعللون النفس ببعثها من جديد .

ـ ولكن أليس ثمة أمل في ان يكون الخبر شائعة كاذبة !

لم يعر احد القائل التفاتا في حين لم يحفل هو بهذا التجاهل لانه لم يقصد بقوله في الحق الا تلمس مهرب ـ ولو وهمي ـ من اليأس الخانق .

ـ اسره الانجليز .. ومن ذا يغالب الانجليز !

ـ رجل ولا كل الرجال ، بعث لحظة من الحياة باهرة ، ومضى ..

ـ كالحلم ... وسوف ينسى فلا يبقى منه الا ما يبقى من حلم عند الضحى .. .

وهتف هاتف بصوت ابحه الالم :

ـ الله موجود ! .. .

فهتفوا بصوت واحد :

ـ نعم .. وهو ارحم الراحمين .

ذكر اسم الله فكان كالقطب المغطس ، جذب اليه شواردهم وجمع افكارهم التي شتتها اليأس • وفي مساء ذلك اليوم ــ ولاول مرة منذ ربع قرن او يزيد ــ بدا مجلس الاخوان مجافيا للهو والطرب يغشاه الوجوم ، وتتجه احاديثه جميعا الى الزعيم المنفي ، قهرهم الحزن ، وان يكن وجد بينهم من تنازعه الحزن والرغبة في الشراب مثلا ،فقد غلب الاولى على الثانية احتراما للشعور العام ومجاراة للموقف ، بيد انه لما طال بهم مطال الحديث حتى استنفدوا اغراضه لاذوا بما يشبه الصمت ، وما لبث ان ركبهم قلق خفي وشى بحكة الادمان التي تئن في اعماقهم فبدوا وكأنهم ينتظرون اشارة الجسور الذي يتقدم الصفوف ، ولكن السيد محمد عفت قال فجأة :

ــ آن لنا ان نعود الى بيوتنا ••

لم يكن يعني ما يقول ، ولكن كأنما أراد ان ينذرهم بأنهم اذا تركوا الوقت يمضي كما مضى فلن يبقى امامهم الا ان يعودوا الى بيوتهم ،وكانت المعاشرة الطويلة لقنتهم دقيق التفاهم بالاشارة فتشجع على عبد الرحيم بائع الدقيق بهذا الانذار الخفي وقال :

ــ انعود الى البيوت دون كأس تخفف من بلوى هذا اليوم !

فأحدث قوله في النفوس ما يحدثه الجراح في اهل المريض اذا خرج عليهم من حجرة الجراحة وهو يقول : « الحمد لله •• نجحت العملية » ، الا ان الذي تنازعه الحزن والرغبة في الشراب قال فيما يشبه الاحتجاج متسترا على ما اثلج صدره من ارتياح :

ــ نشرب في مثل هذا اليوم ؟!

فحدجه السيد احمد بنظرة ذات معنى ، ثم قال متهكما :

ــ دعهم يشربون وحدهم وهلم بنا الى الخارج يا ابن ••• الكلب••

ندت عنهم ضحكات لاول مرة ثم جاءوا بالقوارير وكأنما اراد السيد أن يعتذر عن هذا السلوك فقال :

ــ ان اللهو لا يغير مابقلوب الرجال !

فأمنوا على قوله ، كانت اول ليلة يترددون طويلا قبل الاستجابة الى نداء الصبوات ، وما لبث السيد ان قال متأثرا بمنظر القوارير :

ـــ انما ثار سعد لاسعاد المصريين لا لتعذيبهم فلا تخجلوا عند الحزن عليه من معاقرة الشراب •

لم يكن الحزن مما يمنعه من المزاح ، بيد ان الليلة لم تهنأ بصفاء خال من الكدر ، حتى وصفها السيد فيمابعد بأنها « ليلة مريضة تداووا فيها بجرعا تمن الخمر ! » •

استقبلت الاسرة مجلسها التقليدي في جو من الوجوم لم تعهده من قبل ، انطلق فهمي في حديث ثوري طويل والدموع في عينيه ، واستمع ياسين آسفا حزينا ، وودت الام ان تبدد الكآبة او تخفف البلوى ولكنها اشفقت من انقلاب غرضها عليها ، ثم ما لبثت عدوى الحزن أن انتقلت اليها فرق قلبها للشيخ العجوز الذي انتزعوه من بيته وزوجته الى منفى بعيد، قال ياسين :

ـــ أمر محزن ، رجالنا جميعا ، عباس ومحمد فريد وسعد زغلول •• مشردون بعيدا عن الوطن ••

فقال فهمي بانفعال شديد :

ـــ يا لهم من أوغاد هؤلاء الانجليز ! ••• نخاطبهم باللغة التي كانوا يستعطفون بها الناس في محنتهم فيجيبون بالانذارات العسكرية والنفي والتشريد ••

لم تطق الام ان ترى ابنها منفعلا على تلك الحال فنسيت مأساةالزعيم وقالت برقة واستعطاف :

ـــ ارحم نفسك يا بني ، ربنا يلطف بنا !

ولكن هذه اللهجة الرقيقة زادته هياجا فصاح دون ان يلتفت اليها :

ـــ اذا لم نقابل الارهاب بالغضب الذي يستحقه فلا عاش الوطن بعد اليوم ، لا يجوز أن تنعم البلاد بالسلام وزعيمها الذي قدم نفسه فدية لها يعاني عذاب الاسر •• !

فقال ياسين متفكرا :

ـــ من حسن الحظ ان الباسل باشا بين المنفيين ، انه شيخ قبيلة مرهوبة الجانب ولا اظن رجاله يسكتون على نفيه •••

فقال فهمي بحدة :

ـ والاخرون ••• ؟ أليس وراءهم رجال ايضا ؟ ••• انها ليست قضية قبيلة ولكنها قضية الامة كلها ••

جرى الحديث بلا توقف وما يزداد الا حدة وعنفا ولكن المرأتين لاذتا بالصمت اشفاقا ورهبة ، لم تستطع زينب ان تدرك بواعث هذه الثورة العاطفية فلم تفهم لها معنى ، نفى سعد ورجاله معه ، ومن المؤكد أنهم لو عاشوا كما يعيش « عباد الله » ما فكر أحد في نفيهم ، ولكنهم لم يريدوا ذلك ، ارادوا أمورا خطيرة مرادها وخيم العواقب دون ثمة ضرورة تدعو اليها ، ومهما يكن من أمرهم فماذا يبعث فهمي على هذا الغضب الجنوني كأن سعدا أبوه أو اخوه ؟! ••• بل ماذا يبعث ياسين ـ وهو الرجل الذي لا يأوي الى فراشه الا مترنحا من السكر ـ على هذا الاسف ؟! •• أيحزن حقا من كان مثله على نفي سعد او غيره من الناس ؟! •• كأن حياتها في حاجة الى مزيد من التنغيص حتى يعكر فهمي عليها صفو الجلسة القصيرة بهذه الثورة التي لا معنى لها ، جعلت تفكر في هذا كله وهي تلحظ زوجها من آن لآخر متعجبة ساخطة ولسان حالها يقول له : « ان كنت صادقا حقا في حزنك فلا تذهب هذا المساء ـ هذا المساء فقط الى الحانة ! » ، ولكنها لم تنبس بكلمة ،كانت أحكم من ان تلقي بأفكارها الباردة في هذا التيار الناري ، في هذه الناحية الاخيرة شابهتها الام التي سريعا ما تفقد شجاعتها حيال الغضب وان هان ، لذلك لاذت بالصمت وانطوت على ضيق شديد وهي تتابع مشفقة الحديث الثائر الهائج ،ولكنها كانت اعظم من زوج ياسين ادراكا لبواعث هذه العواصف فان رأسها لم يخل من ذكرى عرابي كما ان قلبها لم يخل من اسف على أفندينا ، أجل لم تكن كلمة « المنفى » عاطلة من المعاني في نفسها ، بل لعلها خلت من الامل الجدير بأن يداعب شخصا كفهمي فقد اقترنت في ذهنها ـ كما اقترنت في ذهن زوجها واصحابه ـ باليأس من العودة ، والا فأين افندينا؟ ••• ومن أجدر منه بالعودة الى وطنه ؟ ••• ولكن أيظل فهمي على حزنه ما امتد النفي بسعد • ترى اي نحس في هذه الايام يأبى الا ان يبيتهم بنبأ ويصبحهم بنبأ حتى زلزل امنهم وكدر صفوهم ؟! كم تتمنى ان يعود السلام الى ربوعه ، وأن تطيب هذه الجلسة كما طابت العمر كله ، وان

تنبسط اسارير فهمي ويلذ الحديث ، كم تتمنى ...

ــ مالطة .. ! هذه هي مالطة !

هكذا صاح فجأة وهو يرفع رأسه عن خريطة البحر الابيض وقد ثبت اصبعه على رسم الجزيرة ونظر الى اخيه بظفر وسرور كأنما عثر على سعد زغلول نفسه ، ولكنه وجد منه وجها متجهما كالحا . لا استجاب الى ندائه ولا اعار ادنى اهتمام فباخ الغلام واعاد بصره الى رسم الجزيرة في ارتباك وحياء ، ومضى يتأمله طويلا وهو يقيس ببصره المسافة بينه وبين الاسكندرية وبينه وبين القاهرة ويتخيل صورة مالطة الحقيقية ما شاء له الخيال ، ومنظر اولئك الرجال الذين يتحدثون عنهم وهم مسوقون اليها ، ولما كان قد سمع فهمي وهو يقول عن سعد ان الانجليز انتزعوه على أسنة الرماح فانه لم يسعه ان يتصوره الا محمولا على أسنة الرماح ، لا متألما او صارخا كما يتوقع في مثل تلك الحال ولكن « ثابتا كالطود » كما وصفه اخوه ايضا في مرحلة اخرى من الحديث ، وكم ود لو يستطيع ان يسائل اخاه عن كنه ذلك الرجل الساحر العجيب الذي يثبت على أسنة الرماح كالطود ، ولكنه حيال ثورة الغضب التي التهمت سلام المجلس كله أجل تحقيق رغبته الى فرصة انسب ، واخيرا ضاق فهمي بمجلسه بعد ان أيقن ان ما بصدره من عاطفة اكبر من ان تروح عنها محادثة اخيه في هذا المكان الذي يقف من شعوره موقف المتفرج ان لم يكن موقف الانكار ، نازعته نفسه الى الاجتماع باخوانه في قهوة أحمد عبده حيث يظفر بقلوب تستجيب لقلبه ونفوس تسابقه الى الاعراب عما يضطرم في قراراتها من الاحساس والرأي ، هناك يسمع اصداء الغضب المتقد في قلبه ويستأنس بايحاءاته الجسورة الملتهبة في جو باهر من التعطش الى الحرية الكاملة ، مال الى أذن ياسين وهمس :

ــ الى قهوة أحمد عبده ...

فتنفس ياسين من الاعماق لانه كان بدا يتساءل وهو من الحرج في غايته ــ عن وسيلة لبقة ينسحب بها من المجلس ، ليمضي الى سهرته ، دون أن يزيد من غضب فهمي اشتعالا ، لم يكن ما به من آسف تصنعا ، او لم يكن تصنعا كله ، هز النبأ الخطير قلبه ، ولكنه لو ترك الى نفسه لتناساه

بغير جهد كبير ، ولما فرض على اعصابه ما فرض من تكلف مجاراة لفهمي ومجاملة له واحتراما لغضبه الذي لم يسبق له ان رآه على مثله من قبل ، غادر الحجرة وهو يقول لنفسه : « حسبي اليوم ما بذلت من جهد في سبيل الحركة الوطنية فان لبدني علي حقا » .

★ ★

على ضربات العجن المتصاعدة من حجرة الفرن فتح فهمي عينيه ، كانت الحجرة مغلقة النوافذ ، في شبه ظلام الا ما لاح من نور باهت وراء خصاص النوافذ ، ترامى الى اذنيه همس انفاس كمال المترددة فعطف رأسه الى فراشه القريب ، ثم انثالت عليه ذكريات الحياة ، هذا صباح جديد ، انه يستيقظ من نوم عميق سلمه الى تعب شمل النفس والجسم ، وانه لا يدري ان كان يستيقظ صباح الغد بهذا الفراش أم لا يستيقظ ابدا ، لا يدري ولا أحد يدري ، فالموت يجوب شوارع القاهرة طولا وعرضا ويرقص في أركانها ، يا للعجب ، ها هي امه تعجن كعهدها منذ قديم ، وها هو كمال يغط في نومه ويتقلب في أحلامه ، وذاك ياسين يدل وقع قدميه فوق سقف الحجرة على انه انتزع نفسه من الفراش أما أبوه فلعله الآن منتصب القامة تحت ماء الدش البارد ، وها هو نور الصباح ذو البهاء والحياء تستأذن طلائعه في رقة بالغة ، كل شيء يواصل حياته المعهودة كأن شيئا لم يحدث ، كأن مصر لم تنقلب راسا على عقب، كأن الرصاص لا يعزف باحثا عن الصدور والرءوس ... كأن الدم الزكي لا يخضب الارض والجدران ، واغمض الشاب عينيه وهو يتنهد مبتسما الى تيار مشاعره الزاخر بما يحمل في موجاته المتلاحقة من حماس وامل وحزن وايمان ، حقا لقد حيي في الايام الاربعة المنطوية حياة عريضة لم يكن له بها عهد من قبل ، أو انه لم يعرفها الا اطيافا في أحلام اليقظة ، حياة طاهرة رفيعة ، حياة تجود بنفسها عن طيب خاطر في سبيل شيء باهر اثمن منها وأجل ، تتعرض للموت بلا مبالاة، وتستقبله بعناد ، وتهجم عليه باستهانة ، واذا افلتت من مخالبه مرة عادت اليه كرة اخرى متنكبة عن ذكر العواقب جانبا ، شاخصة طوال الوقت الى نور رائع عنه لا تحيد ، مدفوعة بقوة لا قبل لها بها ، مسلمة مصيرها لله وهي تشعر به محيطا لها كالهواء يغمرها من كل جانب ،هانت الحياة كوسيلة

حتى لم تعد تزن ذرة ، وجلت كفاية حتى وسعت السماوات والارض ، تآخى الموت والحياة فكانا يدا واحدة في خدمة أمل واحد ، هـذه تؤيده بالجهاد وذاك يؤيده بالفداء ، لو ان الانفجار الرهيب لم يقطع لمات غما وكمدا ، فما كان يحتمل ان تواصل الحياة سيرها الهادىء الوئيد علـى اطلال الرجال والآمال ، كان لا بد من انفجار ينفس عن صـدر الوطـن وصدره كالزلزال الذي ينفس عن ابخرة باطن الارض المتجمعة ، فلمـا وقعت الواقعة وجدته على ميعاد فألقى بنفسه في خضمها .. متى حدث هذا ؟ ... وكيف حدث ؟ ... كان راكبا ترام الجيزة في طريقه الى مدرسة الحقوق فوجد نفسه بين شرذمة من الطلاب يتناقشون ملوحين بقبضاتهم ، نفى سعد وهو يعبر عن قلوبنا فاما ان يعود سعد ليواصل جهاده واما ان ننفى معه ، وانضم الراكبون من الاهالي اليهم في الحديث والوعيد حتى الكمساري أهمل عمله ووقف ينصت ويتكلم ، يا لها من ساعة ! ... فيها اشرق بنفسه الامل من جديد بعد ليلة من الحزن واليأس قاتمة ، فأيقن ان هذه النار المتقدة لن تخمد ولن تبرد ،ولما اقبلوا على فناء المدرسة وجدوه مكتظا صاخبا مرعدا فسبقتهم قلوبهم اليه ، ثم هرعوا الى زملائهم تحدثهم نفوسهم بحدث وشيك ، وما لبث آن انبرى احدهم مناديا بالاضراب ! ... شيء جديد لم يسمع من قبل ، بيد أنهم هتفوا بالاضراب وهم يتأبطون كتب القانون وجاءهم ناظرهم المستر والتون في لطف غير معهود ونصحهم بالدخول الى الفصول فكان الجواب ان صعد شاب منهم الى اعلى السلم المفضي الى حجرة السكرتير وراح يخطب بحماسة فائقة فلم يسع الناظر الا الانسحاب أنصت الى الخطيب بمجامع روحه وعيناه شاخصتان الى عينيه وقلبه يتابع دقاته في سرعة ونشاط ، كم ود لو يصعد الى موقفه فيفيض مـن معيـن قلبه المستعر ، ولكنه لم يكن ذا استعداد قوي للخطابة فقنع بأن يردد غيره هواتف نفسه ، وتابع الخطيب باتنباه حماسي حتى وقف عند مقطع مـن خطابه فصاح مع زملائه جميعا في نفس واحد (يحيا الاستقلال) ثم تابع الانصات باهتمام بث الهتاف فيه حيوية جديدة حتى انتهى الخطيب الـى مقطع ثان فهتف مع الهاتفين : « لتسقط الحماية » ووالى الاصغاء بجسـم متصلب من الانفعال وهو يعض على اسنانه ليحبس الدمع الـذي زفـره

جيشان نفسه حتى اذا بلغ الخطيب المقطع الثالث هتف مع الهاتفين « يحيا سعد » ، هتاف جديد ، وكل شيء جديدا بدا ذلك اليوم ، بيد انه هتاف مطرب رجعه قلبه من الاعماق وظل يردده مع دقاته المتتابعة كأنــه صــدى للسانه ، بل هتاف لسانه كان صدى لقلبه ، فانه ليذكر كيف ردد قلبه هذا الهتاف في صمت مكظوم طوال الليلة السابقة للانفجار التي باتها مغمومـا محسورا ، كانت عواطفه المكبوتة ، حبه وحماسه وطموحه وتطلعه الى المثل الاعلى واحلامه تائهة مبعثرة حتى انطلق صوت سعد مدويا فانجذبت طائرة اليه كما ينجذب الحمام السابح في الفضاء الى صفير صاحبه ، ثم ما يدرون الا والمستر ايموس نائب المستشار القضائي البريطانـي لوزارة الحقـانية يشق طريقه بين جموعهم فقابلوه بهتاف واحد : « لتسقط الحماية ... لتسقط الحماية » فتلقاهم الرجل ببرود لم يخرق به حد اللطف ونصحـهم بالعودة الى دروسهم داعيا اياهم الى ترك السياسة لابائهم ، هنالك تصدى له احدهم قائلا :

ــ ان آباءنا قد سجنوا ، ولن ندرس القانون في بلد يــداس فيــه القانون ...

وتعالى الهتاف من اعماق القلوب كهزيم الرعد فانسحـب الرجـل مسرعا . ود الشاب مرة ثانية لو كان هو القائل ، لشد ما تنثال المعاني على روحه ولكن يسبقه السابقون الى اعلانها فيشتد حماسه ويتعزى بأن فيما ينتظره عوضا عما يفوته ، وجرت الامور سراعا ، دعا الداعي الى الخروج فخرجوا متظاهرين وتوجهوا الى مدرسة المهندسخانة فسرعان ما انضمت اليهم ثم الى الزراعة فهرع طلبتها اليهم هاتفين كأنهم على ميعاد ، ثم الــى الطب فالتجارة وما بلغوا ميدان السيدة زينب حتى انتظمتهم مظاهرة كبيرة انضمت اليها جموع الاهالي وتعالى الهتاف لمصر والاستقلال وسعد ،وكلما تقدموا خطوة ازدادوا حماسة وثقة وايمانا بما يلقون في كل مكان مــن مشاركة تلقائية واستجابة بديهية ، وما يصادفون من نفوس متحفزة تصدعت بالغضب حتى وجدت في مظاهرتهم المتنفس ، تساءل ــ ودهشته لحدوث المظاهرة تكاد تغلب انفعاله بالتظاهر نفسه ــ « كيف حدث هذا كله !؟ ». لم تكن مضت الا بضع ساعات على الصباح الذي شهد قنوطا وانهزامه ،

ها هو الآن ، قبيل الظهر ، يشترك في مظاهرة ثائرة يكاشفه فيها كل قلب بأنه صدى لقلبه ، ويردد هتافه ، ويناشده بايمان لا يتزعزع ان يسير الى النهاية ، فأي سرور سروره ، وأي حماس حماسه ! ... لقد انطلقت روحه في سماء من الامل لا تحدها الافاق ، نادمة على ما اعتورها من قنوط خجلة بما رمت به الابرياء من ظنون ،وفي ميدان السيدة زينب بدا له منظر جديد من مناظر ذاك اليوم العجيب . رأى مع الرائين جماعات من فرسان البوليس وعلى رأسها مفتش انجليزي تتقدم ساحبة وراءها ذيولا من الغبار ،والارض تضطرب تحت وقع السنابك ، انه ليذكر كيف مد بصره نحوهم في ذهول من لم يسبق له ان وجد نفسه عرضة لمثل ذلك الخطر الداهم ،وتلفت فيما حوله فرأى وجوها يلمع في محاجرها الحماس والغضب فتنهد في عصبية ولوح بيدها هاتفا ، أحاط الفرسان بجموعهم ، ولم يعد يرى من الخضم الهائل الذي يضطرب فيه الا رقعة محدودة يغرق بين رؤوسها المشرئبة، ثم ترامى اليهم ان البوليس اعتقل طلابا كثيرين ممن تصدوا لمخالفته او كانوا على رأس المظاهرة فللمرة الثالثة ذلك اليوم تمنى ، وكان تمنيه أن يكون بين المعتقلين ولكن من دون ان يخرج من الدائرة التي يتحرك فيها بجهد جهيد ..

على ان ذاك اليوم كان يوم سلام بالقياس الى اليوم الذي تلاه ،بدا يوم الاثنين منذ مطلع الصباح يوم اضراب شامل اشتركت فيه جميع المدارس بأعلامها وحشود من الاهالي لا يحيط بها الحصر ، بعثت مصر بلدا جديدا يبكر الى الاحتشاد في الميادين للحرب بغضب طال كتمانه ، والقى هو بنفسه بين الجموع في نشوة فرح وحماس كأنه تائه ضال عثر على أهله بعد فراق طويل ، وسارت المظاهرة مسيراً مشهودا مارة بدور المعتمدين السياسيين معلنة احتجاجها بمختلف اللغات ، حتى بلغت شارع الدواوين وهناك سرت بين الجموع موجة اضطراب عنيفة وصاح صائحهم: « الانجليز ! » وما لبث أن فرقع الرصاص مغطيا على اصوات الهاتفين فسقط اول القتلى ، وواصل قوم تقدمهم في حماس جنوني ، وتسمر اخرون ، وتفرق كثيرون يلوذون بالبيوت والمقاهي ، وكان هو ضمن الاخرين ، اندس وراء باب وقلبه يبعث ضربات فزعة متناسيا كل شيء الا

حياته ، ولبث على ذلك زمنا لا يدريه حتى شمل السكون الدنيا جميعا فمد رأسه ، ثم قدمه ، ومضى الى حال سبيله غير مصدق بالنجاة وعاد الى بيته فيما يشبه الذهول ، وفي وحدته الحزينة تمنى لو كان من الذاهبين او في الاقل من الثابتين ، وفي وقدة الحساب العسير وعد ضميره الفظ بالتفكير، ومن حسن الحظ أن بدا ميدان التكفير متسعا وقريبا •

وجاء الثلاثاء والاربعاء فكانا كالاحد والاثنين ، ايام متشابهات في أفراحها واحزانها ، مظاهرات فهتاف فرصاص فضحايا ، ألقى بنفسه في خضمها جميعا يندفع بحماس ، ويسمو الى آفاق بعيدة من الاحساس النبيل ، ويضطرب بالحياة ويعضه ندم على النجاة ! ثم ضاعف من حماسه وأمله انتشار روح الغضب والثورة فما لبث ان أضرب عمال الترام وسائقو السيارات والكناسون فبدت العاصمة حزينة غاضبة موحشة • وترامت الاخبار حاملة البشرى بقرب اضراب المحامين والموظفين • ان قلب البلاد يخفق حيا ثائرا ولن تذهب الدماء هدرا ولن ينسى المنفيون في منفاهم ،لقد زلزلت اليقظة الواعية ارض وادي النيل •••

تقلب الفتى في فراشه فاسترد وعيه من لجة الذكريات وجعل يتابع دقات العجن مرة اخرى مقلبا ناظريه في أركان الحجرة التي اخذت تستبين على النور المشرق رويدا وراء النوافذ المغلقة • أمه تعجن ! •• ولن تزال تعجن صباحا بعد صباح ، هيهات ان يشغلها حدث عن التفكير في اعداد الموائد وغسل الثياب وتنظيف الاثاث ، ان كبار الحادثات لا يعطل صغار الاعمال ، وسيتسع صدر المجتمع دائما للجليل والتافه من الامور فيرحب بها جنبا الى جنب ، ولكن مهلا ، ليست أم على هامش الحياة هي التي انجبته والابناء وقود الثورة ، وهي التي تغذيه والغذاء وقود الابناء ،الحق ان ليس ثمة شي تافه في الحياة ••• ولكن الا يجيء يوم يهز فيه الحادث الكبير المصريين جميعا فلا تتفرق عنده القلوب كما تفرقت في مجلس القهوة منذ خمسة ايام ؟ ••• الا ما أبعد هذا اليوم ! •• ثم جرت على شفتيه ابتسامة اذ وثب الى ذهنه هذا السؤال : ما عسى ان يصنع والده اذا علم « بجهاده » المتواصل يوما بعد يوم ؟ •• ماذا يصنع ابوه الجبار المستبد وماذا تصنع أمه الرقيقة الحنون ؟ » •• ابتسم في حيرة وهو يعلم

ان المتاعب التي قد تعترضه في تلك الحال ليست دون المتاعب التي قد تعترضه اذا نمي سره الى السلطة العسكرية نفسها ... ثم أزاح الغطاء عن صدره وجلس في الفراش وهو يغمغم « سيان ان أحيى أو ان اموت ، الايمان اقوى من الموت ، والموت اشرف من الذل ، فهنيئا لنا الامل الذي هانت الى جانبه الحياة ، اهلا بصباح جديد من الحرية ، وليقض الله بما هو قاض ... »

★ ★

لم يعد احد يستطيع الادعاء بأن الثورة لم تغير ولو وجها من وجوه حياته ، حتى كمال نفسه عرض لحريته التي تمتع بها طويلا في ذهابه الى المدرسة وايابه منها طارىء ثقيل ضاق به كل الضيق وان لم يستطع لهدفعا، ذلك ان الام امرت ام حنفي بأن تتبعه في ذهابه الى المدرسة وعند ايابه منها، والا تتخلى عنه بحال كي تعود به الى البيت اذا صادفتها مظاهرة دون ان تدع له فرصة للتلكؤ او مطاوعة نزوات الطيش ، دار رأس الام بأنباء المظاهرات والاضطرابات وارتج قلبها لحوادث الاعتداء الوحشي على الطلبة فعانت من ذلك الزمن أياما كالحات ملأتها هلعا وجزعا فودت لو تستبقي ابنيها الى جانبها حتى تثوب الامور الى مستقرها ، ولكنها لم تجد الى تحقيق مرادها من سبيل خصوصا بعد ان وعد فهمي — وهو من ثقتها في « عقله » لا تتزعزع — انه لا يشترك في الاضراب بتاتا ، وبعد ان رفض الاب فكرة استبقاء كمال في البيت لعلمه بأن المدرسة تحول بين صغار التلاميذ وبين الاشتراك في الاضراب . سلمت الام بذهاب الاخوين الى المدرسة على كره منها ولكنها فرضت على كمال رقابة أم حنفي وهي تقول له : « لو كان بوسعي ان اخرج كما أشاء لتبعتك بنفسي » وقد عارضها كمال بما وسعه من قوة لانه ادرك بالبداهة ان هذه الرقابة التي لن تخفي عن أمه خافية من شؤونه ستقضي قضاء مبرما على كل ما يتمتع به في الطريق من الوان العبث والشطارة . وانها ستلحق هذه الفترةالقصيرة السعيدة من يومه بالسجنين اللذين يتردد بينهما : البيت والمدرسة ، الى هذا امتعضت نفسه ، اشد الامتعاض من السير في الطريق مصطحبا هذه المرأة التي ستلفت الانظار حتما ببدانتها المفرطة ومشيتها المتهالكة ، ولكنه

لم يسعه الا ان يذعن لرقابتها سيما بعد ان أمره ابوه بقبولها ، قصارى ما استطاعه تنفيسا عن صدره انه كان ينتهرها كلما تدانت منه، وانه حتم عليها ان تتأخر عنه مسيرة أمتار ، على تلك الحال مضيا الى مدرسة خليل أغـا صباح الخميس وهو خامس ايام المظاهرات في القاهرة ، ولمـا بلغا بـاب المدرسة اقتربت ام حنفي من البواب وسألته تنفيذا للامر اليومي الـذي تلقته في البيـت :

ــ هل يوجد تلاميذ في المدرسة ؟

فأجابها الرجل بغير اكتراث :

ــ منهم من يدخل ، ومنهم من يذهب . والناظر لا يتعرض لاحد ..

كانت هذه الاجابة مفاجأة سيئة لكمال ، كان مهيأ النفس لسمـاع الاجابة التي باتت مألوفة منذ يوم الاثنين وهي « التلاميـذ مضربـون » فيعودان الى البيت حيث يمضي سحابة النهار في حرية حببت الى قلبه الثورة من بعيد . ونازعته نفسه الى الهرب تفاديا من عواقب الاجابة الجديـدة فخاطب البواب قائـلا :

ــ أنا ممن يذهبـون ...

وابتعد عن المدرسة والمرأة في أثره ، بيد انها سألته : لماذا لا يدخل مع الداخلين فرجاها مترددا لاول مرة في حياته ــ أن تقول لامه ان التلاميـذ مضربون ، وزيادة في الرجاء والتودد دعا لها ــ وهما يمران بجامع الحسين ــ بطول العمر والسعادة الا أن ام حنفي لم تستطع الا ان تصـارح الام بالحقيقة كما سمعتها فأنبته الام على كسله وامرت المرأة بأن تعود به الـى المدرسة فغادرا البيت وهو يسلقها بلسان حاد راميا اياها بالخيانة والغدر، ام يجد في المدرسة الا لداته ... ذوي الاسنان الصغيرة ، اما عن عداهم ، وهم الاغلبية الساحقة ، فكانوا مضربين ، والقى في فصله ، الذي كـان يتوافر له من صغار التلاميذ ما لم يتوافر لغيره من الفصول ــ نحوا مـن ثلث التلاميذ ، بيد ان المدرس امرهم ان يراجعوا دروسهم السابقة وانكب هو على تصحيح بعض الكراسات فتركهم في شبه اضراب في الواقع . فتح كمال كتابا متظاهرا بالقراءة دون ان يعيره أدنى انتباه فقد ساءه البقاء في المدرسة بلا عمل فلا هو مع المضربين ولا هو في البيت يتمتع بالفراغ الذي

جادت به هذه الايام العجيبة بلا حسبان ، ضاق بالمدرسة كما لم يضـق من قبل ، وهفا خياله الى اولئك المضربين في الخارج بدهشة واستطلاع ، كثيراً ما تساءل عن حقيقة امرهم ، أهم كما تدعي أمـه « متهـورون » لا يرحمون انفسهم ولا أهليهم ملقين بأرواحهم الى التهلكة أم هم كما يصفهم فهمي ابطال فدائيون يجاهدون عدو الله وعدوهم ؟! .. وكثيرا ما مال الى رأي أمه لحنقه على التلاميذ الكبار ـ فئة المضربين ـ الذين خلفوا فـي نفسه ونفوس اضرابه من التلاميذ الصغار أسوأ الآثار بما ينالهم علـى أيديهم من غلظة واستكبار وهم يتحدونهم في فناء المدرسـة بضخـامة أجسامهم وقحة شواربهم ، بيد انه لن يستسلم الى هذا الرأي كل الاستسلام طالما كان لقول فهمي من الاقناع في نفسه ما لا قبل له بالاستهانة به ، لـن يسعه ان يسلبهم ما يضفيه عليهم من ضروب البطولة حتى ود لو يطلع من مكان آمن على معاركهم الدامية ، قامت قيامة الدنيا ما في ذلك من شك ، او فلماذا يضرب المصريون وينطلقون جماعات الى الاشتباك بالجنود ؟! .. وأي جنود ؟! ... الانجليز ؟ .. الانجليز الذين كان يكفي ذكر اسمهم لاخلاء الطرقات ! ... ماذا حدث للدنيا وللناس ؟ ذاك صراع عجيب قضى عنفه بان تنقش عناصره الجوهرية في نفس الغلام بلا وعي او قصد فتغدو اسماء سعد زغلول . الانجليز . الطلبة . الشهداء . المنشورات ، المظاهرات من القوى المؤثرة الموحية في اعماقه وان وقف من معانيها موقف المستطلع الحائر . وضاعف من حيرته آن آله استجابوا للحوادث استجابة متباينة واحيانا متناقضة ، فبينا يجد فهمي ثائرا يحمل على الانجليز بحنق قاتل ويحن الى سعد حنينا يفخر الدمع ، اذا بياسين يناقش الاخبار في اهتمام رصيـن مشوب بأسف هادىء لا يمنعه من مواصلة حياته المعتادة بيـن السمـر والضحك وتلاوة الاشعار والقصص ، ثم السهر حتى منتصف الليل ، اما أمه فلا تكف عن دعاء الله ان ينشر السلام ويعيد الامان ويصفي قلـوب المصريين والانجليز جميعا ، والادهى من كل اولئك زينب زوجة اخيـه التي افزعتها الاحداث فلم تجد من تصب عليه غضبها الا سعد زغلول نفسه متهمة اياه بانه سبب هذا الشر كله ، وانه « لو عاش كما يعيش عباد الله في دعة وسلام ما تعرض له أحد بسوء ولا اشتعلت تلك النيران » ... لذلك

كان حماس الغلام يستعر لفكرة الصراع نفسه ، وحزنه يفيض بفكرةالموت في ذاته دون ان يكون لنفسه معنى واضحا لما يدور حوله من بعيد أو قريب ، وكم أسف يوم دعا تلاميذ خليل اغا الى الاضراب — لاول مرة — فسنحت له فرصة طيبة ليشهد مظاهرة عن كثب او يشترك فيها ولو في فناء المدرسة ، ولكن الناظر بادر الى حجز صغار التلاميذ في فصولهم فأفلتت الفرصة ووجد نفسه وراء الجدران ينصت الى الهتافات العالية في دهشة ممزوجة بسرور خفي ، لعل مبعثه الفوضى التي نشبت في اكل شيء فعصفت بالروتين اليومي الثقيل بلا رحمة . أفلتت ذلك اليوم فرصة الاشتراك في مظاهرة كما ضاعت اليوم فرصة الاستمتاع بالفراغ في البيت ، وسيبقى مغلولا في هذه الجلسة المملة ينظر في الكتاب بعينين لا تريان شيئا ، ويسترق لمسات مع رفيقه على القمطر في حذر وخوف حتى يدرك نهاية النهار الطويل ، ولكن ثمة شيء استرعى انتباهه فجأة ، قد يكون صوتا غريبا بعيدا أو وشا في الاذن ، ولكي يستوثق من حاسته نظر فيما حوله فرأى رؤوس التلاميذ مرفوعة واعينهم تتبادل النظرات ثم تتجه معا صوب النوافذ المطلة على الطريق ، انه حقيقة وليس وهما ما استرعى انتباههم ، انها اصوات مندمجة في صوت ضخم غير متمايز تسمع لبعدها كهدير الامواج من بعيد ، الان وقد اخذت تشتد يمكن ان تسمى ضوضاء ، بل ضوضاء تقترب ، وسرت في الفصل حركة وتعالى الهمس ثم ارتفع صوت قائلا « مظاهرة ! ... » فخفق قلب الغلام وعلت عيناه لمعة تجمع بين السرور والاضطراب . وجعلت الضوضاء تقترب وتقترب حتى وضحت هتافا يرعد ويزمجر في جميع الجهات المحيطة بالمدرسة ، وعادت تقرع اذنيه الاسماء التي ملأت ذهنه طوال الايام الماضية . سعد .. الاستقلال ... الحماية ، وتدانى الهتاف وعلا حتى أطبق على فناء المدرسة نفسها فوجمت قلوب التلاميذ وايقنوا ان الطوفان لا بد مغرقهم ، ولكنهم قابلوا ذلك بسرور صبياني تنكب عن تقدير العواقب في حمية نزوعه الى الفوضى والانطلاق ، ثم ترامى اليهم وقع أقدام مقبلة في سرعة وصخب ، ثم فتح الباب على مصراعيه تحت وقع صدمة عنيفة واندفعت الى الحجرة جماعات من الطلبة والازهريين كما تندفع المياه من فوهة الخزان وهم يصيحون :

« اضراب ... أضراب ... لا ينبغي ان يبقى أحد » ... وفي لحظات وجد نفسه غائصا في موج مصطخب يدفعه أمامه دفعا يعطل كل مقاومة وهو من الاضطراب في غاية ، تحرك في بطء شديد تحرك حبوب البن في فوهة الطاحونة لا يدري اين تقع عيناه ، ولا يرى من الدنيا الا اجساما متلاصقة في ضجة تصك الآذان حتى استدل بظهور السماء فوق رأسه على بلوغ الطريق ، واشتد الضغط عليه حتى كادت تكتم انفاسه فصرخ صراخا حادا عاليا متواصلا من شدة الفزع ، وما يدري الا ويد تقبض على ذراعه وتجذبه بقوة وهي تشق بين الناس طريقا حتى ألصقته بجدار على الطوار ، فراح يلهث ويتلمس فيما حوله منجى حتى عثر على دكان حمدان بائع البسبوسة وقد أنزل بابها الحديدي الى ما فوق العتبة بقليل ، فهرع اليه ودخل زحفا على ركبتيه ، ولما قام في الداخل رأى عم حمدان الذي كان يعرفه حق المعرفة وامرأتين وبعض صغار التلاميذ فأسند ظهره الى جدار القائمة التي تحمل الصواني وصدره يعلو وينخفض بلا توان ، وسمع عم حمدان وهو يقول :

ــ أزهريون ، طلبة ، عمال ، أهالي .. جميع الطرقات المؤدية الى الحسين مكتظة بالبشر .. ما كنت احسب قبل اليوم أن الارض تستطيع ان تحمل كل هؤلاء البشر ...

احدى المرأتين بدهشة :

ــ كيف يصرون على التظاهر بعد ما كان من اطلاق النار عليهم ؟!

المرأة الاخرى بحسرة :

ــ ربنا الهادي ، كلهم ابناء ناس يا ولداه ...

فقال عم حمدان :

ــ لم نر شيئا كهذا من قبل ، ربنا يحميهم ..

تفجر الهتاف في الحناجر يزلزل الجو زلزالا ، حينا عن قرب كأنه يدوي في الدكان . وحينا عن بعد في ضوضاء شديدة غير متمايزة كهزيم الريح ، وتواصل بلا انقطاع ، في حركة بطيئة مستمرة دل عليها تفاوت درجات الشدة والارتفاع بين الامواج القادمة والذاهبة ، وكلما ظن انه انقطع جاء غيره حتى بدا وكأن لا نهاية له . تركزت حياة كمال في اذنيه

وهو يرهف السمع في اضطراب وقلق ، بيد انه لما تتابع الوقت دون وقوع مكروه استرد انفاسه ومضى يعاوده الشعور بالطمأنينة ، ثم وسعه اخيرا ان يفكر فيما يدور حوله كطارىء لا يلبث ان يزول فتساءل متى يجد نفسه في البيت ليروي لأمه ما وقع له ؟ ... « اقتحمت علينا الفصول مظاهرة لا اول لها ولا اخر ،وما أدرى الا وتيارها الزاخر يحيط بي ويجرفني الى الشارع ، وهتفت مع من هتف : ليحيى سعد ، لتسقط الحماية ، ليحيا الاستقلال . وما زلت انتقل من طريق الى طريق حتى هجم الانجليز علينا واطلقوا الرصاص » ... ستفزع عند ذاك لحد البكاء ولا تكاد تصدق انه حي يرزق وستتلو آيات كثيرة وهي ترتجف ... «ومرت رصاصة جنب رأسي ما زال عزيفها يطن في آذني ، وتخبط الناس كالمجانين، وكدت أهلك مع الهالكين لولا ان جذبني رجل الى دكان ... »

انقطع حبل احلامه على صياح عال غير منتظم ووقع اقدام متدافعة في اضطراب ، فخفق قلبه ونظر في وجوه من حوله فرآهم محملقين في الباب كمن يتوقع ضربة على أم رأسه ، واقترب عم حمدان من الباب وانحنى حتى نظر من الفرجة في اسفله ثم تراجع وانزله حتى الصقه بالارض بسرعة وهو يتمتم في اضطراب :

ــ الانجليز ... !

وصاح كثيرون في الخارج « الانجليز ... الانجليز » ونادى اخرون « الثبات .. الثبات » وهتف غيرهم « نموت ويحيا الوطن » ... ثم سمع الغلام لاول مرة في حياته الصغيرة طلقات الرصاص عن بعد قريب فعرفها بالبداهة وارتعدت اوصاله ، وما ان ندت عن المرأتين صرخة فزع حتى انخرط في البكاء ، وجعل عم حمدان يقول بصوت متهدج « وحدوا الله ... وحدوا الله ... الله ... » ولكن الغلام شعر بالخوف ، باردا كالموت ، يزحف على جسمه كله من قدميه الى رأسه ، وتوالت الطلقات ، وصكت الآذان صلصلة عجلات وصهيل خيل ،تتابعت الاصوات والحركات في سرعة فائقة تلاحقها زمجرات وصراخ والين ، فترة اعتراك خاطفة بدت للقابعين وراء الباب دهرا في حضرة الموت ... ثم حل صمت مخيف كالاغماء الذي يعقب تبريح الالم ، تساءل كمال بصوت متهدج مبحوح :

ـ ذهبـوا ؟! ...

فوضع عم حمدان سبابته على فيه وهو يغمغم « هس » ... وتلا آية الكرسي ، فتلا كمال في سره ـ اذ خانته قدرته على الكلام ـ « قــل هو الله أحد » لعلها تطرد الانجليز كما تطرد العفاريت في الظلام . على ان الباب لم يفتح الا عند الظهر فانطلق الغلام الى الطريق المقفر ثم اطلــق للريح ساقيه . وفيما هو يمر بالسلم الهابط الى قهوة احمد عبده لمح شخصا صاعداً عرف فيه أخاه فهمي فهرع اليه كغريق عثرت يده على اداة النجــاة وقبض على ذراعه فالتفت الشاب نحوه فزعا ، ولما عرفه هتف به :

ـ كمال ؟! ... أين كنت في أثناء الضرب ؟

ولاحظ الغلام ان صوت اخيه مبحوح مطموس المخارج ، بيــد انه اجابه بقوله :

ـ كنت في دكان عم حمدان وسمعت الرصاص وكل شيء .. .

فقال له بعجلته ولهوجته :

ـ اذهب الى البيت ولا تقل لاحد انك قابلتني ... سامع ؟

فسأله الغلام بارتباك :

ـ الا تعود معي ؟!

فقال باللهجة نفسها :

ـ كلا ... ليس الآن .. سأعود في موعدي المعتاد ، لا تنس انك لم تقابلني قط ...

ودفعه حتى لا يدع له فرصة للمناقشة فاندفع الغلام راكضا حتــى بلغ منعطف خان جعفر ، فرأى شبحا واقفا وسط الطريق يشير الى الارض ويخاطب نفراً من الرجال فنظر حيث يشير فرأى بقعا حمراء ملبسة بالتراب، وسمعه يقول بلهجة رثائية :

ـ هذا الدم الزكي يستصرخنا الى مواصلة الجهاد ، وقد شاء الله ان يسفك في رحاب سيد الشهداء لنصل في الاستشهاد حاضرنا بماضينا ، والله معنا ...

وأحس فزعا يركبه ، فاسترد بصره من الارض الدامية وانطلق يعدو كالمجنون ...

★ ★

كانت أمينة تتلمس طريقها الى باب الحجرة خلال ظلمة السحر ، في حذر وتمهل ان توقظ السيد ، حين ترامى الى اذنيها لغط غريب صاعدا من الطريق يطن طنين النحل . لم يكن يطرق اذنيها في هذه الساعة التي اعتادت ان تستيقظ فيها الا صلصلة عجلات عربات الدبش وسعال العمال المبكرين وهتاف رجل يحلو له عند مرجعه من صلاة الفجر ان يردد في الصمت الشامل صائحا بين حين وآخر « وحدوه » أما هذا اللغط الغريب فلم تسمعه من قبل ، وحارت في تفسيره فتطلعت الى معرفة مصدره فمضت بخطواتها الخفيفة الى نافذة بالصالة مطلة على الطريق ثم رفعت خصاصها واخرجت رأسها فوجدت في الخارج ظلمة مختلطة عند الافق ببشائر ضياء ولكن ليس الى الحد الذي تستطيع معه رؤية ما يجري تحتها ، بيد ان اللغط ازداد ارتفاعا ، وازداد في الوقت نفسه غموضا ، حتى تبينت فيه اصواتا آدمية مجهولة النسب . دارت عيناها في الظلام الذي اخذت تألفه شيئا ما فرأت تحت سبيل بين القصرين وما يليه من تقاطع النحاسين مع درب قرمز اشباحا آدمية غير واضحة المعالم ، وأشياء على هيئة اهرام صغيرات ، واخرى كانها الاشجار القصار ، فارتدت في حيرة ونزلت قاصدة حجرة فهمي وكمال ، ثم ترددت ، اتوقظه ليرى ما هنالك ويحل لها تلك الالغاز ام تؤجل ذلك الى حين استيقاظه ؟! . ثم أبت ان تزعجه طاوية رغبتها حتى موعد استيقاظه عند مطلع الشمس الوشيك ، ثم صلت ، ثم عادت مدفوعة بحب الاستطلاع الى النافذة فأطلت منها . بدأ وشي الشروق ناشبا في غلالة السحر وأضواء الصباح تسيل من ذرى المآذن والقباب ، فأمكنها ان ترى الطريق في كثير من الوضوح وفتشت عيناها عن الاشباح التي راعتها في الظلام فتبينت حقيقتها وندت عنها آهة فزع وارتدت مهرولة الى حجرة فهمي وايقظته بلا احتراس فانتفض الشاب جالسا في فراشه وهو يتساءل منزعجا :

ــ مالك يا أماه .. ؟

فقالت وهي تلهث :

ــ الانجليز يملأون الطريق تحت بيتنا ...

هب الشاب من فراشه واثبا الى النافذة ورمى ببصره فرأى تحت سبيل بين القصرين معسكرا صغيرا يشرف على رؤوس الطرق التي تتفرع عنده • يتكون من عدد من الخيام ، وثلاث لوريات وشراذم متفرقة من الجند ، وفيما يلي الخيام اقيمت البنادق اربعا أربعا ، كل مجموعة تتساند رؤوسها وتفترق قواعدها على هيئة هرم ، وقد وقف الحراس كالتماثيل أمام الخيام وتبعثر الاخرون وهم يتراطنون ويتضاحكون ، ورمى الشاب ببصره ناحية النحاسين فرأى معسكرا ثانيا عند تقاطع النحاسين بالصاغة كما رأى في الناحية الاخرى من بين القصرين معسكرا ثالثا عند منعطف الخرنفش ، ابتدره خاطر اهوج لاول وهلة ان هؤلاء الجنود قد جاءوا للقبض عليه ! ••• ولكنه ما لبث ان استسخفه معتذرا عنه بقومته المزعجة من النوم الذي لم يكد يفيق منه ، وبهذا الاحساس بالمطاردة الذي لم يفارقه مذ شبت الثورة ، ثم وضحت له الحقيقة رويدا ، وهي ان الحي الذي اتعب السلطة المحتلة بمظاهراته المتواصلة قد احتل احتلالا عسكريا• لبث ينظر خلال الخصاص متفحصا للجنود والخيام والبنادق واللوريات وقلبه يخفق في رهبة وحزن وحنق ، حتى تحول عن النافذة شاحب اللون وهو يتمتم مخاطبا أمه :

ـ انهم الانجليز كما تقولين ، جاءوا للارهاب ومنع المظاهرات في منابتها •••

وجعل يقطع الحجرة ذهابا وايابا وهو يقول في سره حانقا « هيهات ••• هيهات » حتى سمع امه تقول :

ـ سأوقظ والدك لاخبره بالامر •••

قالتها المرأة كآخر ما عندها من حيلة ، كأن السيد ـ الذي يحل لها جميع مشكلات حياتها ـ كفيل ايضا بأن يجد حلا لهذا المشكل يبلغ به بر الامان ، ولكن الشاب قال لها بأسى :

ـ دعيه حتى يستيقظ في وقته •••

فتساءلت المرأة في رهبة :

ـ ماذا نفعل يا بني وهم مرابطون امام مدخل بيتنا ؟ •••

فهز فهمي رأسه في حيرة قائلا :

ــ ماذا تفعل ؟! ••• ــ ثم بلهجة اكثر ثقة ــ لا داعــي للخــوف ، ليس الا انهم يرهبون المتظاهرين ••

قالت وهي تزدرد ريقا جافا :

ــ أخاف ان يعتدوا على الآمنين في بيوتهم •••

ففكر قليلا في قولها ثم تمتم :

ــ كلا ••• لو كان الاعتداء على البيوت مقصدهم ما وقفوا ساكنين حتى الان •••

لم يكن مطمئنا الى قوله كل الاطمئنان ولكنه وجده أوفق ما يقال ، وعادت أمه تسائله :

ــ وحتى متى يقيمون بيننا ؟!

بطرف شارد أجابها :

ــ من يدري ؟! ••• انهم ناصبون الخيام فلن يرحلوا سريعا ••

تنبه الى انها تسأله كما لو كان قائد القوات العسكرية فنظر اليها في عطف وهو يداري بسمة ساخرة فرجت ما بين شفتيه المتقعتين ، وفكــر لحظة في مداعبتها ولكن كآبة الموقف صدت نفسه ، فعاوده الجد كمــا يقع له احيانا اذا روى ياسين له « نادرة » من نوادر والده تدعوه بطبيعتها الى الضحك ولكن يصده عنه القلق الذي يعتريه كلما اطلع على جانــب من شخصية ابيه الخفية ، وسمعا وقع اقدام تهرول نحوهما ، ثم اقتحــم الحجرة ياسين تتبعه زينب على الاثر ، وصاح الشاب الذي بدا منتفــخ العينين مشعث الشعــر :

ــ أرأيتم الانجليز ••• ؟

وهتفت زينب :

ــ انا التي سمعتهم ثم أطللت من النافذة فرأيتهم وايقظت سي ياسين•

وواصل ياسين الحديث قائلا :

ــ لقد نقرت على باب والدي حتى استيقظ واخبرته ولمــا رآهــم بنفسه امر بألا يغادر البيت احد والا يرفع مزلاج البيت ، ولكن ماذا هم فاعلون ؟ ••• وما عسى ان نصنع ؟ ••• الا توجد في البلــد حكومــة تحمينــا ؟ •••

فقال له فهمي :
ــ لا اظنهم يتعرضون لغير المتظاهرين ...
ــ ولكن حتى متى نظل محبوسين في بيوتنا ؟! ... ان البيوت ملأى بالنساء والاطفال فكيف يعسكرون تحتها ؟
فغمغم فهمي في ضيق :
ــ سيجري علينا ما يجري على غيرنا فلنصبر ولننتظر ...
وهتفت زينب في عصبية ظاهرة :
ــ لم نعد نسمع او نرى الا الرعب والحزن ، ربنا على اولادالحرام.
عند ذاك فتح كمال عينيه فرددهما دهشا في المجتمعين في حجرته على غير انتظار ، ثم جلس في فراشه وتطلع الى أمه بعينين متسائلتين فاقتربت من فراشه وربتت بيدها الباردة على رأسه الكبير ثم قرأت بصوت مهموس وعقل شارد الفاتحة ، فسألها الغلام :
ــ ماذا جاء بكم الى هنا ؟
رأت ان تبلغه الخبر في احسن صورة ممكنة فقالت برقة :
ــ لن تذهب اليوم الى المدرسة ..
فتساءل بابتهاج :
ــ بسبب المظاهرات ؟
فقال فهمي في شيء من الحدة :
ــ الانجليز يسدون الطريق !
شعر كمال بأنه أدرك سر تجمعهم فقلب عينيه في الوجوه مذهولا ، ثم وثب الى النافذة ونظر من خصاصها طويلا ثم عاد وهو يقول باضطراب:
ــ البنادق أربع أربع ...
ونظر الى فهمي كالمستغيث وتمتم في خوف :
ــ سيقتلونــا .. ؟
ــ لن يقتلوا أحدا ، جاءوا لمطاردة المتظاهرين ...
ومضت فترة صمت قصيرة واذا بالغلام يقول وكأنه يخاطب نفسه :
ــ ما اجمل وجوههم ...
فسأله فهمي ســاخرا :

ـ هل أعجبوك حقا ؟ ..
فقال كمال بسذاجة :
ـ جدا ، كنت اتخيلهم كالشياطين ...
فقال فهمي بمرارة :
ـ من يدري ، لعلك لو رأيت الشياطين اعجبك منظرهم .. !

لم يرفع مزلاج الباب في ذلك اليوم ، ولم تفتح نافذة من النوافذ المطلة على الطريق ولو لتغيير الهواء وادخال الشمس ، ولاول مرة تبسط السيد أحمد في الحديث على مائدة الافطار فقال بلهجة العليم الخبير ان الانجليز يتشددون في منع المظاهرات وانهم لهذا احتلوا الاحياء التي تكثر بها المظاهرات وأنه رأى ان يمكثوا يومهم في البيت حتى تتضح الامور ، استطاع الرجل ان يتكلم بثقة وان يحافظ على مظهره المعهود من الجلال والا يدع منفذا لاحد يتسرب منه الى القلق الذي تفشى في باطنه مذ هب من فراشه على نقر ياسين ، ولاول مرة كذلك جسر فهمي على مناقشة رأي أبيه فقال بأدب :

ـ ولكن يا والدي قد تظنني المدرسة اذا مكثت في البيت من المضربين !

لم يكن السيد يعلم شيئا طبعا عن اشتراك ابنه في المظاهرات فقال :

ـ للضرورة أحكام . أخوك موظف وموقفه أدق من موقفك ولكن العذر واضح ...

لم تواته شجاعته على مراجعة أبيه خشية ان يغضبه من ناحية ، ولانه من ناحية اخرى ـ وجد في أمره بمنع مغادرة البيت عذرا يبرر به امام ضميره امتناعه عن الخروج الى الطريق المحتل بالجنود المتعطشين الى دماء امثاله من الطلبة . انفضت المائدة فأوى السيد الى حجرته ، وما لبثت الام وزينب ان اشتغلتا بواجباتهما اليومية ، ولما كان اليوم مشمسا ، وهو يوم من ايام مارس الاخيرة التي تكتز في اعطافها نسائم دافئة من انفاس الربيع فقد صعد الاخوة الثلاثة الى السطح وجلسوا تحت عرش اللبلاب والياسمين . ووجد كمال في خص الدجاج تسلية وأي تسلية فانتقل اليها، وراح يبذر للدجاج الحب ويطاردها مسرورا بدجدجتها ويلتقط ما يعثر

عليه من البيض في حين راح الاخوان يتحدثان بالانباء المثيرة التي تتناقلها الالسنة عن الثورة المستعرة في جنبات الوادي من اقصى شماله الى أقصى جنوبه . تكلم فهمي عما يعلم من قطع السكك الحديد والتلغرافات والتليفونات وقيام المظاهرات في شتى المديريات والمعارك التي تنشب بين الانجليز والثوار والمذابح والشهداء والجنازات الوطنية التي تشيع فيها النعوش بالعشرات والعاصمة المضربة طلبتها وعمالها ومحاموها والتي لم يعد بها من وسيلة للمواصلات الا العربات الكارو ، ثم قال الشاب بحرارة :

ــ هذه هي الثورة حقا ؟ ... فليقتلوا ما شاءت لهم وحشيتهم فلن يزيدنا الموت الا حياة ...

فقال ياسين وهو يهز رأسه عجبا :

ــ ما كنت اتصور ان في شعبنا هذه الروح المكافحة ...

فقال فهمي وكأنه نسي كيف اشفى على اليأس قبيل شبوب الثورة حتى فاجأته بزلزالها وبهرته بنورها :

ــ بل انه ممتلىء بروح الكفاح الخالد التي تشتعل في جسده الممتد من اسوان الى البحر الابيض ، استثارها الانجليز حتى ثارت ولن تخمد الى الابد ...

فقال ياسين وعلى شفتيه ابتسامة :

ــ حتى النساء خرجن في مظاهرة ...

فتمثل فهمي بأبيات من قصيدة حافظ في مظاهرة السيدات :

خرج الغواني يحتجـ ـن ورحت أرقب جمعهنه
فاذا بهن تخذن من سود الثياب شعارهنه
فطلعن مثل كواكب يسطعن في وسط الدجنه
وأخذن يجتزن الطريق ودار سعد قصدهنه

فاهتزت نفس ياسين وقال ضاحكا :

ــ ما كان اجدرني انا بحفظها ...

وفكر فهمي في خاطر طارىء ثم تساءل بحزن :

ــ ترى اترامت انباء ثورتنا الى سعد في منفاه ؟ .. أعلم الشيخ

الكبير بان تضحيته لم تذهب هباء ام تراه غارقا في يأس المنفى ؟ ...

★ ★

لبثوا على السطح حتى الضحى ، وراق للاخوين ان يراقبا المعسكر البريطاني الصغير ، فرأيا نفرا من الجنود قد اقاموا مطبخا وراحوا يعدون الغداء ، وتفرق كثيرون ما بين مدخل درب قرمز والنحاسين وبين القصرين في خلاء من المارة ، وبين حين وآخر كان يتجمع كثيرون في طابور على نداء النفير ثم يأخذون بنادقهم ويركبون احد اللوريات الذي ينطلق بهم صوب بيت القاضي مما دل على قيام مظاهرات في الاحياء القريبة ، وكان فهمي يراقب تجمعهم وذهابهم بقلب خافق وخال متقد ...

واخيرا غادر الاخوان السطح تاركين كمال يلهو كيف شاء وحده ، وأويا الى حجرة المذاكرة ، فأقبل فهمي على كتبه يراجع ما فاته في الايام المنقضية ، وتناول ياسين ديوان الحماسة و « غادة كربلاء » وخرج الى الصالة يستعين بهما على قتل الوقت الذي توافر وراء جدران سجنه كما يتوافر الماء وراء السدود كانت الروايات ــ بوليسية وغيرها ــ اشد استحواذا على قلبه من الشعر ، ولكنه أحب الشعر كذلك ، وعرفه من أيسر سبله ، يفهم ما يسهل فهمه ، ويقنع من الصعب بموسيقاه ، فندر ان يلجأ الى الهامش المشحون بالشروح ، وربما حفظ البيت وترنم به وهو لا يفقه من معناه الا أقله ، أو يتصور له معنى لا يمت الى حقيقته بسبب ، أو لا يدرك له معنى على الاطلاق ، ولكن رغم هذا كله رسب في عقله من صوره وألفاظه ما يعد ثروة يتيه بها مثله حتى دأب على استغلالها لمناسبة ولغير مناسبة وهو الاكثر ، فاذا عرض له يوما ان يكتب رسالة تهيأ لها تهيؤ الكتاب وأقحم عليها من الالفاظ الرنانة ما يعلق بحافظته ، وضمنها ما فتح الله به عليه من مأثور الشعر حتى عرف بين معارفه بالبلاغة ، لا لانه كان بليغا حقا ، ولكن لقصورهم عن مجاراته وارتياعهم حيال غريب محفوظاته . قبل اليوم لم يعهد مثل هذا الفراغ الطويل الذي قضى عليه بأن يكابده ساعة فساعة محروما من اسباب الحركة والتسلية ، وربما كانت القراءة خليقة بأن تسعفه على تحمله لو كان به صبر عليها ، ولكنه اعتاد ان يلم بها في رفق وفي الاوقات القصيرة التي تسبق خروجه الى

سهرته اليومية دون غيرها ، وحتى في تلك الاوقات لم يكن يجد بأسا في ان يقطع القراءة بالمشاركة في احاديث مجلس القهوة ، او يطالع قليلا ثـم يدعو كمال ليروي له ما قرأ مستلذا باقبال الغلام على الاصغـاء بـذاك الشغف المأثور عن الاطفال والغلمان . اذن لم يكن الشعر ولا الرواية بالتي تستطيع ان تؤنس وحشته يوما كيومه هذا . وقد قرأ ابياتا من الشعـر وفصولا من غادة كربلاء ، ومضى يتجرع الملل قطرة فقطرة ، لاعنا الانجليز من اعماق قلبه ، ضجرا برما ضيق الصدر ، حتى حان وقت الغداء ،جمعتهم المائدة مرة اخرى ، وقدمت لهم الام حساء ودجاجات محمرة وأرزا وأتمت اطباقها ـ التي حرمت من الخضر بسبب الحصار المضروب حول البيت ـ بجبن وزيتون ومش ، واحضرت عسلا اسود بدلا من الحلوى ، ولكن لم يأكل بشهوة الا كمال اما السيد والاخوان فلم يسعدوا بقابلية قويـة للطعام لقبوعهم يومهم بلا عمل ولا حركة ، بيد ان الطعام هيأ لهم فرصة للهروب من الفراغ بالنوم وعلى الخصوص السيد وياسين اللذين كـان يسعهما الظفر بالنوم وقتما شاءا وكيفما أحبا . وغادر ياسين فراشه قبيل المغرب فنزل الى الدور التحتاني لشهود جلسة القهوة ولكنها كانت جلسة قصيرة اذ أن الام لم يسعها أن تترك السيد وحده طويلا فودعتهم وطلعت اليه ، ولبث ياسين وزينب وفهمي وكمال يتسامرون في جو يغلب عليـه الفتور حتى استأذن فهمي ومضى الى حجرة المذاكرة ثم دعا اليه كمـال فغودر الزوجان منفردين . « ما عسى ان أصنع من الان الى ما بعـد منتصف الليل ؟ » .. أزعجه هذا السؤال الذي الح عليه طويلا ، وبدا له اليوم كئيبا ذميما منتزعا بالقوة الغشوم من مجرى الزمان الذي يتدفق في الخارج حافلا بالمسرات كما ينتزع الغصن من الشجرة فيستحيل حطبا . لولا الحصار العسكري لكان الان بمجلسه المحبوب بقهوة احمد عبده ، يحسو الشاي الاخضر ، ويسامر معارفه من روادها ويمتع النفس بجوها العتيق الذي يستهوي شعوره بقدمه ويستأثر خياله بحجراته المطمـورة تحت انقاض التاريخ ، قهوة احمد عبده احب المقاهي الى قلبـه ، ولـولا الغرض ـ والغرض مرض كما يقولون ـ ما اختار غيرها ، ولكنه الغرض الذي جذبه فيما مضى الى الكلوب المصري لقربه من مقام بائعة الدوم وهو

نفسه الذي أغراه بالانتقال بعد ذلك الى قهوة سي علي بالغورية لوقوعها أمام بيت زنوبة العوادة • فهو يبدل المقاهي تبعا لغرضه ، بل أنه يبدل من تعرض له صداقتهم فيها تبعا له ، ففيما وراء الغرض لا مقهى ولا اصدقاء له ، أين الكلوب المصري واصحابه ؟ ••• اين قهوة سي علي ومعارفها ؟•• من حياته ذهبوا ، ولعله لو صادفه أحدهم تجاهله او تهرب منه ، والدور الان على قهوة احمد عبده وسمارها ، والله وحده يعلم ما يخبئه الغد من مقاهي واصدقاء • على انه لم يكن يمكث بقهوة احمد عبده طويلا فسرعان ما يسترق الخطى الى بقالة كوستاكي او بالاحرى الى حانته السرية ليحظى بالقارورة الحمراء او « العادة » كما يحلو له ان يدعوها ••• أين منه « العادة » هذا المساء الكالح ؟! •• وسرت في بدنه لتذكر حانة كوستاكي رعدة شهوة ، ثم ما لبث ان لاحت في عينيه نظرة سأم عميقة وتململ تململ السجين • بدا البقاء في البيت حسرة طويلة زاد من حدةألمها ما طاف بمخيلته من صور الهناء وذكريات النشوة المقترنة بالحانة والقارورة ،فعذبته الاحلام وضاعفت من وجده ، وقد جرت حنينه الملهوف على موسيقى الخمر الباطنية ولعبها بالرأس ذلك اللعب المدغدغ الحار السار السائل بهجة وافراحا ، فلم يدرك قبل ذاك المساء انه أعجز من ان يصبر على هجر الشراب يوما واحدا ولم يحزن لما بدا له من ضعفه وعبوديته ، ولا لام نفسه على اسرافها الذي جر عليه التعاسة لأهون الاسباب ، كان أبعد ما يكون عن لوم نفسه او السخط عليها ، ولم يذكر من بواعث ألمه الا الحصار الذي شده الانجليز حول البيت ، وانه يحترق ظمأ ومورد النشوات غير بعيد • ثم لاحت منه التفاتة الى زينب فوجدها تتفرس في وجهه بنظرة كأنما تقول له حانقة « مالك شاردا ، مالك واجما ، أليس لوجودي أي اثر في التسرية عنك ! » ••• ادرك معناها كله في لحظة خاطفة التقت فيها عيناهما ، ولكنه لم يستجب لعتابها الحانق الحزين ، وبالعكس لعله احنقه واثار ثائرته ، أجل لم يحقد على شيء كما حقد على اضطراره للبقاء معها طوال الليل ، بلا رغبة ، ولا مسرة ، وحتى محروما من النشوة التي يستعين بها على تحمل حياته الزوجية • جعل يسترق اليها النظر ويتساءل في غرابة أليست هي هي ! ••• أليست هي التي خلبت لبي ليلة الزفاف ؟! ••• أليست هي

التي شغفتني هياما ليالي واسابيع ؟! ••• فمالها لا تحرك في ساكنا ! •••
أي شيء طرأ عليها ! • مالي اتململ برما وسأما فلا اجد من حسنها وأدبها
ما يغريني عن سكرة تأجلت ! ومال – كما فعل مرات من قبل – الى رميها
بالنقص فيما برعت فيه زنوبة ومثيلاتها من ضروب الخدمة والشطارة ،
والحق أن زينب كانت اولى تجاربه في المعاشرة الدائمة ، فلم تطل به
معاشرة العوادة ولا بائعة الدوم ، ولم يكن تعلقه باحداهما يمانعه من التنقل
اذا سنحت دواعيه وقد ذكر لحظات حيرته هذه وافكاره عنها بعد كرور
اعوام طوال فعرف من نفسه ومن الحياة عامة ما لم يجر له في خاطر •وأنتبه
على تساؤلها :

– لعلك غير مرتاح الى البقاء في البيت ••• ؟

لم يكن على حال يطيق معها حتى العتاب فوقع تساؤلها التهكمي من
نفسه موقع الضربة الطائشة من الدمل فاندفع قائلا بصراحة مؤلمة واصرار:

– بلى •••

ومع انها تحامت النقار من باديء الامر الا ان لهجته آذتها اشد ايذاء
فقالت بحدة :

– لا ذنب له في هذا ، أليس عجيبا ألا تطبق التخلف عن سهرتك
ولو ليلة واحدة •••

فقال متسخطا :

– دليني على شيء واحد يجعل البيت محتملا •••

فقامت غاضبة وهي تقول في نبرات منذرة بالبكاء :

– سأخلي لك المكان لعله يطيب لك •• !

ولت كالهاربة وهو يتبعها بصرا جامدا ، ثم قال لنفسه « يا لها من
حمقاء لا تدري ان القدرة الالهية وحدها هي التي تبقى عليها في بيتي »•
ومع أن الشجار نفس عن حنقه قليلا الا انه كان يفضل الا يقع حتى لا
يضاعف من كآبة فراغه ، ولم يكن يعجز عن استرضائها لو أراده ولكن
عقله الفتور الذي ران على مشاعره جميعا ، غير انه لم تمض دقائق حتى
شمله هدوء نسبي فرن صدى عباراته القاسية التي وجهها اليها في أذنيه
فأقر بقسوتها ، وبأنه لم يكن ثمة ما يدعو اليها ، وداخله شبه ندم ، لا

لعثوره فجأة على ثمالة حب لها في زوايا قلبه ولكن لحرصه على الا يشـذ في معاملتها عن حد الادب ـ ربما اكراما لابيها او خوفا من ابيه ، حتى في فترة الانتقال العصبية التي أخذ على نفسه فيها اخضاعها لسياسته بالصلابة بالحزم . وآعتذر عن اسرافه بالغضب ،ولم يكن الغضب بالانفعال المستغرب في هذه الاسرة ، فما يركبهم الحلم الا حين قيام الاب بينهم مستأثرا لنفسه من دونهم بكافة حقوق الغضب .

بيد ان غضبهم كالبرق سريع الاشتعال سريع الانطفاء ثم يردون الى الوان من الاسف والندم . الى هذا كله خص ياسين بالمكابرة فلم يدفعه اسفه الى مصالحة زوجه بل قال لنفسه « هي التي استثارت غضبي ...الم يكن بوسعها ان تخاطبني بلهجة ارق ! » ... انه يحب لها دائما ان تتحلى بالصبر والحلم والعفو كيما ينطلق على هواه مطمئنا الى خطوطه الخلفية . اشتد ضيقه بسجنه بعد اغضابها وانسحابها فغادر المكان الى السطـح . وجد الجو لطيفا والليل ساجيا والظلمة شاملة الا انها كثيفة تحت عـرش اللبلاب والياسمين ، رقيقة في نصف السطح الاخر المسقوف بقبة السماء المرصعة بلآلىء النجوم . وراح يقطع السطح ذهابا وجيئة ما بين السـور المطل على بيت مريم ونهاية حديقة اللبلاب المشرفة على قلاوون ، مستسلما لخيالات شتى وفيما هو يسير الهوينا عند مدخل السقيفة تسلل الى أذنيه حفيف ، أو لعله همس ، بل انفاس تتردد بين لحظة واخرى فحملق فـي الظلام متعجبا وهتف متسائلا :

ـ من هنا ... ؟

فجاءه صوت يعرفه حق المعرفة وهو يقول في نبرات نحاسية :

ـ انا نور يا سيدي ...

تذكر من توه ان نور جارية زوجه تأوى ليلا الى حجرة خشبيةلصق خص الدجاج نحوي بعض الكراكيب ، نظر صوب السطح حتى ميزشبحها القائم على بعد خطوة منه كأنه قطعة من الليل تكاثفت وتجمدت ، ثمتراءى له بياض عينيها الناصع كدائرتين مرسومتين بالطباشير على صورة حالكة السواد ، واصل سيره دون ان ينبس وصورتها ترتسم في مخيلته بطريقة تلقائية ، سوداء في الاربعين متينة البنيان ، غليظة الاطراف ، ناهضة الصدر

عبلة الارداف ، ذات وجه لامع ، وعينين براقتين • وشفتين ممتلئتين •فيها قوة وخشونة وغرابة ، أو هكذا بدت له مذ طرأت على بيته • وفجأة ،وعلى حين غرة ، تفجرت في صدره نية الاعتداء كما تنفجر بعض المفرقعات بلا سابق انذار ، ولكن قوية مسيطرة كأنما تركز فيها هدف حياته ، فملكته كما ملكته على عتبة باب الفناء حيال ام حنفي ليلة زفاف عائشة ، انبعثت في وجدانه الخامدة حياة فوارة ، وانتشر القلق في دمه حتى تكهرب ، وحل محل الملل والسأم اهتمام حار ثائر جنوني ، كل اولئك في لمح البصر •ودب النشاط في مشيته وفكره وخياله ، وكف وهو لا يدري عن قطع السطح من اوله الى اخره مقصرا خط ذهابه وايابه الى الثلثين ثم الى النصف ، وكلما مر بها اضطرب جسمه برغبة عارمة ، جارية سوداء •• ؟ خادم ؟ ••• وان كانت ، له سوابق غير منكورة ، ليس حتما ان تقع بغيته على طراز زنوبة ، ميزة حسن واحدة تغني كما أغنت عينا بائعة الدوم المكحولتان بحارة الوطاويط اللتان شفعتا لنتن ابطيها وتلبد الطين على ساقيها • بل الدمامة نفسها ـ ما دامت قد ركبت على امرأة ـ اعتذار مقبول عند شهوته العمياء كما تطلع اليها عند ام حنفي او عند ضاربة رمل عوراء خلا بها وراء بوابة النصر ، نور على اية حال ذات جسم مكتنز صلب يوحي ـ لا شك ـ ملمسه بالفتوة والصراع ، الى أنها جارية سوداء تعد بطرافة في الوصال وجدة في التجربة وتحقيق للمأثور عن بنات جنسها من بعث الحرارة والدفء وبدا الجو من حوله مهيئا آمنا مظلما فاستحرت رغبته وتوثبت اعصابه واسترسل قلبه في دقات متتابعة فرمى بنظرة ثاقبة موضعها ومال في سيره اليها بحيث « يتفق » له أن يحتك بها على نحو ما حين مروره بها مؤجلا الجهر برغبته حتى يتاح له جس النبض في جو من الحذر ان تكون ـ كأم حنفي ـ بلهاء فتتجاوب اركان البيت بفضيحة جديدة ، تقدم في خطوات وئيدة محملقا صوبها ، يود بكل ما اضطرم في صدره من شهوة لو تنفذ كلمات عينيه ـ رغم الظلمة الفاشية ـ الى نفسها ، حتى اقترب منها فاختلطت دقات قلبه ، ثم حاذاها فمس كوعه اعلى جسمها ولكنه واصل سيره كأن ما وقع قد وقع عفوا ، غير ان رعدة سرت في بدنه عند لمس الموضع الذي لم يتحقق من هويته في الغيبوبة التي تاه فيها عالمه فلم يبق

منه عند الافاقة النسبية في نهاية السطح الا مس طري غزير الحنان وما ند عن صاحبته من تراجع بريء ايد ما رجحه من عدم ارتيابها في امره فاستدار مصمما على اعادة الكرة . اعاد نحوها ثانية ذراعه حتى مس كوعه احدى ثدييها ـ لم يخطئه احساسه هذه المرة ـ ثم لم يسحبه كما كان ينتظر من شخص يدعي أنه ضل السبيل ، بل تركه يصافح الثدي الاخرى مصافحة رقيقة لا تبالي دفع الريب ، ومضى وهو يقول لنفسه ستدرك غايتي بلا شك ، بل لعلها ادركتها فند عنها ما يوحي بانها آرادت انتتنحي جانبا ولكنها ابطأت ، أو بوغتت فذهلت ، على اي حال لم تتقيني باليد ، ولم تحرك ساكنا . فلن تصرخ فجأة كما فعلت بنت المركوب ، لنجرب مرة ثالثة . عاد هذه المرة متعجلا جزعا ، فتثاقل حيالها ، ثم مد كوعه الى الصدر الناهض كقربة صغيرة منتفخة ، ثم حرك ذراعه حركة ناطقة بالتردد والريبة معا ، وهم بمواصلة السير مدفوعا برغبة في الفرار لولا ان وجد منها استسلاما او بلادة اغرقت ثمالة وعيه في تيار من الجنون فتوقف متسائلا بصوت خرج من بخار الشهوة منصهرا متهدجا :

ـ أهذه أنت يا نور ... ؟!

فقالت الجارية وهي تتقهقر وهو يتبعها كيلا تفلت منه حتى التصق ظهرها بالحائط واوشك هو ان يلتصق بها :

ـ نعم يا سيدي ..

أراد ان يقول أي كلام يعن له حتى يتمكن من الجهر بما يضطرب في أعماقه كالملاكم الذي يلوح بقبضته في الهواء متحينا الفرصة ليضرب ضربته القاضية فسألها وأنفاسه تترامى على جبينها :

ـ لِمَ لم تذهبي الى حجرتك .. ؟

فقالت الجارية التي تعثرت في نطاق حصاره :

ـ كنت اشم الهواء قليلا ...

وكأنما غلب النهم تردده فمد راحته الى خاصرتها ثم جذبها برفق الى صدره وهي تبدي ممانعة تحول بينه وبين ما يريد ، ثم همس في أذنها وهو يلصق خده بخدها :

ـ هلمي الى الحجرة ...

فتمتمت في ارتباك :

ــ عيب يا سيدي •••

رنت نبراتها النحاسية في الصمت رنينا ازعجه ، لم تكن تعمدت أن ترفع صوتها ولكنها ــ فيما بدا ــ لا يتأتى لها الهمس او أن من طبع همسها الرنين ولو في أخفض درجاته ، على انه سرعان ما زايله الانزعاج لتوقد شهوته من ناحية ولخلو لهجتها من الاحتجاج الذي يستوحيه مدلول عبارتها ، فجذبها بيده وهو يغمغم :

ــ تعالي يا حلوة •••

فسلست ليده ، ربما عن رضى وربما عن طاعة ، وهو يغمر خدها وصفحة عنقها بقبلاته مترنحا من شدة الانفعال ، وفي نشوة السرور جعل يقول :

ــ ماذا غيبك عني طول هذه الاشهر !

فأجابته بلهجتها العادية الخالية من أي احتجاج :

ــ عيب يا سيدي •••

فقال وهو يبتسم :

ــ ما أرق ممانعتك ، زيديني منها •••

ولكنها ابدت شيئا من المقاومة عند مدخل الحجرة قائلة :

ــ عيب يا سيدي ••• (ثم كالمحذرة) ••• الحجرة ملأى بالبق ••

فدفعها وهو يهمس في قفاها :

ــ أنام على العقارب من أجلك يا نور •••

جارية ، هكذا بدت بأدق ما تحمل هذه الكلمة من معان ، وقفت مستسلمة بين يديه في الظلام فوضع شفتيه على شفتيها وقبلها بحرقة وتشوق وهي ساكنة مستسلمة كأنها تشاهد منظرا لا دور لها فيه حتى قال لها بانفعال « قبليني » ثم أعاد لصق شفتيه بشفتيها وقبل فقبلته ! ثم طلب اليها ان تجلس فرددت قولها « عيب يا سيدي » الذي بدا مضحكا من ابتذاله على وتيرة واحدة فأجلسها بنفسه فاستجابت بلا ممانعة ، وما لبث أن وجد لذة جديدة في ترددها بين السلبية والاذعان فجد في طلب المزيد منه وتتابعت الممانعة اللفظية والاذعان الفعلي فنسي الزمن • ثم خيل اليه

ان الظلام من حوله يتحرك او ان مخلوقات غريبة فيطياته تتراقص ، ربما الجهد أصابه من طول ما لبث ان كان طال لبثه فانه على وجه اليقين لا يدري كم لبث ، او لعلها التيارات المتوقدة المتلاطمة في رأسه تولد من ارتطامها في بصره أنوار وهمية ، ولكن مهلا ، ان جدران الحجرة تتماوج ناضحة بضوء خافت ذابت فيه الظلمة الداجنة ذوبانا يهتك الاسرار ، ورفع رأسه محملقا فرأى نورا خافتا يتسلل من شقوق الجدار الخشبي مقتحما عليه خلوته ، ثم ارتفع صوت زوجه في الخارج وهي تنادي الجاريةقائلة:

ــ نمت يا نور ؟! ... نور ... ألم ترى سي ياسين ؟

فانتفض قلبه فزعا ووثب قائما واندفع على عجل ولهفة يتخطف ثيابه ويرتديها وهو يتفحص الحجرة ببصر زائغ لعله يجد مخبأ بين كراكيبها ، ولكن نظرة واحدة آيسته من الاختفاء على حين صك أذنيه وقع شبشب يقترب فلم تتمالك الجارية من أن تقول بصوت باك :

ــ انت السبب يا سيدي ، ماذا أفعل الان .. ؟!

فلكزها في كتفها بقسوة حتى امسكت ، وحدق في الباب بفزع ويأس وهو يتقهقر ــ بدافع لا شعوري ــ الى الركن البعيد عن المدخل حتى التصق بالجدار ، وتجمد في موقفه يترقب . تتابع النداء ولا مجيب ، ثم انفتح الباب ولاحت ذراع زينب يتقدمها مصباح وهي تهتف :

ــ نور ... نور ..

فلم يسع الجارية الا ان تخرج من صمتها مغمغمة بصوت شاحب حزين :

ــ نعم يا ستي ...

فقالت زينب بصوت ينم عن الحنق والتعنيف :

ــ ما اسرع ان تنامي يا شيخة ! ... ألم ترى سي ياسين ؟ ... سيدي الكبير ارسل في طلبه فبحثت عنه في الدور التحتاني والفناء وها انا لا اجده فوق السطح ، هل رأيته ... ؟

وما أتمت كلامها حتى كان رأسها قد برز داخل الحجرة وهو يطل على الجارية المرتبكة في جلستها باستغراب ، ثم بحركة غريزية التفتت الى يمينها فوقع بصرها على زوجها الملتصق بالحائط بجسم ضخم كأنما ترهل

وتخاذل من الخزي والهوان ، التقت عيناهما لحظة قبل ان يغض بصـره ، ومرت لحظة اخرى في صمت قاتل ، ثم ندت عن الفتاة صرخة كالعـواء وتراجعت وهي تهتف ضاربة صدرها بيسراها :

ـ يا فضيحتك السوداء .. أنت !.. انت !

وجعلت ترتجف كما بدا من ارتجاف المصباح بيدها وارتعاش ضوئه المنعكس على الجدار المواجه للباب ثم ولت هاربة وعويلها يمزق الصمت. قال ياسين لنفسه وهو يزدرد ريقه « أنفضحت وما كان كان » ولبـث بموقفه ذاهلا عما حوله حتى انتبه الى نفسه فغادر الحجرة الى السطـح دون ان يخطر له ان يتجاوزه . لم يدر ماذا يصنع ولا الى اي مدى تذاع الفضيحة . اتنحصر في شقته ام تنتقل الى الشقة الاخرى ؟ ... ثم راح يوبخ نفسه على ذهوله وضعفه اللذين منعاه من ان يلحق بها كي يحصر الفضيحة في أضيق حدود ، ثم تساءل وهو في اشد حالات الضيق كيف يتلقى هذه الفضيحة ؟ ... هل يسعفه الحزم هنا أيضا ؟ ... ربما لو لـم يتسرب نبأها الى أبيه . وسمع حركة آتية من ناحية الحجرة المشؤومـة فالتفت نحوها فرأى شبح الجارية يغادرها وبيده لفة كبيرة ، ثم هرولـت نحو باب السطح ومرقت منه ، هز كتفيه استهانة ، وفيما هو يتحسـس صدره بيده أدرك انه نسي ان يرتدي الفانلة فعاد الى الحجرة مسرعا ..

* *

في الصباح الباكر طرق الباب ، وكان الطارق شيخ الحارة ، فقابـل السيد احمد واخبره بانه مكلف من لدن السلطات بابلاغ سكان الاحيـاء المحتلة بان الانجليز لن يتعرضوا الا للمتظاهرين وان عليه ان يفتح دكانه، وعلى التلميذ ان يذهب الى مدرسته والموظف الى وظيفته ،وحذره من حجز التلاميذ ان يظنوا من المضربين لافتا نظره الى الاوامر المشـددة بمنـع لمظاهرات والاضراب ، بذلك استرد البيت نشاطه الذي يستقبل به الصباح، وتنفس رجاله الصعداء لاطلاق سراحهم بعد حبس البارحة ، واستروحت النفوس شيئا من الطمأنينة والسلام . قال ياسين لنفسه تعقيبا على زورة شيخ الحارة : « الاحوال خارج البيت تتحسن اما داخله فهي طين ووحل » أجل قضت اكثرية اهل البيت ليلة نكراء احاطت بها الفضيحـة ومـزق

اوصالها النكد ، زينب ، لم يستطع الصبر الذي تغلق به صدرها على حزنها وتذمرها ان يصمد للمنظر المروع الذي رأته عيناها في حجرة جاريتها فتفجر صدرها قاذفا بشواظه كل سبيل ، تعمدت تعمداً ان يقرع عويلها آذان السيد فجاءها مهرولا متسائلا ••• وكانت الفضيحة • قصت عليه كل شيء متشجعة بانفعالها الجنوني الذي لعلها لولاه ما واتتها شجاعتها على مواجهته بما قصت لما باتت نجد نحوه من تهيب لم تجد مثله حيال احد من الناس • انتقمت بذلك لكرامتها الذبيحة ، وللصبر الطويل الذي تجرعته حينا مختارة وحملت عليه في اكثر الاحايين : « جارية ! خادمة ! في سن أمه! وفي بيتي ! ماذا عساه يفعل في الخارج اذن ؟ » لم تكن تبكي غيرة ، او لعل الغيرة توارت الى حين وراء حجب كثيفة من التقزز والغضب كما تتوارى النار وراء سحب الدخان ، وكأنما غدت تؤثر الموت على ان تبقى معه تحت سقف واحد ولو يوما واحدا بعد ما كان ، أجل هجرت مخدعها فقضت الليل في حجرة الاستقبال ، يقظى أكثره تهذي هذيان المحمومين ونائمة اقله نوما ثقيلا مريضا مزعجا • اصبحت وهي مصممة على هجر البيت • لعل هذا التصميم وحده الذي وجدت فيه مسكنا لاوجاعها • ماذا بوسع حميها نفسه ان يفعل ؟ ••• لن يستطيع ان يمنع المنكر بعد ان وقع ، ولن يسعه مهما يكن جبروته أن ينزل بزوجها العقاب الذي يستحقه حتى يستشفي صدرها ، اقصى ما يراه ان يزجره ، ان يصب عليه غضبه ، وسينصت ــ الفاسق ــ خافض الرأس كي يواصل فيما بعد سيرته الخبيثة هيهات • لقد رجاها السيد ان تدع الامر بين يديه ، ونصحها طويلا بأن تعرض عن زلته مستوصية بصبر الفضليات من مثيلاتها ، ولكنها لم تعد تحتمل الصبر او العفو • جارية سوداء فوق الاربعين ! •• كلا • ستهجره هذه المرة بلا تردد ، ستفضي الى ابيها بثها كله ، وستبقى في كنفه حتى يثوب الى رشده ، فاذا جاءها بعد ذلك نادما ، وغير من سلوكه أو فلتذهب هذه الحياة كلها ــ بخيرها وبشرها ــ الى الشيطان ، أخطأ ياسين حين ظنها قد طوت صدرها على كربها عقلا وحكمة ، الحق انه غلبها الجزع من بادىء الامر فبثت همها الى أمها ، ولكن الام اثبتت انها امرأة حكيمة فلم تدع الشكوى تتسرب الى الاب ، واوصت ابنتها بالصبر قائلة انجميع

الرجال يسهرون ــ كوالدها مثلا ــ وانهم ايضا يشربون ، وإنه حسبها أن بيتها عامر بالخير ، وان زوجها يعود اليها مهما سهر ومهما سكر .
اصغت الفتاة الى النصيحة على مضض ، وجاهدت نفسها ايما اجهادمتجملة بالصبر ولم تأل ان تحمل نفسها على الرضى بالواقع والقناعة من احلامها العريضة بما سمحت به الحقيقة خصوصا وقد دب الجنين في بطنها مبشرا بالامومة المرموقة . ربما كمن التذمر في اعماقها بيد أنها راضت نفسها على التسليم متأسية بأمها تارة وطورا بامرأة سيدها الكبير ، ثم لم يخل الحال من ريبة تختلج في صدرها بين حين وآخر عما يمكن ان يفعل زوجها في سهراته الخمرية ، وحدث أن أفضت الى امها بمخاوفها ، بل لم تخف عنها ما لحق بالرجل من فتور في عواطفه . ولكن الام الحكيمة افهمتها ان ذاك الفتور ليس حتما نتيجة لما يقع في خاطرها ، انه « شيء طبيعي » وان الرجال جميعا لديه سواء ، وانها سوف تقتنع به بنفسها كلما تقدمت بها تجارب العمر .. على انه حتى لو صدقت وساوسها فماذا تراها فاعلة ؟ ... هل ترضى بهجر بيتها لان زوجها يلم بغيرها من النساء؟ ... كلا والف مرة كلا ، لو تخلت كل امرأة عن مكانها لسبب كهذا لاقفرت البيوت من الفضليات ، والرجل قد يطمح طرفه الى امرأة او اخرى ولكنه يعود دائما الى بيته ما دامت زوجه خليقة بأن تبقى عنده المرجع الاخير والمأوى الثابت ، والعاقبة للصابرات . ومضت تذكرها بالمطلقات بلا ذنب واللائي يشركهن في أزواجهن اخريات ، اليس طيش زوجها ــ ان صح ــ خطبا اخف من سلوك اولئك ؟!. ثم انه شاب لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره ، ومصيره ان يعقل فيثوب الى بيته ويشغل بذريته عن الدنيا جميعا ، ومعنى هذا انه ينبغي لها الصبر حتى لو صدقت وساوسها فما بالها والوساوس لم تصدق ؟! رددت المرأة هذا ، وغيره مما يجري مجراه، حتى سلس جماح الفتاة وآمنت بالصبر وراضت نفسها عليه . بيد ان واقعة السطح قضت على كل ما وطنت النفس عليه بضربة قاضية فانهار البنيان جميعا كأن لم يكن ...

ومع ان السيد لم يفطن الى هذه الحقيقة المؤسفة فظن الفتاة قد امتثلت لنصيحته ، الا أن غضبته كانت اشد من ان تمر بسلام ، وقد

احسنت الجارية صنعاً بفرارها ، اما ياسين فلم يبرح السطح ، لبث يفكر منزعجاً في العاصفة التي تتربص به ، حتى ترامى الى اذنيه صوت أبيه وهو يناديه بنبرات كفرقعة السياط فدق قلبه ، لكنه لم يجب ولم يستجب وتسمر يائساً في مكانه ، وما يدري الا والرجل يقتحم عليه السطح ثم يقف مدمدماً لحظات وهو يتفحص المكان حتى يعثر على شبحه فيتجه اليه ويقف على كثب منه شابكاً ذراعيه على صدره مصوباً نحوه رأساً متصلباً متعجرفاً ، ملتزماً الصمت ومطيله كي يطيل له به العذاب والارهاب ، كأنما اراد بصمته ان يعبر له عما يجد نحوه مما يعيي الالفاظ حمله، او انه اراد ان يرمز به الى ماكان يود ان يؤدبه به من مبرح الركل واللكم فمنعه منه استواؤه رجلاً وزوجاً ، ثم لم يعد يستطيع مع الصمت صبراً فانهال عليه سباً وتعنيفاً وهو ينتفض غضباً وهياجاً « انت تتحداني تحت سمعي وبصري ! ... فلتذهب انت وخزيك الى جهنم .. دنست بيتي يا وغد ، هيهات ان يتطهر هذا البيت ما دمت فيه ... كان لك قبل الزواج عذر واه فأي عذر لك الان ؟! » ... « لو اصاب كلامي حيواناً لادبه ولكنه ينصب على حجر .. ان بيتاً يضمك خليق بأن تستنزل عليه اللعنات » .. نفس عن صدره المستعر بكلمات كالرصاص المنصهر وياسين بين يديه ساكن صامت خافض الرأس كأنه يوشك ان يذوب في الظلام ، حتى اجهد الرجل الزعق فولاه ظهره وغادر المكان وهو يلعنه ويلعن اباه وأمه ، ومضى الى حجرته يفور بالغضب فوراء في ثورة الغضب رأى زلة ياسين جريمة تستحق الابادة ، وفي ثورة الغضب لم يعد يذكر أن ماضيه كله صورة مطولة متكررة من زلة ياسين ، وانه لا يزال دائباً على سلوكه وقد انتصف به العقد الخامس وشب ابناؤه فصار منهم الازواج والزوجات . لا لأنه في ثورة الغضب ينسي حقاً ، ولكن لانه يحل لنفسه ما لا يحل لاحد من ذويه، له أن يفعل ما يشاء وعليهم التزام الحدود التي يريدهم على ان يلتزموها فلعل غضبه على ما في ذنب ياسين من « تحد » لارادته و «استهانة» بوجوده و « تشويه » للصورة التي يحب ان يتصور بها ابناءه ، كان اضعاف غضبه على الذنب نفسه ، على ان غضبه ــ كما هي عادته ــ لم يستمر طويلاً ، ما لبث ان خبا لظاه وخمد توقده فعاوده الهدوء رويدا

ان شاب مظهره ــ مظهره فقط ــ الوجوه والاسى ، عند ذاك امكنه ان ينظر الى « جريمة » ياسين من اكثر من زاوية واحدة ، امكنه ان يتأملها بعقل مستقر فانجلى له قتامها عن مواضع شتى ساخرة تسلى بها عن وحدته الاضطرارية . أول ما ابتدر ذهنه ان يلتمس للمذنب عذرا ، لا حبا في التسامح فانه يكره التسامح في بيته ، ولكن ليتخذ من ذاك العذر المرجى « مبررا » لخروجه عن ارادته ، كأنما يقول لنفسه « ان ابني لم يشق عصا الطاعة .. هيهات ، ولكن عذره كيت وكيت » ... ولكن هل يلتمس له العذر عند شبابه باعتباره عهد طيش ونزق ؟ ... كلا .. ان الشباب عذر عن الذنب وليس عذرا عن خروجه على ارادته والا لجاز لفهمي بل لكمال ان يتماديا في استهانة بتعاليمه ، ليلتمس العذر اذن عند رجولته ، هذه الرجولة التي تحل له ان يستقل بنفسه عن ارادته ولو شيئا ما وتعفيه هو ــ السيد ــ من تحمل مسؤولية فعاله ، كأنما يقول لنفسه : « انه لم يخرج على ارادتي ، هيهات ، ولكنه بلغ السن التي لا يعد فيها ذنبه خروجا على ارادتي » ... وغني عن القول انه يأبى ان يعترف امامه بهذا الحق ولن يعفو عنه ولو تجاسر على المطالبة به ، بل أنه لا يعترف له به فيما بينه وبين نفسه الا في حال الوقوع في معصية تستوجب مبررا للخروج على ارادته ، ولم ينس حتى في تلك الحال ان يذكر نفسه ــ التماسا للمزيد من الطمأنينة ــ بأنه أدبه تأديبا غليظا نادرا قل من يستبيحه من الآباء فقوبل بخضوع كامل قليل من يتحمله من الابناء .. وعرج خاطره الى زينب متفكرا ولكنه لم يجد نحوها اي عطف ، لقد واساها اكرامها لابيها العزيز الحبيب ، ولكنه لا يظن ان الفتاة جديرة بأبيها حقا . ما كان يخلق بزوجة كريمة ان تفضح زوجها ــ مهما تكن الظروف ــ على النحو الذي فضحت به ياسين ! ... لشد ما أعولت ! ... لشد ما صرخت ! ... ماذا كان يصنع هو ــ السيد ــ لو ان امينة فجأته يوما بمثل هذا التصرف ؟! .. ولكن اين هي من أمينة ! ؟ ... ثم كيف قصت عليه ما رأت دون حياء ! ... أف ! أف ! لو لم تكن هذه الفتاة كريمة محمد عفت لحق لياسين ان يؤدبها بل لما رضي هو ان تمر هذه الواقعة دون عقاب زاجر ، لقد أخطأ ياسين ولكنها اخطأت خطأ أكبر . ثم عاد الى ياسين سريعا فراح يفكر ــ بباطن مبتسم ــ في

الطبيعة الواحدة التي تجمع بينهما ،تلك الطبيعة الموروثة عن الجد بلا ريب، ومن يدري لعلها تضطرم الان في صدر فهمي تحت قناع التهذيب والاستقامة ، بل الا يذكر كيف عاد يوما الى البيت على غير انتظار فترامى الى سمعه صوت كمال وهو يغني « يا طير يا للي على الشجر » ! ؟ •• تأخر لحظتذاك وراء الباب ــ لا ليتظاهر بأنه وصل بعد انتهاء الغناء فحسب ــ ولكن ليتابع الصوت متذوقا معدنه سابرا طول نفسه ، حتى اذا ما ختم الغلام النغمة صفق الباب بقوة وهو يسعل ومضى الى الداخل طاويا صدره على ابتهاج لم يفطن اليه احد ، كم يلذه ان يرى نفسه مترعرعة من جديد في حياة أبنائه على الاقل في ساعات الهدوء والصفاء ، ولكن رويداء أن لياسين طبيعة خاصة به لا يشركه هو فيها ، أو انه لا تجمع بينهما طبيعة واحدة اذا روعي المعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ياسين حيوان اعمى ••• ينقض مرة على أم حنفي ويضبط اخرى مع نور ، يتمرغ في التراب دون مبالاة • وما هكذا هو ! أجل انه يدرك مقدار الضيق الذي ألم بياسين لاضطراره الى قضاء الليلة في شبه سجن ، يدرك لانه كابده هو ايضا كئيبا محزونا كمن فقد عزيزا • ولكن هبه كان يتنزه في بستان السطح ــ كما فعل الفتى ــ فصادف جارية ــ ولنفترض انها تكون ملبية لذوقه ــ اكان يقدم على المغامرة ؟ ••• كلا • مؤكد كلا ، ولكن أي وازع كان يشكمه ؟ •• لعله المكان؟ الاسرة ! ولعله العمر الرشيد • آه ، لقد تضايق عند ورود الوازع الاخير على ذهنه ، وخيل اليه انه يغبط ياسين على ريق شبابه وجنون زلته معا !•• مهما يكن من امر فالطبيعتان مختلفتان لم يكن السيد ــ كابنه ــ مغرما بالمرأة بلا قيد ولا شرط ، امتازت شهوته دائما بالرفاهية وحداها الانتخاب الرفيع ، بل اثرت في ميزاتها ميزات اجتماعية ضمت الى الميزات الطبيعية المألوفة • كان مغرما بالجمال الانثوي في لحمه وتبختره واناقته ، فلم تخل جليلة أو زبيدة او مريم وعشرات غيرهن من ميزة او اكثر من هذه الميزات ، وفضلا عن هذا كله فلم يكن مزاجه ليصفو ويطيب الا بالمنظر البهيج وبالمجلس الانيس وما يتبعهما من شراب وسمر وغناء ، فلا يكاد يمضي طويل وقت على عشيقة جديدة حتى تفطن الى هواه فتهيىء له ما تهفو اليه نفسه من جو عذب يعبق فيه الورود

والبخور والمسك . وكما كان يعشق الجمال مجردا كان يعشقه كذلك في هالاته الاجتماعية اللألاءة . تجذبه المكانة المرموقة والصيت البعيد ، ويلذ له ان ينوه خاصته بعشقه ومعشوقاته الا فيما ندر من أحوال توجب التستر والكتمان كحال ام مريم ، على ان هذا الحب « الاجتماعي » لم يكن ليفرض عليه تضحية بالجمال ، فالجمال والصيت ــ في هذا المجال ــ يسيران جنبا لجنب كالشيء وظله ، وغالبا ما يكون الجمال اليد الساحرة التي تشق السبيل الى الصيت والمكانة المرموقة ، وقد عشق أشهر عوالم عصره فلم تخيب احداهن نزوعه الى الجمال وولعه بالحسن . هذا ما جعله يذكر نزوات ياسين بازدراء وهو يردد مستنكرا « ام حنفي ! .. نور ! ... يا له من حيوان » انه بريء من هذا الشذوذ بيد أنه ليس في حاجة الى ان يتساءل طويلا عن مصدره فانه لم ينس بعد تلك المرأة التي انجبت ياسين فأودعته طبيعتها المولعة بالقذارة ، انه مسؤول عن قوة شهوته اما هي فمسئولة عن نوع هذه الشهوة النزاعة الى الحضيض . وقد عاوده في الصباح التفكير « الجدي » في المسألة فكاد يدعو الزوجين اليه كي يصفي ما بينهما ــ وما بينه وبين كليهما ــ من حساب ، ولكن أرجأ ذلك الى متسع من الوقت انسب من الصباح ، ولما ساءل فهمي ياسين عما دعاه الى التخلف عن المائدة اجابه مقتضبا « شيء تافه سوف احدثك عنه فيما بعد » وظل فهمي جاهلا سر غضب ابيه على أخيه حتى علم باختفاء الجارية نور فحدس الامر كله . شهد الصباح الاسرة على غير مألوفها فقد غادر ياسين البيت مبكرا ولزمت زينب حجرتها ثم غادر الرجال البيت واجفين متحاشين ان يرفعوا بصرا صوب الجنود والام من وراء خصاص المشربية تدعو الله ان يقيهم من كل سوء . ولم تشأ أمينة ان تقحم نفسها في « واقعة » السطح فنزلت الى حجرة الفرن وانتظرت بين حين وآخر ان تلحق بها زينب كالعادة . لم تكن نقرها على غضبتها لكرامتها فعدتها تدليلا اثار استياءها ، وجعلت تتساءل « كيف تدعي لنفسها من الحقوق ما لم تدعه امرأة قط ؟ .. »

لا ريب ان ياسين قد اخطأ فدنس البيت الطاهر ولكنه اخطأ في حق ابيه وحرمته لا في حقها هي .. الست ملاكا بالقياس الى هذه الفتاة ؟! .. ولكن لما طال بها الانتظار لم تعد تستطيع تجاهلها واقنعت نفسها بوجوب

الذهاب اليها مواسية فصعدت الى شقتها ونادتها ، ثم دخلت الحجرة فلم تعثر لها على اثر ، ومضت من حجرة الى حجرة وهي تنادي حتى فتشت البيت ركنا ركنا ، ثم ضربت كفا بكف وهي تقول : « ربـاه ... هل ارتضت زينب ان تهجر بيتها ؟! .. »

★ ★

لم تنج امينة سحابة النهار من قلق ، فان احتمال تعرض الجنود لاحد من رجالها في ذهابه او ايابه لم يكد يفارق رأسها .وكان فهمي اول العائدين فتخففت لدى رؤيته من بعض اثار قلقها ولكنها رأته متجهما فسألته :

ــ ماذا بك يا بني ؟

فهتف فهمي متأففا :

ــ أكره ان أرى هؤلاء الجنود ...

فقالت المرأة باشفاق :

ــ لا تبد لهم الكراهية ، أن كنت تحبني لا تفعل ...

ولكنه لم يفعل بغير استعطافها ، لم يتجاسر على ان يتحداهم ولو بالنظر وهو يتلمس سبيله تحت رحمتهم ، تحاشى ان ينحرف ببصره الى احدهم ، ومضى الى البيت متسائلا في سخرية عما كانوا يفعلونه أو انهم علموا بانه راجع من مظاهرة اشتبكت مع جنودهم في شبه معركة ، او انه وزع في مطلع اليوم عشرات المنشورات التي تحرض على قتالهم . جلس يستعرض ما لاقاه في يومه مستحضرا اقله كما وقع واكثره كما كان يتمنى ان يكون . هكذا كان رأيه ان يعمل نهارا وأن يحلم مساء ، تحدوه في الحالين اسمى العواطف وأفظعها ، حب قومه من ناحية والرغبة في التقتيل والابادة من ناحية اخرى ، أحلام يسكر بها وقتا يطول او يقصر ثم يفيق منها على حسرة لاستحالتها وفتور لسخافة تصوراتها ، احلام تنسج لحمتها وسداها من معارك يتقدم صفوفها كجان دارك ، واستيلاء على سلاح العدو ثم الهجوم عليه ، هزيمة الانجليز ، خطبة خالدة في ميدان الاوبرا ، اضطرار الانجليز الى اعلان استقلال مصر ، عودة سعد من المنفى ظافراً ، لقاء بينه وبين الزعيم وكلمة الزعيم ، مريم بين شهود الافتتاح التاريخي ، أجل كانت احلامه تتوج دائما بصورة مريم رغم انزوائها ــ طوال تلك

الايام – في ركن قصي من قلبه الذي شغلته الشواغل كما ينزوي القمر وراء السحب ابان العاصفة ، وما يدري الا وامه تقول له وهي تشد المنديل حول رأسها في ارتباك :

– ذهبت زينب الى بيت ابيها غضبانة ..

آه ... كاد ينسى ما ألم بأخيه وأسرته في الصباح ، الان تأكد اليه ما حدسه حين علم باختفاء الجارية نور ، وتحاشى عيني امه حياء ان تقرأ ما يدور بخلده خصوصا وانه أيقن باطلاعها على جلية الامر ، ولم يستبعد ان تفطن الى ادراكه له او في الاقل ان ترجحه ، فلم يدر ما يقول لا سيما انه لم يعتد في محادثتها ان يبدي خلاف ما يبطن ، ولم يكن ابغض لديه من أن يقوم المكر مقام الصراحة بينهما، فقنع بأن يتمتم قائلا :

– ربنا يصلح الحال ...

لم تنبس امينة بكلمة كأن اختفاء زينب من التفاهة بحيث تكفي جملة اخبارية واخرى دعائية في معالجته ، وما لبث فهمي ان دارى ابتسامة كادت تفضح تحفظه اذ أدرك ان أمه تكابد مثل شعوره وانها تعاني ارتباكا لعجزها الفطري عن التمثيل ، لم تكن تحسن الكذب ، وحتى اذا اضطرت اليه احيانا كشفتها طبيعة لا تستقر على بساطتها الاقنعة ، على ان ارتباكهما لم يطل فما هي الا دقائق حتى رأيا ياسين مقبلا نحوهما . خيل اليهما انه يطالعهما بوجه لا يقدر المتاعب التي تترصد في البيت وان لم يعلم بعد بمدى ما بلغته ، ولم يدهش فهمي لذلك كثيرا لما يعلمه من استهانته بالمتاعب التي تنوء بغيره من الناس ، ولكن الحقيقة ان ياسين غلبه شعور باهر بأنه اجتاز مغامرة ظافرة انسته الى حين جل متاعبه . كان في طريقه الى باب البيت حين اعترض سبيله جندي كأنما انشقت عنه الارض فارتعدت مفاصله وتوقع شرا لا قبل له به او في الاقل اهانة جارحة على مرأى من اصحاب الحوانيت والمارة ، ولكنه لم يتردد في الدفاع عن نفسه ، فقال برقة وتودد مخاطبا الجندي كأنما يستأذنه في المرور :

– من فضلك يا سيدي ...

ولكن الجندي طلب عود ثقاب وهو يبتسم – اجل يبتسم – فذهل ياسين لابتسامته حتى استعصى عليه ان يفهم مراده حتى اعاده ، لم يكن

يتصور ان جنديا انجليزيا يبتسم على هذا النحو ، او اذا كان الجنود الانجليز يبتسمون كسائر البشر ـ ان يبتسم له احدهم فيما يشبه الادب ، فاستخفه سرور اربكه حتى لبث جامدا لحظات لا يحرى جوابا ولا يبدي حراكا ، ثم توثب بكل ما فيه من قوة لاداء هذه الخدمة البسيطة لذلك الجندي العظيم المبتسم ، ولما كان غير مدخن فلا يحمل ثقابا فقد بادر الى الحاج درويش بائع الفول وابتاع علبة ثقاب وهرع الى الجندي مادا له يده بها فتناولها الجندي وهو يقول :

ـ اشكرك ..

لم يكن افاق من اثر الابتسامة السحرية فجاء الشكر كمقدح البيرة الذي يعل به من استوفى طاقته من الوسكي ، ملأه الامتنان والزهو ، تورد وجهه المكتنز وضحكت اساريره وكأن عبارة « ثانك يو » نيشان سام تقلده على الملأ ، الا انها ضمنت له ان يذهب ويجيء امام المعسكر آمنا ، وما كاد الرجل يبدي اول حركة للذهاب ، حتى قال له متوددا من أعماق فؤاده :

ـ حظ سعيد يا سيدي ...

ومضى الى البيت كالمترنح من الفرح . اي حظ سعيد ظفر به هو !.. انجليزي ـ لا استرالي ولا هندي ـ وابتسم له وشكره ! . انجليزي اي رجل يتمثل في خياله كأنموذج لكمال الجنس البشري ، ربما ابغضه كما يبغضه المصريون جميعا ، ولكنه في قرارة نفسه يحترمه ويجله حتى ليخيل اليه كثيرا أنه من طينة غير طينة البشر ، هذا الرجل ابتسم له وشكره ..! وقد اجابه اجابات صحيحة مقلدا ما وسعته مرونة شدقيه طريقة النطق الانجليزية فنجح نجاحا باهرا استحق عليه الشكر ! ... كيف يصدق ما ينسب اليهم من الاعمال الوحشية !! ... لماذا نفوا سعد زغلول اذا كانوا على هذا الظرف كله ؟! غير ان حماسه فتر بمجرد ان وقع بصره على الست امينة وفهمي واستطاع ان يقرأ نظرتهما ، وسرعان ما اتصل ما كان انقطع من حين من حبل همومه ، انتبه الى انه يواجه مرة اخرى المشكلة التي هرب منها مع الصباح الباكر . تساءل وهو يشير باصبعه الى فوق :

ـ لماذا لا تجلس معكما ؟ ...الا تزال غضبانة ؟

فتبادلت امينة مع فهمي نظرة ثم تمتمت بارتباك :

ــ ذهبت الى ابيها ...

فرفع حاجبيه دهشة او انزعاجا ثم سألها :

ــ لماذا تركتها تذهب .. ؟

فقالت أمينة وهي تتنهد :

ــ تسللت دون ان يشعر بها احد ... .

شعر بانه يجب ان يقول قولا يرضي كرامته امام أخيه وأمه فقال باستهانة :

ــ الى حيث ...

وقرر فهمي ان يقاوم رغبته في اللواذ بالصمت كي يوهم اخاه بانه لم يطلع على سره وبالتالي أن ينفي شبهة اذاعته هذا السر عن امه فسأله ببساطة :

ــ ما الذي دعى الى هذا النكد .. ؟!

فحدجه ياسين بنظرة متفحصة ثم لوح بيده الغليظة وهو يمط بوزه كأنما يقول له « ليس ثمة ما يدعو الى النكد » ثم قال :

ــ بنات اليوم لم تعد بهن طاقة على حسن المعاشرة .

ثم ناظرا الى ست أمينة :

ــ أين هن ستات الامس .. !؟

نكست أمينة رأسها حياء في الظاهر ، وفي الحق لتداري ابتسامة لم تستطع مغالبتها حينما ربط ذهنها بين الصورة التي يتخذها ياسين الان ، صورة المتأمل الواعظ المجنى عليه ، والصورة التي ضبط بها مساء امس فوق السطح ، على ان انزعاج ياسين كان أعظم بكثير من القدر الذي سمح له الموقف بأن يتظاهر به ، فانه على فداحة الخيبة التي مني بها في حياته الزوجية لم يفكر لحظة في قطع هذه الحياة ، وجد فيها ملاذا مستقرا ورعاية الى ما بشرت به من ابوة وشيكة رحب بها أيما ترحيب ، تمنى دائما ان تبقى وراء ظهره ليعود اليها من شتى جولاته كما يعود الرحالة في نهاية العام الى وطنه ، ولم يغب عنه ما سيجره عليه ذهاب زوجته من نزاع جديد بينه وبين أبيه ثم بينه وبين السيد عفت ، الى ما يلابس هذا كله من فضيحة

ستفوح رائحتها حتى تزكم الانوف ••• بنت الكلب ! ••• لشد ما كان مصمما على ان يستدرجها الى الاعتراف بأنها اخطأت خطأ اكبر من خطئه، بل لعله اقتنع بذلك لدرجة تقرب من اليقين ، فأقسم ليحملنها على الاعتذار وليأخذن نفسه بتأديبها بمختلف الوسائل ، ولكنها ذهبت ••• قلبت خططه رأسا على عقب ••• وضعته في مأزق غير يسير • بنت الكلب ! •••وانتزع من تيار افكاره على صوت صراخ يمزق الصمت المحيط بالبيت فالتفت صوب فهمي وامه فوجدهما يرهفان السمع باهتمام وقلق ، وتواصل الصراخ فأدركوا بسهولة انه صادر عن امرأة ، ولكن تساءلت اعينهم عن الناحية التي يترامى منها وعن سببه : أنعي ميت ام عراك ام استغاثة ، وراحت امينة تستعيذ بالله من الشرور جميعا حتى قال فهمي :

ـ انه قريب ••• لعله في طريق بيتنا ••

ونهض فجأة مقطبا جبينه وهو يتساءل :

ـ الا يكون الانجليز قد هاجموا امرأة مارة بالطريق •• ؟

وهرع الى المشربية والاخران في أثره ، بيد ان الصراخ أنقطع غير تارك وراءه دليلا على الناحية التي ترامى منها ، فرمى ثلاثتهم بأنظارهم خلال الخصاص يتفحصون الطريق فاستقرت على امرأة لفتت الانظار بوقفتها الغريبة وسط الطريق وبمن احاط بها من المارة واصحاب الحوانيت، على انهم عرفوها لاول وهلة وهتفوا معا :

ـ أم حنفي •••

وتساءلت امينة التي كانت أرسلتها لتعود بكمال من المدرسة :

ـ مالي لا أرى كمال معها ؟! •• وماذا يوقفها هكذا كالجماد ••!

ـ كمال ••• رباه ••• اين كمال •• ؟

ثم مدفوعة بشعور غريزي ؟!

ـ هي التي كانت تصرخ ••• عرفت الان صوتها ••• اين كمال ؟ • أغيثوني •••

لم ينبس فهمي ولا ياسين بكلمة ، استغرقهما تفحص الطريق عامة والمعسكر الانجليزي خاصة حيث رأوا أنظار المتجمعين ـ وفي مقدمتهم ام حنفي ـ تتجه ، لم يكن ثمة شك لديهما في ان ام حنفي هي التي صرخت

حتى جمعت الناس حولها ،بل شعرا بالبداهة بانها كانت تستغيث لان ثمة خطرا تهدد كمال ، ثم تركزت مخاوفها في الانجليز ، ولكن اي خطر هو ؟ • وأين كمال ؟ ••• ماذا حدث للغلام ؟ •• ان الام لا تكف عن الاستغاثة بدورها وهما لا يدريان كيف يسكنان خاطرها ، لعلهما في حاجة الى من يسكن خاطرهما ••• أين كمال ؟ ••• ان الجنود ما بين جالس وواقف وماض لطيته ، كل مشغول بشأنه كأن شيئا لم يقع وكأن احدا من الناس لم يتجمع • وهتف ياسين بغتة وهو يلكز فهمي في كتفه :

ـ الا ترى هؤلاء الجنود الواقفين على هيئة دائرة تحت سبيل بين القصرين ، أن كمال يقف بينهم • انظر •••

فلم تملك الام ان صرخت قائلة :

ـ كمال بين الجنود ••• ها هو يا ربي ••• رباه ••• أغيثوني •

اربعة جنود عمالقة وقفوا على هيئة دائرة متشابكي الاذرع ، وقد مرت عينا فهمي أكثر من مرة دون ان تعثرا على ضالتهما ، في هذه المرة لمح كمال واقفا وسط الدائرة كما لاح من فرجة انشقت عنها ساقا الجندي الذي يوليهم ظهره ، خيل اليه انهم سيتقاذفونه بأرجلهم كالكرة حتى يقضوا عليه ، انساه خوفه على أخيه نفسه فاستدار قائلا بنبرات مضطربة :

ـ سأذهب اليه مهما تكن العواقب •••

ولكن يد ياسين قبضت على منكبه وهو يقول بصوت حازم «قف» ••• ثم خاطب الام بصوت هادىء باسم قائلا :

ـ لا تخافي ••• لو انهم ارادوا ان يصيبوه بسوء ما ترددوا ••• انظري اليه الا يبدو منهمكا في حديث طويل ؟؟• ثم ما هذا الشيء الاحمر الذي بيده ؟! •• اراهن على انها قطعة من الشيكولاتة ! ••• هدئي روعك •• انهم يتسلون به و « متنهدا » شد ما افزعنا على لا شيء •

سكن روع ياسين ، وما لبث ان تذكر مغامرته السعيدة مع الجندي فلم يستبعد ان يوجد له من زملائه نظائر في لطفه ورقته ، ثم رأى ان يدعم قوله ويثبته في فؤاد الام الملتاع فأشار الى ام حنفي التي لم تزل في موقفها قائلا :

ـ ألا تريان ان ام حنفي لم تكف عن الصراخ الا حين لم تجد داعيا

له . ها هم الناس ينفضون من حولها تعلوهم الطمأنينة ...

فغمغمت امينة بصوت مرتعش :

ـ لن يطمئن قلبي حتى يعود الي ...

وتركزت اعينهم في الغلام ، او فيما يلوح منه بين آونة واخرى ، غير ان الجنود استردوا أذرعهم المتشابكة وضموا سيقانهم المنفرجة كأنما اطمأنوا الى عدول كمال عن التفكير في الهرب ، فبدا الغلام بكامل هيئته ، بدا باسما يتكلم كما استدلوا عليه من حركة شفتيه واشارات يديه التي استعان بها على الافصاح عن افكاره فدل التفاهم بينه وبينهم على انهم يستطيعون الى حد ما استعمال اللغة المصرية ، ولكن ماذا يقول لهم او ماذا يقولون له ؟ ... هذا ما لم يستطع احد ان يخمنه ، بيد انهم ثابوا الى رشدهم ، حتى الام نفسهااستطاعت اخيرا ان تشاهد المنظر العجيب الذي يمثل تحت ناظريها بدهشة ممزوجة بقلق صامت دون عويل او استغاثة ، على حين جعل ياسين يضحك قائلا :

ـ الظاهر اننا غالينا في التشاؤم حينما ظننا ان احتلال هؤلاء الجنود لحينا سيكون مصدر متاعب لنا لا تنتهي ...

ومع ان فهمي بدا ممتنا لسلوك الجنود مع كمال ، الا انه لم يرتح الى ملاحظة ياسين فقال دون ان تتحول عيناه عن الغلام :

ـ ربما اختلفت معاملتهم للرجال او النساء عن معاملتهم للاطفال .. لا تغل في تفاؤلك .. .

وكاد ياسين يندفع متحدثا عن مغامراته السعيدة ، ولكنه ادرك لسانه في اللحظة المناسبة فأمسك تفاديا من اثارة أخيه ، ثم قال على سبيل الملاطفة والتودد :

ـ ربنا يخلصنا منهم على خير ...

وتساءلت امينة في لهفة :

ـ ألم يئن لهم ان يدعوه مشكورين .. ؟

ولكن بدأ عن دائرة كمال ان ثمة جديدا ينتظر ، فقد تراجع احد الجنود الاربعة الى خيمة ثم عاد بعد قليل بكرسي خشبي فوضعه امام كمال ، وما لبث الغلام ان وثب الى الكرسي فوقف متنصب القامة مشدود

الذراعين الى اسفل ، كأنما ينتظمه طابور القسم المخصوص ، وقد انحدر طربوشه الى قذاله ـ دون شعور منه في الغالب ـ كاشفا عن مقدم رأسه الكبير البارز ... ما خطبه ؟ .. ماذا وراء هذه الوقفة ؟ ... لم يطل بأحد التساؤل اذ سرعان ما علا صوته الرفيع وهو ينشد :

يا عزيز عيني بدي أروح بلدي
يا عزيز عيني السلطة خدت ولدي

غناها مقطعا مقطعا بصوته اللطيف والجنود يتطلعون اليه فاغري الافواه ضاحكي الاسارير تلاحق أكفهم ترديده بالتصفيق ، وكان احدهم قد تأثر بما ادركه من بعض معاني الاغنية فراح يهتف « اروح بلدي ... أروح بلدي » .. فتشجع كمال بما حظي من سرور سامعيه واقبل يجود من انشاده ويحسن من ترنمه ويعلي من صوته ، حتى ختمت الاغنية بين التصفيق والاستحسان الذي شاركت فيه الاسرة من وراء الخصاص بقلوب ملؤها السرور والاشفاق . اجل شاركت الاسرة في الاستحسان بعد أن شاركت ـ بقلوبها ايضا ـ في الغناء ، تتبعوه باشفاق وقلق ، دعوا له بالسلامة والاجادة ، خافوا عليه الزلل او النشاز كأنما يغني بالانابة عنهم جميعا ، أو كأنما هم الذين يغنون من حنجرته ، وكأن كرامتهم ـ أفرادا ومجموعة ـ امست متعلقة بنجاح الغناء ، نسيت امينة في لجة هذا الشعور مخاوفها ، حتى فهمي لم يكن يفكر في اثناء ذلك الا في الغناء وما يرجو له من نجاح ، فلما انتهى بخير تنهدوا من الاعماق وودوا ان يبادر كمال الى العودة قبل أن يطرأ طارىء يفسد عليهم مسك هذا الختام . والظاهر ان الحفلة آذنت بانتهاء فقد قفز كمال الى الارض فسلم على الجنود فرداً فردا ورفع يده محييا ثم انطلق يعدو صوب البيت ، فهرولت الاسرة من المشربية الى الصالة لتكون في استقباله . اقبل عليها لاهثا مورد الوجه مبتل الجبين تنطق عيناه واساريره وحركات اعضائه المرسلة بلا اتزان او غاية بالفرح والفوز ، أترع قلبه الصغير سعادة غامرة ما كان بوسعه الا ان يعلن عنها بكل سبيل ويدعو الاخرين الى الاشتراك فيها ، كالفيضان الزاخر يضيق عنه النهر فيغمر الحقول

والوديان ، وكانت نظرة واحدة تلقي بروية كافية لان تريه مغامرتهمعكوسة على صفحات الوجوه ••• ولكن الفرح اعماه فهتف بهم :
ـ عندي خبر لن تصدقوه ولن تتصوروه •••
فقهقه ياسين متسائلا في سخرية :
ـ أي خبر يا عزيز عيني ؟!
كشفت هذه الجملة الغشاوة عنعينيه كأنها نور شعشع فجأة فيالظلام فرأى الوجوه على ضوئها مفصحة ناطقة ، بيد ان علمه برؤيتهم لمغامـرته عوضه عما ضاع من فرصة ادهاشهم بحديثه العجيب فأغرق في الضحـك وهو يضرب ركبتيه بكفيه ، ثم قال وهو يغالب الضحك :
ـ أرأيتموني حقا •• ؟!
عند ذاك جاء صوت أم حنفي وهي تقول بنبرات متشكية :
ـ كان الافضل ان يروا تعاستي ! ••• علام هذا الفرح كله بعـد ان سيبت مفاصلي ؟ •• حادثة اخرى كهذه والله يرحمني •••
لم تكن خلعت ملاءتها فبدت كزكيبة فحم منتفخة ، يعلو وجهـهـا الشحوب والاعياء وتلوح في عينيها نظرة استسلام غريبة ••• فساءلتهـا امينـة :
ـ ماذا حدث ؟•• ماذا دعاك الى الصراخ ؟ ••• لقد لطف الله بنـا فلم نشهد شيئا مفزعا •••
فأسندت أم حنفي ظهرها الى ضلفة الباب واخذت تقول :
ـ حدث ما لن انساه يا ستي •• كنا عائدين واذا بشيطان من هؤلاء الجنود يقفز أمامنا ويشير الى سيدي كمال ليذهب اليه ففزع سيديوجرى الى درب قرمز ، ولكن جنديا اخر اعترض سبيله فانحرف الى بينالقصرين وهو يصرخ فغاص قلبي من الخوف وجعلت استغيث بأعلى صوتي وعيناي لا تفارقانه وهو يجري من جندي الى جندي حتى احاطوا به ••• كـدت أموت من شدة الخوف وزاغ بصري فلم اعد أرى شيئا ، ومـا ادري الا والناس قد اجتمعوا حولي ولكني لم اكف عن الصراخ حتى قال لي عـم حسنين الحلاق : « ربنا يكفيه شر اولاد الحرام ••• وحدي الله •• انهم يلاطفونه •• » ••• آه يا ستي لقد حضرنا سيدنا الحسين ودفع عنا الشر•

قال كمال معترضـــا :

ــ لم أصرخ أبــدا ...

فضربت أم حنفي صدرها بكفها قائلة :

ــ لقد ثقب صراخك اذني حتى جننتني ...

فقال بصوت منخفض كالمعتذر :

ــ ظننتهم يريدون قتلي ، ولكن احدهم جعل يصفر لي ويربت على كتفي ثم اعطاني (وهنا جس جيبه) شيكولاتة فذهب عني الخوف ..

زايل أمينة السرور ، لعله كان سرورا زائفا متعجلا ، الحقيقة التـــي يجب الا تغيب عنها هي ان الفزع ركب كمال دقائق ، وانه يجب ان تدعـــو ربها طويلا كي ينجيه من عواقبه ، لم تكن ترى في الفزع مجرد شعور عابر ، كلا .. .انه شعور شاذ تكتنفه هالة خفية غامضة تأوى اليها العفاريـــت كما تأوى الخفافيش الى الظلام ، فاذا احاط بشخص ــ خصوصا الصغار ــ مسه بضر سيىء العاقبة ، لذلك فهو يستوجب في نظرها مزيدا مــــن العناية والحيطة ، تلاوة من القرآن كانت ام بخورا ام حجابا ، قالت بحزن:

ــ افزعوك ! ... قاتلهم الله ...

وقرأ ياسين ما يدور في خاطرها ... فقال مداعبا :

ــ الشيكولاتة رقية ناجعة للفزع ... (ومخاطبا كمال) ... هــل دار الحديث بالعربي ؟

رحب كمال بالسؤال لانه فتح له مرة اخرى ابواب الخيال والمغامرة، منتشلا اياه من مضايقات الواقع ، فقال وقد استعادت اساريره انبساطها :

ــ كلموني بعربي غريب !.. ليتك سمعته بنفسك ...

وراح يحاكي طريقتهم في الكلام حتى ضحك الجميع ، حتى امــــه ابتسمت ... فعاد ياسين يسأله وكأن يغبطه :

ــ ماذا قالوا لك ؟

ــ كلاما كثيرا ! ... ما اسمك اين بيتك ، اتحب الانجليز ؟!

فهمي ساخرا :

ــ وبم أجبتهم على هذا السؤال الفريد ؟!

فرمق اخاه كالمتردد ... ولكن ياسين اجاب عنه قائلا :

ـ طبعا قال انه يحبهم ••• ماذا كنت تريد أن يقول •• ؟
على ان كمال استطرد يقول متحمسا :
ـ ولكنني قلت لهم ايضا ان يعيدوا سعد باشا •
فلم يتمالك فهمي ان ضحك عاليا ••• وسأله :
ـ حقا ! ••• وماذا قالوا لك ؟
فقال كمال مستردا ارتياحه بضحك اخيه •
ـ أمسك احدهم بأذني وقال لي « سعد باشا نو •• »
فعاد ياسين يتساءل :
ـ وماذا قالوا لك ايضا ؟
فقال كمال ببراءة :
ـ سألوني ••• الا يوجد بنات في بيتنا •• ؟
فتبودلت نظرة جدية بينهم لاول مرة منذ قدم كمال ، ثم سأله فهمي باهتمام :
ـ وماذا قلت لهم ؟
ـ قلت لهم ان ابلة عائشة وأبلة خديجة تزوجتا ، ولكنهم لم يفهموا كلامي فقلت ليس في البيت الا نينة ، فسألوني عن معنى نينة فقلت ! •••
رمى فهمي أخاه ياسين بنظرة كأنما يقول : « أرأيت كيف ان سوء ظني في محله ! » ••• ثم ساخرا :
ـ لم يعطوه الشيكولاتةلوجه الله •••
فابتسم ياسين ابتسامة باهتة وغمغم قائلا :
ـ ليس ثمة ما يدعو الى القلق •••
وابى ان يترك هذه السحابة تغشي مجلسهم فسأل كمال :
ـ وكيف دعوك الى الغناء ؟
فقال كمال ضاحكا :
ـ في اثناء الحديث أنطلق احدهم يغني بصوت منخفض ، فاستأذنتهم في ان اسمعهم صوتي ••• !
فقهقه ياسين قائلا :
ـ يا لك من فتى جريء ! ••• الم يعاودك الخوف وانت بين ارجلهم؟

فقال كمال في مباهاة :

ـ ابدا ... (ثم بتأثر) ... ما اجملهم ! ... لم ار اجمل منهم من قبل . عيون زرق ..وشعر من ذهب .. وبشرة ناصعة البياض .. كأنهم أبلة عائشة !

وجرى فجأة الى حجرة المذاكرة ورفع رأسه الى صورة لسعد زغلول ثبتت في الجدار الى جانب صورة الخديو ومصطفى كامل ومحمد فريد.. ثم عاد وهو يقول :

ـ انهم أجمل من سعد باشا كثيرا ..

فهز فهمي رأسه كالآسف وقال :

ـ يا لك من خائن .. ! أشتروك بقطعة من الشيكولاتة .. لست صغيرا ليغفر لك هذا القول ، من مدرستك من يستشهد كل يوم ، خيبة الله عليك .. .

وكانت أم حنفي قد أحضرت الموقد والكنجة والفناجين وعلبة البن.. وأخذت أمينة تهيىء القهوة للجلسة التقليدية ، عاد كل شيء الى أصله الا ياسين فقد عاود التفكير في زوجه الغاضبة ، على حين انتحى كمال جانبا واخرج الشيكولاتة من جيبه وراح ينزع عنها الغلاف المورد اللامع ، بدا ان تعنيف فهمي ضاع في الهواء اذ لم يكن في قلبه وقتذاك الا الرضى والحب ...

★ ★

تعقدت مشكلة ياسين الزوجية فبلغت درجة من الخطورة لم يتوقعها احد ، وما يدري السيد احمد الا ومحمد عفت قادم عليه في الدكان في اليوم التالي لالتجاء زينب الى بيته ، ثم قال قبل ان يسترد يده التي شد عليها السيد بالسلام :

ـ يا سيد احمد ... جئتك برجاء ، يجب ان تطلق زينب اليوم قبل الغد ان امكن .. .

بهت السيد . أجل قد ساءه سلوك ياسين اكبر اساءة ، ولكنه لم يتصور ان يبعث رجلا فاضلا كالسيد محمد عفت الى المطالبة بالطلاق ، لم يتصور ان تدعو هذه « الهفوات » الى الطلاق مطلقا ، بل لم يجر له على

بال ان تجيء المطالبة بالطلاق من ناحية الزوجة ابدا ، فخيل اليه ان الدنيا انقلبت رأسا على عقب ، وأبى ان يصدق ان محدثه جاد في طلبه فقال بلهجته اللطيفة التي طالما استأثرت قلوب اصدقائه :

ــ ليت الاخوان كانوا معنا ليشهدوا عليك وأنت تقذفني بهذه اللهجة القاسية ! .. اصغ الي ... باسم صداقتنا امنعك من ان تجري للطلاق ذكرا على لسانك ..

ثم تفرس في وجهه ليسبر اثر كلامه فيه ، ولكنه وجده متجهما كالحا ينذر بالشر والتصميم ، فبدأ يستشعر الخطورة والتشاؤم ... دعاه الى الجلوس فجلس وما تزداد صورته الا ظلاما ، وانه يعرفه حق المعرفة ، عنيد شديد المراس اذا ركبه الغضب كفر بالمودة والمجاملة فتمزقت على سنان حدته اسباب القربى والعطف جميعا ، قال السيد :

ــ وحد الله .. ولنتحدث في هدوء ...

فقال محمد عفت وكأنه يقبس لهجته من نار الغضب الذي توهج به خداه :

ــ صداقتنا في حرز ، فلندعها جانبا ... ابنك ياسين لا يعاشر ، تحققت من هذا بعد ان عرفت كل شيء ، كم تصبرت المسكينة ! ... حضنت همومها طويلا ، أخفت عني كل شيء ، ثم بثتها جملة حين تصدع صدرها ... يسهر طول الليل ويعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرا ، اهانها ولفظها ، ثم ماذا كانت عقبى صبرها الطويل ؟! .. انتضبطه في بيتها مع خادمتها ! (وبصق على الارض) ... جارية سوداء ! .. بنتي لم تخلق لهذا ، كلا ورب السموات ، أنت اعرف الناس بمنزلتها عندي، كلا ... ورب السموات ، لا كنت محمد عفت اذا سكت على هذا ..

قصة معادة ، ولكن ثمة جديدا صدمه حتى زلزله هو قوله ان ياسين « يعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكراً » ! ... اعرف طريق الحانة ايضا ؟! ... متى ؟ .. كيف ! .. آه ليس في الوقت متسع للتفكير او الانزعاج ، ليخف انفعاله كله ، الساعة تتطلب هدوءا وضبطا للنفس، يجب ان يملك الموقف ليتفادى استفحال الشر ... قال بنبرات اسيفة :

ــ ان ما يحزنك اضعافا ، ومن سوء الحظ ان سوأة من السوءات

التي حدثتني عنها لم تتصل لي بعلم او تجر لي على بال ، اللهم الا الحادثة الاخيرة وقد ادبته عليها تأديبا لايستبيحه لنفسه أب غيري ، ما عسى ان أصنع ؟ ... لقد اخذته بالتأديب العنيف مذ كان صبيا ، ولكن وراء ارادتنا دنيا وشياطين تهزأ من تصميمنا وتفسد علينا نوايانا الطيبة ...

قال محمد عفت وهو يتحاشى عينا السيد بالنظر الى المكتب :

ـ لم اجيء لاوجه اليك لوما او احملك تقصيرا ، انت كأب مثال يحتذى ولا يجاري .. ولكن هذا لن يغير من الحقيقة المحزنة ، وهي ان ياسين كان غير ما اردت له ان يكون ، وانه بحالته الراهنة لا يصلح للحياة الزوجية ..

فقال السيد في عتاب :

ـ رويدك يا سيد محمد .. !

فقال الرجل مستدركا ولكن مصمما على رأيه :

ـ على أي حال لن يصلح زوجا لابنتي ، سيجد من تقبله على علاته ولكن غيرها ، لم تخلق ابنتي لهذا ... انت ادرى الناس بمنزلتها عندي ..

ادنى السيد رأسه من رأس الرجل وقال بصوت منخفض ... وكأنما يداري ابتسامة :

ـ ليس ياسين بين الازواج بنادرة ، فكم منهم من يسكر ويعربد ويعمل البدع !

فقطب محمد عفت لينفي عن نفسه شبهة الاستجابة لهذا الكلام الموحى بالدعابة ... وقال بجفاء :

ـ ان كنت تشير الى جماعتنا أو الي انا خاصة ، فالحق اني اسكر وأعربد واعشق ، ولكني ... بل نحن جميعا ، لا نوحل في القاذورات !. جارية سوداء ! ... أهذه التي قضى على ابنتي بان تتخذها ضرة ؟! .. كلا ... كلا ورب السماوات ... لن تكون له ولن يكون لها .

أدرك السيد احمد ان محمد عفت ـ ربما كابنته سواء بسواء ـ مستعد لان يعفو عن امور كثيرة ، الا ان يخلط ياسين بين كريمته وبين جاريتها السوداء ، انه يعرفه تركيا في عناد البغل . ثم ورد على ذهنه قول صديقه ابراهيم الفار يوم كاشفه بنيته في خطبة زينب لابنه ياسين ، فقد

قال له : « أصيلة بنت أصيل ، محمد اخونا وحبيبنا ، ابنته ابنتنا ، ولكـــن هل فكرت رويدا في منزلة الفتاة من نفس ابيها ... هــل فكــرت في ان محمد عفت لا يتسامح من ذرة غبار اذا مست لها ظفرا ؟! » ... لكنــه رغم هذا كله تعذر عليه ان يقيس الامور بغير مقياسه ، وكان يفــاخــر دائما بأن محمد عفت على فظاعة غضبه اذا غضب ، لم يحتد عليه ولو مرة واحدة طوال معاشرتهما المديدة ! .. قال متسائلا :

ــ رويدك ، ألا ترى ان مبادئنا واحدة وان اختلفت التفاصيــل ؟. جارية سوداء او عالمة ... أليست كلتاهما امرأة .؟!

فانتفخت اوداج محمد عفت وضرب حافة المكتب بقبضته .. وانفجر قائــلا :

ــ أنت لا تعني ما تقول ! .. الخادمة خادمة والسيدة سيدة ، لمــاذا لا تعشق الخادمات اذن ؟!. لم يشابه ياسين أباه ، اني آسف لكون ابنتي حبلى ، كم أكره أن يكون لي حفيد تجري في دمه القذارة .. !

وخزته الجملة الاخيرة فغضب ، ولكنه استطاع ان يغلق قلبه على غضبه بقوة حلمه الذي يحبو به اصدقاءه واحبابه ، حلم بين الاصدقاء لا يعادله في قوته الا غضبه بين آله ... ثم قال بهدوء :

ــ اقترح عليه ان تؤجل الحديث الى وقت اخر .. .

فقال محمد عفت محتــدا :

ــ أرجو ان تحقق رجائي الساعة .. !

آه ... لقد بلغ به الامتعاض جدا لم يكن الطلاق نفسه معه بالحل المستكره ولكنه كان يشفق على صداقة العمر من ناحية ، وتعز عليه الهزيمة من ناحية اخرى ، أليس هو الرجل الذي يتشفع به الناس ليفض الخصومات وليصل ما انقطع من المودات والزيجات ؟! .. فكيف تحل به الهزيمة وهو يدافع عن ابنه فيرضى بحكم الطلاق ؟! ... أين حلمه ؟.. أين كياسته ؟.. أين لباقته ؟

ــ لقد أصهرت اليك لاوثق اسباب الصداقة بيننا ... فكيف أقبل أن اعرضها للوهن ... ؟

فقــال الرجل بانكار :

ـ صداقتنا في حرز ! ••• لسنا اطفالا ، ولكن كرامتي لا يمكن ان تمس •••

فقال السيد برقة :

ـ ماذا عسى ان يقول الناس عن زيجة انقطعت ولما تتم عامها الاول؟

فقال محمد عفت بعجرفـة :

ـ لن يرجع عاقل العيب الى ابنتي •••

آه ••مرةاخرى!••ولكنه تلقاهابنفس الحلم،بدا وكأن استياءه لعجزه عن توفيق قد غطى استياءه من تهور الرجل الغاضب فلم يهتم بالرصاص المنطلق عليه اهتمامه بتبرير اخفاقه ••راح يعزي نفسه بأن الطلاق بيده هو وحده،اذا شاء منحه واذا شاء منعه ، محمد عفت يعلم ذلك حق العلم ،لذلك جاء يستوهبه اياه باسم الصداقة التي لا شفيع له غيرها ،فاذا قال فلا راد لكلمته وسترجع الفتاة الى ابنه طوعا او كرها ••• ولكن تمسي الصداقة القديمة في خبـر كان ، اما اذا قال نعم فسيقع الطلاق ولكن تصان الصداقة ويعترف لـه بالجميل ، وليس من العسير ان يتذرع بكل اولئك في المستقبل لوصل ما أنقطع ، واذن فالطلاق وان يكن هزيمة الا انه هزيمة مؤقتة تتضمن تسامحا ونبلا غير منكورين وقد تنقلب فوزا بعد حين • وما ان اطمأن الى سلامة موقفه ولو بعض الشيء حتى شعر بالرغبة في معاتبته على ما فرط منـه في حقه ••• فقال بلهجة ذات معنى :

ـ لن يكون طلاق الا بموافقتي •• اليس كذلك ؟ •• بيد انني لن انبذ رجاءك ما دمت مصرا عليه ، اكراما لك ، اكراما للصداقة التي لم ترع لها حقا في مخاطبتي ••

فتنهد محمد عفت ••• اما ارتياحا للنهاية المنشودة او احتجاجا على عتاب صديقه او للاثنين معا ، ثم قال بلهجة قاطعة خلت من حدة الغضـب لاول مرة :

ـ قلت ألف مرة ان صداقتنا في حرز •• ! أنك لم تسيء الي قط ، على العكس من ذلك فانك تكرمني بتحقيق رجائي وان كرهته •••

فردد السيد قوله محزونـا :

ـ نعم ••• وان كرهته ••

ثار حنقه حالما غاب الرجل عن ناظريه . انفجر الغيظ المكبوت فالتهم نفسه ومحمد عفت وياسين ، ياسين خاصة ، ثم تساءل : ترى هل يمكن ان تبقى الصداقة في حرز حقا فلايصيبها رشاش الحوادث المتوقعة ؟ ... آه ، لم يكن ليضن بنفيس في سبيل صون حياته عن مثل هذه الهزة القاسية ... لكنه العناد التركي ، لكنه الشيطان ، بل لكنه ياسين ،أجل ياسين دون غيره ... قال له بغضب وازدراء :

ــ كدرت صفو ود لم تكن الايام تتكدره ولو اجتمعت له .. .

ثم قال له بعد ان اعاد على مسمعيه حديث محمد عفت :

ــ خيبت أملي فيك فحسبي الله ونعم الوكيل، ربيتك وادبتك ورعيتك ... ثم انجلى تعبي كله عن ماذا ؟ ... سكير صعلوك تسول له نفسه الاعتداء على احقر الخادمات في بيت الزوجية ، لا حول ولا قوة الا بالله ، ما كنت اتصور أن يخرج من حضانتي ابن على هذه الصورة فالامر لله من قبل ومن بعد ، ما عسى ان اصنع بك ؟ ... لو كنت قاصرا لكسرت دماغك، ولكن لتكسرنها الايام ، ها انت تنال جزاءك الحق فتتبرأ منك الاسر الكريمة وتبيعك بأبخس الاثمان ... !

لعله وجد نحوه بعض الرثاء ، بيد ان سخطه غلب ثم استحال شعوره كله ازدراء ، لم يعد يملأ عينيه رغم فتوته وجماله وضخامته ، يوحل في القذارة كما قال محمد عفت قاتله الله ، ويعجز عن كبح جماح امرأة ، ما أصغره ، سرعان ما لحقت به الهزيمة التي لم ينج هو نفسه من هوانها من جراء طيشه . ما احقره ، ليسكر ويعربد وليعشق تحت شرط ان يظل السيد المطاع ، أما ان ينهزم على تلك الصورة المخزية فما أحقره ، لم يشابه اباه كما قال ايضا محمد عفت قاتله الله ، اني افعل ماشاء ولكني اظل السيد أحمد وكفى ، حكمة رائعة تلك التي الهمتني ان انشىء الاولاد على مثال فريد للاستقامة والطهارة ، فانه لما يشق ان ينهجوا نهجي ويحظوا في نفس الوقت بالكرامة والاستقرار ، ولكن وا أسفاه ضاع جهدي هباء مع ابن هنية !

ــ وهل وافقت يا ابي ... ؟

تردد صوت ياسين كالحشرجة .. فأجابه بخشونة قائلا :

ـ نعم ، ابقاء على صداقة قديمة ولانه اوفق حل في الوقت الحاضر على الاقل •

جعلت يد ياسين تنقبض وتنبسط في حركة آلية عصبية ، كأنما كانت تشفط الدم من وجهه حتى انقلب شديد الشحوب ، شعر بهوان لم يشعر بمثله الا فيما كابد من سلوك امه ، حموه يطالب بالطلاق ! ••• أو بمعنى اخر زينب تطالب بالطلاق او على الاقل توافق عليه ! ••• ايهمـا الرجـل وايتهما المرأة ؟! •• ليس عجيب ان ينبذ الانسان حذاء اما ان ينبذ حذاء صاحبه !! • كيف رضي ابوه له بهذا الخزي الذي لم يسمع بمثله من قبل؟! •• حدج أباه بنظرة حادة وانعكست ما يعتلج في صدره منأنات الاستغاثة، ثم قال بلهجة حرص الحرص كله على انينقيها من أي اثر للاحتجـاج او الاعتراض ، كأنما يريد بها ان يذكره بما عسى ان يكون انسب :

ـ ثمة طريقة لمعالجة الزوج الناشز •••

شعر السيد بشعور ابنه فأدركه التأثر ، ولذلك لم يبخل عليه ببعض ما يدور في نفسه ••• فقال له :

ـ أعلم ذلك ••• ولكنني اخترت ان نكون من الكرماء ، محمـد عفت عقل تركي حجري ولكن قلبه من ذهب ، هذه الخطوة ليست الاخيرة، ليست النهاية ، لم أغفل مصلحتك وان كنت لا تستأهلخيرا ،دعني اتصرف كما أشـاء •••

كما تشاء ••• منذا يرد لك مشيئة ؟!• تزوجني وتطلقني •• تحييني وتميتني ، لست هنا ، خديجة عائشة فهمي ياسين ••• الكل واحد ،الكل لا شيء ، أنت كل شيء •• كلا •• لكل شيء حد ، لم أعد طفلا ، رجـلا مثلك سواء بسواء ، انا الذي اقرر مصيري ، أطلق او اودعها بيتالطاعة، تراب حذائي بمحمد عفت وزينب وصداقتكما ••

ـ مالك لا تتكلم ؟ •• •

فقال دون تردد :

ـ أمرك يا أبـي ••

أي عيشة وأي بيت وأي أب ، زجر وتأديب ونصائح ، ازجر نفسك ••• ادب نفسك •• أنصح نفسك ، انسيت زبيدة ؟ ••• وجليلة ؟•والغناء

والشراب ؟» ثم تطالعنا بعمامة شيخ الاسلام وسيف امير المؤمنين ، لم أعد طفلا ، اعتن بالقصر ودعني وشأني ، تزوج ... أمرك يا فندم . طلق ... أمرك يا فندم ... ملعون ابوك .

★ ★

خفت حدة المظاهرات شيئا ما في حي الحسين بعد احتلال الجنود الانجليز له فأمكن للسيد احمد أن يستأنف ممارسة عادة قديمة انقطع عنها مضطرا الى حين ، أمكنه ان يصطحب ابناءه الى مسجد الحسين لتأدية صلاة الجمعة ... عادة قديمة دأب عليها منذ عهد بعيد .. كان يدعو ابنه اليها حالما يبلغ صباه ليوجه قلبه الى العبادة مبكرا ، مستوهبا من ورائها البركة لنفسه ولابنائه وللاسرة جميعا . ربما كانت امينة وحدها التي لا ترتاح الى تحرك القافلة في نهاية كل اسبوع حاملة رجالها ، ثلاثة رجال كالجمال طولا وعرضا الى فتوتهم واشراقهم ، كانت تتبعهم ناظريها من خصاص المشربية فيخيل اليها انهم ملتقى الانظار فتجزع وتدعو الله ان يقيهم شر العين ، وما ملكت يوما ان افضت بمخاوفها الى السيد فبدا وكأنه تأثر لتحذيرها حينا ، بيد انه لم يستسلم للخوف طويلا وقال لها : « ان بركة الفريضة التي نذهب لتأديتها حقيقة بان تحفظنا من كل شر » .

وكان فهمي يلبي دعوة الجمعة ببشاشة قلب اولع بتأدية الفرائض منذ الصغر ، مطيعا في ذلك ـ قبل ارادة ابيه ـ عاطفة دينية صادقة ،تمتاز الى صدقها بقدر من الاستنارة لا بأس به ، استمده مما اطلع عليه من آراء محمد عبده وتلاميذه ... لذلك كان الوحيد في الاسرة الذي يقف من ايمانها بالتعاويذ والرقي والاحجبة وكرامات الاولياء موقف المتشكك ،وان ابت عليه دماثة خلقه ان يجهر بتشككه او يعلن استهانته ، بل كان يتقبل حجاب الشيخ متولي عبد الصمد الذي يجيء به ابوه بين حين واخر برضى ظاهري . اما ياسين فكان يلبي دعوة ابيه لانه لم يكن من تلبيتها بد، لعله لو ترك لشأنه ما فكر يوما في ان يدس جسمه الضخم في زحمةالمصلين، لا عن تزعزع في العقيدة ، ولكن استهانة وتكاسلا .. لذا كان ليوم الجمعة عنده هم يكابده مع مطلع الصباح ، فاذا حان وقت الذهاب الى الجامع ارتدى بدلته في شيء من التذمر ، ثم يسير وراء ابيه كالاسير ، ولكن كلما

اقترب من الجامع خطوة تخفف من تذمره رويدا ، حتى يدخل الجامع منشرح الصدر فيؤدي الصلاة ويدعو الله ان يغفر له ويعفو عن ذنوبه ، دون ان يسأله التوبة كأنما يشفق في أعماقه ان يستجاب دعاؤه فينقلب زاهدا في اللذات التي يحبها حبا لا يرى للحياة بدونه معنى . كان يعلم علم اليقين ان التوبة واجبة ، وان مغفرة لن تكتب له بدونها ، ولكنه كان يرجو ان تجيء في الوقت « المناسب » حتى لا يخسر الدارين ، ولذا كان على تكاسله وتذمره يحمد في النهاية الظروف التي تدفعه الى تأدية فريضة هامة كفريضة الجمعة يمكن ــ عند الحساب ــ ان تمحو بعضا من سيئاته وتخفف من اوزاره ، خصوصا وانه لا يكاد يؤدي غيرها فريضة ..

كما كمال فلم توجه اليه الدعوة ألا حديثا . مذ جاوز العاشرة ، فنهض الى تلبيتها في زهو وخيلاء وفرح ، شعر شعورا غامضا بانها تتضمن اعترافا بشخصه ، وانها تمنحه مساواة من نوع ما مع فهمي وياسين وابيه نفسه ، ثم سره على وجه الخصوص ان يسير في ركاب ابيه آمنا اي دون ان يتوقع من ناحيته شرا ، وان يقف في الجامع الى جانبه على قدم المساواة مؤتمين جميعا بامام واحد ، بيد انه كان يستغرق في صلاته اليومية ــ في البيت ــ استغراقا لا يظفر بمثله في صلاة الجمعة بالنظر الى ما يعتريه من ارتباك لقيامه وسط خلق لا يحيط بهم حصر ، ولا شفاقه من ان تند عنه هفوة فتلتقطها احدى حواس ابيه ، الى ان شدة شعوره بالحسين ــ الذي يحبه اكثر من نفسه ــ وهو في مسجده كانت تحول بينه وبين التوجه الخالص لله كما ينبغي للمصلي ...

أما كمال فلم توجه اليه الدعوة الا حديثا . مذ جاوز العاشرة ، بيت القاضي ، السيد في المقدمة وياسين وفهمي وكمال وراءه صفا ، حتى اتخذوا مجالسهمَ في الجامع وراحوا ينصتون الى خطبة الجمعة بين رؤوس مشرئبة الى المنبر في صمت شامل . لم يكن السيد على شدة انصاته يكف عن الدعاء الباطني ، وتوجه قلبه الى ياسين خاصة ، كأنما رآه بعد ما لحق به من عثار الحظ أحق بالرحمة ، فدعا الله طويلا ان يصلح من شأنه ويقوم ما اعوج من امره ويعوضه عما فقد خيرا .. على ان الخطبة جبهته بمعاصيه اخلت ما بينه وبينها فطالعها وجها لوجه في هالة مرعدة من صوت الواعظ

الجهوري الرنان النافذ حتى خيل اليه انه يعنيه بالذات ، وانه يشد على اذنه صارخا فيها باعلى صوته ، وانه لا يستبعد ان يخاطبه باسمه قائلا : « يا احمد ازدجر ... تطهر من الفسق والخمر وتب الى الله ربك » فألم به قلق وضيق كما ألما به يوم ناقشه الشيخ متولي عبد الصمد الحساب ، وهو ما يقع له كثيرا عند سماع الخطبة فيسترسل في طلب الغفران والعفو والرحمة ، ولكنه ـ كابنه ياسين ـ لم يكن يطلب التوبة وان طلبهافبلسانه دون قلبه ، يقول بلسانه « اللهم التوبة » على حين يقتصر قلبه على طلب الغفران والعفو والرحمة كأنهما آلتان موسيقيتان تعزفان معا في اوركسترا واحد فتصدر عنهما نغمتان مختلفتان ، لانه لم يتصور ان يرى الحياة بغير العين التي يراها بها ولا ان تبدو له بغير الوجه الذي تبدو به ، فاذا ألح عليه القلق والضيق المستوليان عليه نهض للدفاع عن نفسه .. ولكنه يلقى دفاعه في صورة دعاء واستغفار فيقول « اللهم انك اعلم بقلبي وايماني وحبي ، اللهم زدني استمساكا بتأدية فرائضك وقدرة على صنع الخير ، الهم ان الحسنة بعشر أمثالها ، اللهم انك انت الغفور الرحيم » ... وبهذا الدعاء تعاوده الطمأنينة رويدا .

لم تكن لياسين مثل هذه المقدرة على التوفيق او انه لم يشعر قط بحاجة اليها ، لم تكن موضع تفكيره يوما ، يهيم بالحياة كما يشتهي ويؤمن بالله كما يؤمن بوجوده هو ، ثم يستسلم للتيار دون مقاومة او ممانعة . قرعت أذنيه كلمات الواعظ فتحرك صوته الباطني سائلا الرحمة والمغفرة بطريقة آلية وفي طمأنينة شاملة دون ان يستشعر خطورة حقيقية ، أن الله ارحم من ان يحرق مسلما مثله بهفوات عابرة لا تؤذي احد من عباده ، ثم هنالك التوبة ! ... ستأتي « يوما » فتمحو ما قبلها ، واسترق نظرة الى ابيه وتساءل وهو يعض على شفتيه كأنما يكتم ضحكة نافرة مما عسى ان يدور بخاطره وهو ينصت بهذا الاهتمام البادي الى الخطبة ؟ ... أهو يعاني العذاب كل صلاة جمعة ام تراه ينافق ويخادع ؟ .. كلا .. لا هذا ولا ذاك ... انه مثله ـ ياسين ـ يؤمن برحمة الله الواسعة ، لو ان الامر بالخطورة التي يصفه بها الواعظ لاختار ابوه احدى السبيلين ، استرق اليه نظرة اخرى فرآه كالجواد الكريم الجميل بين القاعدين المتطلعين الى

المنبر ، شعر نحوه باعجاب وحب خالصين ، لم يعد للحنق أثر في نفسه ، ومع أن الغضب بلغ به مداه يوم الطلاق ، حتى بث همه الى فهمي قائلا : « لقد خرب ابوك بيتي وجعلني اضحوكة بين الناس » الا انه تناسى الان حنقه كما تناسى الطلاق والفضيحة وكل شيء ، ثم هذا الواعظ نفسه ليس خيرا من ابيه ... بل هو على وجه اليقين امعن في الضلال ، حدثه عنه مرة احد الاصحاب في قهوةاحمد عبده فقال : « انه يؤمن بشيئين ... بالله في السماء وبالغلمان في الارض ، انه من طراز حساس ترف عينه وهو في الحسين اذا تأوه غلام في القلعة » ، بيد انه لم يحقد عليه لذاك ، وعلى العكس وجد فيه كما وجد في ابيه ما يجد الجندي في الخنادق المحفورة في الخطوط الامامية التي على العدو ان يقتحمها قبل أن يصل اليه .

ثم دعا الداعي الى الصلاة فقام الرجال قومة واحدة ، وقفوا صفوفا متراصة ملأت صحن الجامع الكبير ، صار المسجد اجسادا ونفوسا ذكر كمال احتشادها مشهد المحمل في النحاسين ، واتصلت الازياء في خطوط طويلة متوازية وحدتها البدل والجبب والجلابيب ، ثم انقلب الجمع جسما واحدا تصدر عنه حركة واحدة مستشرفا قبلة واحدة ، وترددت التلاوات الهامسة في همهمة شاملة حتى أذن بالسلام .. عند ذاك انتثر سلك النظام، استردت الحرية انفاسها ، نهض كل لوجهته ، منهم من قصد الضريح للزيارة ومنهم من اتجه نحو الابواب للخروج ومنهم من تلبث للحديث او تريث حتى يخف الزحام ... فاختلطت تياراتهم أيما اختلاط كالموجة الكبيرة تندفع نحو الشاطىء وهي آخذة في النمو والعلو والتكتل ، ثم تهوي كالشلال فتنفجر وتنساب في شتى الجهات على هيئة موجات صغيرة تمتزج وتفترق وتنتشر ايما انتشار ، ازفت الساعة السعيدة التي مني كمال نفسه بها ... ساعة الزيارة ولثم الجدران وقراءة الفاتحة اصالة عن نفسه وانابة عن أمه كما وعدها ، بدأ يتحرك ببطء في ركاب ابيه .. وما يدري الا وشاب ازهري يبرز من الزحمة فجأة فيعترض سبيلهم في حركة عنيفة لافتة للانظار ، ثم بسط ذراعيه لينحى الناس جانبا ومضى يتقهقر امامهم وهو يتفحص ياسين بنظرات ثاقبة مريبة وقد عبس وجهه وتطايرت نذر الغضب من صفحته المكفهرة . عجب السيد له فجعل يردد بصره بينه وبين

ياسين ، على حين بدا ياسين أشد عجبا فراح بدوره يردد بصره بينه وبين ابيه متسائلا ، ثم انتبه اناس الى المشهد فركزوا فيه انظارهم مترقبين في دهشة واستطلاع ، وعند ذاك لم يتمالك السيد ان خاطبه متسائلا في استياء:

ــ مالك يا اخي تنظر الينا هكذا ؟ ..

فأشار الازهري الى ياسين وصاح بصوت كالرعد :

ــ جاسوس ! ...

نفذت الكلمة الى صدر الاسرة كالرصاص فدار رأسها وحملقت اعينها وجمدت في اماكنها ، على حين جرت التهمة على الالسن فرددتها في فزع وحنق واخذ الناس يتجمعون حولهم وأذرعهم تشتبك في حذر لتحصرهم في دائرة ما لها من منفذ ، وكان السيد اول من ثاب الى وعيه ، ومع انه لم يفهم شيئا مما يدور حوله ... الا انه ادرك خطورة الصمت والانكماش فهتف بالشاب غاضبا :

ــ ماذا تقول يا سيدنا الشيخ ؟ .. أي جاسوس تعني ؟

ولكن الشاب لم يأبه للسيد ، فأشار مرة اخرى الى ياسين وصاح :

ــ حذار ايها الناس ، هذا الشاب الخائن جاسوس من جواسيس الانجليز أندس بينكم ليتسقط الانباء ثم ينقلها الى سادته المجرمين .

ركب الغضب السيد فتقدم من الشاب خطوة وصاح به غير متمالك نفسه :

ــ انت تهرف بما لا تعرف ، فاما ان تكون مجرما او مجنونا . هذا الشاب ابني لا خائن ولا جاسوس ، كلنا وطنيون وهذا الحي يعرفنا كما نعرف، انفسنا ..

فهز الشيخ منكبيه استهانة وصاح بصوته الخطابي :

ــ جاسوس انجليزي حقير ، رأيته بعيني رأسي مرارا وهو يناجي الانجليز عند بين القصرين ، عندي شهود على ذلك ،ولن يجرؤ على تكذيبي اني اتحداه ... ليسقط الخائن ...

وتجاوبت في اركان الجامع دمدمة غاضبة ، تعالى الهتاف هنا وهناك « ليسقط الجاسوس » ... وصاح غيرهم « فليؤدب الخائن » .. ولاحت في اعين القريبين نذر الوعيد تترصد بادرة او اشارة كي تنقض على

الفريسة ، لعله لم يؤخر اقدامها الا منظر السيد المؤثر الذي وقف لصق ابنه كأنما يتلقى عنه ما يتهدده من أذى ، ودموع كمال الذي اغرق في الانتحاب . أما ياسين فقد وقف بين السيد وفهمي فاقد الوعي من الاضطراب والوجل ، وجعل يقول بصوت متهدج لم يسمعه احد :

ــ لست جاسوسا .. لست جاسوسا .. الله على صدق قولي شهيد .

ولكن الغضب بلغ بالناس مداه ، فتجمهروا حول الدائرة المحصورة وهم يتدافعون بالمناكب ويتوعدون « الجاسوس » شرا ، على ان صوتا من وسط الزحام ارتفع هاتفا :

ــ تمهلوا يا سادة ... هذا ياسين أفندي كاتب مدرسة النحاسين ..

فانطلقت اصوات كالهدير :

ــ مدرسة النحاسين او الحدادين فليؤدب الخائن ...

وكان رجل يشق طريقه بين الاجسام بصعوبة ولكن بعزم لا يقهر .. فما بلغ الصف الامامي حتى رفع يديه وهو يزعق : « اسمعوا .. اسمعوا » .. ولما هدأت الاصوات قليلا قال وهو يومىء الى السيد احمد :

ــ هذا السيد احمد عبد الجواد من أهل النحاسين المعروفين .. ولا يمكن ان يضم بيته جاسوسا ، فتريثوا حتى تنجلي الحقيقة ...

ولكن الازهري صرخ حانقا :

ــ لا شأن لي بالسيد احمد او السيد محمد ، هذا الشاب جاسوس مهما يكن من امر أبيه ، رأيته يضاحك الجلادين الذين زحموا القبور بأبنائكم ...

بأبنائكم .. وما عتم ان صاح اناس لا حصر لهم : ــ ليضرب بالاحذية ..

وسرت في المتجمهرين حركة عنيفة ، فأقبل متحمسون من كل صوب ملوحين بالاحذية والمراكيب حتى شعر ياسين بالانهيار واليأس . دارت عيناه فيما حوله فلم تقعا الا على وجه متحرش يفور بالغضب والبغضاء ، والتصق السيد وفهمي بجانبي ياسين بحركة غريزية كأنما ليدفعا عنه الاذى او ليقاسماه اياه ، وهما على حال من اليأس والقهر لم تكن دون ما يأخذ بخناقه ، على حين انقلب انتحاب كمال صراخا كاد يغطي على اصوات الثائرين . كان الازهري اول المهاجمين فرمى بنفسه على ياسين قابضا على بنيقة قميصه ثم جذبه بعنف لينتزعه من المأوى الذي لاذ به بين أبيه واخيه

حتى لا تخطئه الاحذية ، ولكن ياسين قبض على معصميه مقاوما ودخل السيد بينهما ، ورأى فهمي أباه في الموقف المثير لاول مرة في حياته ... فاستفزه غضب شديد اذهله عما يحدق بهم من خطر ، فدفع الازهري في صدره دفعة قوية ردته الى الوراء فصاح به متوعدا :

ـ حذار ان تتقدم خطوة واحدة ! فصرخ الازهري وقد جن جنونه:

ـ ادبوهم جميعا .. عند ذاك علا صوت قوي يقول بلهجة آمرة :

ـ انتظر يا سيدنا الشيخ .. انتظروا جميعا ..

فاتجهت الانظار الى الصوت ،فاذا بأفنديشاب يبرز من بين الجموع الى الدائرة المحصورة يتبعه ثلاثة في مثل سنه وزيه ، تقدموا في خطوات ثابتة توحي بالثقة والعزم حتى وقفوا بين الشيخ وبين المتهم وذويه ،تهامس كثيرون متسائلين « بوليس ؟ بوليس ؟ » بيد ان التساؤل انقطع حينما مد الازهري يده الى يد قائد الجماعة القادمة وشد عليها بحرارة ، ثم سأل الافندي الازهري بنبرات حاسمة : ـ أين هذا الجاسوس ؟ ...

فأشار الشيخ الى ياسين بازدراء وتقزز . فالتفت الشاب اليه وثبت عليه عينيه متفحصا اياه بدقة وقسوة ، وقبل ان ينبس بكلمة تقدم فهمي خطوة الى الامام كأنما ليسترعي انتباهه فلمحه الاخر .. وسرعان مااتسعت عيناه دهشة وانكارا فغمغم قائلا : ـ انت ...

فابتسم ابتسامة شاحبة وقال بلهجة لا تخلو من تهكم :

ـ هذا الجاسوس أخي ... !

فالتفت الشاب الى الازهري متسائلا : ـ أأنت متأكد مما تقول ؟..

فبادره فهمي قائلا :

ـ ربما صدق في قوله .. انه رآه يحادث الانجليز ولكن اساء التفسير ايما اساءة ، ان الانجليز معسكرون امام بيتنا وهم يتعرضون لنا في الذهاب والاياب فنتورط احيانا في محادثتهم على كره ... هذا كل ما هنالك ... وهم الازهري بالكلام ولكن الشاب اسكته باشارة من يده، ثم خاطب الجمع قائلا وهو يضع يده على منكب فهمي :

ـ هذا الشاب من الاصدقاء المجاهدين، كلانا يعمل في لجنة واحدة فكلامه عندي مصدق .. أخلوا سبيلهم .

لم ينبس احد بكلمة ، انسحب الازهري بلا تردد ومضى الناس

يتفرقون • صافح الشاب فهمي ثم ذهب يتبعه رفاقه ، ربت فهمي على رأس كمال حتى كف عن البكاء ، ساد الصمت فأخذ كل يضمد جراحه • انتبه السيد الى وجوه نفر من معارفه قد احاطوا به وراحوا يواسونه ويعتذرون اليه عن الخطأ الكبير الذي وقع فيه الازهري ومن ضل به من الناس ، ويؤكدون له انهم لم يألوا جهدا في الدفاع عنه فشكرهم ، وان كان لا يدري متى جاءوا ولا كيف دافعوا عنه ، وعدل عن الزيارة لما استحوذ عليه من انفعال فاتجه صوب الباب مطبق الفم متجهم الوجه وتبعه الابناء في صمت ثقيل

★ ★

في الطريق استرد انفاسه ، فداخله ارتياح لابتعاده عن الناس الذين شاركوا في « الحادث » ولو بمجرد الرؤية ، كره وقتذاك كل شيء وراءه وقذفه باللعنات ، لم يكد يرى من الطريق الذي يسير فيه شيئا ، فتبادل التحية مرتين مع اثنين من معارفه على نحو مقتضب متكلف لم يعهد فيه من قبل ، تركز شعوره في ذاته ـ ذاته الجريحة ـ وسرعان ما فار بالغضب •• كان أحب الي أن تنتهي الحياة من ان أقف ذلك الموقف المزري ، كالاسير بين طغمة من اللئام ، وهذا المجاور القمل مدعي الوطنية الجوعان تهجم علي بكل وقاحة • لم يرع لي حرمة سن او مهابة ، لم أخلق لهذا ، ليس « انا » الذي يهان بتلك الكيفية ، وبين ابنائي •• لا تعجب ••• ابناؤكهم أصل البلوى . هذا الثور ابن المرة لن يعفيك من متاعبه ابدا • فقس الفضائح في بيتي وأوقع بيني وبين اعز الاصدقاء ، ثم توج عامنا بالطلاق •• لم يكفه هذا كله . كلا • ابن هنية لا بد ان يسامر الانجليز جهارا كي ادفع انا الثمن للسفلة المتهجمين ، اذهب بهم اليها كي يكمل متحف عشاقها بالانجليز والاستراليين •••

ـ يبدو لي انني لن اخلص العمر من متاعبك ؟ ••

ندت عنه هذه الجملة بحدة ، بيد انه قاوم رغبته في تأديبه لانه رغم غضبه قدر حاله الذي يرثى لها ، رآه ذاهلا شاحبا متوعكا فلم تطاوعه نفسه في الهجوم عليه ، حسبه الان ما حاف به ، ليس وحده الذي يتحفه بالمتاعب ، هنالك البطل ، ولكن فلنؤجل همه حتى نفيق من متاعب الثور ، ثور في البيت ، في الحانة •• ثور امام ام حنفي ونور ، أما في المعركة فهو رطل خرع لا فائدة منه ولا عائدة ، يا اولاد الكلب ! ••• الله يقطع الاولاد

والخلف والبيوت ، آه •• لمـاذا تسوقني قدماي الى البيت ؟! ••• لم لا أتناول لقمتي بعيدا عن الجو المسموم ؟! ••• ستولول هي الاخرى اذا علمت بالخبر ، لست في حاجة الى مزيد من القرف ، الى الدهان •• سأجد حتما صديقا اقص عليه رزيتي واشكو اليه همي •• كلا •• لدي متاعـب اخرى لا تقبل التأجيل اكثر من هذا ، البطل ، مصيبة جديدة يجب ان نجد لها علاجا ، الى الغداء المسموم ،ولولي ••• ولولي •• ولولي •• ملعـون ابوك انت الاخرى ••

لم يكد فهمي يغير ملابسه حتى دعي الى مقابلة والده ، فلم يملـك ياسين على خموده وكربه الا أن يغمغم قائلا : ــ جاء دورك •••

فتساءل فهمي متجاهلا المعنى الكامن وراء ملاحظة اخيه: ــ ماذا تعني؟

فضحك ياسين ــ اجل وسعه اخيرا ان يضحك ــ وقال :

ــ انتهى دور الخونة وجاء دور المجاهدين •• !

لشد ما تمنى أن تغيب النعوت التي نعته بها صديقه في الجامع وراء ضجة الثورة وذهول الانفعال ، ولكنها لم تغب ، ها هو ياسين يرددها ،ولا شك أن أباه يدعوه من اجل مناقشتها • تنهد فهمي من الاعماق ثم ذهب • وجد السيد متربعا على الكنبة يعبث بحبات سبحته وفي عينيه نظرة تنم عن تفكير كئيب ، فحياه بأدب جم ووقف على بعد مترين من الكنبة في خضوع وامتثال ، ورد الرجل تحيته بحركة خفيفة من رأسه تدل على الضيق اكثـر مما تدل على التحية ، وكأنما تقول له : « اني أرد تحيتك مرغما كما تقضي اللياقة ، ولكن ادبك الزائف هذا لم يعد ينطلي علي » ••• ثم حدجه بنظرة متجهمة ينبعث منها شعاع الارتياب كأنه مصباح كشاف يفتش عن مختبىء بالظلام وقال بحزم :

ــ دعوتك لاعرف كل شيء ، اريد ان اعرف كل شيء ، ماذا قصـد صديقك بقوله انك من « الاصدقاء المجاهدين » وانكما تعملان في لجنـة واحدة ؟ ••• صارحني بكل شيء دون تردد •••

ومع ان فهمي اعتاد في الاسابيع الاخيرة ان يواجه اخطارا شتـى ، حتى الطلقات النارية الف أزيزها ، الا انه لاقى تحقيق أبيه بقلب ما قبـل الثورة ، ركبته الرهبة وشعر بانه لا شيء ، وتركز تفكيره في تحـاشـي غضبه ونشدان النجاة فقال برقة وادب :

ـ الامر بسيط جدا يا بابا ، لعل صديقي بالغ في قوله كي ينتشلنا من ورطتنا ••• فقال السيد وقد نفذ صبره • ـ الامر بسيط جدا •• عال ••• ولكن أي امر هو ؟ ••• لا تخف عني اي شيء •

وكان فهمي يقلب الامر علىمختلف وجوهه في سرعة خاطفة ليختار ما يصح قوله وتؤمن مغبته •• قال :

ـ سماها لجنة وهي لا تعدو ان تكون جماعة من الاصدقاء يتحدثون كلما اجتمعوا في الشؤون الوطنية •• فهتف السيد مغيظا محنقا :

ـ الهذا استحققت لقب المجاهد •• ؟

نطق صوت الرجل بالاستنكار العنيف كأنما عز عليه ان يحاول ابنه اللعب به •• وارتسم الوعيد في تجعدات عبوسته • فسارع فهمي ـ دفاعا عن النفس ـ الى الاعتراف بشيء ذي بال ليقنع اباه بانه امتثل امره كالمتهم الذي يتطوع بالاعتراف طمعا في الرأفة ••قال فيما يشبه الحياء : ـ يحدث احيانا ان نقوم بتوزيع بعض النداءات الحاثة على الوطنية •••

فتساءل السيد بانزعاج شديد: ـ المنشورات !••هل تعني المنشورات؟

ولكن فهمي هز رأسه سلبا ، خاف ان يعترف بهذا الاسم الذي يقرن في البلاغات الرسمية بأقسى العقوبات ، وقال بعد ان وجه صيغة مقبولة تخفف من خطورة اعترافه :

ـ ليست الا نداءات تحث على حب الوطن •••

ترك الرجل السبحة تسقط من يده الى حجره ، وراح يضرب كفا على كف ويقول وهو لا يتمالك نفسه من الانزعاج :

ـ انت من موزعي المنشورات ! •• انت ! ••

زاغ بصر السيد من شدة الانزعاج والغضب : موزع منشورات ! •• من الاصدقاء المجاهدين ! ••• كلانا يعمل في لجنة واحدة ! •• هل بلغ الطوفان مرقده ؟! •• طالما راعه فهمي بأدبه وبره وذكائه ، لولا ان الثناء في نظره مفسدة وان الفظاظة تهذيب وتقويم لاوسعه ثناء ، كيف انجلى هذا كله عن موزع منشورات •• مجاهد •• كلانا يعمل في لجنة واحدة ؟!•• انه لا يحتقر المجاهدين ، هو ابعد ما يكون عن ذلك ، طالما تابع انباءهم بحماس ودعا لهم عقب كل صلاة بالتوفيق ، طالما ملأته اخبار الاضراب والتخريب والمعارك أملأ اعجابا ،ولكن الامر يختلف كل الاختلاف اذا صدر

عمل من هذه الاعمال عن ابن من ابنائه ، كأنهم جنس قام بذانه خارج نطاق التاريخ ، هو وحده الذي يرسم لهم الحدود لا الثــورة ولا الزمــن ولا الناس ، الثورة واعمالها فضائل لا شك فيها ما دامت بعيدة عن بيته .. فاذا طرقت بابه ، واذا تهددت امنه وسلامه وحياة ابنائه ، تغير طعمها ولونها ومغزاها . انقلبت هوسا وجنونا وعقوقا وقلة ادب . فلتشتعل الثــورة في الخارج وليشارك فيها هو بقلبه كله ، وليبذل لها ما في وسعه من مال .. وقد فعل ولكن البيت له وحده دون شريك ، ومن تحدثه نفسه ــ فيــه ــ بالاشتراك في الثورة فهو ثائر عليه هو لا على الانجليز ، انــه يترحم ليل نهار على الشهداء ويعجب كل الاعجاب بالشجاعة التي يتذرع بها آلهم فيما يروي الرواة ، ولكنه لن يسمح لابن من ابنائه بأن ينضم الى الشهداء ولا تطيب نفسه بهذه الشجاعة التي يتذرع بها آلهم ، فكيف سولت نفس فهمي له بالاقدام على هذه الخطوة الجنونية ؟ كيف ارتضى ــ وهو خير ابنائه ــ ان يعرض نفسه الى الهلاك المبين ؟ ... انزعج الرجل انزعاجا لم يشعر بمثله من قبل ، فاق انزعاجه في مأزق الجامع نفسه ، فلم يتمالك ان يسأله بصرامة ووعيد كأنه احد مفتشي البوليس الانجليزي :

ــ الا تعلم ما جزاء الذي يضبط وهو يوزع منشورات .. ؟!

رغم خطورة الموقف وما يقتضيه من تركيز فكره فيه ، أيقظ السؤال ذكرى غريبة اهتزت لها نفسه ، ذكرى هذا السؤال نفسه بنصه ومعنــاه حينما طرحه عليه الرئيس الاعلى للجنة الطلبة التنفيذية ــ بين جملة مــن اسئلة اخرى ــ وهو بصدد اختياره عضوا فيها ، ثم ذكر بالتالي كيــف اجابه وقتذاك بعزم وحماس « كلنا فداء للوطن » وقارن بين الظرفيــن اللذين القى فيهما السؤال الواحد ، فاعتراه شعور بالسخرية ،بيد انه اجاب والده برقة وبصوت يوحي بالتهوين :

ــ اني اقوم بالتوزيع بين الاصدقاء من الزملاء فقط ، ولا شــأن لي بالتوزيع العام ... فليس ثمة مخاطرة او خطر ..

فهتف السيد بغلظة وكأنه يداري خوفه على ابنه بحدة الغضب :

ــ ان الله لا يكتب السلامة لمن يعرض نفسه للهلاك ، وقد امــرنــا سبحانه بألا نعرض انفسنا للتهلكة ...

ود الرجل ان يستشهد بالآية التي تترجم هذا المعنى ، ولكنه لم يكن

يحفظ من القرآن الا السور القصيرة التي يتلوها في صلواته . فخاف ان يسهو عن لفظ او يحرفه فيحمل نفسه وزرا لا يغتفر ، فاكتفى بترديد المعنى وكرره حتى يبلغ مداه ، ولكنه ما يدري الا وفهمي يقول بلهجته المهذبة :

ـ ولكن الله يحث المؤمنين على الجهاد كذلك يا بابا ..

ساءل فهمي نفسه فيما بعد متعجبا كيف واتته شجاعته على مجابهة السيد بهذا القول الذي فضح ما داراه من استمساك برأيه ! ... لعله احتمى بالقرآن فوقف وراء معنى من معانيه مطمئنا الى ان اباه سيحجم في تلك الحال عن مهاجمته ، وقد بوغت السيد مباغتة شديدة بجرأة ابنه وحجته معا ، ولكنه لم يستسلم للغضب لان الغضب ربما اسكت فهمي ولكنه لن يسكت حجته ، فتناسى جرأته الى حين ريثما يقرع حجته بحجة مثلها من القرآن ، يجب ان يجد لمأزقه مخرجا من القرآن نفسه حتى تتم الهداية للابن الضال ، وله بعد ذلك ان يعود الى محاسبته كيفما شاء ، وفتح الله عليه فقال : ـ ذلك كان جهادا في سبيل الله ...

اعتبر فهمي جواب ابيه قبولا للمناقشة والمحاجة ، فتشجع مرة اخرى قائلا : ـ جهادنا في سبيل الله كذلك ، كل جهاد شريف فهو في سبيل الله ..

آمن السيد بقوله في قلبه ، ولكن هذا الايمان نفسه وما خلفه من شعور بالضعف امام محدثه ، هو ما جعله يرتد الى غضبه دون ابطاء .. بيد انه لم يكن غضبا لكبريائه فحسب ، ولكن ايضا لاشفاقه من ان يتمادى الشاب في غيه حتى يودي بنفسه ، فكف عن الجدل وتساءل مستنكرا :

ـ أحسبتني قد دعوتك لتناقشني !

انتبه فهمي الى ما تنطوي عليه كلمات ابيه من نذير ، فضاعت احلامه وانعقد لسانه ... اما السيد احمد فعاد يقول بحدة :

ـ لا جهاد في سبيل الله الا ما أريد به وجه الله وحده ـ اي الجهاد الديني ـ لا جدال في هذا ! .. والان اريد ان اعرف الا يزال أمري مطاعا ؟

فبادره الشاب قائلا : ـ بكل تأكيد يا بابا ..

ـ اذن أقطع كل صلة بينك وبين الثورة .. ولو اقتصر دورك على توزيع المنشورات على خاصة اصدقائك !

ان قوة في الوجود لا يمكن ان تحول بينه وبين واجبه الوطني ، لن يتراجع مطلقا ولو خطوة واحدة ، انتهى زمان ذلك الى غير رجعة ، ان هذه

الحياة الحارة الباهرة التي تنبثق من اعماق قلبه وتضيء جوانب نفسه لا يمكن ان تغيض وهيهات ان يغيضها هو بيده ، كل هذا حق لا شك فيه ، ولكن لماذا لا يلتمس وسيلة الى ارضاء ابيه وتحامي غضبه ؟! .. انه لا يستطيع ان يتحداه ولا أن يجهر بمخالفة امره ، اجل استطاع ان يثور على الانجليز وان يتحدى رصاصهم كل يوم تقريبا ، ولكن الانجليز عدو مخيف وبغيض معا اما ابوه فرجل مخيف ومحبوب ، وهو يعبده بقدر ما يخافه فلن يهون عليه ان يصدمه بعصيان ، وثمة احساس اخر لا سبيل الى تجاهله هو ان وراء الثورة على الانجليز مثالية نبيلة ، اما وراء التمرد على أبيه فليس الا الخزي والتعاسة ، وماذا يدعو الى هذا كله ؟! .. لماذا لا يعده بالطاعة ثم يفعل ما يشاء ؟! ... لم يكن الكذب في هذا البيت الرذيلة المخزية ، ولم يكن في وسع احد منهم ان يتمتع بالسلامة في ظل الاب دون حماية من الكذب ، وهم يجاهرون به فيما بينهم وبين أنفسهم ، بل ويتفقون عليه الموقف الحرج ، وهل كان في نية الام يوم تسللت في غيبة السيد الى زيارة الحسين ان تعترف بفعلتها ؟ .. وهل كان في وسع ياسين ان يسكر ، وهو ان يحب مريم ، وكمال ان يتعفرت بين خان جعفر والخرنفش بلا حماية من الكذب ؟ .. ليس الكذب مما يتورع عنه احد منهم ، ولو انهم التزموا الصدق مع ابيهم ما ذاقوا للحياة طعما ، لهذا كله قال بهدوء :

ـ امرك مطاع يا بابا ..

وأعقب هذا التصريح صمت تنفس فيه كلاهما من الراحة ، فظن فهمي أن استجوابه قد انتهى بسلام ، وظن السيد احمد انه انتشل ابنه من الهاوية. وبينما كان فهمي ينتظر ان يؤذن له بالانصراف ، قام الاب فجأة واتجه الى صوان الملابس ففتحه ودس يده فيه والشاب يراقبه بعينين لا تدركان شيئا ثم عاد الى مجلسه حاملا القرآن ، ونظر الى فهمي مليا ثم مد يده بالكتاب اليه وهو يقول : ـ أقسم لي على هذا الكتاب ...

وتراجع فهمي بحركة عكسية ندت عنه قبل ان يتدبر امره ، كأنما يفر من لسان لهب امتد اليه فجأة ، وتسمر في موقفه وهو يحملق في وجه ابيه مرتبكا مذعورا يائسا ، فلبث السيد مادا يده بالكتاب وهو ينظر اليه في غرابة وانكار ، ثم احمر وجهه كأنه يلتهب وانبعث من عينيه بريق مخيف ، وتساءل في ذهول وكأنه لا يصدق عينيه : ـ الا تريد ان تقسم ؟!

ولكن لسان فهمي انعقد فلم ينبس بكلمة ولم يبد حراكا ، فتساءل الرجل بصوت هادىء تخللته رعشة متهدجة انذرت بما يفور تحته من غضب مستعر كما ينذر البرق بقعقعة الرعد :

ـ أكنت تكذب علي .. ؟

لم يطرأ على فهمي تغير الا انه غض بصره فرارا من عيني أبيه ، ووضع السيد الكتاب على الكنبة ثم انفجر صائحا بصوت مدو خاله فهمي كفوفا تهوي على خديه :

ـ انت تكذب علي يا بن الكلب ! ... انا لا اسمح لمخلوق بأن يضحك على ذقني ، ماذا تظن بي وماذا تظن بنفسك ! .. أنت حشرة خبيثة مجرمة ،بنت كلب خدعت بظاهرها طويلا ،لن انقلب امرأة على اخر الزمن ، سامع ؟!. لن انقلب امرأة على اخر الزمن ، حيرتموني يا اولاد الكلب وجعلتموني اضحوكة الناس ، انا أسلمك بنفسي الى البوليس،فاهم ؟!. بنفسي يا بن الكلب الكلمة هنا كلمتي أنا أنا أنا أنا ... (ثم متناولا الكتاب مرة اخرى) أقسم ... آمرك بأن تقسم ...

بدا فهمي وكأنه في غيبوبة ، كانت عيناه مثبتتين على بعض الصور الغريبة المنقوشة على السجادة الفارسية دون ان تريا شيئا ، وكأن تلك النقوش قد انطبعت بادامة النظر على صفحة عقله فاستحال شتيتا من الفوضى والخواء ، وكلما مرت ثانية امعن في الصمت واليأس ، لم يبق له الا ان يلوذ بهذه المقاومة السلبية اليائسة . ونهض السيد والكتاب في يده فاقترب خطوة منه ثم زعق :

ـ أتوهمت انك رجل ؟ .. ،اتوهمت انك تستطيع ان تفعل ما تشاء؟ لو أشاء اضربك حتى اكسر راسك ..

لم يملك فهمي عند ذاك الا ان يبكي ، لا خوفا من التهديد فما كان يبالي في موقفه وتأثره بأي أذى يصيبه ، ولكن تنفيسا عن قهره وترويحا عن الصراع الناشب في صدره ، ثم جعل يعض على شفتيه ليكتم البكاء ، ثم اعتراه الخجل لما ركبه من ضعف ، بيد انه وسعه اخيرا ان يتكلم لشدة تأثره من ناحية ومداراة لخجله من ناحية اخرى ، فاسترسل قائلا في ضراعة ورجاء :

ـ سامحني يا بابا ،أمرك مطاع فوق العين والرأس ولكني لا استطيع

لا استطيع ، اننا نعمل يدا واحدة فلا أرضى ولا ترضى لي ان انكص واتخلف عن اخواني ، هيهات أن تطيب لي الحياة ان فعلت ، ليس ثمة خطر وراء ما نعمل ، غيرنا يقوم بأعمال اجل كالاشتراكات في المظاهرات وقد استشهد منهم كثيرون ، لست خيرا منهم . ان الجنازات تشيع بالعشرات معا ولا هتاف فيها الا للوطن ، حتى اهل الضحايا يهتفون ولا يبكون ، فما حياتي ؟ ... وما حياة اي انسان ؟ .. لا تغضب يا بابا وفكر فيما اقول .. وأكرر على مسمعك بأنه ليس ثمة خطر وراء عملنا السلمي الصغير ... !

وغلبه الانفعال فلم يعد يستطيع مواجهة ابيه ففر من الحجرة هاربا . كاد يصطدم وراء الباب بياسين وكمال اللذين وقفا يتصنتان وقد ارتسم على وجهيهما الارتياع ...

★ ★

كان ياسين ماضيا الى قهوة احمد عبده حينما التقى في بيت القاضي بأحد اقرباء امه ، فأقبل الرجل نحوه باهتمام ثم صافحه وهو يقول :

ـ كنت ذاهبا الى البيت لمقابلتك ...

حدس ياسين وراء كلامه انباء عن أمه التي اورثته الهموم ، فأحس ضيقا وتساءل بفتور : ـ خير ان شاء الله .. ؟

فقال الرجل باهتمام غير عادي:

ـ والدتك مريضة ، مريضة جدا في الواقع ، اصابها المرض منذ شهر او اكثر ولكني لم أعلم به الا في هذا الاسبوع ، وقد ظنوه بادىء الامر حالة عصبية فسكتوا عنه حتى استفحل ثم تبين بعد فحص الاطباء انه ملاريا شديدة ..

دهش ياسين للخبر الذي لم يكن يتوقعه ، كأنه يتوقع حديثا عن طلاق او زواج او شجار وما شاكل ذلك ، اما المرض فلم يقع له في حسبان ،تساءل وهو لا يكاد يتبين مشاعره من شدة اعتلاجها : ـ وكيف حالها الان ..؟

قال الرجل بصراحة لم يخف مغزاها على ياسين :

ـ حالها خطيرة ! ... امتد العلاج دون أن يبشر بأدنى تقدم ، وبالاحرى ازدادت الحال سوءا ، وقد ارسلتني اليك كي اصارحك بأنها تشعر بدنو اجلها ، وانها ترجو ان تراك دون تأخير .. ثم بلهجة ذات معنى:

ـ يجب ان تذهب اليها بلا تردد ،هذه نصيحة ورجاء ، والله غفور رحيم ..

لعل كلام الرجل لم يخل من مبالغة اراد بها دفعه الى الذهاب ولكنه ليس اختلاقا كله ، فليذهب ولو بدافع الواجب وحده ، ها هو يخترق مرة جديدة منحنى الطريق المفضي الى الجمالية بين بيت المال وحارة الوطاويط، الى يمينه عطفة التيه حيث تلبد بائعة الدوم في ذكريات الظلام المرتعشةوالى الامام طريق الآلام ، سيرى عما قليل دكان الفاكهة فيغض البصر ويتسلل كاللص الهارب ، كلما ظن انه لن يعود اليه عادت به تعاسته ، ما من قوة كانت تستطيع ان تعيده اليها .. الا الموت ! .. الموت ! .. ترى هل حمت النهاية حقا ؟!.. قلبي يخفق ، ألما ؟ ... حزنا ؟ ... لا ادري الا اني خائف ، اذا ذهبت فلن اعود الى هذا المكان مرة اخرى .. سيغشى النسيان سالف الذكريات ... ثم ترد الى البقية الباقية من املاكي ، ولكني خائف ... وحانق على هذه الافكار الخبيثة ، اللهم احفظنا ...

حتى اذا حظيت بعيشة ارغد وبال آصفى فلن ينجو قلبي من الآلام ، حين الموت سأودع اما بقلب ابن ... أم وابن اليس كذلك ؟.. لست الا معذبا لا وحشا ولا حجرا ، بيد انالموت زائر جديد علي لم اشهد محضره من قبل ، وددت لو كانت النهاية بغيره ، سنموت جميعا ... حقا ؟! يجب الا استسلم للخوف ، ان انباء الموت لا تنقطع عنا ليل نهار في هذه الايام ، في شارع الدواوين والمدارس والازهر . وهنالك في اسيوط كل يوم ضحايا ، حتى المسكين الفولي اللبان فقد ابنه امس ، ما عسى ان يصنع اهل الشهداء ؟ ... ايقضون العمر بكاء ؟... أنهم يبكون ثم ينسون وهذا هو الموت ، أف ... يخيل الي انه ليس ثمة مفر من المتاعب الان ، ورائي في البيت فهمي وعناده وامامي أمي فما انغص الحياة ، واذا كان الامر مكيدة ووجدتها في خير وعافية ؟! .. ستدفع الثمن غاليا .. يقينا لتدفعن الثمن .. .لست لعبة او اضحوكة ، لن تجد « الابن » الا حين الموت ،ترى ماذا بقي لي من ثروة ؟... واذا دخلت البيت التقي بذلك «الرجل» هنالك؟ لا ادري كيف اقابله ... ستلتقي عينانا في لحظة رهيبة ، الويل له ، اتجاهله او اطرده هذا هو الحل ، هنالك الوآن من العنف لا تخطر له ببال ، ولكن ستجمعنا الجنازة حتما .. وهذا مضحك ، تصور ان يسير وراء النعش اقدم الازواج وأحدثهم وبينهما الابن دامع العينين ... حتم وقتذاك ان تدمع عيناي ... أليس كذلك ؟ ..لن يكون في وسعي ان اطرده من الجنازة

فتلاحقني الفضيحة حتى اللحظة الاخيرة ••• ثم تدفن ، أجل تدفن وينتهي كل شيء ، ولكني خائف ومتألم ومحزون ، ان الله وملائكته يصلون علي•• هذه هي الدكان المجرمة •• وهذا هو ••• لن يعرفني ، هيهات ، اننا نتنكر بالعمر ، يا عم ••• أمي تقول لك ••

فتحت له الخادم الباب ـ نفس الخادم التي استقبلته منذ عام فأنكرته ـ فتطلعت اليه كالمتسائلة لحظة ، وسرعان ما غابت نظرة التساؤل وراء لمعة كأنما تقول له : «آه ••• انت الذي تنتظر» ثم افسحت له وهي تومىء الى حجرة عن يمين الداخل قائلة : ـ تفضل يا سيدي •• لا يوجد احد ••

جذبت العبارة الاخيرة انتباهه بقوة كأنما جاءته جوابا شافيا لبعض حيرته ، فأدرك ان أمه اخلت له الطريق • اتجه الى الحجرة ، وتنحنح ، ثم دخل • وقعت عيناه على عيني امه وهما ترفعان اليه من فراش على يسار الداخل ، عينين حجبت صفاءهما المعهود غشاوة باهتة فلاحت نظرتهما الواهنة كأنما تتطلع اليه من بعيد ، وبالرغم من ذبولهما وما اوحى به انطفاؤهما من عدم الاكتراث لشيء فقد ثبتتا على وجهه ثبوت العرفان ، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة خفيفة وشت بظفر وارتياح وامتنان • لم يكن يبدو منها الا وجهها اذ اشتملت ببطانية حتى الذقن ، وجه ادركه من التغير فوق ما ادرك العينين ، جف بعد اكتناز واستطال بعد استدارة وشحب بعد تورد وشف جلده الرقيق عن عظام الفك والوجنتين البارزة فبدا صورة للرثاء والفناء • وقف ذاهلا منكرا كأنه لا يصدق ان ثمة قوة في الوجود تجرؤ على هذا العبث القاسي ، فقبض قلبه فزعا كأنه يرى الموت نفسه ، تخلت عنه رجولته كأنما ارتد طفلا وافتقد اباه ايما افتقاد ، ثم دفعه تأثر لا يقاوم الى الفراش حتى انحنى فوقها مغمغما في نبرات اسيفة :

ـ لا بأس عليك ••• كيف حالك ؟

ملأه شعور صادق بالرحمة غابت في حرارته آلامه المزمنة كما تغيب ـ في احوال نادرة ـ ظاهرة مرضية ميئوس منها ، كالشلل ، عند هجوم فزع هائل مفاجيء •• كأنه يلقي ام طفولته التي احبها قبل ان تواريها عن قلبه الآلام ، فتشبث ـ وعيناه مرسلتان الى الوجه الفاني ـ بهذا الشعور المستجد الذي رده اعواما طويلة الى الوراء ـ الى ما وراء الألم ـ كما يتشبث المريض المتهالك بصحوة طارئة يخاف عليها احساسا باطنيا يوشك

الزوال ، تشبث به بشدة خليقة برجل يقدر القوى المضادة التي تتهدده ،وان دل تشبثه نفسه على ان آلامه لم تزل تضطرم في اعماق الاعماق منذرة اياه بما يترصده من حزن اذا هو تهاون فخلط بشعوره الصافي ما يفسده من مشاعر اخرى ، واخرجت المرأة من تحت الغطاء يدا ممصوصة معروقـــة اكتست بشرتها الجافة بمزيج من سواد باهت وزرقة كأنها يد محنطة منذ آلاف السنين فتناولها بين يديه بتأثر شديد ، وعند ذاك سمـــع صوتهـا الضعيف المبحوح وهو يجيبه قائلا : ــ كما ترى ، صرت خيالا .. فغمغم:

ــ ربنا يدركك برحمته ، ويردك الى خير مما كنت ...

فندت عن رأسها المعصوب بخمار ابيض حركة دعائية كأنما تقول :«ربنا يسمع منك » .. واشارت اليه ان يجلس فجلس على الفراش، ثم استرسلت ــ بقوة جديدة استمدتها من محضره ــ تقول :

ــ في اول الامر كانت تنتابني رعشة غريبة فحسبتها طارئا عصبيـا . نصحوني بالطواف ببيوت الله وبالتبخر فزرت الحسين والسيدة وتبخرت بأنواع شتى من البخور الهندي والسوداني والعربي ،ولكن لم تكن الحال تزداد الا سوءا .. . احيانا كانت تملكني رجفة متواصلة لا تدعني حتـى أكون قد اشفيت على الهلاك ، وتمر بي اوقات اجد جسمي باردا كالثلج ، واوقات اخرى تمتد النار في جسدي حتى اصرخ من شدة الحرارة اخيرا صمم ســـ .. (امسكت عن النطق بالفاعل منتبهة في اللحظة الاخيرة الى الخطأ الذي كانت ستقع فيه) .. أخيرا استحضرت الطبيب ، ولكن لـم يتقدم بي العلاج خطوة واحدة نحو الصحة ان لم يكن تأخر خطوات، لم تعد ثمة فائدة ترجى ...

فقال ياسين وهو يضغط برقة على راحتها :

ــ لا تيأسي من رحمة الله ، ان رحمته واسعة ..

فافتر ثغرها المتقع عن ابتسامة ضعيفة وقالت :

ــ يسرني ان اسمع هذا ، يسرني ان اسمعه منك انت قبل النـاس جميعا ، انت عندي اغلى من الدنيا ومن عليها ، صدقت ان رحمة الله واسعة، طالما ساءني الحظ ، لا أنكر الهفوات والاخطاء ، العصمة لله وحده ...

آنس ــ جزعا ــ من حديثها ميلا الى ما يشبه الاعتراف ، فانقبـض صدره وجفل جفولا حادا من ان تردد على مسمعيه امورا لا يطيقها ولو على

سبيل الندم والتكفير ••• فتوترت اعصابه حتى اوشك ان تبذل حالا بعد حال ، قال بتوسل : ــ لا تتعبي نفسك بالكلام •••

رفعت اليه عينيها باسمة وهي تقول :

ــ مجيئك رد الي الروح ، دعني اقل لك اني لم اقصد في حياتي سوءا بانسان ، كنت انشد كسائر الخلق راحة البال فيعاندني الحظ العاثر . لم اسيء الى احد ولكن كثيرين اساءوا الي •••

شعر بأن رجاءه ان تمضي الساعة بسلام سيخيب ••• وان عاطفته الصافية تعاني ازمة من التنغيص ••• فقال بلهجة التوسل السالفة :

ــ دعي الناس بخيرهم وشرهم ،صحتك الان اهم من اي شيء اخر ••
فربتت على يده باستعطاف كأنما تسأله ان يترفق بها ، ثم همست :

ــ فاتتني اشياء ، لم اؤد الى الله حقه ، وددت لو طال عمري حتى استدرك بعض ما فاتني •• بيد ان قلبي كان دائما مفعما بالايمان والله شهيد

فقال وكأنه يدفع عن نفسه وعنها معا :

ــ القلب هو كل شيء ، هو عند الله فوق الصوم والصلاة ••• فشدت على يده بامتنان ثم غيرت مجرى الحديث قائلة بترحاب :

ــ وعدت الي اخيرا ! •• •لم اجرؤ على دعوتك حتى انتهى بي المرض الى ما ترى ، داخلني شعور بانني اودع الحياة فلم اطق ان افارقها قبل ان املأ عيني منك ، فارسلت اليك وبي من الخوف من رفضك اكثر مما بي من خوف الموت نفسه ، ولكنك رحمت امك واقبلت تودعها فلك الشكر ودعاء ارجو الله ان يتقبله •••

اشتد التأثر ولكنه لم يدر كيف يعبر عن شعوره ،تثاقلت الكلمات الحنونة في فيه متعثرة فيما يشبه الحياء او الغرابة حالما اراد توجيهها الى المرأة التي ألف مجافاتها ونبذها . بيد انه وجد في يده اداة تعبير طيعة حساسة ، فضغط على راحتها مغمغما : ــ ربنا يكتب لك السلامة •••

وجعلت تدور حول المعنى الذي افصحت عنه جملتها الاخيرة ، مرددة نفس الالفاظ تارة او مستبدلة بها غيرها مما يدل على نفس معناها طورا اخر •• وراحت تفصل الحديث بازدراد ريقها بجهد ملحوظ او بالصمت القصير ريثما تسترد انفاسها ، مما دعاه مرات الى ان يرجوها بالكف عن الحديث ، ولكنها كانت تبتسم لمقاطعته ثم تعود الى مواصلة الحديث ،حتى

توقفت وقد لاح في وجهها اهتمام طارىء كلما تذكرت شيئا ذا بال ٠٠وقالت:
ــ تزوجت ٠٠ ؟ فرفع حاجبيه في شيء من الضيق وتورد وجهه ،ولكنها اخطأت فهمه فبادرته كالمعتذرة :
ــ لا عتاب ٠٠ حقا كنت اود ان ارى عروسك وذريتك ، ولكن بحسبي ان تكون سعيدا ٠٠ فما ملك ان قال باقتضاب :
ــ لست متزوجا ، طلقت منذ شهر تقريبا ٠٠٠
لاول مرة لاحت آي الانتباه في عينيها ، لو كان في الامكان ان يلتمعا لالتمعا ٠٠ ولكن انبعث منهما شبه ضوء كالضوء الحالم الذي تنضح به ستارة كثيفة ٠٠٠ وتمتمت : ــ طلقت يا بني ! ٠٠٠ ما أحزنني ٠٠!
فابتدرها قـائلا :
ــ لا تحزني ، لست حزينا ولا آسفا (ثم باسما) اخذت الشر وراحت
ولكنها تساءلت بنفس اللهجة : ــ من الذي اختارها لك٠٠هو ام هي؟
فقال بلهجة نمت عن رغبته في قفل باب هذا الحديث :
ــ اختارها الله ، كل شيء قسمة ونصيب ٠٠ !
ــ أعلم هذا ، ولكن من الذي اختارها لك ؟ ٠٠٠ أمرأة ابيك ؟
ــ كلا ابي الذي اختارها ، ولا غبار على اختياره فهي من اسـرة كريمة ، ولكنها القسمة والنصيب كما قلت ٠٠
فقالت ببرد : ــ القسمة والنصيب واختيار أبيك ٠٠ هذه هي ٠٠ !
ثم بعد وقفة قصيرة : ــ حبلى ؟ ــ نعم ٠٠٠ وهي تتنهد :
ــ الله ينكد عيشة ابيـك٠٠٠ !
تعمد الا يعقب عليها ، كما يمتنع عن حك قرحة تأكله لعلها تسكـن ٠٠ فشملهما صمت ، واغمضت المرأة عينيها كأنما انهكها التعب ، بيد انها فتحتهما هنيهة فابتسمت اليه وهي تسأله بصوت رقيق لا اثر فيه لانفعال:
ــ ترى هل يمكن أن تنسي الماضي ؟
فغض بصره منتفضا وهو يشعر برغبة في الهرب لا تقاوم ، ثم قال برجاء:
ــ لا تعودي الى ذكراه ، فليذهب الى غير رجعة ٠٠
لعل قلبه لم يعن ما يقول ،ولكن لسانه قال ما ينبغي ان يقال ٠٠٠ او لعل ذلك القول كان تعبيرا صادقا عن شعوره لحظتذاك ، تلك اللحظة التي استغرقه فيها بكليته الموقف المحيط به ، ولعل قوله : « فليذهب الـى

غير رجعة » ... قد وقع من مسمعه ــ ومن قلبه ــ موقعا غريبا خلف وراءه قلقا ، ولكنه ابى ان يجعله موضوعا لتأمله ، فر من ذلك فرارا ، وتشبث بعاطفته الصافية التي عقد العزم على التشبث بها من بادىء الامر. أما أمه فعادت تسأله :

ــ وهل تحب أمك كما كنت تحبها في الزمن السعيد ؟

فقال وهو يربت على راحتها : ــ احبها وادعو لها بالسلامة ..

سرعان ما وجد العزاء عن قلقه وجهاده الباطني فيما انطبع على وجهها الذاوي من روح السلام والارتياح العميق ، ثم شعر براحتها تضغط على يده كأنما تبثه ما يكنه صدرها من امتنان ، وتبادلا نظرة طويلة هادئة باسمة حالمة اشاعت في الحجرة جوا من الطمأنينة والمودة والحزن ، لم يعد يبدو منها ما يدل على رغبتها في الحديث او لعل الجهد حال بينها وبين هذه الرغبة ثم تراخت جفونها رويدا حتى انطبقت ، جعل ينظر اليها كالمتسائل ولكن لم تند عنه حركة ، ثم انفرجت شفتاها قليلا وانبعث منهما شخير خفيف متقطع . اعتدل في جلسته وهو يتوسم وجهها ثم اغمض عينيه قليلا ريثما يستحضر صورة الوجه الاخر الذي طالعته به منذ عام فانقبض صدره وعاوده شعور الخوف الذي طارده طوال الطريق ، ترى هل يتاح له ان يرى ذلك الوجه مرة اخرى ؟ ... وبأي قلب يلقاه ان عاد ؟! .. لا يدري ، لا يحب ان يتصور المضمر في علم الغيب ، يود ان يقف عقله عن الحركة وان يتبع الحوادث لا ان يسبقها ،واحاط به شعور الخوف والقلق ، عجبا !.. لقد ركبته رغبة في الهرب وهو ينصت الى حديثها حتى خيل اليه انه ارتاح الى نومها كل الارتياح ولكنه ما كاد ينفرد بنفسه حتى هاجمه الخوف .. خوف لم يدرك له سببا فتمنى لو تصحو من سباتها وتعود الى الحديث ، حتام ينتظر ... هبها استغرقت في النوم حتى الصباح ! ... لن يسعه ان يبقى طويلا فريسة للخوف والقلق هكذا ، يجب ان يضع حدا لآلامه .. غدا او بعد غد تكون تهنئة او تعزية ... تهنئة او تعزية ؟! ... أيهما أحب الى نفسه ؟! .. اسبق الحوادث ، غاية ما يمكن قوله لو قدر علينا ان نفترق الان لافترقنا صديقين ، تكون خير نهاية لاسوأ حياة ، اما اذا مد الله في عمرها ...

سرح طرفه وهو شارد فوقع على مرآة الصوان ــ في الجهة المقابلة ــ

التي عكست صورة الفراش فرأى جسم امه مطروحا تحت البطانية كما رأى نفسه يكاد يحجب نصفها الاعلى الا يدها التي اخرجتها عند استقباله فحملق برفق وادخلها تحت الغطاء ثم ثبته حول عنقها بعناية ، عاد ينظر الى المرآة فخطر له هذا الخاطر ! ربما عكست هذه المرآة غدا فراشا خاليا عاريا ! ••• ليست حياتها ـ حياة اي انسان •• لم لا ؟ ـ بأرسخ دواما من هذه الصور الوهمية !•• فاشتد به شعور الخوف وهمس لنفسه «يجب ان اضع حدا لآلامي •• يجب ان اذهب » ، بيد ان بصره تحرك تاركا المرآة فالتقى بخوان وضعت عليه نارجيلة التف خرطومها حول عنقها كالثعبان فثبت عليها في دهشة وانكار سرعان ما حل مكانهما شعور هائج بالتقزز والغضب ••• ذلك الرجل ! ••• هو بلا ريب صاحب هذه النارجيلة •••تخيله متربعا على الكنبة القائمة بين الفراش والخوان وقد اندلق على النارجيلة يشهق ويزفر متلذذا وامه تروح له على الجمرات •• آه ترى اين هو الان ، في مكان بالبيت ام في الخارج ؟ ••• هل رآه من حيث لم يره؟• لم يعد يحتمل البقاء مع النارجيلة اكثر مما بقي فالقى نظرة على وجه أمه التي وجدها مستغرقة في النوم ثم زايل مجلسه بخفة وسار الى الباب ، ولما التقى بالخادم في الردهة الخارجية قال لها :

ـ ستك نامت ، سأعود غدا صباحا •••

والتفت اليها مرة اخرى وهو يغادر الباب الخارجي قائلا: ـ غدا صباحا

كأنما ينبه الرجل نفسه الى موعد حضوره ليختفي من وجهه ، مضى الى حانة كوستاكي رأسا • شرب كعادته ولكنه لم يطب بالشراب نفسا • أعياه ان يطرد عن قلبه الخوف والقلق • ومع ان احلام الثورة وراحة البال لم تغب عن ذهنه الا انها لم تستطع ان تمحو من مخيلته صورة المرض وخواطر الفناء ولما عاد الى البيت عند منتصف الليل وجد امرأة ابيه في انتظاره بالدور الاول فنظر اليها متعجبا ثم تساءل خافق اللقب : ـ أمي ؟!

فاخفت أمينة رأسها وقالت بصوت خافت : ـ جاءنا رسول من قصر الشوق قبل مجيئك بساعة ، العمر الطويل لك يا ابني ••

★ ★

تطورت العلاقة بين كمال والجنود البريطانيين الى صداقة متبادلة • وقد حاولت الاسرة ان تتذرع بمأساة ياسين في جامع الحسين لتقنع الغلام بقطع علاقته مع اصدقائه ولكنه اجابهم بأنه « صغير » ، اصغر من ان يتهم

بالجاسوسية ، ولكي يتفادى من منعهم اياه بالقوة كان يمضي الى المعسكر رأسا بعد عودته من المدرسة تاركا حقيبة كتبه مع ام حنفي فلم تكن ثمة وسيلة الى منعه الا باستعمال القوة الامر الذي لم يروا له موجبا لا سيما وانه يمرح في المعسكر تحت أعينهم متقبلا في كل موضع بالترحيب والتكريم حتى فهمي نفسه اغضى عنه ولم يكن يجد بأسا في التسلي بمشاهدته وهو يتنقل بين الجنود «كقرد يلهو في غابة من الوحوش» • قولوا لسيدي الكبير

هكذا اقترحت ام حنفي مرةوهي تشكو تجرؤ الجنود عليها ــ بسبب الصداقة اللعينة ــ ومحاكاة بعضهم لمشيتها بطريقة « يستحقون عليها قطع رقبتهم » ولكن احدا لم يأخذ اقتراحها مأخذ الجد ، لا رحمة بالغلام فحسب ولكن رحمة بهم هم انفسهم خشية ان يجر التحقيق الى معرفة تسترهم الطويل على هذه الصداقة . فتركوا الغلام وشأنه ، ولعلهم لم يخلوا من رجاء في ان يقوم الشعور الطيب المتبادل بين الغلام والجنود حائلا بينهم وبين ما يحتمل ان يتعرضوا له من عبث او اذى في الذهاب والاياب ! اسعد ساعات يومه كانت تلك التي يدخل فيها المعسكر ، لم يكن جميع الجنود « اصدقاء » بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ولكن لم يعد احد منهم يجهل شخصه . كان يصافح الاصدقاء ويشد على أيديهم بحرارة على حين يكتفي برفع يده . تحية للاخرين • وربما صادف مجيئه قيام أحد الاصدقاء بنوبة الحراسة فيقبل الغلام عليه هاشا باشا وهو يمد يده فما يروعه الا ان يلقى منه جمودا غريبا مثيرا كأنما يتجاهله او كأنما تحول الى صنم فلا يدرك ان ليس في الامر تجاهل او غضب الا من أغراق الاخرين في الضحك • ولم يكن من النادر ان يباغت وهو بين الاصدقاء بصفير الانذار ،هنالك يهرعون الى الخيام ثم يعودون بعد قليل وقد ارتدوا ملابسهم وخوذاتهم وحملوا بنادقهم ، ويتحرك لوري من موقفه وراء سبيل بين القصرين الى وسط الطريق فيمضون اليه سراعا ويقفزون الى داخله حتى يكتظ بهم، بات يدرك من المنظر الذي امامه ان مظاهرة قامت في جهة ما وان الجنود ذاهبون لتفريقها وان قتالا سينشب بينهم وبين المتظاهرين ، ولكن لم يكن يهمه في تلك الاوقات الا ان يتفقد الاصدقاء ببصره حتى يعثر عليهم في زحمة اللوري وان يملأ منهم عينيه كأنما يودعهم ، وان يبسط كفيه واللوري يبتعد بهم صوب النحاسين داعيا لهم بالسلامة ثم تاليا الفاتحة ! ••• على انه لم يكن يقضي في المعسكر اكثر من نصف ساعة كل اصيل وهو اقصى

ما وسعه ان يتغيبه عن البيت عقبعودته من المدرسة ، نصف ساعة لمتكد تغفو فيها حاسة من حواسه دقيقة واحدة ، يدور حول الخيام ، يسير بين اللوريات مستطلعا قطعها قطعة قطعة ، يقف حيال اهرام البنـادق طويـلا متفحصا اجزاءها جزءا جزءا خاصة فوهة الماسورة التي يكمن فيها الموت.. يقف على بعد لا يسمح له بتجاوزه ونفسه ذاهبة حسرات على اللعب بها او على الاقل لمسها ، ولما كانت زيارته توافق ميعاد الشاي فكان يمضي مـع اصدقائه الى المطبخ القائم عند مدخل درب قرمز ويأخذ مكانه في نهايـة طابور « الشاي » كما يدعونه ثم يعود وراءهم حاملا قدح شاي باللبـن وقطعة من الشيكولاتة فيجلسون على سور السبيل يحتسون شرابهـم وينشد الجنود اغاني جماعية وهو ينصت لهم باهتمام منتظرا دوره فـي الغناء . تركت حياة المعسكر في نفسه اثرا عميقا بث في خياله واحـلامه يقظة شاملة . اثرا نقش علىصفحة قلبه الىجانب الاثار التي نقشتهاحكايات امينة عن عالم الغيب والاساطير ، وقصص ياسين الذي جذب روحه الـى دنياها الساحرة ، والاطياف والرؤى التي تتخايل له في احلام اليقظة وراء اغصان الياسمين واللبلاب واصص الزهور ــ فوق السطح ــ عن حيـاة النمل والعصافير والدجاج . من ثم انشأ عند سور السطح الملاصق لسطح بيت مريم معسكرا كامل العدة والعدد ، اقام خيامه بالمناديـل والاقـلام ، واسلحته بعيدان الخشب ، ولورياته من القباقيب وجنوده من نوى التمر. وعلى كثب من المعسكر مثل المتظاهرين بالحصى يبدأ التمثيل عادة بنـشر النوى جماعات بعضها في الخيام وعند مداخلها وبعضها حول البنادق غير أربع بينها حصاة (تمثله هو) ينتحون جانبـا . يأخذ في محـاكاة الغنـاء الانجليزي ثم يجيء دور الحصاة لتغني « زوروني كل سنة مرة » او « يا عزيز عيني » ، ينتقل الى الحصى فينضده صفوفا ويهتف « يحيا الوطن .. تسقط الحماية ... يحيا سعد » ، يعود الى المعسكر مصفرا فتنتظم النوى صفوفا كذلك وعلى رأس كل صف تمرة ، ثم يدفع قبقابا وهو ينفخ محاكيا أزيز اللوري ، ويضع النوى على سطح القبقاب ثم يدفعه مرة اخرى صوب الحصى فتنشب المعركة وتسقط الضحايا من الجانبين ! ... ولم يكن يسمح لعواطفه الشخصية بأن تؤثر في سير المعركة ، على الاقل في بدئها ووسطها، كانت تتحكم فيه رغبة واحدة هي ان يجعلها معركة « صادقة مشوقـة » يتنازعها الدفع والجذب منالجانبين وتتعادلالاصابات فتظلالنتيجة مجهولة

والاحتمال متأرجحا بين الطرفين على ان المعركة لا تلبث طويلا حتى تستوجب نهاية تنتهي اليها ، هنالك يجد نفسه في موقف حائر ، اي جانب ينتصر ؟ ••• في جانب اصدقاؤه الاربعة وعلى رأسهم جوليون ، وفي الجانب الآخر مصريون يخفق معهم قلب فهمي !•• في اللحظة الاخيرة يقرر النصر للمتظاهرين فينسحب الدوري بقلة من الجنود بينهم الاصدقاء الاربعة وان كان قد ختم المعركة مرة بصلح شريف احتفل به المتحاربون من الطرفين بالغناء حول مائدة حفلت باقداح الشاي ومختلف ألوان الحلوى! ••وكان جوليون اعز اصدقائه ، امتاز الى جماله بدماثة الخلق فضلا عن براعته النسبية في التكلم بالعربية ، وهو الذي جعل دعوته الى الشاي حقا ثانيا كما بدا أشد الجنود تأثرا بغنائه حتى كان يدعوه كل يوم تقريبا الى غناء « يا عزيز عيني» فيتابعه باهتمام ثم يغمغم في تشوق وحنين :

ـ أروح بلدي ••• أروح بلدي !

وآنس كمال منه هذه الروح فازداد له أنفة واطمئنانا حتى قال له مرة جادا وكأنما يدله على مخرج من كربه :

ـ ارجعوا سعد باشا وعودوا الى بلادكم •• !

ولكن جوليون لم يلق اقتراحه بالارتياح الذي كان ينتظر وعلى العكس طلب اليه ـ كما فعل من قبل في ظرف مشابه ـ الا يعود الى ذكر سعد باشا قائلا : « سعد باشا •• نو ! » وهكذا فشل ـ على حد تعبير ياسين ـ اول مفاوض مصري!••وما يدري يوما الا وأحد « الاصدقاء » يقدم له صورة كاريكاتورية رسمها له فنظر كمال اليها بدهشة وانزعاج وهو يقول لنفسه « صورتي ؟!•• ليست هذه صورتي ! » ولكنه شعر في قرارة نفسه بأنها صورته دون غيره ولو على وجه ما ،ثم رفع عينيه للواقفين حوله فألفاهم يضحكون فأدرك انها نوع من المزاح وان عليه أن يتقبله بسرور فجاراهم في ضحكهم مداريا بالضحك خجله ، ولما أطلع عليها فهمي تفرس هذا فيها بدهشة ثم قال :

ـ رباه •• لم تترك عيبا الا ابرزته !•• الجسم النحيف الصغير، الرقبة الطويلة الهزيلة،الانف الكبير،الرأس الضخم،العينان الصغيرتان ! ثم ضاحكا:

ـ الشيء الوحيد الذي يبدو ان « صديقك » يضمر نحوه اعجابا هو بدلتك الانيقة المهندمة ولا فضل لك في ذلك وانما الفضل لنينة التي لا تترك شيئا في البيت الا هندمته ! ورمى اليه بطرف شامت ثم قال :

ــ بان السر الذي حببك اليهم! •• انهم يتسلون بالضحك على شكلك واناقتك المفرطة ، يعني بالعربي لست الا « قره جوز » في نظرهم •• ماذا كسبت من وراء خياناتك ؟! •• ولكن كلام فهمي لم يحدث اثرا لان الغلام كان يدرك مدى عداواته للانجليز فظنها مناورة يراد بها التفرقة بينه وبينهم!
وجاء يوما المعسكر كعادته فرأى جوليون عند أقصى جدار السبيل يتطلع باهتمام الى العطفة التي يفتح عليها بيت المرحوم السيد محمد رضــوان فمضى نحوه ولكنه رآه يلوح بيده محدثا اشارات غامضة لم يفقه لها معنى بيد انه توقف عن التقدم ملبيا احساسا غريزيا خفي عنه معناه ، ثم اغراه حب الاستطلاع بان يدور حول الخيام المنصوبة امام واجهة السبيل متسللا الى ما وراء جوليون وان يمد بصره الى الهدف الذي يتطلع اليه ، هنالك رأى كوة في جناح بيت آل رضوان الذي يسد العطفة القصيرة يلوح منها وجه مريم واضحا باسما مستجيبا !• وقف يردد النظر بين الجندي وبين الفتاة في ذهول كأنما يأبى ان يصدق عينيه ، كيف اقترفت مريم الظهور في الكوة؟ •• كيف تصدت لجوليون على هذا النحو الفاضح ؟! هو يلوح بيديه وهي تبتسم ! ••• اجل ها هي الابتسامة لا تزال مطبوعة على شفتيها ! •• وها هما عيناها يستغرقهما النظر اليه حتى انها لم تفطن بعد الى وجوده هــو ! وندت عنه حركة لفتت اليه جوليون فما كاد يطلع على موقفه حتى أغرق في الضحك وهو يرطن على حين تراجعت مريم بسرعة خاطفة في ذعر بين • راح يتطلع الى الجندي في ذهول وقد زاده فرار مريم ريبة على ريبة وان بدا له الامر كله غموضا في غموض ،سأله جوليون متوددا : ــ تعرفها ؟••
فأحنى رأسه بالايجاب ولم ينبس • غاب جوليون دقائق ثم عاد حاملا لفافة كبيرة قدمها الى كمال قائلا وهو يشير الى بيت مريم : ــ اذهب بها اليها•
ولكن كمال تراجع جافلا وهو يهز رأسه يمنة ويسرة في عناد •لم تبرح تلك الحادثة مخيلته ، ومع انه شعر بخطورتها من بادىء الامر الا انه لــم يدرك مدى الخطورة على حقيقتها الا حين قص القصة في مجلس القهوة مساء • استوت أمينة في جلستها وهي تتباعد وقد ظل فنجان القهوة معلقا بين اصبعيها لا هي تقربه من فيها ولا هي تضعه على الصينية على حين غادر فهمي وياسين الكنبة المواجهة لمجلس الام مهرولين الى الكنبة التي تجلس عليها هي وكمال وجعلا يحدقان اليه باهتمام ودهش وانزعاج فاق كل مــا توقع • قالت امينة وهي تزدرد ريقها : ــ أرأيت هذا حقا !••الم تخدعك

عيناك ؟! وتأفف فهمي : ــ مريم ؟!... مريم ؟! .. امتأكد انت مما تقول؟!
وتساءل ياسين: ــ اكان يشير اليها وكانت تبتسم اليه. اريتها تبتسم حقا؟
وأعادت امينة الفنجان الى الصينية فاسندت رأسها الى راحتها قائلة بلهجة تنم عن الوعيد :
ــ كمال ! الكذب في مثل هذا الامر جريمة لا يغفرها الله ... راجع نفسك يا ابني ... ألم تعد الحق في شيء ؟!
وحلف كمال بأغلظ الايمان فقال فهمي بيأس ومرارة :
ــ انه لا يكذب ، ليس في وسع عاقل ان يتهمه بالكذب فيما قال ، الا تدركون ان اختراع مثل هذه القصة هو ابعد ما يكون عن تصور واحد في سنه ؟!. فتساءلت الام بصوت حزين : ــ وكيف يسعني أن أصدقه!
فقال فهمي وكأنه يحدث نفسه : ــ اجل كيف يمكن تصديقه ! ... (ثم بصوت جاد) ولكنه وقع .. وقع .. وقع !
وقعت الكلمة الاخيرة من نفسه موقع الخنجر ، كررها وكانما يكرر الطعن متعمدا ، حقا شغلته عن مريم الشواغل فلم تعد ذكراها تلوح الا في حاشية احلام يقظته ، ولكن الطعنة التي اصابت سمعتها نفذت اليها خلال قلبه . انه ذاهل .. ذاهل .. ذاهل ، لا يدري ان كان نسي أم لم ينس ، يحب أم يكره ،يغضب للكرامة ام للغيرة .. ورقة شجر جافة في مهب زوبعة متناوحة .. ــ كيف يسعني ان اصدقه ؟ .. طالما كانت ثقتي في مريم كثقتي في خديجة او عائشة . امها من الفضليات ، أبوها طيب الله ثراه من الاكرمين ... جيران العمر ونعم الجيران ...
قال ياسين ــ الذي بدا طول الوقت مستغرقا بالتفكير ــ بلهجة لم تخل من سخرية : ــ علام تعجبون ؟ ... منذ القدم والله يخلق من صلب الابرار اشرارا . فقالت امينة محتجة كأنما تأبى ان تصدق أنها خدعت طوال ذلك الدهر : ــ يشهد الله اني لم الاحظ عليها ما يسوء قط .. فقال ياسين بحذر:
ــ ولا أحد منا ، حتى خديجة العيابة الكبرى ، بل خدع بها من هو أفطن منك ومني ! فهتف فهمي متألما :
ــ من اين لي ان اطلع على الغيب ؟! انه امر يشق تصوره .
وحنق على ياسين لدرجة الغليان ، ثم بدا له الخلق جميعا بغضاء ، الانجليز والمصريون على السواء ... الرجال والنساء ــ والنساء خاصة ــ انه يختنق .. هفت نفسه الى الاختفاء ليتنشق في وحدته نسمة راحة بيد

انه لم يبرح مكانه كأنما شد اليه بحبال غلاظ •• اتجه ياسين الى كمال متسائلا:
ــ متى رأتك ؟ ــ عندما التفت الى جوليون •• ثم فرت من النافذة؟
ــ نعم •• ــ هل رأت انك رأيتها ؟
ــ التقت عينانا لحظة •• ياسين ساخرا : ــ مسكينة ! •• انها دون شك تتخيل الان مجلسنا هذا وحديثنا ذا الشجون ! ــ انجليزي ! ••
هتف فهمي وهو يضرب كفا على كف : ــ بنت السيد محمد رضوان!
غمغمت امينة متنهدة وهي تهز رأسها عجبا •• فقال ياسين متفكرا :
ــ مغازلة انجليزي ليست بالمسألة الهينة على فتاة ، هذه درجة من الفساد لا يمكن ان تظهر طفرة •• فسأله فهمي : ــ ماذا تعني :
ــ أعني انه لا بد ان تسبقها درجات من الفساد ! فقالت امينة برجاء:
ــ استحلفكم بالله ان تمسكوا عن هذا الحديث ••
فواصل ياسين حديثه ، كأنه لم يسمع رجاءها ، قائلا :
ــ مريم بنت سيدة لها في التبرج فنون بشهادتكن انت وخديجة وعائشة •• ! فهتفت امينة بصوت ملؤه العتاب والزجر : ــ ياسين ! •••
فقال ياسين كالمتراجع :
ــ اريد ان اقول اننا اسرة تعيش في حق مغلق لا تكاد تعلم شيئا عما يدور حولها . قصارى جهدنا ان نتصور الناس على مثالنا ، اختلطت بنا مريم أعواما طوالا ولكننا لم نعرفها على حقيقتها حتى كشفها لنا اخر من ينشد عنده كشف الحقائق ! ••• وربت على رأس كمال ضاحكا ، ولكن أمينة عادت تقول بتوسل حار : ــ استحلفكم بالله ان تغيروا مجرى الحديث•
ابتسم ياسين ولم ينبس ، فأطبق الصمت • لم يعد فهمي يتحمل البقاء بينهم فاستجاب الى الصوت الباطني الذي يستصرخه ملهوفا على الفرار •• بعيدا عن الانظار والاسماع ، هنالك يستطيع ان يخلو الى نفسه، ان يعيد عليها الحديث من الفه الى يائه ، كلمة كلمة ، عبارة عبارة ، جملة جملة • ليفهمه ويتفهمه ثم ينظر اين يكون موضعه ••

★ ★

كان الليل قد جاوز منتصفه عند ما غادر السيد احمد عبد الجواد بيت أم مريم متلفعا بظلمة العطفة المسدودة • بدا الحي كله ــ كما امسى يبدو مع الهزيع الاول من الليل مذ عسكر الانجليز فيه ــ غارقا في النوم متدثرا بالظلام ، لا مقهى يسمر ولا بائع يسرح ولا دكان يسهر ولا مار

يدب . فلم يكن فيه اثر للحياةاو النور الا ما انبعث من المعسكر ، ومع ان احدا من الجنود لم يتعرض له بسوء في الذهاب او الاياب الا انه لم يكن يخلو قط من قلق وتوجس كلما اقترب من المعسكر في طريقه الى البيت خاصة وانه يعود ـ اخر الليل ـ على حال من الاعياء والاسترخاء والذهول يشق معها مجرد التفكير في السير الآمن المطمئن . انحدر الى طريق النحاسين ثم انعطف يمنة متجها الى البيت وهو يختلس النظر الى الديدبان حتى دخل اشد مناطق الطريق خطورة .. تلك التي ينتشر فيها النور المنبعث من قلب المعسكر ، هنالك عاوده الاحساس الذي يخامره كلما دخلها وهو انه هدف يسير لاي صائد . فحث خطاه ليخرج منها الى الظلام المفضي الى مدخل بيته ولكنه ما كاد يخطو خطوة حتى صك اذنيه صوت اجش غليظ يزعق وراءه راطنا فأدرك على جهله رطانته ـ من عنف اللهجة واقتضابها ـ انه رماه بأمر لا يقبل المناقشة فتوقف عن المسير والتفت وراءه مرتاعا فرأى جنديا ـ غير الديدبان ـ يتجه نحوه بقوة شاكي السلاح . ماذا جد حتى دعا الى هذه المعاملة ؟ .. أيكون الرجل ثملا ؟ .. أم لعله اذعن لنزوة اعتداء طارئة ؟ .. ام هو يبتغي السلب والنهب ؟. جعل يرقب اقترابه بقلب خافق وحلق جاف وقد طار الخمار من رأسه . وقف الجندي على بعد خطوة منه ثم وجه اليه بلهجة آمرة كلاما سريعا قصيرا ـ لم يفهم منه بطبيعة الحال كلمة واحدة ـ وهو يشير بيده الخالية صوب شارع بين القصرين فحملق السيد في وجهه بيأس واستعطاف وهو يعاني مرارة العجز عن التفاهم معه كي يقنعه ببراءته مما يتهمه به او كي يعرف على الاقل ما يريد ، ثم خطر له انه قصد باشارته الى بين القصرين أن يأمره بالابتعاد ظنا منه انه غريب مريب فراح يشير الى بيته بدوره ليفهمه انه من سكانه وانه عائد اليه ولكن الجندي تجاهل حركته وهو يدمدم ثم اصر على اشارته وهو يهز رأسه في نفس الاتجاه كأنما يحثه على الذهاب ، ثم بدا انه ضاق به فقبض على منكبه واداره بقوة فدفعه في ظهره فوجد السيد نفسه يتحرك متجها نحو بين القصرين والاخر وراءه فاستسلم ـ ومفاصله تكاد تسيب ـ الى المقادير جاوز في مسيرة المجهول المعسكر ثم سبيل بين القصرين وهناك اختفى لخر اثر للضوء المنبعث من المعسكر فخاض امواج الظلام الدامس والصمت الثقيل ، لا منظر يرى الا اشباح البيوت ولا صوت يسمع الا وقع القدمين الغليظتين اللتين تتبعانه في نظام ميكانيكي رهيب كانهما يعدان الدقائق

الباقية له في الحياة ، ولعلها ثوان ، أجل كان يتوقع في اية لحظة ان ينقض عليه بخطبة تهوي به الى النهاية فمضى يترقبها بعينين محملقتين في الظلام وفم مطبق من الجزع وحرقوه تتحرك حركة عصبية من آن لآن كلما ازدرد ريقه الجاف الملتهب حتى بوغت بوميض يجذب بصره الى أسفل فكاد يصرخ كالاطفال من الهلع وقد تهاوى قلبه ولكن تبينه دائرة من الضوء تذهب وتجيء فأدرك انها شعاع من بطارية اضاءها سائقه ليتعرف على طريقه خلال الظلمات . استرد انفاسه بعد ان تخفف من الذعر المباغت ولكنه لم يكد يستشعر نسمة راحة حتى تلقفه خوفه الاول ، خوف الموت الذي يساق اليه ، فعاد يترقب حتفه بين لحظة واخرى كأنه غريق توهم في تخبطه انه يرى تمساحا يتوثب لمهاجمته ثم تبين له ان ما رأى اعشاب طافية ولكن فرحته للنجاة من الخطر الوهمي لم تكد تتنفس حتى اختنقت تحت ضغط الخطر الحقيقي المحيط به . الى اين يسوقه ؟ ، لو يستطيع ان يراطنه فيسأله ! ، يبدو انه سيواصل سوقه حتى يدفع به الى قرافة باب النصر ، لا اثر لانسان ولا لحيوان ، اين الغفير ؟، وحيد تحت رحمة من لا يرحم ،متى كان مثل هذا العذاب .. هل يذكر ؟ الكابوس ... أجل انه الكابوس ، كابده اكثر من مرة خلال نوم مريض ، أن ظلمة الكابوس نفسها لا تخلو احيانا من بارقة امل قد يشرق بنفس النائم احساس حنون بأن ما يعانيه حلم لا حقيقة وبأنه سينجو من شره الان أو بعد حين . هيهات ان يجود الدهر بمثل ذلك الامل ، انه صاح لا نائم وهذا الجندي الشاكي السلاح حقيقة لا خيال وهذا الطريق الذي يشهد ذله واسره شيء ملموس مخيف لا وهم، عذبه حقيقة لا سبيل الى الشك فيها ، ان اقل حركة ممانعة تند عنه خليقة بأن تطيح برأسه .. لا سبيل الى الشك في هذا ايضا ، قالت له ام مريم وهي تودعه « الى الغد » .. الغد ؟! هل يطلع ذلك الغد ؟!، سل القدمين الثقيلتين اللتين ترجان الارض وراء ظهرك .. سل البندقية ذات السونكي الحاد المدبب ، قالت له ايضا وهي تمازحه « تكاد رائحة الخمر المتطايرة من فيك ان تسكرني » .. الان طارت الخمر وطار عقله ، ولت ساعة الصبوة منذ دقائق معدودة .. كانت الصبوة كل شيء في الحياة .. الان العذاب هو كل شيء ... وليس بين هذا وذاك الا دقائق معدودة .. دقائق معدودة .. عندما بلغ منعطف الخرنفش جذب عينيه شعاع يومض في الظلام فلحظ الطريق فرأى بطارية تتحرك في يد جندي اخر يسوق بين يديه اشباحا لم

يتبين عددهم ! ... تساءل ترى هل صدرت الى الجنود اوامر بالقبض على من يصادفون من الرجال ليلا ؟! .. والى اين يسوقونهم ؟ .. وأي عقاب سيقضون به عليهم ؟ تساءل طويلا وهو من الدهش والانزعاج في نهاية بيد ان رؤيته للضحايا الجدد ادخلت على قلبه شيئا من العزاء والارتياح ، لم يعد على الاقل وحيدا كما كان يظن ، وجد في بلواه اندادا يؤنسون وحشته ويشاركونه المصير ، كان يتقدم قافلتهم بمسافة قصيرة فراح ينصت الى وقع اقدامهم مستأنسا اليها كما يستأنس الضال في مفازة الى اصوات آدمية ترامت اليه مع الريح ، ولم تكن امنية اعز على نفسه آنئذ من ان يلحقوا به لينضم الى جماعتهم ، سواء كانوا معارف أو غرباء ، لتخفق قلوبهم معا وهم يحثون الخطى نحو المصير المجهول . هؤلاء الرجال ابرياء وهو بريء ففيم القبض عليهم ؟. فيم القبض عليه هو مثلا ؟، لا هو من الثوار ولا من المشتغلين بالسياسة ولا حتى من الشبان فهل يطلعون على الافئدة ويحاسبون على المشاعر ؟.. او تراهم يعتقلون افراد الشعب بعد ان فرغوا من اعتقال الزعماء !، لو كان يعرف الانجليزية فيسأل آسره ؟ .. .اين فهمي ليحادثه نيابة عنه ؟ .. وخزه الالم والحنين ، اين فهمي وياسين وكمال وخديجة وعائشة وامهم ؟ هل يمكن ان تتصور اسرته ما آل اليه حاله من هوان وهي التي لم تره الا جبارا عزيزا جليلا ؟ ، هل تتصور ان جندي دفعه بعنف حتى اوشك ان يطرحه ارضا وأنه يسوقه كما تساق السائمة ؟. وجد لذكر آله الما وحنينا فكادت تدمع عيناه . كان يمر في طريقه باشباح بيوت ودكاكين يعرف اصحابها ، ومقاه كان يوما — خاصة على عهد الصبا والشباب — من سمارها ، فأحزنه ان يمضي بها اسيرا دون ان تنهض لنجدته او حتى ترثى لحاله ، شعر حقا بأن أحزن صنوف الهوان ما حاق به في حيه . ثم رفع عينيه الى السماء باعثا بفكره الى الله المطلع على قلبه ، بعث اليه بفكره دون ان يجري له ذكرا على لسانه ولو همسا مستحييا من ان ينطق باسمه وجسمه لم يتطهر من انفاس الشراب وعرق الغرام ، وما لبث ان تضاعف خوفه من ان يباعد دنسه بينه وبين النجاة ، او ان يلقي مصيرا كفاء لما سلف من استهتاره ، فغشي صدره تطير وكآبة ، واشفى على اليأس ، حينما شارف سوق الليمون ترامى الى الصمت الذي لا يؤنسه الا وقع الاقدام اصوات مبهمة فأرهف السمع محملقا في الظلام — وهو يتقدم بين الخوف والرجاء — فتناهت الى اذنيه لجة لم يدر ان كان مصدرها انسان او حيوان ، غير

انه تبين بعد قليل لغطا فلم يتمالك ان قال لنفسه في لهفة « اصوات آدمية! »، ومال مع الطريق فلاحت لعينيه اضواء متحركة حسبها بادىء الامر بطاريات جديدة ولكنها وضحت مشاعل رأى على نورها جانبا من بوابة الفتوح يقف تحته جنود بريطانيون ، ثم تراءى له جنود من البوليس المصري رد منظرهم الى صدره الدماء . سأعرف ما يراد بي ، لم يبق الا مسيرة خطوات ، ماذا دعا الى تجمهر الجنود الانجليز والمصريين عند البوابة ؟ . لماذا يسوقون الاهالي من شتى انحاء الحي ؟ عما قليل اعرف كل شيء ، كل شيء ، كل شيء؟ فلأستعذ بالله ولاسلم اليه امري . سأذكر هذه الساعة الرهيبة مدى العمر ان كان في العمر بقية . الرصاص ... المشنقة .. دنشواي .. أأنضم الى سجل الشهداء ؟ أأصبح من ابناء الثورة يتناقله محمد عفت وعلي عبد الرحيم وابراهيم الفار كما كنا نتناقل الاخبار في سهرات المساء ؟ تصور السهرة ومكانك شاغر ؟ رحمة الله عليه .. كان وكان .. لشد ما يبكونك وسيذكرونك طويلا . ثم تنسى ، ما اشد اضطراب قلبي ، سلم امرك للذي خلقك . اللهم حوالينا ولا علينا . ما ان اقترب من موقف الجنود حتى اتجهت الانظار اليه باردة قاسية متوعدة فغاص قلبه في الاعماق مخلفا وراءه في الاضلع ألما حادا ، ترى هل آن له ان يتوقف ؟ تثاقلت قدماه ولفه التردد والحيرة ... ادخل ...

هتف بها شرطي وهو يشير الى داخل البوابة فنظر السيد اليه نظرة ناطقة بالتساؤل والاستعطاف والاستغاثة . ثم مر بين الجنود لا يكاد يرى ما بين يديه من شدة الفزع ويود لو يغطي رأسه بذراعيه استجابة لغريزة الخوف التي تستصرخه . هنالك تحت قبة البوابة رأى منظرا عرفه بما يراد به بغير حاجة الى سؤال ، رأى حفرة عميقة كالخندق تعترض الطريق ،كما رأى جمهورا من الاهالي يعملون بلا توقف وتحت اشراف الشرطة لسد الحفرة بأن يحملوا الاتربة في مقاطف ويفرغونها فيها ، الكل يعمل بهمة وسرعة والاعين تسترق النظر في خوف الى الجنود الانجليز الذين رابطوا عند مدخل البوابة . اقترب منه شرطي ورمى اليه بمقطف وهو يقول بصوت غليظ ينم عن وعيد : ــ افعل كما يفعل الاخرون .. ثم همسا :

ــ اسرع حتى لا يصيبك اذى ..

كانت هذه الجملة اول تعبير « انساني » يلقاه في رحلته المخيفة فسرت في صدره سري النسمة في حلق المختنق ، انحنى على المقطف فتناوله من

علاقته وهو يسأل الشرطي همسا : ـ هل يطلق سراحنا آذا تم العمل ؟
فأجابه بنفس الصوت : ـ ان شاء الله ...
تنهد من الاعماق ، راودته نفسه على البكاء ، شعر بانه يولد من جديد ، رفع بيسراه الجبة من طرفها ودسه في حزام القفطان كيلا تعوقه عن العمل ومضى بالمقطف الى طوار البوابة حيث تراكمت الاتربة فوضعه بين قدميه وراح يملأ كفيه بالتراب ويفرغها في المقطف حتى امتلا ثم حمله بيده وذهب الى الحفرة فافرغه فيها وعاد الى الطوار ، واصل العمل بين جماعات من الناس ضمت الافندية والمعممين ، الهرمين والشبان ، يعملون جميعا بهمة عالية مستمدة من رغبتهم في الحياة ، وانه ليملأ مقطفه اذ لكزه كوع فالتفت الى مصدره فرأى صديقا يدعى غنيم حميدو صاحب معصرة زيوت بالجمالية ممن يلمون بمجالس لهوه بين حين وآخر ففرح به فرحة عظمى كما فرح به الاخر ، وسرعان ما تهامسا : ـ انت وقعت ايضا ..!
ـ قبلك ، وصلت قبيل منتصف الليل ورأيتك وانت تتسلم مقطفك فجعلت في ذهابي وايابي اتبع طريقا يميل اليك رويداً رويدا حتى جاورتك.
ـ أهلا .. أهلا ، أليس ثمة احد من اصدقائنا ؟ ـ لم اعثر على غيرك
ـ قال لي الشرطي انهم سيطلقون سراحنا حالما تتم العمل .
ـ قيل لي ذلك ايضا ، ربنا يسمع منك .. ـ سيبوا ركبي الله يخرب بيوتهم .. ـ لم تعد لي ركب على ما أظن ! وتبادلا ابتسامة مقتضبة ..
ـ ما اصل هذه الحفرة ؟
ـ يقال ان فتوات الحسينية حفروها اول الليل ليمنعوا مسير اللوريات ويقال ايضا ان لوريا وقع فيها !
ـ ان صح هذا فقل علينا السلام !
وعندما تجاوروا مرة ثانية عند كوم الاتربة كانا قد ألفا الموقف بعض الشيء فعاودتهما الروح حتى انهما لم يتمالكا ان ابتسما وهما يملآن مقطفيهما بالتراب كعمال البناء فهمس غنيم :
ـ حسبنا الله ونعم الوكيل على اولاد الكلب . فهمس السيد باسما:
ـ ارجو ان يعطونا اجرا مناسبا ! ـ اين قبض عليك ؟ ـ امام البيت.
ـ طبعا ! ... ـ وانت ؟.. ـ كنت بالعا منزولة ، ولكني افقت تماما
الانجليز اقوى من الكوكايين ! ـ أقوى من القيء نفسه !
مضى الرجال يذهبون ويجيئون عجلين ما بين طوار الاتربة والحفرة

على ضوء المشاعل ، اثاروا التراب حتى انتشر في فراغ القبة خالقا جوا خانقا فعلاهم البهر وتصبب العرق من جباههم واغبرت وجوههم وتتابع من انتشاق الغبار سعالهم فكأنهم اشباح انشقت عنهم الحفرة • على أي حال لم يعد وحده ، هذا الصديق وهؤلاء الرجال من حيه ، جنود البوليس المصريون معهم بقلوبهم ، آي ذلك انهم جردوا من سلاحهم •• لم يعد السيف ذو الغمد المعدني يتدلدل من احزمتهم ، اصبر •• اصبر لعل هذه الغمة ان تنكشف ، هل كنت تتصور انك ستعمل حتى مطلع الصبح وربما حتى الضحى ، شد حيلك ، ليس ثمة انك ستحمل التراب وتسخر في سد الحفرة ، لا تريد الحفرة انتمتلىء ، لا فائدة ترجى من الشكوى ، ولمن تشكو ؟ جسمك قوي صلب العوديستطيع ان يتحمل رغم سكرة الليلة وعبثها ، كم الساعة الان ؟ ليس من الحيطة ان تنظر فيها ، لو لم يقع ليهذا لكنت الان مستلقيا على الفراش منعما بلذيذ المنام ، كنت استطيع اناغسل رأسي ووجهي واشرب شربة روية من القلة المعطرة بالزهر ، هنيئا لنا هذه المشاركة في جحيم الثورة ، لم لا ؟ البلد ثائر ، كل يوم •• كل ساعة ضحايا وشهداء ، بيد ان قراءة الصحف وتناقل الاخبار شيء أما حمل التراب تحت تهديد البنادق فشيء اخر ، هنيئا لكم ايها النائمون فياسرتكم، اللهم أحفظنا ، لست لها ••• لست لها ، اللهم اهزم المشركين بقوتك ،نحن ضعفاء ••• لست لها ، هل يتصور فهمي اي خطر يتهدده ؟ انه يستذكر دروسه الان غير عالم بما يحيق بأبيه ، قال لي : « لا » لاول مرة في حياته قالها بدموعه ولكن سيان عندي المعنى واحد ، لم اقل لامه ، لن اقول لها ، اكشف لها عن عجزي ؟ أأستعين بضعفها بعد ان اخفقت بقوتي ؟ كلا• لتبق جاهلة بكل شيء ، يقول انه لا يعرض نفسه للخطر ، حقا ؟ اللهم أستجب ، لولا هذا مارحمتهابدا ، اللهم احفظه ، اللهم احفظنا جميعا من شر هذه الايام ، كم الساعة الان ؟ ان طلع علينا الصباح أمنا القتل ،لنيقتلونا امام الخلق ، الصباح ؟•

ــ بصقت على الارض كي أتخلص من الغبار اللازق بسقف حلقي فرماني أحد الابالسة بنظرة وقف لها شعر رأسي !

ــ لا تبصق ، تشبه بي ،لقد بلعت من التراب قدرا يكفي لسد هذه الحفرة ! •• ــ لعل زبيدة دعت عليك ؟ ــ لعلها •••

ــ ألم يكن سد حفرتهااطيب من سد هذه الحفرة ؟ ــ بل أشق !

تبادلا ابتسامة سريعة ثم قال غنيم متنهدا : ــ انقصم ظهري يا هوه.
ــ مثلك ، عزاؤنا اننا نشارك المجاهدين بعض آلامهم .
ــ ما رأيك ان ارمي بالمقطف في وجه الجنود واهتف بأعلى صوتي « يحيى سعد » ؟! ــ أشتغلت المنزولة من جديد ؟
ــ يا للخسارة ! .. كانت قطعة « قد فص العين » حركتها بالشاي مرة ومرتين وثلاثا ، ثم ذهبت الى الطمبكشية اسمع الشيخ علي محمود في بيت الحمزاوي . وعدت قبيل منتصف الليل وانا اقول لنفسي « الولية الان تنتظرك لا أفلح من خيب لها رجاء » حين طلع علي ابن القرد وساقني من قفاي ... ربنا يعوض عليك ... ــ آمين ..

جاء الجنود برجال اخرين بعضهم من ناحية الحسينية والبعض الاخر من ناحية النحاسين وسرعان ما انضموا الى « العمال » . القى على المكان نظرة فوجده أزدحم بالجمهور او كاد وقد انتشروا حول الحفرة في جميع الجهات ، يذهبون الى الطوار ويرجعون اليها في حركة لا تنقطع وانوار المشاعل تضيء منهم وجوها لاهثة نال منها الاعياء والذل والخوف كل منال . الكثرة بركة وامان ، لن يذبحوا هذا الجمع الغفير من الناس ، لن يأخذوا البريء بالمذنب ، ترى اين المذنبون ؟ أين هؤلاء الفتوات ؟ هل يعلمون الا ان اخوانا لهم وقعوا في الحفرة التي حفروا ؟! قاتلهم الله هل حسبوا ان حفر حفرة سيعيد سعدا او يخرج الانجليز من مصر ! لانقطعن عن السهر ان كتب الله لي عمرا جديدا . انقطع عن السهر ؟ لم يعد السهر بمأمون ، كيف يكون طعم الحياة؟ لا طعم للحياة في ظل الثورة . الثورة .. اي جندي يقبض عليك .. تحمل التراب بكفيك ، فهمي يقول لك ! لا ، متى تعود الدنيا الى اصلها ؟ صداع ؟ ... بل صداع وغثيان ، دقائق من الراحة ... لا اطمع في مزيد ! بهيجة في سابع نومه ، امينة تنتظر كما تنتظر « ولية » غنيم ، هيهات ان يخطر لكم ما حاق بأبيكم ، رباه ان التراب يملأ انفي وعيني ، يا سيدنا الحسين ، امتلئي .. امتلئي .. اما كفاك هذا التراب كله ؟! يا بن بنت رسول الله ،غزوة الخندق .. هكذا دعاها سيدنا الواعظ، كان عليه الصلاة والسلام يعمل مع العاملين ويرفع التراب بيديه .. كافرون وكافرون لماذا ينتصر كافرو اليوم ! .. فساد الزمن .. فساد الزمن ... فسادي انا ، هل يعسكرون امام البيت حتى تنتهي الثورة ؟
ــ الم تسمع الديكة ؟ ارهف السيد أذنيه .. ثم غمغم :

ـ الديكة تصيح ! الفجر ؟ ـ نعم •• ولكنها لن تمتلىءقبل الصباح •
ـ الصباح ! المهم اني محصور ، محصور جدا ••
اتجه ذهن السيد الى اسفل فشعر بأنه محصور ايضا ، وبأن جانبا من آلامه يعود بلا شك الى ذلك ، وسرعان ما اشتد ضغط المثانة عليه كأنما هيجها تفكيره فيها ، قال : ـ ونا كذلك ••• ـ والعمل •• ؟
ـ ما باليد حيلة••• ـ انظر هناك الى ابن القرد الذي وقف يبول امام دكان على الزجاج ! ••• ـ آه •••
ـ اخراج شوية بول اهم الان عندي من اخراج الانجليز من مصر كلها••
ـ اخراج الانجليز من مصر كلها ؟! ليخرجوا اولا من النحاسين •
ـ رباه •• انظر •• لا يزال الجنود يأتون بالناس !
رأى السيد جماعة جديدة تشق طريقها صوب الحفرة ••

★ ★

استيقظ السيد احمد من نومه حوالي العصر وكان نبأ واقعته قد ذاع في الاهل والاصدقاء فوفدوا على البيت واجتمعوا به مهنئين بالسلامة فراح يقص القصة ويعيدها باسلوب لم يخل ـ رغم جدية الامر ـ من فكاهة وتهويل حتى اثار شتى التعليقات • كانت امينة اول من سمع القصة، القاها عليها وهو مشتت النفس خائر القوى لا يكاد يصدق حقا أنه نجا فتلقت وحدها الجانب المفجع خالصا .وما كادت تغادره نائما حتى استرسلت في البكاء وجعلت تدعو الله ان يرعى اسرتها بعنايته ورحمته ، ودعت الله طويلا حتى كل لسانها • ولكنه حينما وجد نفسه محوطا باصدقائه خاصة المقربين منهم امثال ابراهيم الفار وعلي عبد الرحيم ومحمد عفت ، استرد الكثير من روحه المعنوية فتعذر عليه ان يغفل الجانب الفكاهي من الحادث حتى غلب على ما عداه فانتهى الحديث الى نوع من المزاح كأنما كان يقص عليهم مغامرة من مغامراته • وبينما حفل الدور الاعلى بالزائرين اجتمع شمل الاسرة بالدور التحتاني فيما عدا الام التي شغلت مع ام حنفي بتهيئة القهوة والاشربة • شهدت الصالة من جديد اجتماع ياسين وفهمي وكمال وخديجة وعائشة في مجلس الام التقليدي ، وقد انضم اليهم خليل شوكت وابراهيم شوكت سحابة النهار ولكنهما صعدا الى حجرة الاب عقب استيقاظه بقليل فخلا الجو للاخوة ، وكان الحزن الذي غشيهم طوال النهار على ما اصاب والدهم قد زايلهم بعودة الطمأنينة الى نفوسهم فنبضت قلوبهم

بالعواطف الاخوية وتوثبوا للسمر والمرح كعهدهم في الايام الخوالي ،على ان الطمأنينة لم تستقر بنفوسهم حتى رأوا والدهم بأعينهم ، اقبلوا عليه واحدا في اثر واحد فقبلوا يده ودعوا له بطول العمر والسلامة ثم غادروا الحجرة في نظام وادب عسكريين • ومع ان السيد اكتفى بمد يده لياسين وفهمي وكمال بالتتابع دون ان ينبس بكلمة الا انه ابتسم الىخديجةوعائشة وسألهما في رقة عن الحال والصحة ، رقة لم تحظيا بها الا بعد زواجهما ، وكان كمال يلاحظها بدهشة مقرونة بسرور كأنما هو الذي يحظى بـها • والحق ان كمال كان اسعد الجميع بزيارات شقيقتيه كلما هلت • كانينعم في اثنائها بسعادة عميقة لا يعكر عليه صفوها الا تفكيره في النهايةالمتوقعة• ودائما كان يجيء النذير بهذه النهاية من احد الرجلين — ابراهيم او خليل — اذا تمطى او تثاءب ثم قال « آن لنا ان نذهب » امر مطاع لا يرد ، لـم تتكرم احدى شقيقتيه — ولو مرة واحدة — بأن تجيبه قائلة مثلا « اذهب انت وسألحق بك غدا » ! بيد انه بمرور الزمن اعتاد الصلة العجيبة التـي تربط بين شقيقتيه وزوجيهما وسلم بحكمها وقنع بالزيارة القصيرة تجيء بين الحين والحين فيسعد بها دون طمع في مزيد • وبالرغم من هذا فلـم يكن يتمالك احيانا اذا رآهما مقبلتين من ان يقول متمنيا « لو تعودان الى البيت فتقيمان فيه كما كنتما » ! فتبادره امه قائلة « ربنا يكفيهما شـــر تمنياتك الطيبة ! » • بيد ان اعجب ما صادفه في حياتهما الزوجية كـان ذلك التغير العجيب الذي طرأ على البطن •• وما صاحبه من اعراض بدت تارة مرعبة كالمرض وطورا غريبة كالاساطير ، وفدت على حافظته الفاظـا جديدة كالحبل والوحم وما اكتنف الاخير من قيء وتوعك والتهام لحبات الطين الجافة •• ثم ما شأن بطن عائشة ؟ ••• متى يقف عن النمو الـذي جعله كالقربة المنفوخة ؟ •• وهذا بطن خديجة بدأ — فيما يبدو — يخطو نفس الخطوات ، واذا كانت عائشة ذات البشرة العاجية والشعر الذهبـي قد وحمت على الطين فعلى أي شيء توحم خديجة ؟! •• غير ان خديجة لم تحقق مخاوفه فتوحمت على المخلل حتى استشارت منه اسئلة لا حصر لها لم يظفر احدها بجواب مقنع !• وتقول امه ان بطن عائشة — وبطن خديجة بالتالي — سيتمخض عن طفل صغير سوف يكون قرة لعينه •• ولكن :اين يقيم هذا الطفل ، وكيف يعيش ، وهل يسمع ويرى ، وماذا يسمع وماذا

يرى ، وكيف وجد . ومن اين جاء ؟! .. على ان هذه الأسئلة لم تهمل ، ظفر عنها بأجوبة جديرة حقابأن تلحق بمعارفه عن الاولياء والعفاريت والرقي والتعاويذ وغير ذلك من المواد التي تزخر بها دائرة معارف أمه .. لذلك سأل عائشة مستطلعا باهتمام : ـ متى يخرج الطفل ؟ فأجابته ضاحكة :

ـ اصبر لم يبق الا قليل ... فتساءل ياسين : ـ أظنك في شهرك التاسع ؟ فأجابته : ـ نعم ولو ان حماتي تصر على اني في الثامن !

فقالت خديجة بحدة : ـ أصل حماتك تصر دائما على ان يكون لها رأي مخالف ، هذا كل ما هنالك ! ـ ولما كان الجميع على علم بما ينشب كثيرا بين خديجة وحماتها من نزاع فقد تبادلوا النظرات ثم ضحكوا :

وقالت عائشة : ـ اود ان أقترح عليكم ان تنتقلوا الى بيتنا فتبقوا معنا حتى يجلو الانجليز عن شارعكم .. فقالت خديجة بحماس :

ـ أجل ، لم لا ؟.. ان البيت كبير وستنزلون على الرحب والسعة ، فيقيم بابا ونينة عند عائشة لانها في الدور الاوسط ، وتقيمون انتم عندي ..

رحب كمال بالاقتراح فتساءل بلهجة تنم على التحريض :

ـ من يقول لبابا ؟ ولكن فهمي قال وهو يهز منكبيه :

ـ انكما تعلمان حق العلم ان بابا لا يمكن ان يوافق ..

فقالت خديجة بأسف : ـ ولكنه يحب السهر فيكون عرضة لتحرش الجنود ، يا لهم من مجرمين ! ... ساقوه في الظلام وحملوه التراب !... آه ، رأسي يدور كلما تصورت هذا ... فقالت عائشة :

ـ كنت انتظر دوري لتقبيل يده وانا اتفحص جسمه جزءا جزءا لاطمئن عليه ، كان قلبي يدق .. وعيناي تغالبان الدمع .. لعنة الله على الكلاب اولاد الكلاب ! ... فابتسم ياسين .. وقال لعائشة محذرا وهو يلحظ كمال غامزا بعينيه :

ـ لا تسبي الانجليز هكذا فان لهم بيننا اصدقاء.. ؟ فقال فهمي متهكما :

ـ لعله مما يسر له بابا ان يعلم ان الجندي الذي قبض عليه ليلا ما هو الا صديق من اصدقاء كمال.. فابتسمت عائشة الى كمال متسائلة :

ـ الا تزال تحبهم بعد ماكان منهم ؟ فغمغم كمال وقد تورد وجهه حياء وارتباكا : ـ لو عرفوا انه ابي ما تعرضوا له بسوء !

فما تمالك ياسين الا ان ضحك ضحكة عالية حتى انه غطى فمه بيده وهو ينظر في حذر الى السقف كأنما خاف ان يترامى صوت ضحكته الى

الدور الاعلى •• ثم قال ساخرا : ــ الاحرى بك ان تقول : انهم لو عرفوا انك مصري ما صبوا العذاب على مصر والمصريين ، ولكنهم لا يعرفون !

فقالت له خديجة بلهجة لاذعة : ــ دع هذا الكلام لغيرك انت •• ! أتنكر انك من اصدقائهم كذلك ؟! ثم مخاطبة كمال بلهجه لاذعة :

ــ اتواتيك الشجاعة بعد ما عرف عن صداقتك لهم على ان تصلي الجمعة في سيدنا الحسين ؟ ففطن ياسين الى مرمى هجومها وقال مظهرا الاسف:

ــ يحق لك ان تتطاولي علي ما دمت قد تزوجت فاكتسبت بعض حقوق الآدميين •• ــ الم يكن لي هذا الحق من قبل ؟!

ــ الله يرحم ايام زمان ••! ولكنه الزواج يعيد الى البائسات الروح! •• اسجدي شكرا للاولياء ••• ولتعاويذ واقراص أم حنفي •

فقالت خديجة وهي تغالب ضحكة : ــ يحق لك انت ان تتهجم على الناس بالحق وبالباطل بعد ان ورثت المرحومة وصرت في عداد الملاك •

فقالت عائشة بفرح صبياني كأنما لم تدر من الامر شيئا :

ــ اخي في عداد الملاك ! •• ما اجمل ان أسمع هذا ! ••• أأنت غني حقا يا سي ياسين !؟ فقالت خديجة :

ــ دعيني أعد لك أملاكه ، اسمعي يا ستي : دكان الحمزاوي وربع الغورية وبيت قصر الشوق ••• فقال ياسين وهو يهز رأسه مغمضا عينيه:

ــ ومن شر حاسد اذا حسد •• فتابعت خديجة حديثها دون مبالاة بمقاطعته : ــ وما خفي من الحلى والنقود المخبأة اعظم ••

فهتف ياسين في اسف صادق :

ــ اختفت كلها وحياتك ، سرقت ، سرقها ابن الكلب • جعلت ابي يسأله عما اذا كانت تركت حليا او نقودا فقال اللص « ابحثوا بأنفسكم ، علم الله اني كنت انفق عليها في اثناء مرضها من جيبي الخاص » •• اسمعوا يا هوه •• جيبه الخاص ابن الغسالة •• فقالت عائشة بتأثر :

ــ يا ولداه ! •• • مريضة طريحة الفراش تحت رحمة رجل طامع في مالها ! ••• لا صديق ولا حبيب ، غادرت الدنيا من دون ان يحزن عليها احد

فتساءل ياسين : ــ من دون ان يحزن عليها احد ؟!

فأشارت خديجة من خلال باب موارب الى ملابس ياسين المعلقة بالمشجب وقالت محتجة احتجاجا ساخرا : ــ وهذا البابيون الاسود ؟!•• أليس آية على الحزن ؟! فقال ياسين جادا :

ــ لقد حزنت عليها حقا ، ربنا يرحمها ويغفر لها ، ألم نكن تصافينـا في اخر لقاء ؟ الله يرحمها ويغفر لها ولنا ..

فخفضت خديجة رأسها قليلا رافعة حاجبيها ثم نظرت اليه من أعلـى كمن ينظر من فوق نظارته وهي تقول : ــ احم .. احم .. اسمعوا سيدنا الواعظ (ثم وهي ترميه بنظرة شك) ولكن لم يبد عليك فيما اظن حزن شديد ؟! فرماها بنظرة مغيظة قائلا :

ــ ما قصرت في واجبي نحوها والحمد لله ، اقمت لها مأتما استمـر ثلاث ليال ، وكل جمعة ازور القرافة محمد بالرياحين والفواكـه ... ام تريدينى ان الطم واعول واحثو التراب على رأسي !. ان للرجال حزنا غير حزن النساء.فهزت رأسها كأنما تقول «افدتني أفادك الله» ثم قالت متنهدة:

ــ آه من حزن الرجال ! ... ولكن خبرني وحياتي عندك الم يخفف الدكان والربع والبيت من لوعة الحزن !! فقال متأففا :

ــ صدق من قال : أن قبح اللسان من قبح الوجه .. ــ من قائل هذا؟

اجابها باسما : ــ حماتـك !.

فضحكت عائشة ، وضحك فهمي وهو يسأل خديجة :

ــ ألم تتحسن العلاقات بينكما ؟ فأجابته عائشة بالنيابة عنها قائلة :

ــ سوف يتحسن ما بين الانجليز والمصريين قبل ان يتحسن ما بينهما.

فقالت خديجة بحنق لاول مرة : ــ امرأة قوية ، ربنا عليها ، والله انا بريئة ومظلومة ... فقال ياسين متهكما :

ــ نصدقك يا أختي بلا قسم ، هذا شيء نشهد به امام الله في يـوم العذاب ! فعاد فهمي يسأل عائشة : ــ وانت كيف حالك معها ؟

فقالت عائشة وهي تلحظ خديجة باشفاق : ــ على ما يرام ..

فهتفت خديجة : ــ آه من اختك عائشة .. تـعرف كـيف تسوس وتطأطيء الرأس .. اتفوخص .. فقال ياسين متصنعا الجد :

ــ على اي حال فلحماتك الرحمة ولك صادق التهنئة ! فقالت بسخرية:

ــ التهنئة الحقة لك انت قريبا ان شاء الله حين تزف الـى عروسـك الثانية ! ... أليس كذلك ؟ .. فما تمالك الا ان ضحك .. ثم قال :

ــ ربنا يسمع منك .فتساءلت عائشة باهتمام : ــ حقا ؟ ...

ففكر قليلا .. ثم قال في شيء من الجد :

ــ المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، ولكن من يعلم بما يأتي به الغد؟! ربما ثانية وثالثة ورابعة.. فهتفت خديجة ــ هذا ما اتوقعه ، الله يرحم جدك! فضحكوا جميعا حتى كمال ، ثم عادت عائشة تقول بصوت اسيف :

ـ مسكينة زينب ! •• كانت فتاة لطيفة وطيبة •••
ـ كانت •• ! وكانت حمقاء ايضا ، ابوها ـ مثل ابي ـ لا يطاق•• لو رضيت بمعاشرتي كما احب مافرطت فيها ابدا •
ـ لا تعترف بهذا ، حافظ على كرامتك ، لا تشمت بك خديجة •••
قال باستهانة : ـ نالت الجزاء الذي تستحقه ، فلينقعها ابوها ويشرب ماءها • فغمغمت عائشة : ـ ولكنها حبلى يا ولداه !• اترضى لوليدك بان ينمو بعيدا عن رعايتك حتى تسترده غلاما ؟! ••
آه ، اصابت مقتلا ، ينمو في حضانة امه كما نما ابوه من قبل • ربما كابد تعاسة كتعاسته أو اشد • ربما نمت معه كراهية لامه او لابيه ،تعاسة على اي حال • قال عابسا : ـ ليكن حظه كحظ ابيه ، ما باليد حيلة •
وساد الصمت قليلا حتى سأل كمال خديجة: ـ وانت يا أبله متى يخرج الطفل ••؟ فأجابته ضاحكة وهي تتحسس بطنها : ـ انه لا يزال في سنة اولى
فعاد يقول لها ببراءة وهو يتفرس في وجهها :
ـ نحفت جدا يا أبله وصار وجهك قبيحـا •• !
ضحكوا جميعا وهم يغطون افواههم بأيديهم ، ضحكوا حتى شعر كمال بالحياء والارتباك ، اما خديجة التي لم يكن الاستياء من كمال ممـا تستطيعه فقد مالت الى ان تجاري التيار فقالت ضاحكة :
ـ أعترف لكم بأني خسرت في ايام الوحم كل اللحم الذي تعبت ام حنفي اعواما في جمعه ولمه ، نحفت وبرز أنفي وغارت عيناي وخيل الي ان « الرجل » يقلب عينيه مفتشا عبثا عن العروس التي زفوها اليه ! •••
ثم ضحكوا ثانية حين قال ياسين : ـ الحق ان زوجك مظلوم لانه على غباوته البادية وسيم الطلعة فسبحان من جمع الشامي على المغربي •••
تجاهلته خديجة وخاطبت فهمي قائلة وهي تومىء الى عائشة :
ـ كلاهما ـ زوجي وزوجها ـ في الغباء سواء !• لا يكاد ان يبرحان البيت ليل نهار ، لا هم ولا عمل ، اما زوجها فوقته كله ضائع بين التدخين وعزف العود كأنه شحاذ من الشحاذين الذين يمرون على البيوت في الاعياد، وأما زوجي فلا تراه الا مستلقيا يدخن ويثرثر حتى يدوخ دماغي ••
قالت عائشة كالمعتذرة : ـ الاعيان لا يعملون! فقالت خديجة هازئة :
ـ العفو ! •• يحق لك ان تدافعي عن هذه الحياة ، الحق ان الله لم يجمع بين متشابهين كما جمع بينكما، كلاكما في الكسل والدعة والخمول شخص واحد ، والنبي يا سي فهمي يمر اليوم كله وهو يدخن ويعزف وهي تزوق نفسها وتذهب وتجيء امام المرآة ••• تساءل ياسين :
ـ لم لا ما دامت ترى منظرا حسنا •• ؟! وقبل ان تفتح خديجة فاها سألها مستعجلا : ـ خبريني يا اختاه ماذا تصنعين لو جاء وليدك شبيهـا

بك ؟ كانت شبعت من مهاجمته فأجابته جادة :
ــ سيجيء باذن الله شبيها بأبيه او جده او جدته او خالته ، أما ...
ثم ضاحكة : ــ اما اذا أبى الا ان يجيء شبيها بأمه فالنفي يكون احق به من سعد باشا ! .ولكن كمال قال لها بلهجة خبير عليم :
ــ الانجليز لا يهمهم الجمال يا آبلا ، انهم يعجبون كثيرا برأسي وانفي
فضربت خديجة صدرها بيدها هاتفة : ــ يدعون صداقتك وهم يعبثون بك ! .. .ربنا يسلط عليهم زبلن من جديد .
ورمت عائشة فهمي بنظرة رقيقة وهي تقول :
ــ كم يسر دعاؤك بعض الناس ... فابتسم فهمي مغمغما :
ــ كيف اسر ولهم في بيتنا اصدقاء مغفلون ؟ ــ يا خسارة تربيتك له.
ــ من الناس من لا تنفع فيه التربية . فتساءل كمال محتجا :
ــ ألم ارج جوليون ان يعيد سعد باشا ؟ فقالت خديجة ضاحكة :
ــ في المرة القادمة حلفه برأسك الذي يعجب به ..
شعر فهمي اكثر من مرة بأن من حوله يسعون كلما بدت فرصة الى استدراجه الى الحديث والتسلية ، بيد ان ذلك لم يجد شيئا في التخفيف من الاحساس بالغربة الذي غشيه طوال الوقت . هو احساس كثيرا ما يفصله عن آله وهو بينهم فيشعر بالغربة او الوحدة رغم زحمة المجلس ، ينفرد بقلبه وحزنه وحماسه بين اناس لاهين ضاحكين ، حتى نفى سعد يتخذون منه دعابة اذا لزم الامر . اختلس منهم النظرات تباعا فوجدهم راضين ، عائشة ... هانئة وان تكن تعبت قليلا بسبب الحمل ولكنها سعيدة بكل شيء حتى بتعبها ، خديجة.. متوثبة ضاحكة ،ياسين .. صحة وعافية وغبطة ، من من هؤلاء يكترث لحوادث هذه الايام ! ... من منهم يهمه بقي سعد ام نفي ، جلا الانجليز ام مكثوا ! .. انه غريب ، او غريب على الاقل بين هؤلاء . ومع ان هذا الاحساس كان يلقى منه عادة نفسا مسماحة فانه لم يلق هذه المرة الا حنقا وامتعاضا ، ربما كان ذلك لما عاناه في الايام الاخيرة . كثيرا ما توقع أن يسمع عن زواج مريم ، كان ذلك همه وكربه بيد أنه سلم به سلفا تسليم اليأس ، وكاد يألفه بكرور الايام ، الا ان حبه نفسه تراجع عن بؤرة شعوره الذي شغلته الشواغل الكبرى ، حتى وقعت واقعة جوليون فزلزل زلزالا . تغازل انجليزيا لا مطمع لها في الزواج منه فأي معنى تتضمنه هذه المغازلة ؟ .. هل تصدر الا عن متهتكة ؟ .. مريم متهتكة ؟ .. وفيم كانت احلامه الماضية ؟ .. ولم يكن يخلو بكمال حتى يدعوه الى اعادة القصة من جديد محتما عليه ان يصف التفاصيل بدقة، كيف لاحظ ما يدور ، وأين كان موقف الجندي ، واين كان موقفه هو ، وهل هو متأكد من ان مريم نفسها التي كانت في الكوة ؟ وانها كانت تنظر

حقا الى الجندي ؟ • وهل رآها تبتسم اليه ، وهل وهل وهل ، ثم يسأله وهو يعض على اسنانه كأنما يهرس الشقاء الذي يعذبه : وهل تراجعت في خوف حين وقعت عيناها عليك ؟• ثم يمضي متخيلا المواقف والمناظر ،موقفا موقفا ، ومنظرا منظرا ، ويتخيل الابتسامة طويلا حتى كأنه يرى الشفتين المفترتين كما رآهما يوم زفاف عائشة وصاحبتهما تتبع العروس في فناء بيت آل شوكت • ــ يبدو ان نينة لن تجالسنا اليوم •

قالته عائشة بصوت يدل على الاسف • فقالت خديجة :

ــ الزوار يملأون البيت ••• ياسين ضاحكا :

ــ أخاف ان يشتبه الجنود في كثرة القادمين فيظنوا ان اجتماعا سياسيا ينعقد في بيتنا •• خديجة في مباهاة : ــ ان اصدقاء بابا يحجبون عين الشمس

فقالت عائشة : ــ رأيت السيد محمد عفت نفسه على رأس القادمين ••

فأمنت خديجة على قولها قائلة : ــ كان صديقا حميما لبابا من قبل ان نرى نور الدنيا • فقال ياسين وهو يهز رأسه :

ــ اتهمني بابا ظلما بأنني قطعت ما بينهما • ــ الا يفرق الطلاق بين اعز الاصدقاء ؟! ياسين باسما : ــ الا اصدقاء أبيك ! عائشة بفخار :

ــ من ذا تطاوعه نفسه على مخاصمة بابا ؟ •• والله ما في الدنيا كلها نظير له ••• ثم وهي تتنهد : ــ كلما تصورت ما وقع له امس شاب شعر رأسي

اخيرا ضاقت خديجة بوجوم فهمي فعزمت على ان تعالجه بطريقة مباشرة بعد ان اخفقت ــ فيما رأت ــ الطرق غير المباشرة ، فالتفتت اليه متسائلة : ــ أرأيت يا اخي كيف ان ربنا اكرمك يوم لم يأذن بتحقيق رغبتك نحو •• مريم ؟!

نظر فهمي اليها بين الدهشة والحياء ، سرعان ما تركزت فيه الابصار حتى كمال تطلع اليه باهتمام ، وساد صمت ثم عمقه عن شعور مكبوت طال في الصدور تجاهله او اخفاؤه حتى أفصحت عنه خديجة بجرأة فتطلعوا الى الشاب في صمت المنتظر للجواب كأنما هو نفسه الذي طرح السؤال ، غير ان ياسين رأى ان ينهي الصمت قبل ان يستفحل فيبعث على الالم فقال متظاهرا بالسرور : ــ أصل أخيك ولي والله يحب أولياءه •••

وكان فهمي يكابد حرجا وحياء فقال باقتضاب : ــ هذه مسألة قديمة عفاها النسيان ••• فقالت عائشة بلهجة المعتذر :

ــ لم يكن سي فهمي وحده الذي خدع بها ، كلنا خدعنا بها •• فقالت خديجة مدافعة عن نفسها ــ بأقصى ما في وسعها ــ تهمة الغفلة :

ــ على أي حال أنا لم اقتنع لحظة واحدة فيما مضى ،حتى مع اعتقادي ببراءتها ، بأنها جديرة به •• فعاد فهمي يقول متظاهرا بالاستهانة :

ــ هذه مسألة قديمة عفاها النسيان ، انجليزي ••• مصري ••سيان،

دعونا من هذا كله ...

وجد ياسين نفسه تعاود التفكير في « مسألة » مريم .. مريم ؟! .. لم يكن ينظر اليها فيما مضى ــ ان مرت في مجال بصره ــ الا عابرا ، ثم زاده زهدا فيها تعلق فهمي بها، حتى ذاعت فضيحتها في الاسرة .. هناك ثار اهتمامه ، تساءل طويلا : اي فتاة هي ؟ ود لو كان ملأ عينيه منها ، تمنى لو كان سير الفتاة التي استرعت تشوق « انجليزي » .. انجليزي جاء الحي مقاتلا لا مغازلا ، لم يبد سخطه عليها الا مجاراة للحديث كلما تناولها اما في الباطن فقد أطربه غاية الطرب وجود « مفضوحة » جريئة مثلها على كثب منه فلا يفصله عنها الا جدار ، شاع في صدره العريض المكتنز ذاك الطرب البهيمي الذي يدعوه الى الصيد وان وقف ــ اكراما لحزن فهمي الذي يحبه ــ عند حد الشعور واللذة السلبية المجردة ، لم يعد في الحي كله من يستثير اهتمامه كمريم . ــ آن أوان الذهاب . قالت خديجة ذلك وهي تنهض على حين ترامى اليهم صوتا ابراهيم وخليل وهما يتحدثان قادمين من الردهة الخارجية . قام الجميع ، من يتمطى ومن يحبك ملابسه ، الا كمال فقد لزم مجلسه وهو يتطلع الى باب الصالة بحزن وقلب خافق ...

* *

جلس السيد احمد الى مكتبه ، مكبا على دفاتره ، يزاول عمله اليومي الذي يتناسى به ــ ولو الى حين ــ همومه الشخصية والهموم العامة التي تتطاير بها الانباء الدامية . غدا يحب الدكان حبه مجالس الانس والطرب لانه على الحالين يظفر بما ينتزعه من جحيم الفكر ، الا ان جو الدكان حافل بالمساومة والبيع والشراء والربح وغير ذلك من شؤون الحياة العادية ، حياة كل يوم ، فلا تخلو من ان تبعث في نفسه شيئا من الثقة الموحية بامكان عودة كل شيء الى اصله ، الى حالته الاولى من الاستقرار والسلام . السلام؟.. اين ذهب ومتى يأذن بالعودة ؟. حتى في هذا الدكان تجري احاديث الدماء همسا مفجعا ، لم يعد الزبائن يقنعون بالمساومة والشراء فما تألو السنتهم ان تردد الانباء وتندب الاحداث ، فوق زكائب الارز والبن سمع عن معركة بولاق ومذابح اسيوط والجنازات التي تشيع فيها النعوش بالعشرات والشاب الذي انتزع من العدو مدفعا رشاشا اراد ان يدخل به الازهر لولا ان سبقته المنية فانغرست في جسمه عشرات المقذوفات ، هذه الانباء وغيرها مما يصطبغ بلونها القاني تقرع اذنيه بين حين واخر في المكان الذي يلوذ به ناشدا النسيان . ما اتعس الحياة في ظل الموت ، هلا عجلت الثورة بتحقيق غاياتها من قبل أن يمتد اذاها اليه او الى احد من ذويه ! ... انه لا يبخل بمال ولا يضن بعاطفة اما بذل الحياة فأمر اخر ، اي عذاب صبه الله على العباد فهانت النفوس وجرت الدماء !. لم تعد الثورة « فرجة » حماسية ،

انها تهدد أمنه في الذهاب والاياب ، وتتوعد ابنه « العاصي » ، فتر حماسه لها ، لها هي دون غايتها ، يحلم بالاستقلال وبعودة سعد ولكن دون ثورة او دماء او ذعر ، يهتف قلبه مع الهاتفين ويتحمس مع المتحمسين ولكن عقله يقاوم التيار متعلقا بالحياة فمكث وحده في المجرى كأصل شجرة اقتلعت العواصف اغصانها ، لن يوهن شيء وان جل من حبه للحياة : فلتبق له الى اخر العمر ، وليؤمن فهمي ايمانه لتبقى له حياته الى اخر العمر كذلك ، فهمي العاق الذي رمى بنفسه الى التيار بلا حزام نجاة ...

ـ هل السيد احمد موجود ؟

سمع السيد صوت السائل وهو يشعر باندفاع شخص داخل الدكان كأنه مقذوف آدمي فرفع رأسه عن مكتبه فرأى الشيخ متولي عبد الصمد يتوسط المكان رامشا بعينيه الملتهبتين مدققا النظر ـ عبثا ـ صوب المكتب فهش قلبه وابتسمت اساريره ثم هتف بالقادم : ـ تفضل ياشيخ متولي ، حلت البركة ... فلاح الاطمئنان في وجه الشيخ وتقدم يهتز اعلاه ما بين الوراء والامام كأنه راكب جملا ، فمال السيد فوق مكتبه ومد يده حتى التقت بيد الرجل وشد عليها متمتما « الكرسي على يمينك ، تفضل بالجلوس » فأسند الشيخ متولي عصاه الى المكتب وجلس على الكرسي ثم اعتمد بيديه على ركبتيه وهو يقول : ـ الله يحفظك ويصونك ... فقال السيد من قلبه:

ـ ما اطيب دعاءك وما احوجني اليه ..

ثم ملتفتا صوب جميل الحمزاوي الذي كان يزن أرزا لزبون :

ـ لا تنس ان تهيىء لفة سيدنا الشيخ ... فجاء صوت جميل الحمزاوي قائلا : ـ من ذا الذي ينسى سيدنا الشيخ !

فبسط الشيخ راحتيه ورفع رأسه وهو يحرك شفتيه بالدعاء في هينمة لم يسمع منها الا وسوسة متقطعة ، ثم عاد الى وضعه الاول فصمت لحظة ثم قال بلهجة الافتتاح : ـ ابدأ بالصلاة على نور الهدى .

فقال السيد بحرارة : ـ عليه ازكى الصلاة والسلام .

ـ وأثني بالترحم على ابيك طيب الذكر . ـ رحمه الله رحمة واسعة

ـ ثم أسأل الله ان يقر عينيك بأسرتك وذريتك وذرية ذريتك وذرية ذرية ذريتك . ـ آمين . متنهدا : ـ وادعوه ان يعيد الينا افندينا عباس ومحمد فريد وسعد زغلول .. ـ اللهم استجب . ـ وان يخرب بيت الانجليز بما أثموا وبما يأثمون .. ـ سبحان المنتقم الجبار .

عند ذاك تنحنح الشيخ ومسح على وجهه بكفه ثم قال :

ـ اما بعد فقد رأيتك في منامي تلوح لي بيديك فما فتحت عيني حتى صح عزمي على زيارتك ..فابتسم السيد ابتسامة لا تخلو من حزن وقال..

ـ لا اعجب لذلك فاني في مسيس الحاجة الى بركتك ، زادك الله بركة

على بركة •• فمال وجه الشيخ نحو السيد في عطف وتساءل :
ــ أحق ما بلغني عن حادث بوابة الفتوح ؟ فاجاب السيد مبتسما :
ــ نعم ••• من ابلغك يا ترى ؟ ــ كنت مارا بمعصرة حميدو غنيم فاستوقفني وقال لي « ألم يبلغك ما فعل الانجليز بحبيبك السيد احمد وبي ؟ » فاستوضحته منزعجا فقص على العجب العجاب ••• قص على السيد الحادث بتفاصيله ، لم يكن يمل ترديده ، ولعله قصه في الايام القلائل الاخيرة عشرات المرات •
واصغى الشيخ اليه وهو يتلو همسا آيات الكرسي • افزعت يا بني؟ •• كيف كان فزعك •• خبرني •• لا حول ولا قوة الا بالله •• ولكن هل قنعت بالسلامة ؟ •• انسيت أن الفزع لا يمضي الى حال سبيله • صليت طويلا وسألت الله النجاة ! هذا جميل ولكن يلزمك حجاب •••
ــ كيف لا ! ••• يزيدنا بركة يا شيخ متولي • والاولاد وأمهم ، ألم يدركهم الفزع ؟ ــ طبعا ••• قلوب ضعيفة لا عهد لها بالقسوة والارهاب، الحجاب ••• الحجاب •• الحجاب وفيه الشفاء ••
ــ انت الخير والبركة يا شيخ متولي ••• لقد نجاني الله من شر كبير ، ولكن ثمة شر لا يزال يتهددني ويقض مضجعي •
مال وجه الشيخ نحو السيد في عطف مرة اخرى وتساءل :
ــ ماذا بك يا بني عفا الله عنك ؟ فرنا السيد اليه بطرف واجم وغمغم في ضجر : ــ ابني فهمي •• فرفع الشيخ حاجبيه الاشيبين متسائلا او منزعجا ثم قال برجاء : ــ محفوظ باذن الرحمن •• فهز السيد رأسه بأسى وقال :
ــ عقني لاول مرة والامر لله •••
فبسط الشيخ متولي ذراعيه امامه كأنما يتقي بهما البلاء وهتف :
ــ معاذ الله ، فهمي ابني ، وانا اعلم علم اليقين انه طبع على البر •••
فقال السيد احمد متسخطا :
ــ يأبى حضرته الا ان يفعل كما يفعل الشبان في هذه الايام الدامية••
فقال الشيخ في دهش واستنكار :
ــ أنت أب حازم ما في ذلك من شك ، ما كنت اتصور ان ابنا من ابنائك يجرؤ على ان يرد لك امراً •••
حز هذا القول في قلبه حتى ادماه وضاق به صدره ، ثم وجد من نفسه نزوعا الى التهوين من عصيان ابنه ليدفع عن شخصه تهمة الضعف امام الشيخ وامام نفسه معا فقال :
ــ لم يجرؤ على هذا صراحة طبعا ولكني دعوته الى ان يحلف على المصحف بألا يشترك في أي عمل من أعمال الثورة فبكى ، بكى من دون ان يجسر على قول لا ، ما عسى أن أصنع ؟ ••• لا استطيع أن أحبسه

في البيت ولا يسعني ان أراقبه في المدرسة ، وأخاف ان يكون تيار هـذه الايام اقوى من ان يقاومه شاب مثله ، ماذا اصنع ؟ •• أأهدده بالضرب ؟ •• أأضربه ؟ لكن ما عسى ان يجدي التهديد مع شخص لا يبالي تعريض نفسه للموت ! فمسح الشيخ على وجهه وتساءل بقلق : ـ وهل ألقى بنفسه في المظاهرات ؟! فقال السيد وهو يهز منكبيه العريضين :

ـ كلا ولكنه يوزع المنشورات ، لما ضيقت عليه زعم انه يكتفـي بالتوزيع على خاصة اصدقائه •

ـ ماله ولهذه الاعمال ! ••• انه الوديع ابن الوديع ولهذه الاعمـال رجال من صنف اخر ، ألم يعرف ان الانجليز وحوش لا تتطرق الرحمة الى قلوبهم الغليظة ؟ •• وانهم يتغذون صباح مساء بدماء المصريين المساكين ؟• كلمه بالحسنى ، عظه ، بين له النور من الظلام ، قل له انك ابوه وانك تحبه وتخاف عليه ، اما أنا فسأعمل من ناحيتي على اعداد حجاب من نوع خاص وادعو له في صلاتي وخاصة صلاة الفجر ، والله المستعان من قبل ومن بعد••

قال السيد بحزن :

ـ ان انباء القتلى تتواتر كل ساعة معلنة آي التحذير لمن يعتبر فمـا الذي أصاب عقله ؟• لقد ضاع ابن الفولي اللبان في غمضة عين فشهد مأتمه معي وعزى والده المسكين ، كان الشاب يوزع سلاطين اللبن الزبـادي فصادف في طريقه مظاهرة فأغراه القضاء بالاشتراك فيها بلا وعي ، وما هي الا ساعة او نحوها حتى خر صريعا في ساحة الازهر ، لا حول ولا قوة الا بالله •• انا لله وانا اليه راجعون ، لما تأخر عن ميعاد عودته قلق أبوه فمضى الى زبائنه يسأل عنه ، قال له بعضهم انه جاءهم بالزبادي وذهب وقـال اخرون انه لم يمر عليهم كعادته ، حتى بلغ حمروشا بائع الكنافة فوجد عنده الصينية وما تبقى من السلاطين التي لم توزع واخبره الرجل بأنه تركها عنده واشترك في مظاهرة المساء ، فجن جنون المسكين وقصد مـن توه قسـم الجمالية فوجهوه الى قصر العيني وهناك عثر على ابنه في المشرحة ، لقـد علم بالقصة بحذافيرها كما قصها علينا الفولي ونحن في بيته نعزيه ، علـم كيف فقد الشاب وكأن لم يوجد ولمس حزن أبيه المبرح وسمع صـوات أهله ، هلك المسكين فلم يعد سعد ولم يخرج الانجليز ، لو كان حجرا لعقل ولكنه خير ابنائي فلله الحمد والشكر •• فقال الشيخ متولي بصوت أسيف:

ـ أعرف ذلك الشاب المسكين ، انه اكبر ابناء الفولي أليس كذلك ؟ •• كان جده مكاريا وكنت أكتري حماره للذهاب الى سيدي ابي السعود ،ان للفولي أربعة اولاد ولكن الفقيد كان احبهم الى قلبه ••

هنا اشترك جميل الحمزاوي لاول مرة في الحديث قائلا :

ـ أيامنا هذه مجنونة وقد تلفت عقول الناس حتى صغارهم ، بالامس

قال ابني فؤاد لامه انه ود لو يشترك في مظاهرة ! فقال السيد بقلق :
ــ يعملها الصغار ويقع فيها الكبار ! •• ابنك فؤاد صديق ابني كمال وكلاهما في مدرسة واحدة ، الا تحدثه نفسه ••الا تحدثهما نفسهما مرة بأن يسيرا في مظاهرة !•• هه ؟••ما من عجيبة تعد الان عجيبة •• !
فقال الحمزاوي وقد ندم على ما فرط منه :
ــ ليس الى هذا الحد ياسي السيد، على اني أدبته بلا رحمة على تمنياته الساذجة ، ان سي كمال لا يخرج الا مصحوبا بأم حنفي حفظه الله ورعاه
ساد الصمت فلم يعد يسمع في الدكان الا خشخشة الورقة التي يلف فيها الحمزاوي هدية الشيخ متولي عبد الصمد ، ثم تنهد الشيخ وقال :
ــ فهمي ولد عاقل ، لا ينبغي ان يمكن الانجليز من نفسه العزيزة، الانجليز !•• حسبي الله •• ألم نسمع بما فعلوا في العزيزية والبدرشين ••!
كان السيد على حال من القلق لم يجد معها رغبة صادقة في التساؤل ، الا انه لم يتوقع جديدا فوق ما يقرع سمعه هذه الايام ، فاكتفى بأن يرفع حاجبيه متظاهرا بالاهتمام فأنشأ الشيخ يقول :
ــ كنت أول أمس في زيارة الحسيب النسيب شداد بك عبد الحميد بسراية العامرة بالعباسية ، دعاني الى الغداء والعشاء فأتحفته بأحجبة له ولآل بيته ، وهناك حدثني بحديث العزيزية والبدرشين ••
سكت الشيخ قليلا فتساءل السيد احمد : ــ تاجر الاقطان المعروف؟
ــ شداد بك عبد الحميد أكبر تاجر قطن ، لعلك عرفت ابنه عبدا لحميد بك شداد فقد كان يوما على صلة وثيقة بالسيد محمد عفت ؟ ••
فقال السيد ببطء ليملي لنفسه في التذكر : ــ اذكر اني رأيته مرة في مجلس السيد محمد عفت قبل نشوب الحرب ثم سمعت عن ابعاده عن القطر عقب عزل أفندينا ،أما من جديد عنه ••؟ فقال الشيخ متولي بلهجة سريعة عابرة كأنما يضع كلامه بين قوسين • ليعود الى حديثه الاول :
ــ لا يزال مبعدا عن البلاد ، وهو يقيم في بلاد فرنسا ومعه زوجه وأولاده ، لشد ما يخاف شداد بك ان يموت قبل ان يرى ابنه في هذه الدنيا•
وسكت مرة اخرى ، ثم مضى يهز رأسه يمنة ويسرة ويقول بصوت منغوم كأنما ينشد مطلع توشيح نبوي :
ــ بعد انتصاف الليل بساعتين او ثلاثة والناس نيام حاصر البلدتين بضع مئات من الجنود البريطانيين مدججين بالسلاح •••
انتبه السيد انتباهة قاسية • حاصروا البلدتين والناس نيام ؟ •• أليس اولئك المحاصرون من جنس هؤلاء الذين يعسكرون امام البيت ؟ •• بدءوا بالاعتداء علي فأي خطوة تالية يضمرون ؟! ••
ضرب الشيخ على ركبتيه كأنما انشاده بنوع من الايقاع ثم استطرد قائلا:

ــ واقتحموا على العمدتين داريهما فأمروهما بتسليم السلاح ثم مرقوا الى الحريم فنهبوا الحلى وأهانوا النساء وجروهن من شعورهن الى الخارج وهن يولون ويستغثن وما من مغيث ، عطفك اللهم على المستضعفين من عبادك

دار العمدتين ! .. العمدة شخصية حكومية أليس كذلك ؟ .. لست عمدة ولا داري بدار عمدية . ما انا الا رجل كسائر الناس ، ما عسى ان يصنعوا بأمثالنا ؟ ... تصور امينة مجرورة من شعرها ، ايقضي علي بأن اتمنى الجنون ! .. الجنون ؟.. واصل الشيخ حديثه وهو يهز رأسه قائلا:

ــ واجبروا العمدتين على ان يدلوهما على بيوت مشايخ البلدتين واعيانهما ثم اقتحموا البيوت محطمين الابواب ، نهبوا كل ثمين ، اعتدوا على النساء اعتداء اجراميا بعد ان قتلوا اللاتي حاولن الدفاع عن انفسهن ، وضربوا الرجال ضربا مبرحا ، ثم غادرهما بعد أن لم يبقوا فيهما على ثمين لم يسلب او عرض لم يثلم ..

ليذهب كل ثمين الى الجحيم ... « او عرض لم يثلم » ... ايـن رحمة الله ؟ اين انتقامه ؟ .. الطوفان .. نوح .. مصطفى كامل . تصور! كيف يمكن ان تبقى معه بعد ذلك تحت سقف واحد .. ! أي ذنب جنت !. وهو بأي وجه ؟! .. ضرب الشيخ بيده ثلاثا على ركبتيه ثم عـاد الـى الحديث وقد تهدج صوته فصار بالنواح اشبه ، قال :

ــ واضرموا النار في البلدتين مستعينين بما على اسقف الدور مـن حطب وقش وبما صبوا عليها من بترول، استيقظت القرى في فزع رهيب وفر اهلوها عن بيوتهم كالمجانين ،وعلا الصراخ والانين ، وامتدت السنة اللهيب في كل مكان حتى استحالت البلدتان شعلة من النيران . هتف السيد بلا وعي:

ــ يا رب السموات والارض ! فمضى الشيخ قائلا :

ــ وضرب الجنود نطاقا حول البلدتين المشتعلتين من بعيد يتربصون بالاهالي البؤساء الذين انطلقوا هائمين على وجوههم تتبعهم الاغنام والكلاب والقطط يرومون سبيلا للنجاة من النار ، فما أن بلغوا مواقف الجنود حتى انهال هؤلاء على الذكور ضربا وركلا ، ثم حجزوا النساء ليسلبوا حليهـن ويهتكوا اعراضهن ، فاذا قاومت احداهن قتلت ، واذا ندت عن زوج او أب او أخ حركة دفاع رمي بالرصاص ..

ثم التفت الشيخ متولي الى السيد الذاهل وضرب كفا على كف وهو يهتف ... وساقوا بقية الضحايا الى معسكر قريب وهنالك اجبروهم على التوقيع على مكتوب يتضمن اعترافهم بجرائم لم يرتكبوها واقرار بأن ما انزله الانجليز بهم جزاء حق على ما فعلوا ، هذا ما حصل يا سيد احمـد للعزيزية والبدرشين ، هذا مثل من امثلة التنكيل التي نسامها بلا رحمـة ولا شفقة ، اللهم فاشهد ، اللهم فاشهد .. وساد صمت كئيب اليم خلا فيه

كل الى افكاره وتخيلاته حتى قطعه جميل الحمزاوي وهو يهتف متأوها :
ـ ربنا موجود •• فهتف السيد مؤمنا على قوله : ـ نعم ! (ومشيرا الى الجهات الاربع) في كل مكان ••وخاطب الشيخ متولي السيد قائلا :
ـ قل لفهمي : ان الشيخ متولي ينصحه بالابتعاد عن موارد التهلكة، قل له سلم الى الله ربك فهو القادر وحده على اهلاك الانجليز كما اهلك الذين من قبلهم ممن شقوا عصا طاعته ••

ثم مال الشيخ نحو عصاه ليتناولها فأشار السيد الى جميل الحمزاوي فجاءه بالهدية ووضعها في يده ثم ساعده على النهوض • صافح الشيخ الرجلين ومضى وهو يقول : ـ « غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » •• صدق الله العظيم ••

★ ★

عند الغلس ، ونور الصباح يولد رويدا من ظلمة الفجر ، طرقت خادم من السكرية بيت السيد فأخبرت أمينة بان عائشة قد جاءها المخاض• كانت امينة في حجرة الفرن فعهدت بالعمل الى ام حنفي وهرعت الى باب السلم • بدا على ام حنفي الاستياء ربما لاول مرة في تاريخ خدمتها الطويل بهذا البيت ، أما كان يحق لها ان تشهد ولادة عائشة ؟ •• لها كل الحق •• كأمينة سواء بسواء ، فتحت عائشة عينيها في حجرها ، كل اين في هذا البيت له أمان : امينة وام حنفي ، كيف يحال بينها وبين ابنتها في هذه الساعة الرهيبة ! •• هل تذكرين ولادتك ؟ •• وربع الطمبكشية ، كان المعلم في الخارج كعادته وكانت وحيدة بعد منتصف الليل ، وجدت في ام حسنية صديقة وقابلة معا ! •• ترى أين ام حسنية الان ؟ ••• الا زالت على قيد الحياة ؟• ثم جاء حنفي بين تأوهات الالم ، ذهب بين تأوهات الالم ايضا ، وهو في المهد ، لو عاش لكان ابن عشرين الان !• سيدتي الصغيرة تتألم وانا هنا اهيىء الطعام • امتلأ قلب امينة بفرح موصول باشفاق ، هو الاحساس الذي خفق به قلبها اول مرة يوم استقبلت التجربة بنفسها • ها هي عائشة تتأهب لاستقبال اول مولود تستهل به امومتها ، كما استهلت هي امومتها بخديجة ، هكذا تمتد الحياة التي انبثقت منها الى غير نهاية • ومضت الى الاب فزفت اليه البشرى بنبرات رقيقة مهذبة ، مبالغة هذه المرة في حيائها وتهذيبها ان يستشف وراء صوتها رغبتها الحارة في الانطلاق الى ابنتها غير ان السيد تلقى الخبر في هدوء ثم امرها بالذهاب دون ابطاء ! •• راحت ترتدي ملابسها على عجل وقد شعرت بأن المزايا التي تكتسبها امرأة ضعيفة مثلها بانجاب الاطفال خليقة بصنع المعجزات احيانا • وعلم الاخوة بالخبر عند استيقاظهم عقب ذهاب الام بقليل •علت وجوههم ابتسامة وتبادلوا نظرة متسائلة • عائشة ام !• أليس ذلك غريبا ؟• ما وجه الغرابة فيه • كانت

نينة اصغر منها يوم ولدت خديجة. هل ذهبت نينة لتخرج الطفل بيديها ؟. ابتسامتان . هذا نذير لي ، عما قليل تلد بنت الكلب ايضا .. من تعني ؟! زينب . آه لو سمعك بابا . عائشة ام ، وأنا أب . وانا خال وعم ، ستكون انت ايضا عما وخالا يا سي كمال ، يجب اناتخلف اليوم عن المدرسة لاذهب الى آبلا عائشة . جميل جدا ، استأذن بابا ان استطعت على المائدة !... أووه . نحن في حاجة الى مزيد من المواليد لنسد العجز الذي اوقعه الانجليز بنا . لو تخلفت عن المدرسة ما حدث شيء غير عادي ، ثلاثة ارباع التلاميذ مضربون منذ اكثر من شهر . قل هذا لبابا وسيقتنع حتما بحجتك فيضربك بطبق الفول في وجهك . أووه . مولود جديد ، بعد ساعة او ساعتين يصير بابا جدا ونينة جدة ونحن اخوالا ، شيء خطير . كم مولودا يا ترى يرى نور الدنيا في هذه اللحظة ؟ .. وكم انسانا يغيب عنه هذا النور في هذه اللحظة ؟ .. يجب ان نبلغ جدتي . استطيع ان اذهب الى الخرنفش لابلاغها اذا تخلفت عن المدرسة !.. قلنا لك لا شأن لنابمدرستك قل لبابا وسيرحب بفكرتك . أووه . لعل عائشة تتألم الان . مسكينة المحبوبة ، ان الطلق لا يلين للشعر الذهبي والاعين الزرق ربنا يقومها بالسلامة ، عند ذاك نشرب المغات ونشعل الشموع ، ذكر ام انثى ؟ ... ايهما تفضل ؟ .. الذكر طبعا ، ربما بدأت بأنثى كأمها . لم لا تبدأ بذكر كأبيها ؟ .. هاها ، عندما يحين ميعاد انصراف المدرسة يكون الطفل قد خرج فلن اتمكن من مشاهدة خروجه . اتريد ان تراه وهو يخرج ؟. طبعا اجل هذه الرغبة حتى يكون المولود ابنك انت !.. كان كمال اشد الجميع تأثرا بالخبر ، شغل به عقلا وقلبا وخيالا . لولا شعوره برقابة ضابط المدرسة عليه وانه يحصي حركاته وسكناته ليبلغها اول فأول الى ابيه لما كان في وسعه ان يقاوم الاغراء الذي يناديه للذهاب الى السكرية . ومكث في المدرسة جسدا بلا روح ، هامت روحه في السكرية تتساءل عن القادم الجديد الذي ترقب مقدمه اشهرا وهو يمني النفس بالاطلاع على سره المكنون . شهد مرة ولادة قطة وهو دون السادسة اذ استرعت انتباهه بموائها الحاد فهرع اليها تحت عرش اللبلاب فوق السطح فوجدها تتلوى الما وقد جحظت عيناها ، ثم رأى جسمها يتصدع عن فلذة ملتهبة فتراجع متقززا وهو يصرخ باعلى صوته . طافت هذه الذكرى بمخيلته والحت عليه حتى عاوده تقززه القديم وانتشرت حوله مضجرة مقلقة كالضباب . غير انه لم يستسلم للخوف ، ابى ان يتصور ان ثمة علاقة بين القطةوعائشة الا ما يكون بين الحيوان والانسان وهو ـ في ايمانه ـ ابعد مما بين الارض والسماء ، ولكن ماذا يحدث في السكرية اذن ؟ .. ماذا طرأ على عائشة من غرائب الامور ؟ ... ثمة اسئلة حيارى لا تنعم بجواب .. ما

كاد يغادر المدرسة عصرا حتى اندفع يقطع الطريق عدوا الى السكرية .
دخل فناء بيت آل شوكت وهو يلهث ، ومضى الى باب الحريم فلاحت منه التفاتة الى المنظرة فما يدري الا وعيناه تلتقيان بعيني والده الذي جلس شابكا راحتيه على مقبض عصاه القائمة بين رجليه . تسمر في مكانه جامدا محملقا كأنما نوم تنويما مغناطيسيا ، لم يطرف ولم يبد حراكا ، ركبه شعور بالذنب لا يدريه فلبث يترقب انقضاض العقاب عليه وبرودة الخوف تسري في اطرافه حتى اشتبك السيد احمد في حديث مع شخص يجلس الى جانبه فالتفت نحوه فاسترد كمال عينيه وهو يزدرد ريقه ، عند ذاك لمح في داخل المنظرة ابراهيم شوكت وياسين وفهمي قبل ان يفر الى الداخل ، رقي في السلم وثبا حتى انتهى الى دور عائشة فدفع بابا مواربا ودخل فالتقى بخليل شوكت زوج أخته واقفا في الصالة ، ورأى باب حجرة النوم مغلقا وقد ترامى من ورائه الى سمعه اصوات تتحادث ميز منها أمه وحرم المرحوم شوكت وصوتا ثالثا لا يعرفه ، سلم على زوج اخته ثم سأله وهو يتطلع اليه بطرف باسم : ــ آبلا عائشة ولدت ؟
فرفع الرجل سبابته الى شفتيه محذرا وهو يقول : ــ هس ...
ادرك كمال أنه لم يرحب بالسؤال ، بل انه لم يرحب بمقدمه كسالف عادته فخجل وعانى قلقا لم يدر له سببا ، وأراد ان يتقدم من الباب المغلق ولكن صوت خليل اوقفه وهو يهتف باقتضاب ينم عن الضجر : ــ لا ...
فتحول نحوه متسائلا ولكن الرجل قال له في عجلة ولهوجة :
ــ انزل يا شاطر والعب تحت ..
انكسرت نفس الغلام فتقهقر متثاقلا بائخا وقد عز عليه ان يجزي على عذاب انتظاره طوال اليوم هذا الجزاء البخس ، ولما بلغ عتبة الصالة صك اذنيه صوت غريب آت من الحجرة المغلقة ، بدا رفيعا حادا عاليا ، ثم غلظ وترهل حتى بح ، وانتهى بحشرجة طويلة قاسية ، ثم غاب لحظة مقدارها تردد النفس المقطوع ، ثم بعث آهة عميقة شاكية ، بدا له غريبا اول الامر كأنه لم يعرف صاحبه ، ولكن نبرة من نبراته المعذبة تميزت وسط الحدة والغلظة والحشرجة فوشت بهوية مصدره ، صوت عائشة بلا ريب ، او هو عائشة مذابة منصهرة ، ثم تأكد من ظنه عند تردد الآهة العميقة الشاكية ، فارتعشت جوارحه ، وخيل اليه انه يراها تتلوى على حال من الالم دعت الى مخيلته بصورة القطة القديمة ، وعطف رأسه صوب خليل فألفاه يقبض راحته ويبسطها وهو يتمتم « يا لطيف يا رب » فخيل اليه مرة اخرى ان جسم عائشة ينقبض وينبسط مثل راحة الرجل ، لم يعد يملك من نفسه شيئا فركض الى الخارج مفحما في البكاء . وعندما انتهى الى بـاب الحريم استرعى سمعه وقع اقدام هابطة وراءه فرفع رأسه فرأى الجارية سويدان

نازلة على عجل فمرت به دون ان تنتبه اليه حتى وقفت على عتبة باب الحريم ثم نادت سيدها ابراهيم فجاء الرجل مسرعا فقالت له « الحمد لله يا سيدي » ، لم تزد على ذلك شيئا ولم تنتظر حتى تسمع ما يقول ولكنها دارت على عقبيها وهرعت الى السلم فرقيت فيه دون تردد ، رجع ابراهيم الى المنظرة متهلل الوجه فلبث كمال وحده لا يدري ما يفعل ولكن لم تمض دقيقة حتى عاد ابراهيم يتبعه السيد احمد فياسين ثم فهمي فتنحى الغلام جانبا حتى مروا ثم صعد في اعقابهم خافق القلب ، وقابل خليل الآتين امام مدخل الشقة فسمع اباه وهو يقول له :

ـ الحمد لله على السلامة .. فغمغم خليل في وجوم :

ـ الحمد لله على كافة الاحوال .. فسأله السيد احمد باهتمام :

ـ مالك .. ؟ فقال بصوت منخفض : ـ اني ذاهب لاستدعاء الطبيب فتساءل السيد قلقا : ـ المولود .. ؟ فأجابه وهو يهز رأسه سلبا :

ـ عائشة !.. ليست على ما يرام ، سأجيء بالطبيب حالا ..

وذهب مخلفا وراءه وجوما وقلقا واضحين ،ثم دعاهم ابراهيم شوكت الى حجرة الاستقبال فمضوا اليها صامتين . وجاءت حرم المرحوم شوكت بعد قليل فسلمت وهي تبتسم لتدخل الطمأنينة الى قلوبهم ثم جلست وهي تقول:

ـ قاست المسكينة طويلا حتى انهكت قواها ، ولكنها حال عارضة وستزول وشيكا ، اني واثقة مما أقول ولكن ابني بدا اليوم خوافا على غير عادته ، على انه لا ضرر البتة من مجيء الطبيب (ثم مناجية نفسها بصوت خفيض) الطبيب ربنا وربنا هو الطبيب ...

لم يعد السيد يطيق ما يلتزم عادة من وقار وبرود امام ابنائه فسألها في قلق غير خاف : ـ ماذا بها ؟ . الا استطيع أن اراها ؟ فابتسمت المرأة وقالت:

ـ ستراها عما قريب وهي بخير وعافية ، الحق على ابني المجنون هو الذي أزعجكم بغير موجب ...

كان وراء الصدر العريض القوي والوقار الحازم المهيب قلب يتعذب اشد العذاب ، كان وراء العينين الواجمتين الرزينتين دمع متجمد .. ماذا دهم الصغيرة ؟ .. الطبيب ؟!، لماذا تحول العجوز بيني وبينها ؟!، ابتسامة رقيقة او كلمة حنونة مني انا ، مني أنا خاصة ، حقيقة بأن تخفف من آلامها زواج وزوج والم ، لم تذق في بيتي مرارة الالم قط ، العزيزة الجميلة الصغيرة رحمتك اللهم ، فسد طعم الحياة ، انه ليفسد لاهون اذى يتهددهم فهمي ... أراه واجما متألما .. هل ادرك معنى الالم ؟ ... من اين له أن يعرف قلب الاب ! ، العجوز مطمئنة وواثقة مما تقول ، ابنها ازعجنا بغير موجب ، اللهم استجب ، انت أعلم بحالي بان تنجيها كما نجيتني من الانجليز قلبي لا يطيق هذا العذاب ، عند الله الرحمة ، وهو قادر على حفظ ابنائي

من كل سوء ، لا طعم للحياة بغير ذلك ، لا طعم للسرور والطرب واللهو اذا انغرست في جنبي شوكة حادة ، قلبي يدعو لهم بالسلامة ، لانه قلب أب ولانه لا تطيب المسرات الا لخلي ، هل القى سمار الليل بقلب سعيد ؟ ... أحب اذا ضحكت ان تنطلق الضحكة من اعماق قلبي صافية ، القلب القلق كالوتر المختل ، حسبي فهمي ، انه يلح علي كوجع الاسنان ، ما أبغض الالم دنيا بلا ألم ، لا شيء على الله بكثير ، دنيا بلا الم ولو تكون قصيرة ، دنيا تقر فيها عيني بهم جميعاء هنالك اضحك وأغني والهو ، يا ارحم الراحمين، عائشة يا ارحم الراحمين! بعد غيبة ثلث ساعة عاد خليل مصحوبا بالطبيب فدخلا الحجرة من فورهما ثم اغلق الباب وراءها ،وعلم السيد بمقدمهما فقام واتجه الى باب حجرة الاستقبال ووقف على العتبة قليلا وهو يمد البصر الى الباب المغلق ثم عاد الى مجلسه فجلس . قالت حرم المرحوم شوكت :

ـ لتعلمن صدق رأيي حالما يتكلم الطبيب ...

فغمغم السيد وهو يرفع رأسه الى اعلى : ـ عنده العفو ..

عما قليل يعرف الحقيقة فيمرق من ضباب الشك مهما تكن العواقب. ان قلبه يخفق خفقانا سريعا متواصلا ، فليصبر ، لم يبق الا قليل .ان ايمانه بالله قوي عميق لا يتزعزع فليسلم اليه امره ، سيخرج الطبيب طال مكثه في الداخل ام قصر وعند ذاك يسأله عما وراءه ، الطبيب ؟.. لم يفكر في ذلك من قبل ، طبيب عند نفساء ! .. مع الرحم وجها لوجه . أليس كذلك؟ ولكنه طبيب !.. ما الحيلة ؟! المهم ان ربنا يأخذ بيدها فلنسأله السلامة ، وجد السيد الى قلقه حياء وامتعاضا . واستمر الفحص زهاء ثلث ساعة ثم فتح الباب فنهض السيد ومضى من توه الى الصالة ،وتبعه الابناء حتى تجمعوا حول الطبيب . كان الطبيب من معارف السيد فصافحه باسما ثم قال :

ـ بخير وعافية ..ثم في شيء من الجد :

ـ جاءوا بي للوالدة ولكني وجدت ان التي في حاجة الى العناية حقا هي المولودة .. تنفس السيد بارتياح لاول مرة منذ حوالي الساعة فتساءل ووجهه يشرق بابتسامة لطيفة : ـ أأطمئن اذن على عهدتك ؟

فقال الطبيب وهو يتظاهر بالدهش : ـ نعم،ولكن ألا تهمك حفيدتك؟

فقال السيد باسما : ـ لا عهد لي بعد بواجبات الجد ... وتساءل خليل : ـ أليس ثمة أمل في حياتها ؟ فقال الرجل وهو يزوي ما بين حاجبيه:

ـ الاعمار بيد الله ، ولكني وجدت قلبها ضعيفا ، من المحتمل ان تموت الليلة ، واذا مرت الليلة بسلام جازت الخطر الماثل ولكني لا أظن انها تعمر طويلا ، في تقديري انه لا يمكن ان يمتد بها العمر الى ما بعد العشرين ، ولكن من يعلم؟... الاعمار بيد الله وحده ..

ولما ذهب الطبيب الى طيته التفت خليل نحو أمه وعلى شفتيه ابتسامة

خفيفة تنم عن أسف وقال: ـ كان في نيتي أن اسميها نعيمة باسمك .. فقالت المرأة وهي تلوح بيدها مؤنبة : ـ الطبيب نفسه قال: ان الاعمار بيد الله افتكون انت اضعف ايمانا منه ، سمها نعيمة ، يجب ان تسميها نعيمة اكراما لـي ، وسيكون عمرها باذن الله مديداً كعمر جدتها !

كان السيد يحادث نفسه : دعا الاحمق الطبيب ليطلع على زوجه بغير موجب ، بغير موجب ! ... يا له من احمق . ولم يستطع ان يكتم غيظه فقال وهو يداريه بلهجة رقيقة:

ـ حقا الخوف يفقد الرجال حسن الروية ،اما كان يجمل بك ان تفكر قليلا قبل ان تبادر الى احضار رجل غريب ليرى زوجك بملء عينيه ؟!

لم يجب خليل . ولكنه نظر فيمن حوله وقال بجد :

ـ لا يجوز ان تعلم عائشة بماقال الطبيب ...

★ ★

ماذا في الطريق ... ؟!

تساءل السيد احمد وهو ينهض في عجلة من وراء مكتبه ، فذهب صوب باب الدكان يتبعه جميل الحمزاوي وبعض الزبائن . لم يكن طريق النحاسين طريقا هادئا ، كان أبعد ما يكون عن الهدوء ، صوته الجهير لا يخفت من الفجر الى ما قبيل الفجر، حناجره عالية هتافة بنداءات الباعة ومساومات الشارين ودعوات المجذوبين ودعابات السابلة ، يتحادثون وكأنهم يخطبون ، حتى اخص الشؤون تترامى الى جوانبه وتطير حتى مآذنه ، الى ضوضاء شاملة تصدر عن صليل سوارس حينا وطقطقة الكارو حينا اخر ، لم يكن طريقا هادئا بحال ولكن تعالت ضجة فجائية وفدت من بعيد في بادىء الامر كهدير الامواج ثم غلظت واشتدت حتى صارت بعزيف الريح اشبه وقد لفت الحي كله قريبه وبعيده ، بدت غريبة شاذة حتى في هذا الطريق الصاخب ، ظنها السيد احمد مظاهرة ثائرة كما ينبغي لرجل عاش في تلك الايام ولكن جلجلت في طياتها زغاريد مبشرة بالافراح، فمضى الرجل متسائلا الى الباب ، ولم يكد يبلغه حتى اصطدم بشيخ الحارة الذي اقبل مندفعا وهو يهتف بوجه طفر منه البشر : ـ ابلغك الخبر؟

فقال السيد وعيناه تلمعان تفاؤلا من قبل آن يسمع شيئا :

ـ كلا ، ماذا وراءك ؟ قال الرجل بحماس : ـ سعد باشا افرج عنه.

فما تمالك السيد ان تساءل صائحا : ـ حقا ؟؟ . فقال شيخ الحارة بيقين : ـ اذاع اللنبي الساعة بيانا بهذه البشرى ..

في اللحظة التالية كانا يتعانقان ، واشتد التأثر بالسيد احمد فاغرورقت عيناه ثم قال وهو يضحك مداراة لتأثره : ـ كان العهد به دائما ان يذيع الانذارات لا البشريات فماذا غيره ابن الهرمة ؟! .. فقال شيخ الحارة : ـ

سبحان الذي لا يتغير •• وصافح السيد ثم غادر الدكان وهو يصيح « الله أكبر ، الله أكبر ، النصر للمؤمنين ! » •

وقف السيد على عتبة الدكان مقلبا عينيه في انحاء الطريق بقلب ارتد الى براءة الطفولة وبهجتها ، طالع اثر الخبر السعيد في كل مكان •• في الدكاكين التي سدت مداخلها بأصحابها وزبائنها وهم يتبادلون التهاني ، في النوافذ التي تزاحمت فيها الاحداث وانطلقت الزغاريد من وراء خصاصها، في المظاهرات التي تألفت ارتجالا ما بين النحاسين والصاغة وبيت القاضي هاتفة قلوبها لسعد ، وسعد وسعد ثم سعد ، في المآذن التي اعتلى المؤذنون شرفاتها يشكرون ويدعون ويهتفون ، في العربات الكارو التي تجمعت بالعشرات حاملة المئات من النسوة الملتفعات بالملاءات اللف وهن يرقصن ويرددن الاغاني الوطنية ، لم يعد يرى الا آدميين او بالاحرى هاتفين ، اختفت الارض وتوارت الجدران وتعالى الهتاف لسعد في كل مكان كأنما الجو قد انقلب اسطوانة هائلة تدور بلا توقف مرددة اسمه • وجرى نبأ فوق الرؤوس الحاشدة أن الانجليز يجمعون معسكراتهم القائمة عند مفترق الطرق تأهبا للرحيل الى العباسية فاستمر الحماس وحمست النشوات لم ير السيد احمد منظرا كهذا من قبل فراح يقلب عينين متألقتين وفؤاده يخفق وثبا وباطنه يردد مع النسوة الراقصات « يا حسين ••حملة وانشالت!» حتى ادنى جميل الحمزاوي رأسه من اذنه قائلا: ــ الدكاكين توزع الشربات وترفع الاعلام • فقال له بحماس : ــ أصنع كما يصنعون واكثر ، ارني همتك •• ! ثم بصوت متهدج : ــ علق صورة سعد تحت البسملة ••

فنظر اليه جميل الحمزاوي كالمتردد ثم قال محذرا : ــ هذا موضع ترى فيه الصورة من الخارج الا يحسن بنا ان نتريث حتى تستتب الامور ؟

فقال السيد باستهانة : ــ مضى عهد الخوف والدماء الى غير رجعة، ألا ترى أن المظاهرات تمر تحت أعين الانجليز دون أن يتعرضوا لها بسوء ؟ علق الصورة وتوكل على الله •

غار عهد الخوف والدماء ، اليس كذلك ؟• سعد حر طليق ولعله في طريقه الان الى اوروبا • لم يعد بيننا وبين الاستقلال الا خطوة او كلمة مظاهرات الزغاريد بدلا من مظاهرات الرصاص ، الاحياء منا قوم سعداء، اخترقوا النيران وخرجوا سالمين ، رحمة الله على الشهداء ، فهمي ؟!• نجا من خطر لم يقدره ، نجا والحمد والشكر لله ، اجل نجا فهمي، ماذا تنتظر ؟• صل الى الله ربك • لما اجتمعت الاسرة مساء وشت الحناجر المبحوحة بيوم مليء بالهتاف • كان مساء سعيدا ، نمت عن سعادته الاعين والثغور والحركة والكلام حتى امينة نهل قلبها من نخب السعادة المبذول مشاركة للابناء واستبشارا بعودة السلام وفرحا بالافراج عن سعد •

ـ من المشربية رأيت ما لم تر عين من قبل ، هل قامت القيامة ونصب الميزان ؟!. وأولئك النساء هل جنن !؟. لا يزال صدى ترديدهن يرن في اذني « يا حسين .. حملة وانشالت » .

قال ياسين ضاحكا وهو يعبث بشعر كمال : ـ تحية شيعوا بها الانجليز الراحلين كما يشيع الضيف الثقيل بكسر القلة وراءه ..!

نظر اليه كما من دون ان ينبس على حين عادت امينة تتساءل :

ـ أرضي الله عنا اخيرا ..؟

فأجابها ياسين قائلا : ـ بلا ريب (ثم مخاطبا فهمي) ماذا تظن ؟

قال فهمي الذي بدا في فرح الاطفال : ـ لو لم يسلم الانجليز بمطالبنا لما أفرجوا عن سعد ، سوف يسافر الى اوروبا ثم يعود بالاستقلال هذا ما يؤكده الجميع ، ومهما يكن من أمر فسيبقى يوم ٧ ابريل سنة ١٩١٩ رمزا لانتصار الثورة . فعاد ياسين يقول : ـ يا له من يوم !.اشترك الموظفون في المظاهرات علانية ، ما كنت اظن أن بي القدرة العظيمة على السير المتواصل والهتاف العالي .!

فضحك فهمي قائلا : ـ وددت لو رأيتك وانت تهتف متحمسا ، ياسين يتظاهر ويتحمس ويهتف !.. يا له من منظر فريد !

يوم عجيب في الايام حقا ، اكتسحه سيله الزاخر فحمله بين امواجه العاتية كوريقة لا وزن لها حتى طار بها كل مطار ، لا يكاد يصدق انه ثاب الى رشده وانه آوى الى برج المراقبة الهادىء يشاهد من منظاره الحوادث في هدوء وعدم اكتراث !. جعل يستحضر الحال التي تلبسته في المظاهرة على ضوء ملاحظة فهمي حتى قال بغرابة : ـ الواحد منا ينسى نفسه وهو بين الناس نسيانا غريبا فكأنه يبعث شخصا جديدا ..

سأله فهمي باهتمام : ـ اكنت تشعر بحماس صادق ؟ ـ هتفت لسعد حتى بح صوتي واغرورقت عيناي مرة او مرتين. ـ كيف اشتركت في المظاهرة؟

ـ بلغنا نبأ الافراج عن سعد ونحن في المدرسة ففرحت فرحا عظيما حقا ، اكنت تتوقع غير هذا ؟. واذا بالمدرسين يقترحون الانضمام الى المظاهرة الكبيرة في الخارج فلم أجد من نفسي ميلا الى مجاراتهم وفكرت في التسلل الى البيت ، غير اني اضطررت الى السير معهم حتى تسنح لي فرصة للزيغان ، ماذا حصل بعد ذلك ؟. وجدت نفسي في بحر متلاطم من الناس وجو مكهرب من الحماس فما ملكت ان ذهلت عن نفسي واندمجت في التيار كأشد ما يكون المرء ـ صدقني في هذا ـ حماسا وأملا ..!

فهز فهمي رأسه وهو يغمغم : ـ شيء عجيب ..

ضحك ياسين عاليا ثم قال : ـ احسبتني فاقد الوطنية ؟! المسألة اني لا احب الزياط والعنف ، ولا اجد حرجا في التوفيق بين حب الوطن

وحب السلامة •• ــ واذا شق التوفيق بينهما •• ؟

فقال مبتسما ولكن دون تردد : ــ قدمت حب السلامة !• نفسي اولا •• الا يستطيع الوطن أن يسعد الا بالتهام حياتي ؟!• يفتح الله، انا لا افرط في حياتي ولكنني سأحب الوطن ما دمت « حيا » ••

قالت امينة : ــ هذا عين العقل (ثم متطلعة الى فهمي) هل عند سيدي رأي آخر ••؟ قال فهمي بهدوء : ــ كلا طبعا ،انه عين العقل كما قلت•

ولم يرض كمال ان يبقى بمعزل عن الحديث لا سيما انه كان مقتنعا بانه لعب في يومه دورا خطيرا حقا فقال :

ــ واضربنا نحن كذلك ولكن الناظر قال لنا : اننا ما زلنا صغارا •• واننا اذا خرجنا من المدرسة داستنا الاقدام ، ثم سمح لنا بالتظاهر في فناء المدرسة فتجمعنا فيه وهتفنا (هنا هتف عاليا : يحيا سعد) طويلا جدا ، ثم لم نعد الى الفصول لأن المدرسين كانوا قد غادروا المدرسة منضمين الى المتظاهرين في الخارج ••!

رماه ياسين بنظرة ساخرة وقال : ــ ولكن اصدقاءك ذهبوا ! ــ في داهية

ندت عنه هذه العبارة بلا تفكير وهي ابعد ما تكون عن حقيقة شعوره لأن الحال تقتضيها من ناحية ، ولانه أراد ان يداري بها هزيمته امام سخرية ياسين من ناحية اخرى، اما قلبه فكان يكابد دهشة وغمزا، لم ينسى كيف وقف لدى عودته من المدرسة في المكان المهجور الذي كان يحتله المعسكر يقلب عينية في ارجائه في صمت اليم وعيناه مغرورقتان • سوف يمضي وقت طويل قبل ان ينسى مجلس الشاي على طوار سبيل بين القصرين ، والاعجاب الذي كان يحظى به غناؤه • والمودة التي كان يلقاها من الجنود خاصة جوليون ، والصداقة التي ربطته بالسادة المتفوقين الذين يعلون في اعتقاده على سائر البشر !• قالت امينة :

ــ سعد باشا رجل سعيد الحظ ، الدنيا كلها تهتف باسمه ، ولا أفندينا في زمانه ، رجل مؤمن بلا ريب لان الله لا ينصر الا المؤمنين • نصره على الانجليز الذين غلبوا زبلن نفسه ، أي فوز وراء هذا ؟!•• لقد ولد الرجل في ليلة القدر • سألها فهمي باسما : ــ أتحبينه •• ــ احبه مادمت تحبه•

بسط فهمي راحتيه ورفع حاجبيه مستنكرا ثم قال : ــ لا يعني هذا شيئا ••! فتنهدت فيما يشبه الارتباك ثم قالت :

ــ كنت كلما بلغني نبأ اسيف تقطع قلبي حزنا وقلت لنفسي « ترى أكان يقع هذا لو لم يقم سعد قومته ؟! » على أن رجلا يجمع الكل على حبه لا بد أن الله يحبه كذلك ••

ثم متنهدة بصوت مسموع : ــ أسفي على الهالكين ، كم اما تبكي الآن بحرارة ؟•• كم أما لم تزدها فرحة اليوم الا حسرة على حسرة ••

قال لها فهمي وهو يغمز ياسين بطرفه : ـ الام الوطنية حقا تزغرد لاستشهاد ابنها ..

فوضعت اصبعها في أذنيها وهتفت : ـ اللهم اني اشهدك على ما يقول سيدي الصغير !.. أم تزغرد لاستشهاد ابنها !.. أين ؟! على هذه الأرض ولا تحت الأرض في عالم الشياطين !..

قهقه فهمي عاليا ومضى يفكر مليا ، ثم قال وعيناه تلمعان بابتسامة :

ـ نينة ..! سابوح لك بسر خطير آن له ان يذاع ، لقد اشتركت في المظاهرات وقابلت الموت وجها لوجه ..!

سهمت اليه غير مصدقة ثم قالت وعلى شفتيها ابتسامة باهتة :

ـ انت ؟!.. محال .. انك من لحمي ودمي وقلبك من قلبي . لست كالاخرين .. فقال بيقين وهو يبتسم اليها : ـ أقسم لك على ذلك بالله العظيم .. اختفت الابتسامة واتسعت العينان في ذهـول . ثم رددت بصرها بينه وبين ياسين الذي حدجه بدوره بنظرة متسائلة ، ثم غمغمت وهي تزدرد ريقها : ـ رباه!. كيف صدق أذني! ثم بعد أن هزت راسها في حيرة أليمة: ـ أنت !. كان يتوقع انزعاجها ولكن ليس ـ بالنظر لمجيء اعترافه بعد زوال الخطر ـ الى الحد الذي بدا عليها ، فبادرها قائلا : ـ ذاك تاريخ مضى وانتهى ، لا داعي الآن للانزعاج ..

فقالت باصرار ونرفزة : ـ صه ، أنت لا تحب امك ، سامحك الله ...

فضحك فهمي في شيء من الارتباك . قال كمال لامه وهو يبتسـم بمكر : ـ اتذكرين يوم دكان البسبوسة وضرب النار ؟.. رأيته وانـا عائد في الطريق المقفر فنبه علي بألا اخبر احدا بأني رأيته .. ثم نظر الى فهمي وسأله باهتمام وتشوق : ـ قص علينا يا سي فهمي مـا لقيـت في المظاهرات ، كيف كانت تقع المعارك ؟ وكيف يصرع القتلى ؟ الم تطلق النار قط ..؟ فتدخل ياسين في الحديث قائلا للام : ـ ذاك تاريخ مضى وانتهى ، اشكر الله على نجاته ، هذا أولى بك من الانزعاج .

سألته بجفاء : ـ اكنت تعلم بذلك ..؟

فبادرها قائلا : ـ ولا وحياة تربة امي (ثم مستدركا) وديني وايماني وربي .. ثم نهض من مجلسه ، منتقلا الى جوارها فوضع يده على منكبها وقال برقة : ـ أتطمئنين حين كان ينبغي الانزعاج وتنزعجين حين ينبغـي الاطمئنان ! وحدي الله ، زال الخطر وعاد السلام ، ها هو فهمي بـيـن يديك .. (وضاحكا) ابتداء من الغد سنقطع القاهرة طولا وعرضـا ، ليلا ونهارا ، بلا خوف او قلق .. وقال فهمي جادا : ـ نينة ، رجائي اليك الا تكدري صفونا بحزن لا موجب له .تنهدت ..فتحت فاها لتتكلم ولكنها حركت شفتيها دون ان تنبس . ابتسمت ابتسامة شاحبة لتعلن استجابتهـا

لرجائه ، ثم نكست وجهها لتخفي عينيها المغرورقتين ...

★ ★

بات فهمي تلك الليلة وهو عاقد العزم على استرضاء ابيه مهما كلفه الامر وفي صباح اليوم التالي صمم على تنفيذ عزمه دون تردد . ومع انه لم يضمر لابيه ـ طول فترة العصيان ـ اي احساس بالغضب او التحدي فان ضميره كابد شعورا بالذنب ناء به قلبه الحساس المشرب بالطاعةوالولاء حقا لم يتحده بلسانه ولكنه خالف ارادته بالفعل ، بل خالفها مرارا وتكرارا فضلا عن امتناعه عن القسم يوم دعاه اليه في حجرته واعلانه بالبكاء تمسكه برأيه رغم ارادة الرجل ، كل اولئك احله ـ على حسن نيته ـ موقفا عاقا شريرا لا يرضاه لنفسه ولا يحتمله . ولم يكن سعى الى استرضائه من قبل خشية ان ينكأ الجرح دون ان يسعه ان يلأمه ، لأنه قدر ان يدعوه السيد الى القسم تكفيرا عما بدر منه فيضطر مرة اخرى الى الامتناع مؤكدا عصيانه من حيث اراد ان يعتذر عنه . الحال اليوم غيرها بالامس . انتشى قلبه بالسرور والظفر . الوطن كله ثمل بخمر السعادة والفوز ، فلا يطيق ان يقوم بينه وبين ابيه حجاب من سوء الظن ولو لحظة واحدة ، الاسترضاء فالعفو الذي يهفو اليه ، ثم السعادة الحقة التي لا تشوبها شائبة . دخل حجرة ابيه قبيل ميعاد الفطور بربع ساعة فوجده يطوي سجادة الصلاة مغمغما بالدعاء ، لمحه الرجل بلا ريب ولكنه تجاهله فمضى الى الكنبة دون ان يلتفت صوبه وجلس . عند ذاك تراءى فهمي بموقفه عند الباب ملفوفا بالارتباك والحياء فحدجه بنظرة جافة مستنكرة كأنما تتساءل « من هذا الواقف وماذا جاء به ؟! » فتغلب فهمي على ارتباكه وتقدم من مجلس ابيه في خطى خفيفة حتى انحنى على يده فتناولها ولثمها باحترام لا حد له ، وصمت مليا ثم قال بصوت لا يكاد يسمع : ـ صباح الخير يا بابا .

واصل التحديق فيه صامتا كأنه لم يسمع تحيته حتى غض الشاب بصره ارتباكا وغمغم في نبرات نمت عن اليأس : ـ أني آسف ..

صمت واصرار على الصمت .. ـ آسف جدا ، لم أذق طعم السكينة منذ ... وجد ان الكلام كان يستدرجه الى ذكر ما ود من كل قلبه ان يتحاشاه فأمسك، وما يدري الا والسيد يسأله بجفاء وتبرم :ـ وماذا تريد؟

رحب باقلاعه عن الصمت ايما ترحيب فتنهد بارتياح كانه لم يستشعر جفاءه وقال برجاء : أريد انتكون راضيا عني .. قال السيد بضجر : ـ غر من وجهي . فقال فهمي وهو يشعر بقبضة اليأس تتراخى قليلا عن عنقه :

ـ عندما انال رضاك .. تساءل السيد متحولا فجأة الى التهكم : ـ رضاي ! .. لم لا ؟.. هل فعلت لا سمح الله ما يستوجب السخط ؟!

رحب بالتهكم اضعاف ترحيبه بالاقلاع عن الصمت ، التهكم عند

أبيه اول خطوة نحو الصفح •غضبه الحقيقي صفع او لكم او ركل أو سب او كل اولئك جميعا ، التهكم أول بشير بالتحول ، انتهز الفرصة وتكلم ، تكلم كما ينبغي لرجل قد يعمل في المحاماة غدا او بعد غد ، هذه فرصتك ! وتكلم ، الاستجابة لنداء الوطن لا تعد عصيانا لارادة حضرتك ، لم افعل شيئا يحسب بين الاعمال الوطنية حقا ، توزيع منشورات على الاصدقاء•• وما توزيع المنشورات على الاصدقاء ؟ اين انا ممن بذلوا الحياة رخيصة؟ فهمت من كلام حضرتك أنك تخاف على حياتي لا لانك تستنكر حقا الواجبات الوطنية ، فقمت بشيء من الواجب وانا مطمئن الى اني — في الواقع — لا اخالف لك ارادة ، الخ الخ ••

— علم الله انه لم يخطر ببالي قط ان اعصي لك امرا •

قال السيد بحدة : — كلام فارغ ، تتظاهر بالطاعة الان لأنه لم يعد ثمة داع الى العصيان ، لم لم تطلب رضاي قبل اليوم ••؟

قال فهمي بحزن : — كانت الدنيا في دم وكرب وكنت من الحزن في شغل شاغل • — شغلك عن طلب رضاي ؟!

قال بحرارة : — شغلني عن نفسي لا عن طلب رضاك ••

ثم بصوت منخفض : — لن استطيع ان أعيش بغير رضاك ••

قطب السيد ، لا غضبا كما تظاهر ، ولكن ليخفي الاثر اللطيف الذي بعثه كلام الشاب في نفسه • هكذا يكون الكلام والا فلا ، يجيد صناعة الكلام حقا ، هذه هي البلاغة أليس كذلك ؟ سأعيد أقواله على مسامع الاصدقاء الليلة لامتحن أثره في نفوسهم ، ترى ما عسى ان يقولوا ؟ ، الولد سر ابيه •• هذا ما ينبغي انيقال • قديما قيل لي انني لو اتممت مراحل التعليم لكنت ابلغ المحامين ، اني ابلغ الناس بغير التعليم والمحاماة ، الحديث اليومي كالقانون سواء بسواء في الكشف عن موهبة البلاغة ، كم من محام او موظف كبير ينكمش في المجلس امامي كالعصفور ! ولا فهمي نفسه بمستطيع ان يسد مكاني يوما ما ، سيقولون لي وهم يضحكون حقا الولد سر ابيه ، امتناعه عن القسم لا يزال يحز في نفسي ، لكن اليس من دواعي الفخر لي انه اشترك فيالثورة ولو من بعيد ؟ ليته اشترك في الاعمال الكبيرة ما دام الله قد كتب له العمر حتى اليوم • سأقول من الان فصاعدا انه خاض غمار الثورة، اتظنون انهاكتفى بتوزيع المنشورات كما كان يؤكد لي ؟• لقد رمى ابن الكلب بنفسه في التيار الدامي ، يا سيد احمد ينبغي ان نشهد لابنك بالوطنية والشجاعة •• لم نشأ ان نقول لك هذا في ابان الخطر أما وقد استقر السلام فلا حرج من قوله •• اتنكر انت شعورك الوطني ؟•• الم يثن عليك جامعو التبرعات من مندوبي الوفد •• والله لو كنت شابا لفعلت ما لم يفعله ابنك ولكنه عصاني ! عصى لسانك واطاع

قلبك ! الان ما عسى ان افعل ؟ يريد قلبي ان يهبه العفو ولكني اخاف ان يستهين بمخالفتي !

ــ وانا لن استطيع ان انسى آنك خالفت ارادتي ، احسبت ان الخطبة الفارغة التي صبحتني بها على غيار الريق يمكن ان تؤثر في ؟!

هم فهمي بالكلام ولكن امه دخلت في تلك اللحظة وهي تقول :

ــ الفطور جاهز يا سيدي •• وقد دهشت لوجود فهمي على غير انتظار فرددت عينيها بينهما ، وتلكأت قليلا لعلها تسمع شيئا مما يدور ولكنها رأت في الصمت ــ الذي خافت ان يكون مجيئها باعثه ــ ما دعاها الى مغادرة الحجرة على عجل • نهض السيد للانتقال الى حجرة المائدة فتنحى فهمي جانبا وقد علاه حزن شديد لم يخف أثره عن عيني الرجل فتردد لحظات ثم قال اخيرا بصوت سلمي :

ــ أريد مستقبلا الا تصر على حماقتك وانت تخاطبني ••

وسار فتبعه الشاب ممتنا باسم الاسارير ، ثم سمعه يقول متهكما وهما يقطعان الصالة : ــ أظنك حاسب نفسك على رأس الذين افرجوا عن سعد ! • غادر فهمي البيت قرير العين فمضى من توه الى الازهر حيث اجتمع بزملائه اعضاء لجنة الطلبة العليا للنظر في تنظيم المظاهرات السلمية الكبرى التي سمحت السلطة بقيامها للاعراب عن ابتهاج الشعب والتي تقرر ان يشترك فيها ممثلو الامة بكافة طبقاتها • دام الاجتماع وقتا غير قصير ، ثم تفرق المجتمعون كل الى وجهته فركب الشاب الى ميدان المحطة بعد ان عرف الدور الذي عهد به اليه وهو الاشراف على تجمعات طلبة المدارس الثانوية • لئن كان بعد ما يعهد عادة اليه ــ بالقياس الى غيره ــ من الادوار الثانوية الا انه كان يقوم به بدقة وعناية وغبطة كأنما هو اسعد ما يحظى به في حياته غير انه لم يكن يخلو في جهاده من تعاسة خفية لم يعلم بها احد سواه ، منشؤها ما اقتنع به من انه دون الكثيرين من اقرانه جرأة واقداما • أجل لم ينكص عن مظاهرة من المظاهرات التي دعت اليها اللجنة ولكنه كان يفقد جنانه عند ظهور اللوريات المحملة بالجنود وخاصة عند انطلاق الرصاص وتساقط الضحايا •• فمرة لاذ بمقهى وهو يرتعد ، ومرة اخرى جرى على وجهه شوطا بعيدا حتى وجد نفسه في قرافة المجاورين ،اين هو من حامل اللواء في مظاهرة بولاق ، او مذبحة بولاق كما غدت تسمى، الذي استشهد ويداه قابضتان على اللواء وقدماه ثابتتان في الطليعة وحنجرته تهتف بالثبات؟!•اين هو من أقران ذلك الشهيد الذين تبادروا الى اللواء ليرفعوه فسقطوا فوقه وقد تقلدت صدورهم نياشين الرصاص ؟! اين هو من ذلك الشهيد الذي انتزع المدفع الرشاش من ايدي الجنود في الازهر أين هو من هؤلاء جميعا وغيرهم ممن تطير الانباء بآي بطولتهم

واستشهادهم ؟!• كانت اعمال البطولة تتراءى لعينيه رائعة باهرة تخطف الابصار ، وطالما انصت الى نداء باطني يهيب به الى الاقدام والتأسي بالابطال ، ولكن كانت تخذله أعصابه في اللحظة الحاسمة فما أن تنحسر موجة المعركة حتى يجد نفسه في المؤخرة ان لم يكن مختبئا او هاربا ، ثم يعود الى التصميم على مضاعفة البذل والكفاح والتماسك بضمير معذب وقلب حائر ورغبة في الكمال لا تحد، متعزيا احيانا بقوله «ما انا الا محارب أعزل ، ولئن فاتني الرائع من اعمال البطولة فحسبي انني لم اتردد مرة واحدة عن الالقاء بنفسي في اتون المعركة » • في طريقه الى ميدان المحطة جعل يراقب الطرق والمركبات ، كان الجميع يتوجهون ــ فيما بدا ــ وجهته طلبة وعمالا وموظفين واهلين راكبين وراجلين ، تظلهم جميعا طمأنينة خليقة بقوم ذاهبين الى مظاهرة سلمية مصرح بها ، انه مثلهم ، يشعر بشعورهم ، لا كعهده القديم حين كان يلتمس طريقه الى موعد المظاهرة بنفس ثائرة وقلب قلق تثقل ضرباته كلما تخايل لعينيه شبح الهلاك • ذاك عهد مضى ، اليوم يمضي مطمئن الجانب باسم الثغر •• انتهى الجهاد ؟ خرج منه سليما لا عليه ولا له • ولا له ؟! ليته عانى شيئا مما تعرض له الآلاف كالسجن او الضرب او اصابة غير مميتة! اليس من المحزن ان تكون السلامة المطلقة جزءا من اوتي قلبا كقلبه وحماسا كحماسه ! كطالب مجتهد لم يتح له ان يظفر بأية شهادة •• اتنكر سرورك بالنجاة ؟ •• اكنت تفضل أن تكون من الشهداء ؟ كلا ، اكنت تتمنى لو كنت من المصابين غير الهالكين ؟ نعم كان ذلك في وسعك فلم نكصت ؟لم تكن تضمن ان تقع الاصابة غير مميتة أو ان يكون السجن عابرا ، أنت لا تكره النجاة الراهنة ولكنك تتمنى لو اصابك شيء دون ان يغير من هذه النهاية الجميلة ، ينبغي اذا جاهدت مرة اخرى ان اطلع على الغيب ! أمضي الى المظاهرة السلمية بقلب مطمئن وضمير قلق ــ بلغ الميدان زهاء الواحدة بعد الظهر ، قبل الميعاد المحدد لقيام المظاهرة بساعتين فاتخذ مكانه في الموضع الذي حدد له !•• باب المحطة • لم يكن بالميدان الا المشرفون وجماعات متفرقة من شتى الطوائف ،وكان الجو معتدلا الا ان شمس ابريل صبت على من تعرض لاشعتها لظى ، ولم يطل الانتظار فأخذت الجموع تتوافد على الميدان من مختلف الطرق المفضية اليه ، ومضت كل جماعة صوب علمها ، بذلك شرع فهمي في عمله بلذة وفخار ، بالرغم من بساطة العمل الذي لم يعد ان يكون ترتيبا للمدارس كل وراء علمها الا انه ملأ نفسه زهوا وخيلاء سيما وانه كان يشرف على طلبة كثيرين ممن يكبرونه سنا حتى بدت التسعة عشر عاما التي يجرها وراءه ذيلا قصيرا في زحمة التلاميذ الذين ناهز كثير منهم الثانية والعشرين والرابعة والعشرين وفتلت شواربهم ولاحظ أعينا ترمقه باهتمام وشفاها

تتهامس عليه كما سمع اسمه ــ مقرونا بصفته الشعبية ــ يجري على بعض الالسن « فهمي احمد عبد الجواد مندوب اللجنة العليا » فحرك اوتار قلبه حتى اطبق شفتيه دون ان تند عنهما بسمة حياء او ارتباك من « مهابته » اجل ينبغي ان يحافظ على منظر مندوب اللجنة العليا على الجد والصرامة الخليقين بالرعيل الاول من شباب المجاهدين كي ينفسح المجال لاخيلة المتطلعين لحدس ما يخفى وراءه من أعمال البطولة والكفاح ، فلتتحقق تلك الاعمال الخارقة ــ التي عجز عن تحقيقها في الواقع ــ في أخيلتهم . لن تفتر له رغبة في المزيد منها وان وخز قلبه احساسه الحاد بالحقيقة العارية . موزع منشورات وجندي من جنود المؤخرة ! هذا هو بلا زيادة . اليوم يوكل به قيادة المدارس الثانوية فيواجه زعامة كبيرة ، ترى هل يقدر الاخرون عمله اكثر مما يقدره هو ؟! لشد ما يحيونه بالاحترام والمحبة لم يعقد اجتماع الا وكان له فيه رأي مسموع ، والخطابة ؟.. ليس من الضروري ان تكون خطيبا .. أليس كذلك ؟ ليس محالا ان تكون عظيما وانت غير خطيب ولكن اي خسارة ستمنى بها يوم تمثل اللجنة العليا بين يدي الزعيم فيستبق الخطباء وتلوذ انت بالصمت . كلا لن الوذ بالصمت . سوف اتكلم . سأطلق لقلبي العنان أجاد ام لم يجد ، متى تقف بين يدي سعد ؟ متى تراه لأول مرة فتملأ منه عينيك ؟ ان قلبي يخفق وعيناي تحنان للدموع ، سيكون يوما عظيما ستخرج مصر كلها لاستقباله ، لن يكون يومنا هذا الى ذلك اليوم الا كالقطرة الى البحر ، رباه !.. امتلأ الميدان امتلأت الشوارع المفضية اليه ، عباس نوبار الفجالة ، لم تسبق كهذه مظاهرة، مائة الف ، طرابيش عمائم ، طرابيش عمائم ، طلبة .. عمال .. موظفون .. الشيوخ والقساوسة ، القضاة .. من كان يتصور هذا ، لا يبالون الشمس .. هذه مصر ، لم لم أدع بابا ؟ صدق ياسين .. الواحد منا ينسى بين الناس نفسه ، يعلو على نفسه، اين همومي الشخصية ؟.. لا شيء ، لشد ما يخفق قلبي ، سأتحدث عن هذا طويلا الليلة وما بعدها . ترى هل ترتعد نينة مرة اخرى ؟ منظر جليل تخشع له القلوب وتطمئن ، اريد ان المس أثره في وجوه الشياطين ! ها هي ثكناتهم تشرف على الميدان ، الراية اللعينة ترفرف هناك رؤوس في النوافذ .. فيم تتهامس ؟! الديدبان تمثال لا يرى شيئا ، لم تقض رشاشاتكم على الثورة ، افقهوا هذا ، سترون عما قريب سعد في هذا الميدان عائدا مظفرا تنفونه بالسلاح ونعيده بغير سلاح،سوف ترون ، سوف ترون قبل الجلاء . تحرك الموكب العظيم فتدفعت موجاته تباعا مرددة الهتافات الوطنية ، بدت مصر مظاهرة واحدة . بل رجلا واحدا بل هتافا واحدا تتابعت طوابير الطوائف طويلا ، طويلا جدا ، حتى خيل اليه ان الطلائع ستشارف عابدين قبل ان يتزحزح هو وجماعته عن موضعهم

امام باب المحطة ، اول مظاهرة تسير دون ان تقطع المدافع الرشاشة الطريق عليها ، لا رصاص من ناحية ولا زلط من الناحية الاخرى ، وافتر ثغره عن ابتسامة . رأى الجماعة التي تعسكر امامه مباشرة تتحرك فدار على عقبيه كي يواجه مظاهرته « الخاصة » ورفع يديه فسرت في الصفوف حركة تأهب وتوثب ، ثم هتف بأعلى صوته وهو يسير مقهقرا . واصل مهمة القيادة والهتاف حتى مدخل شارع نوبار ثم تخلى عن الثانية لغيره ممن احاطوا به مترصدين دورهم بأفواه قلقة متحركة كأنما قد جاءها المخاض والطلق فلا تستريح حتى تقذف بهتافاتها ، دار على عقبيه مرة اخرى سائرا بوجهه ، يشرئب بعنقه تارة ليشاهد ما تقدم من جسم المظاهرة التي لم يعد يرى لها اولا ويتلفت يمنة ويسرة تارة اخرى ليرى من اكتظت بهم الارصفة والنوافذ والشرفات والاسطح من جموع المشاهدين الذين جعلوا يرددون الهتافات . امتلأت نفسه بمنظر الالوف الحاشدة قوة الى قوة وطمأنينة على طمأنينة ، كأنها دروع منصوبة حواليه ، قوة متماسكة لا ينفذ منها الرصاص ، ان قوات البوليس تتعهد النظام بعد ان اعياها الطعان والهجوم ان منظر هؤلاء الرجال الذاهبين الجائين على صهوات جيادهم كأنهم حراس تابعون للمظاهرة قائمون على خدمتها، لأبلغ دليل على انتصار الثورة ، الحكمدار ؟! .. اليس هذا هو رسل بك . بلى هو انه يعرفه حق المعرفة ، وهذا وكيل الحكمدار يخب وراءه ملقيا على الافق نظرة جامدة مترفعة كانما تحتج احتجاجا صامتا على السلام الذي احتضن المظاهرة ، ما اسمه ؟ هل يمكن أن ينسى الاسم الذي ملأ الاسماع في الايام السود الدامية ؟! اوله جيم اليس كذلك ؟ جا .. جو .. جي .. يأبى ان يستجيب الى الذاكرة ، جوليون ! أوه كيف تسلل هذا الاسم البغيض الى وعيه ؟! هوى عليه كالتراب فأطفأ حماسه ، كيف لنا ان نلبي نداء الحماس والظفر ما دام القلب ميتا ! قلب ميت ؟! لم يكن ميتا منذ دقيقة ، لا تستسلم للحزن لا تدع قلبك يبتعد عن المظاهرة ، الم تعاهد نفسك على النسيان ؟ بل انك نسيت بالفعل ، مريم .. من هي ؟! ذلك التاريخ القديم ؟! نحن نعيش للمستقبل لا للماضي .. جيز .. مستر جيز .. مستر جيز .. هذا هو اسم وكيل الحكمدار لعنة الله عليه ، عد الى الهتاف كي تنفض عن نفسك هذا الغبار الطارىء . مضت « مظاهرته » تقترب رويدا من حديقة الازبكية التي لاحت اشجارها الباسقة فوق الاعلام المنتشرة بطول الطريق على حين بدا ميدان الاوبرا من بعيد رؤوسا متلاصقة كانها تنبت من جسد واحد ملأ الارض طولا وعرضا . كان يهتف بقوة وحماس والجمهور يردد هتافه بصوت ملأ الجو كهزيم الرعد . ولما شارفوا سور الحديقة دوت — على حين بغتة — فرقعة حادة فشلت حنجرته وتلفت فيما حواليه متسائلا

في انزعاج ، صوت معهود كثيرا ما صك اذنيه في الشهر المنصرم وكثيرا ما تردد صداه في ذاكرته في هدأة الليل بيد انه لم يستطع ان يألفه فما يكاد يدوي حتى يخطف دمه ويوقف قلبه عن الخفقان •• ـ رصاص •• ؟! ـ غير معقول ، الم يصرحوا بالمظاهرة ؟•• ـ اسقطت من حسابك الغدر ؟ ـ ولكن لا أرى جنودا •• ؟! ـ حديقة الازبكية معسكر هائل مكتظ بهم •
ـ لعلها فرقعة عجلة سيارة •• ـ لعلها •!

أرهف اذنيه لما يدور حوله من دون ان يثوب الى السكينة وما هي الا لحظات حتى دوت فرقعة ثانية •• آه •• لم يعد ثمة شك ، رصاصة كسابقتها ، أين يا ترى استقرت ؟ اليس يوم سلام ؟! شعر بحركة اضطراب تسري بين المتظاهرين وافدة من الامام كالموجة الثقيلة التي تدفعها الى الشاطىء باخرة تمخر وسط النهر ، ثم تراجع الالوف وانتشروا باعثين في كل ناحية دفعات جامحة جنونية من الاضطراب والارتباك والارتطام ، تعلوها صيحات مفزعة من الغضب والخوف ، وسرعان ما انتثرت الصفوف المتناسقة وانهد البنيان المشيد • تلاحقت جملة من الطلقات الحادة فتعالى صراخ الغضب وأنين الالم • ماج بحر الخلق وهاج وتدافعت موجاته الى جميع المنافذ لا تبقى على شيء في طريقها ولا تذر • اهرب • ما من الهرب بد ، ان لم يقتلك الرصاص قتلتك الاذرع والاقدام •هم بالهرب او بالتراجع او حتى التحول عن موقفه ولكنه لم يفعل شيئا ، ما وقوفك وقد تشتت الجمع ؟! في خلاء انت ، اهرب • صدرت عن ذراعيه وساقيه حركة بطيئة وانية متراخية • ما أشد الضوضاء ، ولكن بم علا صراخها ؟ هل تذكر ؟ ما أسرع ما تفلت منك الذكريات • ماذا تريد ؟ ان تهتف ؟ اي هتاف ؟ او هو نداء فحسب •• من ؟ ما ؟ في باطنك يتكلم ، هل تسمع ؟ هل ترى ؟ ولكن أين ؟ لا شيء ، لا شيء ، ظلام في ظلام ، حركة لطيفة تطرد بانتظام كدقات الساعة ينساب معها القلب •• تصاحبها وشوشة ، باب الحديقة •• أليس كذلك ؟ يتحرك حركة تموجية سائلة ، يذوب رويدا ، الشجرة السامقة ترقص في هوادة ، السماء •• السماء ؟ منبسطة عالية • لا شيء الا السماء هادئة باسمة يقطر منها السلام ••

★ ★

سمع السيد أحمد عبد الجواد وقع أقدام على مدخل الدكان فرفع راسه عن مكتبه فرأى ثلاثة شبان يتقدمون نحوه تعلوهم سيماء الجد والرزانة حتى وقفوا لصق مكتبه وهم يقولون ـ السلام عليكم ورحمة الله

فنهض السيد قائلا بأدبه المعهود : ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (ثم مشيرا الى الكرسي) تفضلوا ••

ولكنهم لم يلبوا الاشارة شاكرين وقال اوسطهم : ـ حضرتك السيد

احمد عبد الجواد ؟ فقال السيد باسما وان لاح في عينيه التساؤل :
ـ نعم يا سيدي .. ماذا يريدون يا ترى ؟ ألشراء مستبعد .. ما للشراء والمشية العسكرية التي جاءوا عليها ! ما للشراء واللهجة الجدية التي يتكلمون بها ! ثم ان الساعة جاوزت السابعة مساء . الا يرون الحمزاوي وهو يرفع الزكائب الى الرفوف ايذانا باغلاق الدكان ؟ أيكون من جامعي التبرعات ؛ لكن سعد قد أفرج عنه وانتهت الثورة ، وانا لم أعد صالحا الآن الا للسهرة ! يا هؤلاء اعلموا اني لم اغسل رأسي ووجهي بالكولونيا وامشط شعري وشاربي وأحبك جبتي وقفطاني كي ألقى وجوهكم ! ماذا تريدون ؟ غير انه خيل أليه وهو يرنو الى محدثه ان وجهه ليس غريبا عليه. رآه من قبل ؟ أين ؟ متى ؟ تذكر ، من المؤكد انه لا يراه لأول مرة ، آه .. قال باسما وقد شاع الارتياح في وجهه :
ـ اليس حضرتك الشاب النبيل الذي تقدم لانقاذنا في الوقت المناسب يوم حمل الناس علينا في مسجد الحسين رضي الله عنه ؟
فقال الشاب بصوت خفيض : ـ بلى يا سيدي ..
صدق ظني ، يقول البلهاء ان الخمر تضعف الذاكرة ؟ لكن ما بالهم ينظرون الي هكذا ؟ انظر ، انظر ! هذه النظرات لا تنبيء عن خير ، اللهم اجعله خيرا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : قلبي ينقبض لامر ما جاءوا لامر يتعلق بـ .. ـ فهمي ؟! .. جئتم تريدونه .. لعلكم !؟..
نكس الشاب عينيه ثم قال بصوت متهدج : ـ مهمتنا شاقة يا سيدي ولكنها فرض واجب، ربنا يلهمك الصبر !. مال السيد فجأةالى الامام معتمدا على حافة المكتب وهتف : ـ الصبر ؟. علام !. فهمي ؟! ..
قال الشاب بحزن بالغ : ـ يؤسفنا ان ننعي اليك أخانا المجاهد فهمي أحمد ..
صاح بلهجة منكرة وان لاحت في عينيه نظرة قاطعة بالتصديق واليأس
ـ فهمي ؟.. ـ استشهد في مظاهرة اليوم .. وقال الذي الى يمينه : ـ انتقل الى جوار الابرار وطنيا نبيلا وشهيداً كريما ..
تلقى كلماتهم بأذن أصمها الشقاء على حين ختم الصمت شفتيه واسترسلت عيناه في نظرة شاردة غائبة . مضت هنيهة خيم الصمت فيها عليهم أجمعين حتى جميل الحمزاوي تسمر تحت الرفوف ذاهلا يمد الى الرجل بصرا ملؤه الجزع ، أخيرا عاد الشاب يغمغم :
ـ لشد ما أحزننا فقده ولكن ليس لنا الا أن نتلقى قضاء الله بصبر المؤمنين ، وانك لمن المؤمنين يا سيدي ..
انهم يعزونك . لا يعلم هذا الشاب انك اول من يحسن القاء التعازي في مثل هذا الموقف ! .. ماذا تعني هي للقلب المصاب ؟ لا شيء ! من اين

للكلام ان يطفيء النار ؟مهلا •• الم تخطر الرزية بقلبك قبل انيتكلمقائلهم؟ بلى •• تخايل لعيني شبح الموت ، الان والموت حقيقة تلقى الى سماعكتأبى ان تصدق ، او تخونك شجاعتك فلا تريد ان تصدق ، كيف اصدق انفهمي مات حقا ، كيف تصدق ان فهمي الذي كان يطلب رضاك من ساعاتفتثاقلت عنه • فهمي الذي تركنا هذا الصباح ممتلئا صحة وعافية واملا وسرورا ، مات •• مات ! لن أراه بعد اليوم لا في البيت ولا في اي مكان من ظهر الارض ؟•• كيف يكونالبيت من غيره ؟ كيف أكون ابا بعده ؟ أين تذهب الآمال معقودة عليه ؟ لم يعد ثمة أمل الا في الصبر •• الصبر ؟ آه •• هل تشعر بوخز الالم الحاد ؟ هذا هو الالم حقا •• كنت تخدع احيانا فتزعم انك متألم ، كلا ، لم تتألم قبل اليوم ، هذا هو الالم حقا ••

ـ سيدي ، شد حيلك وسلم امرك الى الله •• رفع السيد رأسه الى الشاب .ثم قال بصوت مريض : ـ ظننت عهد القتل قد انتهى ••فقالالشاب بنبرات غاضبة :كانتمظاهرةاليوم مظاهرة سلمية ، وقد أذنتبها السلطات فاشترك فيها صفوة الرجال من شتى الهيئات ، وسارت اول الامر في امان حتى بلغ منتصفها حديقة الازبكية . وما ندري الا والرصاص ينهال عليناmن وراء السور بلا سبب . لم يتعرض احد للجنود لا بخير ولا بشر حتىالهتاف بالانجليزية امتنعنا عنه تفاديا من الاستفزاز • ولكن مسهم جنون القتل فجأة فعمدوا الى بنادقهم واطلقوا النار • وقد انعقد الاجماع على توجيه احتجاج شديد الى دار الحماية ، بل قيل : ان اللنبي سيعلن أسفه عما بدر من الجنود •• قال السيد بنفس اللهجة المريضة : ـ ولكنه لن يرد حياةالى ميت ••• ـ واأسفاه •• قال السيد بتفجع : ـ لم يشترك في المظاهرات الخطرة • هذه أول مظاهرة ينضم اليها ! ••• تبادل الشبان نظرة ذات معنى فلم ينبس احدهم بكلمة •• وكأنما ضاق السيد بالحصار المضروب حوله فقال وهو يزفر : ـ الامر لصاحب الامر ، أين أجده الان ؟ قال الشاب :

ـ في قصر العيني « ثم وهو يشير الى السيد متمهلا لما رآه يتعجل الذهاب » ستشيع جنازته مع ثلاثة عشر شهيدا من أخواتنا في تمام الساعة الثالثة من مساء الغد •••

هتف السيد في جزع : ـ الا يترك لي تشييع جنازته من بيته ! •••

فقال الشاب بقوة : ـ بل تشييع جنازته مع اخوانهفياحتفالشعبي •

ثم برجاء : ـ القصر محاصر الان بقوات من البوليس ، ولا بأس من الانتظار ما دمنانحرصعلى تمكين أهالي الشهداء من توديعهم قبل تشييع الجنازة ، لا يليق ان يشيعفهميفيجنازة عادية كمن قضوا في بيوتهم ••

ثم مد له يده مودعا وهو يقول : ـ اصبر وما صبرك الا بالله•

وصافحه الاخران مكررين له العزاء ، ثم ذهبوا جميعا •• أسند رأسه

الى راحته وهو يغمض عينيه فجاءه صوت جميل الحمزاوي وهو يعـزيه بنبرات باكية ولكنه بدا ضيق الصدر بالتعزية ، ولم يعد يحتمل البقاء فزايل موضعه يسير بخطى بطيئة ثقيلة حتى غادر الدكان ، ينبغي ان يخرج مـن حيرته ، فانه لا يدري حتى كيف يحزن ، يود لو يخلو الى نفسه ولكن اين؟ سينقلب البيت جحيما بعد دقيقة او دقيقتين ، وسيلحق به الاصدقاء فـلا يدعون له فرصـة للتفكير متى يتأمـل خسارة التي منـي بها متى يتهيأ له ان يغيب فيها عن الدنيـا جميعـا ؟ يبدو هذا بعيدا .. ولكنـه آت لا ريب فيه ، وهذا قصارى مايجد من عزاء في راهنه .. اجل سيأتي وقت يخلو فيه الى نفسه ويفرغ الى حزنه بكل كيانه ، هنالك ينعم النظر فـي موقفه على ضوء الماضي والحاضر والمستقبل ، اطوار حياته كلها من طفولته وصباه الى ريق شبابه ،ما اثار من آمال وما خلف من ذكريات مطلقا لدموعه العنان حتى يستنفدها عن اخرها ، حقا ان امامه فسحة من الوقت يحسـد عليها فلا داعي للجزع ، انظر الى ذكرى الملاحاة التي نشبت بينهما عقـب صلاة الجمعة او ذكرى ما دار بينهما هذا الصباح من استعطاف وعتاب ،كم يستغرقان من وقته تأملا وتذكرا وشجنا ؟ كم يستهلكان من قلبـه ؟ كـم يهيجان دموعه ؟ .. كيف يجزع والايام تدخر له كل هذه السعادة ؟ رفع رأسه المثقل بالفكر فلاحت لعينيه المظلمتين مشربيات البيت فذكر أمينـة لاول مرة حتى أوشكت ان تخونه قدماه .. ما عسى ان يقول لها ؟ كيـف تتلقى الخبر ؟ .. الضعيفة الرقيقة التي تبكي لمصرع عصفور ! ... اتذكر كيف هملت دموعها لمقتل ابن الفولي اللبان ؟! ماذا تصنع لمقتل فهمي ؟ .. مقتل فهمي !.. أهذه هي نهايتك حقا يا بني ؟ ... يا بني العزيز التعيس ! .. أمينة .. ابننا قتل ،فهمي قتل .. يا له .. أتأمر بمنع الصوات كمـا أمرت بمنع الزغاريد من قبل ؟ ... ام تصوت بنفسك ؟ ... ام تدعـو النائحات ؟! .. لعلها تتوسط الان مجلس القهوة بين ياسين وكمال متسائلة عما اخر فهمي ، سوف يتأخر طويلا ، لن تريه ابدا .. ولا جثته ، ولا نعشه، يا للقسوة ، سأراه انا في القصر اما انت فلن تريه ، لن اسمح بهذا .. قسوة ام رحمة ؟ ما الفائدة؟ .. وجد نفسه أمام الباب فامتدت يده الى المطرقة ثم تذكر ان المفتاح في جيبه فأخرجه وفتح الباب ثم دخل .. ترامى عند ذاك الى سمعه صوت كمال وهو يغني بعذوبة :

زوروني كل سنة مرة   حرام الهجـر بالمـرة

تمـت

أوليست ياسين .. ولكن بأي وجه تلوم ياسين وقد خانها من هو أقرب منه اليها ؟.. فأيّ عطفٍ هذا ؟! بل أيّ رياءٍ وأي كذب !

لذلك برمت بالعطف، وزكرت به الاساءة للاحسان، فامتلأت حنقاً وامتعاضاً ولكنها طوتهما في الاعماق ان تظهر بمظهر الكاره لسعادة اختها أو تعرض نفسها - هكذا اصور لها سوء ظنها - لشماتة الشامتين، على أنه لم يكن لها محيد عن كتمان عواطفها لأن الكتمان في هذه الأسرة - خاصة فيما يتعلق بالعواطف - عادة متأصلة وضرورة أخلاقية طبعت عليه في ظل الارهاب الأبوي، وبين الحنق والامتعاض من ناحية والكتمان والتظاهر بالرضى من ناحية أخرى لاقت من حياتها عذاباً متصلاً وجهداً مطرداً. وابوها ؟!...

ماذا عدل به عن رأيه القديم ؟!.. أهانت عليه بعد اعزاز ؟!.. هل نفد صبره في انتظار زواجها فقرر التضحية بها وتركها للاقدار ؟! لشد ما تعجب لتخليهم عنها كأنها شيء لا يكون، نسيت في ثورتها مواقفهم السابقة في الدفاع عنها فلم تذكر إلا (خيانتهم) الأخيرة. على ان غضبتها العامة هذه لم تكن شيئاً بالقياس الى ما تجمع في صدرها نحو عائشة من مشاعر الغيرة والحنق.